رحلة الخلافة العباسية 2

العباسيون الضعفاء

ABBASID CALIPHATE

الخلافة العباسية تحت السيطرة العسكرية والبويهية





رحلة الخلافة العباسية (٢)

العباسيون الضعفاء

الخلافة العباسية تحت السيطرة العسكرية والبويهية

محمد إلهامي



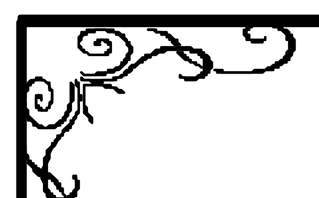
بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب

إلهامي ، محمد
العباسيون الضعفاء: الخلافة العباسية تحت السيطرة العسكرية والبويهية
تأليف/محمد إلهامي . ط١. - القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٣
(٦٤٨ ص)، ٢٤ سم (رحلة الخلافة العباسية ج٢) تدمك: ٦-٨٩٤-٤٤١ - ٩٧٧ -٩٧٨
١ - العباسيون
أ. العنوان ٩٥٣,٠٨٦

رقم الإيداع: ٢١٦٩٢/٢٠١٣م

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة
الإدارة: ١٠ ش أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط
ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول:٠١١٢١٢٠٢٤٧٢
مكتبة اقرأ — الأزهر: ش ابن البيطار خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤٢١٦٧ محمول: ٠١١١٠٥٠٣٣٦٧
مكتبة اقرأ — جامعة القاهرة: ٤ ش حلمى بين السرايات مطلع كوبرى ثروت
ت: ٣٧٦٠٤٨٩٦ محمول: ٠١١١٠٥٠٣٣٦٨
www.Iqraakotob.com
E-mail:iqraakotob@yahoo.com



رحلة الخلافة العباسية

(١)

العباسيون الأقوياء

رحلة العباسيين منذ بداية الثورة حتى نهاية عصرهم الذهبي

(٢)

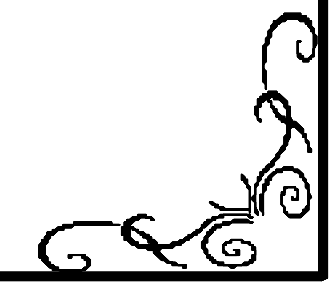
العباسيون الضعفاء

الخلافة العباسية تحت السيطرة العسكرية والبويهية

(٣)

آخر أيام العباسيين

الخلافة العباسية منذ سيطرة السلاجقة حتى سقوط بغداد



لمحة

قارئ التاريخ هو أولى الناس بالعظة والاعتبار..

فهو يقرأ في كل سطر سيرة قوم.. قد ماتوا..

فهو يعلم أنهم الآن بين يدي ربهم.. يُحاسَبون على أعمالهم..

حتى لو كانوا ملوكا في هذه الدنيا وعاشوا فيها أحقابا..

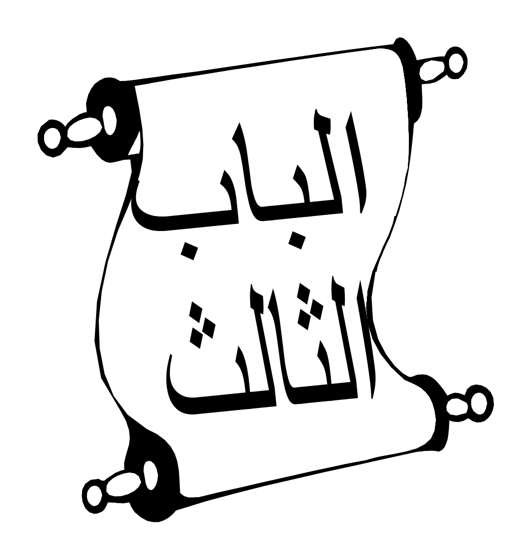
فهاهم الآن تركوا كل شيء..

وواجهوا أعمالهم..

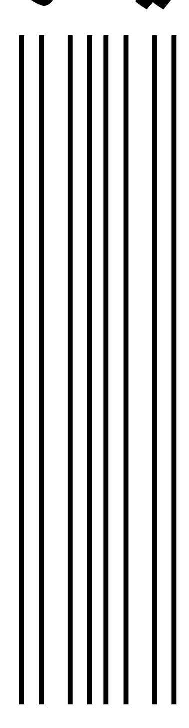
أعمالهم جعلتهم الآن في الجنة..

أو النار!

محمد إلهامي



عصر سيطرة الترك



الباب الثالث: عصر سيطرة الترك

قال ابن خلدون:

«ربما يحدث في الدولة إذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصارا وشيعة من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة فيتخذهم جندا يكون أصبر على الحرب، وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف، ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره»[1].

***

ساهمت كثير من العوامل في انتقال الخلافة العباسية إلى هذا الطور الجديد: عصر سيطرة الترك!

إلا أن عامليْن رئيسين صنعا الفارق الكبير، الأول: طبيعة الخلفاء، والثاني: طبيعة الأجناد..

فطبقة الخلفاء نشأوا في الدعة والترف والرفاه على عكس ما كان من حال الخلفاء الأوائل الذين كانوا رجال دعوة قبل أن يكونوا مؤسسي الدولة، وحرص كل منهم على صناعة ابنه – ولي العهد – على عينه حتى نشأوا رجالا قادرين على سياسة الدولة وإدارتها.

وأما طبقة الأجناد ورجال الدولة فقد صاروا من الترك، وهم «بدو العجم» حسبما وصفهم الجاحظ، فما أبعد ما بينهم وبين الفرس ذوي الحضارة العريقة والأصول المدنية الضاربة في أعماق التاريخ، فهم قوم أشد خشونة وأبعد عن فهم طبيعة وتكوين حضارة كبرى، كما أن ارتباطهم بالعباسيين بدأ بعلاقة السادة والأجناد، بعكس ما كان بينهم وبين الفرس وهي علاقة أنصار الدعوة ثم رجال الدولة.

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ١٦٩.

لكل هذا سرعان ما اختلت العلاقة بين الخلفاء والأتراك، ودخلت الدولة في مرحلة الحكم العسكري –وهي مرحلة كارثية لكل الدول عبر التاريخ- ولم يعتدل الأمر إلا حين ظهر من بين البيت العباسي خليفة قائد قوي يقود الجيوش بنفسه، فاستطاع أن يعدل الميزان لفترة هو وابنه وحفيده ثم أورثوا الحكم خليفة ضعيفا صغيرا فعاد الاختلال إلى الدولة حتى انهارت تماما، وظل الانهيار يستفحل تحت الحكم العسكري حتى جرت سنة الله وتسلط على العراق قوم هم في مقام الغزاة المحتلين.. وهم البويهيون!

خلفاء هذا العصر:

- أبو جعفر محمد المنتصر بالله
- أبو العباس أحمد المستعين بالله
- أبو عبد الله محمد المعتز بالله
- أبو إسحاق محمد المهتدي بالله
- أبو العباس أحمد المعتمد على الله
- أبو العباس أحمد المعتضد بالله
- أبو محمد علي المكتفي بالله
- أبو الفضل جعفر المقتدر بالله
- أبو منصور محمد القاهر بالله
- أبو العباس أحمد الراضي بالله
- أبو إسحاق إبراهيم المتقي لله
- أبو القاسم عبد الله المستكفي



المنتصر بالله

(من شوال ٢٤٧ هـ حتى ربيع الآخر ٢٤٨ هـ)

كان المنتصر أعين، أقنى، قصيرا، مهيبا، جيد البدن، أسمر ضخم الرأس عظيم البطن، على عينه اليمنى أثر، وهو مولود في سامراء (٢٢٢هـ) من جارية رومية اسمها حبشية[١].

***

كان أول ما فعله المنتصر أن استدعى أخويه المعتز والمؤيد ليلا وألزمهما بالبيعة له، أو بالأحرى لم يكن أمامهما في هذا الظرف إلا أن يستجيبا ويعلنا بيعتهما لأخيهما المنتصر، وأورد الطبري نصا طويلا في البيعة التي أُلْزِموا بها، ثم ادَّعى المنتصر أن القائد التركي الفتح بن خاقان هو الذي قتل أباه المتوكل، لذا قتله قصاصا[٢].

وفي صباح اليوم الأول من الخلافة حدثت حركة شغب من بعض الجنود ومن الناس حين انتشر خبر مقتل المتوكل، وتجمع كثير منهم عند باب القصر، وفشل حُجَّاب المنتصر في صرفهم سلما، فكلف المنتصر فرقة من جيشه بتفريقهم عنوة فنجحوا بعد معركة مات فيها ما بين الستة إلى الثلاثين نفسا منهم[٣].

وكان أول إجراء إداري يتخذه المنتصر سيئا وذا وقع سيئ عند الرأي العام، فقد وَلَّى المظالم لأبي عمرة أحمد بن سعيد من الموالي مما جعل البعض يقول:

يــــا ضــــيعة الاســــلام لمــــا ولي   مظـــالم النـــاس أبـــو عمـــره

صُــــيِّرَ مأمونـــا عـــلى أمـــة   ولـــيس مأمونـــا عـــلى بعـــره[٤]

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٢، وابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٣٧٩.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤١، وابن الجوزي: المنتظم ١١/ ٣٥٦، ٣٥٧.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٤٣.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٤٥.

ثم اتخذ المنتصر قرارا بترك «المتوكلية» وعاد إلى سامراء لتكون عاصمة ملكه[1]، وبهذا انتهى عصر المتوكلية سريعا، يكاد ألا يكون قد بدأ، ولو أن للمدن لسانا يحكي تاريخها لسمعنا عجبا من العجب.. فمن ذا الذي توقع قبل أيام أن تكون هذه هي الأيام الأخيرة للمدينة الملكية التي تبدو وكأنها تفتح ذراعيها لأيام باهرة؟!!

وخالف المنتصر سياسة أبيه مع العلويين، وكان من أول قراراته عزل صالح بن علي عن المدينة وتولية علي بن الحسن بن إسماعيل وأوصاه بأهل المدينة والعلويين قائلا: «إني أوجهك إلى لحمي ودمي... فانظر كيف تكون للقوم وكيف تعاملهم»[2]، وسمح لمن أراد من الناس بزيارة قبر علي والحسين رضي الله عنهما، وآمن العلويين وكانوا خائفين أيام أبيه وأطلق وقوفهم[3].

وعلى رغم هذه الإجراءات التي بدا منها أن الأمر استقر للمنتصر سريعا إلا أن الحقيقة كانت غير ذلك، لقد كان الوضع خطيرا أمام المنتصر، فتلك هي المرة الأولى التي يتجرأ فيها رعايا الدولة الذين هم أيضا من غير العرب على قتل الخلفاء، وعلى رغم ما كان بين المنتصر والأتراك من الود قبل هذا إلا أنه علم أن وصول نفوذهم في الدولة إلى درجة قتل الخليفة وتولية غيره يعني أنهم صاروا الأسياد المتحكمين فعلا في أمر الدولة، ومن غير شك فإن كثيرا من الأفعال التي قام بها القادة الأتراك في تلك الأيام الأولى لخلافته كانت تعني أنهم رأوا أنفسهم الأعلى يدا والأقوى من كل قوة ولو كانت هيبة الخلافة ومكانتها.. لهذا نرى تَحَوُّل المنتصر من حبهم إلى بغضهم وكان يسميهم «قَتَلَة الخلفاء»! وبدا كأن المنتصر سيحاول تكرار سيرة أبيه في محاولة التخلص من النفوذ التركي.

وبطبيعة الحال كانت لحظة مناسبة ليختبر فيها الروم سلطة الخليفة الجديد، فهاجمت الجيوش الرومية أرض الشام، فأمر المنتصر بتجهيز جيش كبير بقيادة القائد التركي القوي وصيف (٢٤٨هـ)، كما أرسل المنتصر إلى نائب العراق محمد بن عبد الله بن طاهر كتابا بليغا

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤١.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٣.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥١٣ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب)، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٤٩.

لتحريض الناس على الجهاد، وأوصى المنتصر وصيفا بأن يبقى في الشام بعد انتصاره لأربع سنين لينظم فيها أمر الثغور ويجاهد هناك كلما احتاج الوضع إلى الجهاد، إلا أنه أراد في الوقت نفسه أن يُبعد وصيفا عن مركز الخلافة ويتخلص من وجوده ونفوذه(١).

ومثلما كان الروم يختبرون، كانت حركات التمرد تختبر أيضا، فقاد محمد بن عمرو الشاري تمردا في ناحية الموصل من أرض الجزيرة الفراتية فأرسل المنتصر قائده إسحاق بن ثابت الفرغاني فأسره وزعماء تمرده ثم أرسلهم إلى سامراء فقُتِلوا.

وقد التقت رغبة المنتصر مع رغبة الأمراء الأتراك في أمر آخر، ذلك هو خلع المعتز والمؤيد من ولاية العهد وتولية عبد الوهاب بن المنتصر، بالنسبة للمنتصر فالأمر مفهوم؛ حب الولد والتخلص من الأخوين المنافسين والاحتفاظ بسلالة الخلفاء في نسله، وبالنسبة للأتراك فإن المنتصر هو حليفهم الأقرب من المعتز والمؤيد، بل إن المعتز والمؤيد يكنان لهم العداوة لما بلغوه من النفوذ والقوة التي وصلت إلى قتل الخليفة، كذلك فإن إنشاء عبد الوهاب بن المنتصر تحت رعاية الأتراك وعينهم يجعلهم يأمنون ويطمئنون على استقرار نفوذهم وسلطانهم(٢).

أجبر المنتصر أخويه المعتز والمؤيد على خلع أنفسهما من ولاية العهد، وتختلف الروايات فيما إذا كانا قد تنازلا خوفا بعد التهديد، أو تنازلا بعد أن صار التهديد حقيقة فضُرِبا وقُيِّدا وما إلى ذلك، غير أن المنتصر غَلَّف هذا الإجراء بخشيته على إخوته «أَتَرَيانِي خلعتكما طمعا في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له؟ والله ما طمعت في ذلك ساعة قط وإذا لم يكن في ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبي أحب إلي من أن يليها بنو عمي، ولكن هؤلاء وأومأ إلى سائر الموالي ممن هو قائم وقاعد ألحوا عليَّ في خلعكما فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما فما تریاني صانعا أقتله. فوالله ما تفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل عليَّ»(٣).

على كل حال أعلن الأخوان (٢٣ صفر ٢٤٨هـ) تنازلهما عن ولاية العهد واعترفا بأنهما

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٥، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٧، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣، ٤.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٨.

عاجزان عن الخلافة وأن المسلمين في حِلٍّ من بيعتهما في حضرة كبار رجال الدولة، ثم أعلن هذا على العامة وأُرسل به إلى الأقطار(١).

لو أن المنتصر كان يعلم أجله في هذه الحياة لتغير وجه التاريخ، لقد قتل المنتصر أباه ثم أجبر أخويه على التنازل عن ولاية العهد، وهو لا يعلم أنه سيموت بعد شهرين فحسب!!

روي أنه بعد أن تولى الخلافة رأى أباه في المنام يلومه ويخبره بأنه لن يعيش إلا قليلا، وروي أنه رأى ما يفيد أن عمره في هذه الحياة هو خمس وعشرون سنة فقط، وهي روايات تناقلتها كتب التاريخ بدون سند ولربما تكون صحيحة، لكن الثابت أنه كان يوطد الأمر لنفسه ثم لولده وهو لا يعلم أنه في لحظاته الأخيرة!.. وهذه السطور ذاتها التي تقرأها، لا الكاتب يدري ولا القارئ كم يعيش من بعدها؟!

أصاب المنتصر مرض ظل يشتد به حتى مات فيه (٥ ربيع الآخر ٢٤٨هـ)، بعد خلافة ستة أشهر فحسب! وقد دعت هذه الوفاة المفاجئة ظنون المؤرخين إلى أنه ربما يكون قد قُتِل، لا سيما والمتهم موجود: وهم الترك، والدافع موجود: سعي المنتصر في التخلص منهم والتوطيد لنفسه، فرُوِي أن الطبيب الطيفوري وضع له السم في آلات الحجامة فمات منها حين احتجم(٢).

قال المسعودي: «كان المنتصر واسع الاحتمال، راسخ العقل، كثير المعروف، راغبًا في الخير، سخيًّا، أديبًا، عفيفًا، وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق، وكثرة الإنصاف، وحسن المعاشرة، بما لم يسبقه خليفة إلى مثله. وكان وزيره أحمد بن الخصيب قليل الخير، كثير الشر، شديد الجهل»(٣).

وبموت المنتصر –أو مقتله– من بعد مقتل المتوكل كانت الخلافة العباسية قد دخلت بالفعل عصر سيطرة الترك، حيث الخليفة «في يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه»(٤).

***

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٤٧ وما بعدها، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣، ٤.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥١، ٣٥٢، والمسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥١٣، ٥١٤ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب)، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٢١.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥١٤ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).
(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٤٠.



المستعين بالله

(من ربيع الآخر ٢٤٨ هـ حتى محرم ٢٥٢ هـ)

هو أبو العباس أحمد بن محمد المعتصم، وقد تولى الخلافة وهو في السابعة والعشرين من عمره، إذ هو مولود في عام (٢٢١هـ)، وكان جميلا أبيض يميل إلى الحُمرة، أشقر، عريض المنكبين، وكان في وجهه أثر جدري، ورغم أنه ألثغ في حرف السين إلا أنه كان بليغا أديبا، وأمه جارية صقلبية اسمها «مخارق»[١].

***

كان الوزير أحمد بن الخصيب العقل المدبر أيام المنتصر، فلما إن مات المنتصر حتى سارع بجمع القادة الأتراك الذين كان أهمهم: بُغا الكبير، وبُغا الصغير، وأتامش. وسعى أحمد بن الخصيب في أن يجمع قادة الجنود الأتراك والمغاربة[٢] والأشروسنية[٣] وأن يوحدهم على ما سيصدر عن اجتماع الثلاثة الكبار (بغا الكبير، وبغا الصغير، وأتامش) فتم له ما أراد[٤].

كان الأتراك رافضين لحكم المعتز أو المؤيد لأنهما من ولد المتوكل، فسعوا في أن يكون الخليفة من نسل المعتصم، ووقع اختيارهم على أحمد بن محمد بن المعتصم، والذي لقب بـ«المستعين بالله»[٥] وإن كان بعض القادة لم يُرضهم هذا الاختيار[٦].

وقعت في أول أيام المستعين بعض الاضطرابات التي كان مصدرها أن بعض الجند الأتراك لم يرضوا بالمستعين وأرادوا مبايعة المعتز بالله بن المتوكل، وخرجوا يهتفون: يا معتز يا

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٣٨٠، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٥/ ٨٤.

(٢) المغاربة: هم الجند المنتسبون إلى الشام ومصر والشمال الإفريقي، فهذه بالنسبة إلى العراق «مغرب».

(٣) الأشروسنية: هم الجند المنتسبون إلى أشروسنة من بلاد الترك ما وراء النهر!

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٣، ٣٥٤.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٣، ٣٥٤، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٦.

(٦) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٨.

منصور، فأدى هذا إلى أن يساندهم ويدعمهم كل من لم يرض من الناس بهذا التحكم التركي وأراد ولاية المعتز التي تعتبر الولاية الشرعية (باعتبار أنه تنازل عنها مضطرا، وما زال عبد الوهاب بن المنتصر صغيرا)، إلا أن هذه الحركة هُزِمت أمام جمهور الجيش الذي كان متماسكا خلف اختيار قادته للمستعين بعد قتال استمر عدة أيام، حفلت بالاضطراب وانتهبت فيه كثير من الأماكن في بغداد وغيرها، ثم استقر الأمر للمستعين[١].

وبهذا يكون النفوذ التركي قد استقر وتمكن تماما، فهاهم بعد أن قتلوا خليفة، وخلعوا وليين للعهد، صاروا يقررون من الخليفة القادم، ليس هذا فحسب، بل إن الخليفة القائم يعلم أنه لولا الأتراك ما كان ليصل إلى كرسي الخلافة على عكس المتوكل والمنتصر اللذين كانا وليين للعهد.

كان المستعين كما قال الشاعر:

خليفـــــــــة في قفـــــــــص   بـــــين وصـــــيف وبغـــــا
يقــــول مــــا قـــــالا لـــــه   كــــما تقــــول الببغـــــا[٢]

في ضوء هذا نفهم كيف أن المستعين أبقى على الحال كما هو، فظل كاتبه هو الوزير أحمد بن الخصيب، وجعل وزيره القائد التركي أتامش وعهد إليه بتربية ابنه العباس[٣]، حتى حين مات بغا الكبير – أكبر القادة الأتراك – بعد ولاية المستعين بشهرين (جمادى الآخرة ٢٤٨هـ)، عهد المستعين بما كان له من أعمال ومناصب إلى ابنه موسى بن بغا مكانه بل أضاف إليه مهمة ديوان البريد أيضا، وكانت وفاة بغا الكبير كاشفة عن المكانة التي وصلها الأتراك، إذ ترك ما قيمته عشرة ملايين دينار، وجواهر نادرة قيمتها ثلاثة ملايين دينار، وغير ذلك[٤].

وسارت خلافة المستعين أيامها القصيرة غير مستقرة، بل تزداد اضطرابا وارتباكا، وقد نشأ هذا من ثلاثة عوامل:

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٧٠.
(٢) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥٢٣ (ط الشركة العالمية للكتاب).
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٤، وابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٣٨٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٠، ١٥٤.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٥، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥١.

١) الغضب الشعبي الداخلي

مما وصل إليه حال الخلافة التي لم يعد أدنى شك في أن الأتراك هم من يسيرونها كما يشاءون، فلقد ذهب المتوكل الذي حاول تحجيم الأتراك قتيلا، ثم مات المنتصر قبل أن يعيد الخلافة إلى هيبتها أمام الأتراك، وهاهم قد أتوا إلى الخلافة برجل ليس أكثر من صورة ولا يملك أن يأمرهم ولا ينهاهم، ثم إن أبناء الخليفة المتوكل (المعتز والمؤيد) في السجن عن رأي الأتراك ورغبتهم! وقد أُجْبِرا على بيع أملاكهما بثمن بخس، فلم يُبْق المستعين للمعتز إلا ما يأتيه بعشرين ألف دينار في السنة وللمؤيد ما يأتية بخمسة آلاف دينار في السنة[١].

هذا الغضب الشعبي التقى مع سنة اختبار الخلفاء في أوائل عهدهم إذ تنفجر بعض تمردات هنا وهناك في تلك اللحظات التي تضعف فيها الدولة ويكون الخليفة فيها في أضعف أوقاته، مما جعل التمردات كثيرة في عهد المستعين.

بدأت التمردات برجل في الجزيرة الفراتية اسمه أبو العمود الثعلبي فتوجه إليه القائد التركي أنوجو فقتله في بلدة كفر توثى[٢] (٢٥ ربيع الآخر ٢٤٨هـ)[٣]، ثم تمرد أهل حمص وطردوا الوالي عليهم كيدر بن عبيد الله (٢٤٨هـ) وهزموه، فولى المستعين عبد الرحمن بن حبيب الأزدي فتوفي قبل أن يصل[٤]، فتوجه إليهم الفضل بن قارن فحاربهم وقتل كثيرا منهم ثم أخذ مائة من زعمائهم وأشرافهم فأرسلهم إلى سامراء، وهدم سور المدينة لتبقى المدينة بلا سور يحميها فلا يحاولون التمرد مرة أخرى[٥].

ثم اشتعلت انتفاضة شعبية في بغداد (١ صفر ٢٤٩هـ)، وبالتحديد في الجزء الشرقي منها، ضد تحكم الأتراك وتسلطهم على الخلافة ولعبهم بها واستخفافهم بالخلفاء العباسيين، وشارك

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٥، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥١.

(٢) بلدة في منطقة الجزيرة الفراتية، وهي الآن في سوريا بذات الاسم القديم مع تحريف زمني جعلها كفر سوسة.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٥، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٨، ٢١٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥١.

(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٥٩، و الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٥، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٠/ ٤٠١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥١.

فيها بعض فرق الجنود من غير الأتراك، فحاصروا سجن بغداد وأخرجوا من كان فيه، وقطعوا الجسر الواصل بين طرفي بغداد وأحرقوا الجسر الآخر، وخربت كثير من الأماكن[1].

ثم وصلت هذه الانتفاضة إلى عاصمة الخلافة سامراء (٢١ ربيع الأول ٢٤٩هـ)، حيث حاصر أهل سامراء السجن وأخرجوا من كان فيه، وفشلت كتيبة من الموالي يقودها زرافة في إخماد هذه الانتفاضة بل عادت هي مهزومة، فحينئذ نزل الجيش بقوته الأصلية يقودهم وصيف التركي وأتامش وبغا الصغير وانضم إليهم عامة الأتراك، فاستطاعت القوة حسم الموقف وإخماد هذه الانتفاضة. وكان من أكثر المتضررين في هذه الانتفاضة هم المغاربة الذين أُحْرق حيُّهم، فظلت تحت الرماد نيران كانت تعود للظهور، كما حدث في مظاهرات (٣ جمادى الآخرة ٢٤٩هـ)[2].

٢) الخلافات بين القادة الأتراك

حيث ضعف حال الخليفة وانتهت هيبته من النفوس، فكان أول سبيل أن اتحد الأتراك وهم الذين يمثلون الجناح العسكري على الوزير أحمد بن الخصيب ممثل الجناح المدني فاستطاعوا إيغال صدر المستعين عليه فنفاه إلى المغرب[3].

ثم بدأ القادة الأتراك أنفسهم يختلفون على الأموال والغنائم، لا سيما أن المستعين قد ترك أمر الخلافة إلى ثلاث شخصيات يديرونه: القائد أتامش التركي الذي كان أقرب الناس إلى الخليفة والقائم على تربية ولده العباس، والخادم شاهك، ومعهما أم الخليفة «مخارق» وقد كانت جارية صقلبية وكانت تتصرف في أموال الخلافة بلا رقيب!

كانت كل الأموال الواردة إلى الخلافة تصير إلى هؤلاء الثلاثة، وكان أتامش أكثرهم إنفاقا وإسرافا فيأخذ من الأموال أكثر من غيره باسم رعاية ولد الخليفة العباس بن المستعين، فحَرَّك هذا الأتراك حسدا على أتامش، فاجتمعوا وانطلقوا إليه (١٥ ربيع الآخر ٢٤٩هـ)

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٧، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٢٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٣.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٨، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٢١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٤.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٨.

وهو في قصر الخليفة إذ حاول الهرب منهم، ولكنهم اقتحموا عليه قصر الخليفة فأخذوه وقتلوه ولم يستطع الخليفة أن يجيره ولا ينقذه، ثم نهب الأتراك أمواله وثرواته[١] بل أظهر موافقته وأمر بلعنه في الآفاق[٢].. وكان هذا بمثابة السطر الأخير في ضياع هيبة الخليفة المستعين أمام الأتراك!

٣) اضطراب حال الجهاد

جاءت الأخبار من الثغور بفاجعة أخرى، تلك هي مقتل القائدين الكبيرين عمر بن عبيد الله الأقطع (١٥ رجب ٢٤٩هـ) وعلي بن يحيى الأرمني على جبهة القتال مع الروم، وكان قتلهما بمثابة الكارثة التي اهتزت لها عواصم المسلمين،[٣] ويراه بعض المؤرخين[٤] إحدى النقاط الحاسمة في الصراع الإسلامي البيزنطي، وكان من أسباب مقتلهما ضعف حالة الجهاد واضطراب أمر الثغور وعدم قيام الخلافة بواجبها. فكان هذا مما زاد في حالة الغليان الشعبي والفوضى، ثم تصدى الأغنياء من أهل بغداد وقادوا حملة تبرعات وإنفاق لدعم جيوش المسلمين التي تخلى عنها الحُكَّام الذين انشغلوا بالترف واللهو، كما قادوا حملة نفير تنادي في الناس بالجهاد، فاجتمع كثيرون من فارس والأهواز ومناطق الشرق لغزو الروم[٥].

انفجار التمردات

هذه الظروف القائمة في قصر الحكم وعاصمة الخلافة هي الظروف المثلى لانفجار التمردات في سائر أنحاء البلاد الإسلامية، يقول ابن الطقطقي: «واعلم أنّ المستعين كان مستضعفا في رأيه وعقله، وكانت أيّامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب»[٦].

١) يحيى بن عمر العلوي - الكوفة

وينتهي نسبه إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وينتهي نسب أمه إلى

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٨، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٢١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٤.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٩.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٧، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٠.
(٤) د. علية الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية ص١٢، ١١٩.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٥٧، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢١.
(٦) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٣٩.

جعفر بن أبي طالب، فهو عربي صميم شريف النسب من جهتي الأب والأم، وبدأت قصته منذ نزلت به شدة وفقر فذهب إلى سامراء وطلب من وصيف أن يجعل له رزقا (راتبًا) فرفض وصيف وأغلظ عليه القول(١).. ولا شك أنها كانت لحظة قاسية، أن يتحكم جندي تركي في واحد من العرب بل من آل البيت النبوي، شريف النسب، وما زال العهد بالمنتصر وإحسانه إلى العلويين قريبًا!

عاد يحيى بن عمر إلى الكوفة، واجتمع حوله كثير من الأعراب ومن أهل الكوفة –الذين استقر فيهم حب العلويين– وقاد بهم يحيى بن عمر السيطرة على الكوفة، ودخلها واستحوذ على ما في بيت المال فلم يجد إلا ٢٠٠٠ دينار و٧٠ ألف درهم فحسب (وهذا يُنبئ عن درجة الفساد ونقص الأموال في الدولة) وحرر السجناء من سجني الكوفة، ومع كل تقدم كان ينحاز إليه عدد أكبر من الأتباع، فانضم إليه الزيدية –الذين هم على المذهب المنسوب لجده زيد بن علي– وكل محسوب على الشيعة، كما والاه كثير من أهل بغداد من الشيعة وأنصار العلويين، وأحبه الناس أكثر من أي علوي خرج قبله فيهم، وقد انتصر يحيى بن عمر في اشتباكين مع جنود الخلافة العباسية في الكوفة وفي ظاهرها، فقوي أمره وتمكن من الكوفة وما حولها(٢)، فصار بهذا في مرحلة اللا عودة وأصبح من المحتم عليه أن يمضي في طريق جمع الأموال والأنصار وتجهيز السلاح والعتاد لمواجهة جيوش الخلافة التي كانت قد انطلقت إليه بالفعل.

أمر محمد بن عبد الله بن طاهر (والي بلاد العراق) واليه على الكوفة (أبا أيوب بن الحسين ابن موسى) بقتال يحيى بن عمر، وكان أبو أيوب قد انسحب إلى خارج الكوفة حتى وصلته جيوش من قبل الخليفة ووالي العراق، وكانت الخطة الأفضل بالنسبة ليحيى بن عمر هى الاعتصام بالكوفة والدفاع عنها، فما زال أغلب أتباعه من العامة لا من محترفي القتال وما زال حالهم بالسلاح والعتاد أقل بكثير من جيوش الخلافة، غير أن بعض أتباع يحيى بن عمر اقترح عليه أن يستعمل سلاح المفاجأة فيخرج إليهم بسرعة ويغير عليهم إغارة خاطفة تحقق نصرا

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٠، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٦.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٠، ٣٦١، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٣، ٣٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٦، ١٥٧.

حاسما، ولا شك أن نجاح هذه الخطة سيعني قفزة كبيرة في الوضع العسكري والسياسي ليحيى بن عمر تزيد من أتباعه وأنصاره وتضعف من جانب الخلافة الضعيفة أصلا؛ فلهذا ولغيره، رأى يحيى أن يخرج بالجيش إلى ظاهر الكوفة، واختار أن يهجم عليهم ليلا، ولعله أراد أن يستر الليل حال جيشه غير المزود بالسلاح، فجرى بينهم قتال شديد في آخر الليل (١٢ رجب ٢٥٠هـ) فما أتى الفجر إلا وكانت القوة قد غلبت الشجاعة، وأصيب يحيى بن عمر بطعنة في ظهره فَخَرَّ صريعا، فانتهت بهذا حلقة أخرى في مسلسل ثورات العلويين التي لم تنجح أبدا! وأراد قائد أحد الجيوش التي أرسلها الخليفة أن يعاقب أهل الكوفة فيقتل منهم ويأسر، إلا أن نائب الكوفة منعه من هذا وعفا عن الجميع، فاستقر الأمر سريعا بغير دماء جديدة[١].

٢) الحسن بن زيد العلوي - طبرستان

كافأ الخليفة المستعين والي العراق محمد بن عبد الله بن طاهر بمزيد من الأراضي في ناحية طبرستان، فأرسل محمد كاتبه النصراني جابر بن هارون لتسلمها، فأخذ إلى جوارها أرضا لا ملك لأحد عليها، وكان أهل تلك المناطق يرعون فيها فساءهم هذا، ثم إن هذا أضيف إلى غضب أهل طبرستان والديلم على أميرهم سليمان بن عبد الله، وعلى الرجل الثاني محمد بن أوس الذي انتشر ظلمه هو وأولاده بين أهل طبرستان، فكان اجتماع هذين الشرين مما جعل أهل هذه المناطق يفيض بهم الكأس ويتمردون، فذهبوا إلى الحسن بن زيد العلوي وبايعوه، وانحاز إليهم بعض الأمراء المحليين في تلك الأنحاء وكثير من الديلم (أصحاب هذه البلاد) فقادهم واقتحم «آمل» عاصمة هذه المنطقة (٢٣ شوال ٢٥٠هـ)، واستولى عليها، ثم خرج لقتال سليمان بن عبد الله أمير طبرستان فانتصر عليه نصرا كبيرا وانسحب سليمان انسحابا مهينا حتى أنه لم يجد الوقت للهروب بأهل بيته، فاستولى الحسن بن زيد على الأموال والأسلحة والمتاع وبعث بأهل سليمان إليه مُكَرَّمين، وبهذا صارت طبرستان في حكم الحسن بن زيد[٢] الذي اتخذ لقب «داعي الخلق إلى الحق» وعُرف بلقب «الداعي الكبير»[٣].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦١، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢١.

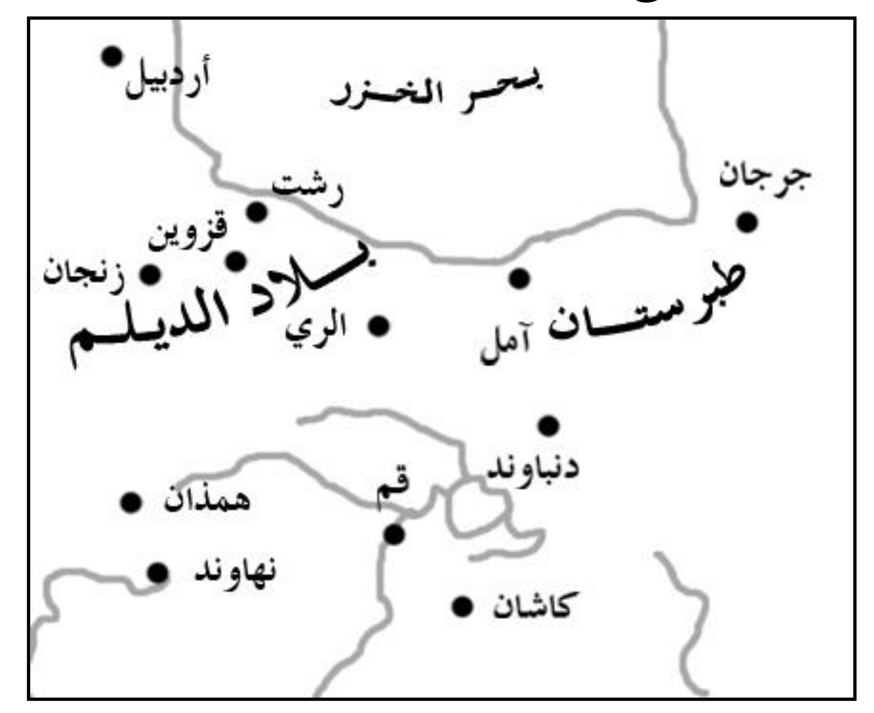
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٣ وما بعدها، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٤، ٣٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٥٨ وما بعدها.

(٣) عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام ص٢٠.

ثم بدأ الحسن في التوسع فأرسل جيشا إلى «الري» التي كانت يومئذ في سلطة الطاهريين[1] فاستطاع الاستيلاء عليها، ثم توسع باتجاه همذان[2].

والخلاصة أن الحسن بن زيد استخلص في مدة ثلاثة أعوام (من رمضان ٢٥٠هـ حتى ذي الحجة ٢٥٣هـ) جميع طبرستان وقسما مهما من الديلم والرِّي، وطرد عمال بني العباس وأتباعهم، وأخذ العلويون يتقاطرون عليه من الحجاز والشام والعراق بعد أن علا صيت شوكته وقدرته، وأقاموا في ولاياته[3].

وبهذا أسس الحسن بن زيد الدولة الزيدية في طبرستان، وقد استمرت نصف قرن (٢٥٠هـ - ٣٠٠هـ)، وكان من أهم إنجازات هذه الدولة إدخال الديالمة في الإسلام؛ فقد «كان الديلم دار كفر يسبى من رقيقهم إلى أيام الحسن بن زيد، فتوسطهم العلوية وأسلم بعضهم»[4]، فكان جهد الزيديين مما لم تتمكن الدولة الإسلامية من القيام به منذ أيام العباسيين الأولى حين أعيد فتح هذه المناطق، وذلك لطبيعتها الجبلية وصعوبة مسالكها[5].



(١) الطاهريون: نسل طاهر بن الحسين الذي تولى أمر خراسان وما حولها، ثم أبناؤه من بعده تحت سلطة الخلافة العباسية.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٦٠.

(٣) عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام ص٢٠، ٢١.

(٤) الاصطخري: المسالك والممالك ص٢٠٥.

(٥) د. فاروق عمر: الهاشميون الأوائل ص٣٠٤.

ثم ظهر في الري في يوم عرفة رجلان من العلويين: أحمد بن عيسى وإدريس بن موسى، فخطب أحمد بن عيسى ودعا إلى الرضا من آل محمد، وكان أحمد بن عيسى هو الذي تصدى لجيش أرسله محمد بن علي بن طاهر فانتصر عليهم فزادت قوته وتمكنه من الري[1].

على الجهة الأخرى نزل بالخليفة المستعين همٌّ كبير، واجتهد وصيف التركي –صاحب النفوذ الحقيقي وقتذاك– في تدبير الجيوش وإنهاء تمرد الحسن بن زيد العلوي.

٣) تمرد في حمص

إذ ثار أهل حمص على الوالي الفضل بن قارن حتى أنهم استطاعوا قتله (رجب ٢٥٠هـ)، فتوجه إليهم موسى بن بغا الكبير، فتصدى له جمع كبير أغلبهم من الكلبيين –بقيادة رجل اسمه دابر العفار[2]– وجرى قتال كانت له الغلبة فيها بما معه من خبرة قتالية وجيش محترف أمام قوم من العامة، وقتل منهم كثيرا، وأخذ أشراف أهلها أسرى، ثم أحرق منها أماكن كثيرة عقابا لهم وتنكيلا بهم[3]!

ويذكر اليعقوبي ثورة أخرى في الشام قادها يوسف بن إبراهيم التنوخي الملقب بـ«القصيص» في معرة النعمان، واستمرت فترة في مواجهات مع محمد بن المولد حتى قضى عليها، وكان قوامها من العرب الكلبيين[4].

٤) تمرد عسكري

إذ ثار «الشاكرية» والجند في أرض فارس بقيادة علي بن الحسين بن قريش البخاري على عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم فهرب منهم فانتهبوا داره وقتلوا محمد بن الحسن بن قارن[5].

المصير المحتوم

بدلا من أن تشغل هذه التمردات بال الخلافة ورجالها الأتراك في سامراء فتوحد صفهم،

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٦١.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٠.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٥٩، و الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٦، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٠/ ٤٠١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٦١.
(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٠.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٦، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢١.

إذ بخلاف جديد ينشأ بين القادة الأتراك، وذلك أن القائد باغر التركي –وهو ممن شارك في قتل المتوكل– زادت أمواله وأملاكه حتى وقع الخلاف بينه وبين بغا الصغير ووصيف، فهما يخشيان نفوذه ويحسدان مكانه، وهو كذلك لا يريد شخصيات قوية إلى جواره ويدرك أغراضهما في منافسته والاستحواذ على المستعين، وبعد تفاصيل كثيرة استقر أمر الخليفة المستعين بالاتفاق مع بغا الصغير ووصيف على قتل باغر، فتم ما أرادوا فقتلوه ونهبوا أمواله ودياره، هو وكبير كُتَّابه، غير أن هذا أنشأ فتنة وشغبا كبيرا بين الجند الأتراك، مما جعل الخليفة المستعين ومعه وصيف وبغا الصغير يهربون بأنفسهم في مركب صغير إلى بغداد (المحرم ٢٥١هـ)، وهناك نزل المستعين في دار محمد بن عبد الله بن طاهر (والي بلاد العراق)، فزاد غيابُ الخليفة والقواد من اضطراب الأمور واشتعالها في سامراء[١].

وفي مثل هذه الحال قال شاعر معاصر:

لعمــــري لــــئن قتلــــوا بــــاغرا ... لقــد هــاج بــاغر حربــا طحونــا

وفــــــر الخليفــــــة والقائــــــدان ... بالليــــل يلتمســــان الســــفينا

وأقبلــــت الــــترك والمعربــــون ... وجــــاء الفراغنــــة الــــدارعينا

تســــير كراديســــهم في الســــلاح ... يرجــون خــيلا ورجــلا بنينــا

ورغم محاولات فرقة من الجنود الأتراك الذهاب إلى المستعين والاعتذار إليه والرجوع به إلى بغداد إلا أن الخليفة لم يرض بالرجوع بل وصارحهم بأنهم أهل غدر ونكران، مما جعل عامة الجنود الأتراك في سامراء ينصرفون عنه، ويحرضون عليه، بل قاموا بإخراج المعتز والمؤيد من سجنهما وبايعوا المعتز بالخلافة! وبايعه أهل سامراء، واستولى المعتز على ما في سامراء من الأموال، فوجد في بيت المال نصف مليون دينار، ووجد في خزائن أم المستعين وحدها مليون دينار، وفي الخزائن المرصودة للعباس بن المستعين ستمائة ألف دينار، فتقوى وتمكن وضع المعتز في سامراء[٢].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٧، ٣٦٨، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٤٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٦٣، ١٦٤.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٨ وما بعدها، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٤٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٦٤ وما بعدها.



وصار الأمر فتنة أعادت إلى الأذهان فتنة الأمين والمأمون قبل نحو نصف قرن!

جرت حرب دبلوماسية بين المستعين والمعتز، فكلاهما يراسل موسى بن بغا، القائد التركي الذي كان يُخمد ثورة أهل حمص في الشام، ويستميله إليه باعتبار أنه أحد أهم قادة الجيش، فاستجاب موسى للمعتز، كما استجاب -بعد تردد- عبد الله بن بغا الصغير إلى المعتز أيضا، وأرسل المستعين إلى ولاة الخراج في الأنحاء أن يرسلوا الأموال إلى بغداد لا إلى سامراء، وجرت حرب مراسلات بين المعتز ومحمد بن عبد الله بن طاهر (والي بلاد العراق، وهو الذي ينزل المستعين في داره) فالمعتز يُذَكِّره بأنه الخليفة الشرعي وبأنه قد بايعه وليا للعهد أيام أبيه المتوكل، ومحمد بن عبد الله بن طاهر يطالبه بالرجوع إلى طاعة المستعين، ثم تمايزت الصفوف؛ فأصبح عامة الجند الأتراك في سامراء مع المعتز، بينما بقى أهل بغداد وجندها على ولائهم للمستعين، ولكي يحمي العراق قام محمد بن عبد الله بقطع الجسور التي توصل إلى الأنبار ليمنع وصول الجند إليها، كما زاد في تحصين بغداد وما حولها من الأسوار، والخندق، وجعل لكل باب من أبوابها فرقة من الجيش، ونصب على الأسوار المجانيق وآلات الرمي استعدادا للدفاع[١].

كلف المعتز أخاه أبو أحمد بن المتوكل بقيادة الجيش المتجه إلى بغداد وقوامه خمسة آلاف من الأتراك الذين هم قوام الجيش بخلاف الآخرين من غيرهم، فوصل الجيش بغداد (٧ صفر ٢٥١هـ)، وجرت فيها معارك هائلة وطويلة استمرت نحو الشهرين وهي غير محسومة، فجيش المعتز يبدي صنوفا من البطولة في الهجوم، وجيش بغداد الذي يقوده محمد بن عبد الله بن طاهر يضرب المثل في البسالة والصمود[٢]، ومن أوفق ما عبر عن هذه الحالة العصيبة للجيشين ما ردَّ به أبو أحمد على أخيه المعتز حين أرسل إليه يلومه في التقصير وطول المعركة، فأنشد -أو تمثل بقول علي بن أمية في فتنة الأمين والمأمون- شعرا يقول:

لأمـــر المنايـــا علينـــا طريـــق وللـــدهر فيـــه اتســـاع وضـــيق

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٧٣، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٤٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٦٧.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٧٤ وما بعدها، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٤٥ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٦٧ وما بعدها.

فأيامنا عبر للأنام ... فمنها البكور ومنها الطروق
ومنها هنات تشيب الوليد ... ويخذل فيها الصديق الصديق
وسور عريض له ذروة ... تفوت العيون وبحر عميق
قتال مبيد وسيف عتيد ... وخوف شديد وحصن وثيق
وطول صياح لداعي الصباح الـ ... ـسلاح السلاح فما يستفيق
فهذا قتيل وهذا جريح ... وهذا حريق وهذا غريق
وهذا قتيل وهذا تليل ... وآخر يشدخه المنجنيق
هناك اغتصاب وثم انتهاب ... ودور خراب وكانت تروق
إذا ما سمونا إلى مسلك ... وجدناه قد سد عنا الطريق
فبالله نبلغ ما نرتجيه ... وبالله ندفع ما لا نطيق(١)

وعند (آخر ربيع الأول ٢٥١هـ) وصل جيش من ثلاثة آلاف يقوده موسى بن أرشناس كمدد لأبي أحمد من أخيه المعتز، ولكنه لم يغير كثيرا من حال الحرب التي بقيت سجالا مشتعلا!

بلغ الجهد أيضا بأهل بغداد مبلغا عظيما، فالحرب والحصار أنشآ أزمة الأمن والغذاء، وبالرغم من هذا فقد تسرب إليهم نية محمد بن عبد الله بن طاهر خلع المستعين والدخول في طاعة المعتز، فمشوا في مظاهرة كبيرة نحو قصر محمد بن عبد الله بن طاهر الذي ينزل فيه الخليفة معترضين على ما ينوى محمد فعله، فخطب فيهم محمد وحلف بأغلظ الأيمان أن هذا لم يخطر بباله، وما هي إلا أكاذيب وإشاعات مغرضة، غير أن الناس رفضوا أن ينفضوا إلا أن يظهر لهم الخليفة ويعلن بنفسه أنه راض عن محمد بن عبد الله بن طاهر، وبالفعل، خرج الخليفة في ثياب الخلافة(٢) وخطب فيهم: أقسمت عليكم بحق صاحب هذه البردة والقضيب لما رجعتم إلى منازلكم ورضيتم عن ابن طاهر فإنه غير متهم لديَّ(٣).

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٨٨.
(٢) كان الخلفاء لدى توليهم الخلافة، وفي المناسبات الرسمية يرتدون البردة النبوية ويمسكون بقضيب يقال أيضا إنه قضيب كان يمسكه النبي ﷺ.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٠١، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٢٣، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٤٨.

وبهذا انتهت مظاهرات البغداديين، واستمرت حال البلاد في الحرب والحصار، وازدادت أزمة الأمن والغذاء -أو كما قال الله تعالى: ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾- تسعة أشهر أخرى حتى نهاية هذا العام، وفي هذه الأشهر الطويلة كان محمد بن عبد الله بن طاهر قد حسم أمره بالضغط على الخليفة بالتنازل عن الخلافة للمعتز، وأن الأفضل له وللبلاد أن يستسلم ويشترط لنفسه من الأموال ما شاء قبل أن يُؤخذ كل شيء منه قهرا، ويصير إلى القتل أو الأسر، وما زال به حتى استسلم المستعين واستجاب[١].

أرسل محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المعتز بهذا التنازل، بعدما أشهد عليه وجوه أهل بغداد من القضاة والفقهاء والأشراف (مساء ١٠ ذي الحجة ٢٥١هـ)[٢].

انتهى عهد المستعين، وكان بعد خلعه يقول: اللهم إن كنت خلعتني من الملك فلا تخلعني من جنتك ورحمتك[٣]، ولم يكن فيه من الخصال المحمودة إلّا أنّه كان كريما وَهُوبا[٤].

تمردات علوية!

استمر مسلسل الثورات والتمردات في هذا العام الذي اشتعلت فيه المعارك بين المعتز (سامراء) والمستعين (بغداد)، وانتشر الخروج على الخلافة في الغرب والشرق، فسجلت هذه السنة (٢٥١هـ) ثلاثة تمردات علوية.

١) خرج الحسين بن أحمد العلوي الملقب بالكوكبي في قزوين وزنجان (ربيع الأول ٢٥١هـ)، وطرد الطاهريين واستولى على هذه الأنحاء، وسيأتي تفصيل قصته فيما بعد[٥].

٢) خرج بالكوفة الحسين بن محمد العلوي من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان من سوء موقعه أن أدرك المستعين إرسال جيش لإخماد ثورته بقيادة مزاحم بن خاقان الذي

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٠٣، ٤٠٤، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٢٣، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٤٩.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٠٤، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٤٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٧٨.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٥/ ٨٤.

(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٣٩.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٠٤، ٤٠٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٨٠، ١٨١.

استطاع هزيمة الحسين بن محمد وقتل أصحابه ثم أحرق ديار الذين كانوا معه وأخذ أموالهم[١].

٣) لكن التمرد الأخطر من بينهم كان هو تمرد إسماعيل بن يوسف العلوي من نسل الحسن بن علي على الحجاز، وقد كان مثالا سيئا للعلويين، فقد ذاق الناس منه الظلم والعسف والقتل، ويبدو أنه حمل في نفسه روح الانتقام لكل هزائم الثورات العلوية السابقة، إذ سيطر أول الأمر على مكة وهرب واليها جعفر بن الفضل العباسي فنهب منزله ومنازل أصحابه وقتل جماعة من الجنود وقتل جماعة من أهل مكة، «وأخذ ما في الكعبة من الذهب والفضة والطيب وكسوة الكعبة، وأخذ من الناس نحوا من مائتي ألف دينار»، ثم توجه نحو المدينة فهرب واليها علي بن الحسين فاستولى عليها ثم عاد إلى مكة (رجب ٢٥١هـ) فحاصر «أهلها حتى هلكوا جوعا وعطشا فبيع الخبز ثلاث أواق بدرهم، واللحم الرطل بأربعة، وشربة الماء بثلاثة دراهم، ولقي منه أهل مكة كل بلاء»، ثم توجه إلى جدة، وهناك نهب أموال التجار واستولى على السفن وقطع الإمدادت عن أهل مكة ثم عاد إلى مكة، وفي يوم عرفة منع الناس من الوقوف بعرفة وقتل من الحجاج ١١٠٠ حاج[٢]، يقول ابن كثير: «لا جزاه الله خيرا عن المسلمين... لا تقبل الله منهم صرفا ولا عدلا»[٣]، حتى لقد اعترف الأصفهاني - وهو من أصحاب البكائيات على العلويين- أن مقتله كان خيرا وقال: «وكرهت ذكره، إذ كان غرضي[٤] غير ذلك»[٥].

وقد جزاه الله بما صنع فلم تَطُل أيامه، إذ أماته الله بعد شهور، وانتهت بموته أيام عصيبة عاشها أهل الحرمين والحجاز.

***

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٩٥، والأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص٥٢١، ، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٨٠.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٠٥، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٢.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٤/ ١١.
(٤) أي غرضه من تأليف كتاب «مقاتل الطالبيين».
(٥) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص٥٢٤.



المعتز بالله

(من المحرم ٢٥٢ هـ حتى رجب ٢٥٥ هـ)

كان طويلا جسيما وسيما، أقنى الأنف، مدور الوجه، حسن الضحك، أسود الشعر مجعده، كثيف اللحية، حسن العينين، ضيق الحاجبين، أبيض البشرة، يميل إلى الحمرة وعلى خده الأيسر خال أسود(١)، وقد أثنى عليه الإمام أحمد في جودة ذهنه وحسن فهمه وأدبه حين دخل عليه في حياة أبيه المتوكل، ورُوِىَ عن علي بن حرب قال: دخلت على المعتز فما رأيت خليفة أحسن وجها منه(٢).

وأما أمه فهي جارية، واسمها «قبيحة» وقيل إنها سُميت بهذا لجمالها وحسنها باعتباره من أسماء الأضداد(٣)، وقيل بل إن المتوكل أطلق عليها هذا الاسم إغاظة لها برغم جمالها(٤).

وإن في قصة المعتز قبل الخلافة لعبرة بليغة، ذلك أنه لم يبلغ الخلافة ولم يستطعها حين كان أبوه الخليفة القوي يمهدها له ويرتب أمورها، فقُتل أبوه ثم تولاها أخوه.. ثم هو هو الذي تولاها بغير جهد ولا ترتيب ولا خطة، بل ساقتها إليه الأقدار عن غير توقع، فانتقل في لحظة من السجن إلى العرش!! ذلك ليعلم الناس أن الله بالغ أمره، وأن الأمور تجري بمقادير، وأن الأمر كله لله..

***

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ٣٨٠.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٢٤، وابن عساكر: تاريخ دمشق ١٨/ ٣١٦، ٣١٧.

(٣) بعض الألفاظ في اللغة العربية قد تحمل نفس المعنى وضده مثل: المولى فهي بمعنى السيد وبمعنى الخادم أيضا، ويقال مولاي للسيد والخادم، ومثل السليم فهي تطلق على الصحيح وعلى المريض، ومثل العليل فهي تطلق على الصحيح وعلى المريض أيضا!

(٤) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٤/ ٣٨٧، وابن الوردي: تتمة المختصر ١/ ٢٢٤، وابن تغري بردي: مورد اللطافة ١/ ١٦٤.

للوهلة الأولى نحسب أن المعتز سيجدد للخلافة شبابها، فهو شاب في الثالثة والعشرين من عمره، لديه ثأر مع الأتراك الذين قتلوا أباه وأضاعوا هيبة الخلافة، وهو قد ذاق الظلم مرتين على الأقل: مرة من أخيه المنتصر حين أبعده عن ولاية العهد، ومرة أخرى من ابن عمه المستعين حين حبسه واستولى على أمواله، فينبغي لمن هو في مثله أن يكون محبا للعدل راغبا فيه.. إلا أن هذا التوقع لم يكن في محله أبدا.

خُطب للمعتز في بغداد (٤ المحرم ٢٥٢هـ)، وانتقل المستعين إلى قصر الحسن بن سهل للإقامة فيه، ولم يكن مطمئنا لما يفعله المعتز به فأراد الرحيل إلى مكة غير أن طلبه قد رُفِض، فطلب أن يرحل إلى البصرة، وأخيرا سُمح له أن يقيم في واسط، «فصار إلى واسط بأمه وولده وسائر أهله ليجعلها دار مقامه»[١].. وكافأ المعتز محمد بن عبد الله بن طاهر، وعادت حركة التجارة إلى بغداد فبدأت تستعيد حياتها بعد قرابة سنة من اضطراب الأحوال[٢].

وأفاض الشعراء في مدح المعتز والتشفي بالمستعين، وهذا وإن كان ديدن الشعراء دائما، إلا أننا نرى فيها ما كان الناس يأخذونه على المستعين من الضعف أمام الأتراك وضياع هيبة الخلافة، وما كان يحدوهم من الأمل في المعتز الذي بدت عودته للخلافة وكأنها عودة للشرعية التي ذهبت مع تولى المستعين، ومنهم من امتزج في شعره التعاطف مع المعتز بالتنديد بضعفه مع الأتراك، فمن ذلك قول بعضهم:

كانت به الآفاق تنضح بهجة ... وهو الربيع لمن أراد ربيعا
فَجَنَتْ عليه يد الزمان بصرفه ... حرْبًا، وكان عن الحروب شسوعا
غدروا به، مكروا به، خانوا به ... لزم الفراش، وحالف التضجيعا
ولو أنه سعر الحروب بنفسه ... متلببا للقائهن دروعا
لغدا على ريب الزمان محرما ... ولكان - إذ غَدَر اللئام - منيعا
لكن عصى رأي الشفيق وعذله ... وغدا لأمر الناكثين مطيعا

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٠٦، ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٥٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٨٢.

والمُلك: ليس بمالك سلطانه   من كان للرأي السديد مضيعا[١]

وظل المستعين في واسط فيما يشبه الإقامة الجبرية مع أهله وأولاده، في عهدة القائد التركي أحمد بن طولون الذي كان حريصا على إكرامه، لكن رجال الدولة لم يطمئنوا إلى بقائه حيا، فأوعزوا إلى قبيحة أم المعتز أن لا أمان ولا اطمئنان على مُلك ولدها إلا بقتل المستعين، وتورع أحمد بن طولون عن قتله فأرسلوا غيره فقُتِل المستعين[٢].

وبهذا ظهر أن المعتز صاحب غدر وهو ما سيجني عاقبته خذلانا فيما بعد، كيف وقد أقسم أن الإسلام منه براء وأن الناس في حل من بيعته «وعهود يطول ذكرها» إن هو لم يَفِ بعهده إلى المستعين[٣]؟!

وقد امتنعت بعض الجهات عن البيعة، مثل «ابن مجاهد صاحب شمشاط وعيسى بن شيخ في فلسطين ويزيد بن عبد الله في مصر وعمران بن مهران بأصبهان»[٤].

الصراع مع الأتراك

أصدر المعتز أمرا إلى محمد بن عبد الله بن طاهر أن يحرم وصيف وبغا الصغير من الرواتب وعزم على قتلهما، غير أنهما كانا على حذر ويقظة، وقد استطاعا التوسط إلى المعتز بأخويه المؤيد والموفق فأظهر العفو عنهما، ثم حاول التآمر عليهما ليبدو قتلهما وكأنه غير صادر عنه، إلا أنهما -بالذكاء وبما لهما من علاقات- استطاعا تجاوز المؤامرة وعادا إلى منزلتهما القديمة من الجاه والمكانة[٥]!

وبهذا فشل الأمل الأول الذي عُقِد على المعتز فيما يخص الأتراك، أو لعله تحين فرصة أخرى إذ كان يعتمد على وجود الرجل القوي محمد بن عبد الله بن طاهر، لكن محمدا لن يلبث إلا سنة واحدة ثم يموت فيترك المعتز وجها لوجه مع الأتراك فتكون قصة ذات شجون..

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٠٨.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤١٥، والبلوي: سيرة ابن طولون ص٤٠، ٤١.
(٣) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥٤١ (ط٢ الشركة العالمية للكتاب).
(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٢.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤١٠، ٤١١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٨٣.

لم تمض شهور أخرى إلا وأظهر المعتز أنه طاغية يكرر سيرة من ظلموه، إذ إنه أجبر أخاه المؤيد بالله على خلع نفسه من ولاية العهد (رجب ٢٥٢هـ)، حتى إذا استخلص منه ما أراد، قَتَلَه بعد ذلك بخمسة عشر يوما، وكان حريصًا على قتله بحيث يظهر أنه مات ميتة طبيعية، فقيل وُضِع في لحاف حتى مات مختنقا، وقيل بل وضع في ثلج حتى مات من البرد، ثم أَطْلَع وجوه الناس والفقهاء والقضاة على جثته التي كانت بلا أثر ضرب أو قتل[١].

وبعد ذلك بثلاثة أشهر (شوال ٢٥٢هـ) أمر المعتز بإحضار المستعين إلى سامراء فقتله أيضا[٢]!

وبهذا ظن المعتز أن كرسي الحكم قد سَلِم له، ولكن الحقيقة أن كرسي الحكم سَلِم للأتراك، الذين تمكن نفوذهم أكثر من ذي قبل مع عودة وصيف وبغا الصغير إلى مواقعهما، حتى يُروى أن المعتز أحضر المنجمين ليسألهم عن مدة بقائه في الحكم، فقال أحد الظرفاء: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، فقالوا له: فكم تقول إنّه يعيش وكم يملك؟ قال: مهما أراد الأتراك، فلم يبق في المجلس إلّا من ضحك[٣].

هذه عين السخرية.. وأما عين الإنصاف فتقول: إن المعتز الذي ورث ملكا متضعضعًا انفجرت به الثورات لم يكن أمامه غير الاستعانة بالأتراك لاستعادة السيطرة على المناطق التي خرجت على الخلافة.

كما لم يَخْلُ الأمر من صراع بين الجند الأتراك والمغاربة في جيش الخلافة، واستطاع فيه الأتراك حسم الأمر لصالحهم (رجب ٢٥٢هـ)[٤] ، ولا من ثورات جديدة كثورة مساور بن عبد الحميد في منطقة البوازيج والتي انتصر فيها على والي هذه المنطقة بندار الطبري حتى قتله هو وجيشه (رجب ٢٥٢هـ) في هزيمة نكراء[٥] واستمر في التوسع والتقدم كما سيأتي، وكثرت التمردات في الشام ومصر وديار مضر –في الجزيرة الفراتية– وحران، وقد خرجت إليها جيوش الخلافة فأفلحت في إخماد بعضها وفشلت في الآخر[٦].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤١٤، ٤١٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٨٥.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤١٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٨٥.
(٣) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٤٠.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤١٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٨٦.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٨٦، ١٩٠.
(٦) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٣.

ولم يخل الأمر أيضا من معارك قبلية وفتن اندلعت في بعض الأنحاء كالموصل وغيرها[١].

وقد استطاع موسى بن بغا الكبير إخماد تمرد نشب في همذان قاده عبد العزيز بن أبي دلف فهزمهم هزيمتين كبيرتين فقتل منهم كثيرا وأسر كثيرا منهم أم عبد العزيز نفسه وانتهى التمرد بعد قتال ابتدأ في رجب وانتهى في رمضان (٢٥٣هـ)، ثم اتجه لإخماد ثورة الحسين بن أحمد الكوكبي في قزوين، فاستطاع استرجاع قزوين وهرب الكوكبي منه إلى أرض الديلم (ذي القعدة ٢٥٣هـ)[٢].

وعلى قدر ما كانت انتصارات موسى بن بغا تمهد للخلافة فإنها كانت أيضا تمكن للأتراك فيها، فحين كان موسى بن بغا ينتصر على عبد العزيز بن أبي دلف في قزوين كان الخليفة المعتز في سامراء يزيد في مرتبة بغا الصغير (أو بغا الشرابي) فخَلَع عليه، وألبسه التاج والوشاحيْن[٣]، وكان من حسن حظ بغا هذا أنه لم يمض على هذا شهر واحد حتى كان تمرد في فرق الأترك والمغاربة والأشروسنية سببه المطالبة بالرواتب المتأخرة قد أفضى إلى قتل القائد التركي وصيف الذي واجه احتجاج الجند بلا مبالاة وتحدٍ فدفع ثمن هذا من حياته (٢٧ شوال ٢٥٣هـ)، فأفضى كل ما كان لوصيف من المناصب إلى بغا الشرابي[٤].

ولا شك أنها كانت أياما بالغة السعادة على بغا الشرابي الذي حاز في أيام ما يظل غيره يسعى إليه سنين كثيرة، إلا أنه ما كان يعلم في تلك اللحظة أن هذا لن يدوم إلا قليلا!

ولسبب غير معروف تخلص المعتز من أخيه أبي أحمد، ذي الشخصية القوية وصاحب الانتصار على المستعين، فنفاه إلى واسط ثم إلى البصرة ثم إلى بغداد، وكذلك نفى عمه علي بن المعتصم إلى واسط ثم إلى بغداد[٥].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٩١.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢/ ٣٩٨، والطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢٣ وما بعدها، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٣.

(٣) خَلَع عليه: أي ألبسه، والتاج والوشاحان من رسوم وتقاليد التكريم.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢١، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٤.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢٣، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٦٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٩٢.

إذا أعملنا الظن فسيتجه نحو عامليْن: وشاية الأتراك الذين لا شك يؤرقهم ويفسد أمرهم وجود عباسي قوي كأبي أحمد، أو رغبة المعتز في التخلص من عباسيين أقوياء ليستقر له أمر الخلافة، فإن الأتراك لا يجرؤون على منافسته في الخلافة، فكان التخلص من أبي أحمد تخلصا من منافس قد ينقلب عليه من نفسه أو قد يكون بديلا يلجأ إليه الأتراك إن ساء حالهم مع المعتز[1]!

وكانت وفاة محمد بن عبد الله بن طاهر نائب العراق (٢٥٣هـ) مما زاد في تغير خريطة موازين القوى بين رجال الخلافة، فَقَدْ فَقَدَ المعتز بموته أحد أقوى الرجال الموالين له وأكثرهم إخلاصا، واشتد حزن المعتز عليه، وكان يرى أن الأتراك يهابونه من أجله ولمكانه، ورثاه بشعر يقول فيه:

ذَهَبَتْ بهجة الخلافة عنا ... حين أضحى محمد في القبورْ

عن قليل تكون أحداث دهر ... من سنا نارها يشب السعيرْ[2]

وضعف أمر المعتز حتى لم يكن له أمر ولا نهي[3].

أفضى كل هذا إلى أن دخلت سنة (٢٥٤هـ) وقد صار السيد الأكبر في سامراء هو بغا الشرابي الذي لم يعد لنفوذه حدود، وقد وَثَّق هذا النفوذ بتزويج ابنته من صالح بن وصيف، وصار يَحُضُّ المعتز على الذهاب إلى بغداد، وهو ما رفضه المعتز بإصرار، وكيف يقبل والذاكرة ما زالت تحتفظ بما حدث للمستعين عندما ذهب إلى بغداد فضاعت منه الخلافة؟! وساءت العلاقة بين المعتز وبغا الشرابي حتى كان المعتز - وهو الخليفة- لا ينام إلا ومعه سلاحه وفي حراسة مشددة داخل قصره، حتى غلمانه وجواريه كانوا من قوة الحراسة، ثم انتهز المعتز فرصة انشغال بغا الشرابي بتجهيز ابنته وتوصل إلى بايكباك –أحد القادة الأتراك خصوم بغا الشرابي- في ناحية الكرخ بسامراء، فتجهز بايكباك ومن معه ومن أراد مناصرة الخليفة وعادوا في قوة إلى قصر الجوسق في سامراء، وكان بغا الشرابي من ناحيته يدبر مع صالح بن

---

(١) ولكن نفيه هذا لم يستمر طويلا، بل إننا نراه ينوب عن أخيه الخليفة في حضور جنازة على بن محمد بن علي العلوي، وهو الإمام الهادي عند الشيعة (جمادى الآخرة ٢٥٤هـ). انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٥. إلا أن ما ورد في المصادر الأخرى عن بقاء الموفق بمكة حتى وفاة المعتز يخالف رواية اليعقوبي هذه.

(٢) الشابشتي: الديارات ص١٢٨.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٤.

وصيف ومع الأتراك مؤامرة لإنهاء الجنود المغاربة في سامراء ثم لقتل المعتز[1].

وصل الخبر إلى بغا الشرابي الذي علم أنه لا محالة مقتول، فخرج ومعه خمسمائة من أتباعه وما استطاع أخذه من الأموال والنفائس، ولم يكن أتباعه يعلمون أنهم قد يُقبلون على مواجهة مسلحة، فلما علموا طلبوا أن يأذن لهم بالرجوع والتجهز، ولم يكن لمثله في هذا الموقف أن يتخلى عن حراسته وهو في حكم المطلوب المطارد، فانسل من بينهم مع خادمين ودون سلاح –لمزيد من التخفي– وركب مركبا يريد الهرب دون أن يشعر به أحد حتى من أتباعه، لكن واحدا من شرطة جسر سامراء استراب في هذا المركب وقبض على أصحابه، وفوجئ بأنه أمام الرجل الأول في الدولة، فطلب منه بغا أن يوصله إلى منزله أو إلى منزل صالح بن وصيف (القائد التركي وزوج ابنته)، لكن الشرطي الذكي علم أن بُغا في حكم الهارب فانطلق إلى قصر المعتز وأخبره بالخبر فأمره المعتز بقتل بغا الشرابي من فوره وأن يأتي برأسه، ففعل ما أمره به، فكافأه المعتز بعشرة آلاف دينار، ونصب رأسه في سامراء وفي بغداد، وأخذ الجنود المغاربة –وكانوا ذوي ثأر منه– جثته فأحرقوها، وتتبع المعتز أبناءه الذين هربوا إلى بغداد فحبسهم[2].

ثم جاء إلى المعتز خبر سعيد آخر، ذلك هو انتصار القائد مفلح على الحسن بن زيد العلوي الذي كان قد استولى على طبرستان، ودخوله – أي مفلح– إلى «آمل» حاضرة طبرستان، وأخذ في مطاردة الحسن بن زيد في أرض الديلم (أوائل ٢٥٥هـ)[3]، وكان الحسن بن زيد قد انسحب أمام الجيش العباسي فما كان بإمكانه المواجهة، لذا فما إن رجع جيش الخلافة حتى عاد مرة أخرى وأعاد تنظيم أمره في طبرستان[4].

على كل حال، لم تطل أيام السعادة على المعتز، ففي أطراف الخلافة كان تمرد كبير يقوده يعقوب بن الليث الصفار في كرمان يستفحل ويزيد، وهو ما سيؤدي إلى نشوء الدولة الصفارية، وسنأتي إلى تفصيل ذلك بعد قليل، وفي داخل سامراء كان الصراع قد اشتعل بين صالح بن وصيف –الذي صار زعيم الأتراك بعد مقتل بغا الشرابي– من ناحية وبين أحمد بن

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٩٤.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢٥، ٤٢٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٩٤.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٠٤.
(٤) عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام ص٢١.

إسرائيل –كاتب الخليفة– والحسن بن مخلد –كاتب أم الخليفة– وغيرهما، وقد نشب الصراع على رواتب الجند الأتراك، ولكنه في الحقيقة كان صراعا على نفوذ الأتراك نفسه، وانتهى الأمر لأكثرهم قوة وجندا وهو وصيف بن صالح الذي أخذ هؤلاء وغيرهم فسجنهم على رغم أنف الخليفة المعتز وأمه وألزمهم أموالا طائلة، وأجبر الخليفة على تعيين غيرهم في مناصبهم، ولم يقبل فيهم لا شفاعة المعتز ولا أمه (جمادى الآخرة ٢٥٥هـ)(١).

وكان ما زاد الطين بلة أن تمردا علويا آخر نشب في الكوفة قاده عيسى بن جعفر وعلي بن زيد الحسنيان بالكوفة وقتلا الوالي العباسي عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى (٢ رجب ٢٥٥هـ) واستفحل أمرهما بها(٢).

فتلة مهينة

على أن المشهد في سامراء تطور إلى سابقة جديدة، فقد فشل الأتراك الذين طالبوا برواتبهم في الحصول على أية أموال، فبيت المال فارغ، والكُتَّاب الذين أخذوهم لم يعترفوا رغم كل ما وقع لهم بأماكن الأموال المختزنة، فلم يبق لهم إلا أن دخلوا على قصر الخليفة نفسه مطالبين إياه بالأموال والرواتب، وعرضوا أنهم يقتلون صالح بن وصيف إن أخذوا عطاءهم، ولم يكن لدى المعتز ما يعطيهم منه، فأرسل إلى أمه ذات المال فأجابته أن ليس عندها مال، وعند ذلك اقتحم الأتراك قصر الخلافة وأخذوا الخليفة وضربوه، بل وعذبوه بالإيقاف في فناء الدار تحت الشمس في شدة الحرارة، وكان أحدهم يصفعه حتى بكى الخليفة!! وحبسوه في مكان ضيق، ومنعوه الطعام والشراب، وما زالوا به يعذبونه حتى أجابهم إلى خلع نفسه من الخلافة (٢٧ رجب ٢٥٥هـ)(٣).

ثم أحضر الأتراك عم أبيه محمد بن الواثق –الذي كان المعتز قد نفاه إلى بغداد– ليتولى الخلافة، على أن محمدا رفض أن يتولاها إلا أن يرى المعتز ويسمع منه، ثم أُدخل عليه فرآه في

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢٩، ٤٣٠، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٧٩، وابن الأثير: الكامل في التايخ ٦/ ٢١٢، ٢١٣.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٣٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢١٣.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٣٠، ٤٣١، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٨٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٩٩، ٢٠٠.

أسوأ حال، وحاول التوسط بينه وبين الأتراك وإصلاح الأمر إلا أن الحال كان قد أفلت واعترف له المعتز «لا حاجة لي فيها (الخلافة) ولا يرضون (الأتراك) بي»، فعندئذ كُتِبَت وثيقة يشهد فيها المعتز على نفسه بالعجز ويبايع فيها المهتدي(١).

وكانت هذه بداية طيبة من الخليفة الجديد تدل على احترام هيبة الخلافة وشرعية السلطة، كما أن المهتدي أراد أن تكون بيعته موافقة للتقليد السائد دون أن يكون للقادة الأتراك فضل في تنصيبه، وهذا يعكس بطبيعة الحال خطط الخليفة لجعل الخلافة قوة فعالة غير واقعة تحت نفوذ العسكريين(٢).

ولم تمض أيام حتى وقع بالمعتز ما فعله في أخيه المؤيد، إذ حرص الأتراك على قتله قتلة لا يظهر فيها أثر القتل، فأدخلوه إلى سرداب ثم ملأوه بالجير حتى مات (٢ شعبان ٢٥٥هـ) ثم أخرجوه سليم الجسد ليشهد عليه الأعيان ووجوه الناس أنه مات ميتة طبيعية دون قتل(٣).

وهكذا انتهى ملك المعتز أسوأ نهاية، وذاق بنفسه ما فعله في المستعين وأخيه المؤيد في أول عهده!

ظهور الدولة الطولونية

ولَّى المعتز ديار الشام ومصر والشمال الإفريقي لقائد تركي اسمه بايكباك -وفي روايات أخرى أنه «يارجوخ»- فكان بايكباك نائبا على هذه المناطق، هو يقيم بحاضرة الخلافة ويُرسِل نوابا له على الأقاليم الأخرى يتولون إدارتها، فولَّى يارجوخ قائدا تركيا من الصف الثاني -اسمه أحمد بن طولون- ولاية مصر (٢٥٤هـ)، فاستقل بمصر على الحقيقة، وأسس هناك دولته المعروفة بـ«الطولونية»(٤).

إن أهم ما فعله أحمد بن طولون هو تكوين جيش يدين له بالولاء، وقد ساعدته مصر بما فيها

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٣١، ٤٣٢، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٨١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٠١.

(٢) د. فاروق عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٢٨، ٢٩.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٣١، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٨٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٠٠.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢٦، والبلوي: سيرة ابن طولون ص٤٢.

من خيرات وموارد بالاستقلال المالي الذي سمح له بتكوين هذا الجيش دون أن يضطر للإغارة على بلاد أخرى[١]، ونجح ابن طولون في صناعة جيش لم يقم بتمرد عليه ولم تندلع فيه فتنة[٢].

كان أحمد بن طولون من أصحاب المواهب والشخصيات القوية، وقد نشأ في كنف الخلافة لأن أباه كان من الأتراك الذين يتبعون الخليفة المأمون، وحينما وصل إلى مصر بدأ في إصلاح أمرها، فأقر العدل وأصلح في السياسة المالية بما عاد عليه وعلى الناس وعلى البلاد بالخير والغنى، وبنى فيها جامعه المشهور الذي ضاهى جامع الخلافة في سامراء، كما بنى مستشفى للمرضى وكان يتصدق من ماله الخاص بألف دينار شهريا، وبلغ خراج مصر في عهده أكثر من أربعة ملايين دينار في السنة[٣].

وسيكون لنا وقفة أخرى مع الدولة الطولونية وعلاقتها التي شهدت فصولا مثيرة مع الخلافة العباسية فيما بعد.

بداية الدولة الصفارية

تجمعت عوامل نشوء تمرد جديد في سجستان، إذ ضعفت الأسرة الطاهرية التي تحكم خراسان التي تتبعها سجستان، وكالعادة كان آخر الحكام يجمعون بين ضعف السياسة وقلة الرشد وانتشار الظلم، كذلك فإن وقوعها في أطراف المملكة جعلها أبعد عن قبضة السلطة، وهذا ما جعلها أيضا مركزا مناسبا تتمركز فيه حركات الخوارج، ثم ظهرت شخصية البطل القوية والزعيم الموهوب لتكتمل عوامل التمرد الجديد في سجستان، وكان ذلك الرجل

---

(١) من المعضلات المتكررة في كل محاولة ثورة أو محاولة استقلال هو هذا الاستقلال المالي، ذلك أن الثائر أو المتمرد يحتاج لتكوين جيش قوي يمثل الحماية لهذا الاستقلال، هذا الجيش يحتاج إلى موارد لكفايته وإعداده، فإن لم تكن الأرض -مركز الثورة- غنية بالموارد كان ذلك الثائر مضطرا للإغارة على مدن أخرى للاستيلاء على مواردها لكفاية حركته وجيشه، ولكن هذا التوسع يحتم عليه المزيد من القوة لحمايته وتأكيده والدفاع عنه، وهكذا تنشأ «الدائرة المفرغة»: الجنود يحتاجون موارد، والموارد تستدعي المزيد من الجنود لمزيد من الحماية، والمزيد يستدعي المزيد.. إلخ! ولهذا فإن بعض المناطق تعتبر مناطق مثالية للاستقلال لا سيما تلك الغنية بالموارد، ومنها مصر، فمصر على طول التاريخ قادرة -بحسن الإدارة والترتيب- على تمويل نهضة كبرى، وهي أرض خصبة لصناعة حضارة زاهرة ودولة قوية في وقت وجيز!

(٢) د. عبد العزيز جمال الدين: تاريخ مصر ٥/ ٣٨١.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ١٢٤، ود. صبحي عبد المنعم: تاريخ مصر السياسي والحضاري ص٦٦، ٦٧.

يحمل اسم: يعقوب بن الليث الصفار[١]، وكان بُعْد سجستان وضعف السلطة فيها ما أدى إلى انفلات أمني في نواحيها، وسيطرت جماعات من العَيَّارين[٢]، واستطاع يعقوب أن يكون قائدا لجماعة العيارين المحلية في بلدة زرنج، ثم استطاع توحيد هذه الجماعات في كيان واحد تحت قيادته بعد معارك حربية ودبلوماسية أيضا، فصارت لديه قوة لا يمكن الاستهانة بها[٣].

(١) الصَفَّار: هو صانع النحاس الأصفر. انظر: المعجم الوسيط ١/٥١٦، وقد عمل يعقوب أول حياته صَفَّارًا فعُرِف بهذا اللقب. انظر: ابن فندق: تاريخ بيهق ص١٧٥.
(٢) العيارون هم ما يُعرفون في اصطلاحنا المعاصر بالفُتُوَّات.
(٣) عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام ص١٠١ وما بعدها، ود. عصام الدين عبد الرؤوف: الدول المستقلة في المشرق ص٣٥.

وكان أول استعمال لهذه القوى ضد الخوارج في سجستان، فألحق بهم هزيمة قاسية[١]، وتمكن بذلك من السيطرة على سجستان (٢٥١هـ) وبسط سيطرته عليها وتعيين الولاة على بلدانها ونواحيها، وساعد على ذلك ضعف الأسرة الطاهرية التي لم تستطع مواجهة هذا التمرد أو لعلها رأت فيه خيرا إذ خَلَّصها من الخوارج المزعجين في سجستان، وظهرت قوة يعقوب حين شن حربا على كابول[٢] لأن ملكها الرتبيل[٣] حاول مساعدة منافس يعقوب، فضم بذلك أجزاء إلى ملكه لم تكن تحت سيطرة الخلافة[٤].

ثم بدأ يعقوب في التوسع إلى الغرب فانتصر على الطاهريين في هراة وبوشنج (٢٥١هـ) ثم بدأ في الاستيلاء على ولاية كرمان، وكانت بقايا الخوارج قد تجمعوا وأعادوا تنظيم أنفسهم في قلعة بم، وبعد معارك عنيفة باسلة انتصر عليهم يعقوب الصفار واقتحم عليهم القلعة (٢٥٣هـ)، ثم تواجه مع والي فارس علي بن الحسين -وكان هو الآخر يطمع بكرمان ويريدها على غير رغبة الخلافة العباسية التي بعثت لكل منهما قرارا بتوليته كرمان رغبة في إشغالهما ببعض ثم التفرغ لمن انتصر منهما. واستطاع يعقوب هزيمة جيش لعلي بن الحسين عند رافسنجان (٢٥٥هـ) فاستولى بذلك على ولاية كرمان وضمها إلى أملاكه، ولم ينتظر بل استكمل سيره المفاجئ فهزم جيش علي بن الحسين نفسه واستولى على اصطخر ثم تعقب علي بن الحسين الذي كان قد هرب إلى شيراز ففاجأه يعقوب فيها فهزمه وأسره (٢٥٥هـ) وبذلك ضم يعقوب إلى ملكه أقليم فارس أيضا[٥].

وفي أثناء هذه الحروب كان الصفار حريصا على إظهار الطاعة للخليفة، وأرسل إلى المعتز بالله هدايا فاخرة من الدواب والطيور والثياب، ولم يكن أمام الخلافة الضعيفة والتي تعاني المشكلات في قلب العاصمة إلا أن تعترف بالأمر الواقع وتعطي ليعقوب شرعية الولاية على المناطق التي استولى عليها في كرمان وفارس[٦].

وسيكون لنا عودة مع يعقوب الصفار فيما بعد لنرى فصول قصة بليغة في تاريخ الدولة العباسية.

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٩.

(٢) عاصمة أفغانستان الآن.

(٣) الرتبيل: لقب يعني «راكب الأفيال» وهي كناية عن المُلْك.

(٤) عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام ص١٠٣، ١٠٤.

(٥) عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام ص١٠٤ وما بعدها، ود. عصام الدين عبد الرؤوف: الدول المستقلة ص٣٥.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٢٩، ود. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١٢٢ - ١٤٢.



المهتدي بالله

(من رجب ٢٥٥ هـ إلى أن خلع في رجب ٢٥٦ هـ)

وُلِد في سامراء (٢٠٩هـ)، وكان أسمرا رقيقا جميلا أحنى حسن اللحية، وأمه جارية كغيره من خلفاء العباسيين واسمها «قرب»[١].

لقب محمد بن الواثق بالمهتدي بالله، وكان رجلا صالحا زاهدا ورعا، فيه شجاعة وإقدام، لكنه لم يكن على مستوى الخلفاء الأوائل من قوة الشخصية والفطنة، ولو أنه اكتملت له هذه الصفة لكان كعمر بن عبد العزيز في الدولة الأموية ولجدد شباب الدولة العباسية، ومن يدري؟ لعله كان كذلك لكن خلو الساحة من عصبة أموية كالتي كانت لعمر أو فارسية كالتي كانت للخلفاء الأوائل هو سبب إخفاقه، فلم يواجه أولئك الخلفاء عصبة قوية متحدة ذات نفوذ كالأتراك الذين واجههم المهتدي.

كان أول من بايع المهتدي هو المعتز بالله (٢٩ رجب ٢٥٥هـ) قبل أن يُقتل، ثم بايعه الخاصة ثم العامة، وبهذه البيعة هدأت احتجاجات شعبية اشتعلت في بغداد الذين كان قد وصل إليهم ما آل إليه أمر المعتز فنادوا بالبيعة لأخيه أبي أحمد، فلما وصل إليهم خبر بيعة المهتدي (٧ شعبان ٢٥٥هـ) هدأت الأمور بعد سقوط ضحايا كثيرين[٢].

ولم تمض ثلاثة أشهر على خلافة المهتدي حتى استيقظ أهل سامراء (رمضان ٢٥٥هـ) على خبر مفجع مدهش، ذلك أنه تم الكشف عن ثروات هائلة عند أم الخليفة المعتز، تقدر بمليوني دينار، بخلاف نفائس من الجواهر والأحجار الكريمة، بخلاف دخل سنوي من الأراضي والمزارع يقدر بعشرة ملايين في السنة، وقد كانت تستطيع استخلاص ملك ابنها وحياته بخمسين ألفا فقط يدفعها رواتب للجند الأتراك المتمردين، ويبدو أن حبها للقائد

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٧.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٣٢، ٤٣٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٠١، ٢٠٢.



التركي صالح بن وصيف كان أقوى لديها من حماية ابنها، فلقد كانت أثناء الأزمة مختفية في بيته ثم تزوجته –رغم العداوة بينه وبين ولدها– ثم آل الأمر في النهاية إلى أن كانت تدعو عليه: «اللهم اخز صالح بن وصيف كما هتك ستري وقتل ولدي وبدد شملي وأخذ مالي وغربني عن بلدي وركب الفاحشة مني»(١).

كان الخليفة صالحا، قرر أن يعيش زاهدا لا يأخذ هو ولا أهله إلا بقدر ما يكفيهم، قال يوما للأمراء: «إني ليست لي أم لها من الغلات ما يقاوم عشرة آلاف ألف دينار، ولست أريد إلا القوت فقط لا أريد فضلا على ذلك إلا لإخوتي، فإنهم مستهم الحاجة»، وأمر بإبطال الملاهي ورد المظالم وأن يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومنع الخمور، وجلس بنفسه للنظر في شكاوى العامة ومظالمهم، وكان يصلي بالناس ويخطب الناس(٢)، وكان يقضي بالثوب الواحد عدة أيام لزهده(٣).

وكان صالح بن وصيف هو زعيم الأتراك والرجل القوي في الدولة فعليا، وكان ينفذ أموره على رغم الخليفة الذي وإن كان شجاعا إلا أنه في بداية الدولة لم يتمكن منها، فبعد أن استخلص صالح بن وصيف أموال الوزير أحمد بن إسرائيل كاتب المعتز وأبي نوح عيسى بن إبراهيم، جلدهما ثم طاف بهما على بغلة لمزيد من الإهانة حتى ماتا على هذه الحال! وما استطاع الخليفة أن يفعل شيئا(٤).

صراع النفوذ

استدعى الخليفة موسى بن بغا الكبير من قزوين –حيث كان يُخمد ثورة الكوكبي– لكي يتقوى به وبجنوده الأتراك على صالح بن وصيف والأتراك في سامراء، فوصل إلى سامراء (١٢ المحرم ٢٥٦هـ) في جيش عظيم، ذلك أن موسى بن بغا من ناحيته يعلم أن هذا الاستدعاء إما أن يكون ليتقوى الخليفة به وينزله مكان صالح بن وصيف، وإما أن يكون صالح قد أجبر الخليفة عليه ليتخلص من القائد التركي القوي وتصفو له الأمور، فموسى

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٣٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٠٢، ٢٠٣.
(٢) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥٥٧. (ط الشركة العالمية للكتاب)، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٣.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٧.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٣٥، ٤٣٦، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٧.

من ناحيته يكره صالحًا الذي استولى على الأموال الكثيرة وحاز النفوذ الواسع بل وتزوج أم الخليفة فوق كل هذا!

لذا فما إن وصل الجيش إلى قصر الخلافة واستأذنوا للدخول على المهتدي –وقد كان جالسا للنظر في شكاوى الناس وقضاياهم- فأمهلهم المهتدي إعطاء الإذن حتى يفرغ من شكاوى الناس، فلما تأخر الإذن ثارت بهم الشكوك وتوقعوا أنها خدعة وأن الخليفة غدر بهم، فما لبثوا أن اقتحموا عليه مجلس النظر في المظالم وأقاموه مهانا من مجلسه وأخذوه إلى قصر آخر ليتخلصوا من احتمال وجود كمين، فأصيب الخليفة بالدهشة والذعر وقال لموسى بن بغا: ما لك ويحك؟ إني إنما أرسلت إليك لأتقوى بك على صالح بن وصيف! فقال موسى: لا بأس عليك احلف لي أنك لا تريد بي خلاف ما أظهرت. فحلف له المهتدي، فطابت الأنفس وبايعوه بيعة ثانية مشافهة وأخذوا عليه العهود والمواثيق أن لا يمالئ صالحا عليهم، واصطلحوا على ذلك(١).

وبهذا قَوِي أمر الخليفة، وأرسل إلى صالح بن وصيف للتحقيق معه في ما جرى للمعتز وفي تعذيبه وقتله لكُتَّاب الدواوين، فوعدهم صالح بالحضور ثم هرب واختفى ووضعته الشرطة على قائمة المطلوبين، وأعلنت مكافأة عشرة آلاف دينار لمن أتى به(٢)!

على أن اختفاء صالح بن وصيف لأكثر من شهرين جعل الشكوك تعود إلى موسى بن بغا، وفهموا بعض كلام الخليفة الذي يدعو إلى التآلف والتهادن على أنه يعرف مكان صالح بن وصيف، فتآمروا لخلع المهتدي وقتله لإنهاء ما يمكن أن يكون مؤامرة عليهم لحساب صالح بن وصيف، على أن هذا الرأي لم يلقَ ترحيبا، فقال أحدهم: «إنكم قتلتم ابن المتوكل وهو حسن الوجه سخي الكف فاضل النفس، وتريدون أن تقتلوا هذا وهو مسلم يصوم ولا يشرب النبيذ من غير ذنب؟! والله لئن قتلتم هذا لألحقن بخراسان ولأشيعن أمركم هناك»(٣).

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٥٨، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ١٠٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢١٤.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٥٨، ٤٥٩، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٣/ ٤٠٣، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ١٠٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢١٤، ٢١٥.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٦٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢١٥.

ولما بلغ هذا الخبر المهتدي خرج إلى مجلس الخلافة «متقلدا سيفا وقد لبس ثيابا نظافا وتطَّيب ثم أمر بإدخالهم إليه فأبوا ذلك مليا ثم دخلوا عليه فقال لهم:

إنه قد بلغني ما أنتم عليه من أمري ولست كمن تقدمني مثل أحمد بن محمد المستعين ولا مثل ابن قبيحة، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط وقد أوصيت إلى أخي بولدي وهذا سيفي، والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدي، والله لئن سقط من شعري شعرة ليهلكن أو ليذهبن بها أكثركم أما دين؟! أما حياء؟! أما رعة؟!![1] كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والإقدام والجرأة على الله سواء عليكم من قصد الإبقاء عليكم ومن كان إذا بلغه مثل هذا عنكم دعا بأرطال الشراب فشربها مسرورا بمكروهكم وحبا لبواركم؟! خبروني عنكم: هل تعلمون أنه وصل إلي من دنياكم هذه شيء؟! أما إنك تعلم يا بايكباك أن بعض المتصلين بك أيسر من جماعة إخوتي وولدي[2]؟! وإن أحببت أن تعرف ذلك فانظر هل ترى في منازلهم فرشا أو وصائف أو خدما أو جواري أو لهم ضياع أو غلات سوءة لكم ثم تقولون: إني أعلم علم صالح؟! وهل صالح إلا رجل من الموالي وكواحد منكم فكيف الإقامة معه إذا ساء رأيكم فيه؟ فإن آثرتم الصلح كان ذلك ما أهوى لجمعكم وإن أبيتم إلا الإقامة على ما أنتم عليه فشأنكم فاطلبوا صالحا ثم ابلغوا شفاء أنفسكم وأما أنا فما أعلم علمه.

قالوا: فاحلف لنا على ذلك.

قال: أما اليمين فإني أبذلها لكم ولكني أؤخرها حتى تكون بحضرة الهاشميين والقضاة والمعدلين وأصحاب المراتب غدا إذا صليت الجمعة»[3].

فهدَّأ هذا من روع الأتراك ولانوا لهذا الكلام، ثم ذهب الشك أكثر حين قُبِض على صالح بن وصيف، فأخرجوه مهينا ذليلا ثم قتلوه (٢٢ صفر ٢٥٦هـ) ثم طافوا برأسه[4].

(١) أما حياء: أي ألا تستحون، أما رِعة: أي ألا ترعوون وترتدعون وتكفون.

(٢) أي أن بعض أتباع القائد بايكباك أكثر مالا وغنىً من أهل الخليفة نفسه!

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٦٠، ٤٦١، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ١٠١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢١٥.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٦٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢١٨.

مقتل الخليفة

بعد ذهاب صالح بن وصيف كان الزعماء الكبار الأتراك هم موسى بن بغا الكبير، وبايكباك الذي شارك من قبل في قتل وصيف ثم في قتل ابنه صالح بن وصيف، ومُفْلِح وهو أحد القيادات العسكرية البارزة.

خرج القُوَّاد الثلاثة على رأس جيش من الأتراك (١ جمادى الأولى ٢٥٦هـ) لمواجهة تمرد مساور بن عبد الحميد الخارجي الذي لم يزل يتوسع وتشتد قبضته على البلاد، وحدثت بينهم معركة غير حاسمة، هُزِم فيها مساور ولكنه هرب منهم استعدادا لجولة أخرى[1].

فكَّر الخليفة الذي يحاول استعادة نفوذ الخلافة الضائع بين الأتراك في أن يستعيد أسلوب المتوكل من قبل بالإيقاع بين قادة الأتراك لتفريق كلمتهم، فأرسل رسالة سرية إلى بايكباك مفادها أن يتولى هو قيادة الجيش بدلا من موسى بن بغا، وأن يعود به إلى سامراء متوقفا عن تتبع مساور الخارجي، إلا أن بايكباك أطلع موسى بن بغا على هذه الرسالة، فاتفقا على الخليفة وتركا الحرب وعادا إلى سامراء لمواجهة الخليفة الذي لم يُقَدِّر أن هذا سيحدث[2]!

فما إن وصل كل هذا إلى موسى بن بغا حتى رجع عن سامراء مع جنوده ولم يدخلها، بينما تظاهر بايكباك بالتوبة والسمع والطاعة للخليفة ودخل بإذنه إلى سامراء (١٢ رجب ٢٥٦هـ)، ثم أُدخل إلى مجلس الخليفة، وأغلظ له الخليفة في القول أنه لم يقتل موسى بن بغا، فاعتذر بأنه لم يستطع، فحبسه الخليفة في داخل القصر، فلما طال خروجه على أتباعه شعروا بالخطر وحاصروا القصر، فتردد المهتدي في قتله في ظل بوادر الانقلاب العسكري هذا، فاستشار الخليفة الأمراء والسادة من بني هاشم في قتله، ثم مال الخليفة إلى قتله لإنهاء الفتنة والتمرد، وذَكَّره صالح بن علي –وهو حفيدٌ لأبي جعفر المنصور– بما فعله جده أبو جعفر مع أبي مسلم الخراساني، فقال: «يا أمير المؤمنين إنه لم يبلغ أحد من آبائك ما بلغته من الشجاعة والإقدام، وقد كان أبو مسلم أعظم شأنا عند أهل خراسان من هذا التركي عند أصحابه، فلما

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٦٨، والمسعودي: التنبيه والإشراف ص٣١٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢١٩.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٦٨، ٤٦٩، والمسعودي: التنبيه والإشراف ص٣١٧، ٣١٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٢٠.

كان إلا أن طرح رأسه إليهم حتى سكنوا وقد كان فيهم من يعبده ويتخذه ربا، فلو فعلت مثل ذلك سكنوا، فأنت أشد من المنصور إقداما وأشجع قلبا»، فأمر المهتدي بقتله(١).

على أنه ينبغي أن نتذكر أن أبا جعفر المنصور نفسه اعترف بأنه أخطأ حين قتل أبا مسلم الخراساني وهو في قلة من الجند بينما جيش أبي مسلم في كامل قوته، وكان من حسن حظ المنصور أن سارت الأمور في مصلحته فلم يتمرد جيش أبي مسلم بعد مقتله(٢).

هذا الذي كان من حسن حظ المنصور كان من سوء حظ المهتدي..

لقد جمع المهتدي جيشا من الجنود المغاربة والأشروسنية والفراغنة والأرز(٣) وبعض من الأتراك الذين لا يدينون بالولاء لهؤلاء الزعماء، وأضيف إلى هذا انحياز شعبي واسع للخليفة الذي حقق العدل وأخذ نفسه بالزهد والتقوى، وهو الآن يقاوم الأتراك الذين تسلطوا على الخلافة وتجرؤوا على الخلفاء وآل بيتهم، فوزعوا المنشورات في المساجد والأسواق «يا معشر المسلمين: ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن عبد العزيز أن ينصره الله على عدوه»، وكان المهتدي على رأس الجيش يقاتل بنفسه والمصحف في عنقه تذكيرا للناس ببيعتهم له وتحريضا لهم للدفاع عنه(٤).

لم يكن أتراك بايكباك كأنصار أبي مسلم الخراساني، إذ لما قُتِل بايكباك (رجب ٢٥٦هـ) وأُلْقي برأسه إلى الأتراك غضبوا واتحدوا تحت قيادة ظغوتيا –أخي بايكباك– وعزموا على حرب الخليفة نفسه، ولما نشبت المواجهة بين جيش الخليفة وبين الأتراك انحاز الجند الأتراك الذين مع الخليفة إلى جيش ظغوتيا، فكان هذا من أهم أسباب الهزيمة، إذ انهار به جيش الخليفة وتشتتوا(٥).

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٦٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) قال المنصور: « أخطأت ثلاث خطيات وقاني الله شرها قتلت أبا مسلم وأنا في خرق ومن حولي يقدم طاعته ويؤثرها ولو هتكت الخرق لذهبت ضياعا...» الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٦.

(٣) تنقسم قبائل الأتراك فيما وراء النهر إلى عدد من الأقاليم منها: إقليم فرغانة فإليه يُنسب «الفراغنة» ومنها إقليم أشروسنة فإليه يُنسب الأشروسنية، وقد ظل هؤلاء الأتراك منقسمين في كتائبهم في الجيش العباسي بحسب تقسيمهم القبلي.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٦٩.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٦٩، والمسعودي: التنبيه والإشراف ص٣١٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٢١.

حاول الخليفة الهرب ولجأ إلى بيت صاحب الشرطة إلا أن هروبه لم ينجح، وتمكن الأتراك من إدراكه في الدار التي هرب إليها ثم أسروه بعد إصابته بسهم، وحملوه مهانا على دابة ليس عليه إلا ثوب خفيف وسراويل، ثم أخذوا في إهانته وتعذيبه صفعا وبصقا، وأُجبر على التوقيع على ستمائة ألف دينار، ثم أسلموه إلى أحدهم فما زال يعذبه حتى قتل تحت التعذيب (١٨ رجب ٢٥٦هـ)[١].

وفي رواية المسعودي أنهم بعد ذلك ندموا وبكوا حين تبين لهم زهده وورعه، ومن الغريب في هذه الرواية أنهم أفصحوا عن رفضهم لسياسة المهتدي المستقيمة، فقالوا: «أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها؟ فقال: أريد أن أحملهم على سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته والخلفاء الراشدين، فقيل له: إن الرسول ﷺ كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، وأنت إنما رجالك ما بين تركي وخزَرِي وفرغاني ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة؟ فكثر منهم ومنه الكلام والمراجعة في هذا المعنى وأشباهه»[٢].

الخليفة الصالح

قال مؤرخ بغداد الخطيب البغدادي: كان المهتدى بالله من أحسن الخلفاء مذهبا وأجملهم طريقة وأظهرهم ورعا وأكثرهم عبادة[٣]، «وكان يحب الاقتداء بما سلكه عمر بن عبد العزيز الأموي في خلافته من الورع والتقشف وكثرة العبادة وشدة الاحتياط، ولو عاش ووجد ناصرا لسار سيرته ما أمكنه، وكان من عزمه أن يبيد الأتراك الذين أهانوا الخلفاء وأذلوهم، وانتهكوا منصب الخلافة»[٤].

ويبدو أنه لم يأخذ سبيل التدرج المطلوب في الإصلاح، ذلك أن سياسة الناس تحتاج ذكاء وفطنة كالتي كانت لعمر بن عبد العزيز الذي يؤثر عنه فقهه لمعنى التدرج وأخذ الناس به في

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٦٩، ٤٧٠، واليعقوبي: تاريخ اليعوبي ٣/ ٢٢٨.
(٢) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥٥٩، ٥٦٠. (ط الشركة العالمية للكتاب، بيروت).
(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٨.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٩.



نقلهم مما كانوا عليه من الباطل إلى الحق الذي يريد، بينما المهتدي «ثَقُلَت وطأته على العامة في الخاصة بحمله إياهم على الطريق الواضحة، فاستطالوا خلافته، وسئموا أيامه؛ وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه»[١]، ويرى البعض أن هذه الحادثة كانت إعلانا باستحالة أن تعود الخلافة من الملك العضوض إلى الخلافة الراشدة[٢].

بداية ثورة الزنج

اشتعلت في عهد المهتدي إحدى أهم الثورات في التاريخ العباسي كله، وقد مات المهتدي ولم يستطع أن يفعل معها شيئا، وما كان له أن يفعل وهو لا يستطيع أن يوطد أمر نفسه في خلافته، وكانت هذه الثورة من أخطر وأصعب ما مرَّ على الدولة العباسية.

ظهر أجير فارسي في غاية الذكاء والموهبة يدعو إلى الخروج على الدولة وينسب نفسه لأهل البيت، فادعى نسبه إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ظهر أول الأمر في البحرين[٣] (٢٤٩هـ) فلم يستجب له كثير ولم يحقق نجاحا ذا بال، فتركها إلى البصرة (٢٥٤هـ) التي كانت تعاني اضطرابا بين فئتين كبيرتين: السعدية والبلالية، فلم يستطع استمالة أحدهما إليه، وما إن وصل خبره إلى واليها حتى هرب منه إلى بغداد تاركا ابنه وزوجته في السجن، ثم اضطرب أمر البصرة وعُزِل واليها وأُطْلِق من في السجون، فعاد بعد فترة إلى البصرة مرة أخرى (رمضان ٢٥٥هـ)[٤]، ولكن.. بفكرة جديدة!

لما أصبح العراق عاصمة الخلافة الإسلامية، وهو على ملتقى الطرق التجارية العالمية، انتعشت حركة التجارة في العالم الإسلامي وتوسعت توسعا كبيرا، ومن ثم ظهرت طبقة أصحاب رؤوس الأموال الواسعة التي أخذت في استثمار أموالها بتوسيع تجارتها وباقتناء الأراضي، فأدى ذلك إلى انتشار الملكيات الكبيرة في الأرض، ونشأ عن تقدم الحضارة تحسن في أساليب الزراعة وميل إلى استغلال الأرض استغلالا مركزا، فأدى هذا إلى زيادة الأيدي

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥٥٧. (ط الشركة العالمية للكتاب، بيروت).
(٢) د. عبد المجيد الصغير: المعرفة والسلطة في التجربة الإسلامية ص١١٤.
(٣) منطقة البحرين هي في شرق الجزيرة العربية، وليست دولة البحرين المعروفة الآن!
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٤١ وما بعدها، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٨٥ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٠١ وما بعدها.

العاملة، فلجأ أصحاب الأرض إلى الإكثار من العبيد للعمل في الأراضي، وعُرِف عن الزنج الصبر والكدح، فنَظَّم التجار حملات شرائهم أو اصطيادهم من إفريقية، فاجتمع منهم الألوف في الديار الإسلامية، ولا سيما في البصرة ذات الأرض السبخة، ولم تكن هذه الجماهير من الزنوج تفهم شيئا عن البيئة الجديدة أو عن ثقافتها، كما أن وضعهم كعبيد وصعوبة أعمالهم جعلتهم في حالة تذمر، فلا عجب أن كانوا في تذمر دفين على استعداد للانفجار عندما يأتي من يوجهه(١).

لقد تبنى هذا الدعي فكرة تحرير العبيد (الزنوج)، واستفاد في هذه التجربة من تجاربه السابقة الفاشلة في البحرين والبصرة وبغداد أيضا، وكان قد نسب إلى نفسه المكانة الرفيعة وادعى أن له معجزات وأنه حفظ سورا من القرآن عن طريق الوحي وأنه أتى إلى البصرة بتوجيه إلهي جاءه في صوت الرعد، وأن الله يُعْلِمه بما في ضمائر أصحابه.

لا شك أن جهل مجمل أتباعه بالإسلام ساعده على إشاعة هذه المعجزات، كما قوى الارتباط والولاء له بينهم، وكانت معاركه في البداية معارك صاحب الرسالة، ينتصر فيها بالبسالة والشجاعة وصموده هو ومن معه، وتعففه عن أموال الناس وأعراضهم، فهو -كما يعلن- لا يحارب إلا السلطان ولا يقاتل إلا من يقاتله من أتباع السلطان! وهذا من أسباب انضمام المزيد إليه ممن يشعر بالظلم وينتظر المخلص المنقذ.

على أن دراسة حركته تكشف أنه لم يكن من ذوي الفكر، بل إن التناقضات التي ظهرت لديه بين «علوية وخارجية، يفرغ الحركة من كل صفة عقائدية ويجعلها حركة مسلحة ضد السلطة ليس إلا، وتجعل من علي بن محمد إنسانا طموحا إلى السلطة يرى حوله كيانات سياسية تتكون على مرأى ومسمع من الخلافة في خراسان ومصر وطبرستان والبحرين وعمان، فلماذا لا يكون له نصيب من ذلك كله؟!»(٢).

اتخذ «صاحب الزنج» -كما فَصَّل المؤرخون أن يذكروه- غلاما ذكيا ومحبوبا هو ريحان ابن صالح ليكون داعيته إلى الزنج ووعده بالقيادة والمكانة، واستطاع ريحان أن يضم صفوفا

---

(١) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص٢٠، ٢١.
(٢) د. فاروق عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٤١.

غفيرة من الزنج إلى الدعوة الجديدة[١]، ومن ذا الذي يأبى أن يمتلك الأرض التي يعمل عليها سيدا فوق أن يكون هو السيد على مالكه؟!

ثم جعل ريحانُ كلَّ داعية يأتي بمزيد من الأتباع قائدًا على من يأتي بهم، فصار تنظيمهم يشبه أن يكون هرميا في قطاع الزنوج، ولكن الحركة لم تقتصر فقط على الزنوج –وإن كانوا عِمادها– بل انضم إليها العبيد الهاربون من مواليهم، كما انضمت إليها مجموعات من الأعراب وفرت لهم هذه الحركة غطاء شرعيا لأعمال القتل والسلب والنهب، وهؤلاء كانوا حاضرين بطبيعتهم القبلية بين أتباعهم من القبائل، فنرى في أسماء قادته من آل المهلب: علي بن أبان المهلبي، ومن همدان: إبراهيم بن جعفر المهلبي، فكان التنظيم يشبه أن يكون كالقطاعات بعضها هرمي (الزنوج) وبعضها قبلي (الأعراب)، والجميع خاضع لهذا الزعيم الموهوب الذي يدعي النسب العلوي لكنه لا يشبه العلويين في شيء!

وكان من أسباب نجاح «صاحب الزنج» أن اتخذ عاصمة حربية هي مدينة «المختارة» –كما سَمَّاها– بين الأدغال والمستنقعات بحيث صار الوصول إليها بالجيوش النظامية في حكم المستحيل، فيما هي بالنسبة لجيشه غير النظامي مأوى دفاع متميز، إليها ينسحبون في حالات الهزيمة والتراجع.

وبهذه العوامل الدينية والاجتماعية والعسكرية التي اجتمعت للرجل ودعوته، صار «صاحب الزنج» تهديدا حقيقيا لأهل البصرة.

وقد جرت معارك بين الزنوج وأهل البصرة كان يظهر فيها قوة الزنوج وخطرهم، وكانوا قد بلغوا نحو خمسة عشر ألفا، فهاجموا ونهبوا أنحاء المحمدية والقادسية والجعفرية والمهلبية وأطراف البصرة عند الأنهار المنتشرة في تلك المنطقة[٢].. وما زال هكذا حتى انتهى عهد المهتدي، وجاء عهد المعتمد على الله وصاحب الزنج على وشك اقتحام البصرة ذاتها!

ومنذ تلك الأيام بدأت ثورة ستستمر خمسة عشر عاما، لتكون قصة مريرة يرويها التاريخ كلما مر على فصول الدولة العباسية.

❋❋❋

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٤٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٠٧، ٢٠٨.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٤٤ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٠٨ وما بعدها.



المعتمد على الله

(من رجب ٢٥٦ هـ حتى رجب ٢٧٩ هـ)

وهو أحمد بن المتوكل بن المعتصم، وأمه جارية اسمها «فتيان»، وكان أسمر، رقيق اللون، أعين، خفيفا، لطيف اللحية جميلا، وقد تولى الخلافة وهو في السابعة والعشرين من عمره، فلقد ولد أول عام (٢٢٩هـ)[١].

***

مشهد الخلافة

بويع المعتمد على الله بالخلافة (١٣ رجب ٢٥٦هـ)، في دار الأمير التركي يارجوخ، فكان من أول نتائج ذلك أن عاد موسى بن بغا ومفلح –القائدان التركيان الهاربان– إلى سامراء (١٠ رجب ٢٥٦هـ)[٢]، غير أن مسار الأحداث حمل ثلاثة عوامل جعلت أيام المعتمد أفضل من أيام من سبقوه.

١. لئن أخفق المهتدي بالله في مسعاه بتخليص الخلافة من نفوذ الأتراك وذهب قتيلا، فإنه استطاع في عهده التخلص من أهم القادة الأتراك المشاغبين كصالح بن وصيف وبايكباك، ولم يبق إلا موسى بن بغا ومفلح وكلاهما لم يتولَّ نفوذا في سامراء ولا كان له مثل ما كان للقادة الأتراك قبله.

٢. ثم إن اشتعال الثورات والتمردات في الأنحاء المختلفة للبلاد جعلهما، مع غيرهما من القادة ممن يُخشى بأسه، منشغلين بإخماد هذه الحركات في الشرق والغرب.

٣. كذلك فإن ظهور الشخصية العباسية القوية، أخي الخليفة أبو أحمد طلحة الموفق بالله، وتمكنه من إدارة أمور البلاد بشكل فعلي بحيث لم يبق للخليفة نفسه إلا الاسم والشعار،

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٤/ ٦١.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٧٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٢٤.

ثم ما حققه الموفق من انتصارات رائعة، جعل الهيبة تعود إلى البيت العباسي وإلى مقام الخلافة أمدا ليس بالقليل.

وأما الوضع الذي صارت إليه البلاد في تلك اللحظات فهي كالآتي:

١- صاحب الزنج يحاصر البصرة ويوشك على دخولها ولا يقوى جيش الخلافة الذي يواجهه على تحقيق أي تقدم، بل يعاني من هزائم مستمرة، بل واستطاع صاحب الزنج قطع خطوط الإمداد عنهم، واستولى هو على الأموال والطعام والعتاد الواصل إليهم!

٢- علي بن زيد الطالبي العلوي استطاع الاستيلاء على الكوفة وهزم جيش الخلافة الذي تصدى له.

٣- محمد بن واصل التميمي استطاع قتل نائب بلاد الأهواز الحارث بن سيما وتمكن من السيطرة على فارس.

٤- الحسن بن زيد الطالبي -الذي استولى من قبل على طبرستان، وأسس هناك الدولة الزيدية- استطاع الاستيلاء على منطقة الري مرة أخرى (رمضان ٢٥٦هـ) بعد تلك المرة التي كانت قبل نحو ست سنوات.

٥- عيسى بن الشيخ - أحد القادة المحليين في الشام- سيطر على دمشق بل واستولى على الأموال القادمة من مصر إلى الخلافة.

٦- تقدم يعقوب بن الليث الصفار الذي ما زال يتوسع ويتغلب على البلاد وقد استطاع في تلك الأثناء أن يصل إلى بلاد فارس!

٧- مساور بن عبد الحميد الشاري الخارجي ما زال مستوليا على مناطق الموصل وما يليها في تمرد بدأ منذ أربع سنوات وما زال مستفحلا[1].

سعت الخلافة للتهدئة، غير أنه لم يكن بالإمكان التهدئة إلا مع ثلاث حالات فحسب:

١- حالة يعقوب الصفار، فهو بالأساس قاطع طريق لا يهمه إلا المغانم والحصول على الشرعية من جانب الخلافة، فأصدر الخليفة قرارا بتوليته ما حازه من بلاد بلخ وطخارستان

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٧٨ وما بعدها، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٩، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ١٠٨ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٢٧ وما بعدها.

وما يليهما شرقا حتى السند[١].

٢- كذلك ولَّى الخليفة عيسى بن الشيخ على بلاد أرمينية مقابل ترك الشام ولم يستطع عيسى أن يحتفظ بالشام إذ انهزم أمام الوالي الجديد فقبل أن ينصرف إلى أرمينية[٢].

٣- والحالة الثالثة هي محمد بن واصل التميمي الذي يذكر المؤرخون أنه دخل في طاعة الخلافة بعد أشهر من تمرده واستيلائه على أرض فارس وعاود إرسال الخراج[٣].

وأما العلويون فهم يرون أنفسهم أصحاب حق شرعي لا تفاوض فيه، وأما صاحب الزنج فهو في حال قوة وهو يزعم لنفسه مكان الأنبياء والأولياء فهو كالعلويين لا يقبل التفاوض لا سيما وهو في موقف المنتصر، وأما مساور الخارجي فهو على مذهب الخوارج وما زال يحقق تقدما في العموم فلا سبيل للتهدئة معه كذلك.

وسارت المواجهات على هذا النحو:

خرج جيش للخلافة بقيادة الشاه بن ميكال لقتال علي بن زيد في الكوفة ولقي هناك هزيمة منكرة، فخرج إليه جيش آخر بقيادة الأمير التركي كنجور -أو كيجور- وأوصل إليه عرض الخليفة بالأمان له فاشترط علي بن زيد شروطا لم يقبلها كنجور، فتواصلت المواجهة وانسحب علي من الكوفة، فدخلها كنجور (٣ شوال ٢٥٦هـ)، ثم طارده حتى استكمل النصر عليه لكنه لم يظفر به[٤].

وخرج مفلح لقتال مساور بن عبد الحميد الخارجي، وكان جنودٌ تابعون لموسى بن بغا قبل ذلك قد أوقعوا به نصرا غير حاسم قبل شهور (٢٥٦هـ)، واستمر فساده وضرره وانضم إليه خوارج مجرمون آخرون -منهم من أسر مسلمة فاستباحها في المسجد- فكثر إفسادهم (٢٥٧هـ) ثم وقعت معركة قادها مسرور البلخي وأُسِر فيها جماعة من أبرز قواد مساور، لكن الجولة الأخرى كانت لمساور على مسرور وأُسِر فيها جماعة من جيش مسرور (٢٥٨هـ) بإعانة

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٨٠.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٧٩، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٩، ٢٣٠.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٨٧، ٤٨٨.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٨٧، والأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص٥٢٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٢٧.

من بعض الأعراب في تكريت فحاربهم مسرور وأوقع بهم عقابا لهم. ثم توقفت المواجهات مع انشغال الدولة بتمردات جديدة –سنأتي لها- حتى قَتَل مساورٌ يحيى بنَ حفص وهو من كبار رجال الدولة وكان أمير خراسان، فتوجه لحربه جيشان على رأسهما مسرور البلخي وأبو أحمد الموفق فهرب منهما ولم يلحقا به، وظل مساور يشاغب الدولة ولا تستطيع إنهاء تمرده حتى مات (٢٦٣هـ) فاضطرب أمر أتباعه قليلا ثم انتظموا تحت قيادة هارون بن عبد الله البجلي الذي سيطر على نواحي الموصل، ولم يخل الأمر من اضطرابات أخرى شغلتهم عن الخلافة، كما انشغلت الخلافة باضطراب الجهات الأخرى، وظلت الموصل لمدة تحت سيطرة الخوارج[١].

وفي جبهة الشرق خرج موسى بن بغا (شوال ٢٥٦هـ) لقتال الحسن بن زيد في طبرستان، ولكنه لم يصل حتى كان الحسن قد استولى على جرجان بالفعل بعد انتصاره على قوات أمير خراسان محمد بن طاهر (٢٥٧هـ) ثم زاد الأمر سوءا أن والي الري تركها وانسحب منها من تلقاء نفسه، فأرسل الحسنُ عليَّ بن القاسم ليستولي عليها فتمكن من هذا وتغلب على المدينة (٢٥٧هـ) ولكنه أساء السيرة فيها جدا، وبقي حالها هكذا حوالي ثلاث سنوات، ثم وصل جيش موسى بن بغا فالتقى بجيش الحسن بن زيد (٢٥٨هـ) وانتصر عليه نصرا لم يؤثر على الأوضاع القائمة[٢].

وعلى رغم ما قامت به هذه الجيوش من حروب وانتصارات، بل وبرغم ما نشأ من تمردات أخرى في تلك الفترة كاستيلاء اثنين من العلويين على المدينة المنورة وانتهابها، إلا أن تركيز المؤرخين وأبصارهم كانت تذهب إلى أخطر المواجهات وأبشعها وأكثرها دموية ومأساوية.. تلك هي حركة الزنج.

وحتى تكون الصورة واضحة في ذهن القارئ الكريم، وسيرا على المنهج الذي قدمناه في أول هذا الكتاب، فنحن نركز الآن على هذا المشهد حتى اكتماله ثم نستكمل بقية المشاهد حسب أهميتها وتأثيرها.

---

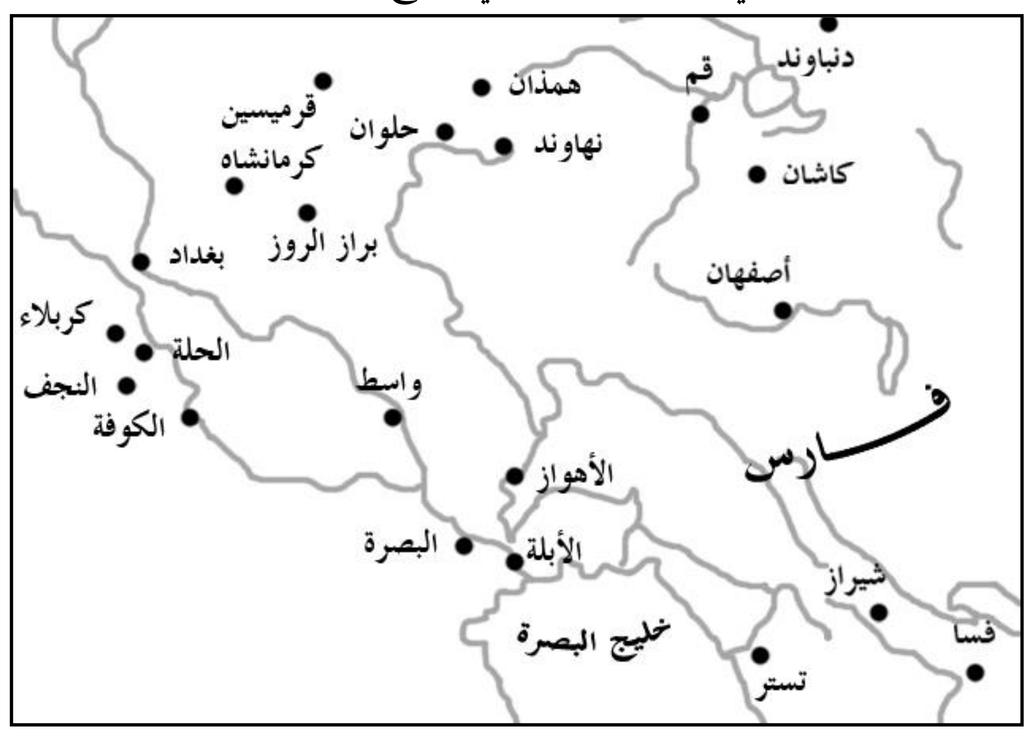
(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٨٧، ٤٩٤، ٥٠١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٥٩، ٢٧٢، ٢٧٣.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٣٦٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٣٣.

مذابح الزنج[1]!

ذكرنا فيما سبق كيف بدأ «صاحب الزنج»، كما فضل المؤرخون أن يطلقوا عليه لكراهتهم أن يقروا نسبته إلى العلويين وآل البيت، دعوته وكيف توصل إلى أن يقيم عماد فكرته على العبيد الزنوج الذين انتشروا في تلك المناطق كعمال لأصحاب الأرض، وكيف استطاع أن يكون منهم جيشا خاض به بعض المعارك التي انتهت لصالحه حتى أصبح قوة حقيقية تهدد أهل البصرة.

ولم تنته سنة ٢٥٥هـ إلا وكان الزنوج قد أوقعوا بأهل البصرة هزيمة شنيعة في معركة دارت في نهر عند البصرة (٤ ذي القعدة ٢٥٥هـ) قتل وغرق فيها غالبية الجيش، حتى سُمِّي هذا اليوم بيوم «الشذا» أو يوم «البيداء»، وقد كان من ضمن المقتولين عدد من أعيان الهاشميين. فعند ذلك استغاث الناس بالخليفة المهتدي الذي أرسل جيشا بقيادة القائد التركي جعلان، وأرسل كذلك أميرا جديدا إلى الأبلة هو أبو الأحوص الباهلي وأمده بالقائد التركي جريح.



(١) التأريخ لحركة الزنج ينفرد بتفاصيله الإمام الطبري شيخ المؤرخين، وإن ذكر غيره شذرات غير شافية، وعن الطبري نقل المؤرخون، والطبري فضلا عن إمامته وجلالته ومكانته العظمى في التاريخ فهو معاصر لهذه الحركة، إذ هو مولود (٢٢٤هـ) وقد قام بجهد وافر في توثيقها نقلا عن شهود العيان والمقاتلين وأهاليهم مما جعل تأريخه وافيا، وجعل من بعده من المؤرخين عيالًا عليه فيها.
ولهذا كففنا عن عزو المعلومات إلى المصادر، مع تلخيص نحسبه غير مخل إن شاء الله، ولا بأس أن نلتقط من شذرات المؤرخين الآخرين ما كتبوه فنسلكه ضمن ما أفاض به الطبري ونعزوه إليهم موضحا بالأجزاء والصفحات.

وما كان هذا بالذي يفوت على ذكاء صاحب الزنج وفطنته، فانسحب إلى أرض سبخة[1]، حيث لا تستطيع الخيول الوصول إليه وسط النخيل والأدغال والمستنقعات، ففسدت بهذا خطة الجيش القادم من عند الخليفة إذ كان أغلبه من الفرسان، وظلت الحرب بينهم تقوم على السهام والرماح ولا يستطيع القائد جعلان الوصول إليهم لاحتمائهم بالمستنقعات والأدغال، ولم يجد جعلان سبيلا لمواجهة الموقف إلا حفر خندق حول معسكره خشية هجوم مباغت، وظل الوضع ساكنا على هذا الحال ستة أشهر.

وكان جعلان حين قدم قد دعا أهل البصرة للانضمام إلى جيشه فانضمت إليه فرقتان هما أقرب للمقاومة الشعبية منهما إلى الفرق العسكرية المحترفة، فحاول أن يقود بهما هجوما على صاحب الزنج إلا أنهما تلقيا هزيمة نكراء!

حتى كان ذات ليلة استطاع فيها صاحب الزنج وضع خطة للهجوم على الخندق ليلا، استطاع فيها تشتيت جيش جعلان، فمن لم يقتل قد أصابه الرعب، وانسحب الجيش إلى البصرة مهزوما، وفشلت حملة جعلان، بل أضيف إلى هذا استيلاء صاحب الزنج على الإمدادات القادمة في السفن حين ترك موقع السبخة الذي كان فيه ونزل على ضفة نهر أبي الخصيب على الطريق إلى البصرة، فاستولى على حمولة عظيمة جاءت على أربعة وعشرين سفينة.

وما كادت هذه المعركة تنتهي حتى شنَّ صاحب الزنج حملة على الأبلة، وقد كانت حملة شرسة دموية انتصر فيها على أبي الأحوص –الوالي الجديد- الذي قُتِل (٥ رجب ٢٥٦هـ)، ولم يكتف بالنصر بل أحرق البلدة التي كان أغلب بنائها من خشب الساج سريع الاحتراق، فكانت محرقة عظيمة ذهبت فيها أموال هائلة وخسائر مروعة، فكان ما أحرق أكثر مما نهبه الزنج وأفسدوه[2].

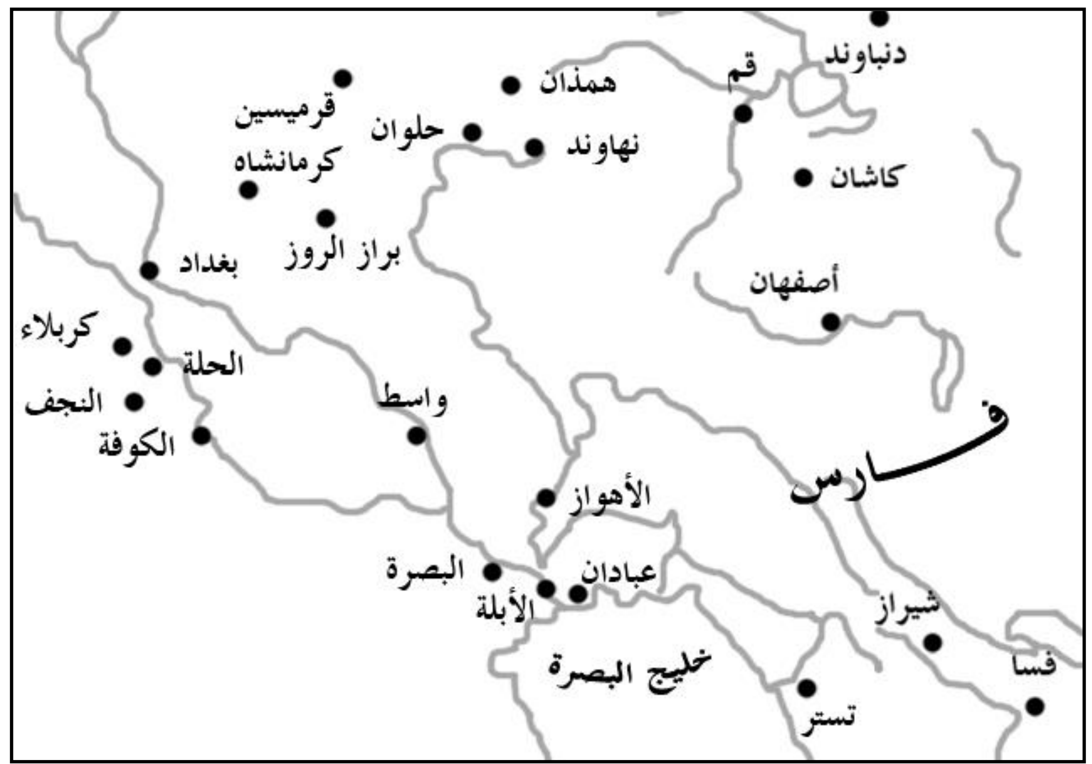
وكان من نتائج هذه المحرقة أن خاف أهل البلدة المجاورة «عبادان» على أنفسهم، فأرسلوا إليه يعرضون عليه تسليم المدينة بالأمان، فأمنهم وأخذها، واستولى على ما فيها من السلاح، وأخذ من كان لديهم من العبيد فضمهم إلى جنوده، وبهذا سقطت عبادان من بعد ما سقطت الأبلة.

---

(١) الأرض السبخة: هي التي لم تزرع ولم تعمر لملوحة تربتها، فتسوخ فيها الأقدام وتتزلق. انظر: المعجم الوسيط ١/ ٤١٢، ٤١٣.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٢٩.

وأغراه هذا النصر السريع ورعب الناس من بطشه في التقدم نحو منطقة الأهواز، فهرب الناس والجنود من أمامه، فدخل الأهواز بدون حرب (١٢ رمضان ٢٥٦هـ)، ونفذ فيها مذبحة لا تقل بشاعة عن سابقيها، إذا كان يقتل الناس وينهب الأموال والديار ويخرب البلدة.



وعند ذلك كان الرعب قد وصل إلى أهل البصرة الذين علموا أن مرجعه لا شك إليهم قريبا، فبدأوا في الخروج منها نحو غيرها من البلدان، وقد كان من هرب أسعد حالا ممن بقي، فقد كانت الأيام تخبئ لهم مذبحة هي الأبشع من كل ما سبق!

وبطبيعة الحال فلم تكن الدعوة إلى تحرير العبيد دعوة صادقة، ولا كان صاحب الزنج علويا من آل البيت كما زعم، فكل هذه وسائل يتوصل بها إلى ما في نفسه من أطماع وأحقاد، ولا أدل على ذلك من أنه استباح بدوره استرقاق الأحرار، بل واسترقاق الأشراف من آل البيت ونسائهم، يروي المسعودي: «وبلغ من أمر عسكره أنه كان يُنادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس، تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة، ويُنادى عليها بنسبها: هذه ابنة فلان الفلاني، لكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون: يطؤهن الزنج، ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف. ولقد استغاثت إلى علي بن محمد (صاحب الزنج) امرأةٌ من ولد الحسن بن



علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج، وسألته أن ينقلها منه إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه، فقال لها: هو مولاك وأولى بك من غيره»[1]، كما لم يتورع عن قتل كبار العلويين إذا ظفر بهم كما فعل مع علي بن زيد الطالبي الذي كان قد استولى على الكوفة (٢٥٦هـ) فقتله صاحب الزنج (٢٦٠هـ).

انتهت سنة (٢٥٦هـ) والأمر مستقر على الوضع السابق، فاستدعى الخليفةُ أخاه أبا أحمد، الملقب بالموفق بالله، وكان في مكة، وأبو أحمد هو القائد العسكري الفذ الذي حارب المستعين وحاصر بغداد لصالح أخيه المعتز بالله قبل ست سنوات، وأراد أن يستفيد منه في هذه البلايا التي نزلت بالخلافة، فولاَّه أقاليم الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن (صفر ٢٥٧هـ) ثم أضاف إليه بغداد والسواد وواسط وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس (رمضان ٢٥٧هـ).

وكان الخليفة قد أرسل قبل ذلك جيشا إلى الزنج بقيادة سعيد الحاجب، وأبلى سعيد بلاء حسنا في قتال الزنج، فقد هزم واحدة من فرقهم هزيمة بليغة (رجب ٢٥٧هـ) واستنقذ من كان معهم من الأسرى، ثم أوقع هزيمة أكبر منها بفرقة أخرى منهم حتى كسر أرواحهم، فكانت المرأة تستطيع أن تسوق الزنجي أسيرا إلى معسكر سعيد دون مقاومة، وظل يحقق هزائم أخرى بجيوش للزنج في خلال شهر رجب، وظل مقيما في معسكره خلال شهر شعبان.

إلا أن هجوما قويا مفاجئا من صاحب الزنج على معسكر سعيد الحاجب ذات ليلة من شعبان استطاع فيه الزنج إيقاع هزيمة حاسمة بجيش سعيد الحاجب، قُتِل فيها غالب جيش سعيد وأُحرق معسكره، وجاء أمر الخليفة بأن يتولى منصور بن جعفر الخياط أمر البصرة بعد سعيد الحاجب، وكان منصور ممن تزعم حراسة السفن القادمة لأهل البصرة وأبلى في هذا بلاء حسنا حفظ به أقوات أهل البصرة وحاصر به الزنج، فضاق بهم الحال، إلا أن كمينا آخر أعده صاحب الزنج بذكاء أنزل بمنصور الخياط هزيمة ساحقة أخرى قُتِل فيها غالب الجيش.

نفس هذا الحال تكرر في الأهواز، فقد هُزِم الزنج هزيمة غير حاسمة على يد إبراهيم بن سيما، إلا أن قائدهم علي بن أبان استطاع استدراك الوضع في جولة تالية فاستعاد النصر عليهم، وكان نصرا حاسما.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥٧٨. (ط٢ الشركة العالمية للكتاب، بيروت).

مذبحة البصرة

لم يعد يعوق عن البصرة جيش قوي بعد هزيمة سعيد الحاجب ومنصور الخياط، واستعد صاحب الزنج لاقتحامها بعد حصارها، وجمع لذلك مرتزقة من البدو الأعراب، ووجه لها جيشين: أحدهما بقيادة علي بن أبان، والآخر بقيادة يحيى البحراني، فقسم علي بن أبان جيشه إلى قسمين، وبهذا دخل الزنج إلى البصرة من ثلاث جهات.

وكان أهل البصرة في رعب وضعف نتيجة الأخبار والحصار وخراب ما حولها من القرى التي حازها صاحب الزنج قبل ذلك، وقبلها كانت البصرة تعاني من حرب أهلية بين فئتين من أهلها: السعدية والبلالية، فزاد هذا من ضعفها وانتشرت بها الأوبئة والأمراض، وبطبيعة الحال لم تجدِ المقاومة المستميتة التي قادها بغراج نائب البصرة المكلف بحمايتها والذي لم يكن معه إلا خمسون فارسًا فحسب، وانهارت سريعا تلك القوة التي كان يقوده إبراهيم بن محمد العباسي الملقب بـ«بُرَيْه» وهو من أمراء العباسيين في البصرة، وهرب بُريْه، فكانت الغلبة في النهاية للزنج.

دخل الزنج البصرة في يوم الجمعة (١٧ شوال ٢٥٧هـ) في وقت صلاة الجمعة، فبدأت المذبحة الكبيرة التي استمرت يومين، فقتلوا أهل البصرة في وقت الجمعة وحين الصلاة واستمر القتل حتى يوم السبت، واستطاعت المقاومة التي قادها بغراج وقف تقدم قائد الزنج يحيى بن محمد البحراني يوم الأحد، ثم عجزوا عن المقاومة بعد ذلك فدخلها الزنج، وحاول إبراهيم بن يحيى المهلبي أحد أعيان البصرة أن يأخذ الأمان لأهل البصرة من قائدهم يحيى البحراني فأخذ الأمان، ونودي في البصرة: من ذهب إلى بيت إبراهيم بن يحيى فهو آمن، فأقبل الناس ممن كان هرب واختفى إلى بيت إبراهيم حتى امتلأت بهم الدار وما حولها، فوجدها قائد الزنج فرصة ثمينة فغدر بهم جميعا ولم يفلت من القتل إلا النادر الشاذ!

وأجهز الزنج على من أصيب في المذبحة فقتلوه حتى تأكدوا من موته، ثم قادهم علي بن أبان لإحراق المسجد الجامع في البصرة، ثم إحراق مزارع البصرة وحقولها حتى التهمت النار ما بين وسط المدينة وأطرافها من البشر والبهائم والبيوت، وكان يُساق من يوجد من الناس إلى قائدهم يحيى البحراني فمن كان غنيا وعده بالعفو إن هو أقر بمكان الأموال حتى إذا استخلص منه أمواله قتله، ومن كان فقيرا قتله مباشرة.



ولأن يحيى البحراني كان أكثر دموية وأبشع في القتل من علي بن أبان ولاَّه صاحب الزنج ولاية البصرة، ثم أمره أن يشيع في الناس أنهم قد ولوا عليها واحدا منها لكي يشعر الناس بأن الأمر قد انتهى فيظهر الخائف والمختفي، فكان إذا ظهر أحد من الناس أخذوه فإن كان غنيا أخذوا ماله ثم قتلوه وإن كان فقيرا قتلوه من اللحظة الأولى، فلم ينجُ أحد ممن ظهر في تلك الأيام من القتل، فقُتِلت «جماعة كثيرة من الأعيان والأدباء والفضلاء والمحدثين والعلماء. فإنا لله وإنا إليه راجعون»[(١)].

وأما من بقي حيا فقد اختفى «في الدور والآبار، فكانوا يظهرون بالليل، فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها، والفيران والسنانير، فأفنوها حتى لم يقدروا منها على شيء[(٢)]، فكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه، ويراعي[(٣)] بعضهم موت بعض، ومن قدر منهم على صاحبه قتله وأكله، وعدموا -مع ذلك- الماء العذب. وذُكِر عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة تنازع (تموت) ومعها أختها، وقد احتوشوها (تكالبوا عليها) ينظرون أن تموت فيأكلوا لحمها، قالت المرأة: فما ماتت حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها وأكلناها. وقد حضرتُ أختها وقد جاءت... وهي تبكي ومعها رأس أختها، فقيل لها: ويحك! مالك تبكين؟! قالت: اجتمعوا على أختي فما تركوها تموت موتا حسنا حتى قَطَّعوها، فظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئا إلا رأسها هذه، وهي تشتكي ظلمهم في أختها... ومثل هذا كثير، وأعظم مما وصفنا»[(٤)].

واختلفت الآراء في عدد القتلى في تلك المذبحة، فأقل الروايات ذكرت أنهم ثلاثمائة ألف قتيل، وروايات أخرى قالت إنهم خمسمائة ألف، وروايات تزيد عن ذلك، والأعداد وحدها تنطق بحجم المصيبة والكارثة.

ولابن الرومي قصيدة في تلك المذبحة منها هذه الأبيات:

ذادَ عـــن مُقْلِتـــي لذيـــذَ المنـــامِ ... شُـــغلها عنـــهُ بالـــدموعِ الســـجامِ

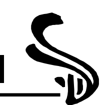
أيُّ نـــومٍ مـــن بعـــد مـــا انتهـــك الزَّنْـــ ... ـــجُ جهـــارا محـــارم الإســـلام

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٤.

(٢) أي لم يبق بالبصرة كلاب ولا قطط ولا فئران فقد أُكِلَت.

(٣) يراعي: أي ينتظر ويترقب.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥٧٨. (ط الشركة العالمية للكتاب، بيروت).



كــم أخٍ قــد رأى أخــاهُ صريعًــا ... تِـربَ الخَـدِّ بـينَ صَرْعـى كـرامِ

كــم أبٍ قــد رأى عزيــزَ بنيــه ... وهْــوَ يُعــلَى بصــارمِ صمصــام

كـم رضـيع هنـاكَ قـد فطمـوه ... بشـبا السـيف قبل حـينِ الفطـام

كـــم فتـــاة بخـــاتم الله بكـــر ... فضــحوها جهــرًا أبغـير اكتتـام

كـم فتـاةٍ مصـونة قـد سـبوْها ... بــارزًا وجههــا بغــير لثــام

صـبحوهُمْ فكابـدَ القـومُ مـنهم ... طــولَ يــومٍ كأنــه ألــفُ عــامِ

ألــفُ ألــفٍ في سـاعةٍ قتلُــوْهم ... ثــم ســاقوا السِّـباءَ كالأغنــام

مـــن رآهُـــنَّ في المســـاقِ ســـبايا ... داميـــاتِ الوجـــوهِ للأقـــدام

مـن رآهـنَّ في المقاسـم وسْـطَ الـز ... نــج يُقَسَّــمْنَ بيــنهمُ بالسِّــهام

مـــن رآهُـــنَّ يُتَّخَـــذْن إمـــاءً ... بعــد ملْــكِ الإمــاء والخُــدَّام

أيُّ عُــذْرٍ لنــا وأيُّ جــوابٍ ... حـين نُـدْعَى عـلى رؤوسِ الأنـامِ

أخــذلتُمْ إخــوانكَمُ وقعــدْتُمْ ... عــنهُمُ ويحْكــم قُعــودَ اللئــام

كيـف تـرضى الحَـوراء بـالمرءِ بَعْـلًا ... وهــو مــن دونِ حُرمــة لا يُحامي

واحيــائي مــن النَّبــيِّ إذا مــا ... لامنــي فــيهم أشــدَّ المــلام

وانقطــاعي إذا هُــمُ خاصــموني ... وتــولَّي النبــيُّ عــنهُمْ خصــامي

مثِّلُــوا قولــهُ لكُــمْ أيُّهــا النَّــا ... سُ إذا لامكُــمْ مــع اللَّــوام

أُمَّتـــي أيـــنَ كُنْـــتُمُ إذْ دَعتْنـــي ... حُــرَّةٌ مــن كــرائمِ الأقــوام

صرخـــتْ يـــا مُحمّـــداهُ فهـــلاَّ ... قــام فيهــا رعــاةُ حقــي مقــامي

انفـــروا أيهـــا الكـــرام خفافًـــا ... وثقــالًا إلى العبيـــد الطغـــام

أدْرِكـــوا ثـــأْرَهُمْ فـــذاك لـــديْهِم ... مثـــلُ ردِّ الأرواحِ في الأجســـامِ

لم تُقِـرُّوا العيـونَ مـنهم بِنَصْرٍ ... فـــأقِرُّوا عيـــونهمْ بانتقـــام

إن قعـــدتُمْ عـــن اللعـــينِ فـــأنْتُمْ ... شركـــاءُ اللَّعـــينِ في الآثـــامِ

المواجهات مع ثورة الزنج

لا شك أن ما حدث بالبصرة زلزل البلاد التي وصلها الخبر، وقد رأينا في قصيدة ابن الرومي التي نقلنا بعضها كيف بلغ الأمر في النفوس، لذا فقد وجَّه الخليفة (١ ذي القعدة ٢٥٧هـ) جيشا بقيادة محمد – الملقب بـ«المولد» – لقتال صاحب الزنج، وسار حتى عسكر عند مدينة الأبلة، فخرج لقتاله يحيى البحراني (منفذ مذبحة البصرة) فجرت بينهم معارك لعشرة أيام، غير أن محمدا وَطَّن نفسه على حرب طويلة فكان قتاله غير حاسم، فيما وصلت الإمدادات في السفن من صاحب الزنج إلى قائده يحيى البحراني الذي واصل القتال ليلا على غير استعداد من محمد فأوقع به هزيمة كبيرة ونهب ما كان في معسكره، ثم أرسل بالخبر إلى صاحب الزنج فأمره بمطاردته، فكان يحيى البحراني في طريق مطاردته يقيم المذابح في كل قرية يعبر بها.

وعلى الجهة الأخرى كان القائد الثاني للزنج، علي بن أبان المهلبي، يقود حملة عند الأهواز لقتال منصور بن جعفر الخياط الذي كان مسؤولا عن حماية السفن القادمة إلى البصرة وتولى أمر البصرة بعد هزيمة سعيد الحاجب، وأفلت من هزيمة ذهب فيها غالب جيشه، وظل التوتر قائما بين علي بن أبان ومنصور بن جعفر لمدة شهر لم يقع فيه قتال كبير، فأرسل صاحب الزنج مددا عبر السفن بقيادة أبي الليث الأصفهاني، واستطاع منصور هزيمة هذا المدد والاستيلاء على سفنه وقتل منهم كثيرا، غير أن علي بن أبان –صاحب الجيش الأصلي– لم يُفْلِت الفرصة فهاجم فرقة من جيش منصور ليلا فهزمها، وحاول منصور استغلال المفاجأة بدوره للهجوم على جيش علي بن أبان ليلا إلا أن الآخر كان مستعدا فظل بينهم قتال إلى ظهر اليوم التالي أسفر عن هزيمة منصور بن جعفر الخياط ومقتله، وكان نصرًا آخر أضيف إلى ثورة الزنج التي ما زالت تحقق النصر الحاسم تلو النصر الحاسم وينهار أمامها القادة المحترفون!

وبالمقابل، فقد كان القتل مصير كل من يقع أسيرا من الزنج أو ممن عاونهم في أيدي جيوش الخلافة، وبدأت الخلافة تستشعر أن خطر الزنج هو الخطر الأكبر الذي يواجهها بين كل التمردات عليها، فكلف الخليفة أخاه أبا أحمد الموفق طلحة ومعه القائد التركي مفلح بقيادة جيش كثيف العدد (١ ربيع الآخر ٢٥٨هـ)، وانضم للجيش كثير من المتطوعين من

أهل بغداد، فازداد العدد والعدة.

ارتاع الزنج لمقدم هذا الجيش الكثيف الذي نزل قريبا من البصرة ورأوا أنه الجيش الأكبر والأعظم من الجيوش التي جاءتهم قبله، فحشد صاحب الزنج كل ما أمكنه لقتال هذا الجيش، وفي خضم القتال أُصيب مُفْلِح بسهم طائش لا يُعرف من رماه، فتزلزل الجيش وتلقى هزيمة غريبة غير متوقعة! ومات مفلح من إصابته هذه فحُمل إلى سامراء ودفن هناك.

غير أن الموفق أبا أحمد استطاع الانسحاب سريعا إلى الأبلة (أواخر رجب ٢٥٨هـ) لإعادة ترتيب الصفوف وتجميع القوات المنهزمة من جيش الخلافة، واستطاع بهذا أن يحقق عملا كبيرا حين أسر قائد الزنج ومنفذ مذبحة البصرة وغيرها من المذابح يحيى بن محمد البحراني، وقد كان يحيى مصابا ومنسحبا من هزيمة أوقعها به أصغجون نائب الأهواز بعد منصور الخياط، فكان أسر هذا الرجل ضربة قوية للزنج وفرحة كبيرة على المسلمين، فأرسله أبو أحمد إلى سامراء فقُطِّعت يداه ورجلاه ثم قتل. وذلك جزاء الظالمين.

إلا أن الأمر لم يكتمل، وسارت الظروف وكأنها تساند صاحب الزنج، فحين عسكر أبو أحمد عند نهر أبي الخصيب على أطراف البصرة انتشرت الأوبئة في هذا المكان ففتكت بكثير من جنوده، فانسحب عن هذا الموضع إلى واسط (أوائل شعبان ٢٥٨هـ)، وهناك أكمل استعداداته بإصلاح العتاد والسلاح وتجهيزها وشحن السفن وإعطاء الرواتب للجنود، ثم عاد بإغارات على الزنج عند نهر أبي الخصيب على أطراف البصرة وفَرَّق جنده على ساحل النهر في إطار خطة حربية لم تنجح حين التقى الجيشان إذ تفرق كثير من جيش الخلافة منهزمين، وبقي جماعة أخرى واستطاعوا ببسالة فائقة إيقاع مقتلة عظيمة في الزنج وأحرقوا ديارهم وأنقذوا كثيرا من الأسارى المسلمات، واستطاعت كتيبة استشهادية قدرها مائة وعشرة جنود أن تَثْبُت لحصار فرقة من الزنوج حتى قُتِلوا عن آخرهم بعد أن قاموا بعمل رائع في الحرب، غير أن كثرة الزنوج وقيام قادتهم باستعادة ترتيب صفوفهم جعل الخطة الأسلم لدى أبي أحمد في الانسحاب المنظم إلى المعسكر، وكان من سوء حظه أن هذا اليوم كان يوما عاصفا فاشتعلت نار في أطراف المعسكر فأحرقته، فسار مرة أخرى إلى واسط التي شملها أيضا الوباء الذي أصاب البلاد في هذا العام وتَشَتَّت الجيش، فعاد الموفق من واسط إلى سامراء (٢٦ ربيع الآخر ٢٥٩هـ) وقد أناب عليها محمد المولد لقتال الزنج.

واستغل صاحب الزنج هذه الأحوال ففتح جبهة للقتال في الأهواز مرة أخرى، حيث أراد أن ينتقم من أصغجون –نائب الأهواز الذي هزم جيش يحيى البحراني- فجمع من بقي من جيش يحيى وعهد به إلى القائد الآخر علي بن أبان المهلبي وسار الجيش الكبير إلى الأهواز واستطاع إيقاع هزيمة حاسمة بأصغون الذي قُتل في هذه المعركة وأُسِر كثير من جيشه (رجب ٢٥٩هـ) وعانت الأهواز من أيام أخرى كانت فيها تحت سيطرة الزنج.

ثم كلف الخليفة المعتمد موسى بن بغا بأن يتولى حرب الزنج (١٣ ذي القعدة ٢٥٩هـ) وأعطاه القيادة العامة على المناطق الشرقية: الأهواز والبحرين واليمامة والبصرة، فولَّى موسى عبدَ الرحمن بن مفلح على الأهواز، وإبراهيم بن سيما على باذاورد، وقد استطاع عبد الرحمن بن مفلح - القائد الشاب الفذ الذي كان في التاسعة عشرة من عمره فحسب- أن يوقع هزيمة كبيرة بجيش الزنج قتل فيها كثيرا وأسر منهم كثيرا بحيث نزل بهم من الرعب ما جعلهم لا يجرؤون على حربه مرة أخرى، مع كل التحريض والمحاولات التي بذلها صاحب الزنج، فأرسل إليه جيشا آخر بقيادة علي بن أبان المهلبي فجرت بينهم حروب كثيرة كانت الهزيمة فيها من نصيب الزنج أيضا.

وعلى الجبهة الأخرى حيث إبراهيم بن سيما في باذاورد، استطاع علي بن أبان هزيمة إبراهيم في معركة من المعارك، لكن إبراهيم لم يلبث أن استعاد تنظيم صفوفه وانتصر في معركة أخرى على عليّ بن أبان حتى لم يجد علي بن أبان إلا الهروب واللجوء إلى أدغال ومستنقعات نهر أبي يحيى، حتى إن سرية أرسلها عبد الرحمن بن مفلح بقيادة طاشتمر لم تنجح في الوصول إليه مع تحصنه بزروع القصب والمستنقعات، فأحرق عليهم هذه الزروع، ففر كثير منهم هاربين فاستطاع إيقاع كثير من الأسرى، واستمر في مطاردة علي بن أبان الذي كتب إلى صاحب الزنج يستمده فأمده بثلاث عشرة سفينة تصل إليه عبر النهر، استطاع عبد الرحمن أن يحصل على أربع منها، وأن يصيب عليا وجيش الزنج في أكثر من موقعة أخرى، وتناوب هو وإبراهيم بن سيما الهجوم على جيش الزنج المتحصن بالمستنقعات حول النهر حتى أوقعوا بهم هزائم حاسمة، وعاد على بن أبان إلى قلعة الزنج «المختارة» يجر أذيال الخيبة.

وأما الأسرى فقد بعث بهم عبد الرحمن إلى سامراء وهناك فتك الناس بهم قبل أن يتسلمهم الخليفة، فقتلوا أكثرهم وسلبوهم.

وكان مما ساهم في النصر أيضا أن والي البصرة الجديد إسحاق بن كنداجيق استطاع قطع الإمدادت الواصلة إلى «المختارة» -قلعة الزنج العسكرية- مما جعل صاحب الزنج يحارب في ثلاث جبهات مرة واحدة، جبهة البصرة وجبهة عبد الرحمن بن مفلح وجبهة إبراهيم بن سيما.

وظل الوضع هكذا، يحقق موسى بن بغا انتصارات متوالية على الزنج، حتى حدث ما لم يكن بالحسبان؛ إذ عاد محمد بن واصل -المتمرد بفارس من قبل- إلى العصيان وخلع طاعة الخلافة، فضم الخليفة منطقة فارس إلى ولايات موسى بن بغا، فانفتحت على موسى جبهة حرب أخرى مع محمد بن واصل، ولما أرسل موسى أفضل قادته وهو عبد الرحمن بن مفلح للسيطرة على فارس ومعه قائد بارز آخر هو طاشتمر، استطاع محمد بن واصل هزيمة جيش موسى وأَسْر عبد الرحمن بن مفلح وقتل طاشتمر، بل وتقدم محمد بن واصل نحو الأهواز لحرب إبراهيم بن سيما، فعندئذ طلب موسى بن بغا أن يُعفى من ولاية تلك المناطق التي تزخر بالمتمردين والخارجين على الخلافة[1]، وأبدى أن ما لديه من الرجال والعتاد لا قبل لهم بمواجهة كل هذا، فأُعفي موسى بن بغا، فتعرضت الحروب مع الزنج لانتكاسة أخرى.

لطالما ابتليت الأمة بمتمرد لا هم له إلا مصلحته الخاصة، فأضاع على الأمة لحظات فارقة، كان يمكن فيها إنهاء كثير من المشكلات المستعصية قبل أن تزداد تفاقما، وكان يمكن توفير الدماء والأموال التي أزهقت من قبل ومن بعد!

جاء أبو الساج واليا على الأهواز بعد خروج عبد الرحمن بن مفلح إلى فارس، وتولى أمر محاربة الزنج، فتلقى جيش أبي الساج هزيمة قاسية على يد الزنج وانسحب إلى خارج الأهواز التي اقتحمها الزنج ونفذوا فيها مذبحة أخرى

وهكذا فوجئ أهل الأهواز بعد انتصارات قائدهم عبد الرحمن بن مفلح وبعد انتعاش

---

(١) في تلك المنطقة الشرقية من أرض الخلافة كانت التمردات كثيرة، منها ما سنعرض إليه كتمرد يعقوب بن الليث الصفار وغيره، ومنها ما كان سابقا وظل مستمرا كما هو حال محمد بن واصل في فارس والزنج في البصرة وجنوب العراق، والحسن بن زيد في طبرستان، بخلاف متمردين صغار سيطروا على بلدات وجهات ومناطق تتفاوت في مساحتها وأهميتها، وكل ذلك أرهق الخلافة وجيوشها في هذه الفترة أشد الإرهاق.

الأمل إذ بالزنج يقتحمون عليهم بلادهم ويحرقونها، وهكذا انتقل الزنج من مدافعة جيوش عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيما إلى الهجوم والتخريب، وانقلب الوضع العسكري في الأهواز.. وما ندري -بعد تلك السنين- كيف سيجيب محمد بن واصل الذي تسبب تمرده في خلخلة الوضع القوي لجيوش الخلافة إذا سُئل عن مسؤوليته في مذبحة الأهواز هذه؟ إننا نسأل سؤال التاريخ الذي يتعظ به الناس، وأما هو فيكفيه سؤال الله يوم القيامة، وهو الحق العدل المبين!

وعلى كل حال لم يتأخر عقاب الله له، إذ طمع فيه متمرد آخر وهو يعقوب بن الليث الصفار الذي سنستعرض أمره بعد الانتهاء من حرب الزنج، فسار إليه طمعا فيما حازه من الأموال والعتاد التي كانت في جيش عبد الرحمن بن مفلح، وتلقى محمد بن واصل هزيمة منكرة بلا قتال!

وأما في مسار المواجهات مع الزنج، فقد أُعْفِي موسى بن بغا من ولاية المناطق الشرقية، وتولى ولاية بلاد المغرب، وأعيدت ولاية مناطق البصرة والأهواز والبحرين إلى أبي أحمد الموفق – أخي الخليفة، وصاحب الانتصارات التي أنهتها الأوبئة والأحوال السيئة من العواصف والزلازل التي نزلت بتلك المناطق قبل سنوات- فعهد أبو أحمد إلى مسرور البلخي بالتجهز لحرب الزنج (ذي الحجة ٢٦١هـ) على أن يلحق به، إلا أن تمرد يعقوب بن الليث الصفار حال دون ذلك كما سيأتي فيما بعد!

والسؤال الذي يخطر على البال هنا: هل كان من الضروري بالنسبة للخلافة أن تُضاف منطقة فارس إلى ولاية موسى بن بغا المشغول بمحاربة الزنج والذي يبدو على وشك الدخول في مرحلة القضاء الكامل عليهم؟ هل كان من المناسب أن تُفتح جبهة قتال أخرى على متولي هذه المنطقة، سواء موسى بن بغا أو أبو أحمد الموفق من بعده؟ ألم يكن ممكنا تأجيل المواجهة مع محمد بن واصل والاستغناء المؤقت عن خراج فارس؟

وإذا كان الناس يختلفون في الإجابة عن أسئلة تفصيلية في زمنهم؟ فكيف يكون الحال ونحن نناقش هذا بعد أكثر من ألف سنة؟ لكن ما يغلب على الظن أن الخلافة رأت قوة الجيوش التي أنزلت بالزنج هزائم كبيرة فظنت أن مواجهة محمد بن واصل بن فارس لن تكون عسيرة. وقد خاب هذا التقدير وانفجر الوضع، فانقلب الحال مع الزنج، وتفاقم أمر

محمد بن واصل الذي كان برغم كل شيء سدًّا يحول بين يعقوب الصفار وبين الخلافة، لكنه انهار أمام قوة يعقوب الصفار الذي صار في مواجهة الخلافة مباشرة مما كلفها مؤونة حربه وعطلها عن حرب غيره كالزنج وغيرهم!

لقد بدا يعقوب الصفار في هذه اللحظة أخطر من الزنج، فهو يهدد موقع الخلافة نفسها ويوشك على اقتحام عواصم العراق، بينما الزنج وإن كانوا أبشع وأكثر دموية إلا أنهم محصورون في منطقة البصرة والأهواز وقد أثرت الهزائم السابقة في وضعهم العسكري، وهكذا تجمد الوضع في حرب الزنج.

حاول صاحب الزنج أن يُكوِّن تحالفا بينه وبين يعقوب الصفار، فأرسل إليه أن يتوجه بجيوشه إلى بغداد مباشرة ووعده بالمساعدة، وعلى رغم أن يعقوب كان قد هُزِم في تلك اللحظة (٢٦٢هـ) هزيمة كبيرة من جيش الخلافة الذي قاده أبو أحمد الموفق إلا أنه رد على صاحب الزنج بقوله «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون».

كان انسحاب جيوش الخلافة لمواجهة يعقوب الصفار من الفرص الثمينة التي وجدها صاحب الزنج أمامه دون ترتيب، ولم يُفْلِتْها بطبيعة الحال، فبثَّ سراياه تقتل وتحرق وتنهب في تلك الأنحاء، ولم يخل الأمر من مناوشات قادها بعض قادة الصف الثاني مثل القائد التركي أغتمش أو ابن التركي، إلا أن الكفة في العموم مالت لصالح الزنج وإن لم يخل الأمر من هزائم نزلت بهم، من أقواها تلك التي أنزلها أحمد بن ليثويه –قائد من جيش مسرور البلخي ونائبه على أنحاء الأهواز– بتحالف تم بين صاحب الزنج مع محمد بن عبيد الله –أحد قادة يعقوب الصفار المكلف بحرب الأهواز– استطاعوا به دخول مدينة تستر، غير أن التحالف انتقض سريعا حين خالف محمد بن عبيد الله وعده فخطب للخليفة المعتمد والصفار بدلا من أن يخطب لصاحب الزنج كما كان اتفاقهما، فانسحب علي بن أبان من تستر، وانتقم من أهل بلدة «عسكر مكرم» فغدر بهم ونفذ فيهم مذبحة كما هي عادته رغم أن القرية في أمانهم، فمن ثَمَّ عاد أحمد بن ليثويه من انسحاب تكتيكي تم من تستر إلى جنديسابور، عاد إلى تستر وقاتل محمد بن عبيد الله فهزمه، ثم تعقب علي بن أبان فأوقع به هزيمة هائلة نجا منها عليٌّ بأعجوبة بعد أن أصابته جراح بالغة وكاد أن يؤسر، وقد شغلت هذه الأحداث عام (٢٦٢هـ)، وظل علي يعالج جراحه حتى أنه لم يُقِم في الأهواز في تلك الفترة، فلما شُفِيَت جراحه عاد إلى

الأهواز يقود هجوما آخر ضد أحمد بن ليثويه الموجود في «عسكر مكرم» (٢٦٣هـ)، فأرسل أخاه الخليل بن أبان في جيش فأنزل به أحمد بن ليثويه هزيمة منكرة إلا أنه خسر قرية «المسرقان» حيث لم يستطع فرسانه هزيمة مجموعة أخرى أرسلها علي بن أبان إلى تلك القرية.

ومثلما كان الحال في عام (٢٦٣هـ) استمر كذلك في (٢٦٤هـ)، فما من قائد كبير يواجههم في مناطق نفوذهم وخطرهم، وهم يحرزون تقدما في العموم ولا يخلو الأمر من هزائم مؤثرة لكنها غير حاسمة، فسليمان بن جامع –قائد الزنج- يتلقى المدد عند كل هزيمة ومعه العدد الذي يستطيع أن يقسمه على أكثر من جهة فينفذ الكمائن المحكمة فيما لم يحصل القادة المسلمون على هذه الإمكانية فظلوا وإن نزلت بهم الهزيمة يعيدون تنظيم صفوفهم ويتعرضون للكمائن ويفتقدون المدد مع انشغال الخلافة وكبار قادتها بجبهات التمرد الأخرى، وكان من أهم ما حققه الزنج من تقدم دخولهم مدينة واسط (٢٦٤هـ)، وكالعادة، لم يرحموها من مذبحة أخرى كسائر المدن التي دخلوها.

وتحسن الحال بعض الشيء في عام (٢٦٥هـ)، ذلك أن مسرور البلخي –أحد قادة العباسيين الكبار- قد فرغ قليلا لشأن الزنج، فأرسل جيشا يقوده تكين البخاري، وهو ممن حارب الزنج وأوقع بهم بعض الانتصارات في السنوات القليلة الماضية، فاستطاع هذا الجيش فك حصار الزنج على مدينة تستر بعد أن كاد أهلها يُسَلِّمونها، وأوقع بجيش الزنج الذي يقوده علي بن أبان هزيمة كبيرة حتى أُسِر غلام من خاصة علي بن أبان.

لكن الزنج استطاعوا استلام زمام المبادرة، وجرى عام (٢٦٦هـ) بين انتصار لهم في أوله ثم حروب متكافئة يقودها علي بن أبان ضد اغرتمش الذي تولى قتالهم بعد تكين البخاري، ثم توصل اغرتمش إلى هدنة معهم، وكانت الهدنة في ذلك التوقيت مطلبا للفريقين، وإن كان هذا لم يمنع علي بن أبان من الهجوم والإغارة على القرى والنواحي، وهي إغارات بهدف الغنائم والأموال، على أن هذا العام شهد جبهة قتال أخرى انفتحت بين الزنج من ناحية وبين محمد بن عبيد الله، إذ حاول محمد بن عبيد الله أن يعيد التحالف بينه وبين الزنج رغم ما وقع بينهما منذ أربع سنوات، فطلب منه صاحب الزنج أموالا فماطله فيها فاندفع إليه جيش علي بن أبان فقاتله وهزمه هزيمة منكرة واقتحم مدينة رامهرمز ونفذ فيها مذبحة كبيرة، وأُجْبِر محمد بن عبيد الله على الانسحاب إلى أقصى معاقله، ولم يجد بدا من التصالح معهم مقابل مائتي ألف

درهم. ثم إن محمدا لم ينس هذه الهزيمة المريرة فطلب مساعدة من الزنج لمواجهة تمرد من الأكراد في بعض الأنحاء فبعث إليه علي بن أبان بجيش من عنده، فغدر به محمد وتركهم أمام الأكراد فقتلوهم وأسروا منهم، وأما من استطاع الانسحاب فقد أعد لهم محمد من يسلبهم من الأعراب، ورغم كل هذا استطاع محمد بالدهاء السياسي وبرشوة بعض المقربين من صاحب الزنج وبأموال بذلها أن يستعيد الصلح مع الزنج. فلما انتهى القتال بين علي بن أبان ومحمد بن عبيد الله عاد علي إلى مهاجمة البلدان الواقعة تحت سيطرة الخلافة وبدأ بالهجوم على متوث، ولكن كثرة أهلها وحصانتها منعته من تحقيق انتصار سريع، وما إن استعد لحصار طويل واقتحام منظم حتى كانت جيوش الخلافة قد بدأت في التوافد بعد انتهاء انشغالها بحرب الصفاريين، فانهزم الزنج هزيمة منكرة أمام مقدمة جيش مسرور البلخي، ثم جاءت الأخبار بإقبال جيش الخلافة الرئيسي الذي يقوده أخو الخليفة والرجل الأقوى في الدولة العباسية أبو أحمد الموفق طلحة.

بداية النهاية لحركة الزنج

منذ نهايات عام (٢٦٦هـ) بدأت نهاية حركة الزنج، إذ تفرغت الخلافة العباسية لأمرهم، ورمت إليهم بفلذات أكبادها وألمع فرسانها، وظهر في الميدان ذلك القائد الشاب الصغير المذهل أبو العباس بن الموفق طلحة والذي يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما فحسب والذي سيكون له شأن كبير في الخلافة العباسية. تولى أبو العباس مواجهة الزنج في جبهة العراق التي كانت ساكنة نسبيا تحت سيطرة ثلاثة من قادة الزنج وكلهم –يا للمفارقة– يسمى سليمان، وهم: سليمان بن جامع، وسليمان بن موسى الشعراني، وسليمان الجبائي!

سار أبو العباس بن الموفق إلى قتال الزنج من جبهة دجلة في جيش من عشرة آلاف رجل معهم التجهيزات المطلوبة من السلاح والسفن والمراكب الصغيرة والمعابر التي سيحتاجها الجيش لعبور المخاضات والأنهار والأدغال، وتوجه إلى الحرب، وكانت خطة الزنج أن يواجهوا أبا العباس بكل طاقتهم وجيوشهم ليُنزلوا به هزيمة ساحقة ترهبهم وترهب من خلفهم وتبعث برسالة تقول بأن الحرب في هذه الجبهة خسارة محتومة.

كانت الحروب تدور بالتوازي بين البر والبحر، فلا تكاد تجد معركة إلا وفيها الطرف البحري بالسفن والمراكب الصغيرة بجوار القتال بالفرسان والمشاة في البر، فإما هما معا، وإما

أن تكون إحداهما مقدمة للأخرى، أو كمينا لها!

تحركت ثلاثة جيوش بقيادة الثلاثة، كان الجيش الرئيسي بقيادة سليمان بن جامع وأمامه جيش بمثابة المقدمة بقيادة سليمان الجبائي، وجيش آخر من جهة أخرى بقيادة سليمان الشعراني، إلا أن أبا العباس كان مهتما للغاية بالمعلومات والاستخبارات فكانت لديه المعلومات الكافية بأماكنهم وتوزعهم، فعدل عن الطريق الذي تجمعوا فيه، واستدرج بطلائعه بعض كتائبهم إلى كمين أعده فأوقع بهم هزيمة مفاجئة غير متوقعة فكثر فيهم القتل والأسر، وأعلن الأمان للبعض وغنم منهم خمس مراكب. ثم استمرت المناوشات أياما حتى حاول سليمان بن جامع أن ينفذ كمينا مشابها ويستدرج جيش أبي العباس لكن أبا العباس كان على علم بهذا فأفشل الخطة، فاندفع جيش الزنج بقيادة سليمان بن جامع وسليمان الجبائي للقتال مباشرة فتلقى هزيمة هائلة كادت أن تذهب بأرواح قائديه اللذيْن أفلتا بأعجوبة بأنفسهما، وغنم أبو العباس ما كان في الجيش من غنائم وعُدة، وتوقفت الحرب عشرين يوما حتى وصلت إمدادات جديدة من صاحب الزنج، وفشلت في هذه الأيام محاولة جديدة لسحب جيش الخلافة إلى فخاخ في الطريق. ثم عادت كتائب من جيش الزنج للهجوم المفاجئ ولكن يقظة أبي العباس وبسالته كانت تفاجئهم قبل حتى أن يكتمل الهجوم فيفرون من أمامه، كما كانت بسالته من أهم الأسباب التي يواجه بها الكمائن فإذا سقط في كمين أو فاجأه هجوم صمد له حتى يستعيد الجيش تماسكه أو تصل وحداته المتأخرة سريعا، ويبدو من مطالعة يوميات القتال التي أفردها الطبري وابن الأثير أن جهاز الاتصال بين وحدات الجيش كان على مستوى عال من الكفاءة إذ لطالما وصلت الوحدات في وقت مناسب قلبت فيه ميزان المعركة إلى النصر المؤزر.

تقدم جيش أبي العباس إلى مراكز التحصن للزنج في هذه الجبهة، وأهمها ثلاثة: الصينية؛ حيث تجمعت القوات المنهزمة من الزنج، وسوق الخميس؛ حيث انسحب جيش سليمان الشعراني، وطهثا حيث بقيت القوة الرئيسية بقيادة سليمان بن جامع. بدأ أبو العباس بالمسير إلى الصينية فهاجمها من البر أولا ثم أعد لها كمينا بحريا في النهر، فلما حاول الزنج الهروب من جيش البر إلى النهر كانت أمامهم القوة الرئيسية فأوقعت بهم هزيمة كبرى فتم بهذا فتح أول المعاقل وهي «الصينية» وانسحبت الفلول إلى طهثا وسوق الخميس، على أن الزنج لم ينتظروا

بل بادروا بجيش كبير بقيادة اثنين من الزنج: ثابت بن أبي دلف ولؤلؤ، وأثناء مسير الجيش إلى جيش أبي العباس تعرض لهجوم مباغت غير متوقع قبيل الفجر فكانت هزيمة هائلة قُتِل فيها لؤلؤ وأُسِر فيها ثابت بن أبي دلف وحُرِّر عدد كبير من الأسارى، وبهذا صار الطريق خاليا أمام الهجوم على المركز الثاني «سوق الخميس» حيث سليمان الشعراني، فقسم أبو العباس جيشه إلى قسمين الأول بري والثاني –وهو الرئيسي- بحري، وتحقق نصر آخر كبير بعد بسالة فائقة في البر والبحر سبقها تخطيط حكيم حتى فُتحت سوق الخميس ولم يبق منها إلا القلعة العسكرية الحصينة المسماة «المنيعة».

رغم أن ما حققه أبو العباس حتى الآن ليس تهديدا كبيرا لمواقع الزنج إلا أن صاحب الزنج أدرك ببصيرته العسكرية الثاقبة أن هذه الجبهة توشك أن تنهار، لذا أمر علي بن أبان المهلبي أن يترك جبهة الأهواز وينضم بجيشه إلى سليمان بن جامع، وهكذا أصبحت كل قوة الزنج متوحدة في جبهة واحدة. وعلى الجانب الآخر كان أبو أحمد الموفق يرتب الأمور ويعدها للانضمام إلى جيش ابنه أبي العباس لكنه كان يتحسب من أي هجوم من جهة أخرى سواء من الزنج أو من غيرهم قبل أن يُلقي بكل القوة الرئيسية لجيش الخلافة على جبهة دجلة، لذا فحين اتخذ صاحب الزنج قراره بضم جيش علي بن أبان فإنه –دون أن يدري- دفع بالموفق إلى الانضمام بالجيش الرئيسي للخلافة العباسية إلى جبهة دجلة بعد زوال الخشية من هجوم يفتحه علي بن أبان في جبهة أخرى، وأيضا لإنقاذ الجيش الذي يقوده ابنه والذي لا يبلغ أن يواجه جيوش الزنج مجتمعة.

انطلق الموفق من بغداد (صفر ٢٦٧هـ) متجها نحو واسط حيث المعسكر الرئيسي لعمليات الجيش العباسي ضد الزنج، وبذل المكافآت والعطايا للجنود على ما حققوه ممن انتصارات، وأعاد توزيع الجيش وترتيبه على الثغور والجبهات ثم بدأ هجومه على قلعة «المنيعة» (٨ ربيع الآخر ٢٦٧هـ) فسارت القوة الرئيسية للجيش في النهر بقيادة ابنه ثم دعمتها قوات المشاة والفرسان من البر، فوقعت بالزنج هزيمة هائلة وكثر فيهم القتل والأسر، وحُرِّر عدد كبير من الأسرى منهم خمسة آلاف امرأة مسلمة، وهرب سليمان الشعراني، وحاز المسلمون ما في المدينة من الغنائم والأسلحة والأقوات، وكان خبرا صاعقا نزل بصاحب الزنج الذي سارع بالإرسال إلى سليمان بن جامع في طهثا يحذره من مثل ما نزل

بالشعراني ويأمره باليقظة، وأما الموفق فقد نشر سراياه ليستطلع الأخبار، فاستطاعت سرية أبي العباس الحصول على معلومة مهمة تفيد بأن سليمان بن جامع ما زال في طهثا، وبالتحديد في قلعتها العسكرية التي سماها «المنصورة»، فانطلق إليه (٢٠ ربيع الآخر ٢٦٧هـ) وقاد معركته الرئيسية برا تدعمها الوحدات البحرية التي استطاعت اختراق المدينة وكان لها الفضل الأكبر في اقتحام المدينة التي كانت محصنة بخمسة خنادق على خندق سور، وعلى ما أبداه الجيش والفرسان من شجاعة هائلة في الاقتحام إلا أن الفضل يظل للوحدات البحرية التي اخترقت المدينة عبر النهر واستطاعت هزيمة القوات المواجهة لها، وتلقى الزنج هزيمة أخرى أقسى وأشد من الأولى وهرب سليمان بن جامع وأُسر عدد من زوجاته وأولاده، وتم تحرير الأسرى من جيش الموفق، بخلاف الأسرى المسلمين الذين بلغوا عشرين ألفا في هذه المدينة، وهدم الموفق أسوار المدينة وطمر خنادقها لئلا تصلح لقتال بعدئذ. وهكذا انتهت المراكز الثلاثة الحصينة للزنج على هذه الجبهة وحقق المسلمون انتصارات كاملة.

بدأ الموفق سياسة جديدة في التعامل مع الأسرى من الزنج منذ معركة المنصورة، إذ اعتمد سياسة العفو عنهم بل وإكرامهم مقابل إمداده بالمعلومات وتخذيل غيرهم من أتباعهم وأصحابهم في جانب الزنج، وكذلك فتح أمامهم فرصة للتوبة وتصحيح المسار، وقد حققت هذه السياسة نتائج غير متوقعة كما سيتبين فيما بعد.

سارت الأمور على خير ما يشتهي المسلمون، إذ أرسل صاحب الزنج نداء عاما لقواده في جبهة الأهواز وغيرها بالمسير إليه بأقصى سرعة لخشيته أن يهاجمه الموفق بعد أن تشتت جبهة العراق بالكامل تقريبا، فسارع إليه القواد علي بن أبان المهلبي وغيره، وكانت سرعتهم من أسباب خلو هذه البلدان من القوة الحقيقية، وكل ذلك في الوقت الذي كانت خطة الموفق هي إنهاء المدن الأخرى والاستيلاء على جبهة الأهواز قبل مهاجمة قلعة صاحب الزنج على نهر أبي الخصيب في المدينة التي حصنها وسماها «المختارة»، حيث انطلق الموفق إلى تلك الجبهة فوجدها خالية من الجيوش والعتاد فلم يكن من عناء كبير في الاستيلاء عليها واستعادة السيطرة على هذه المدن، وكانت سياسته في العفو عن الأسرى واستعمالهم مما يجعل الطريق سهلا أمام الفلول الموجودة بهذه المدن للنجاة بنفسها، فاكتسب الجيش الإسلامي ما لا يقدر بثمن من المعلومات فضلا عن الغنائم والأموال والأقوات التي لم يستطع قادة تلك المدن أن

يحملوها أثناء رحيلهم السريع، كما كانت القوات الإسلامية الباقية في جبهة العراق تحقق انتصارات مهمة وتنجو من كمائن وفخاخ وتوقع بقادة مهمين بفضل سياسة العفو عن الأسرى التي أمدتهم بمعلومات حاسمة، وهكذا انحصر الزنج في مركزهم الرئيسي في قلعة المختارة عند نهر يُدعى بنهر أبي الخصيب.

أرسل الموفق إلى صاحب الزنج رسالة «يدعوه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى مما ركب من سفك الدماء، وانتهاك المحارم، وإخراب البلدان، واستحلال الفروج والأموال، وادعاء النبوة والرسالة، ويبذل له الأمان، فوصل الكتاب إليه، فقرأه، ولم يكتب جوابه»، ولم يكن لهذا سوى معنى واحد: استمرار القتال.

المواجهات الأخيرة

بعد الإعداد والتجهيز للحرب سار الموفق بالجيش (٢٠ رجب ٢٦٧هـ) إلى مدينة المختارة، وكانت مدينة المختارة قد بلغت في أكثر من عشر سنوات من المناعة والحصانة مبلغا عظيما، ولا تكاد توجد لها ثغرة إلا من طريق نهر أبي الخصيب الذي أُنشئت عليه، لكن جيشا من الرماة بالسهام والمجانيق والحجارة يحرس هذا الممر المائي بالإضافة إلى الوحدات البحرية الزنجية التي تتولى تأمين هذه الجهة.

علم الموفق حين نظر إليها أن الحرب ستطول، لا سيما وقد اجتمعت إليها جيوش الزنج جميعا، وهي على هذا الحال من الحصانة والمنعة، واختبر هذا عمليا بهجمات قادتها وحدات من الجيش، وحدة بحرية بقيادة ابنه أبي العباس ووحدات برية أخرى، ورغم ما أظهرته هذه الكتائب من بطولات إلا أنها لم تكن قادرة على اقتحام المدينة، فسلك الموفق طريقة أخرى تمثلت في الآتي:

١- عمل على حصار المدينة وقطع الأقوات عنها، ولذا أعلن نداء عاما في بلاد الخلافة بتجهيز المراكب والسفن وكافة آلات البحر بأسرع وأكثر ما يمكن حتى يتمكن من محاصرة المدينة من كافة الجهات، وقد كانت هذه المنطقة تعيش على شبكة من الأنهار والممرات المائية، وجعل قيادة الحصار البحري لابنه أبي العباس.

٢- نشر سياسة استمالة الزنج إليه، وأطلق نداء عاما عند الزنج بالرسائل العلنية والخفية وغيرها بأن الأمان مبذول لمن يستسلم، بل ووعد بالمكافآت والعطايا والهدايا، وقد تسبب

هذا في أمواج كثيرة من الانسحابات إليه بينهم عدد من كبار قادة الزنج، فكان يستفيد منهم أكثر من إفادة: معلومات حربية مهمة، إضعاف لجبهة صاحب الزنج وجيشه، تخذيل لمن بقي في جيش الزنج وتشجيعهم على الاستسلام والانسحاب من المعركة، وكل هذا قد كان.

٣- أنشأ الموفق مدينة جديدة وسماها «الموفقية» أمام مدينة المختارة، استعدادا للحصار الطويل ومركزا رئيسيا لقيادة المعركة وموقعا متقدما للإمداد بالأقوات وصناعة الأسلحة والمراكب والسفن، وبذل في هذا مجهودا عظيما في وقت قياسي «فجمعت هذه المدينة من المرافق، وسيق إليها من صنوف الأشياء ما لم يكن في مصر من الأمصار القديمة وحملت الأموال، وأدرت الأرزاق»[1]، ولم يكن هذا ليتم دون فضل الجهود الشعبية التي انهمرت على المدينة لا سيما من التجار الذين نقلوا تجاراتهم وبعثوا ببضاعتهم وأقاموا أسواقهم حتى انتعش اقتصاد الموفقية وصلحت للحياة.

وكان صاحب الزنج يحاول الإفلات من هذا الحصار المحكم بشن الغارات إما لإيقاع هزائم سريعة مؤثرة، وإما إغارات على القوافل التي تحمل الأقوات ليستعين بها على هذا الحصار الطويل، وقد نجح أحيانا غير أن الجيش الإسلامي كان يتعلم الدرس فلم يتكرر خطأ لمرتين قط، وكان النصر في جانب الموفق بتوفيق الله أولا، ثم ببسالة رجاله الذين نَفَّذ بعضهم عمليات استشهادية أنقذ بها باقي الكتيبة أو أحرز بها نصرا بعد انكسار، وكذلك بالمعلومات التي يستفيدونها من المنسحبين المُستَأمِنين.

ظل هذا الحال حتى قبيل نهاية هذا العام (٢٦٧هـ) بأيام، فقد طرأ أمر جديد، ذلك أن كثرة هروب القادة والجنود من جيش صاحب الزنج إلى الموفق اضطره إلى أن يضع حراسات خاصة على الطرق والمسالك لمنع الهروب، فأدى هذا إلى انحصار كثير ممن أرادوا الانسحاب داخل مدينة الزنج، وبالتالي تعطل ضلع من الخطة الثلاثية التي آتت ثمراتها طوال العام، وقد أرسل هؤلاء إلى الموفق يطلبون منه مساعدة حربية تساعدهم في الخروج، فهنا كانت بداية الهجوم الإسلامي على المدينة، فأرسل الموفق كتيبة يقودها ابنه أبو العباس من الناحية الغربية حيث جيش علي بن أبان، وجرت معركة باسلة استطاع فيها أبو العباس هزيمة جيش الزنج وإطلاق من أرادوا الانسحاب، وطمع بعض قادة الكتيبة في اختراق المدينة أكثر وفي ذات

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٠١.

الوقت كان صاحب الزنج قد أمد جيش علي بن أبان بجيش آخر يقوده سليمان بن جامع، وفي ظل قلة العدد لدي أبي العباس مقارنة بعدد الجيشين استطاع سليمان بن جامع تنفيذ كمين قوي، ولكن الله سَلَّم، وكان صبر أبي العباس وثباته مما جعل هذا الكمين محدود الخسائر ونُفِّذ الانسحاب المنظم لجيش أبي العباس، وعادت المحصلة لتكون نصرا للمسلمين في ظل تحقق الهدف وحجم الخسائر التي نزلت بالزنج، بالإضافة إلى أنها كانت اختبارا عمليا لاقتحام المدينة بعد فترة من الحصار وتغير ميزان القوى.

إلا أنها معنويا تعد من انتصارات الزنج حيث كان مشهدها الأخير انسحاب جيش أبي العباس، وأدى هذا إلى ارتفاع معنويات الزنج، فقرر الموفق تنفيذ اقتحام كامل بكافة قوات الجيش للمدينة، وبدأ الاقتحام (٢٤ ذي الحجة ٢٦٧هـ)، ودارت معارك في غاية العنف والقسوة عند الأسوار والأبواب وأبدى جيش الموفق من البطولات ما يدهش العقول، ومن أسف فإن المعلومات التفصيلية غير متوفرة إلى الحد الذي يسمح بقراءة التفاصيل الدقيقة، لكن المشهد العام الذي نقلته كتب التاريخ تفيد بتحقق المعجزة في ذلك اليوم، فلقد استطاع الجيش بالفعل اقتحام المدينة الهائلة التحصين في أقل من يوم واحد وفي أكثر من جهة حتى وصلوا إلى نقاط متقدمة في أعماق المدينة[1]، ودحروا قوات الزنج وأجلوها عن مواقعها، ولكن الليل كان قد نزل فأمر الموفق جيشه بالرجوع، فعادوا معهم من الغنائم والأسرى أعدادا هائلة.

كانت خطة الجيش الإسلامي الانسحاب عند نزول الليل خشية من التعرض لحرب عصابات في مسالك ودورب المدينة، حيث ستعلو كفة خصمهم الذي تجري المعركة على أرضه، فمن ثم كان المطلوب تحقيق أقصى توغل ممكن وضرب مناطق الدفاع والتحصينات بأقصى قدر ممكن قبل الانسحاب ليلا؛ لئلا يستطيع الزنج خلال الليل أن يعيدوا تنظيم قوتهم مرة أخرى.

لكن قدَّر الله أمرا غير متوقع في هذه الليلة، إذ هبت ريح عاصفة وزاد الجزر في الأنهار

(١) لا يستطيع الإنسان حين يطالع أمثال هذه المعارك إلا أن يتشوق إلى معرفة أسماء أبطالها المجهولين من الفرسان والرماة والمشاة والبحارة، ولكن حسبنا أن الله يعلمهم وسيجازيهم خير الجزاء على ما قدموا للأمة وأجيالها من بطولات انعكست عليهم آثارها واندرست أسماء صانعيها من كتب التاريخ.

فانسحبت المياه عن السفن والمراكب الإسلامية في الأنهار فكانت كالتي وقعت في مصيدة، مما أتاح للزنج تنفيذ غارة ناجحة على تلك السفن الملتصقة بالطين فلا تستطيع الهروب، فوقع بعض القتلى والأسرى من الجيش الإسلامي مما رفع من معنويات الزنج إلى حد ما. لكن هذا وإن خدش النصر الكبير الذي تم ذلك اليوم إلا أنه لم يغير من حقيقة الهزيمة التي نزلت بالزنج، وتوقف القتال لهذه الظروف الجوية المفاجئة أياما، استمر فيها استسلام جنود وقادة من جيش الزنج كان أبرزهم كبير الدعاة ريحان بن صالح الذي بدأ الحركة مع صاحب الزنج، إذ بعث رسالة للموفق يطلب فيها مساعدة عسكرية تمكنه من الهروب، وقد تم له ما أراد (٢٩ ذي الحجة ٢٦٧هـ). فكان هذا العام فتحا عظيما على مستوى إنهاء حركة الزنج.

ثم بدأ عام (٢٦٨هـ) باستسلام جعفر بن إبراهيم الملقب بالسحان وكان من أبرز قادة صاحب الزنج، واستعمله الموفق في حرب إعلامية حيث أخذه إلى حيث ينادي الزنج ويطالبهم بالعودة والانسحاب والرجوع فكان هذا مما زاد في وتيرة الانسحابات من جيش الزنج.

وبقراءة حركة سير الجيش الإسلامي في هذا العام نرى أن الموفق توقف عن القتال واقتحام المدينة أربعة أشهر، ثم نفَّذ محاولة اقتحام واحدة كبيرة، وقد نجحت تماما لولا أن الجنود أغراهم النصر بالتقدم والتوغل في المدينة مما عرضهم لخسائر وكمائن ناجحة في حرب شوارع لا يجيدونها، فاستمرت الغارات الإسلامية الخاطفة، وأهم من ذلك أن الموفق اشتد في معاقبة من يُهرِّب الطعام والأقوات إلى صاحب الزنج، فأرسل إلى البصرة كتيبة تراقب وتحرس الإمدادات الواصلة إلى صاحب الزنج، وأوقعت سراياه بجماعة من الأعراب ومن بني تميم تورطوا في هذا واعتبرهم من المحاربين فضرب أعناقهم، ورمى بجثة أحدهم داخل معسكر الزنج، وبهذا انقطعت المدد تماما عن صاحب الزنج، فأدى هذا إلى انسحابات جماعية إلى جيش الموفق وإلى هروب جماعي إلى حيث البوادي والمدن الأخرى، فكان الموفق يبعث إلى هذه المجموعات من يدعوها إليه، فمن رفض قُتِل ومن قبل بعثوه إلى مدينة الموفقية فأكرموه واعتنوا به، ومن كان منهم قويا صحيحا ضموه إلى الجيش ومن كان جريحا أو شيخا سربوه إلى معسكر الزنج لكي يشيع فيهم إكرام الموفق ووعده للمنسحبين بالأمان والمال.. فاجتمع على الزنج الخوف والجوع مقابل الأمن والمال. فكان هذا يزيد في الانسحابات الجماعية ويزيد من خلخلة جيش صاحب الزنج. وفي هذا العام (٢٦٨هـ) تمكنت وحدة بحرية إسلامية من

صد هجوم للزنج يقوده بهبود بن عبد الوهاب - أشرس قادة الزنج- واستطاع أحد الجنود طعنه فقتله، فكان مقتله من البشائر الكبرى التي جاءت الجيش الإسلامي ومن الصواعق الكبرى التي نزلت على صاحب الزنج.

في العام التالي (٢٦٩هـ) حاول الموفق إنشاء معسكر قريب من مدينة المختارة لكي لا ينقطع القتال، ولكي تبقى مركزا للإمداد ونقطة للرجوع، وأيضا لكي لا يحتاج المنسحبون إلى عملية عسكرية لإنقاذهم، وحاول هذا من الناحية الغربية فبدأ في إحراق النخيل وإزالة المستنقعات لكن الخطة فشلت إذ واجههم الزنج بكل طاقتهم ولم يُمَكِّنوهم من المطلوب، فشعر الموفق باستحالة الهجوم من جهة الأدغال والمستنقعات وركَّز على هجوم شامل من جهة السور، واستطاع الجيش الإسلامي تنفيذ اقتحام هائل للمدينة وصلوا به إلى أواسط المدينة وهدموا بيوت القادة كسليمان الحياتي وسليمان بن جامع والمسجد الجامع، واستولوا على كثير من الخزائن والسجلات التي لصاحب الزنج، وبينما يشرق النصر إذ بسهم يصيب الموفق في صدره (٢٥ جمادى الأولى ٢٦٩هـ) فتحامل على نفسه وكتم هذا حتى انسحب الجيش ليلا، وحاول قيادة القتال في اليوم الثاني فزادت إصابته وكاد أن يموت، فتوقف القتال لشهرين حتى برأ الموفق وعاد لقيادة الجيش (شعبان ٢٦٩هـ)، وكان الجيش الإسلامي قد فقد قائد قواته البحرية في هذه المعارك وهو أبو حمزة نصير بسبب خطأ حربي من جانب المسلمين غير أن فقدانه لم يؤثر كثيرا على سير المعارك.

ويبدو أن الموفق خشي على الجيش الإسلامي، وهو جيش الخلافة الرئيسي، من أن يعهد به لأحد في هذه الحرب، فما كانت الدولة تحتمل سوء تقدير يصيب جيشها الأساسي في هذا التوقيت، ولهذا أصر على أن يتوقف القتال ولا ينيب عنه أحدا.

كذلك أصر الموفق على البقاء في جبهة القتال ولم يعد إلى بغداد رغم أن ثمة أمورا كانت تتطلب العودة لضبط السلطان هناك، وذلك كي لا تكون فرصة أخرى لصاحب الزنج لإعادة تنظيم قواته.

وبمجرد أن شُفِي الموفق شن هجوما قويا شاملا على المدينة، سحب فيه قوات الزنج إلى ناحية نهر ثم هاجم المدينة من ناحية أخرى، فوصل إلى قصر من قصور الزنجي فأحرقها واستنقذ منها الأسرى المسلمات، وفي اليوم التالي وصل المسلمون إلى إحراق الدار المجاورة

لدار صاحب الزنج نفسه، ثم نظم الزنج خنادق داخلية لمنع توغل المسلمين فصارت مهمة المسلمين ردم تلك الخنادق قبل التوغل إلى داخل المدينة، وحاول المسلمون الهجوم على قصر صاحب الزنج من جهة أخرى غير جهة الخنادق؛ حيث أحد الأنهار، إلا أنه كان قد أوقف عليها حماية كبيرة فكانت محاولات الاختراق تُفضي إلى احتراق المراكب، مما حدا بالموفق إلى صناعة مراكب ذات سقوف خشبية مطلية بالمواد غير القابلة للاشتعال، ثم نفذ بها هجوما على قصر صاحب الزنج بعدما استطاع تشتيت القوات الأخرى بهجومه على قصور قادة الزنج، مما أجبرهم على التفرق، وتم إحراق قصر صاحب الزنج الذي فرَّ هاربا وكذلك قصور قادته، وغنم الجيش ما في تلك القصور من الحلي والغنائم والنفائس وأنقذوا المسلمات الأسيرات، ولمرة أخرى يأتي ما لم يكن متوقعا، إذ أصيب الموفق بمرض في المفاصل أدى لتوقف القتال ما بقي من شعبان ورمضان وشوال حتى شُفِي وعاد القتال مرة أخرى (١٠شوال ٢٦٩هـ)، وبطبيعة الحال استثمر صاحب الزنج هذا الوقت في تحصين وتقوية النقاط الاستراتيجية على الأنهار والطرق والأسوار، ولكن لم يصمد كل هذا ليومين من القتال الشديد الباسل، فاستطاع المسلمون تخريب الجانب الغربي الحصين من المدينة، واضطر صاحب الزنج أن ينسحب بقواته وأهله وما تبقى من سلاح وأقوات إلى الجانب الشرقي من المدينة التي يقسمها نهر أبي الخصيب، وهو ما لا يقارن قوة ومناعة بالجانب الغربي. وهناك، أنزل الله بهم ما كانوا قد أنزلوه بالمسلمين من قبل، فلقد انقطع عنهم كل مدد مهما كان بسيطا، وأصابتهم المجاعة حتى «كان أحدهم يأكل صاحبه إذا انفرد به، والقوي يأكل الضعيف، ثم أكلوا أولادهم»، وأما المسلمون فقد تتبعوا من بقي في الجانب الغربي من المدينة حتى انسحب منها كل المقاتلين من الزنج ودمروا كل ما من شأنه أن يُقيم الحياة فيها لكي لا تصلح مرة أخرى كمعسكر، فحملوا الأسلحة والغنائم والأمتعة، ثم أحرقوا ما لم يمكنهم حمله من الأسلحة الضخمة والتحصينات، وأنقذوا آلاف الأسرى والأسيرات، وكان من أهم ما فعلوه أنهم حرقوا سوق المدينة بعد قتال عنيف لئلا تصلح للتجارة فينقطع عنها الشريان الاقتصادي تماما.

وفي أثناء المعارك عند الجانب الشرقي انحاز الكثيرون من نخبة الزنج وخواص قائدهم وبعض خدمه إلى جيش الموفق، رغبة أو رهبة، فازداد موقف الزنج ضعفا، واكتسب

المسلمون نصرا ماديا ومعنويا، وأهم من هذا ما اكتسبوه من معلومات حربية مهمة.

وعند الجانب الغربي بدأ القتال الحاسم، واستمرت المعارك أياما بين الفريقين، كل فريق يبذل أقصى ما لديه، فهذا يقترب من تحقيق النصر الحاسم ولا يمكنه التوقف وإلا كان كل ما سبق من انتصارات مهددا بالفناء، وذلك بخوض معركته الأخيرة، واستمرت المعارك أياما حول السدود والقناطر في الأنهار وحول النقاط الحصينة، وكان الجيش الإسلامي يحقق انتصارات متتالية، حتى انقشعت الأيام عن انهيارات كبيرة في صفوف الزنج، واستسلم عدد من قادة الصف الأول أمثال سليمان بن موسى الشعراني، وبعضهم انتقل إلى جيش الموفق فتاب وحسنت توبته وكفَّر عن ذنوبه، فكان من أشد المقاتلة على الزنج مثل شبل بن سالم الذي أخذ في شن غارات ليلية جعلت الباقين مجبرين على التيقظ والحراسة ليلا. وكانت هذه المجموعات المنسحبة هي رأس الحربة التي قدمها الموفق لاقتحام الجانب الشرقي من المدينة لأنهم أخبر الناس بها وأعرفهم بالطرق والمسالك والمخابئ، فاجتمع بهم وذَكَّرهم ما كانوا عليه من الضلال والفجور وإيذاء المسلمين ثم ما أنعم الله به عليهم من الأمان والإكرام، وأنهم لا يثبتون رجوعهم وتوبتهم إلا بالاجتهاد في حرب الزنج وهم أعرف بالمدينة وثغراتها، فما كان منهم إلا أن طلبوا أن يجعلهم في كتيبة واحدة على جهة واحدة ليثبتوا جهادهم وإخلاصهم، فكان لهم ما أرادوا.

بدأ الاقتحام الشامل للجانب الشرقي من جهاته (٨ ذي القعدة ٢٦٩هـ) بعد مناوشات في اليوم السابق، ودار القتال العظيم الكبير، ونجح الجيش الإسلامي في الوصول إلى دار صاحب الزنج نفسه الذي فرَّ هاربا مرة أخرى تاركا أزواجه وأولاده أسرى، وغنم المسلمون ما وصلوا إليه، وأحرقوا مخزن الأسلحة الرئيسي لدى الزنج، وجاء الليل فانسحب الجيش إلى الموفقية.. ثم جاء مع الليل خبر آخر سعيد..

نهاية حركة الزنج

ذكرنا في عهد المعتز أن أحمد بن طولون قد استقل بحكم مصر وأسس هناك للدولة الطولونية، وأن دولته توسعت حتى شملت الشام بل ووصلت إلى بعض مناطق الجزيرة الفراتية مثل ديار مُضَر، وحاول أيضا أن يتملك الحجاز.. وما يهمنا الآن هو ما أنزله الله من النعمة على الموفق من حيث لا يدري.

كان والي ابن طولون على بعض ديار الشام والجزيرة اسمه لؤلؤ، وهو أيضا تركي من المماليك كان من غلمان أحمد بن طولون، فقرر لؤلؤ أن يكاتب الموفق وعرض عليه أن ينحاز إليه مفارقا لابن طولون، بل وأن ينضم إليه بجيشه في القتال الدائر عند الزنج مقابل بعض الشروط التي وافق عليها الموفق بطبيعة الحال. ومن ناحية أخرى كان الخليفة المعتمد قد وصل به الغضب إلى منتهاه حين رأى نفسه مجرد خليفة بالاسم لا سلطة له بينما النفوذ والأمر والنهي على الحقيقة لأخيه الموفق، فقرر بعد كثير تردد أن يراسل أحمد بن طولون في مصر شاكيا له الحال، فكتب إليه ابن طولون أن يأتيه في مصر واعدا له أن يساعده وينصره ويعيد إليه ملكه على الحقيقة، ولا شك أن ابن طولون قد سَعِد أيما سعادة بهذه الرسالة التي لا تمكنه من اكتساب الشرعية فحسب، بل ستجعله الرجل الثاني في الدولة اسميا والرجل الأول فعليا، فخرج المعتمد مع بعض من كبار قادته الموافقين له في الرأي وبدأ في السير إلى مصر حيث مملكة ابن طولون.

شيء كهذا كان كفيلا ليس بتدمير النتائج التي وصل إليها الموفق في حرب الزنج، بل بانقلاب أمر الخلافة والدولة جميعا، فمن بعد ما اكتسبت الخلافة العباسية كثيرا من قوتها وهيبتها ووحدتها بعد عصر الفوضى وسيطرة الأتراك إذا بهذا العهد يلوح في الأفق من جديد!

ونحسب أن الله قد اطلع على قلب الموفق فوجده مخلصا، أو لربما دعوة اخترقت السماء من مجاهد أو شيخ تقي بألا يفسد الله أمر البلاد وهي على هذه الحال، فكان ما لم يخطط له أحد، ذلك أن والي الموصل والجزيرة إسحاق بن كنداجيق أظهر الموافقة للمعتمد ومن معه من القادة على خطتهم، ثم دبر لهم ومكر بهم فما إن دخلوا في منطقة نفوذه حتى استطاع بالحيلة أن يقبض على هؤلاء القادة مع المعتمد ثم عاتب المعتمد على فراقه «دار ملكه، وملك آبائه، وفراق أخيه الموفق على الحال التي هو بها من حرب يريد قتله، وقتل أهل بيته، وزوال ملكهم، ثم حمله والذين كانوا معه حتى أدخلهم سامراء»، وبهذا انتهت خطة كانت كفيلة بتدمير كل الجهود السابقة.

انتظر الموفق قدوم جيش لؤلؤ الذي وصل (٣ المحرم ٢٧٠هـ) فأكرمهم الموفق واحتفى بهم احتفاء بالغا، تأليفا للقلوب وتشجيعا على الاستبسال وتقوية للعلاقة مع لؤلؤ وجيشه،

ثم كلف جيش لؤلؤ بجبهة من الجبهات بينما كلف جيشه بفتح جبهات قتال أخرى، وأبدى لؤلؤ وجيشه من البطولة والإقدام ما أثبت به كفاءته وسَرَّ المسلمين به، وظل القتال مستمرا لإنهاك الزنج وتخريب مراكز حصانتهم حتى تم تنفيذ الاقتحام الشامل الأخير (٢٧ المحرم ٢٧٠هـ) الذي حقق النصر الكامل، فمن لم يُقتل أو يُؤسر من قادة الزنج فرَّ هاربا وبين الهاربين كان صاحب الزنج نفسه، وانسحب الجيش حين جاء الليل استعدادا لهجوم نهائي للقضاء على الفلول والظفر بصاحب الزنج، وهو ما كان فَأُسِر سليمان بن جامع، وقُتِل صاحب الزنج، وجاء أحد الجنود برأسه (٢ صفر ٢٧٠هـ)، وأيقن من هرب بالهزيمة فاستسلموا كعلي بن أبان المهلبي وانكلاي بن صاحب الزنج وغيرهم من قادة الصف الأول.

وهكذا انتهت الفتنة العصيبة والتمرد الكبير الذي استمر نحو خمسة عشر عاما، بعد جهاد طويل وصبر عظيم وثبات هائل، ذهبت أموال ودماء، وسُفِكت أرواح وانتهكت أعراض وحرمات.. والحمد لله رب العالمين.

مكث الموفق زمنا في الموفقية لكي يأمن الناس الذين شُرِّدوا وهاجروا فيعودون إلى مساكنهم وبلادهم، وضبط أحوال البلاد والقرى، واهتم بأمر البصرة فولى عليها وعلى القضاء فيها من وثق في كفاءته وأمانته.

وعمت الفرحة ديار المسلمين وبلادهم، وانطلقت الأفراح وقصائد التهنئة والمدح من كل فم، وبذل كل صاحب موهبة ما جادت به موهبته في الإشادة والثناء والتمجيد للموفق والجيش الإسلامي والفتح الكبير، وكان من هؤلاء شاعرنا ابن الرومي الذي رثى البصرة قبل خمسة عشر عاما، فأنشد يقول في مدح الموفق وجيشه ورجاله قصيدة طويلة منها:

أبا أحمد أبليت أمة أحمد ... بلاء سيرضاه ابن عمك أحمد

لئن نصر الأنْصارُ بدْءًا نبيَّهمْ ... لقد عُدْتُم بالنصر والعودُ أحمدُ

تُفرِّقُ عنهُ بالمكائدِ جُندهُ ... وتزدادهُمُ جندًا وجيشكَ محصدُ

حصرت عميد الزنج حتى تخاذلت ... قواه واودى زاده المتزود

فظل ولم تقتله يلفظ نفسه ... وظل ولم تأسره وهو مقيد

فما رمته حتى استقل برأسه ... مكان قناة الظهر أسمر أجرد

فلـمَّا أبـى إلا البـوَارَ شَـللتَهُ إلى النـارِ بـئسَ المـوردُ المتـورَّدُ

سـكنتَ سـكونًا كـان رَهنًـا بعـدوة عـمَاسٍ كـذاكَ اللَّيـثُ للوثـب يلبَـدُ

وقال في ابنه أبي العباس:

وحَـامى أبـو العبـاسِ في كـل مَـوطنٍ عـلى يومـهِ ثَـوبٌ مـن الشرِّ مُجسَـدُ

محامـاةَ مِقـدامٍ حيـودٍ عـن الهـوى ولكنَّـهُ عـن جانـبِ العـار أحيـدُ

ومـا شِـبلُ ذاكَ اللَّيـث إلا شـبيههُ وغيرُ عجيـبٍ أن تـرى الشِّبلَ يأسدُ

وقال في وزيره صاعد بن مخلد:

ومـا بِـئسَ عـون المـرءِ كـانَ ابـنُ مَخلَـدٍ نَصـيحُكَ والأعـداءُ نحـوكَ صُـمَّدُ

مضى لـكَ إذ كـلَّ الحديـدُ مـنَ الظَّبَـا وحاطـكَ إذ رَثَّ النَّسـيجُ المسرَّدُ

وهـت كـلَّ درع فـانثنى كـلَّ مُنصـلٍ سوى صاعدٍ والموتُ للموتِ يَنهدُ

فـلا يَبعـد الـرَّأي الـذي اخترتـهُ بـهِ وقرَّبتـهُ بـل مـن أبـى ذاكَ يبعـدُ

أمـا لـئن اسـتبَطنتهُ دونَ مـن دنـتْ إليـكَ بهـالقربى وهنبـثَ حُسَّـدُ

يظـل عـن الحـرب العـوان بمعـزل وآثـاره فيهـا وإن غـاب تشـهد(١)

ولُقِّب الموفق بعد هذا النصر الكبير «بالناصر لدين الله مضافا إلى الموفق بالله، فكان يخطب له على المنابر بلقبين يقال: اللهم أصلح الأمير الناصر لدين الله أبا أحمد الموفق بالله ولى عهد المسلمين أخا أمير المؤمنين»(٢).

وقفة مع حركة الزنج

أدت هذه الفتنة كذلك إلى نشر الأمراض والأوبئة بسبب ما عاناه الناس من فقر وجوع، حتى أكلوا الجيف، وأدت إلى أن يأسر الزنوج آلاف الحرائر. وقتل من المسلمين عدد كبير، أقل تقدير له هو مليون ونصف المليون مسلم، خلال ١٥ سنة، كما اعتبرت هذه الحركة الفاسدة من الأسباب التي ساعدت على تفكك الدولة الإسلامية خلال العصر العباسي

---

(١) وهذا مدح وليس ذما، فهو يمدح ذكاءه بأن تخطيطه الحربي ناجح نافذ وإن لم يكن في قلب المعركة.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٢٧.

الثاني.

ولقد كانت هذه الحركة محط أنظار الفرق المنحرفة، فعندما كان الزنج يحققون الانتصارات أراد الإسماعيليون المشاركة في هذه الحركة ما دام الهدف واحدا، وبالفعل التقى حسين الأهوازي وهو أحد الدعاة الإسماعيليين بصاحب الزنج سنة ٢٦٤هـ، وعرض عليه المساعدة، فقد أراد الأهوازي المشاركة في هذه الحركة كمرحلة من مراحل عمله إذ إنه لا يستطيع أن يقوم بمفرده بعمل مثمر، والحركات الانتهازية يستغل بعضها بعضًا، ولم تكن الحركة الإسماعيلية قد قوي عودها، إلاّ أن صاحب الزنج عرف رغبة الأهوازي في استغلال «الثورة»، فرفض التعاون معه، لأن الزنج كانوا حينها في أوج قوتهم.

لم تكن ثورة الزنوج إلا ثورة طبقية محدودة الأفق، تستهدف تحرير الرقيق من الزنوج فقط، وهي تمثل لنا أول صرخة اجتماعية خطرة في العصر العباسي الثاني ضد النظام الاجتماعي الاقتصادي السائد، كما أنها تكشف لنا عن مدى فظاعة استغلال الرقيق بشكل يخالف مبادئ الإسلام ويمثل الجشع المادي المتطرف لأصحاب الاموال. ثم إن دراسة حوادث الثورة تظهر شدة حقد الزنوج على أسيادهم وحنقهم على المجتمع الإسلامي، إذ قاموا بفظائع ومنكرات لا يقدرها إلا من تصفح الطبري الذي تحدث عن الثورة بإسهاب عجيب يدل على مدى خطورتها آنئذ. وقد انهارت بعد أن خربت مزارع قسم كبير من السواد ودمرت عددا كبيرا من قراه ومدنه الهامة كالبصرة والأبلة، ولعل فشلها ناتج بالدرجة الأولى عن كثرة فظائعها وخلوها من برنامج اجتماعي شامل(١).

وقد ظلت ثورة الزنج عملا شنيعا ومرفوضا، ويذكره المؤرخون المسلمون بكل أسى وحزن حتى انبعث في هذا العصر الحديث من «أعاد النظر» في هذه الحركة الدموية وقدمها للناس على أنها «ثورة» بل و«ثورة إصلاحية» أيضا، وانطلق أولئك من مرجعياتهم الفكرية في تشويه التاريخ الإسلامي، فمنهم الماركسي الذي يريد الطعن في التاريخ الإسلامي ليثبت نظريته المادية في التاريخ وحركته الطبقية المبنية على أوضاع اقتصادية وأن الإسلام لم يكن شيئا إلا خرافات في أذهان معتنقيه فهو نوع من «أفيون الشعوب»، ومنهم الشيعي الذي يريد أن يراها ثورة علوية، ومنهم القومي الذي أراد عبر بعض الشخصيات العربية أن يجعلها ثورة عربية

---

(١) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص٢١.

على الحكم التركي، فهكذا اختلفت منطلقاتهم ودوافعهم واتفقوا في تزويرهم للتاريخ الإسلامي والطعن فيه، وقد أبدى كل منهم ما استطاع من قدرة على التضليل ليصل إلى هدفه ومبتغاه[1].

ويكفي للحكم على هؤلاء وتبيان عمقهم الفكري أن نكشف عن أن «إعادة النظر» هذه

---

(١) تتبع د. هاني السباعي التأليف عن هذا الموضوع في مقاله «العلمانيون وثورة الزنج» فقال:
«كان لطه حسين السبق في إبراز أحداث النشاز في التاريخ الإسلامي ؛ ففي سنة ١٩٤٦ نشر مقالة في مجلة (الكاتب المصري)[مايو ١٩٤٦م، ثم نشرها في كتاب ألوان] بعنوان (ثورتان) حث فيها طه حسين الأدباء والمثقفين العرب على استلهام ثورة الزنج كما استلهم الأوربيون ثورة (سبارتكوز) بغية الوصول إلى العدالة المنشودة على حد زعمه ومن ثم فقد فتح طه حسين شهية العلمانيين وخاصة الماركسيين والشيوعيين ومن يسمون أنفسهم اليسار الإسلامي! وأرباب المدرسة الاعتزالية للنيل من الإسلام بحجة البحث والإبداع وإيصال الماضي بالحاضر! وفي منتصف الخمسينات نشر فيصل السامر ـ شيوعي عراقي ـ كتابه (ثورة الزنج) وفي سنة ١٩٦١ نشر اللبناني اليساري أحمد علبي كتابه (ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد) .. ثم ألف د. محمد عمارة (معتزلي حاليًا وماركسي سابقًا) كتابه (مسلمون ثوار).. كتب فصلًا مطولًا عن صاحب الزنج وتعاطف معه وحسن صورته وبيض فتنته عكس من سبقه من الكتاب!! فمثلًا: الكاتب أحمد علبي ذكر أن لصاحب الزنج وثورته سلبيات.. أما الدكتور عمارة فلم يثبت هذه السلبيات ـ أقصد الجرائم التي ارتكبها صاحب الزنج في حق الإسلام ـ ثم توالت الكتابات حيث نشر معين بسيسو مسرحيته الشعرية (ثورة الزنج) .. وكتب نور الدين فارس مسرحيته الشعرية (لتنهضوا أيها العبيد) .. ثم عاود أحمد علبي الكتابة عن صاحب الزنج فنشر سنة ١٩٨٥ كتابه (ثوار وعبيد) .. وفي سنة ١٩٩٥ صدر كتاب (شخصيات غير قلقة في الإسلام) لهادي العلوي وخصّ صاحب الزنج بفصل كامل وسار على درب من سبقه من يساريين وعلمانيين!!».
انظر مقال: العلمانيون وثورة الزنج. موقع مركز المقريزي للدراسات التاريخية (www.almaqreze.net).
قلتُ (إلهامي): وقد حفلت المجلات العلمية العراقية –كالمورد– بمقالات وبحوث في هذا الصدد، فقد كانت موطنا للقوميين واليساريين تحت حكم البعث العراقي، ولم يكن لهذه المقالات من رائحة «العلم» إلا هذا الثوب المصطنع الذي يخدع البسطاء بزخارفه بينما هو في الحقيقة لا يعتمد على أي أساس علمي في نقده للروايات التاريخية وتفكيكها ولا أي أساس علمي في تركيب رؤيته بمنهج علمي منضبط!
ولهذا شن المؤرخ العراقي البارز د. فاروق عمر فوزي هجومه على هؤلاء –رغم أنه يُحسب على القوميين– هجومه على هذه القراءات غير المتمعة بأي انضباط علمي في عدد من مؤلفاته مثل: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين.
ونحن نرجو أن يتراجع الدكتور محمد عمارة –وهو من الفضلاء المنافحين عن الإسلام أمام الاتجاهات العدائية– عن رأيه في حركة الزنج هذه، ذلك أنه كَوَّنه في بداية خروجه من الماركسية وكتابته في الفكر الإسلامي بكتاب «مسلمون ثوار» (وقد كان هدف هذا الكتاب بالأساس الدفع عن المسلمين تهمة الماركسيين –وقتها– بأن الفكر الإسلامي لا يعرف الثورة وأن المسلمين بلا تاريخ ثوري) فهو رجل لا يتحرج من إعادة كتابة أفكاره، ومؤخرا يبدو أقرب إلى الفكر الإسلامي السني أكثر من أي وقت مضى، فيما احتفظت مؤلفاته الأولى بِنَفَس ماركسي قومي اشتراكي!

لم تكن إلا من المستشرق الألماني نولدكه، الذي نتوقع أن تغربه عن الروح العربية الإسلامية أوقعته في هذا الخطأ، لكن: أي عذر لمن أخذ من المستشرق فترجم ونشر وأعاد الكتابة وكأنها من إبداعات أفكاره؟!

«كيف يمكن اعتبار فتنة دموية مثل حركة الزنج ثورة منظمة؟ لقد ظلت حركة الزنج في كافة مراحلها تفتقر إلى الحد الأدنى من الأطر التنظيمية المطلوبة في الثورة، كما كانت زعاماتها انتهازية ترتكز على عصبية عرقية أو عصبية قبلية، كما أن هذه الزعامات اتبعت سياسة محكومة بالمصلحة الشخصية، ولذلك أظهرت على المدى البعيد عدم قدرتها على الصمود»[1].

وقارئ التاريخ في هذه اللحظة لا يكاد يصدق أن يوجد من البشر فضلا عن أن يوجد من المسلمين من يؤيد أن يمجد في حركة الزنج هذه، فالحق أنه إذا كنا نأسى ونتأسف ونعدد المثالب والمساوئ التي جرها حكم الأتراك على تاريخ الأمة فأي كارثة عظمى تلك التي يمكن أن تحدث لو انتصرت حركة الزنج؟! يقول الشيخ محمد الخضري: «لم يكن يدري إلا الله ماذا تكون العاقبة لو انتصر هذا الرجل بزنوجه على آل العباس بأتراكهم. كان الأمر ينتقل من أيدي الأتراك إلى أيدي الزنوج فتقع الأمة في الشر العظيم والوباء الوبيل لأن هؤلاء الزنوج ليس لهم أدب معروف بل لا يكادون يفقهون قولًا.. فانتصار العباسيين عليهم خلاص للأمة من شر مستطير»[2].

المواجهات مع الصفاريين

لم يكن خطر الزنج هو الخطر الوحيد الذي واجهته الدولة العباسية، ولم يكن مشهد الحرب في جنوب العراق والأهواز هو المشهد الوحيد، بل اضطرت الدولة أكثر من مرة للتخلي عن جبهة من الجبهات في سبيل دفع الخطر الأكبر، وقد رأينا أثناء عرضنا لتمرد الزنج أن انشغال الدولة بحرب يعقوب الصفار أدى لتوقف المواجهة بين الدولة والزنج.

وقد تحدثنا في آخر خلافة المعتز بالله عن بداية الدولة الصفارية، وكيف أن يعقوب

---

(١) د. فاروق عمر: آراء خاطئة في تفسير التاريخ العربي، مجلة المورد، العدد (٢)، ١٣٣٩هـ = ١٩٧٩م.
(٢) محمد الخضري: الدولة العباسية ص٣٤٢.

الصفار انطلق من بلدة تابعة لسجستان ثم استطاع تجميع العيارين في قوة واحدة ثم تعاظمت قوته ونفوذه حتى هزم الطاهريين –حكام خراسان التابعين للخلافة العباسية– وغلبهم على مدن مهمة في خراسان ثم سيطر على ولاية كرمان ثم على فارس، وكان حريصا على إظهار الطاعة والولاء للخلافة وأرسل إلى المعتز بالهدايا والتحف، ولم يكن أمام الخلافة في ذلك الوقت إلا التسليم بالأمر الواقع وهي في حال الضعف والمناوشات مع القادة الأتراك في سامراء، فاعترفت بولاية الصفار على ما استولى عليه، مما ثبت من ملك الصفَّار وجعله حاكم المنطقة الشرقية فيما عدا حواضر خراسان التي ما زال الطاهريون يحكمونها.

كان هذا في عهد المعتز بالله، وأما في عهد المهتدي فلم يكن للصفار أثر مهم على تاريخ الخلافة «بل كان يغزو ويحارب من يليه من الملوك بسجستان وأعمالها، ويتطرف[١] كور خراسان وما قرب من قوهستان ونواحي هراة وبوشنج وما اتصل بسجستان. ثم عاد يعقوب إلى بلاد فارس وجبى غلاتها ورجع بثلاثين ألف ألف درهم»[٢].

ورغم أن يعقوب قد سيطر على سجستان وكرمان وهزم علي بن الحسين في فارس إلا أن الخلافة لم تعترف به واليا فيما يبدو، ذلك أن يعقوب أرسل بهدايا إلى الخليفة (ربيع الآخر ٢٥٧هـ) ومنها أصنام حصل عليها من كابول حيث تنتشر البوذية، وفي هذا معنى الولاء للخلافة ومعنى الجهاد في سبيل الله، ثم يتقدم بجيوشه إلى فارس ولا ينصرف عنها إلا ومعه كتاب من أبي أحمد الموفق «بولاية بلخ وطخارستان إلى ما يلي ذلك من كرمان وسجستان والسند وغيرها، وما جُعِل له من المال في كل سنة»[٣]، فعندئذ قبل ذلك وانصرف راجعا إلى سجستان (٢٥٧هـ).

وبعد أن ثَبَّت يعقوب الصفار أقدامه فيما سيطر عليه من كرمان وفارس غربا وكابول شرقا وانتزع الشرعية من الخلافة، بدأ في مهاجمة حواضر وعواصم خراسان، وكان الطاهريون قد بلغ الضعف منهم مداه، وتنافس أمراء البيت الطاهري على الحكم، وطمع

---

(١) يتطرف: أي يغزو أطراف.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ٤١٠، ٤١١.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٨٠.

الحكام المحليون في الاستقلال بما في أيديهم من الولايات، ومما زاد الطين بلة أن «كانت الفترة التي شهدت سقوط الدولة الطاهرية هي نفس الفترة التي واكبت ضعف الخلفاء العباسيين»(١).

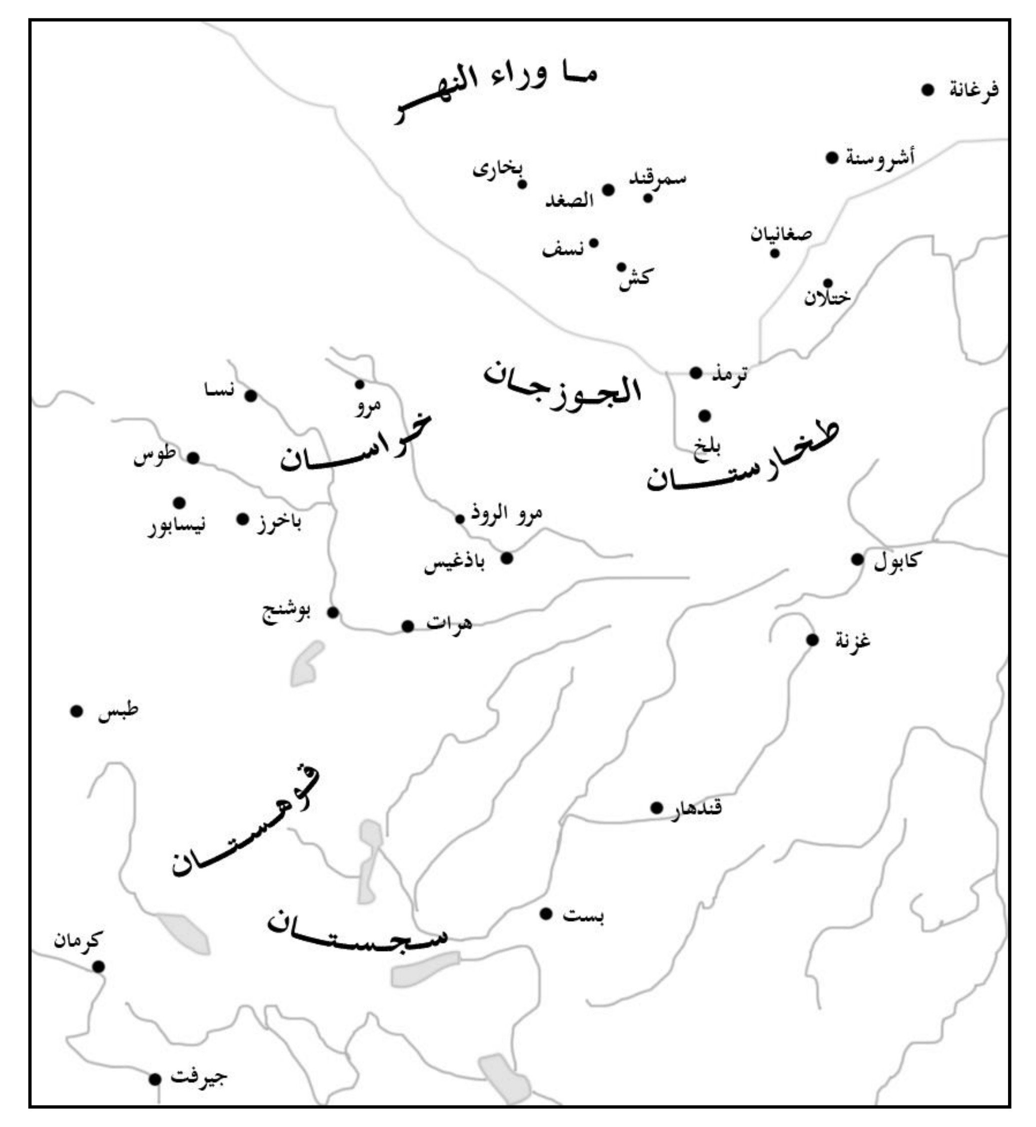
انطلق يعقوب الصفار نحو بلخ (٢٥٨هـ) فاستولى عليها، ثم إلى هراة –وكان قد تركها بعد أن استولى عليها أول مرة بموجب صلح مع الطاهريين- فاستولى عليها، ثم تَذَرَّع بمطاردة بعض الفارين إلى نيسابور –عاصمة الطاهريين- ولم يكن محمد بن طاهر أمير خراسان يملك إلا الطرق الدبلوماسية التي فشلت بطبيعة الحال، لا سيما وأن تفكك البيت الطاهري جعل بعض الأمراء الطاهريين منحازين إلى يعقوب الصفار الذي استولى على المدينة (ذي القعدة ٢٥٩هـ) وأسر واليها محمد بن طاهر وآل بيته(٢)، فأنهى الدولة الطاهرية بعد أكثر من نصف قرن حكمت فيها خراسان منذ جدهم الأكبر طاهر بن الحسين(٣) الذي سُئِل قديما «كم تبقى هذه الدولة فينا وتبقى في بيتنا؟ قال: مادام بساط العدل والإنصاف مبسوطًا في هذه الإيوان»(٤).

رجع يعقوب إلى سيستان بالسرور والانتصار وأقام شعبها الأفراح عند وصوله ومدحه الشعراء بالعربية والفارسية، ولم يكن يعقوب يفهم العربية(٥).

---

(١) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١١٨.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٠١، والشابشتي: الديارات ص١٢٨، ١٢٩.
(٣) زمباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص٢٩٩.
(٤) الغزالي: التبر المسبوك ص٧٧.
(٥) عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلامي ص١٠٥.





ولعل يعقوب توقع أن تقبل الخلافة بالأمر الواقع كما فعلت من قبل، لذا أرسل رسله إلى الخليفة، وبعث معهم بأسباب حربه للطاهريين والتي تتمثل في ضعفهم وتشتتهم، واستيلاء الخوارج على مدن خراسان، حتى إن عبد الرحمن الخارجي كان يحكم مدينة هراة لثلاثين سنة ويُدْعى فيها بالخليفة، وقال رسل يعقوب بأن أهل خراسان كاتبوا يعقوب وناشدوه أن يخلصهم من حكم الطاهريين بل إنهم استقبلوا يعقوب قبل أن يصل نيسابور وفتحوها له، واصطحبوا معهم رأس عبد الرحمن الخارجي كدليل على جهادهم لأعداء الخلافة وولائهم لها[1].

إلا أن ظنه لم يكن في محله، إذ وقفت الخلافة منه موقف العداء، وقال الموفق أبو أحمد لرسل يعقوب: «إن أمير المؤمنين لا يقر يعقوب على ما فعل، وإنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذي ولاه إياه، وأنه لم يكن له أن يفعل ذلك بغير أمره فليرجع، فإنه إن فعل كان من

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٩٨.

الأولياء، وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين»، وحبس الخليفة وفدا ممن بعثهم يعقوب إليه[1].

وفي نفس الوقت كان أحد منافسي يعقوب في سجستان واسمه عبد الله السجزي قد هرب إلى الحسن بن زيد –المستولي على طبرستان ومؤسس الدولة الزيدية كما سبق وذكرنا– فأراد يعقوب تحقيق جملة أهداف بضربة واحدة، فانطلق إلى طبرستان وأرسل إلى الحسن بن زيد يطلب فيها تسليم عبد الله السجزي إليه فرفض الحسن فوقعت الحرب (رجب ٢٦٠هـ) فانتصر فيها يعقوب نصرا قويا وسريعا، وهرب الحسن أمامه إلى جبال طبرستان وطارده يعقوب حتى تحول نصره إلى ما يشبه الهزيمة إذ نزلت الأمطار بغزارة وأصبح في أرض وعرة لا يجيد الحرب فيها، وقد أخرب الحسن بن زيد الطرق وقطع الجسور والقناطر لئلا يتمكن يعقوب من مطاردته، فخسر يعقوب في هذه المطاردة كثيرا من جيشه ودوابه[2]، فعاد الحسن ابن زيد إلى طبرستان من جديد وازدادت دولته استحكاما وقوة[3].

وقد أراد يعقوب –فيما يبدو لنا– أكثر من هدف: توسيع نفوذه، والتوحد بزعامة المنطقة الشرقية من الخلافة الإسلامية بإخضاع الحسن بن زيد بعد أن خضعت له خراسان وكرمان وفارس، والتقرب إلى الخلافة بأن يقضي على خصومها والخارجين عليها ممن لم تستطع الخلافة حربهم كالحسن بن زيد في طبرستان، والقضاء على خصمه عبد الله السجزي.

وبالفعل، ما لبث يعقوب حين عاد من حرب الحسن بن زيد إلا أن راسل الخلافة يذكر له فيها ما أوقعه من هزيمة بالحسن ودخوله طبرستان وكيف هزمه وأسر سبعين من الطالبيين معه وطارده حتى أقصى الجبال، كذلك طارد يعقوب عبد الله السجزي الذي هرب إلى «خوار الري» ولم يكن أمام واليها إلا أن يسلمه إلى يعقوب بعد أن هدده بالحرب[4].. وهكذا استطاع بالفعل تحقيق أغلب أهدافه إلا أهمها: رضا الخلافة وشرعية حكمه على خراسان!

وبمطالعة الأمر من وجهة نظر الخلافة، حيث يقوم بها فعليا أبو أحمد الموفق طلحة، فإن الأمر يثير التساؤل في بادئ الأمر، إذ كيف له أن يرفض منح يعقوب الشرعية وهو قد صار

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٩٨، ٥٠٤.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٩٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٤٦.
(٣) عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام ص٢٢.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٠٠.

القوى الأوحد فعليا في الجزء الشرقي من الخلافة الإسلامية، لا سيما أن الوضع غير مستقر، ففي جنوب العراق يعظم أمر الزنج، وقد استقل أحمد بن طولون بمصر وهو يوسع مملكته نحو الشام، فلماذا رفض الموفق الاعتراف بشرعية يعقوب الصفار على خراسان رغم أنه فعليا أدى للخلافة خدمات جليلة حين قضى على الخوارج في سجستان وكرمان لاسيما هذا الخارجي الذي سيطر على هراة لثلاثين سنة، وانتصر نصرا كبيرا على الحسن بن زيد في طبرستان؟

يُرجع بعض المؤرخين السبب في هذا إلى سياسة الموفق التي كانت ترفض استقلال الولاة بالبلاد، فموقفه من الصفار هو هو موقفه من ابن طولون الذي استقل بمصر، فلقد كان الموفق حريصا على حفظ هيبة الخلافة كسُلطة شرعية عليا، أو بالأحرى هو يحاول أن يعيدها كذلك[١] إلا أن هذا التفسير وحده لا يبدو كافيا، إذ سبق واعترفت الخلافة بحكم الأمر الواقع في سجستان وكرمان وفارس.

لعل ذلك يعود أيضا إلى تأثير الطاهريين في العراق، فالأسرة الطاهرية لم تكن تتولى حكم خراسان فقط، بل كانت تتولى أيضا شُرْطة بغداد منذ عهد المأمون[٢]، والعلاقة بين الخلافة والطاهريين وثيقة، ويمكن أن يضاف إلى هذا خشية الأتراك ذوي النفوذ وقادة الجيوش في عاصمة الخلافة من عودة السيطرة الفارسية على الخلافة كما كانت حتى عهد المأمون قبل أن يصيروا هم رجالها ومُقَدَّميها[٣]. كذلك لا ينبغي أن ننسى أن هذا الظهور القوي ليعقوب الصفار قد أحدث أزمة في بيت الخلافة، إذ رأى فيه بعض الأمراء العباسيين فرصة لتحويل الخلافة من أبناء المتوكل وإعادتها إلى أبناء الواثق[٤]، وانحاز إليه بالفعل عبد الله بن الواثق

(١) يزدانيان زندكاني: يعقوب ليث ص١١٠ وما بعدها، نقلا عن: د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١٤٦.

(٢) راجع أسباب هذا في حديثنا عن بداية الدولة الطاهرية في عهد المأمون.

(٣) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١٤٦، ١٥٩.

(٤) نُذَكِّر بأنه: بعدما توفي الواثق تولى المتوكل الخلافة، فلما قُتِل المتوكل على يد الأتراك بالتحالف مع ابنه المنتصر لم يلبث المنتصر أن أخذ بثأر أبيه من الفتح بن خاقان، فخاف الأتراك من أولاد المتوكل فحملوا السلطة إلى المستعين بن المعتصم، ثم جرت الحوادث فانقلبت الخلافة إلى المعتز بن المتوكل ثم المهتدي بن الواثق الذي قُتِل في تمرد الأتراك فتولى الأمر المعتمد، الذي هو الخليفة القائم، وقد سيطر على الخلافة فعليا أخوه الموفق طلحة، وكانت ولاية العهد لابن المعتمد ثم برز ابن الموفق ببطولاته العسكرية في حرب الزنج، ما يعني أن الخلافة توشك على الخروج تماما من نسل الواثق بعدهما.

وصار معه في معسكره، ولا ريب أن يعقوب أنزله منزل التكريم والحفاوة والتعظيم ورأى فيه نقطة قوة هائلة إذا اضطر إلى مواجهة مع الخلافة.

وعلى كل حال فقد قادت الخلافة حربا معنوية وإعلامية ضد يعقوب الصفار، فأمر الخليفة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بجمع كل حجاج خراسان والري وطبرستان وجرجان ممن كانوا ببغداد (صفر ٢٦١هـ) ثم أعلن فيهم «أن السلطان لم يول يعقوب بن الليث خراسان، ويأمرهم بالبراءة منه لإنكاره دخوله خراسان وأَسْرِهِ محمد بن طاهر»[١]، وأعلنت الخلافة أن يعقوب يعتنق مذهب الشيعة الإسماعيلية، وحرَّضت ولاة المدن على التمرد في وجه يعقوب، وبعثت إلى ولاة المدن بمراسلات توليهم المدن التي معهم، وبالتالي رأى الولاة أن شرعيتهم مستمدة من الخلافة مباشرة لا من يعقوب، فأدى هذا إلى تمرد العديد من المدن عليه[٢].

وفي ذلك الوقت كان محمد بن واصل –والي فارس والمتغلب عليها– قد عاد للعصيان والتمرد على الخلافة، وقد أرسلت له الخلافة جيشا يقوده عبد الرحمن بن مفلح الذي كان يتولى محاربة الزنج في الأهواز –كما ذكرنا لدى استعراضنا لحركة الزنج– فاستطاع محمد بن واصل أن يهزم هذا الجيش بل وأن يأسر قائده الشاب الفذ عبد الرحمن بن مفلح الذي أنزل بالزنج هزائم كبيرة قبل قليل، ثم لم يكتف بهذا بل انطلق في مهاجمة الأهواز حيث إبراهيم بن سيما، مما أربك الوضع العسكري تماما لصالح الزنج على حساب الخلافة وسبَّب ذلك تفريغ الأهواز فنفذ فيها الزنج مذبحة بشعة[٣].

ولم يتأخر عقاب الله لمحمد بن واصل، إذ هاجمه يعقوب الصفار بعد ذلك مباشرة، ويُروى أن محمد بن واصل خاف من منافسة ابن عمه –أو خاله– مرداس فتآمر عليه فاستغاث بيعقوب الذي أقبل لنجدته[٤]، لكن الأمر كان أكبر من هذا لدى الصفار إذ هو يطمع في ملك فارس[٥] التي عاد عنها قبل سنوات مقابل الحصول على شرعية ولايته لبلخ وكرمان وسجستان، وبالفعل أوقع يعقوب الصفار هزيمة هائلة بمحمد بن واصل (ذي

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٠١.
(٢) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١٥١ – ١٥٣.
(٣) راجع هذا بتفصيل أكبر في استعراضنا لحركة الزنج.
(٤) الاصطخري: المسالك والممالك، ص١٤٣.
(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ٣٢٤.

القعدة ٢٦١هـ) الذي هرب من فارس، وكان من ضمن الأسرى مرداسٌ الذي رُويَ أنه سبب القدوم أصلا[١].

لم يكن هدف يعقوب الاستيلاء على فارس، لا بل إنه يمد عينيه إلى أكثر من هذا، إذ بعد أن أبدت الخلافة استنكارها لاستيلائه على خراسان وحربها الإعلامية ضده، قرر الصفار أن يُجبر الخلافة بالقوة على قبول ذلك، وراودته أحلامه في السيطرة على العراق والبلاد والتحكم في أمر الخلافة[٢] أو لعله أراد تنصيب عبد الله بن الواثق وإزالة المعتمد والموفق من الخلافة كلها[٣].

لهذا ما لبث أن تقدم يعقوب الصفار نحو رامهرمز (المحرم ٢٦٢هـ) فصار الخطر كبيرا على الخلافة نفسها، إذ لم يكن أمامه بعد فارس إلا العراق نفسها، ولم يكن الموفق بحاجة لأن يفتح جبهة أخرى بعدما بدأ يحقق انتصارات كبيرة على الزنج في جنوب العراق، فأفرج عن المحبوسين من وفد يعقوب (٥ ربيع الأول ٢٦٢هـ) وقرر الموفق أن يتنازل ويقدم ليعقوب ما يرضيه، فكتب له –على لسان الخليفة– بولاية فارس وجرجان وطبرستان والري بالإضافة إلى مناصب الطاهريين: ولاية فارس، والشرطة في بغداد، لكن هذا لم يُرْضِ يعقوب الذي أصر أن يسير بنفسه إلى الخليفة، فلم يبق إلا الحرب[٤].

على أن الصفار كان يشيع في جنوده أنه في طاعة الخليفة وأنه إنما يريد القدوم بنفسه عليه ليجدد له البيعة والولاء[٥]، وكان يعقوب يزيد إصرارا في تقدمه إلى بغداد كلما زاد المعتمد والموفق في طلبهما عودته بهذه الوعود، إلى أن أمر المعتمد بجمع الجيش وقصد دفعه[٦].

نادى الخليفة بالجهاد (٣ جمادى الآخرة ٢٦٢هـ) وخرج من سامراء على رأس جيش كبير (٦ جمادى الآخرة ٢٦٢هـ) وتجمعت جيوش الخلافة قريبا من دير العاقول وتولى قيادتها أبو أحمد الموفق طلحة، وأما يعقوب فقد تقدم حتى استولى على واسط (٢٤ جمادى الآخرة

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٠٢.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٢٠/ ٨.
(٣) نظام الملك: سياست نامة ص٥٢، والمطهر المقدسي: البدء والتاريخ ٦/ ١٢٥.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٠٤.
(٥) نظام الملك: سياست نامة ص٥٢، ٥٤.
(٦) عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام ص١١٠.

٢٦٢هـ)، ثم التقى الجيشان قريبا من دير العاقول، ودار بينهما قتال كبير مرير (أوائل رجب ٢٦٢هـ) ذهب فيه عدد من كبار القادة في الجيشين ثم انتهى إلى هزيمة مُرَّة ليعقوب الصفار الذي لم يجد إلا الهروب مع قليل من خاصته، وحصل جيش الخلافة على غنائم كثيرة وحرَّر محمد بن طاهر –أمير خراسان الأخير- وكوفئ وأُكرم وأُعطي أموالا جزيلة، وقُرِئ على الناس منشور النصر على يعقوب الصفار (١٣ رجب ٢٦٢هـ) ، وكان من أهم ما أوقع الهزيمة بيعقوب الصفار انقلاب كثير من جنوده عليه حينما رأوا الخليفة يحاربه، لا سيما الخراسانيون[١]، لا سيما أن الموفق قد استطاع الاتصال بقادة بعض الفرق وأعلمهم بأن الخليفة لا يرضى عن يعقوب وأنه من الشيعة وأن هدفه الحقيقي هو القضاء على الخلافة نفسها[٢].

كانت الهزيمة كبيرة، غير أن يعقوب لم يستسلم لها، وحاول مرة أخرى تجميع جيوشه والسير نحو العراق في حرب جديدة، لكن المرض اشتد عليه فمات في جنديسابور (١٤ شوال ٢٦٥هـ) وتولى أخوه عمرو بن الليث قيادة الدولة الصفارية من بعده[٣].

وكان عمرو على غير مذهب أخيه في حرب الخلافة ومواجهتها، كما كانت الخلافة تسعى للتهدئة مع كثرة التمردات في الأنحاء المختلفة، لذا دخل في طاعة الخلافة وأذعن لها، ومن جانبها أعطته الخلافة ولاية المناطق التي سيطر عليها الصفار والتي ورثها عن الطاهريين، وهي: خراسان وفارس وأصفهان وسجستان وكرمان والسند وشرطة بغداد وسامراء (٢٦٥هـ)[٤] ثم إن عمرو بن الليث قام بمبادرة «حسن نوايا» مع الخلافة ومع الطاهريين حين عَيَّن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر على شرطة بغداد وسامراء (صفر ٢٦٦هـ)، وتقبلت الخلافة ذلك قبولا حسنا[٥].

وبذلك انتهت مشكلات الخلافة العباسية مع الصفاريين إلى حين.. ذلك أنه سيتجدد بعد قليل!

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٠٥، ود. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١٦٢.
(٢) نظام الملك: سياست نامة ص٥٢.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٢٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٨٣.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٢١، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ١٩٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٨٤.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٢٣، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٢٠٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٨٨.

لئن كان تمرد يعقوب الصفار بلغ أن يكون واحدا من أخطر التمردات التي واجهتها الدولة العباسية، فلقد حقق –دون أن يقصد بالطبع- كثيرا من الفوائد، وأنهى كثيرا من الاختلالات التي طالما عانت منها الدولة العباسية في المشرق، وأهم هذا تمرد الخوارج الذين استوطنوا سجستان واستقلوا بأمرها على الحقيقة لسنين، لا سيما عبد الرحمن الخارجي الذي استقل بهراة لمدة ثلاثين سنة وهو يُنادى فيها بالخلافة، كذلك ضرب يعقوب الصفار قوة الحسن بن زيد في طبرستان، وهي القوة التي لم تستطع الخلافة العباسية توجيه أي جيش لمناهضتها في تلك المناطق حتى استطاع الحسن تأسيس الدولة الزيدية، فاستطاع يعقوب أن يطارده –وهو يطارد منافسه عبد الله السجزي- حتى أواخر جبال طبرستان وهزمه في عقر داره، بالإضافة إلى ذلك رفض يعقوب الصفار التحالف مع صاحب الزنج وأرسل ردا عليه يقول «يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون»، وخاض نائبه محمد بن عبيد الله حروبا مع صاحب الزنج وتحالفاتٍ أرهقه فيها وهزم جيشا من أقوى جيوشه قاده علي بن أبان المهلبي حين سلمه للأكراد فهزموه ثم استقبلهم منسحبا، وكل هذا كان دعما للخلافة في محصلة الأمر وإن كان كل شيء قد تم للمصلحة الشخصية وبغير تدبير من الخلافة..

وبلغ يعقوب في تعقب بعض خصومه مدينة الرخج (ذو الحجة ٣٥٥هـ) واستولى على كابول، وهو –بهذا- أول مجاهد إسلامي (!) عمل على نشر الإسلام[١] في الجزء الشرقي من أفغانستان الحالية ووادي نهر كابل وحدود معبر خيبر، ومدَّ من اتساع انتشار هذا الدين حتى حدود القسم الأعلى لوادي السند قبل الغزنويين والغوريين[٢].

وهكذا.. لا شيء يمضي دون فوائد، وكما قال تعالى ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾.

عودة إلى مشهد الخلافة

تولى المعتمد الخلافة (رجب ٢٥٦هـ)، وكانت الصراعات بين القادة الأتراك قد بلغت

---

(١) وصل الفاتحون إلى هذه المناطق منذ العصر الأموي، ولكن الإسلام لم يستقر في هذه المناطق بل كانت على الصلح مع المسلمين مقابل أموال يدفعها ملوكهم، وفي لحظات الضعف الإسلامي يعود انفصال هذه المناطق عن السلطة الإسلامية. انظر: البلاذري: فتوح البلدان ٣/ ٤٨٨ وما بعدها.

(٢) عباس اشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام ص١٠٧.

أوجها حتى صار مقام الخلافة بلا هيبة، حيث خُلع المستعين ثم عُذِّب المعتز وقُتِل ثم قُتِل المهتدي، وقد تولى المعتمد نفسه الخلافة على يد الأتراك.

«والحق أن فترة التسع سنوات (٢٤٧هـ - ٢٥٦هـ) كانت فترة محنة للدولة العباسية اختبرت فيها قوتها الكامنة ودرجة رسوخها ومدى مرونتها، فخرجت منها بنصر مؤقت بعد جراح وتقطيع أوصال. ويرجع ذلك إلى عوامل قوية أهمها: تأصل حكم العباسيين وقدسية الخلافة بنظر الجمهور الذي كثيرا ما وقف مناضلا بجانب الخلفاء ضد الترك، وهذه الحرمة هي سر بقاء البيت العباسي في الحكم وعدم تفكير الأتراك بنقله إلى بيت آخر»[(١)].

١) ظهور الموفق بالله

ولكن إذا عدنا إلى المشهد عند بداية عهد المعتمد سنرى أن الهموم والمشكلات وحركات التمرد كانت أكبر بكثير من طاقة الخليفة الجديد، فالتمردات تشمل العراق في البصرة والكوفة وفارس وخراسان والجزيرة الفراتية والشام ومصر أيضا، منها ما هو خطير ومنها ما هو أقل خطورة، والمتمردون على كافة المذاهب: علويون وخوارج ومتمردون يطلبون الزعامة ويعتمدون على العصبية.

بدأ المعتمد في الانصراف إلى اللهو واللذات في ذات الوقت الذي بدأ يظهر فيه نجم أخيه الموفق طلحة، وهو الذي كان قد حاصر بغداد لصالح أخيه المعتز في سامراء حتى حصل على تنازل المستعين عن الخلافة، فتولى الموفق قيادة جيش الخلافة العباسية، فمنذ أن وصل الموفق إلى سامراء (١٣ ذي الحجة ٢٥٦هـ) عائدا من منفاه في مكة[(٢)] في أول خلافة أخيه وهو يتولى ضبط الأقاليم والولايات، ويبدي كفاءة فيتوسع نفوذه، كان ذلك أول الأمر برغبة الخليفة ثم صار بحكم الأمر الواقع، فتولى الموفق الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن (١٢ صفر ٢٥٧هـ) ثم أضيف إليه بغداد والسواد ووساط وكُوَر دجلة والبصرة والأهواز وفارس (٧ رمضان ٢٥٧هـ)، ثم أضيف إليه ديار مُضَر وقنسرين والعواصم[(٣)]، ثم صار له أمر الخلافة كلها بجهاده.

---

(١) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص١٤.

(٢) لا نعرف بالتحديد لماذا نفاه المهتدي إلى مكة، ولكن لعله خشي من قوة شخصيته أو من انتقامه والمكر به لا سيما وقد تولى الخلافة بعد مقتل المعتز الذي هو أخو الموفق.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٨٠، ٤٨٨، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ١٢٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٢٩.

على أن الموفق كان حريصا على تماسك الدولة ولم يحاول عزل أخيه المعتمد أو التسمي بالخلافة، بل نجد أن المعتمد سَمَّى ولده جعفرا وليا للعهد (١٢ شوال ٢٦١هـ) ولقبه بـ«المفوض إلى الله» وكان صغيرا لم يبلغ الحلم، فولاَّه المغرب وإفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وطريق خراسان يتولاهم فعليا موسى بن بغا، ثم جعل ولاية العهد من بعد ابنه المفوض إلى أخيه الموفق(١).

أبدى الموفق من البطولة والبسالة وشدة العزم وقوة الشخصية ما جعل الهيبة تعود إلى مقام الخلافة العباسية، وما جعل القادة الأتراك ينزوون إلى الظل، يقومون بالسمع والطاعة، فعادت هيبة الخلافة رغم الحروب الكثيرة وحركات التمرد الواسعة، وكان ضبط الموفق للأمور وسيرته في الخلافة مما جلب له حب الناس بينما انصرفوا عن أخيه المعتمد، فكانت الخلافة في أيام المعتمد كما وصفها ابن الطقطقي بقوله: «كانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع: كان هو وأخوه الموفّق طلحة كالشريكين في الخلافة للمعتمد الخطبة والسكّة والتسمّي بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي، وقود العساكر ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثّغور، وترتيب الوزراء والأمراء، وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذّاته»(٢).

٢) دولة الموفق بالله

وكان طبيعيا والحال هكذا أن تؤول السلطة فعليا إلى الموفق، وأن يهون المعتمد على الناس، فلم يعد له تصرف في القليل من أمور الخلافة، ولا أدل على ذلك من فشله في عزل وزير عينه الموفق وتنصيب آخر مكانه (ذو القعدة ٢٦٤هـ) فقد تصدى لذلك الموفق حتى كادت تنشب حرب، لكن المعتمد استسلم هو والأمراء الذين دفعوه لذلك (ذو الحجة ٢٦٤هـ) فعاد الوزير إلى منصبه(٣)، وظل أمر الخليفة في الضعف والتراجع حتى يُروى عنه أنه احتاج ثلاثمائة دينار ينفقها على شؤونه –أو لذاته– فلم يُعطها(٤)، ولما شعر أن لا مكانة له على الإطلاق حاول الهرب إلى مصر التي استقل بحكمها أحمد بن طولون بل وتوسع في الشام

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٠٢، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ١٦٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٥٢.

(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٤٥.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥١٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٧٦، ٢٧٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٧٠.

(٢٦٩هـ)، وكان الموفق لا يرضى عما فعله أحمد بن طولون، ولكنه كان منشغلا بحربه مع الزنج، فحاول المعتمد أن يستعيد سلطانه عبر أحمد بن طولون كما حاول ابن طولون استعادة شرعيته عبر المعتمد لكن والي الجزيرة إسحاق بن كنداجيق أفسد خطة الهروب هذه كما ذكرنا من قبل، فعاد حال المعتمد كما كان، ليس له من الخلافة إلا الاسم واللقب والخطبة على المنابر.

أولا: محاربة مراكز القوى

لم يسمح الموفق طول خلافته بصعود مراكز قوى سواء تركية أو غيرها، بل كان لا يغفر لمن يحاول، فسجن وزيره سليمان بن وهب في العام التالي لتوليه (٣٦٥هـ) ومعه ابنه وبعض رجاله، كما سجن كاتبه صاعد بن مخلد حين بدا منه كبر واستعلاء ونفوذ (٢٧٢هـ)[١]، وقبض على لؤلؤ غلام ابن طولون –الذي صار أحد كبار رجال الخلافة- حين بدا منه هذا أيضا (٢٢ ذو القعدة ٢٧٣هـ) ثم أُخرج بعد ذلك من السجن وهو فقير ذليل، فعاد إلى مصر[٢]، وكذلك صادر الموفق أموال وأملاك أحمد بن محمد الطائي وسجنه رغم أنه كان واليا على الكوفة وسواد الكوفة وسامراء وطريق خراسان وشرطة بغداد وخراج أنحاء أخرى[٣]، بل إن الموفق لم يتردد في أن يسجن ولده أبا العباس (شوال ٢٧٥هـ) حين عصى أوامره، وأبو العباس كان هو الرجل الثاني فعليا في الدولة وهو قائد عسكري فذ وله محبة كبيرة في قلوب الأمراء، مما كاد يؤدي إلى فتنة واضطراب، فخرج عليهم الموفق قائلا: «أترونكم أشفق على ابنى منى! هو ولدى، واحتجت إلى تقويمه»، فسكنوا وانصرفوا[٤]، ويبدو أنهم توقعوا أن يقتله فلما علموا أن الأمر أهون من هذا رجعوا. إلا أن هذا يوضح منهج الموفق في محاربة نشوء مراكز قوى ونفوذ ولو من أهل البيت ولو من ولده.

ولا شك أن من ذاق مرارة الحال أيام تحكم الأتراك في الخلافة يكون أحرص على هيبة الخلافة!

على أنه يجب أن نتوقف إنصافا، فما تحقق من اندحار نفوذ الأتراك واستقرار أمر الخلافة لم يكن من نصيب الموفق وحده، وإن كان له السهم الأعظم فيه، «إذ كان للمعتز والمهتدي من

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٢٠، ٥٩٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٤٦.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٤٩.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٦٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٥٥.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٥٥.

خلفاء هذه الفترة أثر مشكور في إرجاع قوة الخلافة، وقد سار الخلفاء في كفاحهم على مبادئ واحدة، فقد لاحظوا –لا سيما المعتز والمهتدي- جشع الترك وأنانيتهم وما يتبع ذلك من تنافس، فحاولوا تقسيم الجيش بتحريك المغاربة والفراغنة ضد الترك المستبدين، أو بتحريض الجيل الجديد من الترك (أبناء الأتراك) ضد الجيل المتنفذ، وبإثارة الزعماء ضد بعضهم، وكانوا أحيانا يلجأون إلى الاستعانة بالعوام ضد الجيش كما فعل المهتدي، ولا شك أن التنافس بين فرق الجيش وأنانية أفراده كان سببا في إنهاكه وعاملا ساعد على تقوية نفوذ الخليفة في نهاية هذه الفترة»[١].

ثانيا: محاربة البدع

وكانت دولة الموفق لا تتهاون في أمر البدع لا سيما ما كان في العقيدة، وتتشدد في هذا، فحين قامت البينة على رجل بأنه يسب السلف عوقب بالجلد ألف سوط حتى مات[٢].

ثالثا: تولية الأَكْفَاء

وكان نهج الموفق تولية الرجال الأكفاء ذوي الحزم والعزم، فهذا قاضي المظالم في بغداد يوسف بن يعقوب لما تولى (٢٧٧هـ) «نودي في الناس: من كانت له مظلمة ولو عند الأمير الناصر لدين الله الموفق، أو عند أحد من الناس فليحضر، وسار في الناس سيرة حسنة، وأظهر صرامة لم يُر مثلها»[٣]، كذلك وزيره عبيد الله بن سليمان الذي تولى (٢٨٧هـ) وصفه ابن الطقطقي بقوله: «من كبار الوزراء ومشايخ الكتّاب، وكان بارعا في صناعته، حاذقا ماهرا، لبيبا جليلا»[٤]، حتى قيل في وصف ذكائه وحزمه هذه الأبيات الماتعة:

إذا أبو قاسم جادت يداه لنا ... لم يُحْمد الأجودان: البحر والمطر

وإن مضى رأيه أو حدّ عزمته ... تأخّر الماضيان: السّيف والقدر

وإن أضاءت لنا أضواء غرّته ... تضاءل النَيِّران: الشّمس والقمر

من لم يبت حذرا من حد صولته ... لم يَدْرِ ما المزعجان: الخوف والحذر

---

(١) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص١٥.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٩٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٦٧.

(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٤٩.

ينـــال بـــالظنّ مـــا يعيـــا العيـــان لـــه والشّـاهدان عليـه: العـين والأثـر[1]

رابعًا: العودة إلى بغداد

ومن أبرز ما تم في خلافة المعتمد هو عودة الخلافة العباسية إلى بغداد بعد أن استقرت في سامراء منذ عهد المعتصم، ولا ريب أن لهذه العودة دلالة بالغة، فهي حتى على المستوى الرمزي تشير إلى التخلص من عهد الأتراك ومدينتهم التي بُنِيت لهم - سامراء-، فصارت العاصمة! وعودة إلى عاصمة الخلفاء الأوائل الأقوياء، وإلى الطبيعة المدنية الحضارية في بغداد الزاهرة الناضرة.

حركات التمرد

لقد أضاعت أحوال الفترة السابقة –منذ المنتصر وحتى المهتدي- هيبة الخلافة، مما جعل حركات التمرد تكثر وتنتشر على طول مناطق سيطرة الخلافة، وفي مثل تلك الأجواء تتراجع روابط الإسلام والخلافة والوحدة الجامعة لحساب الروابط القومية أو المحلية أو اللغوية أو غير ذلك، كما تظهر رغبات المصالح والمكاسب وابتغاء كل قوي أن يسيطر على ما يستطيع السيطرة عليه ليجبي الخراج ويتحكم في الموارد ويتسمى بالملك والسلطان.

ونستطيع أن نقول بأن حركات التمرد التي نشبت في تلك الفترة لم تكن تهدد الخلافة ذاتها إلا في حالة يعقوب بن الليث الصفار وفي حالة ثورة الزنج، وهما الحركتان اللتان أخذتا القدر الأكبر من طاقة الخلافة في إنهائهما، وتلا ذلك حركات الاستقلال البعيدة التي اقتطعت أرضا من سلطة الخلافة؛ كما في حالة الحسن بن زيد في طبرستان وأحمد بن طولون في مصر وشمال إفريقيا ثم في الشام، ثم حركات تمرد أخرى بعيدة أو محلية، فمنها ما أنهته الخلافة بجيش أو أكثر، ومنها ما أنهى بعضها بعضا، لكن نستطيع القول بأنه بانتهاء حركة الزنج ويعقوب الصفار عاشت الخلافة جزءا من الاستقرار المفقود.

شملت حركات التمرد كافة السنوات، وكافة المناطق كذلك، ولكننا سنركز على حركات التمرد التي واجهتها الخلافة، ولن نحفل بما واجهه الصفار أو الحسن بن زيد أو ابن طولون، فاستعراض ظروف وتوابع هذه التمردات مما نراه خروجا عن موضوع هذه الدراسة.

---

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٤٩، ٢٥٠.

وقد ذكرنا في بداية عهد المعتمد انطلاق جيوش الخلافة لكسر تمردات علي بن زيد الطالبي في الكوفة، والحسن بن زيد في طبرستان، ومساور الشاري في الموصل والجزيرة الفراتية، وعيسى بن الشيخ في دمشق.. ثم مضت حركة التمردات على النحو التالي:

١- طمع سعيد بن أحمد الباهلي -زعيم الباهلية- هو وقومه في الاستيلاء على منطقة البطائح بعد أن سقطت من سيطرة الزنج، وكان يستولي على الأموال المارة به من هذا الطريق، ففي أثناء انسحاب محمد بن المولد بعد هزيمته من الزنج قاتله وأسره وحمله إلى سامراء، وهناك ضرب سبعمائة سوط حتى مات (ربيع الآخر ٢٥٨هـ) ثم صُلب، فانحاز الباهليون إلى صاحب الزنج[١].

٢- تَمَرَّد القائد التركي كنجور بعد أن حقق نصرا على زيد بن علي الطالبي في الكوفة، وولاه الخليفة على الكوفة، لكنه ترك الكوفة واتجه إلى سامراء في فرقة من جيشه، فأمره الخليفة بالرجوع إلى الكوفة فرفض، ثم أعطيت له أموال ولجنوده فطمع في أكثر منها، فوجه إليه الخليفة فرقة اغتيال من عدد من الفرسان قتلوه في عُكْبَرا (٢٥٩هـ)[٢].

٣- ثار أهل الموصل على واليهم اذكوتكين الذي أساء السيرة في الأموال والأعراض، واستطاعوا إخراجه من الموصل بعد قتال شديد ومقاومة شعبية باسلة، ولم تستطع جيوش نائب الإقليم أساتكين في إرجاع الموصل إلى سلطته قهرا، واستقام أمر الموصل لأهلها (٢٦٠هـ)[٣].

على أن الموصل كانت تعاني من عنصرين آخرين هما: الأعراب -وبالتحديد بنو شيبان- والخوارج، فأما الأعراب فقد اغتالوا والي الخراج بالموصل في الصحراء قريبا من الرقة (٢٦٢هـ)، ولهذا توجه جيش بقيادة موسى داجويه إليهم فهُزِم فتبعته فرقة بقيادة أبي العباس ابن الموفق (٢٦٣هـ)[٤] لكن لم نجد فيما بين أيدينا من المصادر نتيجة حرب وقعت، على أن المؤكد أنه لم يكن نصرا حاسما فما تستطيع الجيوش النظامية إنهاء قتال العصابات.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٨٧، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ١٣٧.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٩٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٤٧.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥١٠، ٥١٢.

كذلك تنازع الأعراب، وبالتحديد بنو شيبان في أنحاء الموصل مع الخوارج الذين كان لهم بأس شديد في الجزيرة الفراتية، وجرت بينهم حروب منذ (٢٧٢هـ)؛ فالخوارج في هذه المنطقة ما زالوا يكثرون وتشتد قوتهم منذ ثورة مساور بن عبد الحميد الخارجي الذي أعيا الدولة بثورته التي استفادت كثيرا من انشغال الدولة بالتمردات الأخرى كالزنج والصفاريين، كما أنه كان مستوعبا لحجم قوته، فلم يحاول الاصطدام بجيش أكبر منه أتى من قِبَل الخلافة فكان ينسحب أمامه ثم يعود مرة أخرى، وحين مات مساور بن عبد الحميد وآل أمر أصحابه - بعد نزاع وانقسام بينهم- إلى هارون البجلي عاد وجودهم القوي في الجزيرة الفراتية ونواحي الموصل، بل استطاعوا اقتحام الموصل نفسها (٢٧٢هـ)[١]، وأحيانا حاصروها ورجعوا عنها بالأمان كما حدث في (٢٧٦هـ)[٢].

ومما زاد في اضطراب أمر الموصل أنها كانت تحت ولاية إسحاق بن كنداجيق الذي اضطرب ولاؤه بين الخلافة والدولة الطولونية -كما سنفصل بعد قليل- ولم يكن أهل الموصل يرضون بمن يحكمهم من قِبَلِه كهارون بن سليمان، فلما وجد هارون رفضا من أهل الموصل استعان ببني شيبان على أهل الموصل، فاستعان أهل الموصل بالخوارج لخوض هذه الحرب التي انتهت بانتصار بني شيبان (٢٧٩هـ)، ثم تحسنت الأمور حين تحسنت العلاقة بين الخلافة والدولة الطولونية، فتنازل خمارويه بن أحمد بن طولون عن ولاية الموصل إرضاء للخليفة الجديد المعتضد الذي كان قد ولَّى محمد بن يحيى المجروح الذي رضيه أهل الموصل (٢٧٩هـ)[٣].

٤- ولم تكن معاناة الخلافة مع الأعراب في الموصل فحسب، بل في سائر الأنحاء، ذلك أنهم احترفوا قطع الطريق وأحيانا قتل الولاة وشن الهجمات على فرق من جيوش الخلافة، وساهموا كثيرا في مساعدة المتمردين على الخلافة، ففي (٢٦٠هـ) استطاع الأعراب قتل والي حمص منجور[٤]، كذلك قتل الأعراب محمد بن عتاب والي السيبين[٥] (٢٦٢هـ)، وقتلوا

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٤٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٥٨.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٦٩، ٣٧٠.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٤٩.
(٥) السيبين: في نواحي سواد الكوفة. انظر: ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٨، ٢٤١.

جعلان العيار القائم بأمر قافلة، ثم لم يدركهم أحد (٢٦٥هـ) بل إن الفرقة المكلفة بمطاردتهم فقدت عددا منها لشدة البرد وتساقط الثلوج في هذه السنة، كذلك قاتل الأعراب علي بن مسرور البلخي الوالي على طريق مكة (٢٦٥هـ)، بل إن بعض الأعراب نهبوا كسوة الكعبة وأهداها بعضهم لصاحب الزنج ولاء له (٢٦٦هـ)[١].

وقد شن الموفق حملة عسكرية بأكثر من فرقة على الأعراب الذين يمدون صاحب الزنج بالأقوات، فاستطاع تأديبهم وقطع الأقوات من ناحيتهم (٢٦٨هـ)[٢]، كذلك هاجم الأعراب قافلة الحجاج بين توز وسميراء[٣]، واستولوا على خمسة آلاف بعير بأحمالها وأخذوا كثيرا من الناس (٢٦٩هـ)، وهزمت الأعراب ابن أبي الساج وهو أمير طريق الحج ثم هزمهم وقتل منهم وأَسَر (٢٦٩هـ) بعد أكثر من اشتباك، ولما تولى إمارة قنسرين في الشام كانت له وقائع مع الأعراب هناك أيضا[٤].

٥- رفض العلاء بن أحمد الأزدي والي أذربيجان أن يترك منصبه رغم أنه قد أصيب بالشلل النصفي (الفالج)، وامتنع عن تسليم الولاية لواليها الجديد من قبل الخليفة أبي الرديني محمد بن عمر بن علي (٢٦٠هـ)، فوقعت بينهما حرب انتصر فيها أبو الرديني وأُخِذ العلاء أسيرا، ومات في الأسر بعد قليل (٢٦١هـ)[٥].

٦- وفي المدينة وقع ما يشبه الحرب الأهلية بين الجعفرية والعلوية (٢٦٦هـ)، وتغلب على المدينة علوي من سلالة الحسن بن زيد -مؤسس الدولة الزيدية في طبرستان- حتى «جرت شرور كثيرة هنالك بسبب قتل الجعفرية والعلوية يطول ذكرها»[٦]، وغابت المدينة عن خريطة التمرد خمس سنوات حتى استولى العلويان محمد وعلي -من نسل الحسين- على المدينة (المحرم ٢٧١هـ)، وأوقعا فيها القتل، وأخذا من قوم مالًا، واضطربت أحوال المدينة إلى الحد الذي لم يستطع أهل المدينة الصلاة في مسجد المدينة لمدة شهر! وامتد هذا إلى مكة

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٢٠، ٥٢٥.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٥٥.
(٣) توز وسميراء: محطتان واقعتان على طريق الحج بين بغداد ومكة.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٤٦، ٥٦٠، ٥٦٨.
(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٠٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٤٩، ٢٥٨.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٤٦.

حتى اقتتل الناس على باب المسجد الحرام، ثم عاد الهدوء في العام التالي (٢٧٢هـ)[١].

٧- ولم تخل الشام أيضا من تمردات، إذ ثار أهل حمص على واليهم عيسى الكرخي فقتلوه (شوال ٢٦٦هـ)[٢].

٨- وبعد عامين من نهاية تمرد الزنج عاد صوتهم من جديد في البصرة (٢٧٢هـ)، وخرج قوم يهتفون: «يا انكلاي يا منصور»، وانكلاي هو ابن صاحب الزنج، وكان في هذه الحركة سليمان بن جامع وأبان بن علي المهلبي وبعض الذين انسحبوا من جيش الزنج إلى الموفق، ولكنها حركة لم تصمد أمام جيش أرسله الموفق فَقُتِلوا وحُمِلَت رؤوسهم إليه، وصلبت أبدانهم ببغداد، وسكنت شرورهم[٣].

٩- وبطبيعة الحال ثمة حركات احتجاجية صغيرة أو انفلات أمني أو عمليات قطع للطرق وما إلى ذلك انتشرت في المناطق التي عانت من ضعف الخلافة واضطراب الأحوال، ولا تكاد بلدة تخلو من هذا حتى بغداد وسامراء.

وكان عام (٢٦٦هـ) من أكثر الأعوام التي شهدت فتنا داخل الدولة الإسلامية حتى قال ابن الأثير: «كان الناس في البلاد التي تحت حكم الخليفة جميعها في شدة عظيمة بتغلب القواد وأمراء الأجناد على الأمر وقلة المراقبة والأمن من إنكار ما يأتونه ويفعلونه لاشتغال الموفق بقتال صاحب الزنج ولعجز الخليفة المعتمد واشتغاله بغير ذلك»[٤].

جبهة الروم

على جبهة الروم سارت أمور الخلافة العباسية كما لم يتوقع أحد، فرغم أن الخلافة لم تنجُ من غارات وهجمات مؤثرة للروم في هذه الظروف العصيبة التي كانت تعانيها داخليا، إلا أن الأقدار جرت بما يجعل تأثير هذه الهجمات هو الحد الأدنى من الضرر بالنسبة لواقع الروم والخلافة في ذلك الوقت. ثم كان من فوائد استقلال ابن طولون بمصر وتوسيع ملكه في الشام أن تولى هو مهمة صد الهجمات الرومية بل والغزو في أراضيهم، فمن هذه الزاوية كان

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٢٥، ٥٩٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٩٠، ٢٩١، ٣٤١.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٢٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٩٠.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٤٦.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٩١.

استقلال ابن طولون ذا فائدة إذ وفَّر على الخلافة مسؤولية الثغور مع الروم.

مع بداية خلافة المعتمد وفي (٢٥٧هـ) حدث انقلاب على ملك الروم ميخائيل بن توفيل من قائد يُدعى بسيل الصقلبي، فقتله وتولى حكم الدولة البيزنطية بعد أربعة وعشرين سنة من استقرار ملك توفيل[١].

ثم بدأت هجمات الروم على الأراضي الإسلامية (٢٥٩هـ) حيث هاجم الروم سميساط (مدينة على شاطئ الفرات في الشام) ثم هاجم ملطية ففوجئ هناك بمقاومة شعبية باسلة تمكنت من هزيمته ودحره وتمكنوا من قتل البطريرك الأكبر في جيشه[٢].

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٨٧، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ١٢٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٣٣.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٤٩٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٤٥.

ثم سكنت الأحوال أربع سنوات حتى حدث ما لم يكن متوقعا، إذ سَلَّمت الصقالبة[١] – الذين يقومون بحماية حصن «لؤلؤة» العسكري المهم– ذلك الحصن إلى الروم احتجاجا على سياسات والي طرسوس التابعون له لأنه منعهم رواتبهم واستولى عليها (٢٦٣هـ)، فكان هذا خسارة عسكرية غير متوقعة على المسلمين، واستولى الروم على هذا الحصن الذي كان يشرف على البحر، ويتمكن المسلمون – لا سيما أهل طرسوس– من الاكتشاف المبكر لأي هجوم رومي من هذه الناحية، وبعد أن كان الموفق رافضا لتولي ابن طولون ولاية طرسوس لكي يقاوم توسيع نفوذ ابن طولون واستقلاله، اضطر إلى توليته إياها بعد هذه الخسارة التي سببتها سياسة والي طرسوس الفاشلة، فتولاها ابن طولون[٢].

وفي العام التالي (٢٦٤هـ) انطلقت سرية من أربعة الآف مسلم في مهاجمة أراضي الروم ولكنها وقعت في كمين محكم أثناء العودة فلم ينج منهم إلا خمسمائة وأُسِر قائدهم عبد الله بن رشيد بن كاوس وبه إصابات بالغة[٣].

---

(١) الذي يبدو من سياق الحديث في كتب التاريخ أن المسلمين تعاهدوا مع الصقالبة على القيام بحماية حصن لؤلؤة مقابل التكفل بالنفقات، وذلك لكي يكونوا خط تنبيه ودفاع متقدم ضد الروم البيزنطيين، وقد كان الصقالبة –وهم السلافيون– في هذه المنطقة في المجمل أعداء للدولة البيزنطية وشنوا عليها هجمات مؤثرة بلغت أحيانا حصار القسطنطينية نفسها (٢٨٣هـ)، فعلى هذا التقت رغبة المسلمين مع الصقالبة واتفقوا ضد الروم، وكان تولي الدفاع عن حصن لؤلؤة إحدى نتائج هذا الاتفاق.
وهؤلاء هم «البيالقة» الذين سكنوا جنوب الأناضول وذكرهم قدامة بن جعفر في (الخراج وصناعة الكتابة ص١٨٧) والمسعودي في (مروج الذهب ٢/ ٥٨٣)، وفي (التنبيه والإشراف ص١٣٠، ١٥٥). فهم قوم على غير مذهب الدولة البيزنطية وعانوا من اضطهاداتها، ولهذا كان انحيازهم إلى المسلمين، إلا أن استفادة المسلمين من هذا الوضع لم تدم طويلا حيث «رحلوا وتفرقوا في البلاد لعدم اهتمام قادة المسلمين بإدامتهم وتدبير أمورهم» وانظر أيضا: فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية ٢/ ٢٢١، ٢٢٢، ٣/ ٣١٨، ود. فاروق عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٧١.
ويؤكد ما سبق قول د. سهيل زكار في الموسوعة الشاملة للحروب الصليبية ٣/ ٢١٥ «قاد هذا الامبراطور (باسيل) حملة ناجحة ضد أتباع المذهب البوليصي في الجزء الشرقي من آسيا الصغرى حوالي سنة ٨٧٠ م (٢٥٦هـ) واستطاع أن يتغلب عليهم، ولم يكن من نتائج هذا النصر توسيع رقعة الامبراطورية (البيزنطية) فحسب، بل وضع باسيل وجها لوجه مع عرب المشرق، وفتح باب الصراع مع العرب بشكل مباشر، وغدت المعارك بين الطرفين سنوية، ولكن دونما نتيجة حاسمة».
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٧٢.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥١٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٧٤.

في ذلك الوقت كان أحمد بن طولون يستولي على ملك الشام[1]، وقد وصل (٢٦٤هـ) إلى طرسوس التي طلب من قبل أن يتولاها ليجاهد منها ورُفِض طلبه، لكن فاجأته هناك أزمة اقتصادية جعلت طرسوس غير كافية لبقاء ابن طولون وجنده فيها، وتذمر أهل طرسوس من ابن طولون، فأحب أن ينسحب انسحابا يخدم بها الحالة الجهادية، فقال لأصحابه: «لِتَنْهَزِموا من الطرسوسيين وترحلوا عن البلد ليظهر للناس وخاصة العدو أن ابن طولون على بعد صيته وكثرة عساكره لم يقدر على أهل طرسوس وانهزم عنهم ليكون أهيب في قلب العدو وعاد إلى الشام»[2]، «والواقع أن تلك الوقفة منه تدل على سعة صدر المحارب الحق، وبعد نظره، وتفهمه لنفسية العدو»[3].

وحين وصل ابن طولون إلى أنطاكية التي تعد مدينة حدودية مهمة بين الدولة الإسلامية والبيزنطية، وحاصرها لأخذها من سلطة العباسيين (المحرم ٢٦٥هـ) حاول امبراطور الروم أن يوقع بين ابن طولون وبين الخلافة العباسية فأبدى حسن النوايا ورغبته في إقامة علاقة جيدة مع ابن طولون أقل فوائدها أن يكف جهاد ابن طولون في أرض الروم وغايتها أن يُكَوِّن تحالفا مع ابن طولون ضد الخلافة العباسية، لذا أرسل هدايا فاخرة ومنهم عدد من الأسرى المسلمين لديه، وكان فيهم عبد الله بن رشيد بن كاوس، وأرسل مع كل أسير مصحفًا[4].

ثم شن الروم هجوما آخر على بلدة أذنة بقيادة خمسة من البطاركة (جمادى الأولى ٢٦٥هـ) واستطاعوا قتل ألف وأربعمائة مسلم وأسر أربعمائة، وقد تسبب عزل والي طرسوس مع موت والي الشام ثم محاولات استيلاء ابن طولون عليه خللا كبيرا في هذه الجهة[5].

في العام التالي (٢٦٦هـ) هاجمت سرية من جيش الروم على أرض ديار ربيعة في الجزيرة الفراتية «فقتلوا وسَبُوا ومَثَّلوا وأخذوا نحوا من مائتين وخمسين أسيرا، فنَفَر إليهم أهل نصيبين وأهل الموصل فهربت منهم الروم ورجعوا إلى بلادهم»، وحالت شدة البرد دون

---

(١) سنتناول هذا الموضوع بعد قليل.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٧٧.

(٣) د. علية الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية ص٤٤.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٢٠، ٥٢١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٨٥.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٢٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٨٤، ٢٨٥.

متابعة المسلمين للجيش الهارب[1]، ولم يمض العام إلا وكان نائب أحمد بن طولون على الشام يغزو الأرض الرومية منطلقا من طرسوس في سرية صغيرة مكونة من ثلاثمائة رجل، واستطاعت هذه السرية محاربة جيش من أربعة آلاف رومي «فاقتتلوا قتالا شديدا، وقتل المسلمون خلقا كثيرا من العدو، وأصيب من المسلمين جماعة»[2].

ثم هاجم ملك الروم مدينة ملطية وحاصرها (٢٦٨هـ) فأعانهم المسلمون من أهل مرعش وغيرها فاستطاعوا هزيمة ملك الروم الذي اضطر إلى الانسحاب خاسرا أمام المقاومة الشعبية، ومن جهة أخرى غزا خلف الفرغاني نائب ابن طولون على الشام في أراضي الروم فانتصر نصرا هائلا بلغت فيه خسائر الروم سبعة عشر ألف قتيل وغنم المسلمون غنائم هائلة[3].

وكان من فضل الله تعالى أن سكن الحال على جبهة الروم عام (٢٦٩هـ) رغم أن جبهة الشام كانت في اضطراب داخلي، فلقد توترت علاقة لؤلؤ –نائب ابن طولون على الشام– بابن طولون، وانضم إلى الموفق في حرب الزنج بجيشه مما خلخل القوة الإسلامية في الشام، لكن العام التالي (٢٧٠هـ) كان يحمل أقوى وأعنف حرب يشنها الروم على المسلمين، إذ هاجم ملك الروم مدينة قَلَمْيَة –على بعد ستة أميال من طرسوس– فأوقع بهم يازمان –نائب الثغر، ومقره طرسوس– في كمين ليلي مباغت فقتل المسلمون منهم «في ليلة واحدة حتى الصباح نحوا من سبعين ألفا ولله الحمد، وقتل المقدم الذي عليهم وهو بطريق البطارقة، وجرح أكثر الباقين، وغنم المسلمون منهم غنيمة عظيمة، ومن ذلك سبع صلبان من ذهب وفضة، وصليبهم الأعظم وهو من ذهب صامت مكلل بالجواهر وأربع كراسي من ذهب ومائتي كرسي من فضة، وآنية كثيرة، وعشرة آلاف علم من ديباج، وغنموا حريرًا كثيرا وأموالا جزيلة، وخمسة عشر ألف دابة وسروجا وسلاحا وسيوفا محلاة وغير ذلك ولله الحمد»[4].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٢٣، ٥٢٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٩٠، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٤٦.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٢٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٩٠.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٥٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣١٤، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٥٠.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٨٩، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٢٢٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٣٦.

وبعد هذه الهزيمة الكبيرة هدأت الأحوال على جبهة الروم الذين انشغلوا باضطراب أحوالهم الداخلية والتي انتهت بانقلاب أبناء الإمبراطور على أبيهم فقتلوه (٢٧٣هـ)، وفي العام التالي (٢٧٤هـ) كانت غزوة قادها يازمان نائب طرسوس فتوغل في أرض الروم وقتل وغنم وعاد سالما[١].

وكان يازمان الخادم من الفرسان الكبار الذين جددوا تاريخ أبطال الجهاد، حتى لقد وصفه المسعودي بقوله: «كان يازمان في نهاية البلاغة في الجهاد في البر والبحر، وكان معه رجال من البحريين لم ير مثلهم ولا أشد منهم، وكان له في العدو نكاية عظيمة، وكان العدو يهابه وتفزع منه النصرانية في حصونها، ولم يُرَ في الثغور الشامية والجزَرِية -بعد عمرو بن عبيد الله بن مروان الأقْطَع صاحب ملطية، وعلي بن يحيى الأرمني صاحب الثغور الشامية- أشد إقدامًا على الروم من يازمان الخادم»[٢].

لقد كانت هذه الفترة واحدة من أحرج وأصعب الفترات في العلاقة بين الدولة الإسلامية والامبراطورية البيزنطية، فلقد كان المسلمون في واحدة من أصعب لحظاتهم بينما كان العكس بالنسبة للبيزنطيين، لقد «كانت الظروف مواتية زمن هذا الامبراطور (باسيل الأول) لتحقيق نصر في هذا الميدان (الحروب الإسلامية البيزنطية) لأن علاقات الامبراطور كانت حسنة مع: أرمينيا في الشرق، ومع الروس والبلغار في الشمال، ومع البندقية والامبراطورية الفرنجية في الغرب، وإذا أضفنا إلى هذا الجو من الصداقة والود مع هذه الأقوام، ظروف الخلافة العباسية الداخلية وما كانت تعيشه من أزمات إبان تسلط ضباط القصر الأتراك على الخلفاء وانفصال مصر عن جسد الخلافة زمن الطولونيين، واضطراب الأوضاع في الغرب الإسلامي لوجدنا أن باسيل كان يتمتع بفرصة ذهبية لتحقيق نصر على المشرق والمغرب، ولكن على الرغم من كل هذه الظروف المواتية، وبرغم أن الحرب بين الطرفين العربي والبيزنطي لم تتوقف لم تستطع الإمبراطورية تحقيق نصر في هذه الجبهة»[٣].

وكان هذا من فضل الله تعالى، ثم بفضل الأبطال الذين جاهدوا في الثغور وتحملوا عبء

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٤، ٥٩٥.
(٢) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥٨٢، ٥٨٣. (ط الشركة العالمية للكتاب، بيروت).
(٣) د. سهيل زكار: الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية ٣/ ٢١٤، ٢١٥.

صد الهجمات البيزنطية بل ومهاجمتها في عقر دارها أكثر من مرة، فحفظوا ثغور الإسلام وحدوده في لحظات عصيبة، فأضافوا سببا آخر لتعجب بعض المؤرخين من قدرة المسلمين على الصمود والاستماتة «في الدفاع عن حدود بلادهم من تلك القلاع الثغرية المحصنة، ولو أدى ذلك إلى إقامة طويلة المدى، ووسط ظروف طبيعية شديدة القسوة، أدت في كثير من الأحيان، وفي كثير من أحداث التاريخ العالمية إلى فشل حملات حربية كبيرة»[١].

علاقات الخلافة

١) الخلافة والدولة الطولونية

استقر أمر أحمد بن طولون في مصر، واستطاع إصلاح أمرها ماليا وأقصى والي الخراج[٢] أحمد بن المدبر عنها، وانتهج سياسة اقتصادية جديدة تقرب فيها من الأهالي الذين أرهقهم ابن المدبر بالضرائب، فزاد ثراء البلاد والعباد وأحبه الناس، لا سيما وقد أقام العدل بين الرعية، ولم يؤخذ عليه إلا قسوته وشدته في سفك الدماء واعْتُذر له عن ذلك بأنه كان مضطرا لحماية ملكه، وبنى ابن طولون في مصر دولة زاهرة ثرية فاخرة قوية وأسس جيشا ضخما، وظلت الدولة الطولونية فصلا زاهرا في التاريخ المصري، يُرى هذا في كتابات المؤرخين المصريين حتى مَنْ كان شيعيا إسماعيليا يعيش في كنف الدولة الفاطمية كالبلوي[٣]. ولذا سنجد أن القارئ في التاريخ المصري منحاز ومتعاطف مع ابن طولون في نزاعه مع الخلافة العباسية.

على الناحية الأخرى فإن المؤرخ للدولة العباسية ينظر إلى ابن طولون كواحد من حركات الاستقلال والتمرد التي أضعفت الدولة العباسية، لا سيما أن ابن طولون لم يكتف بالاستقلال بمصر بل وسع نفوذه ليشمل الشام والثغور والجزيرة الفراتية من أرض العراق، كذلك أرسل

(١) د. علية الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية ص٢٧.

(٢) كان من وسائل الرقابة التي انتهجتها الدولة الإسلامية، منذ عهد عمر بن الخطاب ﷺ، أن تجعل الأمور المالية في يد مسؤول آخر بخلاف الوالي، فيحقق هذا أكثر من فائدة، منها صيانة المال من رغبات الوالي، وبقاء عين للخلافة في منطقة الولاية، وتوزيع المهام الإدارية لمزيد من الكفاءة، وحماية الولاية من الاستبداد أو الاستقلال. لم يكن هذا النظام مطردا، وإنما سار بحسب سياسة الخليفة وثقته في الوالي والظروف السياسية.

(٣) انظر مقدمة التحقيق التي كتبها محمد كرد علي لكتاب «سيرة أحمد بن طولون» للبلوي ص٦.

فرقا للاستيلاء على مكة ودخل على خط الصراع في قلب بيت الخلافة نفسه، وكل هذا في وقت عصيب وحرج للغاية، ولو نجحت بعض خطط ابن طولون لكانت الخلافة العباسية في العراق في موضع التهديد والزوال الحقيقي، وعليه فإن المؤرخ للدولة العباسية يحمل على ابن طولون ويرى في محاولاته أطماع مستبد خاصة أنه لم يراع فيها المصلحة العامة للمسلمين.

والتعمق في دراسة هذه الفترة يجعل الأمر أكثر تركيبا وتفصيلا، فلا هو خالص إلى التعاطف ولا هو خالص إلى العداوة، وإن كان الحق -فيما نرى- يميل إلى جانب التنديد بتوسع ابن طولون لا سيما في ديار الحجاز، والعراق إلى حد كبير، ويمكن أن يكون توسعه في الشام وتوليه للثغور موضع عذر، فلقد قام بواجب الجهاد في وقت شُغلت فيه الخلافة باضطراب الأحوال في العراق وفارس وخراسان وطبرستان، فرتب أمور الشام وجهز فيها العساكر والجيوش، واستقر أمرها تحت حكمه.

والبداية كانت من (٢٥٧هـ) حيث عهد المعتمد بولاية مصر إلى القائد التركي يارجوخ الذي أناب عنه أحمد بن طولون في حكمها جميعا، وقد كان ابن طولون واليا على بعض مصر لا كلها فيما سبق، وبهذه الولاية صارت له كلها، ومن جانبه كانت علاقات أحمد بن طولون بالقادة في العراق والشام جيدة وقد تزوج من ابنة يارجوخ فكانت المودة بينهم متوطدة، وحين مات يارجوخ (٢٥٨هـ) لم يعد لأحد سلطة على مصر فوق ابن طولون، فصفا له أمر مصر على المستوى السياسي، وإن لم يصف له على المستوى الداخلي حيث عانى من نزاعات وتمردات لسنا في مقام تناولها، ثم ازداد صفاء الأمر له بما كان يحمله إلى الخلافة من أموال سنويا والتمس أن يكون إليه أمر الخراج أيضا فكان له ما أراد، وإضافة إلى هذا فقد أرسل وفدا من فقهاء مصر وقضاتها يؤكدون للخلافة حسن سيرة ابن طولون في مصر وكفايته في القيام بها(١).

لم تمض أربع سنوات حتى جاء وقت الخلاف بين الموفق وابن طولون (٢٦٢هـ)، ذكر بعض المؤرخين(٢) أن السبب في ذلك هو أن الموفق حاول أن يصطنع الجواسيس حول أحمد

---

(١) البلوي: سيرة أحمد بن طولون ص٧٢، ٧٣.

(٢) البلوي: سيرة أحمد بن طولون ص٨٠ وما بعدها. والبلوي غير موثوق في روايته، فهو من ناحية ضعيف الرواية كما عند علماء الجرح والتعديل (انظر مقدمة محمد كرد علي للكتاب) كما أنه منحاز في كتابه هذا لأحمد بن طولون.

ابن طولون فأرسل إليه رسولا يطلب منه أموالا يستعين بها في محاربة الزنج ومعه الرسائل والكتب إلى القادة ذوي الولاء للموفق ممن هم حول ابن طولون، لكن ابن طولون فطن لهذا فبعث إلى الموفق بمليون ومائتي ألف دينار، واستطاع في ذات الوقت استخلاص هذه الرسائل فقتل أولئك القادة، فاستشاط الموفق غضبا وأرسل إليه يستقل المال ويأمره بالمزيد، على كل حال فإن رسالة الموفق شديدة اللهجة رد عليها أحمد بن طولون بلهجة أشد، وحاول الموفق عزل ابن طولون وبحث عمن يتولى أمر مصر من الأمراء فلم يستطع، وذلك أن ابن طولون يتمتع بعلاقات رائعة مع أمراء العراق فمنعهم هذا من أن يكونوا عليه، فأخرج الموفق جيشا يقوده موسى بن بغا لقتال ابن طولون، ولكن الجيش وصل إلى الرقة وظل بها لقلة الأموال مدة عشرة أشهر، وقد أشعلت قلة الأموال احتجاجات الجند وشغبهم فاضطر موسى بن بغا إلى العودة إلى العراق، وكفى الله ابن طولون شر القتال بعد أن أمضى شهورا في تحصين البلاد، فتصدق بأموال كثيرة شكرا لله عز وجل[١].

في العام التالي (٢٦٣هـ) حدث ما زاد في نفوذ ابن طولون من غير ترتيب لأحد، ذلك أن ابن طولون كان ممن يتولى الجهاد في الثغور مع البيزنطيين، لا سيما من مدينة طرسوس وهي من ثغور خط الاشتباك الأول بين المسلمين والروم البيزنطيين، وحين طلب أحمد بن طولون من الموفق أن يتولاها رفض الموفق بطبيعة الحال، وعهد بها إلى أمير يدعى محمد بن هارون التغلبي فوقع بطريق الخطأ في يد الخوارج فقتلوه، فولى الموفق محمد بن علي الأرمني ولكنه قُتِل في طرسوس، فصارت ولايتها إلى قائد تركي هو أرخوز بن يولغ، ويبدو أنه أراد تأديب أهل طرسوس لئلا يجد مصير من قبله، فأساء فيهم السيرة فظلم وعسف وأخذ الأموال لنفسه ومنع رواتب الجنود الصقالبة المقيمين في حصن لؤلؤة المهم بالنسبة لطرسوس، فهددوا أنهم سيسلمون الحصن للروم إن لم يأخذوا أرزاقهم فجمع أهل طرسوس التبرعات لهم لكن أرخوز استولى عليها لنفسه فنفذ الجنود تهديدهم وسلموا الحصن للروم، وكانت هذه خسارة صاعقة على ثغور المسلمين لا سيما أهل طرسوس، فلم تجد الخلافة سبيلا إلا أن تعهد بالولاية عليها لأحمد بن طولون[٢].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٦٩، ٢٧٠.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥١٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٧٢.

وسارت الأيام في ركاب ابن طولون، ففي العام التالي (٢٦٥هـ) توفي نائب الشام أماجور، ورأى ابن طولون أنها الفرصة لتوسيع ملكه وحماية الديار المصرية[١]، فراسل ابنُ طولون ابنَ أماجور بأن الخليفة قد ولاَّه على الشام، فسمع له وأطاع، فلم يجد ابن طولون عناء في امتلاك الشام وأقرَّ ابن أماجور وقواده في مناصبهم[٢]، ولم يقف في طريقه إلا سيما الطويل والي أنطاكية، فحاربه ابن طولون وانتصر عليه بمساعدة أهل أنطاكية الذين عانوا من سوء سياسة سيما الطويل، وَصَفَت له الشام فرتب أمورها، وترك فرقا من الجنود –كقواعد عسكرية– في مدنها المهمة، واستولى على حران، وهي تعد من مدن العراق، ثم عاد إلى مصر التي وصله منها نبأ انقلاب ابنه العباس عليه[٣].

سكن ما بين ابن طولون والخلافة العباسية لأربع سنوات، فالخلافة مشغولة بالزنج وتمردات المشرق، وابن طولون مشغول بإقرار أمره في مصر والشام، حتى جاء العام (٢٦٩هـ) بتطورات خطيرة وفارقة في العلاقة بين الخلافة وابن طولون:

تمرد لؤلؤ غلام أحمد بن طولون الذي يتولى أمر الشام وفي يده حمص وقنسرين وحلب وديار مضر في الجزيرة الفراتية، على أحمد بن طولون وراسل الموفق –المشغول بحرب الزنج– وتفاهم معه ثم انضم إليه في قتال الزنج مما ذكرناه مفصلا فيما سبق، فكان هذا إضافة قوية للخلافة وخبرا قاسيا نزل بابن طولون.

ثم حاول المعتمد الهروب إلى مصر وهي المحاولة التي حرضه عليها أحمد بن طولون رجاء أن يحوز الشرعية وأن يكون الرجل الأول فعليا وأن يصير مركز الخلافة في مصر، وهي المحاولة التي فشلت على يد إسحاق بن كنداجيق –كما ذكرنا سابقا– فكان فشلها خبرا قاسيا آخر نزل بابن طولون.

على أنه لم يَكُفّ بل أرسل من دمشق في طلب القضاة والفقهاء من مصر وأخبرهم بأن

---

(١) على حد ما نعلم فإنه لم يحكم مصر أحد من الملوك ذوي الذكاء والرؤية إلا وعلم أن الشام تمثل خط الدفاع والحماية الأول عن مصر، وكذلك فعل من حكم الشام، فاتحاد مصر والشام كان دائما لحظة تحول تاريخية في موازين القوى.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٤١/ ٢٦٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٧٧.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥١٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٧٧.

الموفق نكث بيعة الخليفة وأنه حبسه ومنعه من القدوم، واستخلص منهم فتوى بخلع الموفق (١٢ ذي القعدة ٢٦٩هـ) خلاصتها «أَنَّ أَبَا أحمد خلع الطاعة وبرِيء من الذِّمَّة، فوجب جِهاده عَلَى الأُمَّة» وأرسل بنسخ من الفتوى إلى الأقطار الخاضعة له[١]، وكان في ذات الوقت قد قرر الاستيلاء على الحجاز، وأرسل جيشا إلى مكة لكنه هُزِم (ذي الحجة ٢٦٩هـ) على يد الوالي في مكة ومن انحاز إليه، لا سيما من أهل خراسان الذين لا يرون شرعية إلا للخلافة العباسية، ففشلت المحاولة[٢].

وسياسيا استصدر الموفق من الخليفة المعتمد أمرا بلعن ابن طولون على المنابر والتبرؤ منه واعتباره خارجا عن الخلافة، وولَّى المناطق التي تحت سيطرة ابن طولون –وهي الشام ومصر والشمال الإفريقي[٣]- إلى الأمير إسحاق بن كنداجيق أمير الجزيرة والموصل، وقد فعلها المعتمد ولو كان كارها، فكان هذا من عوامل اضطراب الولايات الشامية تحت حكم ابن طولون الذي رد هو الآخر باستفزاز جديد للعباسيين، فبنى على قبر معاوية بن سفيان ﵁ - مؤسس الدولة الأموية- أربعة أروقة وأحيا ذكراه بقراءة القرآن وإيقاد الشموع، فكان هذا مما قطع آخر حبال الود بينه وبين الخلافة العباسية[٤].

وهكذا كان العام (٢٦٩هـ) عام العداوة المستحكمة بين الخلافة العباسية والدولة الطولونية، وما لبث هذا أن ألقى بظلاله على العلاقة بين ولاة ابن طولون الذين تمرد البعض منهم، وأبرزهم يازمان الخادم والي ثغر طرسوس، ومضى إليه أحمد بن طولون بجيش فلم يستطع هزيمته وعاد بالفشل، وبدا أن الأيام قد تحولت عن ابن طولون، فما إن عاد إلى أنطاكية من حربه مع يازمان حتى مرض ثم مات (١٠ ذو القعدة ٢٧٠هـ)[٥]، مات ومُلْكه يفوق مُلك الخليفة!

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة ص١٦٩.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٨١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٢٩.

(٣) كانت سيطرة الخلافة على الشمال الإفريقي اسمية، فقد انفصل المغرب منذ زمن المنصور والمهدي وصار في حكم القوى المحلية من الخوارج الصفرية وبني مدرار والرستميين، وحتى الأغالبة الذين ظلوا على ولائهم الاسمي للخلافة في إفريقية (تونس) كانوا فعليا مستقلين! وكانت برقة (ليبيا) في حكم التابعة لمصر طول تاريخها، ويتولاها حاكم مصر إن كان قويا أو تقع في حكم محلي إن كان غير ذلك.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٢٢٩.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٨٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٣٧.

دام ملك أحمد بن طولون في مصر والشام اثنتي عشرة سنة، ومات لست عشرة سنة من ولايته مصر، ولولا سفكه الدماء لعدَّ بعدله وعقله وسخائه من أفراد العالم[١].

ما إن مات ابن طولون حتى رآها إسحاق بن كنداجيق فرصته السانحة للسيطرة على أملاك ابن طولون التي هو الوالي عليها بصفة رسمية، فتحرك هو وصديقه الأمير محمد بن أبي الساج لإعداد الجيوش وراسلا الموفق في ذلك، فكتب إليهما بأنه سيمدهما بالجنود، فابتدأ تحركهما نحو الشام وانسحب أمامهما ولاة أحمد بن طولون على مدن الشام وانحاز إليهما والي دمشق، ولكن خمارويه بن أحمد بن طولون الذي تولي الأمر بعد أبيه –وفشل في الحصول على شرعية ولايته من الموفق– ما لبث أن أعد جيشا كبيرا من مصر وبعث به إلى الشام واستولى الجيش على دمشق، وانطلق إلى شيزر حيث المعركة مع جيش إسحاق بن كنداجيق وابن أبي

(١) محمد كرد علي: خطط الشام ١/ ١٧٥.

الساج. لكن إسحاق ظل يؤجل المعركة حتى يصل إليه المدد من الموفق ونزل الشتاء الذي لم يتحمله الجيش المصري فما إن وصل الجيش العراقي بقيادة أبي العباس بن الموفق -الذي لمع اسمه في هذه اللحظات بانتصاراته على الزنج- حتى أوقع بالجيش المصري هزيمة كبيرة أجلتهم عن مواقعهم فدخل دمشق (شعبان ٢٧١هـ) وانسحب الجيش المصري إلى «الرملة» وراسلوا خمارويه الذي أعد جيشا آخر وانطلق يقوده بنفسه ليثبت أنه ليس أقل فروسية وبطولة من أبيه[١].

وهنا حدثت سلسلة من عجائب الأيام ونوادر التاريخ، ذلك أن أبا العباس بن الموفق نهر إسحاق وابن أبي الساج واتهمهما بالجبن والضعف إذ ظلوا ينتظرون قدومه ولم يتجرأوا على مواجهة الجيش، فاضطربت العلاقات بينهم وانسحبت قوات إسحاق وابن أبي الساج، فلما انتصر أبو العباس وقدم الجيش المصري الذي يقوده خمارويه بلغ أبا العباس كثرة الجيش وقوته فهمَّ بالانسحاب أمامه لولا أن ولاة الطولونيين الذين انحازوا إليه أمسكوا به وتمسكوا بأن يخوض القتال لكيلا يقعوا هم في هذا الفخ أمام جيش خمارويه وقد انحازوا إلى العباسيين، ولا شك أنه ندم في هذه اللحظات على ما فعله مع إسحاق بن كنداجيق وابن أبي الساج، فخاض أبو العباس القتال وحقق نصرا مفاجئا على خمارويه الذي تفاجأ بطريقة الحرب فولىَّ منهزما ومنسحبا نحو مصر، وبينما يحتفل الجيش العراقي بالنصر إذ بفرقة من جيش خمارويه كانت في كمين تهاجمهم دون أن تدري أن الهزيمة قد وقعت بالجيش المصري، فظن أبو العباس أن خمارويه قد عاد في جند أكثر فانهزم هو الآخر وانسحب إلى دمشق التي سدت أبوابها أمامه فانسحب إلى طرسوس، والجيشان مشتبكان بلا قيادة، ثم انتبه قائد الكمين إلى ذلك فنَصَّب أميرا على الجيش المصري فكان لهم النصر والظفر في واحدة من أعجب الوقائع في التاريخ[٢].

فرح خمارويه بالنصر وخجل من انسحابه، وندم أبو العباس على إفساده للأميرين ابن أبي الساج وإسحاق بن كنداجيق كما ندم على تسرعه وقلة ثباته، وزاد من عجب المعركة أن

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٦/ ٩٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٣٨، ٣٤٢، وابن شداد: الأعلاق الخطيرة ٣/ ٢٩.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٠، ٥٩١، والكندي: الولاة والقضاة ص١٧٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٤٢.

خمارويه أكرم الأسرى غاية الإكرام كأنهم ضيوف، فمن شاء منهم البقاء في مصر أبقاه كريما، ومن شاء العودة إلى العراق أعطاه ما يصل به مُصانا عزيزا[١].

وبفراغ الشام من الجيش العراقي، عاد خمارويه بجيوشه ليستعيد ما ذهب من ملك أبيه في الشام، واستقر الشام مرة أخرى للطولونيين[٢]!

ما كان بإمكان الخلافة أن تفعل شيئا بإزاء الوضع الجديد في مصر وهي المنهكة الخارجة من حرب الزنج والتي تعاني من اضطرابات خراسان وسجستان، كما سيأتي بعد قليل، فاستقر الحال شهورا معدودات ثم دخلت الدولة الطولونية على خط الصراع الداخلي في الدولة العباسية..

بداية ذلك كان في النزاع الذي اشتعل بين الأميرين إسحاق بن كنداجيق أمير الموصل والجزيرة الفراتية ومحمد بن أبي الساج أمير قنسرين وهي من مدن الشام كأنما في الحَلْق منها، وكانا قبل هذا صديقين متوادين، فاستعان ابن أبي الساج بخمارويه على إسحاق فقطع الخطبة عن بني العباس وخطب لخمارويه وأعلن الولاء له بل وأرسل إليه ابنه ديوداد رهينة كضمانة للصدق والولاء ولئلا يظن أنها مؤامرة من العباسيين للاستحواذ على الشام. ومن جانبه رأى خمارويه في هذا إضافة لملكه ودِرْعًا بينه وبين الخلافة العباسية وزيادة في حماية مدن الشام الأخرى، فأرسل له مالا جزيلا ثم سار إليه بنفسه واجتمع به في الشام، وبهذا استطاع ابن أبي الساج هزيمة إسحاق بن كنداجيق في عدة جولات والاستيلاء على الجزيرة والموصل (٢٧٣هـ) وخطب لخمارويه الذي صار ملكه الآن حتى نهر الفرات في العراق[٣]!

لكن إسحاق جمع جمعا كبيرا وتوغل في العراق حتى أتى الشام وهناك هزمه خمارويه هزيمة ساحقة حتى إن إسحاق اضطر أن ينسحب إلى ما خلف الفرات، وتبعه خمارويه، ثم أرسل إسحاق إلى خمارويه يخضع له ويعلن أنه سيدخل في طاعته فتم الصلح بينهما (٢٧٤هـ)، ثم انقلب الحال إذ حاول ابن أبي الساج أن ينازع خمارويه في الشام مستغلا عودته إلى مصر، فعاد إليه خمارويه بجيش كبير وأنزل به هزيمة فادحة قرب دمشق (المحرم ٢٧٥هـ) وأبدى

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٤٢.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ٣/ ٣٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٤٨، وابن شداد: الأعلاق الخطيرة ٣/ ٣٠.

أخلاقا كريمة حين لم يقتل ولده الرهينة عنده بل أكرمه وأطلقه من محبسه، ووصل خمارويه بجيشه إلى قرية «بَلَد» على نهر دجلة في الموصل(١).

وانقلب الحال، فصار إسحاق مواليا لخمارويه وصار ابن أبي الساج عدوا لهما، لهذا قاد إسحاق جيشا لحرب ابن أبي الساج فالتقاه عند تكريت، ورغم أن جيش إسحاق كان عشرة أضعاف جيش ابن أبي الساج الذي لم يكن معه إلا ألفا فارس إلا أنه هُزِم أمام ابن أبي الساج هزيمة مُنكرة، فانقلب الحال وسعى ابن أبي الساج في مطاردة إسحاق، وراسل الموفق هذه المرة ليغير ولاءه للخلافة مرة أخرى، لكنه مُني بهزيمة مفاجئة، انسحب بعدها إلى الموصل ثم إلى بغداد، وهناك جعله الموفق أميرا على أذربيجان، وبقيت الجزيرة الفراتية تحت حكم إسحاق بن كنداج(٢).

واستطاع خمارويه كسب يازمان، الوالي على ثغر طرسوس، إلى صفه بما أهداه له من الأموال والتحف والذهب الكثير (٢٧٧هـ)، لكنه في نفس العام فقد قائدا عسكريا كبيرا – وفي رواية: مجموعة من رجال دولته(٣)- انحاز إلى الخلافة وقدم إلى بغداد بجيش كبير(٤).

وعلى ما كان في هذه الفترة من عداء وحروب بين الخلافة والدولة الطولونية فإن الفصل القادم في هذه العلاقة، والذي سيكون بين الخليفة المعتضد وخمارويه كان خيرا مما كان بين آبائهما.

٢) الخلافة والدولة الصفارية

لم يكن عمرو بن الليث الصفار الذي آلت إليه أمور الصفاريين كأخيه في القوة والمهابة، كان قويا ومهيبا لا ريب لكنه أقرب إلى السياسة والعقل، كما كان أخوه أقرب إلى البطش والحرب، بل يوصف بأنه «عظيم السياسة»، وكان يسيطر على أتباعه بشبكة من الجواسيس قائمة على العبيد والمماليك والخدم الذين يُكثر من شرائهم ثم يربيهم ثم يهديهم لأتباعه ويجعل

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٥٣، وابن شداد: الأعلاق الخطيرة ٣/ ٣٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٥٤، وابن شداد: الأعلاق الخطيرة ٣/ ٣١.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٦٧.
(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٦٠، وابن العديم: زبدة الحلب ص٥١.

لهم رواتب سرية لينقلوا له أخبار قادته، فكانت تصل إليه الأخبار ولا يدري أصحابه كيف تصل، فصاروا أكثر هيبة وخشية له بل كان أحدهم يخشاه وهو وحده، فبمثل هذا تمت له السيطرة على أتباعه[١].

ورغم أن الصفو قد غشى العلاقة بين الخلافة العباسية والدولة الصفارية بعد وفاة يعقوب بن الليث، إلا أن البلاد لم تصفُ لعمرو بن الليث، إذ كثر المتمردون عليه في خراسان وما حولها، ثم انقلبت عليه الخلافة أيضا بعد خمس سنوات، وبالتحديد في (شوال ٢٧١هـ) حيث جمع الخليفة حجاج خراسان وأعلمهم أنه عزل عمرو بن الليث وكتب بذلك إلى البلاد وأمر بلعنه على المنابر[٢]، ويسوق المؤرخون في أسباب هذا الانقلاب أمورا عدة؛ منها أن الخلافة لم تطمئن أبدا إلى عمرو، وخشيت دائما من قوة الصفاريين التي قد تدفعهم لتكرار ما فعله يعقوب من قبل[٣]، فانتهزت وصول شكايات من الخراسانيين الذين تأففوا من التعامل العسكري الخشن للصفاريين ومن نقلهم حاضرة الحكم إلى سجستان بدلا من خراسان، وغير هذا[٤]. فقررت عزله وأرسلت جيشا لحربه، واستطاع الجيش تحقيق نصر كبير على عمرو بن الليث (١٠ ربيع الأول ٢٧١هـ) حتى أصيب قائد الجيش وأُسِر منهم ثلاثة آلاف بخلاف الغنائم الكثيرة[٥].

كانت الخلافة في بغداد تواجه الصفاريين على أكثر من جبهة: تدعم المتمردين على حكمهم في أنحاء خراسان، ويكفي إعلان العزل ليكون شرعية لكل متمرد على الصفاريين، وقد استطاع بعض هؤلاء تحقيق نتائج مؤثرة والاستيلاء على حواضر مهمة كمرو ونيسابور. والجبهة الأخرى من خلال السامانيين الذين يحكمون بلاد ما وراء النهر منذ أن جعلت الخلافة بلاد ما وراء النهر منطقة إدارية منفصلة تتبعها مباشرة، وذلك منذ عهد يعقوب الصفار، وليس كما كان الحال في الماضي أن تتبع هذه البلاد إداريا سلطة والي خراسان.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٠٢، ٤٠٣.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٠، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٢٤٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٤١.

(٣) نظام الملك: سياست نامه ص٥٤.

(٤) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص١٦٦ وما بعدها.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٤٣.

ثم الجبهة العسكرية، إذ لم تكتف الخلافة بنصر (٢٧١هـ) بل أعدت جيشا آخر قاده هذه المرة الموفق بنفسه (٢٧٤هـ) ولكن عمرو بن الليث لم يواجهه وفضل الانسحاب ولم ينته الأمر إلى نتيجة حاسمة إذ لم يستطع الموفق الاستيلاء على كرمان وسجستان[1]، وانتهت أيام الخليفة المعتمد والوضع متوتر مضطرب مع عمرو بن الليث الذي لم يبق في عمر دولته -هو الآخر- كثيرا، مما سيأتي الكلام عنه فيما بعد.

٣) الخلافة والدولة الزيدية في طبرستان

ذكرنا فيما سبق قصة استيلاء الحسن بن زيد العلوي على طبرستان وتأسيسه الدولة الزيدية فيها، ومنذ هذه اللحظة والعلاقة بين الخلافة العباسية والدولة الزيدية علاقة عداء، فالخلاف المذهبي بين الزيدية (شيعة) والعباسية (سنة) يزيد من عمق الخلاف السياسي، كما أن اضطراب أحوال الخلافة عسكريا جعل انتصارات الجيوش العباسية على الحسن بن زيد بلا فائدة، إذ لم تستطع الخلافة أن تتابعها حتى القضاء النهائي عليها، وقد استمر ذلك منذ عهد المستعين وحتى عهد المعتمد، ففي ظل الفوضى التي عانت منها الخلافة باستبداد الأتراك ظل الحسن بن زيد يتوسع حتى هاجم جرجان والري وهما التابعان لإقليم خراسان، ولم تتوان الخلافة ما أمكنها في بعث الجيوش إليه لا سيما عندما خرج من طبرستان إلى الري وجرجان أول عهد المعتمد، لكن النصيب الأكبر في مواجهته كان واقعا على عاتق الطاهريين حكام خراسان.

ومع ضعف حكم الطاهريين وظهور الصفاريين، كان يعقوب الصفار يريد خطب ود الخلافة من ناحية كما يهمه إنهاء أمر منافسيه، وقد دخلت الدولة الزيدية على خط المواجهة معه حين أجارت منافسه عبد الله السجزي ما جعل يعقوب يشن عليها حربا اقتحم فيها حواضرهم وأنزل بهم هزيمة هائلة كما مر بنا من قبل، لكن وعورة الجبال حفظت للدولة الزيدية حصانة أمدت في عمرها سنين عددا، ورجع يعقوب بخسارة أنزلتها به زلازل وثلوج أضعفت جيشه المنتصر.

كانت السياسة المتبعة هي أن يحارب الحسن بن زيد ما أمكنه الحرب، فإن هاجمه جيش قوي كبير لا يستطيع صده فإنه ينسحب إلى أقصى الجبال إلى أرض الديلم ثم يعود حين تنسحب القوة المهاجمة، وقد شاء الله ألا يواجهه خصم يستطيع أن يستبقي جيوشه في الأرض

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥٩٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٥١.

التي استحوذ عليها، بل يكون العدو مضطرا للانسحاب بقواته الرئيسية لظروفه الداخلية، هكذا كانت الخلافة العباسية حين أرسلت جيوشها بقيادة مفلح وموسى بن بغا، وهكذا كان الصفار، كلهم لم يكن من أهدافهم أو في قدرتهم إبقاء الجيوش الكبيرة في المنطقة للحفاظ عليها أو مطاردة الحسن بن زيد حتى القضاء المبرم.

واستمرت الدولة الزيدية محتفظة بوجودها وسيطرتها في طبرستان حتى توفي إمامها ومؤسسها الحسن بن زيد (٢٧٢هـ) «بعد أن حكم دولته أكثر من تسعة عشر عاما، بذل خلالها ما يبذله عادة مؤسسو الدولة من جهد في توطيد وبناء صرح دولته والذود عنها ضد الأعداء ومحاولة توسيع رقعتها وتقوية شأنها»[١].

ظهور القرامطة والإسماعيلية

في (٢٧٨هـ) بدأ ظهور القرامطة إلى العلن بعد أعوام من العمل السري، ولكي نعرف أصل القرامطة ينبغي أن نعود قليلا إلى الخلف..

منذ أن ظهر الانحراف في الشيعة في عهد علي بن أبي طالب ﷺ وأمرهم آخذ في المزيد من الانحراف والضلال، وصاروا فِرَقًا وأصنافا، فمنهم الزيدية ومنهم الإمامية الاثنا عشرية ومنهم الإسماعيلية، فأكثرهم ضلالا وكفرا الإسماعيلية ثم الاثنا عشرية، وكانت طريقتهم المغالية في الأشخاص تجرهم إلى المغالاة في المبادئ والأفكار، وصارت الشيعة غطاء لكل من أراد ضرب وتفتيت الحالة الإسلامية من الشعوبيين الفرس الذين ذهب العرب والمسلمون بدولتهم وملكهم، وكذلك من اليهود الذين أرادوا أن يُفسدوا الإسلام كما استطاعوا إفساد المسيحية من قبل، وقد بدأوا في هذا منذ عبد الله بن سبأ الذي أقام الفتنة زمان عثمان ﷺ، فتسربت إلى فرق الشيعة أفكار مجوسية ويهودية وأدى ترسيخها والاستنباط منها والتفريع عنها إلى اعتناق الكفر، أو أن الكفر وأهله كانوا يتخذون لأنفسهم غطاء من التشيع!

يرى الإمامية الاثنا عشرية أن لهم اثنا عشر إماما هم: علي بن أبي طالب، ثم ابنه الحسن بن علي، ثم ابنه الحسين بن علي، ثم ابنه علي زين العابدين، ثم ابنه محمد (الباقر)، ثم ابنه جعفر (الصادق)، ثم ابنه موسى (الكاظم)، ثم ابنه عليّ (الرضا)، ثم ابنه محمد (الجواد)، ثم

(١) د. عصام الدين الفقي: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي ص٦٣.

ابنه علي (الهادي)، ثم ابنه الحسن (العسكري)، ثم ابنه محمد (المهدي).. ويؤمن الشيعة الإمامية بأن محمدا هذا قد دخل سردابا فاختفى فيه وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلا كما مُلِئَت جورا، ويذكرونه قائلين: «عَجَّل الله فرجه الشريف»، وعند التحقيق العلمي ينشأ الخلاف حول هل أنجب الحسن العسكري طفلا من الأساس؟ أم أن الطفل قد مات صغيرا؟

المهم في سياقنا الآن أن الشيعة الإسماعيلية يتفقون في ترتيب الأئمة حتى جعفر الصادق، ويرون بأن الإمامة لا تذهب إلى موسى الكاظم بل إلى أخيه الأكبر إسماعيل بن جعفر الصادق، وحيث إن إسماعيل قد مات في حياة أبيه فهم يقولون بانتقال الإمامة إلى ابنه الأكبر محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق[1].

ومن محمد هذا بدأت الدعوة الإسماعيلية، وإذا تجاوزنا عن الخلافات بين المرويات وهي ليست بالقليلة بطبيعة الحال، فإذا كان الرواة يختلفون في رواية ما تم علنا فكيف بما تم سرا، إذا تجاوزنا الخلافات وأمسكنا في الخط العام فقد جرى الأمر كالتالي:

بدأ الفارسي عبد الله بن ميمون القداح في تكوين جماعة حول محمد بن إسماعيل الصادق، وكان واسع العلم بالأديان والمذاهب، فكان يدخل إلى الأنصار كلٌّ بما يناسبه، وتحت غطاء الدعوة للإمام من آل البيت وإعادة الحق لهم والقصاص ممن ظلمهم (العباسيين) بدأ ينشر أفكاره الكفرية التي هي خليط من فلسفات فارسية ويونانية قديمة، لكن الفكرة الأخطر التي وضعها هو الزعم بأن آيات القرآن لها ظاهر وباطن، أي فهم ظاهر يفهمه الناس، وفهم آخر باطن لا يفهمه غير الأئمة، وكان هذا باب شر كبير وأدى لنشوء مذاهب فكرية وحركات هدامة كان لها أسوأ الأثر في التاريخ الإسلامي[2]، كذلك ابتدع القول بأن الأئمة سبعة: ستة صامتون والسابع هو الناطق، وأن الأئمة نوعان: أئمة مستورون (وهم الحقيقيون) وبجوارهم أئمة مستودعون (وهم الدعاة إلى الإمام) وبهذا صار القداح إماما مستودعا إلى جانب الإمام الحقيقي محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٩١.

(٢) يقول عبد القاهر البغدادي: «ذكر أصحاب التواريخ أن الَّذين وضعُوا أساس دين الباطنية كَانُوا من أَوْلَاد الْمَجُوس وَكَانُوا مائلين إلى دين أسلافهم وَلم يجسروا على إِظْهَاره خوفًا من سيوف الْمُسلمين فَوضع الأغمال مِنْهُم أساسا من قبلهَا مِنْهُم صَار فى الْبَاطِن إلى تَفْصِيل أديان الْمَجُوس وتأولوا آيَات الْقُرْآن وَسنَن النبى عَلَيْهِ السَّلَام على مُوَافقَة أساسهم». عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ص٢٦٩.

والكلام في بيان أفكارهم يطول، ولكننا نأتي بخلاصته من عند الإمام ابن الجوزي إذ يقول: «الباطنية قوم تستروا بالإسلام ومالوا إِلَى الرفض وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث ولكنهم لا يظهرون هَذَا فِي أول أمرهم بل يزعمون أن الله حق وأن محمدا رَسُول الله والدين صَحِيح لكنهم يقولون لذلك سر غير ظاهر وَقَدْ تلاعب بهم إبليس فبالغ وحسن لهم مذاهب مختلفة ولهم ثمانية أسماء. الاسم الأَوَّل الباطنية: سموا بذلك لأنهم يدعون أن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري من الظواهر مجرى اللب من القشر وأنها بصورتها توهم الجهال صورا حلية وهي عند العقلاء رموز وإشارات إِلَى حقائق خفية وأن من تقاعد عقله من الغوص عَلَى الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع ومن ارتقى إِلَى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من أعبائه»[1].

كانت البداية من موطنه بالأهواز، وانضم إليه حسين الأهوازي، ثم انتقلت الدعوة إلى البصرة حيث استفاد من تجربة صاحب الزنج في الاستكثار من العُمَّال الذين يعانون من واقع اقتصادي صعب، على أن والي البصرة انتبه لدعوتهما فهربا منه إلى «سَلَمْيَة» بالقرب من اللاذقية في الشام، وهناك بدأ وضع الهيكل للتنظيم ومراتبه وما إلى ذلك، ومن هناك بدأ في إرسال الدعاة إلى الأقطار الأخرى.

ذهب الحسين الأهوازي إلى العراق، الكوفة وما حولها، حيث الكوفة على طول تاريخها هواها مع العلويين وآل البيت، وتعرف هناك على رجل خطير.. ذلك هو حمدان المعروف بـ«قرمط»، إذ أبدى «قرمط» من الإخلاص والموهبة ما جعل الحسين الأهوازي يعهد إليه برئاسة الدعوة قبل أن يموت.

وكان «قرمط» عند حسن الظن به، فاستطاع الاستكثار من الأنصار والأتباع، وكوَّن جماعات في اليمن وفي شرق الجزيرة العربية في منطقة الأحساء، وحاول التحالف مع صاحب الزنج إلا أن آراءهما لم تتفق فاختلفا، لكن الخطورة ماثلة في أن أنصاره قد بلغوا مائة ألف في ذلك الوقت[2] فكان من فضل الله على الأمة أن اختلفا.

---

(١) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص٩١، ٩٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٦٦.

بدأ القرامطة في التسلح عام (٢٧٦هـ)[١]، واتخذوا منطقةَ تَجَمُّعٍ لهم باعتبارها دار هجرة في «مهما باد» قرب الكوفة فنزلها الكثير من الرجال والنساء المستجيبون للدعوة (٢٧٧هـ)، واتخذوا أعلاما بيضاء بزعم أن دينهم هو «دين النور»[٢] مكتوبا عليها «ونريد أن نمنَّ على الذين استُضْعِفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين»، وكان أول تحرك علني لهم (٢٧٨هـ) في منطقة سواد الكوفة، ومن هنا بدأت قصة فصولها دامية أليمة عاشتها الأمة الإسلامية أعواما عديدة!

ويتأسف ابن كثير على نشوء هذه الحركات والمذاهب في دار الإسلام، ويرى بنظرته الثاقبة أن كل هذا عائد إلى «ضعف الخليفة وتلاعب الترك بمنصب الخلافة واستيلائهم على البلاد وتشتت الأمر»[٣].

ومع تقدم الأيام تتطور الأفكار مع تطور القوة والتأثير، وسيظهر من القرامطة الكفر البواح الصريح..

وفاة الموفق

عاد الموفق إلى بغداد (المحرم ٢٧٨هـ) من غزوة، فدخل بغداد وهو مُصاب بمرض النقرس، فما زال جسده يتضخم ويزيد عليه المرض حتى صار لا يستطيع حمله إلا عشرون رجلا، ثم توفي (٢٢ صفر ٢٧٨هـ) وهو في التاسعة والأربعين من عمره.

وقد أفاض المؤرخون في مدحه بما كان له من جليل الأعمال كالقضاء على الزنج ومواجهة الصفاريين وتثبيت أمر الخلافة وإعادتها إلى عهد قوتها من بعد ما تحكم بها الأتراك وجعلوا الخليفة ألعوبة.

وصفه ابن كثير بـ«حسام الاسلام وناصر دين الله»، وذكر أنه «كان غزير العقل حسن التدبير يجلس للمظالم وعنده القضاة فينصف المظلوم من الظالم، وكان عالما بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك وغير ذلك، وله محاسن ومآثر كثيرة جدا»[٤].

---

(١) د. فاروق عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٥١.

(٢) د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ص٣٥، ٣٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٧٢.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٧٢، ٧٣.

وفاة الخليفة المعتمد

لما تُوفي الموفق استقر الأمر على تنصيب ابنه أبي العباس في مكانه، فخُطِب له على المنابر، وصار يتولى ما كان يتولاه أبوه من السلطات، واتخذ لقب «المعتضد بالله».

كان الموفق ولي العهد الثاني من بعد المفوض إلى الله جعفر بن المعتمد، لكن المعتضد فيما يبدو لم يُرِد أن يكرر تجربة أبيه في أن تكون له السلطة الفعلية مع وجود خليفة اسمي قد يسبب المشكلات أو يكون غرضا تُحاك باسمه المؤامرات كما كان حال المعتمد مع ابن طولون، فاستقل هو بولاية العهد وخلع المفوض إلى الله (أواخر المحرم ٢٧٩هـ) قبل أن يموت أبوه الموفق، فلذا كان المعتضد هو ولي العهد الوحيد.

ثم لم تمض ستة أشهر على وفاة الموفق حتى تُوفي المعتمد على الله (١٩ رجب ٢٧٩هـ) في الخمسين من عمره بعد خلافة اسمية ظلت ثلاثا وعشرين سنة انصرف فيها إلى الشهوات والملذات بينما حمل الموفق ثم ابنه تكاليفها على الحقيقة.

ظهور الدولة السامانية

قامت في عهد المعتمد على الله (٢٦١هـ) الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر، لكن قصة السامانيين تبدأ قبل هذا التوقيت بنحو قرن ونصف من الزمان..

أسلم سامان خداه جد الأسرة السامانية على يد أسد بن عبد الله القسري –والي خراسان في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك– الذي دعمه وساعده ضد خصومه الذين طردوه من بلخ فأعاده إليها، وحين أنجب سامان ولدا سماه «أسد».

ثم مضت الأيام وبلغ أبناء أسد الأربعة مكانة عالية لدى الخليفة المأمون الذي عينهم ولاة على حواضر ما وراء النهر، فكان نوح بن أسد على سمرقند، ويحيى بن أسد على الشاش وأشروسنة، وإلياس بن أسد على هراة، وأحمد بن أسد على فرغانة، فكان هذا أول تمكن الأسرة السامانية في تلك المناطق(١).

ثم مضت الأيام حتى ولَّى الخليفةُ المعتمدُ نصرَ بن أحمد بن أسد بلاد ما وراء النهر كلها (رمضان ٢٦١هـ). وأغلب الظن أن هذا كان جزءا من مقاومة توسع يعقوب بن الليث

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/١٢٦.

الصفار باتخاذ حليف للخلافة في ظهر يعقوب، إذ بهذه التولية تم فصل ما وراء النهر من التبعية الإدارية لخراسان، ووضعها على قدم المساواة مع إقليم خراسان الذي يعين الخليفة واليها.



أقام نصر بن أحمد الساماني إخوته ولاة على بلاد ما وراء النهر، فترسخ نفوذ السامانيين، وقامت بالفعل الدولة السامانية! التي كانت كالطاهريين في خراسان والأغالبة في إفريقية (تونس) على الولاء التام للخلافة العباسية، وكانت الدولة السامانية على مذهب أهل السنة، وقامت بدور هائل في بلاد ما وراء النهر، بالجهاد ضد الأتراك الذين يلونهم في الشمال والشرق، وفي إقامة دولة قوية ونهضة زاهرة بتلك الأنحاء، وفي مساعدة الخلافة العباسية أحيانا في منطقة خراسان وسجستان وما إليها.

وكانت عاصمتهم بخارى إحدى حواضر الإسلام العلمية والثقافية، وبها واحدة من أكبر مكتبات العالم الإسلامي، لكن السلبية الهائلة التي حدثت هو أن الدولة لم تحتضن اللغة العربية كلغة وحيدة بل أُعيد بعث اللغة الفارسية وثقافتها، وكان هذا بدء النهاية لعروبة هذه الأنحاء والتي وصلت إلى انتهاء وجود اللغة العربية بالكامل لحساب الفارسية وثقافتها وغيرها من اللغات المحلية بعد قرون، بكل ما لهذا من تأثيرات سلبية مروعة على التاريخ والتراث العربي والإسلامي في هذه المناطق(١).

وقد ظلت الدولة السامانية حتى سنة ٣٨٩هـ أي أنها دامت قرابة مائة وسبعين سنة حتى سقطت على يد الغزنويين والقاراخانيين، وسيكون لقصتها فصول أخرى ستأتي في رحلتنا لاستعراض تاريخ الخلافة العباسية.

***

(١) يكفي للتدليل على هذا أن تراث وتاريخ هذه المناطق يكاد يكون في حكم المجهول بالنسبة للمناطق التي ظلت محتفظة باللغة والثقافة العربية، فعلى رغم اختفاء الأندلس من رقعة الإسلام منذ خمسة قرون إلا أن تاريخها العربي الإسلامي معروف إلى درجة مُرضية، بينما لم يختف الإسلام من بلاد الهند وإيران ووسط آسيا والقوقاز ورغم ذلك يعتبر تاريخها في حكم المجهول إذا ما قورن بالأندلس مثلا!



المعتضد بالله

(من رجب ٢٧٩ هـ حتى ربيع آخر ٢٨٩ هـ)

كان المعتضد أسمر، نحيف الجسم، معتدل القامة، خطه الشيب، في مقدم لحيته طول، وفي رأسه شامة بيضاء.

صار خليفة (٢٠ رجب ٢٧٩هـ) وهو في السادسة والثلاثين من عمره، وعلى رغم هذا العمر غير الكبير إلا أن تاريخه الكبير في محاربة الزنج وما أبداه من بطولات فيها وفي غيرها، جعلت له رصيدا كبيرا لدى الناس، ولدى الجيش أيضا، فمن المؤكد أنه صار محبوبا وله أتباع وأنصار من العسكريين، وقد بدا هذا بأوضح ما يكون عندما حبسه أبوه الموفق كما ذكرنا فيما سبق.

***

ورث المعتضد خلافة في ظروف صعبة، لا شك أنها أفضل كثيرا من تلك التي ورثها أبوه قبل ربع قرن، لكن ما زالت الخلافة تعاني من اضطراب أمر الشرق الذي يتوزع فعليا بين عمرو بن الليث في سجستان وخراسان، ومحمد بن زيد العلوي في طبرستان، ثم بزوغ دولة زيدية أخرى في اليمن، والقرامطة في شرق الجزيرة العربية، وحركات الخوارج والأعراب في الموصل والجزيرة الفراتية، والدولة الطولونية في الشام ومصر. وتمثل الفارق في أن أمر الخلافة في عاصمتها قد استقر على خلاف الحال الذي كان قبل ربع قرن، وصار الخليفة مهابا قويا والجند وقادتهم خاضعون له ولا يفكرون ولا يجرؤون على خلعه أو قتله.

ومع بداية عهد المعتضد بدأت الرسائل تصله من عمرو بن الليث الصفار في المشرق، وخمارويه بن أحمد بن طولون في مصر، تخطب وده وترغب في فتح صفحة جديدة من العلاقات مع الخلافة واكتساب شرعية وجودها وإنهاء التوتر الذي كان قائما في عهد أبيه الموفق، وسنستعرض تطور العلاقات مع هذه الدول في حينه، ولكننا نبدأ الآن بمشهد الخلافة في بغداد فنستعرض سياسة المعتضد وطريقته في الحكم وتدبير أمر الملك.

سياسة المعتضد وإصلاحاته

استغلظ أمر الخلافة واستوى على سوقه في عهد المعتضد، ولم يعد للطبقة العسكرية نفوذ يتطلع أن ينافس أو يقاوم نفوذ الخلافة، ولا أدل على هذا من أن المعتضد قبض على كبير الترك بكتمر بن طاشتمر (ربيع الأول ٢٨٢هـ) فحبسه مقيدا وصادر أمواله وأملاكه[١]، والترك «لا يحركون ساكنا رهبة منه وهيبة له»[٢].

ويعتبر هذا الإنجاز وحده من أهم إنجازات الخلافة العباسية، ثم أضيف إلى سجل المعتضد إنجازات أخرى في باب السياسة والتدبير منها:

١) محاربة الخرافات والأباطيل

في أزمان الاضطرابات والفتن تروج بين الناس حِيَل الدجالين والمشعوذين وقصصهم، وقدراتهم وكراماتهم، وفي ظل دولة محفوفة بالمخاطر كالدولة العباسية في ذلك الوقت قرر المعتضد في بداية ولايته (٢٧٩هـ) «أن لا يُمَكَّن أحدًا من القَصَّاص والطُرُقية[٣] والمنجمين ومن أشبههم من الجلوس في المساجد ولا في الطرقات»، وكان أولئك المشعوذون قد بلغوا من التأثير حدا كبيرا بين العامة، ففي عام (٢٨٤هـ) تنبأوا بأن أكثر البلاد ستغرق في زمن الشتاء من كثرة الأمطار، وزادوا في التأكيد على هذا واجتمعت عليهم آراؤهم حتى حدثت حالات نزوح من العامة إلى الجبال والكهوف خوفا من المطر والغرق، ثم أخزاهم الله فكان عاما شحيح المطر حتى أجدبت الأرض ولم ينبت الزرع وصلى الناس صلوات الاستسقاء كثيرا، فشدد المعتضد في نهيه عن الاجتماع أو الاستماع للمنجمين والقُصَّاص ونحوهم[٤].

وتلازم قرار منع المنجمين والمشعوذين مع قرار آخر استهدف فيما يبدو توحيد الجبهة الداخلية والقضاء على المنازعات والمخاصمات والجدالات التي لا طائل من ورائها، والتي كانت بالأصل خلافات في كتب الفلسفة والجدال، فأمر المعتضد «أن لا تباع كتب الكلام والفلسفة والجدل بين الناس»، وللقرار أبعاد أخرى كذلك فلا شك أن فعلا كهذا قد أرضى

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦١١.
(٢) د. شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني ص١٥.
(٣) الطرقية: أصحاب الطرق الصوفية ومن يكتبون الأحجبة والحُروز وما إلى ذلك.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٧٣.

الفقهاء وعامة المتدينين ممن يحاربون الكلام والفلسفة[١]. وهم بلا شك رصيد لا غنى عنه لأي سلطان في بداية عهده، لا سيما إن ورث ملكا تتناوشه اضطرابات في الشرق والغرب.

٢) التعمير والبناء

وأمر المعتضد بتوسيع جامع المنصور (٢٨٠هـ) بكلفة عشرين ألف دينار، فأضاف إليه دار المنصور التي كانت أمامه، فأضيفت بهذا مساحة كبيرة إلى المسجد، يدل على ذلك أنه فتح بينهما سبعة عشر بابا[٢].

كما حَوَّل المعتضد (٢٨٠هـ) القصر الحسني - الذي كان في الأصل قصر الحسن بن سهل صهر المأمون ووالي بغداد قبل ستين سنة- إلى «دار الخلافة» التي ستكون مقر الحكم المهيب الفاخر في بغداد، وقد أُعجب به فطلبه المعتضد -أو المعتمد على خلاف الروايات- من بوران بنت الحسن بن سهل فنزلت عنه بعد أن جهزته بكل أنواع المفاخر والزينة[٣]، فكان مدينة ملكية ذائعة الصيت والشهرة[٤].

وأمر المعتضد بإصلاح طريق حلوان الذي كان يلقى الناس منه عنتا وشدة عند منطقة «عقبة حلوان»، بتكلفة عشرين ألف دينار[٥].

٣) الرفق بالرعية في الأموال

بعد عامين، وفي (٢٨٢هـ) أصدر المعتضد قرارا يدل على تدينه وتقواه وعلى رفقه بالرعية أيضا، فقد أمر بمنع الاحتفال بعيد النيروز الفارسي الذي كان يوما شعبيا يحتفل به الناس، وهو من التراث الفارسي الذي كانت تقاليده في هذا اليوم «إيقاد النيران وصب الماء [على

---

(١) المذاهب الفلسفية والكلامية هي بالأصل دخيلة على المجتمع الإسلامي، وقد تسربت إليه من خلال ترجمات التراث الهندي والفارسي والرومي، فانتقلت إلى المجال الإسلامي فلسفات الهند والصين واليونان، وقد أثمر هذا إعجابا لدى كثيرين بتلك الفلسفات ونشأت بها وحولها مذاهب وتيارات فكرية عديدة، وتراوحت أفكارها بين الكفر المحض إلى ما هو أقل من ذلك وحتى الحسن والجيد، فنشأت حولها صراعات كثيرة لا سيما فيما صادم الإسلام وقواعده وأصوله.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ١٠٨.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٩٩، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٣٥.

(٤) وقد وضعنا وصفا لدار الخلافة في ملاحق هذا الجزء لما تعبر عنه من فخامة ورفاهية ما بلغته الخلافة العباسية آنذاك.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٣٤، وابن العديم: بغية الطلب ٢/ ٨١٧.

المارة] وغير ذلك من الأفعال المشابهة لأفعال المجوس، ومنع من حمل هدايا الفلاحين إلى المنقطعين»، ولكن إلغاء يوم شعبي ليس أمرا بسيطا ويحمل الناس على الهياج والاعتراض، فقرر في ذات الوقت أن يكون الاحتفال يوم (١١ حزيران / يونيو) من كل عام، فعُرِف هذا اليوم بـ«النيروز المعتضدي»(١). على أن هذا القرار فشل وكان التقليد الشعبي أقوى من قرارات السلطنة فاضطر للعودة عنه بعد عامين (٢٨٤هـ) فألغى قراره السابق، فعاد الناس إلى أشد ما كانوا في الاحتفال بهذا اليوم وتقاليده.

وكان من القرارات الخطيرة التي حببت المعتضد إلى العامة أنه منع ما تأخذه الدولة من أموال الميراث التي تذهب إلى غير العصبة من الأرحام (٢٨٣هـ) فأبطل بذلك «ديوان المواريث» الذي كانت تذهب إليه هذه الأموال، وذلك نزولا على فتوى القاضي أبي حازم الذي صرح بأن ذهاب الأموال إلى الأهل ولو من غير العصبة هو «اتفاق بين الصحابة إلا زيد بن ثابت فإنه تفرَّد برَدِّ ما فَضَلَ [من الميراث] والحالة هذه إلى بيت المال»، ووافقه على ذلك القاضي محمد بن أبي الشوارب(٢)، وهذا دليل على دين المعتضد ومراعاته الله في أمر الرعية وإن أَثَّر هذا على موارد الدولة من الأموال.

وكان المعتضد حريصا في سياسة المال، ولذا وفر الكثير من الأموال حتى إنه مات وفي بيت المال سبعة عشر مليون دينار، وكان مهتما بالزراعة والزُرَّاع، فكان رفيقا بهم «يُقَدِّم لهم المساعدات العديدة، كما كان يؤجِّل أخذ الخراج منهم حتى بعد شهرٍ من إنتاج محاصيلهم، ليُساعدهم على تحسين أوضاعهم المالية والمعيشية؛ ولذلك تحسَّنت أحوالهم في عهده تحسنًا ملحوظًا»(٣).

وبهذا الرفق بالرعية والحرص على الأموال نجح المعتضد في إصلاح أحوال الخلافة، يقول ابن كثير: «لهذه النية (في الرفق بالرعية) لما ولي الخلافة كان بيت المال صفرا من المال وكانت الأحوال فاسدة، والعرب تعيث في الأرض فسادا في كل جهة، فلم يزل برأيه وتسديده حتى كثرت الأموال وصلحت الأحوال في سائر الأقاليم والآفاق»(٤).

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦١٠، وابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٤٣.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٦٠، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٨٤.
(٣) يوسف العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية ص١٦٧.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٠٣، ١٠٤.

٤) إقامة العدل

ففي دولة المعتضد لم يكن أحد فوق المحاسبة، حتى حاشية الخليفة، وقد حاول أحدهم -من موالي الخليفة- أن يتعالى على خصمه في مجلس القضاء فنهره القاضي يوسف بن يعقوب[١] فلم يرتدع، فتهدده القاضي بالبيع عبدا وأن يعطي ثمنه للخليفة، ثم أجبره حاجب الخليفة على التساوي مع خصمه، فلما عاد إلى المعتضد شكا له ما كان من القاضي وبكى بين يديه، فقال الخليفة: «والله لو باعك لأجزت بيعه ولما استرجعتك أبدا، فليس خصوصيتك عندي تزيل مرتبة الشرع فإنه عمود السلطان وقوام الأديان»[٢].

لقد كان عدل المعتضد صنوان رفقه بالرعية، وكان أحيانا يوفق بينهما بذكاء سياسي واضح، وكان متفقدا لأحوال الرعية ورأيهم فيه، يروي ابن الجوزي عن عبد الله بن حمدون -وهو من المقربين من المعتضد- قال: «كان المعتضد في بعض متصيداته[٣] فجاز بعسكره، وأنا معه، فصاح ناطور[٤] في قراح قثاء[٥]، فاستدعاه وسأله عن سبب صياحه، فقال: أخذ بعض الجيش من القثاء شيئا. فقال: اطلبوهم فجاءوا بثلاثة أنفس، فقال: هؤلاء الذين أخذوا القثاء؟ فقال الناطور: نعم، فقيدهم في الحال، وأمر بحبسهم، فلما كان من الغد أنفذهم إلى القراح، فضرب أعناقهم فيه، وسار، فأنكر الناس ذلك وتحدثوا به، ومضت على ذلك مدة طويلة، فجلست أحادثه ليلة فقال لي: يا أبا عَبْد الله، هل يعيب الناس شيئا عرفني حتى أزيله؟ قلت: كلا يا أمير المؤمنين! فقال: أقسمت عليكَ بحياتي إلا ما صدقتني. قلت: يا أمير المؤمنين، وأنا آمن؟ قَالَ: نعم. قلت: إسراعك إلى سفك الدماء. قَالَ: والله ما هرقت دما منذ وليت الخلافة إلا بحقه. قَالَ: فأمسكت إمساك من ينكر عليه. فقال: بحياتي ما يقولون؟ قلت: يقولون إنك قتلت أَحْمَد بن الطيب، وكان خادمك، ولم يكن له جناية ظاهرة. قَالَ: دعاني إلى الإلحاد فقلت له: يا هذا، أنا ابن عم صاحب الشريعة صلوات الله عليه وسلامه،

(١) وهذا القاضي هو حفيد حماد بن زيد أحد الأعلام الكبار في علم الحديث، وكان عفيفا مُهابا ورعا، قوي الشخصية.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ١٠٤.
(٣) أي: رحلات صيده.
(٤) ناطور: خفير.
(٥) قثاء: الخِيَار والقتة ونحوهما.



وأنا الآن منتصب منصبه، فألحد حتى أكون من؟ فَسَكَتُّ سكوت من يريد الكلام. فقال لي: في وجهك كلام! فقلت: الناس ينقمون عليك أمر الثلاثة الأنفس الذين قتلتهم في القراح. فقال: والله ما كان أولئك الذين أخذوا القثاء، وإنما كانوا لصوصا حملوا من موضع كذا وكذا، ووافق ذلك أمر القثاء فأردت أن أصول على الجيش بأن من عاث من عسكري وأفسد في هذا القدر كانت هذه عقوبتي له، لِيَكُفُّوا عما فوقه، ولو أردت قتلهم لقتلتهم في الحال، وإنما حبستهم وأمرت بإخراج اللصوص من غد مغطين الوجوه ليقال إنهم أصحاب القثاء. فقلت: كيف تَعْلَم العامة هذا؟ قَالَ: بإخراج القوم الذين أخذوا القثاء وإطلاقي لهم في هذه الساعة، ثم قَالَ: هاتوا القوم! فجاءوا بهم وقد تغيرت حالهم من الحبس والضرب، فقال: ما قصتكم؟ فقصوا عليه قصتهم، فقال: أتتوبون من مثل هذا الفعل حتى أطلقكم؟ قالوا: نعم! فأخذ عليهم التوبة، وخلع عليهم، وأمر بإطلاقهم، ورد أرزاقهم عليهم، فانتشرت الحكاية وزالت عنه التهمة»[1].

ويبدو أنه استوعب الدرس فاحتاط لنفسه فيما بعد، فقد أورد ابن الجوزي أيضا أن المعتضد «خرج يوما ونهى أحدا أن يأخذ من بستان أحد شيئا، فَأُتِي بأسود قد أخذ عذقا من بسر[2]، فتأَمَّلَه، فأمر بضرب عنقه، ثم التفت إلى أصحابه فقال: ويلكم تدرون ما تقول العامة؟ قالوا: لا! قَالَ: يَقُولُونَ مَا فِي الدُّنْيَا أقسى قلبا مِنْ هَذَا الْخَلِيفَةِ، وَلا أَقَلَّ دِينًا مِنْهُ، لأَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: **«لا قَطْعَ فِي ثَمَرٍ وَلا كَثَرٍ»**[3]، وَالْكَثَرُ: الجمار[4]، فما رضي أن يقطع في هذا حتى قتل، والله ما قتلت الأسود بسبب هذا! ولكن لي معه خبر طريف، أستأمن هذا من عسكر الزنج إلى أبي الموفق، فخلع عليه ووصله، فرأيته يوما وقد نازع رجلا في شيء، فضربه بفأس، فقطع يده فمات الرجل، فحمله الناس إلى أبي الموفق، فأهدر دم المقطوع اليد، وأطلق الأسود ليتألف الزنج بذلك الفعل، فاغتظت، وقلت: ترى أتمكن من قتل هذا الأسود وأنفذ حكم الله عز وجل فيه، فو الله ما وقعت عيني عليه إلا في هذه الساعة، فقتلته بذلك الرجل»[5].

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٠٧، ٣٠٨.
(٢) بسر: بلح.
(٣) رواه أبو داود (٤٣٨٨)، والترمذي (١٤٤٩) وغيرهم: وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.
(٤) الجمار: قلب النخل، وقيل شحم النخل.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٢٤، ٣٢٥.



ومن عدله ورفقه أيضا ما رُوي من أنه رُفع إليه خبر قوم يجتمعون ويهاجمون نظام الحكم وأنه «قد تفاقم فسادهم، فرمى بالرقعة إلى وزيره عبيد الله بن سليمان فقال: الرأي صلب بعضهم وإحراق بعضهم! فقال: والله لقد بردت لهيب غضبي بقسوتك هذه، ونقلتني إلى اللين من حيث أشرت بالحرق، وما علمت أنك تستجيز هذا في دينك، أما علمت أن الرعية وديعة الله عند سلطانها، وأن الله تعالى سائله عنها؟ أما تدرى أن أحدا من الرعية لا يقول ما يقول إلا لظلم قد لحقه أو لحق جاره أو داهية قد نالته أو نالت صاحبه؟ ثمّ قَالَ: سل عن القوم، فمن كان سيّئ الحال فصله من بيت المال، ومن كان يخرجه هذا إلى البطر فخوّفه، ففعل فصلحت الأحوال»(١).

وبقدر ما كان المعتضد عظيما مهابا بقدر ما كان رفيقا، روى الوزير عبيد الله بن سليمان قال: «كنت يوما بحضرة المعتضد وخادم من خدمه بيده المذبة، فبينا هو يذب إذ ضرب بالمذبة قلنسوة المعتضد، فسقطت فكدت أختلط إعظاما للحال، والمعتضد على حاله لم يتغير ولم ينكر شيئا، ثم دعا غلاما فقال له: هذا الغلام قد نعس فزد في عدد خدم المذبة ولا تنكر عليه بفعله، قَالَ عبيد الله: فقبلت الأرض، وقلت: والله يا أمير المؤمنين ما سمعت بمثل هذا، ولا ظننت أن حلما يسع مثله. ثم دعوت له. فقال: هل يجوز غير هذا؟ أنا أعلم أن هذا البائس لو دار في خلده ما جرى لذهب عقله وتلف، وإنما ينبغي أن يلحق الإنكار بالمتعمد لا بالساهي والغالط»(٢).

وروى حاجبه خفيف السمرقندي قال: «كنت مع مولاي المعتضد في بعض متصيداته، وقد انقطع عن العسكر، وليس معه أحد غيري، فخرج علينا أسد، فقصدنا فقال لي المعتضد: يا خفيف، أفيك خير؟ قلت: لا يا مولاي! فقال: ولا حتى تمسك فرسي وأنزل أنا إلى الأسد؟ فقلت: بلى! فنزل وأعطاني فرسه، وشد أطراف ثيابه في منطقته، واستل سيفه، ورمى القراب إليَّ فأخذته، وأقبل يمشي إلى الأسد، فطلبه الأسد، فحين قرب منه وثب الأسد عليه، فتلقاه المعتضد بضربة، فإذا يده قد طارت فتشاغل الأسد بالضربة، فثناه بأخرى، ففلق هامته فخر صريعا، ودنا منه وقد تلف، فمسح السيف في صوفة ورجع إليَّ، وغمد السيف، وركب، ثم

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٢٥.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٢٤.

عدنا إلى العسكر وصحبته إلى أن مات ما سمعته يحدث بحديث الأسد، ولا علمت أنه لفظ فيه بلفظة، فلم أدر من أي شيء أعجب من شجاعته وشدته! أم قلة احتفاله بها صنع حتى كتمه! أو من عفوه عني، فما عاتبني على ضني بنفسي»[1].

٥) ثمرة التمكين للأمة

وبأثر من سياسة المعتضد مع الرعية، نلاحظ جهدا شعبيا في عهده لإقامة المعروف والنهي عن المنكر على الخليفة وأمرائها أنفسهم، وما كان يصل إليه شيء من هذا حتى يُجيزه ويُقرَّه ويثني على فاعله، ومن ذلك أن رجلا يُدعى أبو الحسين النوري وجد زورقا فيه خمر، وقال صاحب الزورق إنها خمر للخليفة المعتضد، فلم يمنعه هذا أن يحطم آنية الخمر، فلما أخذته الشرطة إلى المعتضد سأله: ما أنت؟ فقال: أنا المحتسب. فقال: ومن ولاك الحسبة ؟ فقال: الذي ولاك الخلافة يا أمير المؤمنين. فأطرق رأسه ثم رفعها فقال: ما الذي حملك على ما فعلت ؟ فقال: شفقة عليك لدفع الضرر عنك. فسكت المعتضد ثم أقره على ما فعل وقال: اذهب فقد أطلقت يدك فغير ما أحببت أن تغيره من المنكر[2].

وسَكِر أمير تركي فلما مرت به امرأة حسناء راودها عن نفسها، واستغاثت المرأة بالناس الذين حاولوا إنقاذها ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا أمام حراسة الأمير الذين ضربوهم لا سيما رجل خياط تزعم محاولة إنقاذ المرأة، فرجع الخياط إلى بيته جريحا ثم ألهمه الله أن يؤذن في منتصف الليل كأنه أذان الفجر، فجاءته فرقة من الشرطة من عند الخليفة المعتضد فقبضوا عليه وذهبوا به إلى المعتضد الذي هَدَّأ من روعه وسأله: ما حملك على أن أذنت هذه الساعة، وقد بقي من الليل أكثر مما مضى منه؟ فتغر بذلك الصائم والمسافر والمصلي وغيرهم. فحكى له الرجل قصة الأمير التركي، فغضب غضبا شديدا، وأمر بإحضار الأمير والمرأة، ثم أوصل المرأة إلى زوجها في حراسة ثقات منه وأمرهم أن يعفوا الزوج قصتها وأنها معذورة ليعفو عنها، ثم أمر بضرب الأمير التركي كما ضرب من أمروه بالمعروف ونهوه عن المنكر، ثم أُلْقِي به في نهر دجلة، وأمر الخياط أنه إذا رأى شيئا فليدخل عليه في أي وقت فإن منعه أحد من الحرس فليؤذن في أي وقت، فصار هذا الخياط واسطة كل مظلوم له حق عند أي رجل من

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣١٤، ٣١٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٠١.

رجال الدولة الذين كانوا يهابونه ويخافون من أذانه[١].

٦) زلة كبرى!

في عام (٢٨٤هـ) وقع المعتضد في زلة كبيرة، ذلك أنه عزم على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، ولم يستمع لتحذير وزيره عبد الله بن وهب، وكتب رسالة فيها ذم معاوية وابنه وبني أمية ورميهم بكل نقيصة وذكر فيها أحاديث موضوعة، ولكن الوزير[٢] ما لبث يذكره ويحاول إثناءه عن الموضوع حتى خوفه من أن هذا العمل قد يثير الجماهير ويحفزهم نحو الانضمام للعلويين لما في الكتاب من مدح وثناء فيهم لا سيما والعلويون أنفسهم سيتفاخرون بالكتاب ويستعملونه في أغراضهم ضد العباسيين وإثباتا لحقهم في الخلافة، فعند ذلك أمسك المعتضد عن عزمه خوفا من تهدد الحكم[٣].

الخلافة والدولة الطولونية

١) الصلح بين المعتضد وخمارويه

تلاقت الرغبتان، رغبة خمارويه بن أحمد بن طولون ورغبة المعتضد في إنهاء النزاع بين الدولة العباسية والطولونية، ولقد كان هذا سهلا فيما يخص الطولونيين، إذ إنهم ليسوا دولة دعوة كما هو الحال مع العلويين والخوارج، وليسوا من العرب فينافسون العباسيين على الخلافة، وإنما يناسبهم أن يكونوا كالأغالبة في إفريقية والطاهريين في خراسان والسامانيين فيما وراء النهر، دول تتمتع بحكم ذاتي مع الانضواء تحت راية الخلافة وربما دفع مبلغ من الأموال سنويا كدليل على هذا الانضواء وقياما بواجبها نحو السلطة المركزية.. كذلك لم يكن الخلاف بين الموفق وابن طولون أكثر من الخلاف السياسي، فليس بينهما ثارات شخصية أو حروب طويلة.

بادر خمارويه بإرسال الهدايا والتحف إلى المعتضد أول توليه الخلافة (٢٧٩هـ)، وعرض على المعتضد بنته قطر الندى لتتزوج من ابن المعتضد، وبهذا العرض أراد خمارويه توثيقا

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٠٢، ١٠٣.

(٢) يذكر المؤرخون أن هذا الوزير كان ناصبيا، ويكفر عليا –رضي الله عنه– ولم يكن يُعرف عنه هذا، فكان بذلك سببا في منع اشتعال هذه الفتنة. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٨٨.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٢٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٩١.



للروابط وإنهاء للنزاع القديم وضمانة بألا يخالف خمارويه على المعتضد، فتلقى المعتضد كل هذا بالحفاوة والإكرام، وعاد الوزير بهذه الرسالة (٢٥ ربيع الأول ٢٨٠هـ) باتفاق يقتضي دفع مائتي ألف دينار للخلافة عن السنين الماضية، وثلاثمائة ألف دينار في كل سنة، واتخذ المعتضد قطر الندى زوجة له بصداق مليون درهم كدليل على مزيد من التكريم[١].

وبدأ خمارويه في التجهيز الأسطوري لقطر الندى..

٢) الزفاف الأسطوري

وقد فاضت كتب التاريخ بأنباء هذا الزفاف الأسطوري الذي صنعه خمارويه لابنته قطر الندى، حتى لقد شك بعض المؤرخين[٢] أن المعتضد قد يكون قَصَد إلى إفقار خمارويه وهو ما نستبعده بلا شك، ونرى أن هذا الإسراف إنما هو لغرض التفاخر والتباهي وبقائه كأسطورة على مر التاريخ.

لم يُبق خمارويه «خطيرة[٣] ولا طرفة[٤] من كل لون وجنس إلا حمله معها، فكان من جملته: دكة أربع قطع من ذهب، عليها قبة من ذهب مشبك، في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة، ومائة هون من ذهب... وحمل معها ما لم يُرَ مثله، ولا يسمع به... ولما فرغ خمارويه من جهاز ابنته أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر، فيما بين مصر وبغداد... فكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد، فإذا وافت المنزل وجدت قصرًا قد فرش فيه جميع ما يحتاج إليه، وعُلِّقت فيه الستور، وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها في حال الإقامة، فكانت في مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة، كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس»[٥].

٣) فرحة لم تكتمل!

وصلت قطر الندى إلى بغداد (٢٨١هـ)، في يوم من أيام بغداد، وكان الزفاف على

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة ص١٧٧، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/ ٥٣.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/ ٥٣.
(٣) الخطيرة: الشيء النفيس.
(٤) الطرفة: الشيء النادر.
(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٠٠، ٤٠١.

المعتضد (٥ ربيع الأول ٢٨٢هـ)، وصفت العلاقة بين الخلافة والدولة الطولونية وبدا أن الصفحة قد طويت وأن الأيام القادمة هي أيام الهناء.

إلا أن شهورا معدودة حملت جديدا غير متوقع، ذلك أن خمارويه بن أحمد بن طولون قُتِل على فراشه على يد بعض خدمه (ذي الحجة ٢٨٢هـ)، وتولى الأمر من بعده ابنه جيش، لكنه لم يكمل في الحكم إلا ستة أشهر ثم قتله أخوه هارون، وتولى مكانه، وكان هذا بداية اضطراب الدولة الطولونية، التي كانت قد بلغت شأوا عظيما، فانحدرت بسرعة غير متوقعة إلى الانهيار.

التزم هارون بن خمارويه بأداء مليون ونصف دينار إلى الخلافة كل عام، فأقره المعتضد على هذا، فتفرغ هارون لتثبيت أمره في الولايات التابعة له في مصر والشام، ثم تنازل هارون عن ولايات قنسرين والعواصم وسلمها للخلافة (٢٨٦هـ) مقابل أن تقره الخلافة على ما في ملكه من مصر والشام، وعلى أن يدفع لها سنويا نحو نصف مليون دينار(١). وهذا في حد ذاته دليل على ضعف الدولة الطولونية.

في العام التالي (٢٨٧هـ) توفيت قطر الندى بنت خمارويه، زوجة المعتضد، فكأن عُرسها كان عُرس العلاقة بين الخلافة ودولة أبيها، فلما انقضى العُرس انقضى زمانها!

جبهة الروم

تنشب الصراعات وتختفي، وتقوم الممالك وتنهار، ويبقى الصراع التاريخي العميق بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية، فكلتا الدولتين قد تنشغل كل منهما بمشكلة لديها لكن التناقض الرئيسي يظل حاكما للعلاقة بينهما، وعلى أن البيزنطيين قد يئسوا من استعادة الشام ومصر، كما أن العباسيين لم يعودوا يفكرون في فتح القسطنطينية إلا أن الحدود بينهما لا تهدأ -لظرف طارئ- حتى تشتعل مرة أخرى بعد حين.

وفي تلك الأثناء كانت جبهة الروم ما يزال يتولاها فعليا أمراء الدولة الطولونية على النحو الذي آل إليه الحال الذي ذكرناه في عهد المعتمد، وفي بداية عهد المعتضد (٢٨٠هـ) وصلت فرقتان إلى طرسوس -وهي المدينة التي تمثل قاعدة الجهاد- إحداهما بقيادة أحمد بن أبا من جهة خمارويه بن أحمد بن طولون، والأخرى بقيادة بدر الحمامي من جهة المعتضد،

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٩٥.

وانضما إلى العُجَيْفي أمير طرسوس، وغزوا في أرض الروم حتى بلغوا البلقسون.

وتكرر النجاح في العام التالي (٢٨١هـ) فغزا المسلمون أرض الروم، وانتصروا بعد قتال شديد دام اثني عشر يوما، وحصدوا غنائم كثيرة.

ثم نزلت بالروم داهية أخرى، إذ شنَّ الصقالبة هجوما كبيرا استطاعوا به حصار القسطنطينية (٢٨٣هـ) ولم تكف قوات الروم لصد هجوم الصقالبة فاستعان الامبراطور بمن عنده من الأسرى المسلمين، فسلَّحَهم وطلب منهم المعونة على الصقالبة، ولا ندري ما هو المقابل تحديدا، ولكن يبدو أنه كان إطلاقهم من الحبس، واستطاع الأسرى بالفعل فك حصار الصقالبة وتشتيتهم، وظل المسلمون بالفعل طُلَقاء في حكم البيزنطيين، حتى استشعر الامبراطور الخوف منهم لما معهم من السلاح فأمر بتفريقهم في البلاد، ومن هنا استنتجنا أن المقابل كان إطلاقهم من الحبس، وأنهم بالفعل ظلوا هكذا إلى الدرجة التي خشي منهم ملك الروم ففرقهم في مجموعات ليكسر خطر اجتماعهم.

وفي نفس هذا العام (٢٨٣هـ) جرى فداء الأسرى بين المسلمين والروم، فاستنقذ المسلمون ٢٥٠٤ أسير من الرجال والنساء والصبيان.

ومع انهيار الدولة الطولونية، جرى نزاع (٢٨٤هـ) بين راغب -مولى المعتضد- وبين كل من أحمد بن طوغان ودميانة -التابعين لهارون بن خمارويه، واندلعت فتنة في طرسوس ثم انتهت لصالح الجانب القوي، وهو راغب مولى المعتضد، وبطبيعة الحال فإن تأثير ضعف الطولونيين كان واضحا في طرسوس التي هي على أطراف الدولة، فرغب أهلها في أن تكون تابعة للخلافة فطردوا عنها الوالي التابع للطولونيين، وذهب وفد منهم إلى المعتضد لتجتمع له القيادة العسكرية (القائد راغب) والمدنية (الوالي) فوَلَّى عليهم المعتضدُ ابنَ الإخشيد[1].

وأتى هذا الوضع بثماره على ثغر الجهاد، إذ بدأ راغب في فتح بعض المدن، ففتح «قرة» (رجب ٢٨٤هـ) ونجح في شن غزوة كبيرة على الروم (٢٨٥هـ) ففتح كثيرا من الحصون وأسر كثيرا من الروم، وعاد ظافرا سالما[2]، كما غزا ابن الأخشيد بأهل طرسوس غزوة أخرى

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦١٩، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٩٠.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٢٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٩٤، ٣٩٥.

«ففتح الله على يديه وبلغ اسكندرونة»[١].

لكنه وضع لم يدَم إلا قليلا، إذ توفي ابن الإخشيد والي طرسوس في العام التالي (٢٨٦هـ)، وفي ذات الوقت غضب المعتضد على راغب ونائبه وقبض عليهما، وصادر أموالهما[٢]، وشن الروم هجوما كبيرا على أنحاء طرسوس ولم يكن أبو ثابت –الوالي بعد ابن الإخشيد– على قدر كفاءته فلقي هزيمة سيئة ووقع في أسر الروم (ربيع الآخر ٢٨٧هـ)، وولَّى أهل طرسوس واليا عليهم هو ابن الأعرابي.

ثم زاد الوضع سوءا حين دخل بعض أعيان طرسوس على خط النزاع بين وصيف –مولي ابن أبي الساج– والمعتضد، وسنأتي لذكر ذلك في استعراضنا لحركات التمرد، وحين انتصر المعتضد على وصيف قَبَضَ على هؤلاء الأعيان الذين انحازوا إلى وصيف، وتدخل أحد القادة[٣] بغرض تصفية حسابات قديمة مع أهل طرسوس، فأشار على المعتضد بإحراق مراكبهم، وكانت هذه المراكب قد أنفق عليها الكثير من الأموال ومما يستعين بها المسلمون في حروب الروم في البحر، وانخدع المعتضد بهذا فأمر بإحراقها (٢٨٧هـ)، وكان لهذا أثر سيئ على قوة المسلمين أمام الروم «وكسر ذلك في أعضادهم وقوي به الروم وأمنوا أن يغزوا في البحر»[٤]، وكان من آثاره حملة رومية قوية ستأتي بعد أربع سنوات[٥].

وفي ظل كل هذه الاختلالات في طرسوس هجم الروم (٢٨٨هـ) بجيش ضخم على أنحاء «الرقة»، وكان الهجوم بريا وبحريا، فأوقعوا بالمسلمين هزيمة كبيرة قتلوا فيها كثيرا وأسروا نحوا من خمسة عشر ألفًا من الذرية[٦].

وتلك عاقبة التفرق!!

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٩٥.

(٢) ولا تفصح المصادر التي بين أيدينا عن سبب هذا.

(٣) هذا القائد اسمه «دميانة» أو «دميان الصوري»، وكان نائبا لأحمد بن طوغان أمير طرسوس من جهة الطولونيين، وانتهى نزاعه مع راغب –مولى المعتضد– إلى الهزيمة، وقد انحاز أهل طرسوس إلى أن تكون مدينتهم تابعة للخلافة لا للطولونيين، مما أضر بنفوذه وموقعه، ولا شك أنه جرت عداوات شديدة بينه وبين أهل طرسوس في هذه الأثناء.

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٣٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٠٠.

(٥) د. عمر عبد السلام تدمري: لبنان من قيام الدولة العباسية وحتى سقوط الدولة الإخشيدية ص١٠٠.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٩٦.



أحوال المشرق الإسلامي

جرى الحال في المشرق بحيث انتهى إلى ثلاث قُوى: عمرو بن الليث زعيم الصفاريين يتولى سجستان وخراسان، وإسماعيل بن أحمد زعيم السامانيين يحكم بلاد ما وراء النهر بعد وفاة أخيه نصر، ومحمد بن زيد العلوي يحكم الدولة الزيدية في طبرستان خلفا لأخيه الذي أسسها الحسن بن زيد!

فأما عمرو بن الليث فقد كرر سيرة خمارويه بن أحمد بن طولون وأحب أن يفتح صفحة جديدة مع الخلافة فأرسل إلى المعتضد الهدايا الفاخرة ليقره على إمارة خراسان، فقبل ذلك المعتضد، وتفرغ عمرو بن الليث لمواجهة القادة المحليين الذين تمردوا على حكمه(١) كرافع بن هرثمة وغيره.

وأما السامانيون فعلاقتهم مع الخلافة حسنة وقوية، وهم يسوسون بلاد ما وراء النهر، ويوالون الخلافة، ويمثلون خط دفاع متأخرًا إذا لزم الأمر وقد واجهوا قوة الصفاريين من قبل، وأكثر من هذا فإنهم يفتحون البلاد التي تليهم من أراضي القبائل التركية وينشرون الإسلام فيها، وقد حقق إسماعيل بن أحمد الساماني في (٢٨٠هـ) نصرا كبيرا فتح به عاصمة الترك وأسر ملكهم وزوجته وأباه وحوالي عشرة آلاف منهم، وغنم غنائم هائلة.

وأما الزيديون فهم مستقرون في طبرستان ومنطقة الجبال، لا يكفون عن مناوشة الخلافة ومحاولة السيطرة على المدن الهامة كالري وجرجان وغيرها، وكل هذا راجع لظروف اللحظة وانشغال الخلافة أو الصفاريين في أمر آخر.

وقد ولى المعتضد (٢٨١هـ) ابنه عليًّا الإشراف على مناطق الجبل والري وقزوين وأذربيجان، كما جعل عمر بن عبد العزيز بن أبي دلف واليا على أصفهان ونهاوند والكرج.

يبدأ الاشتباك منذ أن سيطر رافع بن هرثمة على خراسان وما حولها، فقد آلت إليه قيادة

---

(١) من الجدير بالذكر هنا أن عمرو بن الليث كان من أهل التخطيط البعيد، ولم تشغله حروبه مع الخلافة عن النظر في أمر المتمردين عليه، يُروى أنه كان يجمع كثيرا من الجِرب (الأجولة) دون أن يعرف أحد ما الهدف، ثم إنه في مواجهة بعض المتمردين عليه ملأ هذه الجرب بالأتربة والرمال والحجارة فجعل منها أنضادًا وفرشها على طريق وعر عَبَرَ عليه الجيش ففاجأ أولئك المتمردين الذين لم يتوقعوا إمكانية خوض هذا الطريق فأوقع بهم هزيمة بالغة. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٠٣.

مجموعة من المتمردين على حكم الصفاريين بعد وفاة زعيمهم السابق أحمد الخجستاني، وكانت رغبة الخلافة تلتقي مع حركات التمرد ضد الصفاريين من أيام يعقوب، فكان رافع بن هرثمة ممن دعمتهم الخلافة وأقرته على خراسان، ومن جانبه توسع هو أيضا في الأراضي الخاضعة للدولة الزيدية في طبرستان، ثم ترسخت سلطته حتى سيطر على مدن أخرى مثل الري وجرجان، وبلغ من النفوذ أن رفض تنفيذ قرار الموفق بالتخلي عن بعض المدن فاستعدى عليه الخلافة أيضا، فأرسلت الخلافة إلى أحد الولاة المحليين وهو عبد العزيز بن أبي دلف بمحاربة رافع وإخراجه من الري، وأرسلت إلى عمرو بن الليث –وكانت علاقاته تحسنت مع الخلافة– بولاية خراسان (٢٨٠هـ)، وهو ما يعني فعليا أن يحارب رافع بن هرثمة[١].

حاول رافع أن يتفرغ لحرب عمرو بن الليث، فانسحب من الأراضي التابعة للزيديين في طبرستان وأقام صلحا معهم بل واستطاع أن يأخذ من محمد بن زيد التزاما بأن يساعده في حرب عمرو بن الليث، فوعده محمد بذلك. غير أن عمرو بن الليث علم بهذا الاتفاق وراسل محمد بن زيد ليسعى في إفساد هذا الاتفاق فذكره بألا يطمئن لرافع ويذكره بغدره وكذبه، وأنه إن انتصر فسيعود لغزو أراضيه، وقد نجح عمرو بالفعل في تحييد محمد بن زيد من المعركة، رغم أن رافع بن هرثمة أعلن ولاءه لمحمد بن زيد العلوي وخطب له على المنابر (٢٨٣هـ)، فلما وقعت الحرب امتنع محمد بن زيد عن إرسال أي دعم، واستطاع عمرو بن الليث إيقاع الهزيمة برافع بن هرثمة، وقُتِل رافع (٧ شوال ٢٨٣هـ)، وأُرسل رأسه إلى الخليفة في بغداد، وصفا له أمر خراسان[٢].

لم يكتف عمرو بالسيطرة على خراسان، ولم يرتح لوجود قوة كبيرة في ظهره كالسامانيين، وأراد أن يعود الأمر كسابق عهده قديما حين كانت بلاد ما وراء النهر تابعة لإقليم خراسان، وواليها يعينه الوالي في خراسان، فأرسل الهدايا والأموال التي بلغت أربعة ملايين درهم بخلاف الدواب والسلاح والسروج (٨ جمادى الآخرة ٢٨٦هـ)، وطلب أن تشمل ولايته بلاد ما وراء النهر.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٠٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٧١، ٣٧٢.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦١٤، ٦١٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٧١، ٣٧٢.



أجاب المعتضد طلبه بالموافقة، ويذكر المؤرخون أنه بعث في ذات التوقيت برسالة لإسماعيل بن أحمد الساماني يثبته فيها على ولاية ما وراء النهر أيضا ويحرضه على عمرو بن الليث، فحين أرسل عمرو إلى إسماعيل بالخضوع له رد إسماعيل بقوله: «إنك قد وُلِّيت دنيا عريضة، فاقتنع بها عما في يدي من هذه البلاد». ورفض عمرو بطبيعة الحال، فاندلعت بينهم حربين؛ الأولى قادها محمد بن بشير وهو الرجل الثاني والمقرب من عمرو بن الليث ولكنه تلقى هزيمة هائلة على يد إسماعيل الساماني وأسر فيها كثير من قادته ورجاله، وقد أكرم إسماعيل الأسرى وأنعم عليهم بإطلاقهم، والثانية خرج فيها عمرو بن الليث بنفسه وكان الاشتباك عند بلخ وهُزِم فيها عمرو بن الليث هزيمة عجيبة، إذ تتفق الروايات العربية وبعض الروايات الفارسية[١] أن فرس عمرو بن الليث جمح به فأوقعه أسيرا ففر باقي الجيش، فأُسِر وحده ونجا كل الجيش، وقد أكرم إسماعيل الساماني إساره ثم جاءته رسالة الخليفة بأن يستولى على أمواله وأملاكه وأن يرسل به إلى بغداد، وهناك أودع السجن[٢]!

وهكذا أفنى الطمع مُلْك عمرو بن الليث، وصار بنفسه إلى الهزيمة والسجن، وفتح على نفسه جبهة ما كان أغناه عنها، فأهلكته.. وكان درسا وموعظة للملوك!

كانت سياسة الصفاريين جامحة، لا تقف أطماعهم عند حد، قضوا سنين حكمهم في الغزو وفتح البلاد، وإذا استولوا على بلد ما لا ينتظرون لإقرار الأمور فيها، إنما يواصلون الفتح والغزو، ومن ثم أنهكوا قوى جنودهم[٣].

وبعد انتصار الساماني على الصفار ظن محمد بن زيد العلوي أن إسماعيل الساماني سيكتفي ببلاد ما وراء النهر ولن يفكر في حكم خراسان، فانطلق يريد أن يوسع ملكه ويرث أملاك الصفاريين التي خلت بنهاية عمرو بن الليث، لكن إسماعيل كان قد سبق إلى خراسان

(١) ولا يصدق بعض المؤرخين مثل هذه الرواية، ولديهم الحق بلا شك، فالروايات الغريبة مثار شك دائما وغرابتها عموما تكون سر انتشارها، وأورد د. فتحي أبو سيف بعض المصادر الفارسية التي تحدثت عن قتال شديد وقع بين الجيشين مثل تاريخ سيستان وتاريخ بخارى وتاريخ محمدي وآداب الحرب والشجاعة.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٣٢، ونظام الملك: سياست نامة ص٥٤، ٥٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٠١، ٤٠٢.

(٣) د. عصام عبد الرؤوف الفقي: الدول المستقلة في المشرق ص٣٩.

ومعه الشرعية من الخلافة العباسية، وكتب إلى محمد بن زيد العلوي يهدده ألا يحاول الاستيلاء على خراسان، لكن محمدا ظن أنه بإمكانه الاستيلاء على خراسان وأن إسماعيل لا يستطيع الاحتفاظ بخراسان مع بلاد ما وراء النهر، فوقعت بينهما حرب هُزِم فيها محمد بن زيد العلوي وأصيب فمات بعد أيام، وأُسِر ولده زيد(١)، وتكررت في ذات السنة قصة عمرو بن الليث وأفنى الطمع دولة محمد ابن زيد العلوي.. ومهما كثرت دروس المُلْك ومواعظ الملوك، فإن الملوك كأنهم لا يسمعون ولا يعقلون!

وتورد بعض الروايات أن المعتضد رأى في منامه علي بن أبي طالب يوصيه بذريته، فلهذا لم يتعرض للزيديين بسوء(٢).. لكن الزيديين أوقعوه بأنفسهم!!

وهكذا صار السامانيون سادة خراسان وما وراء النهر، وعادت حدود الزيديين في طبرستان تنكمش وتزوي، وانتهت دولة الصفاريين إلى الأبد!

وباستيلاء إسماعيل الساماني على أملاك الصفاريين ثم الزيديين يكون قد حقق معجزة تاريخية غير مسبوقة في حكم أجداده الأكاسرة، يقول الاصطخري: «بلغ من سلطانه وتمكن أمره أن أزال ما كان استصعب على المعتضد - في شهامته وصولته وبأسه - من ملك عمرو ابن الليث، وتفريق جمعه حين ملك خراسان كلها وما وراء النهر وجرجان وطبرستان وقومس والري وقزوين وابهر وزنجان، وهذه مملكة ما علمت أن الأكاسرة جمعتها لرجل واحد، وقمع مع هذه المملكة الأتراك وذللهم، حتى بلغت صولته وهيبته حدود الصين، وهابته ملوك الترك حتى صار مما يلي مملكة الإسلام من بلدان الأتراك من الأمن مثل دار الإسلام»(٣).

حركات التمرد

بخلاف ما جرى في المشرق مما ذكرناه آنفا، فإن حركات التمرد على المعتضد كانت محصورة جغرافيا في العراق والجزيرة الفراتية، وكان القائمون بها ثلاثة أقسام: الأعراب، وقادة محليون ذوو طموح، والخوارج، بالإضافة إلى حركة القرامطة التي أفردنا لها مبحثا

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٣٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٠٣، ٤٠٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٨٢.
(٣) الاصطخري: المسالك والممالك ص١٤٣.

مستقلا لخطورتها ولأنها استمرت إلى ما بعد المعتضد وسيكون لها حديث طويل.

وفي مواجهة المعتضد لحركات التمرد نجده في غاية القسوة على من وقع في يده من المتمردين، وهو المعروف بالرفق والرحمة بالرعية، فلم يصل إلى يديه متمرد على حكمه إلا قتله بقسوة تجعل منه عبرة لمن خلفه، ولا حاجة لأن نشدد على أن الإسلام نهى عن التعذيب والتمثيل، وأن المعتضد خاطئ في هذا، ولكنه الخطأ الذي قد يُقدَّر ويُفسَّر ولا يُبَرَّر!

١) تمردات العراق

نما إلى علم المعتضد أن محمد بن الحسين الملقب بـ«شُمَيْلة» -وهو من فلول صاحب الزنج، ممن انحازوا إلى الموفق بالأمان أثناء المعارك- يؤسس لدعوة جديدة تنادي بعبد الله بن المهتدي العباسي، واستطاع تكوين مجموعات تابعة له في الجيش، فاعتقله المعتضد وحاول معرفة صاحب الدعوة إلا أن شميلة رفض تماما وقال: «لو كان الرجل تحت قدميَّ ما رفعتهما عنه»، وصمد وثبت أمام التعذيب حتى قُتل وصلب (٧ المحرم ٢٨٠هـ)، ثم ثبتت براءة عبد الله بن المهتدي فأفرج عنه المعتضد.

وقد بدأت تمردات الأعراب في أنحاء العراق بهجوم قوي على سامراء قتلوا فيه واليها ابن سيما (٢٨١هـ).

وهاجم صالح بن مدرك الطائي في طائفة من قومه قبيلة طيء قافلة للحجاج (المحرم ٢٨٥هـ) ولم يستطع أميرها صد هجومهم فنهبوا أموالها وأسروا ما استطاعوا من النساء والجواري والمماليك، فكانت حصيلة ما نهبوه مليوني دينار[١].

وعاث أعراب بني شيبان فسادا في نواحي الأنبار فهاجموا القرى وقتلوا من استطاعوا من الناس ونهبوا الأموال والمواشي (٢٨٦هـ)، وكانوا من الكثرة بحيث عجز الوالي عن مقاومتهم وكتب إلى المعتضد ليرسل إليه بمدد، لكن الأعراب استطاعوا هزيمة هذا المدد أيضا، فأرسل المعتضد جيشا آخر أكبر منه فهربوا منه إلى ناحية عين التمر وهناك كرروا ما فعلوه في الأنبار، فأرسل إليهم المعتضد جيشا آخر إلى عين التمر، فهربوا منه أيضا نحو الصحراء ثم إلى الشام[٢].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٢٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٩٤.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٣٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٩٧، ٣٩٨.

وفي العام التالي (٢٨٧هـ)، وبعد عامين من الهجوم الأول، قادت قبيلة طيء جمعا من الأعراب وهاجمت قافلة الحجاج طامعة فيما يبدو في مليوني دينار آخرين، لكن قافلة الحج كانت على استعداد وحرص فجرى قتال دامَ يومين (٢٦، ٢٧ ذي الحجة) فهُزِم الأعراب وقُتِل منهم كثير[١].

٢) تمردات الجزيرة الفراتية

منذ بداية عهد المعتضد استطاع أحمد بن عيسى بن الشيخ الاستيلاء على قلعة ماردين التابعة للموصل (٢٧٩هـ)، وهي القلعة الشهيرة الكبيرة التي وصفها القزويني بقوله: «ليس على وجه الأرض قلعة أحسن منها ولا أحكم ولا أعظم»[٢]، وكانت في حكم أمير الموصل إسحاق بن كنداجيق.

غير أن هذا لم يكن شيئا كبيرا بالنسبة إلى اضطراب أحوال الموصل بأثر من الأعراب، لا سيما بني شيبان، وكانت هجمات الأعراب –كما ذكرنا سابقا– قد عانت منها الخلافة في سائر أنحائها وفي الموصل على وجه الخصوص، لذا خرج المعتضد لقتالهم بجيش كبير (٢٨٠هـ)، فأوقع ببعض الأعراب مقتلة عظيمة حتى عجز الجنود عن حمل الغنائم، فدخل الرعب قلوب الجميع وجمع بنو شيبان أموالهم وبذلوها إلى المعتضد سائلين إياه العفو والصفح ومتعهدين بعدم الإفساد في الأرض، فقبل ذلك منهم وعاد إلى بغداد.

وكان هذا النصر الكبير رسالة واضحة لكل متمرد في هذه المنطقة، لذا فما إن عاد المعتضد إلى بغداد حتى راسل أحمد بن عيسى بن الشيخ وطالبه بإعادة الأموال التي تخص إسحاق بن كنداجيق في قلعة ماردين، وهو ما يعني فعليا إقراره على ما أخذ، فأرسل إليه أحمد –وقد فهم الرسالة واستوعب الموقف– الأموال وكثيرا من الهدايا الفاخرة تعبيرا عن الولاء للخلافة[٣]. وظل واليا عليها حتى توفي (٢٨٥هـ) وتولاها ابنه من بعده، ويبدو أن المعتضد وجد في هذا التوريث بذرة دولة مستقلة فلم يقبل بولاية محمد بن أحمد بن عيسى، وخرج بجيش (ذي الحجة ٢٨٥هـ) لحصار آمد، وامتد الحصار إلى (ربيع الآخر ٢٨٦هـ) ثم استسلم

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٣١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٠٦.
(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٥٩.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٠٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٧٤.

محمد طالبا الأمان، فأمنه وأكرمه، ثم هدم سور آمد لكي لا تُغري أحدا بعده بالاعتصام بها[١].

وأما على جبهة الخوارج فقد وقع قتال بين الخوارج بعضهم البعض (٢٨٠هـ)، إذ شَكَّل محمد بن عبادة مجموعات تابعة له، وأغار على مناطق في نواحي الموصل وأخذ منها الزكاة والخراج خارجا عن طاعة كبير الخوارج هناك هارون البجلي الذي لم يسكت بطبيعة الحال فحاربه حتى انتصر عليه، فانسحب محمد بن عبادة إلى آمد، وهناك وقع في أسر أحمد بن عيسى الذي أرسله إلى المعتضد تأكيدا على الولاء، فقُتِل بقسوة، إذ سُلِخ من جلده نكاية وعبرة.

لكن الأمر لم يستقر، إذ وصل إلى المعتضد نبأ تحالف جديد بين حمدان بن حمدون، وهو أحد الزعماء الذين كان لهم سابق اتفاق ومعاونة مع الخوارج أيام مساور بن عبد الحميد، وصل نبأ عودة التحالف بين حمدان وهارون البجلي، فخرج المعتضد في جيش إلى الموصل، فتحالف الأعراب والأكراد وتعاهدوا على مواجهة المعتضد وقتاله، فاستطاعت فرقة من الفرسان في جيش المعتضد أن توقع بهم هزيمة قوية عند نهر الزاب حتى أن من لم يُقتل كان في عداد الغرقى، ثم توجه بجيشه إلى قلعة ماردين حيث يتحصن حمدان بن حمدون فحاصره ففتح حمدان القلعة للمعتضد رهبة وهيبة منه (٢٨١هـ)، وفر هو هاربا، واستسلم ابنه الحسين بن حمدان[٢]، ثم طارد جيش الموفق حمدان بن حمدون حتى لم يجد مهربا فسَلَّم نفسه إلى المعتضد فحبسه (المحرم ٢٨٢هـ)[٣].

وبقي في الموصل جيش كبير للخلافة لمواجهة الخوارج، وقد هاجم هارون البجلي هذا الجيش ولم تؤثر فيه رسالة تهديد من الحسن القشوري والي الخراج بالموصل بل رد عليها بأقوى منها، فولَّى المعتضد القيادة العامة للموصل وأنحائها إلى الحسين بن علي وأمر ولاة المدن والأنحاء بالسمع له والطاعة والحشد في مقاتلة الخوارج، وانتظر الحسين حتى تهيأ

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٢٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٩٥.

(٢) وقد بذل الحسين بن حمدان مجهودا عظيما مع جيش الخلافة، وصار من رجالها المخلصين، وقاد معارك قوية ضد الخارجين عليها ثم القرامطة والروم فيما بعد، وقد أكرمه المعتضد فأطلق والده من الحبس كرامة له بعد إحدى المعارك.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٠٨، ٦٠٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٧٧، ٢٧٨.

الوقت ثم خاض حربا شرسة مع هارون البجلي وانتصر عليه بعد جهد وثبات وصمود كبير (٢٨٢هـ)، وكانت الهزيمة حاسمة أنهت أمر هارون وقوته، واستسلم غالب أصحابه، وهرب هارون إلى الصحراء، ثم طاردته فرقة بقيادة الحسين بن حمدان بن حمدون فظفرت به أسيرا بعد عناء، فأُرْسِل إلى بغداد وهناك صُلِب (ربيع الأول ٢٨٣هـ) بعد أن طيف به في بغداد ليكون عظة ومثلا[١].

حركة القرامطة

أُلقي القبض في الكوفة على مجموعة من القرامطة، فأرسلهم والي الكوفة إلى بغداد (٢٢ شعبان ٢٨٤هـ)، وهناك وتحت الضرب أقروا بأن رئيسهم هو أبو هاشم بن صدقة الكاتب فقُبِض عليه وحُبِس[٢]، غير أن هذا كان مؤشرا لمدى الاختراق الذي وصلت إليه حركة القرامطة.

وقد عمل القرامطة سنينا في السر، ودخلوا إلى الناس من جهة التشيع، وفرض الدعاة على من يستجيب لهم مبلغا من المال، فإن اطمأنوا إلى إخلاصهم كان حقا على المرء أن يدفع خمس ماله للإمام، ويظهر في تلك الأثناء رجل يُدعى يحيى بن المهدي، فقد كان يزعم أنه رسول من عند المهدي المنتظر ويبشر الناس بقرب ظهوره ويدعوهم إلى أن يكونوا معه، وكان نشاطه في منطقة القطيف في الجزيرة العربية، ويتردد على قبائل قيس، يبدأ بالتأثير على زعماء العشائر والقبائل، واستطاع أن يأخذ إلى دعوته زعيما في القطيف يدعى علي بن المعلي بن حمدان الذي قام من ناحيته بجمع الشيعة في مناطق القطيف وما حولها فأدرجهم في هذه الدعوة الجديدة[٣].

كان ممن استجابوا لعلي بن المعلي بن حمدان شخصية خطيرة في ناحية البحرين شرق الجزيرة العربية، رجل يُدعى أبو سعيد الجنابي من قرية جنابة الواقعة على ساحل الخليج العربي، وقد «كان فيلسوفا[٤]» وأبدى من المواهب والاستجابة ما جعله زعيما على ما حوله من المناطق، فكان هو رأس التنظيم الذي يتصل به يحيى بن المهدي. وثمة روايات تذكر أن

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٤، ٣٨٥.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٢٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٩١، ٣٩٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٩٦، ٣٩٧.

(٤) الحمادي: كشف أسرار الباطنية ص٣٨.

أول التحاق لأبي سعيد بالقرامطة إنما كان عن طريق «كلواذي» مسؤول تنظيم القرامطة في اليمن والذي استجاب له أبو سعيد وعمل فترة في منطقة جنوبي إيران حتى انتبهت له السلطة العباسية فصادرت أمواله وفر منها هاربا عائدا إلى «قرمط» في نواحي الكوفة، فوجهه إلى الأحساء في منطقة البحرين.

وضع أبو سعيد نظاما حربيا دقيقا لمشروع دولته استطاع بمقتضاه إعداد جيش قوي من رعاياه، ومن ذلك أنه جمع الأطفال في دور خاصة وعيَّن لهم جماعة تشرف على مصالحهم وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه، وأخذ يدربهم على ركوب الخيل واستخدام الأسلحة الحربية فنشأوا نشأة عسكرية[١].

اندلع أول اصطدام مع السلطة العباسية عن غير قصد (٢٨٦هـ)، ذلك أن الوالي ألقى القبض على يحيى بن المهدي الذي كان ضيفا على أبي سعيد الجنابي، وقد وصل إلى السلطة بلاغ أن أبا سعيد ترك البيت وفيه زوجته مع يحيى بن المهدي وأمرها ألا تمتنع منه إن أرادها لنفسه[٢]، فأُلقِي القبض على يحيى بن المهدي فعوقب بالضرب وحلق الرأس واللحية تشهيرا به، ثم هرب إلى منازل قبائل بني كلاب وعقيل والخريس، فيما هرب أبو سعيد الجنابي إلى أصل موطنه في قرية جنابة، وكان هذا الاصطدام مع السلطة دافعا لهما لكي يبدآ المواجهة بعد أن انكشف أمرهما ولم يعد ممكنا البقاء في الحالة السرية[٣].

جاء اليوم الذي أعد له يحيى بن المهدي عدته فدعا الأعراب الذين استجابوا له وانضمت قواته إلى أبي سعيد الجنابي الذي بدأ في العمل العسكري واتخذ عاصمة له سماها «المؤمنية»[٤] بدلا من مركزه في «هجر»، فسيطر على البحرين بسهولة (٢٨٦هـ) وأشاع فيها القتل لينشر الخوف ويُحكم أمره، ثم هاجم القطيف فأوقع بها مذبحة أخرى (٢٨٦هـ)، وأشاع أن المحطة الثالثة ستكون البصرة، فأرسل والي البصرة محمد بن أحمد الواثقي إلى

---

(١) د. أمينة بيطار: تاريخ العصر العباسي ص٢٥١.

(٢) وهذا الأمر منتشر بين غلاة الشيعة، وهم يبيحون زواج المتعة، وهو كذلك ميراث فارسي قديم يبيح شيوع النساء والزوجات، وقد تلقته كثير من المذاهب الضالة التي تسترت بغطاء الإسلام، فمنحت هذا الحق لذوي الرتبة الأعلى في المقام والمكانة على من تحت ولايتهم من الناس.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٩٦، ٣٩٧.

(٤) هي الآن منطقة الهفوف الواقعة في محافظة الأحساء شرق المملكة السعودية.

المعتضد بهذا الأمر، فرد عليه المعتضد بأن يحصن سور البصرة فأعاد تجديده بأربعة عشر ألف دينار فصار منيعا، وصار البصريون به في مأمن(١).

استمرت إغارات القرامطة في الأنحاء التي سيطروا عليها، وتفاقم أمرهم (ربيع الأول ٢٨٧هـ)، حتى اضطر المعتضد أن يعزل العباس بن عمرو الغنوي عن ولاية فارس ليوليه اليمامة والبحرين ليواجه حركة القرامطة، وأرسل بمراكب إلى البصرة وجهز جيشا مع العباس بن عمرو، غير أن الجيش لقي هزيمة قاسية على يد أبي سعيد الجنابي (أواخر شعبان ٢٨٧هـ)، وأُسِر قائده العباس بن عمرو، وقتل أبو سعيد كل الأسرى أمام عيني قائدهم ثم أطلقه برسالة إلى المعتضد ليثبت له قوته ومنعته، وكان مما زاد في مرارة الهزيمة أن المنسحبين من جيش العباس اتجهوا نحو البصرة فأغار عليهم أعراب من بني أسد فسلبوهم ثم قتلوهم، فانتشر الخوف بين أهل البصرة وفكروا في هجرانها لولا أن منعهم عن ذلك الوالي أحمد الواثقي(٢).

وتقدم القرامطة بعد هذه الهزيمة فاقتربوا فعلا من البصرة (٢٨٨هـ) فاضطرب أمر أهلها وأرادوا الهجرة منها لولا أن منعهم الوالي مرة أخرى(٣).

ولا شك أن أهل البصرة قد عاودتهم ذكريات الزنج قبل ثلاثين سنة، فكانوا أسوأ الناس حالا وخوفا واضطرابا في ذلك الوقت، غير أن القرامطة لم يفكروا جديا في مهاجمة البصرة، ويبدو أن سور البصرة كان من الحصانة بحيث منعهم من هذا. والمهم أن نشاط أبي سعيد الجنابي توقف وسكن وكأنما اختفى وانتهى لبعض سنين ثم سيظهر مرة أخرى فيما بعد.

على أن توقف جبهة أبي سعيد الجنابي لم يعن توقف فساد القرامطة، إذ ظهر نشاطهم وفسادهم في منطقة سواد الكوفة (٢٨٩هـ) حيث هناك مركز الدعوة الذي أسسه «قرمط» وهو المسؤول عن نشاط القرامطة في فارس والعراق والأحساء واليمن، لكن الخلافة لم تسكت على هذا الذي اقترب منها فتتابعت الفرق العسكرية من المعتضد إليهم حتى كاد أن يبيدهم، وأسر بعضا من قادتهم ورؤسائهم كأبي الفوارس الذي أعلن أمام المعتضد أنهم يرون

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٣٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٩٦.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٣١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٠٠، ٤٠١.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٣٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٠٨.

أن بني العباس مغتصبون للخلافة وأنها ليست حقا لهم، فقتله المعتضد بعد تعذيب ليجعله عبرة[١].

وكان ما وقع بالقرامطة من هزائم في منطقة سواد الكوفة عائدا لاختلال خطير أصاب صفوفهم الداخلية؛ ففي ذلك الوقت بدأ يظهر اسم زكرويه في الظهور كمسؤول للتنظيم في منطقة سواد الكوفة ورافق هذا اختفاء ذكر حمدان «قرمط» وصهره «عبدان» وهما اللذان أسسا للدعوة في العراق وإيران وشرق الجزيرة العربية واليمن أيضا، وثمة روايات عن أن «قرمط» اكتشف تغيرا في المبادئ التي يعمل بها مركز الدعوة في سَلَمْية، فأرسل صهره عبدان ليستطلع الأمر، ففوجئ عبدان بأن أبناء عبد الله بن ميمون القداح تركوا الدعوة لإمامة محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق وادعوا الإمامة لأبيهم وأن الإمام بعده هو الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، فاكتشف قرمط أنها خدعة من القداحيين الذين استخدموا اسم محمد بن إسماعيل بن جعفر للإمامة وسيلة لجمع الناس، فتوقفت دعوة القرامطة في مناطق مسؤولية «قرمط» في الكوفة وأنحائها، لكن ظهور زكرويه واختفاءهما يحمل على الظن بأن زكرويه كان مبعوث رأس التنظيم في سلمية لتولي أمر أهل الدعوة في مناطق «قرمط» وربما اغتياله أيضا هو وصهره حمدان، ولم يكن زكرويه أقل منهما موهبة ونشاطا.

وحين قُتِل عبدان، مُنَظِّر القرامطة، ثار الأتباع في السواد لأن أكثرهم من أتباعه وانضم إلى الدعوة على يديه، فاختفى زكرويه لفترة أيضا، ويرى بعض المؤرخين أن اتفاق زكرويه مع قيادة التنظيم في «سَلَمْية» كان تعبيرا عن محاولة كل منهما استغلال الآخر لمصلحته، فقيادة التنظيم تريد أن تحتفظ بمن استجاب للدعوة من أهل العراق من خلال قرمط وعبدان وكذلك الفرس الذين يتحدون مع زكرويه في الأصل الفارسي، فيما حاول زكرويه فتح الطريق بهذه العلاقة نحو الشام الذي يبدو أسهل من الحال في العراق مع ضعف الدولة الطولونية، ولكي يبقى على رأس التنظيم الإقليمي في العراق أيضا[٢].

هذا الاختلال في صفوف القرامطة دعا زكرويه إلى فتح جبهة أخرى للاستكثار من الأنصار في الشام (٢٨٩هـ) لتخفيف الضغط على القرامطة الذين يوشك المعتضد على

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٣٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤١٠.
(٢) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٦/ ٧٩، ٨٠.

إفنائهم في سواد الكوفة، فدعا قبائل أسد وطيء وتميم وغيرهم إلى مذهبهم على وفق التدرج الذي أشرنا إليه سابقا، وأرسل ابنه يحيى بن زكرويه إلى عشائر قبيلة كلب التي تسكن صحراء السماوة بين العراق والشام، واستطاع يحيى أن يجتذب إليه بعضا منهم حيث ادعى أنه محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وادعى أن مائة ألف قد اتبعوه، وخدعهم ببعض الخدع والحيل كأنها معجزات وكرامات.

وقد تناهت مسامع هذه الحركة إلى الخلافة، فأرسل المعتضد جيشا كبيرا ولكنه هُزِم، وتقدموا نحو دمشق، وحرقوا جامع الرصافة ونهبوا كل ما مروا به من القرى، ثم هاجموا دمشق (٢٨٩هـ) وكانت تحت ولاية طغج بن جف والتابعة لهارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، وانتصروا على قواته في أكثر من موقعة، ونهبوا من أموالها ما استطاعوا.

وبدأت فصول قصة جديدة للقرامطة في أرض الشام التي ستعاني منهم كثيرا، فقد كان ضعف الدولة الطولونية في ذلك الوقت يلقي على الشام بمصيبتين معا: الضعف الذي يلحقها جراء ضعف الدولة، وسهولة اجتياحها من القرامطة دون أن تجد مدافعا أو نصيرا.

وفاة المعتضد

في ظل هذه الأحوال العصيبة توفي المعتضد بعد اشتداد المرض عليه (٢٢ ربيع الأول ٢٨٩هـ)، وهو في التاسعة والأربعين من عمره، بعد خلافة دامت تسع سنين وتسعة أشهر، وأنشد حين موته أبياتا مؤثرة يقول فيها:

تمتع من الدنيا فإنك لا تبقى ... وخذ صفوها ما إن صفت ودع

ولا تأمنن الدهر إني ائتمنته ... فلم يبق لي حالا ولم يرع لي حقا

قتلت صناديد الرجال فلم أدع ... عدوا ولم أمهل على خلق خلقا

وأخليت دار الملك من كل نازع ... فشردتهم غربا ومزقتهم شرقا

فلما بلغت النجم عزا ورفعة ... وصارت رقاب الخلق لي أجمع رقا

رماني الردى سهما فأخمد جمرتي ... فها أنا ذا في حفرتي عاجلا ألقى

ولم يغن عني ما جمعت ولم أجد ... لدى ملك إلا حباني حبها رفقا

وأفسدت دنياي وديني سفاهة ... فمن ذا الذي مثلي بمصرعه أشقى

فيا ليت شعري بعد موتي هل أصر إلى رحمة الله أم في ناره أُلْقَى

وكان رجال الدولة حين شعروا بقرب وفاة المعتضد أكدوا البيعة لابنه علي من بعده، فانتقلت الخلافة إليه في هدوء ودون اضطراب.

قال ابن تغري بردي: «هو آخر خليفة عقد ناموس الخلافة، ثم من بعده أخذ أمر الخلفاء في إدبار إلى يومنا هذا»(١).

وقفة مع المعتضد

كان المعتضد من خيار الخلفاء العباسيين، كان رجل حرب ورجل دولة، وقد وجد الشعراء والأدباء في كنيته «أبي العباس» مع قوته وهيبته ما دعاهم للمقارنة بينه وبين أبي العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية، فوصف بأبي العباس الثاني لتجديده ملك العباسيين.

١) الوقوف عند حدود الله

قال ابن كثير: ومن الناس من يجعله من الخلفاء الراشدين المذكورين في الحديث، حديث جابر بن سمرة(٢) فالله أعلم(٣).

وقد كان وقَّافا عند حدود الله، فعندما دخل عليه الفقيه أبو الوليد حسان بن محمد الفقيه رأى حوله من الخدم غلمانا من الروم حسان الوجوه فكأنه اشتبه على المعتضد أنه يقع في الحرام معهم، ففهم المعتضد هذا الظن فخلا به وقال: أيها القاضي والله ما حللت

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/ ١٢٨، وقوله إلى أيامنا هذه: أي في القرن التاسع الهجري، فابن تغري بردي توفي (٨٧٤هـ).

(٢) الحديث: عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعته يقول: «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة» قال: ثم تكلم بكلام خفي علي قال فقلت لأبي: ما قال ؟ قال: «كلهم من قريش». مسلم (١٨٢١).

ومن تفسيرات العلماء لهذا الحديث أن الخلافة تبدأ في الانهيار والضعف بعد أن يجتمع لها اثنا عشر خليفة قويًا، ويدعم هذا التفسير رواية أخرى للحديث تقول: «لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش»، وقيل: المراد هم الخلفاء العادلون المستحقون للخلافة، وقيل ويحتمل أن المراد من يعز الإسلام في زمنه ويجتمع المسلمون عليه. فهذه هي التفسيرات التي اعتمد عليها من أدخل المعتضد في هذا الحديث. انظر: صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٠٦.

سراويلي على حرام قط[1].

ومن ذلك أن أحد علماء السلاطين جمع له كتابا فيه رُخَص العلماء، بحيث جمع له في كل أمر قول من أباحه، فاستشار فيه القاضي إسماعيل بن إسحاق الذي بُهِت لما فيه وقال: «يا أمير المؤمنين إنما جمع هذا زنديق.

فقال: كيف ؟ فقلت: إن من أباح المتعة لم يبح الغناء، ومن أباح الغناء لم يبح إضافته إلى آلات اللهو، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه. فأمر بتحريق ذلك الكتاب»[2].

٢) الفراسة

وقد أورثته هذه التقوى فراسة قوية وأمورا تعد من الكرامات، من هذا أنه استيقظ مفزوعا فأمر بالقبض على أول مركب فارغة تعبر نهر دجلة وأن يأتوه بصاحبها، ففعلوا، فلما أدخلوه عليه «فحين رآه الملاح كاد يتلف، فصاح عليه صيحة واحدة عظيمة كادت روحه تخرج معها، فقال: أصدقني يا ملعون عن قصتك مع المرأة التي قتلتها وسلبتها اليوم وإلا ضربت عنقك. فتلعثم، وَقَالَ: نعم كنت اليوم سحرا في مشرعتي الفلانية، فنزلت امرأة لم أر مثلها، وعليها ثياب فاخرة، وحلى كثير وجوهر، فطمعت فيها، واحتلت عليها حتى سددت فاها وغرقتها، وأخذت جميع ما كان عليها، ولم أجترئ على حمل سلبها إلى بيتي لئلا يفشو الخبر عليَّ، فعملت على الهرب، وانحدرت الساعة لأمضي إلى واسط، فعوقني هؤلاء الخدم وحملوني.

فقال: وأين الحلي والسلب.

فقال: في صدر السفينة تحت البواري.

فقال المعتضد للخدم: جيئوني به، فمضوا واحضروه وَقَالَ: خذوا الملاح فغرقوه! ففعلوا ثم أمر أن ينادى ببغداد كلها على امرأة خرجت إلى المشرعة الفلانية سحرا وعليها ثياب وحلي يحضر من يعرفها، ويعطي صفة ما كان عليها ويأخذه، فقد تلفت المرأة، فحضر في اليوم الثاني أو الثالث أهل المرأة فأعطوه صفة ما كان عليها، فسلم ذلك إليهم. قَالَ: فقلنا: يا مولاي،

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٣٠٨، ٣٠٩.

(٢) البيهقي: السنن الكبرى ١٠/ ٢١١.

أُوحي إليك؟! فقال: رأيت في منامي كأن شيخا أبيض الرأس واللحية والثياب، وهو ينادي: يا أَحْمَد! خذ أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه، وقرره خبر المرأة التي قتلها اليوم وسلبها، وأقم عليه الحد فكان ما شهدتم»[1].

ومن فراسته ما توقعه من انهيار أمر الخلافة إذا ما وصلت إلى ابنه المقتدر، وقد صدقت فراسته بالفعل، فقد أورد الخطيب البغدادي عن صافي الحرمي خادم المعتضد قال:

«مشيت يوما بين يدي المعتضد وهو يريد دور الحُرَم، فلما بلغ إلى باب شغب أم المقتدر وقف يسمع ويطلع من خلل في الستر، فإذا هو بالمقتدر -وله إذ ذاك خمس سنين أو نحوها- وهو جالس وحواليه مقدار عشر وصائف من أقرانه في السن، وبين يديه طبق فضة فيه عنقود عنب في وقت فيه العنب عزيز جدا، والصبي يأكل عنبة واحدة ثم يطعم الجماعة عنبة عنبة على الدور حتى إذا بلغ الدور إليه أكل واحدة مثل ما أكلوا حتى أفنى العنقود، والمعتضد يتميز غيظا.

قال (صافي الحرمي): فرجع ولم يدخل الدار ورأيته مهموما.

فقلت: يا مولاي ما سبب ما فعلته وما قد بان عليك؟

فقال: يا صافي والله لولا النار والعار لقتلت هذا الصبي اليوم فإن في قتله صلاحا للأمة.

فقلت: يا مولاي حاشاه أي شيء عمل أعيذك بالله، يا مولاي، العن إبليس.

فقال: ويحك، أنا أبصر بما أقوله، أنا رجل قد سُسْتُ الأمور وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد، ولا بد من موتي، وأعلم أن الناس بعدي لا يختارون غير ولدي، وسيُجْلِسون ابني عليا -يعني المكتفي- وما أظن عمره يطول للعلة التي به، فقال صافي، يعني الخنازير[2] التي كانت في حلقه فيتلف عن قرب ولا يرى الناس إخراجها عن ولدي، ولا يجدون بعده أكبر من جعفر فيجلسونه وهو صبي، وله من الطبع في السخاء هذا الذي قد رأيت من أنه أطعم الصبيان مثل ما أكل وساوى بينه وبينهم في شيء عزيز في العالم، والشح على مثله في طباع الصبيان، فيحتوي عليه النساء لقرب عهده بهن، فيقسم ما جمعته من الأموال كما قسم العنب

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٢/ ٢١٢، ٢١٣.

(٢) داء الخنازير: هو تضخم الغدة الليمفاوية حتى تصير الرقبة متضخمة، فيكون المنظر أشبه بالخنزير.

ويبذر ارتفاع الدنيا، ويخربها، فتضيع الثغور، وتنتشر الأمور، وتخرج الخوارج وتحدث الأسباب التي يكون فيها زوال الملك عن بني العباس أصلا.

فقلت: يا مولاي بل يبقيك الله حتى ينشأ في حياة منك ويصير كهلا في أيامك ويتأدب بآدابك ويتخلق بخلقك ولا يكون هذا الذي ظننت.

فقال: احفظ عني ما أقوله فإنه كما قلت.

قال (صافي الخادم): ومكث يومه مهموما وضرب الدهر ضربته ومات المعتضد وولي المكتفي فلم يطل عمره، ومات وولي المقتدر فكانت الصورة كما قال المعتضد بعينها»[(١)].

***

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٧/ ٢١٦، ٢١٧.





(من ربيع آخر ٢٨٩ هـ حتى ذي القعدة ٢٩٥ هـ)

وهو على بن أحمد المعتضد بن الموفق بن المتوكل، وليس من الخلفاء من اسمه علي سواه بعد علي بن أبي طالب، وليس من الخلفاء من يكنى بأبي محمد سواه بعد الحسن بن علي بن أبي طالب، كان ربعة، جميلا، رقيق الوجه، حَسَن الشعر، وافر اللحية عريضها.

وصلت إليه الخلافة (١٩ ربيع الآخر ٢٨٩هـ) وعمره خمس وعشرون عاما، فقد وُلِد (رجب ٢٦٤هـ) من جارية تركية اسمها جيجك.

***

كان المكتفي بالرقة حين بلغه الخبر بوفاة أبيه، فما إن وصله حتى أخذ البيعة على من عنده من العسكريين، وأرسل إلى نواحي الأعراب التي يُخشى اضطرابها مثل ديار ربيعة ومضر وغيرها في الجزيرة الفراتية، أرسل إليها من يحفظها، وتجهز للرحيل إلى بغداد فوصلها (٨ جمادى الأولى ٢٨٩هـ).

ومن هناك بدأت رحلة خلافة قصيرة كانت فارقة في تاريخ الخلافة العباسية.

أحوال الخلافة

في اليوم الذي وصل فيه المكتفي إلى بغداد، أمر بهدم المطامير (سجون تحت الأرض) التي بناها أبوه، وأمر ببناء جامع في مكانها.

وقد برز بوضوح نفوذ الوزير أبي القاسم بن عبيد الله بن سليمان منذ اليوم الأول في عهد المكتفي، بل نستطيع أن نقول منذ آخر أيام المعتضد، لا سيما أيام مرضه، فمن ذلك: أنه حاول صرف الخلافة عن أبناء المعتضد وحاول أن يستميل بدرا غلام المعتضد وقائد الجيش إلى هذا الأمر إلا أن بدرا رفض هذا تماما ولم يستطع الوزير أن يفعل شيئا. وفي اليوم الأول لقدوم

المكتفي إلى بغداد أمر بالإفراج عن عمرو بن الليث الصفار الذي كان ما زال في السجن فقد كان بينهما ود قديم حين كان المكتفي في الري وكان عمرو يكثر من الإهداء إليه، إلا أن الوزير لما علم بهذا أرسل إلى عمرو من يقتله في سجنه، وقد كان ما أراد الوزير، ولا ندري هل علم المكتفي وسكت؟ أم أنه لم يعلم ووصل إليه الأمر على أنها وفاة طبيعية؟ لا سيما وأنه ثبت الوزير أبي القاسم بن عبيد الله بن سليمان في مكانه، وخَلَع عليه ست خُلَعٍ وقَلَّدَه سيفا تعبيرا وتأكيدا عن رضاه عليه.

كذلك سعى الوزير في الإيقاع بين الخليفة وقائد الجيش بدر، حتى استصدر من الخليفة قرارا يسحب به القادة التابعين لبدر من قيادته، وصادر أمواله ثم احتال الوزير لقتله حتى تم له الأمر بالفعل، وقُتِل بدر غدرا وظلما (٦ رمضان ٢٨٩هـ) في مشهد يعيد إلى الأذهان مؤامرة الفضل بن سهل على هرثمة بن أعين القائد الفذ الذي كان مخلصا للمأمون. وقد أدى هذا لانشقاق فرقة عسكرية بقيادة إسحاق الفرغاني أحد المقربين من بدر.

وقد أراد المكتفي أن ينقل عاصمة الخلافة مرة أخرى إلى سامراء (٢٩٠هـ)، إلا أن الوزير رده عن هذا الرأي.

وفي عهد المكتفي زادت الصراعات والمنافسات بين ذوي النفوذ بالدولة.

وكان الإنجاز السياسي المهم الذي حدث في خلافة المكتفي هو إنهاء الدولة الطولونية وعودة مصر والشام إلى النفوذ المباشر للخلافة العباسية، ولم يكن ذلك لمجرد ضعف الطولونيين أو بقوة ذاتية للخلافة العباسية، بل كان السبب الأهم هو قوة القرامطة الذين أضعفوا الدولة الطولونية في الشام بعد الهزائم المتكررة التي أوقعوها بهم وهجومهم على البلاد والأنحاء واقتحامهم دمشق (٢٨٩هـ)، وحيث انهارت تلك البلاد وضعف سلطان الطولونيين عليها، وحيث لم يكن القرامطة إلا مجموعة من العصابات تشن الحروب الخاطفة، فقد كانت الفرصة قائمة لدى الخلافة العباسية لاستعادة ما تحت نفوذ الطولونيين، وسهل هذا الأمر أكثر حين انحاز بعض أمراء الطولونيين في الشام إلى جانب الخلافة وهي سنة الأنظمة حين تنهار، فيلحق رجالها أنفسهم إما رغبة في النظام الجديد وإما رهبة من البقاء مع الجواد الخاسر، وأحيانا يكون إخلاصا وتغليبا لمصلحة البلاد بإدخالها في سلطان الجانب الأقوى رعاية لها وحماية لأهلها.

عهد المكتفي لمحمد بن سليمان –وكان في وظيفة كاتب الجيش– ومعه مجموعة من قادة الجيش بالمسير إلى الشام ومصر لاسترجاع المناطق التي كانت للطولونيين بعد ما نزل بهم من انهيارات[(١)]، فخرج جيش من عشرة آلاف رجل من بغداد (رجب ٢٩١هـ)، فدخل إلى مصر (٢٩٢هـ) حيث عاصمة الطولونيين، وكذلك أرسل المكتفي دميانة غلام يازمان الخادم –الذي كان واليا على طرسوس من قبل– في فرقة بحرية لتحاصر مداخل النيل من البحر المتوسط فتفرض حصارا بحريا على الطولونيين، وما إن وصل جيش محمد بن سليمان حتى استسلم كثير من القادة والأمراء أصحاب هارون بن خمارويه الذي اضطربت صفوفه واندلعت اشتباكات داخلية بين جنوده وقُتِل فيها، وتولى الأمر بعده عمه شيبان الذي طلب الأمان من محمد بن سليمان الذي دخل مصر بسهولة واستولى على ديار آل طولون وقصورهم، وألقى القبض على مَنْ تبقى منهم، وأمره المكتفي بإرسالهم إلى بغداد لينتهي خطرهم تماما، وبهذا انتهت دولة أحمد بن طولون بعد أربعين سنة من تأسيسها[(٢)].

المشهد في المشرق

بمقتل عمرو بن الليث الصفار انتهت أيام الصفاريين وخطرهم من المشرق الذي صار يتولى أمره الآن السامانيون وكبيرهم إسماعيل الساماني الذي قضى على الصفاريين ثم هزم الزيديين أيضا كما ذكرنا سابقا في عهد المعتضد.

لكن محمد بن هارون الذي تولى أمر طبرستان نائبا عن إسماعيل الساماني استقل بنفسه وتمرد على إسماعيل الساماني، ولعله قَدَّر أنه في حصن ومأمن في طبرستان لا سيما أن إسماعيل الساماني ما زال مقيما فيما وراء النهر حيث النفوذ الأساسي للسامانيين.

ثم زاد في نفوذ محمد بن هارون أن أهل الري راسلوه ليتولى أمرهم بعد أن أساء واليهم التركي واسمه «الدتمش» السيرة فيهم، فسار محمد بن هارون وهزم الدتمش واستولى على الري (رجب ٢٨٩هـ)، وقد كان متوقعا أن يبعث إسماعيل الساماني جيشا من عنده لمواجهة تمرد محمد بن هارون وتوسعه، لكن الخليفة المكتفي سارع بتحفيز إسماعيل الساماني على حرب محمد بن هارون فولاَّه على الري (٢٩٠هـ)، فخرج إسماعيل في جيشه إلى الري فهرب

---

(١) سنأتي لتفصيل المواجهات مع القرامطة فيما بعد، ولكن يهمنا الآن متابعة سياق انتهاء الدولة الطولونية.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٢٣ – ٤٢٥، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ص٥١.

منه محمد بن هارون إلى قزوين ثم عاد إلى طبرستان، فألزم إسماعيل نائبه على جرجان واسمه «بارس الكبير» أن يُحضر محمد بن هارون مهما كلفه الثمن، فاحتال بارس حتى أسره وأرسل به إلى إسماعيل الساماني، وهناك حُبِس وما لبث أن مات بعد شهرين من حبسه (٢٩٠هـ).

كان هذا هو التمرد الوحيد الكبير الذي تم على سلطة إسماعيل الساماني الذي كان رجلا باهرا قويا، حسن السيرة كثير العدل والحلم، وقد صلح به الحال في خراسان كما صلح من قبل في بلاد ما وراء النهر، ولهذا لم يكن المشهد مضطربا في المشرق كما ظل كذلك في السنين الماضية، بل إن الشرق عاد إليه خبر الجهاد على يد السامانيين.

وأول الخبر عن هذا هو ذلك الهجوم الكبير الضخم الذي قاده الأتراك فيما يلي حدود الدولة الإسلامية، إذ اجتمعوا في تحالف ضخم (٢٩١هـ) للهجوم على البلاد الإسلامية الواقعة تحت سلطان السامانيين في بلاد ما وراء النهر، فجهز إسماعيل الساماني جيشا كثيفا، واستعان كذلك بالمتطوعين للجهاد، فباغتوهم بهجوم مفاجئ حققوا به نصرا هائلا كبيرا، وعاد المسلمون سالمين غانمين، ﴿**وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا**﴾.

وبعد أقل من عامين (٢٩٣هـ) كان إسماعيل ينفذ توغلا في أراضي الأتراك فافتتح كثيرا من البلاد ودمر كثيرا من الحصون والمقدرات الحربية لإنهاء أي تهديد عسكري قد يستخدمها لمهاجمة الأرض الإسلامية.

وفي (١٥ صفر ٢٩٥هـ) توفي إسماعيل بن أحمد الساماني، بعد حياة عطاء حافلة في الجهاد والسياسة واستتباب الأمور تحت حكمه في خراسان وما وراء النهر، وكان عادلا حليما يحترم العلماء ويقدر العصاميين ويحب أن يصنع الإنسان نفسه بنفسه دون اعتماد على نسبه، وهو صاحب القول الشهير «كن عصاميا لا عظاميا»..

ولم يكن بعده إلا شهور قليلة حتى توفي المكتفي أيضا.

المشهد في الثغور

شكى أهل الثغور واليهم مظفر بن حاج فعزله المكتفي وعين بدلا منه أبو العشائر أحمد ابن نصر (٢٩٠هـ).

وفي عام (٢٩١هـ) هاجم الروم حدود البلاد الإسلامية على حين غفلة من أهلها بجيش



كبير يقدر بمائة ألف، فتوغلوا وقتلوا وأسروا الكثير من المسلمين ومنهم كثير من النساء والأطفال، وكان وقت الحملة فرصة ذهبية للامبراطور الذي كان « على علم بأوضاع العواصم والثغور، ومن تلك الأوضاع، إحراق الأسطول البحري التابع لثغر طرسوس بأمر الخليفة العباسي المعتضد (٢٨٧هـ)... وكذلك انشغال العباسيين بقتال القرامطة في بلاد الشام»(١).

على أن الرد لم يتأخر كثيرا بل انطلق البحار الكبير غلام زرافة(٢) -وكان أمير البحر في طرابلس- من طرسوس بجيش كبير ونفذ غزوة من أهم وأخطر الغزوات في تاريخ البحرية الإسلامية، بل في تاريخ الحروب الإسلامية البيزنطية، إذ خاض بأسطوله -الذي انضمت له سفن أخرى من مصر وإفريقية- البحر المتوسط فغزا مدينة أنطالية(٣) التركية، ثم خاض بأسطوله مياه البحر المتوسط حتى توغل في بحر إيجه، وهاجم المدينة الثانية في الامبراطورية البيزنطية بعد عاصمتها «القسطنطينية» وهي مدينة تسالونيك اليونانية التي كان عدد سكانها نحو ربع المليون، وكانت من أهم الثغور التجارية في الدولة البيزنطية(٤)، وكان فتحا هائلا

(١) د. عمر عبد السلام تدمري: لبنان منذ قيام الدولة العباسية وحتى سقوط الدولة الإخشيدية ص١٠٠.

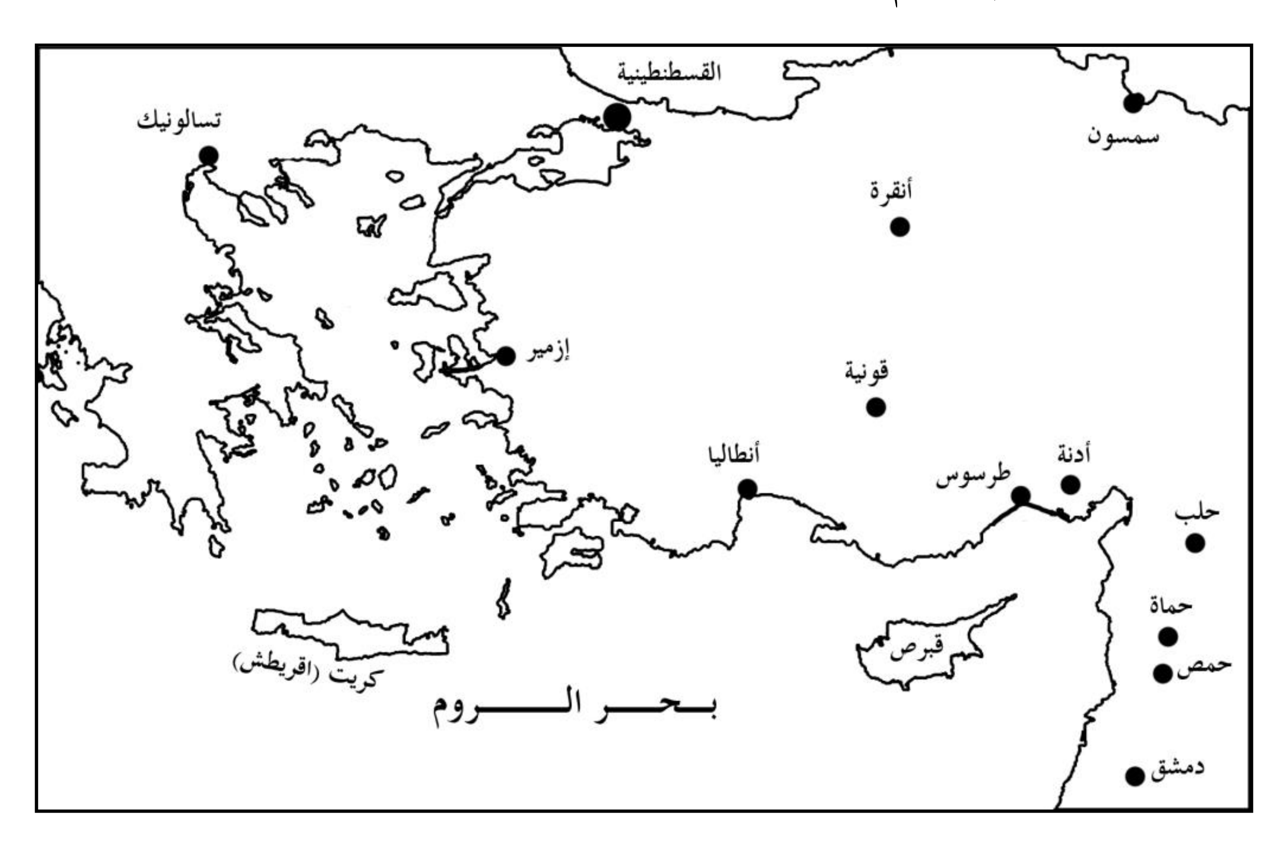
(٢) غلام زرافة: هو أمير البحر المسلم «ليو الطرابلسيّ «Loeoftripoli» أصله يونانيّ، اعتنق الإسلام، ونسب إلى طرابلس الشام حيث تولّى إمرتها، وقد ورد اسمه معرّبا: «لاوي» و «لاو» و «لاون» وهو «رشيق الوردامي» كما يسمّيه «الكندي» في «ولاة مصر» . وقيل له: «غلام زرافة» لأنه كان مملوكا لزرافة حاجب المتوكّل العباسي. انظر: د. عمر عبد السلام تدمري: لبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط الدولة الإخشيدية. ص٨١ وما بعدها.

وقد وصفه المؤرخ الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان بأنه «أعظم بحار في ذلك العصر، وأعظم بحار مسلم على الإطلاق» وأفرد له مبحثا في كتابه «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام» ص٩٣ وما بعدها.

(٣) وردت المدينة باسم «أنطالية» في بعض المصادر كالطبري والكامل لابن الأثير وتاريخ الخلفاء للسيوطي، ووردت في بعض المصادر الأخرى باسم «أنطاكية» كالمسالك والممالك للإصطخري، وتاريخ حلب للعظيميّ، والعبر في خبر من غبر للذهبي وتاريخ الإسلام له أيضا، والبداية والنهاية لابن كثير، وشذرات الذهب لابن العماد وخطط الشام لمحمد كرد علي وغيرها. وقد نبه د. عمر عبد السلام تدمري محقق تاريخ الإسلام إلى هذا الخطأ وصححه وكذلك فعل د. بشار عواد معروف في تحقيقه لتاريخ الإسلام (ط دار الغرب الإسلامي) كما نبه عليه محمد الأرنؤوط محقق شذرات الذهب. وأنطالية: هي الآن أتاليا أو أداليا في تركيا على ساحل البحر المتوسط والتي تقع على الخليج المعروف باسمها.

(٤) لم تذكر الروايات العربية شيئا عن تسالونيك اللهم إلا المسعودي، فهو يسميها «سالونيكة في التنبيه والإشراف» (ص١٥٣) أو«سلوقية» في مروج الذهب (١/ ٣٢٠)، وحدث الخلط من لدن الطبري =

عظيما مزلزلا، غنم فيه المسلمون غنائم كبيرة حتى لقد بلغ سهم المحارب الواحد من الغنائم في هذه الغزوة ألف دينار. وحطموا القوة الحربية للمدينة وأسروا كثيرا من الروم، وأنقذوا نحو خمسة آلاف أسير مسلم(١).



وكان من الآثار الجانبية لغزوة غلام زرافة وقوع اثنين من رجال الدولة البيزنطية في الأسر، الأول كان يحمل ذهبا لإنفاقه على القوات الموجودة بصقلية، والثاني كان يحمل الجزية

=ومن نقل عنه في هذه الغزوة، فالمكتوب أن الغزوة كانت على «أنطالية» التي كانت المدينة الثانية بعد القسطنطينية، ولم يكن هذا صحيحا، بل كانت تسالونيك هي المدينة المقصودة، ولم يحسم هذا الأمر بشكل جلي ومفصل إلا الرواية البيزنطية التي جاءت عن المؤرخ اليوناني شاهد العيان على المعركة «كامنياتس» وقد كان من الأسرى، فهو الذي كتب التفاصيل التي نقلها عنه المؤرخ جورج فينلاي إلى الإنجليزية في كتابه (تاريخ الإمبراطورية البيزنطية)، وعنه نقلها المؤرخ المعروف محمد عبد الله عنان ففتح بذلك مجال دراستها بين الباحثين العرب ومن ثم تتبعها وبذل الجهد في تفصيلها الدكتور عمر عبد السلام تدمري.

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/٦٥٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/٤٢٣، ومحمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص٩٣ وما بعدها، ود. عمر عبد السلام تدمري: لبنان منذ قيام الدولة العباسية وحتى سقوط الدولة الإخشيدية ص٩٩ وما بعدها، وانظر:
Georgr Finaly: History of the Byzantine Empire, William Blackwood and sons, Edinburdh, p317.

التي تدفعها المدن المقدونية للبلغار، فوقعت هذه الثانية في يد المسلمين فكانت من غنائمهم، وسبب هذا مشكلات بين البيزنطيين والبلغار[١].

يقول المؤرخ محمد عبد الله عنان معلقا على هذه الغزوة:

هذه لمحة من أخبار البحارة المسلمين، ومنها نرى أن السيادة البحرية في بحر الروم كانت للمسلمين مدى أحقاب طويلة، وأن سير تلك الفتوحات والحملات البحرية التي انتهت بفتح إقريطش وصقلية وثغور إيطاليا الجنوبية، واستطاعت أن تجوس خلال البحر حتى القسطنطينية عاصمة الدولة الشرقية وحتى روما عاصمة النصرانية وجنوه أقصى الثغور الإيطالية، ليست تقل في الأهمية والجرأة عن غزوات البحارة الإسبان والإنجليز في القرن السادس عشر في المياه الأمريكية، وليست أعمال بحارة كأبي حفص عمر البلوطي وليو الطرابلسي أقل رنينا وروعة من أعمال أمراء البحر المحدثين مثل أندريا دوريا وجون هوكنس، وفرنسيس دريك، وكورتيز، وبيزارو وغيرهم ممن تملأ سيرهم وأعمالهم صحفا من أبدع وأمتع صحف التاريخ الحديث، وفي سير هذه الحملات والغزوات الإسلامية نستشف اضمحلال الدولة البيزنطية وضعف حكومة قسطنطينية وفساد بلاط يؤثر طغيانه تبديد أموال الدولة في مظاهر الترف وتشييد القصور والكنائس على تحصين أطراف الدولة وإعداد جيوشها وأساطيلها، بيد أنّا نستطيع أن نلاحظ أيضا أن ميول الشعوب التي تحكمها الدولة كانت عاملا هاما في تسهيل غزوات المسلمين، فإن هذه الشعوب لم تر في حكم المسلمين من الغضاضة ما كانت تقدره حكومة قسطنطينية التي بلغ عسفها وجورها مبلغا لم تبلغه حكومة إسلامية في هذا العصر، ولنا دليل في فتح صقلية التي انضم أهلها إلى المسلمين في محاربة البيزنطيين[٢].

بعد هذه الغزوة كانت بقية المواجهات الإسلامية البيزنطية برية وليست بحرية..

لقد شن الروم إغارات قوية إلى حد ما في العام التالي (٢٩٢هـ) على مدينة مرعش ونواحيها، ونتيجة لهذا عزل الخليفة أبا العشائر أحمد بن نصر عن ولاية الثغور وعهد بها إلى رستم بن بردوا الذي تولى فداء الأسرى من الروم ففدى ١١٠٠ أسير، وكرروا إغاراتهم في

(١) د. محمود عمران: معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص١٦٩، ١٧٠.
(٢) محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص٩٨.

العام التالي (٢٩٣هـ) على بعض أعمال حلب فقتلوا ونهبوا وسبوا أيضا. ولم يكن ثمة رد في هذين العامين لانشغال المسلمين بقتال القرامطة.

وعاد المسلمون إلى الغزو (٢٩٤هـ) حيث قاد أحمد بن كيغلغ نائب دمشق جيشا توغل في أرض الروم مرتين وحقق نصرا كبيرا، فقتل نحوا من أربعة آلاف وأسر نحوا من خمسين ألفا، وأسلم أحد بطارقة الروم، كما دخل في جوار المسلمين البطريق أندرونقس الذي كان يتولى حرب المسلمين في الثغور الرومية، وحرر معه مائتي أسير من المسلمين، ووصل إلى بغداد بعد مساعدة من المسلمين، وحينئذ أرسل امبراطور الروم يعرض الفداء على الخليفة المكتفي فأجابه إلى ذلك وتم الفداء (ذي القعدة ٢٩٥هـ) فاستنقذ المسلمون ثلاثة آلاف أسير.

وهنا ختمت المواجهات الإسلامية الرومية في عهد المكتفي!

حركات التمرد وأخبار القرامطة

كانت حركة التمرد الكبرى التي وجه لها المكتفي جهده، والتي أضرت البلاد والعباد أضرارا هائلة هي تمردات القرامطة، وفيما عداها كانت حركات التمرد الأخرى قليلة وغير مؤثرة وتنتهي بسرعة أو تختفي من ذكر التاريخ بما يدل على خفوتها وتشتتها.

ولا نكاد نرى تمردا مهما في حياة المكتفي –بخلاف القرامطة– إلا واحدا في مصر (٢٩١هـ) ومن فلول الطولونيين واسمه إبراهيم الخَلَنْجي، كان قائدا من قواد الطولونيين، واستمال إليه أصحاب المصالح والارتباطات مع الطولونيين ومن انحاز إليهم، وأصبح قوة مؤثرة عجز عنها والي مصر عيسى النوشري الذي طلب المدد من الخليفة، وكان الخليفة يعلم ضرورة إنهاء أمر الفلول وإلا انقلب الوضع وضاع كل الجهد هباء، فأرسل ما أمكنه من إمدادات استطاعت بعد عناء وحروب صعبة –حتى كاد أن يخرج المكتفي بنفسه على رأس جيش– إنهاء تمرد الخلنجي والقبض عليه ودخل بغداد أسيرا (رمضان ٢٩٣هـ).

وأما القرامطة فكانت لهم فصول قصة دامية أليمة.

ظلت جبهة أبي سعيد الجنابي في البحرين والأحساء وشرق الجزيرة هادئة ساكنة في عهد المكتفي، بينما كان النشاط الأكبر من نصيب جبهة زكرويه بن مهرويه الذي أصبح رئيس تنظيم القرامطة في العراق بعد قرمط وصهره عبدان كما ذكرنا سابقا، وقد استمر نشاط

زكرويه وأبنائه في مناطق الشام في أغلب الحال.

كان نشاط القرامطة في الشام تحت قيادة يحيى بن زكرويه الملقب بالشيخ، والذي انتصر على جيش أرسله والي دمشق –وكانت في سلطان الطولونيين– طُغج بن جُف (ربيع الآخر ٢٩٠هـ)، وعانت منه مناطق الرقة التي عاث فيها فسادا، ثم تقدم حتى حاصر دمشق نفسها حصارا قاتلا حتى كاد أهلها يهلكوا، فتحرك أعيان الناس وعلماؤهم في بغداد وفي مصر، وأرسل الخليفة جيشا من عنده كما أرسلت مصر جيشا آخر فتمكن الجيشان من فك حصار دمشق وهزيمة القرامطة وقتل قائدهم يحيى بن زكرويه.

وما لبث أن عاد الجيشان حتى كان القرامطة يعيدون تنظيم صفوفهم، فولوا عليهم أخا القائد المقتول الذي تسمى بأحمد ولقب نفسه بأمير المؤمنين وعُرِف بأبي شامة، فهاجموا دمشق مرة أخرى في ذات العام وانصرفوا عنها بعد أن أنقذ أهل دمشق أنفسهم بأموال دفعوها إليه، ثم انطلق إلى حمص فاقتحمها واستباحها ثم إلى حماة ثم إلى معرة النعمان ثم إلى بعلبك، وفي كل تلك الأنحاء كان يستبيح الأموال والنساء، ويرتكب المذابح الشنيعة فلا يرحم لا رجلا ولا امرأة ولا طفلا، ورغم أنه يدعي أنه من نسل علي وفاطمة، إلا أنه حين يدخل المدينة يبدأ بانتهاك حرمات بني هاشم، وحين واجه مقاومة في سَلَمْيَة[1] ثم أعطاهم الأمان غدر بهم حين فتحوا أبواب المدينة وبدأ بقتل الهاشمين ثم أباد أهلها حتى الصبيان في الكتاتيب بل وحتى البهائم «ثم خرج منها وليس بها عين تطرف»[2]، وكان يستبيح المرأة الهاشمية فيجعلها حلالا للجماعة من أتباعه يتناوبون عليها حتى لا يُعرف والد الطفل حين يولد، وكان القرمطي يُكَفِّر أهله ويقتلهم إن لم يستجيبوا له ويدخلوا في دينه.

---

(١) كانت «سَلَمْيَة» كما ذكرنا رأس تنظيم القرامطة أول الأمر حين كانت جزءا من دعوة «الإسماعيلية»، ثم حين ظهر النزاع مع «قرمط» وصهره عبدان، وظهر زكرويه على الساحة بدأ الانفصال الفعلي على الأرض بين حركة القرامطة وحركة الإسماعيلية، فاستمر زكرويه يرث ما زرعه قرمط في العراق والبحرين واليمن، بينما انتقل القداحيون –وهم أصحاب حركة الإسماعيلية التي ابتدأ منها أمر القرامطة– إلى المغرب حيث سيؤسسون هناك الدولة العبيدية (الفاطمية) والتي سيكون لها أيام هائلة فيما بعد.

لذا، كانت سلمية في ذلك التوقيت فارغة من رأس التنظيم الذي انبثقت منه حركة القرامطة، وخلت ساحة البلاد كلها لزكرويه، فيما انتقل نشاط القداحيين إلى المغرب.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤١٨.

وصلت استغاثات أهل الشام إلى الخليفة الذي جهز جيشا كثيفا وانطلق بنفسه على رأسه، ونزل مدينة الرقة وجعلها مركز العمليات لإدارة الحروب مع القرامطة، وأرسل فرقة من جيشه تسبقه بقيادة أبي الأغر فعسكرت في مكان قريب من حلب ولكنها تلقت هزيمة قاسية إثر هجوم مفاجئ من جيش أبي شامة (رمضان ٢٩٠هـ) فلم ينج إلا بألف مقاتل انسحب بهم نحو حلب، ولكنهم استطاعوا رد هجوم القرمطي ذي الشامة عليها فلم يستطع أن يدخل حلب وعاد خائبا.

ثم وصل جيش من مصر يقوده بدر الحمامي فحارب القرامطة بعد هذه الموقعة بنحو الشهر (شوال ٢٩٠هـ) فأوقع بالقرامطة هزيمة كبيرة أخرى قتل فيها كثيرا منهم حتى انسحبوا إلى البادية.

ولا شك أن جهاز الدولة الاستخباري بدأ في العمل في سائر الأنحاء، ومن نتائج ذلك أن أمير البحرين قاد هجوما مفاجئا على حصن للقرامطة في الجبهة الساكنة في الأحساء – جبهة أبي سعيد الجنابي- وأوقع بهم هزيمة كبيرة -في نفس هذا العام (٢٩٠هـ)- قتل فيها الرجل الثاني بعد أبي سعيد الجنابي، وسيطر فيها على مدينة القطيف. ويبدو أن هذه الهزيمة هي التي أوقفت عمل هذه الجبهة القرمطية في عهد المكتفي.

وبالعودة إلى المشهد في الشام سنرى أن المكتفي قد ولى القيادة العامة في الجيش لمحمد بن سليمان الكاتب الذي قاد حربا هائلة مع القرامطة (٦ المحرم ٢٩١هـ) قبل حماة باثني عشر ميلا، فأوقع بهم الهزيمة الساحقة التي انتهت فيها قوة ذي الشامة وفر هاربا ناحية الصحراء، ثم انكشف أمره فوقع أسيرا وأُرْسِل إلى الرقة حيث مركز العمليات التي يتواجد فيها الخليفة المكتفي فوصلها (٢٦ المحرم ٢٩١هـ)، ثم سار به الخليفة إلى بغداد وهناك قتله أبشع قتلة أمام الناس جراء ما أفسد في البلاد من المذابح وما انتهك من الحرمات والأعراض بعد أن قتل أتباعه أمامه.

وكان مقتل ابني زكرويه – يحيى الملقب بالشيخ وأحمد الملقب بذي الشامة- ضربة قوية تلقتها جبهة القرامطة في الشام، وحدثًا زلزل أفكار أتباعهما حيث رأوا بأعينهم قتل الإمامين اللذين ظنوهما المهدي ونائبه، فاستسلم بعضهم، وطلب بعضهم الأمان فأمنه المكتفي، وسعت مجموعة من قبيلة بني العليص –وهم من أهم من استجابوا لدعوة القرامطة كما

ذكرنا- لاستغلال هذا الأمان في الغدر فلما أمنهم المكتفي حاولوا الغدر بالوالي القاسم بن سيما ولكنه كان يقظا فقتلهم فارتدع الباقون وسكنوا.

بعد هذا النصر على القرامطة توجه محمد بن سليمان الكاتب على رأس الجيش لينهي الدولة الطولونية كما ذكرنا فيما سبق، وحاول زكرويه بن مهرويه من جديد إعادة التنظيم المنهار من خلال رسائله ومن خلال ابنه الثالث أبي الفضل واسمه نصر، وسكنت جبهة الشام أكثر من سنة استراح فيها الناس من شر القرامطة.

سكن مشهد القرامطة في الشام والعراق لكنه بزغ (ربيع الآخر ٢٩٣هـ) في جبهة أخرى جديدة.. في اليمن، وهي التابعة لجبهة أبي سعيد الجنابي في الأحساء، واستطاع داعية القرامطة أن يتغلب على مدن اليمن وأن يقتحم صنعاء وأن يقتل غالبية أهلها بعد أن قاوموه حتى لم يفلت منهم إلا القليل، وتوسع سلطان القرامطة حتى شعر أهل مكة بالخوف منه فقدم وفد منهم إلى الخليفة (١٢ جمادى الأولى ٢٩٣هـ) يطلبون منه توجيه جيش إلى مكة لصد هجوم القرمطي عنها، ثم وصل إلى بغداد (١٢ رجب ٢٩٣هـ) إلا أن أهل صنعاء اجتمعوا من بعد تشتت على حرب القرمطي وتعاهدوا وحاربوه حتى هزموه واضطر أن ينسحب إلى جهة نائية من اليمن[١]، فسكن بهذا مشهد اليمن!

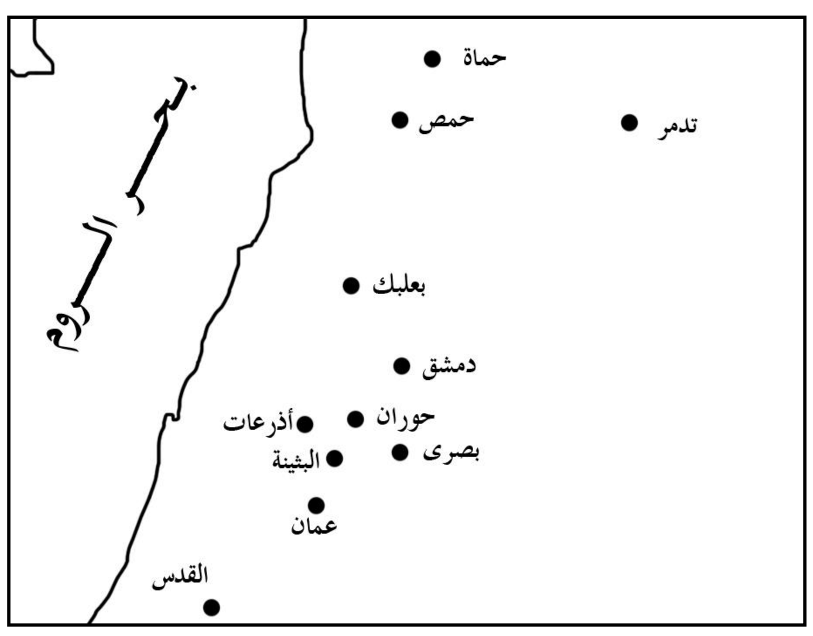
وإذا عدنا إلى القرامطة في الشام، فإنه ينبغي أن نسجل أمرا مهما، وهو أن القوة الضاربة المستجيبة للقرامطة كانت، كما ذكرنا من قبل، هي قبائل العرب في البادية، وكان انتشار أمر القرامطة فيهم لعدة أسباب، منها: الجهل الذي يجعل انخداعهم سهلا أمام داعية القرامطة كما كان سهلا من قبل أمام داعية الخوارج الذين احتضنوهم لفترة طويلة، ومنها أنه يتفق مع هواهم في السلب والنهب والاستيلاء على البلاد وهم الذين كانوا -من قبل ظهور القرامطة- ينفذون الإغارات والهجمات في مناطق العراق والجزيرة الفراتية وعلى قوافل الحجاج لسلبها.. وجرت بينهم وبين الخلافة حروب كثيرة.

بدأ نصر بن زكرويه يستميل إليه قبائل العرب مرة أخرى، ويعيد التأكيد على أن زمان ظهور المهدي وإتيان النصر قد حان واقترب، ولكن مهمته كانت أصعب هذه المرة، إذ

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٥٩، ٦٦٣.

رفضت كثير من القبائل استئناف العمل معه، ولم يستجب له إلا الصعاليك[1] وشراذم الناس مع قليل من القبائل كبني العليص، وظل مأواه في قبيلة بني كلب التي انحاز غالبهم إليه، ولما بدا له أنهم قد صاروا قوة من جديد بدأ من جديد (٢٩٣هـ) إغاراته على مدن الشام مُحَمّلًا بثأر أخويه المقتولين من قبل، وكان قد استغل فرصة غياب القوة الدمشقية وقوة جيش الخلافة في مصر حيث تُنْهي تمرد الخلنجي.

لم يستطع صالح بن الفضل نائب الوالي في الشام بما معه من القوات صدَّ هجوم القرامطة الذين اقتحموا البلاد بعنف كبير، فاقتحموا بصرى وأذرعات والبثينة، وهُزِم صالح بن الفضل هزيمة كبيرة وقُتِل، وحاولوا اقتحام دمشق فلم يستطيعوا فقصدوا طبرية، وفي كل هذه البلاد كانوا يعطون أهلها الأمان ثم يغدرون بهم وينفذون مذبحة أبشع من الأولى ويسبون النساء والأطفال.



تحرك جيش من بغداد بقيادة الحسين بن حمدان وعدد من خيرة قادة الخلافة، فانسحب القرامطة إلى صحراء السماوة وردموا الآبار والعيون حتى يقطعوا الماء عن الجيش الذي يطاردهم، فتوقف الجيش بالفعل مما أتاح لهم فرصة هجوم ليلي على مدينة هيت فاستطاعوا نهب ما حولها واعتصم أهل المدينة بها وفشل القرامطة في اقتحامها فقتلوا من أهلها مائتين ونهبوا ما استطاعوا من الأموال والمتاع، وحينئذ وجه المكتفي جيشا آخر بقيادة محمد بن

(١) الصعاليك: الصعلوك في اللغة هو الفقير، ولكن العرب كانوا يطلقونها أيضا على قطاع الطرق، ويذكر د. شوقي ضيف أنه يمكن تمييزهم إلى ثلاث مجموعات؛ الخلعاء الشذاذ: الذين تبرأت منهم قبائلهم لأفعالهم وجرائمهم، وأبناء الحبشيات: الذين رفض آباؤهم الاعتراف بهم وانتسابهم إليهم، ومحترفي الصعلكة الذين قد يكونون فرسانا وشجعانا مثل عروة بن الورد، وأحيانا قبائل احترفت الصعلكة مثل هذيل. انظر: د. شوقي أبو ضيف: العصر الجاهلي ص٣٧٥.



إسحاق بن كنداجيق فانسحبوا مرة أخرى إلى الصحراء وغَوَّروا الماء أيضا، فحينئذ طلب محمد أن تأتيه أمداد من الماء والدواب من بغداد، وأرسل إلى جيش الحسين بن حمدان الذي يطاردهم من جهة الشام ليتحركا معا، وحين شعر بنو كلب بالكارثة التي ستنزل بهم قتلوا نصر بن زكرويه بأنفسهم، وسار قاتله إلى المكتفي ليتقرب إليه ويرجو الأمان لقومه، فأجابه الخليفة وكافأه، وكان زلزالا آخر نزل بالقرامطة وعقيدتهم، إذ ما يزالون يشهدون الهزائم وقتل رؤوسهم الذين ادعوا أنهم المهدي ونائبه وأن وقت ظهورهم قد أوشك، فجرى بينهم اقتتال داخلي، فتركهم البعض، وذهب البعض إلى الخليفة يستأمنونه ويطلبون العفو، وظل الباقي في مواقعهم في صحراء السماوة.

ولا شك أن زكرويه نفسه كان في أسوأ حال، فقد قُتِل أولاده الثلاثة، وظهر لأتباعه كذب وعوده، فاحتاج أن يصنع نصرا سريعا وظاهرا، فأرسل إلى القرامطة وبني كلب يؤنبهم ويخبرهم بأن فعلهم هذا قد جعلهم من المرتدين، وبأن وقت الظهور قد تحدد، وأنه يوم عيد الأضحى (٢٩٣هـ) في الكوفة فأمرهم بالتجهز والاستعداد وكتمان الأمر، واستعد زكرويه للهجوم بمن معه على الكوفة في ذلك اليوم، واعتمد على أهل الكوفة وانحيازهم إليه، فلما جاء يوم العيد أظهر القرامطة الأعلام ودخلوا الكوفة بعدد قليل من الفرسان، هم مائة فارس فحسب، ولكن الله خيب مسعاه إذ لم ينحز إليه من الكوفيين أحد حتى الطالبيون في الكوفة، بل قاوموا القرامطة حتى اضطروا للانسحاب خارج الكوفة.

طلب إسحاق بن عمران من الخليفة مددا من العساكر فوصل إليه جيش مع بعض كبار القادة (١٥ ذي الحجة ٢٩٣هـ)، وأما القرامطة فقد ظهر فيهم زكرويه بنفسه بعد فترة الاختباء والتخفي وأعد ما استطاع من قوته الضاربة التي جهزها في أنحاء العراق في كل تلك الفترة السابقة، ولكنه تلقى صاعقة قاسية حين لم يأت إليه من كل الذين دعاهم إلا خمسمائة رجل فقط.

لم يفت هذا في عضد الداهية زكرويه بل أعد كمينا محكما لجيش الخلافة، واندلعت بينهم الحرب واشتدت ثم برزت القوات الكامنة من خلف جيش الخلافة فأوقعت بهم هزيمة نكراء شنيعة، حتى فشا فيهم القتل ولم ينج من الجيش إلا صاحب الدابة القوية أو من أثخنته الجراح فوضع نفسه بين القتلى، وغنم القرامطة غنائم كثيرة، وكانت هزيمة فادحة اهتزت لها بغداد الخلافة وبغداد الناس، وجَهَّز الخليفة جيشا آخر بقيادة محمد بن إسحاق بن كنداج

وضم إليه من الأعراب بني شيبان وغيرهم وأكثر من ألفي رجل.

وأما زكرويه فقد بدأ باعتراض طريق الحجاج العائدين من مكة (المحرم ٢٩٤هـ) لكي يتقوى بما معهم من الأموال والمتاع، واستطاع الأيقاع بقافلتين: الأولى لأهل خراسان حيث قاتلوه قتالا شديدا حتى طلب هو وقف القتال وأعطاهم الأمان وما إن أمنوا حتى غدر بهم وقتلهم جميعا إلا من استطاع النجاة شريدا شاذا، ثم أوقع بقافلة أخرى بعدها، وكان قد غَوَّر الآبار ومنابع الماء حتى عطش الناس ولم يكن بهم قوة على القتال، وكان يمثل بالقتلى، ويصنع من جثثهم تلالا، وكانت نساء القرامطة تدور بين القتلى والجرحى كأنهن يسقين الجرحى فإن ظهر جريح كان يدعي أنه ميت قتلنه بلا رحمة.

وبلغ فساد زكرويه ما وسعه من الأنحاء في تلك المنطقة مثل واقصة وفيد، وقد نجا أهلها إذ اعتصموا داخل المدينة ورفضوا التسليم ولو بالأمان.

واهتز المسلمون جميعا لأنباء الهجوم على الحجاج، وجهز الخليفة جيشا كثيفا توجه إلى لقاء زكرويه، فخرج من بغداد (١ ربيع الأول ٢٩٤هـ) جيش كبير التقى بالقرامطة (٨ ربيع الأول) وكان متيقظا هذه المرة، فجرت حرب شديدة بين جيش الخلافة والقرامطة أسفر عن نصر كبير على القرامطة، حتى إن زكرويه نفسه أصيب بضربة سيف في رأسه فمات بعد خمسة أيام، وأُسِر كبار أصحابه وأهله، وأخذت جثته إلى بغداد فطافوا بها ثم أمر الخليفة بأن يُطاف بها في خراسان لكي يطمئن الناس ويخرجوا إلى الحج، ومن خلال الأسرى تتبعت الخلافة القرامطة في العراق، فمنهم من قتله ومنهم من حبسه.

ولم يظهر للقرامطة نشاط آخر بقية عهد المكتفي.

بداية ظهور الحمدانيين في الموصل

وَلَّى المكتفي عبد الله بن حمدان بن حمدون إمارة الموصل، فوصل إليها أول عام (٢٩٣هـ)، وما إن وصلها حتى بدأت المشكلات من قبل جماعة من الأكراد، غير أن عبد الله أبدى صرامة وكفاءة وحزما كبيرا في مواجهتهم ومطاردتهم في جبال أذربيجان حتى استطاع حسم أمرهم تماما، واستقرت له الأمور.

وكان من الممكن أن يكون هذا حدثا عاديا لولا أن أسرة الحمدانيين سيكون لها شأن

كبير فيما بعد.

وفاة المكتفي

كان المكتفي مريضا بما عرف وقتها بـ«داء الخنازير» وهو تضخم الغدد الليمفاوية في الحلق، وقد مات متأثرا بهذا المرض (١٢ ذي القعدة ٢٩٥هـ)، وهو في الثانية والثلاثين من عمره، بعد خلافة قصيرة: ست سنوات وستة أشهر وتسعة عشر يوما.

وقد ارتكب المكتفي الخطأ ذا الآثار الخطيرة، إذ عهد بالخلافة من بعده لأخيه جعفر بن المعتضد الذي كان قد بلغ الحلم لتوه وعمره لم يتجاوز الثلاثة عشر سنة، ولقبه بـ«المقتدر بالله»، وأشهد على ذلك القضاة.

لعب المكتفي الدور نفسه الذي لعبه الواثق من قبل في التاريخ السياسي، فلقد اتصف الاثنان بالاستسلام للدسائس، ومثلما أهمل الواثق أمر ولاية العهد وتوفي ولم يعهد لأحد من الأمراء العباسيين، كذلك أهمل المكتفي أمر اختيار خليفة له، وبتعبير أدق استجاب لتشكيكات بعض رجال حاشيته ووزرائه، ولم يتخذ إجراءا رسميا في قضية ولاية العهد، وقد أفسح ذلك المجال مرة أخرى للقادة والوزراء للتدخل في أمر اختيار الخلفاء، وهذا يعني بوضوح أن على الخلفاء المنصبين أن يرضوا بدور البيادق في لعبة الشطرنج بين المتنافشين من رجالات الطغمة العسكرية والبيروقراطية والإدارية، وعادت المصالح، مصالح القادة والوزراء، لتحتل من جديد مكانها البارز في السياسة العباسية[١].

***

(١) د. فاروق عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٥٥.



المقتدر بالله

(من ذي القعدة ٢٩٥ هـ حتى قتل في شوال ٣٢٠ هـ)

وُلِد جعفر بن المعتضد (٢٢ رمضان ٢٨٢هـ) من جارية اسمها شغب، وكان وسيما، عريض المنكبين، واسع العينين، جميل الشعر، مدور الوجه، أبيض اللون مشربا بحمرة.

ومن الطبيعي ألا يكون له أي تاريخ فيما قبل الخلافة، فما إن بلغ الفتى سن الحلم حتى وجد نفسه خليفة على البلاد الإسلامية المتسعة شرقا وغربا.

***

تحققت توقعات المعتضد، والذي أراد ذات يوم أن يقتل ابنه جعفر - الذي هو الآن خليفة- لكيلا يضيع ملك المسلمين الذي صار وطيدا بعد أربعين سنة من الجهاد المتصل المرير الكبير للموفق ثم المعتضد ثم المكتفي.. ولذا كان عهد المقتدر هو العهد الذي أرجع الدولة العباسية إلى الضعف مرة أخرى بعد أن تعافت وتحسنت واشتد أمرها واستوت على سوقها!

لقد حاول الخلفاء منذ المعتز والمهتدي أن يتخلصوا من سيطرة الأتراك على الخلافة وتحكمهم فيها وفشلوا، ثم ظهر الموفق فأمضى كفاحا طويلا حتى عادت الهيبة للخلافة والتزم الأتراك مقامهم العسكري، ومن بعده المعتضد على ذات الدرب، ثم المكتفي.. والآن جاء المقتدر لينقض هذا كله، ولتدخل الدولة العباسية في النفق المظلم مرة أخرى.

لكن لا أحد يستطيع لوم المقتدر، فهو ما زال الفتى الغض الطري الذي وجد نفسه خليفة دون سعي إليها ولا قتال عليها، وقد كانت صفاته الشخصية صفات إنسان كريم، فكان كثير الصلاة والصوم، وكان كثير العفو، وسيظهر في قابل الأيام أنه كان أقرب إلى الضحية منه إلى المسؤول!

ولا يمكن لأحد تبرئة المكتفي الذي لا شك كان يعلم خطر أن تؤول الخلافة إلى غلام صغير



السن لم يُحسن من أمر الملك شيئا، ولم يكن في تاريخ الخلفاء قبله من تولى في هذه السن الصغيرة! لا سيما وقد كان أمامه أمير آخر كعبد الله بن المعتز، ولكن لعله غلب عليه حب بقاء المُلك في بيته، وهو الداء الذي أودى بكثير من الممالك من قبل ومن بعد، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

على كل حال وصلت الخلافة إلى المقتدر، ومضت الأيام تكتب سيرتها لعل الناس يتعظون!

بداية اضطراب أمر الخلافة

لاقت رغبة المكتفي في تولية جعفر المقتدر الخلافة من بعده هوى في نفوس كبار رجال الدولة كالوزير ورؤساء الدواوين، وكذلك هوى في نفس أم المقتدر الجارية التركية «شَغَب»، فالمقتدر صغير السن قليل التجربة، سيكون ألعوبة بيد الوزراء الذين سيكون لهم الحكم على الحقيقة، كما أن الجارية التركية ستصير السيدة الأولى ذات الأبهة والمكانة والنفوذ، ولهذا تم الأمر للمقتدر بسهولة[١].

لم يوافق هذا رغبة شعبية بالطبع، وكثر الكلام بين الرعية الذين شعروا بالخطر من خليفة في الثالثة عشرة من عمره، وساعتها فكر الوزير العباس بن الحسن في صرف الخلافة إلى أبي عبد الله بن المعتمد أو أبي الحسين بن المتوكل، ولكن كلاهما مات بعد أيام، وقُتل القاضي أحمد ابن يعقوب حين اعترض وقال: «هو صبي ولا يجوز المبايعة له»[٢]، كما تأخر وصول «بارس» حاجب إسماعيل الساماني صاحب خراسان، وكان ينوي الوزير الاستعانة به ضد المؤيدين لخلافة المقتدر، فلم يستطع الوزير تغيير الحال، وثبت المقتدر في الخلافة.

ومثلما توقع المعتضد من قبل فقد أخذ المقتدر في إنفاق الأموال وتبذيرها على خواصه وحاشيته وجواريه، حتى الجواهر الثمينة الفريدة التي انتهت إليه عبر خلفاء الأمويين والعباسيين كان يهديها ويفرقها في أصحابه وحظاياه، ودخلت أمه على الخط فصار لها نفوذ وتحكم وسيطرة على الأموال، وكذلك الوزراء وغيرهم من رجال الدولة، وبدأت خزينة الدولة العامرة بالأموال تدخل مرحلة الاضطراب والتي سيكون لها آثار وخيمة على المقتدر وأمه وعلى الدولة العباسية كلها.

---

(١) الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري ص٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٣٨، ٤٣٩.
(٢) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص٢٠.

وقد كسب المقتدر سكوت الرعية بما أنفقه عليهم من الأموال، فبعد أقل من شهر من خلافته أتى يوم عرفة وفيه وزع على الناس ثلاثين ألف رأس من الغنم والبقر، وألفي رأس من البعير، وأنقص من الضرائب والرسوم، وزاد في الأعطيات والرواتب، وأصدر عفوا عاما عن المساجين، وهدم أبنية تخص الخلافة ليتسع الطريق على الناس.

وبعد ثلاثة أشهر أخرى كان التذمر من أحوال الخلافة والخليفة قد بلغ مبلغه في نفوس كثير من القادة والقضاة ورجال الدولة، وعلى رأسهم الوزير العباس بن الحسن، فاجتمع منهم أهل القوة والرأي وخططوا لخلع المقتدر من الخلافة وتوليتها الأمير عبد الله بن المعتز، وهو الشاعر العاقل صاحب التجربة، وهو الآن في السابعة والأربعين من عمره، وعرضوا عليه الأمر فاشترط لكي يوافق ألا يُسفك بسببه دم، فأخبروه أنهم أهل القوة والدولة ولا معارض لهم، وكان أهم قادة هذه الحركة: الوزير العباس بن الحسن، والكاتب الأديب ابن الجراح، والقادة العسكريون: الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صوارتكين.

وفي لحظات حرجة تراجع الوزير الحسن بن العباس عن رأيه، وفضَّل بقاء المقتدر الغلام الصغير على أن يأتي عبد الله بن المعتز ذو التجربة والشخصية القوية، وكان هذا يعني خطرا كبيرا على بقية المخططين للحركة فسارع القادة العسكريون فقتلوه وقتلوا معه أحد رجال المقتدر واسمه فاتك المعتضدي (٢٠ ربيع الأول ٢٩٦هـ)، وأسرع الحسين بن حمدان بعدئذ ليقتل المقتدر، لكن الخبر كان قد وصل إلى المقتدر فأغلق أبواب القصر عليه، فندم الحسين أنه لم يبدأ بقتل المقتدر لينتهي الأمر تماما، ولكنه ظل محاصرا للقصر فيما جرى في ذات التوقيت إجراءات تولية عبد الله ابن المعتز الذي بايعه القادة والأمراء والقضاة فيما عدا القليل من خاصة المقتدر، وأرسلت الرسائل إلى الآفاق بخلع المقتدر وتولي ابن المعتز الذي لُقِّب بالمرتضي.

ثم أرسل ابن المعتز إلى المقتدر بأن يبايع ويترك قصر الخلافة، فأجاب المقتدر بالسمع والطاعة وطلب إمهاله إلى الليل، فوافق ابن المعتز، وبقيت فرقة الحسين بن حمدان تحاصر القصر، فلما لم ير حركة بدأ في قتالهم صباح اليوم التالي، فحاربه الخدم والحاشية بكل ما استطاعوا حتى دخل الليل ولم يستطع أن يهزمهم.

ولسبب غير معروف قرر الحسين بن حمدان الانسحاب بفرقته العسكرية التي تحاصر قصر الخلافة، فكان هذا انقلابا خطيرا ومفاجئا في الوضع القائم، إذ رفع هذا من معنويات



من بقوا مع المقتدر فقرروا الهجوم على دار ابن المعتز نفسه، واعتقد أصحاب ابن المعتز أنها مؤامرة واتفاق بين المقتدر والحسين بن حمدان مما يعني أن المقتدر في موضع قوة فتفرقوا عن ابن المعتز الذي وجد نفسه مع قلة من أصحابه أمام هجوم غلمان وحاشية المقتدر، ففكر في الانسحاب إلى سامراء بمن معه من القادة لتكون العاصمة هناك أو ليقود من هناك تخليص بغداد من المقتدر، فلم يجد أحدا اتبعه ممن بايعه إذ كانوا قد خافوا وتفرقوا بعد انسحاب الحسين بن حمدان، ثم آل الأمر إلى أن قُتِل ابن المعتز، وثبت أمر المقتدر في لحظة تاريخية عجيبة صمد فيها الأقل قوة وتفرق فيها أصحاب القوة الكبيرة، فساد رأي القليل الصامد وحكمهم على رأي الكثير القوي المضطرب، وعادت الخلافة مرة أخرى إلى المقتدر، وبدأت مطاردة من بايعوا ابن المعتز ونصروه من كبار رجال الدولة، ثم أصدر المقتدر بعد ذلك قرارا بالصفح عن بقية الناس حتى يستشعروا الأمان وتهدأ الأمور.

واستقر الأمر للمقتدر لحوالي خمس وعشرين سنة أخرى.

ملامح عهد المقتدر

لم تسقط الدولة فجأة، فهي قد ورثت عوامل قوة لكن بذرة الضعف شقت طريقها بسرعة وقوة في جسد الدولة، فما لبثت أن أصابت الأطراف ثم امتدت إلى قلب الدولة، فلم ينقض عهد المقتدر إلا وكان الشقاق قد وصل إلى الخلافة ذاتها، وقُتِل الخليفة المقتدر في تمرد عسكري.

وسنسير في استعراض هذا العهد على ذات المنهج الذي قدمناه في أول الكتاب، وقد رأينا تقسيم عهد المقتدر إلى جزءين؛ الأول: ويمتد لعشرين سنة (حتى نهاية ٣١٤هـ) كانت أحوال الخلافة فيها أقرب إلى الاستقرار ومن ثم سننظر إليها باعتبار الموضوعات، والثاني: الخمس سنوات الأخيرة التي حفلت بالاضطراب (٣١٥ – ٣٢٠هـ) ومن ثم سنستعرضها كأحداث، وفي كلا الحالتين يكون الأمر أقرب للقارئ وأكثر فائدة وانسجاما!

نستطيع أن نلمح ظواهر اضطراب أمر الخلافة في عهد المقتدر في أكثر من جانب:

١) خليفة تحت السيطرة

كان المقتدر على الحقيقة ألعوبة في يد رجال القصر، لذلك دافعوا بكل ما استطاعوا عن نفوذهم، وكان أهم الشخصيات في هذا الوقت: مؤنس قائد الجيش، ونصر حاجب الخليفة،

ومُفْلِح الأسود[١] مولى الخليفة وحاجبه الخاص[٢]، إضافة إلى أم المقتدر وخواصها من النساء ومن يميل إليها قلب الخليفة من نسائه وجواريه.

ومما يلفت النظر كثيرا أن رجال البلاط والمتنفذين في القصر وعلى رأسهم أم المقتدر تعمدوا أن يظل الخليفة جاهلا قليل الحظ من العلم والفقه ليظل تابعا لهم في القرار، وهذا ما يرويه أحد مؤدبي القصر، وهو المؤرخ أبو بكر الصولي الذي فوجئ بأن ابنىْ المقتدر «ذكيَّان فَطِنَان عاقلان إلا أنهما خاليان من العلوم، فعاتبتُ (الصولي) ابنَ غالب مؤدبهما على ذلك وكان (ابنه محمد) الراضي (الخليفة فيما بعد) أَذكاهما وأحرصهما على الأدب، فحَبَّبْتُ العلم إليهما واشتريتُ لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة، فتنافسا في ذلك وعَمِل كل منهما خزانة لكتبه، وقرآ عليَّ الأخبار والأشعار فقلت: إن الحديث أولى بكما وأنفع لكما من هذه، وهو أولى أن يُبْتَدَأ به، وجئتهما بأعلى من بقي من الزمان إسنادًا وهو أبو القاسم ابن بنت منيع... واحتجنا إلى أن نَبَرَّه بدنانير، فوَجَّه إليَّ من جهة والدتهما: والله ما عندنا دنانير لهذا المحدث، ولا بنا حاجة إلى مجيئه»[٣].

وذكر أيضا أن الراضي حين بلغ من العلم درجة أدهشت القاضي الفقيه الكبير الحسين المحاملي فأحب القاضي أن يكافئ الصولي فأوصى به عند السيدة لتكافئه، فقالت قهرمانتها: «إن هذه المحاسن من هذا الرجل عند السيدة ومن يخدمها مساوئ فقل له عني يا هذا، ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء، وهذا أبوهم (المقتدر) قد رأينا كل ما نحب فيه وليس بعالم، فاعمل على ذلك»[٤].

لقد كان الخروج الأول للخليفة إلى العامة بعد ست سنوات من خلافته (شعبان ٣٠١هـ)،

---

(١) يُميز مفلح هذا بلقب الأسود لكيلا يختلط مع القائد التركي الآخر مفلح الذي كان من قادة الجيش قبل نصف قرن من ذلك الوقت أيام المعتز والمهتدي والموفق وقُتِل في إحدى المعارك في ثورة الزنج (١٥ جمادى الأولى ٢٥٧هـ). ولُقِّب مفلح خادم المقتدر بالأسود لسواد بشرته، وسيأتي مفلح آخر هو غلام ليوسف بن أبي الساج ويعرف بـ«مفلح الساجي» نسبة إلى مولاه.

(٢) الحاجب الخاص الذي يتولى الاستئذان على الخليفة إن كان مع نسائه وجواريه في قصره أو جناحه الخاص وليس في مقر الحكم.

(٣) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص٢٥.

(٤) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص٢٦.

وإن هذا ليدل على المدى الذي وصل إليه اختفاء الخليفة عن إدارة شئون الناس والاطلاع على أحوالهم وترك هذه الأمور للمتنفذين في البلاط!

ولقد تكرر أن يُعزل والٍ أو وزير من منصبه لوشايات ودسائس تصل عنه؛ فلقد أمر المقتدر بقتل حاجبه سوسن (٢٩٦هـ) بأثر من توصية الوزير ابن الفرات إثر خلاف نشب بين الوزير والحاجب فكان الوزير أسرع إلى التخلص من خصمه[1].

٢) نفوذ النساء

لم يكن نفوذ الخليفة يعادل نفوذ أمه، بل كانت تستطيع أن تفرض إرادتها، من ذلك أنه حين أراد الخليفة مصادرة أموال نصر الحاجب (٣١١هـ) بوشاية من الوزير ابن الفرات، وضع نصر نفسه في حماية أم المقتدر فكانت حمايتها سابغة ولم يصل إليه مكروه.

وكانت السيدة أم المقتدر واسمها شغب في غاية الرفعة والفخامة، وكانت أملاكها تدر عليها دخلا سنويا يبلغ مليون دينار في بعض الروايات، وكانت تتصدق بمعظمه على الحجيج، طعامهم وشرابهم والأطباء المرافقين لهم، وفي تمهيد الطرق وإصلاحها[2].

وقد برز في عهد المقتدر اسم أم موسى خادمة أم المقتدر، إذ عُيِّنت لحمل الرسائل من الخليفة وأمه إلى الوزير، وكان لها نفوذ واسع، حتى أنها استطاعت أن تعزل الوزير علي بن عيسى (٣٠٤هـ) لأن خادمه لم يجرؤ أن يوقظه من النوم لكي يقابلها، ولم تقبل اعتذاره ولا اعتذار خادمه، وسعت عند الخليفة وأم الخليفة حتى عُزِل عن الوزارة أو استقال منها، بل لقد بلغ من نفوذها الواسع أن أخاها أحمد بن العباس تولى إمارة الحج عامي (٣٠٧هـ)، (٣٠٨هـ)، وهي الإمارة التي كان يتولاها الخلفاء بأنفسهم أو أحد كبار البيت الهاشمي!

وزوجت ابنة أختها إلى الأمير أحمد حفيد الخليفة المتوكل على الله، ووصلت إلى المقتدر تسريبات عن أنها تدبر مع الأمراء والقادة للانقلاب على المقتدر وتولية الأمير أحمد الخلافة، وكثرت الأخبار في هذا الشأن فأمر المقتدر بالقبض عليها وصادر أموالها الهائلة بما في ذلك

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٦٤.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٩٩.

الجواهر الكثيرة النفيسة التي تملكها[1]، فبلغ ما دخل بيت المال من هذه المصادرة مليون دينار[2]!!

وأعجب من أم موسى قهرمانة أخرى اسمها تملي -أو ثمل- بلغت من المكانة منازل القضاة، إذا كلفتها أم المقتدر (٣٠٦هـ) أن تجلس للنظر في المظالم في كل يوم جمعة، وأن يحضر مجلسها القضاة والفقهاء!!

وأعجب منهما قهرمانة أخرى اسمها زيدان كان يُسَلَّم إليها الوزير المعزول فتحبسه في دار تملكه، فكان تحت يديها حرس، ولها قرار، وتملك الإهانة والإكرام لمن كان الرجل الثاني في الدولة!!

فهكذا كان نفوذ النساء في قصر خلافة المقتدر!

٣) اضطراب قرارات الخلافة

أدى ضعف شخصية الخليفة وما هو عليه من قلة العلم بأمور الدولة وطبيعة الملك، وتسلط النساء ونفوذهم، إلى حالة سيئة من اضطراب قرارات الخليفة، حتى في أهم الأمور وأرفع المناصب، ومن أطرف ما يُروى أنه ولَّى منصب القضاء للفقيه المحدث ابن الأشناني (٢٠ ربيع الآخر ٣١٠هـ) وعزله بعد ثلاثة أيام فحسب!!

وشمل الاضطراب منصب الولاة كذلك، فقد تولى أمر مصر تسعة من الولاة منها ثلاث مرات لحساب الوالي تكين بن عبد الله، ومنهم والٍ عُزل بعد ثلاثة أيام وهو أبو قابوس أحمد بن حمك[3]! وتولى أمر فارس ستة ولاة منهم من لم يكمل العام مثل قنبج مولى المقتدر، ونجا من هذا الاضطراب المقتدري -إن صح التعبير- تلك الولايات التي لم يكن للمقتدر سيطرة عليها مثل مناطق الشرق وما تحت سيطرة المتمردين وما كان في حكم رجال الدولة الأقوياء كمؤنس الخادم -قائد الجيش- الذي كان له أمر دمشق[4].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٠، ١١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٦٤، ١٦٥.

(٣) زمباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص٤٢.

(٤) انظر في تفصيل هذا كتاب المستشرق النمساوي زمباور «معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي» وفيه قام بجهد هائل في تتبع ولاة المناطق حتى صنع فهرسا قارب درجة الكمال.

وأشهر وأبأس ما دل على اضطراب المقتدر وسهولة التأثير عليه هو المأساة التي حلت بمنصب الوزير –وهو الرجل الثاني في الدولة– فنجد عهد المقتدر قد حفل باثنتي عشرة مرة تغير فيها الوزير، ومنهم من تقلد المنصب مرتين أو ثلاثا، وتدخل في تنصيبهم أم المقتدر وقهرمانتها، وكذلك دسائس رجال البلاط والحاشية، وكان المنصب يُشترى بالمال والهدايا إلى السيدة وقهرمانتها، وقد يكون المال أيضا هو سبب عزل الوزير ومصادرة أمواله ومهلكه إن وُجد من يدفع أكثر.. وكان الطالب للوزارة يتعهد بأن يدخل إلى خزينة الدولة مقدارا من المال لكي يفوز بالمنصب، وكثيرا ما كانت الوسيلة أن يتولى الوزير استصفاء أموال الوزير السابق ورجاله بالتعذيب والإهانة حتى يخرج منه ومنهم بأقصى ما يمكن من اعترافات بأماكن الأموال وأسماء الضياع وأماكن الأراضي المملوكة، فما إن يجمع الوزير الحالي الأموال من سابقه ثم يضيف إلى أمواله وينمي ضياعه بالحق والباطل حتى تدور الأيام فيأتي من يفعل به مثلما فعل بمن سبقه[1]!!

والبداية كانت بالوزير أبو الحسن بن الفرات الذي برغم وقوفه إلى جانب المقتدر في أزمة تولية ابن المعتز الخلافة إلا أنه لم يُكمل في المنصب أربع سنين (٢٩٦هـ - ٢٩٩هـ) حتى نزل به العزل، وكان عزلا مهينا إذ قُبِض عليه واقتحم داره وأهينت حُرَمه، ونُهب ماله وأموال المقربين منه، وكان ذلك مما اضطربت له بغداد!

وعهد المقتدر بالوزارة إلى محمد بن يحيى الخاقاني الذي حصل عليها بمائة ألف دينار لأم المقتدر، ولم يكن أهلا للوزارة بحال، وحاولت شخصيات أخرى الدخول بالوساطة على أم موسى (قهرمانة أم المقتدر) ليتولاها، فسارع الخاقاني لاستصدار قرار من الخليفة بالقبض عليهم فكان له ما أراد وصفت له الوزارة، إلا أنه كان ضيق الصدر كثير الملل، ولا يصبر حتى على متابعة تقارير الولاة في الأنحاء، ومفتقدا للشخصية القوية، ثم أضاف إلى ذلك البخل الذي أغضب منه قادة الجيش وفرسانه، وكان أولاده وأصدقاؤه متحكمين فيه ويتلقون الرشاوى من الناس، وكان مضطربا في أموره إلى الحد الذي وَلَّى فيها على الكوفة سبعة عمال خلال عشرين يوما، حتى سخر منه الناس في شعر تداولوه يقول:

---

(١) جمع المؤرخ والكاتب هلال بن المحسن الصابي كثيرا من هذه الأخبار في كتابه «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء».

وزيـــر قـــد تكامـــل في الرقاعـــة يـــولي ثـــم يعـــزل بعـــد ســـاعه
إذا أهـــل الرشـــا اجتمعـــوا لديـــه فخـــير القـــوم أوفـــرهم بضـــاعه

فاضطر المقتدر إلى عزل الخاقاني من الوزارة (٣٠٠هـ) وأراد إعادة ابن الفرات مرة أخرى إلا أن مؤنس الخادم منعه من هذا وأوصاه باستدعاء علي بن عيسى - من مكة وتوليته الوزارة، فوصل علي إلى بغداد في أول عام (٣٠١هـ)، وكان علي بن عيسى كما يقول ابن كثير «من خيار الوزراء وأقصدهم للعدل والإحسان، واتباع الحق»[١]، وكانت أيامه «أحسن أيام وزير، قالوا: ما كان يعاب على ابن عيسى بشيء أكثر من قولهم: إنّه كان ينظر كثيرا في جزئيات الأمور، فربّما شغلته عن الكليّات»[٢].

وقد وجد الوزير الجديد اختلالا في الميزانية واضطرابا في الأمور فأعاد هيكلة المصروفات، فأنقص زيادات كان قد قررها الخاقاني، وأنفق كثيرا على المساجد والمستشفيات والفقراء والمرضى والكتاتيب والعلماء والقراء وغيرهم، وقد تآمر عليه الخبثاء فزوروا توقيعات للخاقاني بأعطيات ومكافآت وعرضوها عليه، فأحالها علي بن عيسى إلى الخاقاني ليقرر أي هذه توقيعاته وأيها المزورة كي يحفظ أموال الخزانة، لكن الخاقاني ادعى بأنها توقيعاته فعلا لكي يضعه بين نارين: نار إغضاب الناس، ونار إفلاس الخزينة، وقد اضطر علي بن عيسى إلى تنفيذها كلها رغم تفطنه لمؤامرة الخاقاني، واستطاع بحكمته وصلاحه تعديل الأحوال المالية للخزانة.

على أن مثل هذا الوزير لم يكن ليُعمِّر طويلا في بيئة كهذه البيئة، لهذا لم يلبث أن عُزِل (٣٠٤هـ) لسبب تافه، ذلك أن أم موسى قهرمانة أم المقتدر ذهبت إليه في الدار فوجدته نائما ولم يجرؤ خادمه أن يوقظه من نومه، فسعت بالوشاية لدى المقتدر وأمه حتى عزله، وعهد بالوزارة مرة أخرى إلى الوزير قبل السابق، ابن الفرات، الذي كان يسعي هو أيضا إلى المنصب وألزم نفسه بإدخال ألف وخمسمائة دينار يوميا للخزانة، واستطاع أن يبدو كمن نجح في المهمة في أيامه الأولى اعتمادا على ما وفَّره الوزير الصالح علي بن عيسى من أموال في الخزانة.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٣٦.

(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٦١.

لكن الوزارة أيضا لم تدم لابن الفرات، إذ تمرد عليه قطاع الفرسان في الجيش لأنه أنقص رواتبهم، وتحجج على ذلك بما أنفقته الدولة وما نقص من مواردها في تمرد يوسف بن أبي الساج في الري –وسنأتي للحديث عنه حين نتكلم عن الأحوال في المشرق– ولكن هذا لم يُرضِ الفرسان، فالتمس من المقتدر أن ينفق من خزينته الخاصة مائتي ألف دينار، فغضب المقتدر، وعرف أنه فشل في إبقاء الأحوال على ما كانت عليه أيام الوزير علي بن عيسى، وفشل في إنفاذ ما تعهد به من إدخال ألف وخمسمائة دينار يوميا إلى الخزانة، واجتمع غضب المقتدر هذا مع وشاية أخرى وصلت إليه عن ابن الفرات، فقرر عزله عن الوزارة (٣٠٦هـ)، وولَّى عليها من ظن أنه يستطيع توفير المال لخزينة الخلافة وهو حامد بن العباس والي واسط وأنحائها، والذي كان بدوره قد بدأ يسعى في طلب الوزارة من خلال دفع الأموال فالتقت الرغبتان، ولما بدا للمقتدر بعد أيام أن حامد ليس أهلا للوزارة استعان مرة أخرى بالوزير الصالح المعزول علي بن عيسى بحيث يكون نائبا لحامد بن العباس، وقد أدى هذا إلى أن يكون القرار الفعلي بيد علي بن عيسى وأن يكون الوزير حامد بن العباس مجرد واجهة!

وأما ابن الفرات فقد نزل به العزل والإهانة للمرة الثانية، وصودرت منه أموال كثيرة، وضُرب ابنه وأصحابه وصودرت أموالهم!! والسعيد من وُعِظ بغيره، والشقي من وُعِظ بنفسه!

لم يكن حامد بن العباس رجل سياسة أو رجل دولة ناجحا، ولما رأى أنه مجرد واجهة استأذن الخليفة في أن يعود إلى واسط وتعهد له بإمداد الخلافة بجباية أموال الضياع والأراضي التي استصلحها الناس حديثا في سواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة وأصفهان، فأذن له الخليفة (٣٠٧هـ)، وكانت خطته هي تخزين أكبر قدر من الغلال حتى يبدو وكأنه أدخل إلى الخزينة ما لم يستطع أحد إدخاله من قبله، ونجحت الخطة مؤقتا فوثق الخليفة به وأعطاه مزيدا من الصلاحيات حتى خشي علي بن عيسى من هذا التغول لحامد، لكن الأمر لم يلبث طويلا حتى نزلت الأزمة، إذ ارتفعت الأسعار حين تم تخزين الغلال، وحدث اضطراب وشغب في بغداد حتى انطلق الناس فكسروا المنابر واقتحموا المخازن، ثم حين بدأ حامد في مواجهتهم، توسعت المواجهات حتى اقتحموا مركز الشرطة والسجون فأخرجوا المحبوسين، حتى اضطر المقتدر لتكليف فرقة من الجيش بإنهاء هذا الشغب فسيطر الجيش على الوضع، ثم

أعلن المقتدر الأمان بعد أن عاقب المشهورين بالفساد ممن استغلوا الأحداث وزادوا في النهب فقطع أيديهم، ثم أعلن الأمان العام ليهدأ الناس، فسكنت الأمور، لكن ما إن ظهر حامد بن العباس متوجها في موكب الوزارة إلى قصر الخلافة حتى رجمه الناس، فأمر المقتدر بفتح مخازن الغلال التي يملكها حامد والتي تملكها أمه، فرخصت الأسعار فهدأت الأحوال، وأمر المقتدر بعزل حامد بن العباس عن جباية المناطق.

لكنه بقي في منصب الوزير، وبقي علي بن عيسى في منصب رئيس الدواوين الذي هو نائب الوزير، وعمليا فإن علي بن عيسى هو القائم بأعمال الوزارة فعليا، ويبدو أن حامد بن العباس بقي في المنصب رغم كراهية الناس بما بذله من أموال لمراكز القوى، منها بستان فاخر بناه (٣٠٩هـ) وأهداه للخليفة بعد أن أنفق عليه «مائة ألف دينار، وفرش مساكنه بأنواع المفارش المفتخرة»[١].

غير أن ما أنفقه من أموال لم يشفع له ولم يُبقِه في مكانه، فثمة من يستطيع أن يدفع أكثر!!

اجتمع أكثر من سبب أدى إلى عزل حامد بن العباس، ومعه علي بن عيسى، أهمها أن الجواري ونساء البلاط لم يعجبهن إمساك علي بن عيسى عن إعطائهن ما يُرِدْن من الأموال، فكُنَّ يرجعن بالشكوى إلى المقتدر، وكذلك فعل بعض العسكريين الذين سخطوا على علي بن عيسى في الإنفاق، ويبدو بالفعل أن الخزينة كانت تعاني خللا وأن علي بن عيسى كان يسعى في توفير النفقات.

من جهة أخرى كان المحسن ابن الوزير ابن الفرات –الذي لقبه الناس بالخبيث بن الطيب– يدبر تواصلا مع القصر، لا سيما مُفْلِح وهو من خاصة المقتدر وعلى خلاف شديد مع الوزير حامد، لإعادة أبيه الوزير ابن الفرات إلى منصب الوزارة، فتعهد المحسن بأموال طائلة وأرسل إلى الخليفة بأنه إن عزل حامد بن العباس وعلي بن عيسى ورجالهما وصادر أموالهم فإنه سيدخل للخزانة سبعة ملايين دينار!

لعبت الأموال الطائلة برؤوس رجال القصر ونسائه، وصدر عن المقتدر (٣١١هـ) قرار عزل حامد بن العباس وعلي بن عيس ورجالهما، وولى ابن الفرات وزيرا للمرة الثالثة، وقُبِض

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٥٢.

عليهما، فصودر من حامد بن العباس مليون دينار ثم عُذِّب على يد المحسن بن الفرات ثم قُتِل بالسُّمّ (رمضان ٣١١هـ)، كذلك عذَّب المحسنُ بن الفرات عليَّ بن عيسى وصادر منه ثلاثمائة ألف دينار برغم أن علي بن عيسى كان من المحسنين له ولأبيه من قبل، وعَذَّب وصادر ما استطاع من الرجال المعزولين أتباع علي بن عيسى.

وقد كان من أسوأ عيوب ابن الفرات أنه لا يرد ابنه ولا أصحابه المقربين عن ظلمهم إذا ظلموا ولا يتقبل فيهم شكاية أحد[1].

لم يَرض رجال الدولة بهذا التعذيب والمصادرة والإساءة لرجال الدولة من ابن الوزير ابن الفرات، وسعوا في توصيل هذا إلى الخليفة المقتدر، وعلى رأسهم: مؤنس الخادم قائد الجيش وأقوى الشخصيات العسكرية في ذلك الوقت وصاحب الانتصارات الكبيرة على الروم وعلى كثير من التمردات، وكان لتوه عائدا من نصر كبير على الروم، ومعه نصر الحاجب، لكن ابن الفرات كان مستحوذا على الخليفة فأشار عليه بإبعاد مؤنس عن بغداد إلى الشام وخَوَّفه من شخصيته وقوته، فاستجاب له المقتدر، ثم سعى في الوشاية بنصر الحاجب وأغرى الخليفة بمصادرة أمواله الكثيرة لتدخل إلى خزانة الخليفة، لكن نصرا انتبه للمؤامرة واحتمى بنفوذ أم المقتدر فلم يُصَب بأذى.

ومن عجائب القدر ومواطن العظات والعبر أن ابن الفرات لم يكمل العام في منصب الوزارة، فما هي إلا عشرة أشهر حتى انقلبت عليه الأحوال ودالت به الأيام مرة ثالثة، وذلك حين تلقى جيش الخلافة هزيمة قبيحة من القرامطة (٣١٢هـ) وكثر القتلى وفيهم بعض من كبار القادة العسكريين[2]، فخرج أهلهم في بغداد في احتجاج يجمع بين المأتم والمظاهرات، وخرجت نساؤهم يَصِحْن بالنياحة ولطم الخدود، وانضم إليهم كل من كانت له مظلمة من الناس، لا سيما ممن صودرت أموالهم وأهينوا من رجال الدولة على يد الوزير ابن الفرات وابنه المحسن، فكان يوما مشهودا ببغداد.

ومن ناحية أخرى انتقم رجال الدولة لأنفسهم، فكان نصر الحاجب أول من أشار على الخليفة بأن القرامطة لم يفجروا بهذا الحد إلا حين اطمأنوا إلى غياب القائد القوي مؤنس،

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٢.

(٢) وسنأتي لتفصيل هذا في استعراضنا لتطور حركة القرامطة في عهد المقتدر بعدئذ.

والذي أرسله الخليفة إلى الشام بوشاية ابن الفرات الذي كان يحب التخلص منه، مما أفقد الخلافة قائدا قويا كمؤنس، فأمر الخليفة بالقبض على ابن الفرات (٨ ربيع الأول ٣١٢هـ) فاقْتُحِم عليه بيته وأُهين وأخرج منه ذليلا، فلما خرجوا به رجمه الناس، وأُلْزم بأداء مليوني دينار، وأُلزِم ابنه المحسن بثلاثة ملايين دينار، وأرسل الخليفة إلى مؤنس ليأتي من الشام إلى بغداد، فقدم مؤنس وتولى الانتقام بنفسه، ثم انتهى الأمر بقتلهما ذبحا (١٣ ربيع الأول ٣١٢هـ) باتفاق كبار رجال الدولة فيما بينهم، وقد خشوا أن تكون حياته فرصة أخرى ليتولى الوزارة وينكل بهم!

وهكذا تفعل بالمرء شهوة المناصب.. لم يكف ابن الفرات مرة في الوزارة ولا مرتان، ولم يتعظ من عزله مرتين من قبل عزلا مهينا، لم يعتبر من تقلب الأيام والأحوال مع خليفة غير ضابط لأمره يستطيع أحد من حاشيته أن يستميله، كما يستطيع من هو من غير الحاشية أن يدفع أكثر ليتولى الوزارة.. لم يتعظ ابن الفرات ولا ولده الأحمق من مصائر الوزراء ومصائرهم أنفسهم حتى أهلكتهما شهوة السلطان.. شهوة السلطان التي جعلت الوزير يقدم مصلحته على مصلحة الأمة والخلافة؛ فيبعد قائدا قويا يهابه المتمردون لكي تفرغ له الساحة في بغداد، ويتفرد بالتأثير على الخليفة.. ألا ما أكثر الأحداث، وما أقل من يتفكر!

ومن عجيب أمر ابن الفرات أنه كان يفطن لتقلب المقتدر واضطرابه في القرارات وسهولة التأثير عليه، ومع هذا لم يتعظ، بل إنه توقع أن يُقتل على يد المقتدر لوشاية من أحدهم إذا استطاع استغلال لحظة للتأثير في المقتدر ومع هذا استمر حرصه على الوزارة.. فيالله، كيف تهلك شهوة السلطان صاحبها ولو كان ذكيا فَطِنًا!!؛ شوهد مرة مهموما مغموما، فسُئل عن السبب «فقال: كنت عند أمير المؤمنين فما خاطبته في شيء من الأشياء إلا قال لي نعم، فقلت له الشيء وضده، ففي كل ذلك يقول: نعم. فقيل له: هذا لِحُسْن ظَنِّه بك وثقته بما تقول واعتماده على شَفَقَتِك[١] فقال: لا والله، ولكنه أذن لكُلِّ قائل، وما يُؤَمِنِّي أن يُقال له بقتل الوزير فيقول نعم؟ والله إنه قاتلني»[٢].

تحركت رغبات المتطلعين إلى الوزارة، ومنهم عبد الله بن محمد الخاقاني، ابن الوزير

---

(١) أي: حسن رعايتك لأمر الدولة وحرصك على مصالحها.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢١.

الأسبق (ثاني وزير في عهد المقتدر) وقد تعهد بأن يتولى مصادرة مليوني دينار من أموال ابن الفرات، وتولى الوزارة بالفعل (٩ ربيع الأول ٣١٢هـ)، وكان كأبيه وزيرا فاشلا لا يحسن إدارة الدولة.

لم يلبث أن ظهرت شخصية أخرى، وهي أبو العباس الخصيبي كاتب أم المقتدر، وقد استطاع أن يتوصل إلى مكان امرأة الوزير المقتول ابن الفرات فاستأذن من الخليفة أن يتولى التحقيق معها واستصفاء أموال ابن الفرات، وقد سلك بغير شك طرقا غير مشروعة في التضييق عليها وإهانتها، فاستطاع استخلاص سبعمائة ألف دينار قدمهما للمقتدر ليوليه الوزارة، فارتفعت مكانته عند المقتدر، وفشل الخاقاني الابن في إفشال مساعي الخصيبي، ثم نزل به مرض أقعده عن إدارة الدولة فجاءت الأزمات إذ تأخرت رواتب الجند فتمردوا وشغبوا، فعزله المقتدر وولى الوزارة للخصيبي (رمضان ٣١٣هـ) بعد عام ونصف فحسب من وزارة الخاقاني!

وإذا كان الخاقاني وزيرا فاشلا فقد كان الخصيبي أفشل منه وأسوأ، فقد كان سكيرا مدمنا للخمر، مهملا لأحوال البلاد والعباد، لا ينظر في الرسائل والمكاتبات ولا يتابعها، وعهد بالتصرف إلى نواب وضعهم لكي ينوبوا عنه، وهؤلاء حين لم يجدوا من يسألهم ويتابعهم فسدوا وأفسدوا، وساءت أحوال البلاد، وتسبب قراره المتخبط في مهلك جيش أمام القرامطة[1]، فأشار مؤنس على الخليفة بعزله وإعادة تولية الوزير الصالح علي بن عيسى، فاستجاب الخليفة وعزل الخصيبي (ذي القعدة ٣١٤هـ) بعد سنة وشهرين فقط، وصودرت أمواله وأموال ابنه وأصحابه، وحُبِسوا، وعلى غير عادة الوزراء في تعذيب من قبلهم واستصفاء أموالهم عهد الوزير علي بن عيسى بالأمر إلى لجنة تحقيق من القضاة والفقهاء ظهر فيها الفشل الذريع والإهمال الجسيم للخصيبي، ثم قام علي بن عيسى بأمر الوزارة خير قيام فصلحت الأحوال وتمهدت الأمور.

---

(١) وهو جيش يوسف بن أبي الساج الذي استقدمه من بلاد أرمينية وأذربيجان –وهي بلاد تنخفض فيها درجة الحرارة ويكثر فيها الثلوج– ليحارب القرامطة في الأحساء شرق الجزيرة العربية حيث درجات الحرارة العالية، ولم يرتب موارد لهذا الجيش.. وسنأتي لتفصيل أمره في استعراضنا لحركة القرامطة بعد قليل إن شاء الله.

غير أنه لم يكمل طويلا في الوزارة، وكان السبب هو هو، كثرة نفقات النساء لا سيما أم المقتدر، والزيادات التي يعطيها المقتدر للأجناد مما يختل به ميزان الإنفاق، ثم أضيف إلى ذلك حزازات جرت بينه وبين نصر الحاجب الذي كان على خلاف دائم مع قائد الجيش مؤنس الذي هو سبب تولية علي بن عيسى الوزارة، فحين تولى مؤنس أمر الشام ولم يعد مقيما في بغداد فقد علي بن عيسى ظهيره في القصر، ثم أضيف إلى كل هذا ما نزل بالبلاد من كارثة القرامطة الذين عاثوا فسادا في الجزيرة العربية وفي العراق وفي الجزيرة الفراتية ولا يكاد يقف لهم أحد حتى هددوا بغداد ذاتها، ولم يكن الخليفة ولا رجاله على مستوى الحدث أبدا، لكل هذا استقال علي من منصب الوزارة وأصر على الاستقالة حتى استجيب له، وظفر بها ابن مقلة، وهو من رجال ابن الفرات القدامى (٣١٦هـ)[١].

وسيكون لابن الفرات وللخلافة كلها حديث ذو شجون ودموع!

٤) الإسراف والتبذير

نستطيع أن نرى صورة الفخامة والترف التي كان عليها أمر الخلافة حينئذ حين استقبل المقتدر وفدا من الروم جاؤوا لعرض اتفاق لمبادلة الأسرى (٢٠٥هـ)، فحينئذ عزم المقتدر على إظهار مكانة الخلافة وأبهتها وجلالها، فاصطفت الجيوش والعساكر التي كانت في بغداد وقد بلغ عددها ١٦٠ ألفا، بكامل العدة والسلاح والملابس الفاخرة، وكان من غلمان الخليفة سبعة آلاف غلام في الملابس الزاهية المترفة، بالإضافة إلى سبعة آلاف من حرس البوابات، إلى غير ذلك من المراكب والسفن الملكية التي تعوم في نهر دجلة الذي يمر في قصر الخلافة، فمر وفد السفارة مندهشا مبهورا مأخوذا بما يراه من عزة الخلافة العباسية، حتى إذا وصل إلى الحاجب في زينته وحرسه ظن أنه الخليفة، ثم مر بالوزير في زينته وحرسه فظن أنه الخليفة، ثم عبر هذا ليصل إلى دار الخلافة داخل القصر الملكي، والتي كان يعلوها ثمانية وثلاثون ألف ستارة حريرية منها عشرة آلاف وخمسمائة مذهبة، وعلى الأرض وُضع اثنان وعشرون ألف بساط نقشت عليها الرسوم والألوان والفنون، وعبر فيها إلى ما يُعرف بـ«دار الشجرة» والتي كانت عبارة عن حوض مائي كبير في وسطه نصبت شجرة من الجواهر، أغصانها من الذهب والفضة وتتدلى ثمارها من اليواقيت وأنواع الأحجار الكريمة، وتصدر عنها أصوات

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٩، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٧٩.

العصافير والبلابل، وقد صممت الشجرة بحيث تتمايل مع الهواء كما تتمايل الأشجار الطبيعية، ثم عبر إلى رواق يسمى «الفردوس» ليرى فيه أعاجيب أخرى حتى انتهى إلى مجلس الخليفة المقتدر، الذي كان يجلس على كرسي من خشب الأبنوس مفروش بالحرير المطرز بالذهب، وتحف به عناقيد الجواهر والياقوت المدلاة من السقف، فكان ضوء الشمس إذا سقط على هذه العناقيد انعكس على الجدران ليشكل أجواء خيالية حول الخليفة. ثم أوقف الرسول على بعد عن الخليفة بينهما الوزير والمترجم، ولما انتهى الكلام بينهما، أنعم الخليفة على الوفد بربع مليون درهم، ثم أُخِذوا في جولة على أنحاء قصر الخلافة.

ولا ينكر أحد أهمية أن تظهر الخلافة قوية عزيزة أمام السفارات، ولكن في المقابل لا يسع أحدا ألا يرى في كل هذا الترف من التبذير والإسراف ما لا يرضى عنه ضمير حي، لا سيما وأن الأموال التي أنفقت على هذا لم تكن قوة حقيقية للدولة، بل هي إما مما تركه الخلفاء الأقوياء كالموفق والمعتضد والمكتفي، وإما مما تعهد بجمعه الوزراء والولاة لاكتساب الشرعية والوصول إلى المناصب والبقاء فيها.

وعلى رغم ما مر بالخلافة من أهوال فيما بعد عهد المقتدر نهبت فيها كنوز القصور ونفائس بيت الخلافة وضاعت فيها كثير من التحف والبدائع وروائع الآثار، إلا أن كثيرا من هذه بقيت بعد موت المقتدر بسنوات طويلة، نراها منثورة في مواقف ولقطات عبر العهود المتعاقبة، منها على سبيل المثال تمثال نحاسي «على صورة امرأة حسناء جدا، وحولها أصنام صغار في هيئة الخدم لها»[١].

ولأجل الاستكثار من الأموال كانت الولايات تُعطى لمن يتعهد بالإدرار على الخلافة بالأموال، مثلما تولى يوسف بن أبي الساج على أرمينية وأذربيجان مقابل مائة وعشرين ألف دينار سنويا (٢٩٦هـ)، وقد يكون الوالي قد تغلب على الولاية على غير عهد من الخلافة فهو إن أراد اكتساب الشرعية فإنه يتعهد بالدفع مثلما فعل سبكري –أحد غلمان عمرو بن الليث الصفار– الذي تغلب على فارس رغما عن الخلافة ثم اكتسب رضاها بمال سنوي، وكذلك فعل سُبُك حين تغلب على أذربيجان مقابل مائتين وعشرين ألف دينار سنويا (٣٠٤هـ)، وأحمد بن صعلوك حين تغلب على الري مقابل مائة وستين ألف دينار (٣٠٤هـ)، وكثير بن

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٨٧.

أحمد حين تغلب على سجستان مقابل نصف مليون درهم (٣٠٤هـ)، ويوسف بن أبي الساج أُعْطِي الري وقزوين وأذربيجان مقابل نصف مليون دينار (٣١٠هـ)[١].

وكانت مصادرات الأموال موردا مهما تدخل من خلالها الأموال إلى الخزانة، وقد بلغت المصادرات حدا بعيدا، حتى إن أبا علي الجصاص التاجر الكبير -أو رجل الأعمال الكبير بمصطلحات عصرنا الآن- صودر ذات مرة (٣٠٢هـ) بخمسة ملايين دينار بخلاف الجواهر والآنية والثياب والتُحَف[٢]، وكان الجصاص هذا من القادرين على إنقاذ الخلافة أحيانا بأمواله حتى قال الراضي بالله يوما: «فما أجد في زماني مياسير من الكتاب والتجار يحمل بمثلهم الملك ويلجأ إليهم مثل ابن الجصاص في التجار ومن يقاربه»[٣].

وأخبار المصادرات كثيرة في هذا العهد!

وهذا بخلاف الهدايا التي كان يرسلها نواب الأقاليم وولاة الأنحاء إلى الخلافة، تعبيرا عن الولاء وحفظا للود، وكان كل والٍ يُهدي على قدر نفسه وغنى ولايته، وتأتي الهدايا أموالا وثيابا وعبيدا وأسلحة وطيورا وحيوانات من بدائع المخلوقات ومن نوادرها، من ذلك نصف مليون دينار جاءت من مصر (٢٩٩هـ) بعد أن اكْتُشِف كنز قديم، كان من بينه ضلع إنسان طوله أربعة أشبار وعرضه شبر، وكان في نفس الهدية تيس له ضرع يَحْلِب لبنا! وأرسل يوسف بن أبي الساج في نفس العام من بين هداياه بساطا ضخما طوله سبعون ذراعا وعرضه ستون ذراعا، استغرقت صناعته عشر سنوات ولا يقدر بثمن، وفي عام (٣٠١هـ) أرسل والي عُمان من بين هداياه بغلة بيضاء وغزال أسود، ومن مصر أيضا أرسل الحسين بن المادراني (٣١٠هـ) بغلة أنجبت صغيرها! وغلام يصل لسانه إلى طرف أنفه. واكتشف مؤنس الخادم في طريقه إلى مكة (٣١٩هـ) عجائب من الآثار الضخمة والتماثيل وحمل منها أشياء إلى الخليفة.

هذه بشكل عام مجمل هي أهم موارد الأموال إلى خزينة الخلافة، وهي موارد هائلة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٦٤، ٤٩٤، ٤٩٥، ٧/ ١٠.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٧٩، والمسعودي: مروج الذهب ٢/ ٦٦٥ (ط الشركة العالمية للكتاب، بيروت)، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٨٤.

(٣) الصولي: أخبار الراضي والمتقي ص١٦.

وكبيرة، وقوة مخزونة للدولة لو أن إنفاقها كان رشيدا!!

غير أن الإنصاف يلزمنا بالقول أنه لم يكن الإسراف والتبذير في إنفاق المقتدر أو كل نفقات الدولة كان على اللذات والملاهي، بل إن الدولة استعملت الأموال في الإنفاق على المؤسسات الخيرية والمستشفيات والمدارس.

وكان المقتدر بطبعه السمح الكريم ينفق على الفقراء والمحرومين واليتامى كثيرا، ومن ذلك أن المقتدر حين ختن أولاده (٣٠٢هـ) ختن معهم كثيرا من اليتامى وأحسن إليهم بالمال والثياب حتى أنفق في هذا الختان ستمائة ألف دينار، كذلك أوقف المقتدر أموالا طائلة وضياعا له على عمارة الحرمين الشريفين (٣٠٣هـ)، وفي (١ المحرم ٣٠٦هـ) افتتح المستشفى الكبير الذي بنته أم المقتدر، وكان مديرها الطبيب الكبير الشهير سنان بن ثابت، وقد كانت ميزانية المستشفى ٦٠٠ دينار شهريا[١]، وقد طَلَب سنان من الخليفة بناء مستشفى آخر فوافق المقتدر وبنى المستشفى المقتدري في نفس هذا العام (٣٠٦هـ)[٢]، وكانت نفقته الشهرية تبلغ مائتي دينار يدفعها المقتدر من أمواله الخاصة[٣].

وقد شاع هذا السلوك بين رجال الدولة إذ نرى الوزير علي بن عيسى يبني هو الآخر مستشفى في بغداد (٣٠٢هـ) وينفق عليه من أمواله الكثير[٤]، ثم نرى الوزير ابن الفرات يبني آخر بعد ذلك بتسعة أعوام (٣١١هـ) وتكون ميزانيته الشهرية -وتبلغ ٢٠٠ دينار- من أموال الوزير نفسه، وكانت أم المقتدر تنفق أغلب دخلها السنوي الذي يقدر في بعض الروايات بمليون دينار على الحجاج وحاجتهم من الطعام والزاد وتمهيد الطرقات والبعثة الطبية المرافقة لهم[٥].

ونرى في ذلك العهد القوافل الطبية التي تذهب إلى الأماكن المتطرفة والبعيدة لتعالج من تنقص لديهم الرعاية الطبية، وتشمل الرعاية الصحية لتلك القوافل حتى الحيوانات

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٣٨، ١٣٩، ١٤٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٥٠٢، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٤٦.
(٣) القفطي: أخبار الحكماء ص١٥١.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ١٥١.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٣٩، ١٦٨، ١٩٩.

والبهائم، كما شملت الرعاية الصحية المحبوسين الذين اكتشف أن بعض السجون توفر أجواء لنقل العدوى أو الإصابة بالأمراض(١).

وفي عهد المقتدر بدأ نظام امتحان الأطباء ومنحهم شهادات لممارسة المهنة بعد أن مات واحد من الناس لخطأ طبي، فأمر المقتدر كبير الأطباء سنان بن ثابت بإيقاف الجميع عن العمل وامتحانهم ثم لا يُسمح لمن لم يَجُز شهادة الصلاحية بعلاج الناس(٢).

فكل هذه –وغيرها– من مسارات الإنفاق، ولا نستطيع الإشارة إلى أكثر من هذا فمكان النقاش التفصيلي لهذه الأمور هو في كتب الحضارة لا التاريخ السياسي.

٥) شعب مضطرب

وفي ظل اضطرابات قرارات الخلافة وكثرة التولية والعزل، وتعدد نفوذ مراكز القوى في بلاط الخلافة، انعكس هذا الوضع على العامة التي راجت بينها الشائعات وتسببت في أكثر من أزمة، وستصل هذه الشائعات إلى حد خطير يؤثر على الخلافة نفسها، كما تعددت حركات التمردات الصغيرة والفتن بين الناس الذين صار خلافهم المذهبي قادرا على إشعال المشكلات، بما حملته هذه التحركات من اعتداء على منشآت الدولة وتهريب للمساجين وما إلى ذلك..

أول ذلك كان في منًى حيث وقعت معركة بين الجنود وبين الوالي نجح بن جاخ (١٢ ذي الحجة ٢٩٥هـ) حين طالبوا بالمكافأة المعهودة حين يتولى خليفة جديد، وكان النصر له وقُتِل منهم جماعة(٣).

وفي البصرة انفجر الوضع بين أهلها وقائدها العسكري الحسن بن خليل بن رمال أكثر من مرة، ثم هدأت بفعل القوة أو إصلاحات وقتية، حتى كان عام (٣٠٥هـ) انفجر أهل البصرة وحاصروا الحسن بن خليل ومعه كل الجنود حتى لم يستطع أن يخرج من بيته في ناحية تسمى «رحبة بني نمير» بل إنهم قطعوا القناة المائية التي تغذي هذه الناحية، وكانوا يقتلون كل جندي في جيشه، ورغم أن الحسن قاد مجموعة من عساكره لإخماد هذه الثورة وقتل خلقا

---

(١) القفطي: أخبار الحكماء ص١٥٠، ١٥١.
(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ٢١١.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٣٩.

كثيرا من الناس إلا أنه عجز في النهاية عن تهدئتهم وخرج من البصرة، واضطر المقتدر إلى عزله[١].

وحدث تمرد بين المساجين (ربيع الآخر ٣٠٦هـ) استطاع قائد الشرطة نزار بن محمد إخماده في بغداد[٢]، ثم عزل المقتدر نزار بن محمد وولى نجح الطولوني –أخا سلامة حاجبه– قيادة الشرطة رغم أنه كان ضعيفا لا يتمكن من ضبط الأمور كما ينبغي، فشهد عهده انفلاتا أمنيا كبيرا حتى كان المفسدون يقولون «اخرج ولا تبالي.. ما دام نجحٌ والي»[٣]، وفي ذات الشهر (ربيع الآخر ٣٠٦هـ) سرت شائعة بين الناس أن المقتدر مرض ومات واضطربت الأحوال حتى اضطر المقتدر أن يخرج في موكب بحيث يراه الناس لقتل هذه الشائعة وتسكين الأحوال[٤]. ووقعت في نفس العام (٣٠٦هـ) فتنة بين الحنابلة وأهل بغداد حتى أمر المقتدر بحبس جماعة منهم في البصرة[٥].

وهجم كثير من الناس على السجون وأخرجوا من كان فيها (٣٠٧هـ) إلا أن الشرطة استطاعت أن تعيد كل من هربوا مرة أخرى[٦]، وقد مرَّ بنا تمرد العامة حين غلت الأسعار (٣٠٧هـ) بفعل سياسة الوزير حامد بن العباس.

وفي الموصل في ذات العام (٣٠٧هـ) وقعت اشتباكات بين أصحاب المطاعم والأساكفة واحترق فيها سوق الأساكفة، ولم يستطع الوالي العباس بن محمد بن إسحاق بن كنداجيق –وكان خارج المدينة– أن يدخل إليها، فاستعمل المرتزقة من الأعراب فازداد الوضع سوءا واشتعالا بما ارتكبه الأعراب من نهب وسلب وقطع للطرق، فعزله المقتدر واستبدل به عبد الله بن محمد الفتان، وكان عفيفا صارما فمنع الأعراب عن التخريب واستطاع تهدئة الأمور[٧]، وتكرر نفس هذا الحادث بعد عشرة أعوام (١٥ المحرم ٣١٧هـ) إذ اندلعت

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٩٧.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ١٧٩.
(٣) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٥/ ١٢٤.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ١٧٩.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٥٠١، ٥٠٢.
(٦) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ١٨٩.
(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٥٠٦.

الاشتباكات بين أصحاب المطاعم من ناحية وبين المُرَبِّعة والبَزَّازين من ناحية أخرى ثم انضم إلى الأخيرين الأساكفة فاقتتلوا حتى كانت محرقة كبيرة في الأسواق ومقتلة بين الناس، ولم يستطع الوالي الحسن بن عبد الله الحمداني إنهاء الأزمة حتى تدخل العلماء وأهل الدين فسكنت الفتنة أخيرا[١].

وتمرد العامة في الموصل (٣١٠هـ) حتى قتلوا نائب الوالي[٢]، وأدت الهزيمة القبيحة من القرامطة لجيش الخلافة (٣١٢هـ) إلى تمرد كبير في بغداد حتى كسر الناس منابر المساجد، ودهنوا المحاريب بالسواد حزنا واحتجاجا، ولم تهدأ الأمور إلا حين عُزِل الوزير ابن الفرات كما ذكرنا من قبل.

وتجدد اشتباك آخر كبير في بغداد (٣١٧هـ) للاختلاف في تفسير آية بين الحنابلة وبين العامة، حتى اقتتلوا ومات منهم كثيرون، في ذات العام الذي اقتحم فيه القرامطة الحرم المكي ونهبوا الحجر الأسود، وهو ذات العام أيضا الذي ضعف فيه أمر الجهاد في الثغور حتى استسلم أهل المدن وعزموا على الدخول في طاعة ملك الروم إذ لم يجدوا أي غناء عند الخلافة ولا أي مدد منها[٣]! وفي (٣١٨هـ) وقعت معركة أهلية جديدة في نصيبين، أحرقت فيها الأموال ونهبت البيوت، واستولوا على قافلة كانت في طريقها إلى الشام فانتهبوها[٤].

وغير بعيد عن هذه الاضطرابات حرائق في مناطق مدنية، منها حريقان كبيران وقعا في الكرخ ببغداد (٣٠٧، ٣٠٩هـ) احترق فيهما كثير من الناس والبيوت.

ووصلت الاضطرابات إلى صفوف العسكريين ضد الدولة، وإلى رجال الدولة ضد بعضهم مما كانت له نتائج خطيرة سنأتي إليها بالتفصيل فيما بعد.

وهكذا كانت ملامح عهد المقتدر، وهي ملامح تؤدي إلى الانهيار، وتبشر بقدومه.. وقد كان، واضطربت خلافة المقتدر عليه كما سنرى!

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١١.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٧.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٦٣.

حركات التمرد

في العهود المضطربة تكثر حركات التمرد وحركات الانفصال، وقد بدا هذا بوضوح في عهد المقتدر، وأثمرت حركات التمرد عن نتائج غير مسبوقة من الانفصال بالأنحاء والسيطرة عليها، فالشرق الذي يتولى أمره السامانيون زاخر بالاضطرابات وانتقال الدول من الزيديين إلى الديالمة والجيليين، وخرج الأمر عن سيطرة السامانيين وخرج في المشرق من يقول: «أنا أمحو دولة العرب وأرد دولة العجم»، وفي المغرب حدثت تطورات أخطر: ففي الأندلس أعلن الأمير الأموي عبد الرحمن الناصر أنه الخليفة بعدما رأى من ضعف وانهيار المقتدر خليفة العباسيين وكان عبد الرحمن الناصر يسيطر على الأندلس وأجزاء من المغرب الأقصى، وأما في الشمال الإفريقي فقد ظهرت الدولة الفاطمية التي انطلقت تأكل الأرض الإسلامية وتسيطر عليها في سرعة مدهشة وأعلنت أنها الخلافة الشرعية، وفي الحجاز بلغ فجور القرامطة مداه حتى لقد اقتحموا مكة وانتزعوا الحجر الأسود وهددوا العراق وحواضره دون أن يجدوا مقاومة حاسمة، وفي العراق نفسه ظهرت انفصالات على الحقيقة كما أسس بنو حمدان حكمهم في الموصل وغير هذا..

وقد شغلت هذه الحركات الكبرى أنظار المؤرخين حتى لقد غاضت إلى جوارها حركات التمرد الصغيرة والمحلية والتي قُضِي عليها بسرعة، فلم يصلنا من أخبارها إلا القليل، هذا القليل هو ما نذكره في هذا المبحث ثم نفرد لكل تمرد كبير مبحثا وحده لما له من أهمية تاريخية.

ومن الملاحظ أن الدول الموالية للخلافة كالسامانيين في المشرق والحمدانيين في الموصل كان لهما إسهام كبير في القضاء على كثير من التمردات المحلية، بل سنجد أن الدولة الحمدانية في الموصل تكاد تكون قد تحملت عبء الأعراب والأكراد المتمردين في نواحيها فأعفت الخلافة من هذه المسؤولية، لكن هذا لم يمنع أن الخلافة أرسلت مددا أو أرسلت جيشا ساهم في مواجهة التمردات!

وفي هذا المبحث سنقتصر على ما واجهته الخلافة ذاتها من التمردات، فيما نتناول ما واجهه الحمدانيون عند الحديث عنهم وعن نشوء دولتهم في الموصل.

لقد كانت حركات التمرد التي واجهتها الخلافة محصورة –باستثناء ثلاثة فحسب– في

الأعراب الذين ظلوا كالشوكة في خاصرة الخلافة على رغم ما نزل بهم من ضربات، إلا أن طبيعة انتشارهم في قبائل يجعل الأمر لا يُحسم بحرب نظامية فهم يعتمدون أسلوب حرب العصابات في تنفيذ عملية ثم الكمون وربما يهربون أمام الجيش النظامي، ولا يكون إيقاع الهزيمة بهم أمرا حاسما دائما!

وبدأ الاشتباك بين الأعراب والخلافة في عهد المقتدر بالمعركة التي قادها الحسين بن موسى على أعراب قبيلة طيء الذين كانوا قبل هذا قد حاصروا فرقة من جيش الخلافة بقيادة وصيف بن صوارتكين (٢٩٤هـ) حيث كان أمير الحج، واستطاعوا أن يحاصروه ثلاثة أيام حتى قاتلهم وانتصر عليهم[١]، فكانت حملة الحسين بن موسى تأديبية لهم فهاجمهم على حين غرة منهم (٢٩٥هـ) فقتل منهم كثيرا وأسر كثيرا[٢].

كذلك استمر بنو شيبان في عادتهم قطع الطريق، وزاد الأمر حتى شن عليهم مؤنس الخادم -قائد الجيش- حملة عسكرية قوية (٣٠٢هـ) على مواطنهم في ناحية تسمى «وادي الذئاب» فقتل منهم خلقا كثيرا ونهب بيوتهم فأصاب فيها من أموال التجار التي كانوا أخذوها بقطع الطريق ما لا يحصى[٣].

لكن هذا لم يوقف قطع الطريق، ففي ذات العام وبعد شهور قطع الأعراب طريق الحجاج (ذي الحجة ٣٠٢هـ) فنهبوا الأموال والمتاع بل وأسروا مائتين وخمسين امرأة[٤]!

وأحيانا كان هؤلاء الأعراب يهاجمون القوة المكلفة بحماية الطريق مباشرة مثلما فعلوا عام (٣٠٣هـ) إلا أن قوة الطريق كانت أقوى واستطاع قائدها ورقاء بن محمد المرتب أن يقتل منهم وأن يأسر باقيهم، ولما أرسلهم إلى بغداد وأمر المقتدر بحبسهم انقض عليهم أهل بغداد فقتلوهم وألقوا جثثهم في نهر دجلة مما بهم من الغضب والرغبة في الثأر لما فعلوه من قطع الطريق[٥].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٦٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٣٥.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٦٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٤٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٨٦.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٨٦، ٤٨٧.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٨٩، ٤٩٠.

وكان أقوى ما فعله الأعراب في عهد المقتدر أنهم هاجموا منطقة سواد الكوفة (٣١٥هـ) فنهبوا وخربوا، كما اقتحموا الحيرة فنهبوها، فوجه إليهم المقتدر مَنْ أجلاهم عن هذه الأنحاء[١].

وبخلاف الأعراب لا نجد إلا ثلاثة تمردات ومشروع تمرد رابع أجهض قبل أن يولد، فأولهم ذلك الرجل الذي ظهر في «الجامدة»، وهي قرية كبيرة من نواحي واسط[٢]، يزعم أنه علوي، فقد ثار فيها وقتل الوالي واستولى عليها (٣٠٣هـ) ولكنه قُتِل بعد ذلك بقليل. والثاني: حين تمرد والي الخراج في كرمان خالد بن محمد المادراني (٣٠٤هـ) وعزم على توسيع نفوذه فسار إلى شيراز لكن جيشا من الخلافة قاده الأمير بدر الحمامي هزمه وقتله[٣]، والثالث: الرجل الذي ظهر في الكوفة (٣١٢هـ) وادعى أنه محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فقد ظهر من بعد دعوة سرية استطاع أن يجمع فيها ألفا من الأنصار من الأعراب وأهل سواد الكوفة، ولما استفحل أمره (شوال ٣١٢هـ) أرسلت الخلافة جيشا من بغداد فهُزِم وقُتِل كثير من أنصاره[٤] قبل أن يبلغ من آماله وأحلامه شيئا.

وأما مشروع التمرد الذي أُجهض مبكرا فهو ما وصل إلى الخليفة (صفر ٣١٣هـ) من أن بعض أتباع محمد بن إسماعيل هذا بنوا مسجدا يجتمعون فيه ويمثل مركز دعوتهم، وأنهم يسبون الصحابة ولا يصلون الجمعة، ويراسلون القرامطة ويعملون في الدعوة السرية لمحمد المذكور ويقولون إنه المهدي، فاستفتى المقتدر العلماء في هذا المسجد فأفتوا بأنه مسجد ضرار، فأمر بهدم المسجد وضرب من حصل عليه منهم[٥].

أحوال المشرق

مع موت الزعيم والرجل الكبير إسماعيل الساماني، وقد كان يحكم بلاد ما وراء النهر

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٧.
(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٩٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٩٥.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٣.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٧٣.

فضلا عن خراسان، بدأت بعض التمردات لا سيما في سجستان حيث أصل الصفاريين الذين انتهت دولتهم على يد إسماعيل الساماني، فخرجت سجستان عن سيطرة السامانيين الذين تولى الحكم فيهم أحمد بن إسماعيل الساماني.

وقد حاول الصفاريون استعادة السيطرة على مناطق من الشرق فتوجه طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار لينتزع فارس من سبكري الذي تغلب عليها، وقد ذكرنا أن سبكري –غلام عمرو بن الليث– قد استولى على فارس على غير رغبة الخلافة، فوقعت بينهما حرب انتصر فيها سبكري على طاهر بل وأرسله أسيرا إلى بغداد، ومعه وعد بدفع مبلغ من المال سنويا نظير إقراره على فارس، فكان ما أراد (٢٩٦هـ).

لكن الأمر لم يستقر له إذ حاربه الليث بن علي –من نسل الصفاريين– وانتصر عليه حتى أنفذ الخليفة قائده العسكري مؤنس الخادم، ومن بعده القائد الآخر الحسين بن حمدان، وقد ساعدت الظروف مؤنسا في إيقاع هزيمة سهلة بالليث بن علي، وأعاد سبكري إلى حكم ولاية فارس، لكن الأمر لم يدم طويلا إذ خاف سبكري من عبد الرحمن بن جعفر الكاتب وظن أنه يراسل الخلافة لخلعه من ولاية فارس فحبسه، ثم جعل مكانه آخر فأغراه بخلع الطاعة، مما جعل الوزير ابن الفرات يرسل جيشا آخر بقيادة وصيف بن صوارتكين ومحمد ابن جعفر لخلع سبكري متجنبا أن يعهد بهذه المهمة إلى مؤنس لما بينه وبين سبكري من صداقة، وقد استطاع الجيش هزيمة سبكري الذي هرب إلى خراسان، وعادت فارس إلى حكم الخلافة (٢٩٧هـ).

وأما أحمد الساماني فقد انطلق من بخارى –عاصمة الدولة السامانية– لحرب الصفاريين في سجستان، فأوقع بهم نصرا سهلا اضطر زعيم الصفاريين المعدل بن علي بن الليث الصفار إلى الاستسلام، فأخذه أحمد الساماني معه إلى بخارى وعادت سجستان إلى سلطة السامانيين (٢٩٨هـ)، ثم بلغهم أن سبكري في طريقه إلى سجستان فأسروه بسهولة، وأرسلوه إلى الخليفة في بغداد، فشكرهم الخليفة وأرسل إلى أحمد الساماني بالهدايا والخُلَع (٢٩٨هـ).

وجرت محاولة تمرد أخرى في سجستان، قادها شيخ خارجي كبير السن غاضب من أمير ساماني في بخارى، فانتقل إلى سجستان ونظم هناك تمردا مع الخوارج والصفاريين واستولى على سجستان وحبس أميرها من قِبَل السامانيين (٣٠٠هـ)، فأرسل الأمير أحمد الساماني

جيشا حاصر سجستان لتسعة أشهر، ثم مات الشيخ الخارجي فانقضى التمرد الذي أنهكه طول الحصار.

وأما طبرستان التي انتهت فيها قوة الزيديين من بعد مقتل محمد بن زيد العلوي، ثم استقرت سلطة السامانيين من بعد القضاء على تمرد محمد بن هارون، فقد بقيت هادئة ساكنة صالحة الأحوال تحت رعاية واليها الصالح العادل الحكيم عبد الله بن محمد بن نوح الذي استطاع ضبط أحوال طبرستان وأحسن إلى العلويين الذين كانوا حاضنة الدولة الزيدية، كما أحسن إلى الديلم الذين يجاورون طبرستان ويمثلون الامتداد الاستراتيجي لها، كما يمثلون العمق الذي يعتمد عليه المتمردون فيلجأون إليه، ومن ثم استقرت أحوال طبرستان «واستراح الناس معه ولقوا منه استقرارا لم يشهدوه قط» بتعبير ابن اسفنديار مؤرخ طبرستان[(١)].

إلا أن الأمر فيما تحت السطح كان يحمل بذورا جديدة، ذلك أنه قد وصل إلى طبرستان علوي آخر، بطل فذ وفقيه كبير، وهو الحسن بن علي الملقب بالأطروش، وذلك لأنه أصيب بالطرش في إحدى المعارك، فعمل هذا الرجل على نشر الإسلام بين الديلم، واستطاع أن يُدخل عددا كبيرا منهم في الدين (على المذهب الزيدي) وأن يكون زعيما حقيقيا في تلك الأنحاء، ولما فكر في التمرد على ابن نوح والي السامانيين باءت محاولاته بالفشل لما كان يتمتع به ابن نوح من حب واحترام بين العلويين والديلم، فلما أن مات ابن نوح، وتولى الأمر من بعده أبو العباس صعلوك الذي كان على النقيض من ابن نوح، استطاع الحسن الأطروش تهييج الديلم وقيادة تمرد كبير في طبرستان، حتى هزموا صعلوكًا وأخرجوه من طبرستان فانسحب إلى الري (٣٠١هـ) ثم إلى بغداد.

(١) ابن اسفنديار: تاريخ طبرستان ص٢٦٥.

أبلغ صعلوكٌ زعيمَ السامانيين الأمير أحمد الساماني بالخبر، وهو في رحلة صيد، فانزعج له كثيرا، وهو ما جعله ينسى احتياطات الأمن، فدخل عليه بعض غلمانه فقتلوه ليلا (٢٣ جمادى الآخرة ٣٠١هـ) في مفاجأة لم يكن يتوقعها أحد، وفقدت الدولة السامانية، بل والخلافة العباسية ذاتها، واحدا من أبطالها الذين كانوا يحملون هم المشرق ويحكمونه على خير ما يُرام، ومن هنا بدأ اضطراب الحال في الدولة السامانية، إذ تولى بعد الأمير أحمد ابنه نصر ذو الثماني سنوات، فكان يدبر أمر الدولة أحد رجالها المقربين من أبيه، لكن وجود نصر على رأس السلطة أفضى إلى خلع طاعة السامانيين في كثير من أطراف المشرق، سواء من داخل الأسرة السامانية في ما وراء النهر أو من خارجها في خراسان.

وقد ساهم هذا الاضطراب الذي حل بالسامانيين في ترسخ سلطة الحسن الأطروش الذي بعث دولة الزيديين في طبرستان من بعد انتهائها، وكان الحسن عادلا صالحا حسن السيرة، وقد أحبه الناس من قبل هذا منذ أن كان صاحب دعوة وقبل أن يكون صاحب



دولة، وانتصر الحسن الأطروش على جيش أرسله صعلوك من الري (٣٠٢هـ)، وبقي يملك طبرستان حتى توفي (شعبان ٣٠٤هـ)، وآل الأمر إلى الحسن بن القاسم العلوي الذي ستطول أيامه حتى (٣١٦هـ).

وباضطراب السامانيين اضطرت الخلافة أن تتحمل مواجهة عدد من التمردات التي جرت في الشرق، في سجستان (٣٠١هـ)[١]و(٣٠٤هـ)[٢]، وفي الري (٣٠٤–٣٠٧هـ) حيث خلع يوسف بن أبي الساج والي أرمينية وأذربيجان طاعة الخلافة واستولى على الري وأخرجها من سلطة السامانيين، ودارت بينه وبين جيوش الخلافة أكثر من حرب شديدة انتهت بأسره وحبسه بعدما أرهق جيوش الخلافة كثيرا، وفيما عدا يوسف بن أبي الساج كانت جيوش الخلافة تنهزم أو لا تصل إلى نصر حاسم ويكون الحل أن يتعهد المتغلب بدفع مبلغ سنوي إلى الخلافة نظير إقراره عليها[٣].

واستمر النزاع في الشرق أمدا بين القوتين: السامانيين، والزيديين، فالسامانيون وإن لم يستطيعوا استرداد طبرستان إلا أنهم ما زالوا يحكمون إقليم خراسان، والزيديون لا تكفيهم طبرستان ويحتاجون إلى موارد جديدة ليظل جيشهم قويا وولاء الجنود مستقرا، فصار بين السامانيين والزيديين حروب للسيطرة على المدن المهمة كالري وجرجان وغيرهما.

كانت الحروب سجالا، ولئن كان السامانيون ما زالوا أقوى فإن ميزة الزيديين أنهم أقرب جغرافيا وأقدر على إعادة تجديد المحاولة في وقت قصير، مما جعل الأمر سجالا غير محسوم، واضطرت الخلافة أن تدخل على الخط، فالزيديون علويون وهم خصوم تاريخيون للعباسيين وعلى مذهب مخالف ولا يرون صحة خلافة بني العباس أصلا.

أشار مؤنس الخادم على المقتدر أن يُخرج يوسف بن أبي الساج من السجن وأن يعيده إلى الولاية، فولاه المقتدر (٣١٠هـ) منطقة قزوين وأبهر وزنجان وأذربيجان مقابل نصف مليون دينار سنويا، ووضع في خدمته القائد العسكري وصيف البكتمري مع فرقة من الجيش، ولا شك أن هذا القائد وهذه الفرقة هي عين الخلافة، وذراعها أيضا، على يوسف بن أبي الساج

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٨٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٩٤، ٤٩٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٩٢ – ٤٩٤.

لضمان ولائه، وبهذا وضعت الخلافة قائدا قويا مواليا لها على حدود طبرستان لمواجهة توسع الزيديين.

بدأ يوسف في مهمته دون إبطاء، وهاجم الري التي كانت حينذاك في سلطة أحمد بن علي -أخي صعلوك والي السامانيين السابق على طبرستان- الذي خلع طاعة الخلافة وانحاز إلى الزيديين وخطب لهم في الري، فهزمه يوسف وقتله (٣٠ ذي القعدة ٣١١هـ) واستولى على المدينة ودخلها (ذي الحجة ٣١١هـ)، وواجه فيها تمردا (أول ٣١٣هـ) واستطاع إخماده وثَبَّت سلطته عليها (جمادى الآخرة ٣١٣هـ).

ثم استُدْعي يوسف بن أبي الساج (٣١٤هـ) من أذربيجان إلى العراق ليواجه القرامطة الذين بلغوا درجة خطيرة من التقدم نحو الكوفة، وكان هذا رأي الوزير الخصيبي، وهو رأي غير موفق لوزير فاشل كما ذكرنا طرفا من سيرته سابقا، وسنرى حين نأتي لاستعراض القرامطة كيف انتهى الحال بهذا الجيش، المهم في سياقنا الآن أنه حين استدعي يوسف بن أبي الساج إلى العراق عهد الخليفة بأمر الرِّي إلى الأمير نصر بن أحمد الساماني دون أي تنسيق مع يوسف بن أبي الساج، فخرج الساماني على رأس جيش فأخذ الري (جمادى الآخرة ٣١٤هـ)، وظلت الحروب بين السامانيين والزيديين مستمرة في منطقة الشرق وكانت الري إحدى المراكز المهمة التي تدور عليها وتنطلق منها المعارك، إذ الري تمثل الجبهة الغربية لحصار الزيديين، وبها يكون السامانيون في شرقهم (خراسان) وغربهم (الري)، وظلت الري تابعة للسامانيين حتى (شعبان ٣١٦هـ)، فحينئذ مَرِض محمد بن علي صعلوك -والي الري من قِبَل السامانيين- فراسل الزيديين وسلم المدينة إليهم!! ومات بعد قليل[١].

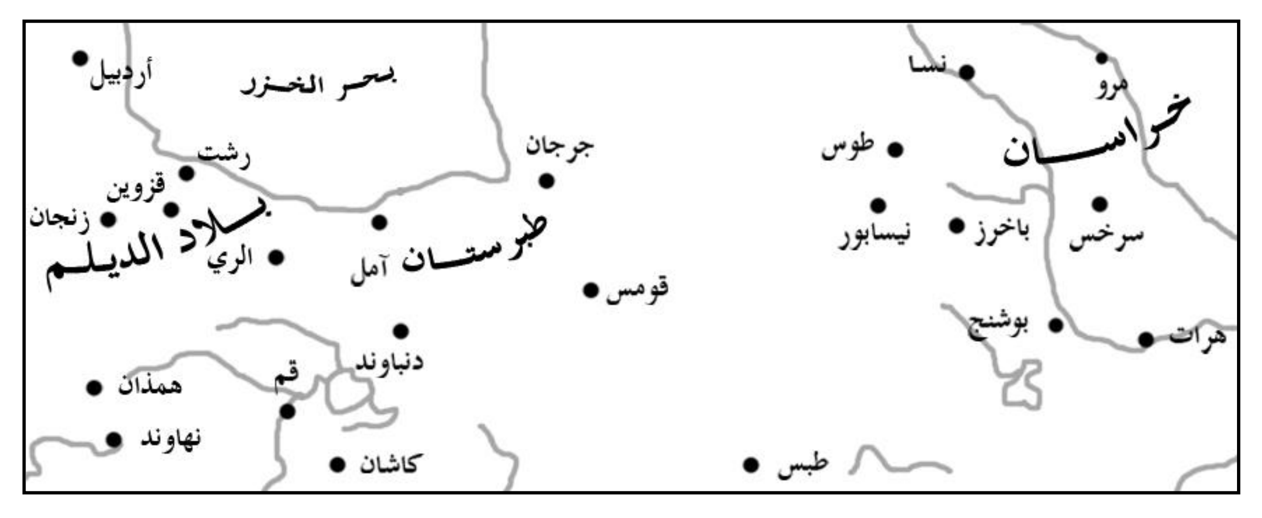
ومن بعد سقوط الري في قبضة الزيديين اعتمد السامانيون في حرب الزيديين على الجبهة الخراسانية في الغرب وحدها[٢]، وسيساعدهم في ذلك اضطرابات وانشقاقات بين رجال الدولة الزيدية.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٩.

(٢) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص٢٠٢.





في الشرق، كانت مدينة جرجان هي الجبهة التي تماثل الري في الغرب، وكانت نقطة ساخنة أخرى بين السامانيين والزيديين، وقد انتهز السامانيون –عبر ولاتهم في خراسان– انشقاق القائد العسكري أسفار بن شيرويه الجيلي على ماكان بن كالي الديلمي قائد جيش الدولة الزيدية ورجلها القوي، ويرى بعض المؤرخين أنه لعداء قَبَلي قديم بين الجيل والديلم[1]، فلجأ أسفار إلى نيسابور حيث دعمه السامانيون ووجهوه إلى الاستيلاء على جرجان[2].

ومن حسن حظه أن كانت كل الظروف مهيأة، فماكان بن كالي في طبرستان، وترك على جرجان أخاه أبا الحسن بن كالي الذي وقع بينه وبين ابن أبي الحسين الأطروش العلوي نزاع فقتله العلوي، وكان قادة الزيديين في جرجان يميلون إلى العلوي فنصبوه أميرا عليهم، واستقدموا أسفار بن شيرويه لما كان بينه وبين ماكان من عداء وليستقووا به على مقاومة ماكان بن كالي، وساعدهم السامانيون بالطبع، فانتصروا على جيش ماكان بن كالي الذي أتى مسرعا من طبرستان، بل إنهم طاردوه حتى أخرجوه من طبرستان نفسها فانسحب إلى الري، واستولى السامانيون في تلك الأثناء على جرجان[3].

ثم فجأة انقلبت الأحوال مرة أخرى، إذ توفي الأمير ابن أبي الحسين الأطروش العلوي، وتوفي بعده قائد الجيش، فانهارت معنويات رجال الانقلاب الذي لم يشتد عوده بعد، وجاء

---

(١) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص٢٠٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٥.

ماكان بن كالي مرة أخرى يهاجم طبرستان التي تولى الأمر فيها أسفار بن شيرويه الجيلي فانتصر ماكان وانسحب أسفار إلى جرجان، وحين مات واليها قرر الأمير نصر الساماني تولية أسفار على جرجان (٣١٥هـ)، ومنها استطاع أسفار وبالاستعانة بمرداويج بن زيار الجيلي – القائد العسكري الذي يشاركه في نفس الأصل: قبيلة الجيل- أن يستولي على طبرستان مرة أخرى[١].

وهكذا كانت الجبهة الشرقية تشهد انهزاما وانحسارا للزيديين الذين أخذت قواتهم تنساح نحو الغرب، وبالتحديد الرِّيِّ لتكون عاصمتهم البديلة، ولم يعودوا يواجهون الآن السامانيين فحسب، بل هم يواجهون هذا التمرد العسكري الذي يكبر ويتضخم بقيادة أسفار بن شيرويه والذي يدعمه السامانيون!

تزلزلت أركان الزيديين، وانسحبوا إلى الري؛ زعيمهم الحسن بن القاسم العلوي – خليفة الحسن الأطروش- وقائد جيشه ماكان بن كالي، وطاردهم جيش أسفار بن شيرويه حتى حاربهم قرب الري وأوقع بهم هزيمة كبرى قُتِل فيها زعيم الدولة الحسن بن القاسم، وهرب قائد جيشه ماكان بن كالي، وانتهت الدولة الزيدية الثانية في طبرستان (٣١٦هـ).

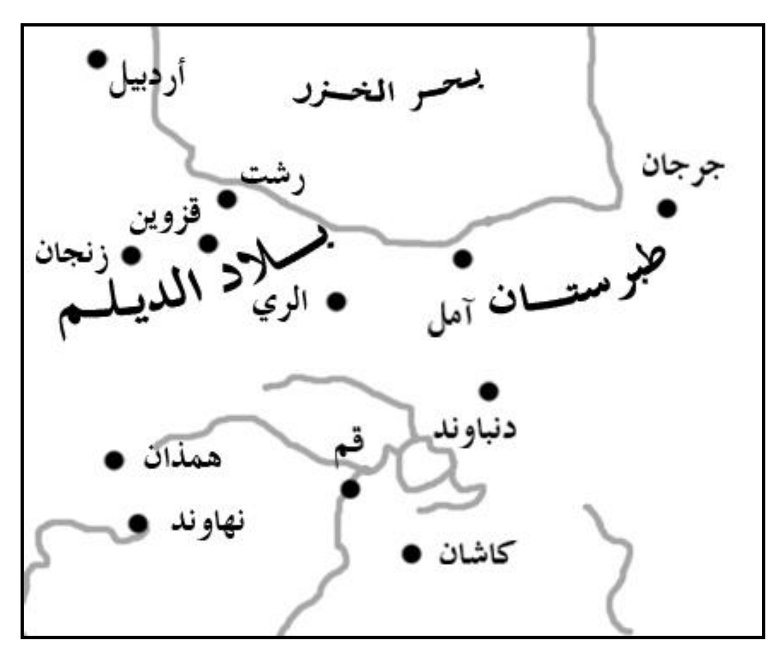
كان السامانيون يظنون أن أسفار بن شيرويه والٍ لهم على طبرستان، بينما رأى أسفار نفسه وريث الدولة الزيدية، وطمع لأن يكون له دولة ومملكة، فاتخذ مظاهر الملوك من التاج وصنع كرسيا سلطانيا من الذهب وأعلن العصيان واستقل بأمره في الري.

ولمرة أخرى دخلت الخلافة على الخط لمساعدة السامانيين، فجاء جيش من بغداد لمحاربة أسفار فلقي هزيمة شنيعة عند قزوين، زادت بها قوة أسفار وضعف موقف الخلافة، وحينئذ انطلق الأمير نصر الساماني على رأس جيش من عاصمة السامانيين «بُخارى» لحرب أسفار، فتراجع أسفار عن موقفه وعاد إلى الطاعة وبذل الأموال إلى نصر الساماني لكي يصالحه ويرجع عنه.

لقد كانت طاعة شكلية مؤقتة، والساماني نفسه يعلم أنه لا يستطيع عزل أسفار كما يعزل أحدا من وُلاته، وأسفار نفسه قد عظم أمره بعدما انتصر على جيش الخلافة وتمكن من إرجاع جيش السامانيين نظير المال، وكانت الضحية الحقيقية هم أهل هذه المنطقة الذين وقعوا تحت

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٥.

ظلم أسفار وتجبره وقهره، لا سيما أهل قزوين الذين ساعدوا جيش الخلافة فانتقم منه أسفار انتقاما هائلا، قتل كثيرا منهم وأخذ أموالهم وعذبهم وأباحهم للمجرمين من الديلم، فكانت أياما عصيبة عسيرة.



لكن عقاب الله لم يتأخر عليه، إذ انقلب عليه الرجل الثاني، مرداويج بن زيار -وبعض المؤرخين على أنه انقلب بإيعاز وتشجيع من السامانيين[1]- الذي اتفق مع عدد من القادة وبعض ولاة الأنحاء وآخرين من خصوم أسفار ومنهم ماكان بن كالي قائد الزيديين المنهزم، فتحالفوا واستطاعوا قتل أسفار (٣١٦هـ)، ولقي جزاءه خزيا وذلا في الدنيا بعد أيام من مظالمه ومذابحه[2].

وأما مرداويج فقد رأى نفسه أيضا وريث أسفار لا تابعا للسامانيين، فبدأ في الاستيلاء على البلاد وضمها لنفسه، متخذا مركزه في الريِّ، فضم إلى ملكه قزوين -وأحسن إلى أهلها ليؤكد اختلافه عن أسفار- وهمذان وكنكور والدينور وبروجرد وقم وقاشان وأصفهان وجرباذقان وغيرها، ثم تجبر وطغى واستكبر، وأساء السيرة في الناس، لا سيما أهل أصفهان، فكان يقتل الأطفال في المهد ويستبيح النساء، واتخذ كرسيا سلطانيا من الذهب يجلس عليه، وكراسي من الفضة ليجلس عليها قادته، ووضع على رأسه تاجا من الجواهر واليواقيت واتخذ مظاهر الاستقلال والمُلك، وتوسع سلطانه فاستولى على طبرستان وجرجان اللتين كانتا في سلطة ماكان بن كالي، وفشلت كل محاولات ماكان للصمود، وانتهى به الحال أن دخل في طاعة السامانيين والتجأ إلى نيسابور[3].

---

(١) د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص٢٠٤.

(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٥/ ٢٣٣.

(٣) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص٦٢، وابن مسكويه: تجارب الأمم ٥/ ٢٣٣، ٢٣٤.



كان مرداويج ممن يُكِنُّ العداوة والبغضاء للعرب، وكان يخطط لغزو بغداد نفسها وتدمير دولة العرب فكان يقول: «أنا أَرُدُّ دولة العجم وأبطل دولة العرب»(١)، ولهذا يجد هذا الرجل حفاوة لدى بعض الإيرانيين حتى الآن(٢).

رأى الأمير نصر الساماني في ماكان بن كالي قائدا مهما لمواجهة تغول مرداويج، فولاَّه على نيسابور، وهكذا تتقلب السياسة، فيتحول ماكان من عدو إلى صديق، ويتحول أسفار ومرداويج من حلفاء إلى أعداء، وتعرض نصر الساماني إلى تمرد من إخوته السامانيين في بخارى، فانشغل بإنهاء هذا التمرد ومطاردة رجاله في ما وراء النهر وفي خراسان أعوام (٣١٨ – ٣٢٠هـ).

ومثلما ساهمت الخلافة بمحاولة مع أسفار بن شيرويه ساهمت كذلك بجيش أرسلته لمحاربة مرداويج، ومثلما انهزم جيش الخلافة أمام أسفار انهزم أمام مرداويج عند همذان (٣١٩هـ) هزيمة قبيحة أخرى، وانطلقت جيوش مرداويج بعدها تستولي على البلاد، فاستولى على بلاد الجبل جميعها وما وراء نهاوند وأطلق فرقا عسكرية منها من حاز له الدينور، وكان اقتحامها بالسيف وقتل كثيرا من أهلها، وظلت جيوشه تستولي على البلاد ولا أحد يدفعها حتى اقتربت من حلوان في العراق، وهي في كل هذا تقتل الرجال وتسبي النساء

(١) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص٦٢، والذهبي: تاريخ الإسلام ٢٤/ ٢١.

(٢) يقول د. فتحي أبو سيف: «ويركز بعض الدارسين الإيرانيين المعاصرين على فترة حكم مرداويج بن زيار وأسرته، ويعتبرونها ذات أهمية سياسية في تاريخ الفرس لإحيائه المملكة الفارسية القديمة واعتزازه بها» انظر: د. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية والمشرق الإسلامي ص٢٠٥. وهو يستشهد بـ: سيروس شفقي: جغرافياي أصفهان ص٢٠٥، وقويم علي: قابوس وشكمكير، أرمغان، شماره يكم ص٤٦، وحسين علي ممتحن: نهضت شعوبية ص٣١٢، وعبد الرفيع حقيقت: تاريخ نهضتاي ملت إيران ص١١٥.

والأولاد، ثم إن مرداويج انطلق بجيش آخر قوامه أربعون ألفا فاقتحم أصفهان واستولى عليها، ثم استولى على الأهواز وخوزستان، ثم أرسل إلى المقتدر ليفرض على نفسه مبلغا سنويا مقابل إقراره على ولاية هذه الأنحاء ونزل للخلافة عن همذان وماه الكوفة، فأقره المقتدر مقابل مائتي ألف دينار في السنة.



وهكذا أسدل الستار على عهد المقتدر والشرق على هذه الحال!

ظهور الدولة العبيدية (الفاطمية)

ننتقل الآن من المشرق إلى المغرب..

لعل الدولة العبيدية هي أهم المحاولات الشيعية الناجحة في تأسيس دولة، وقد بدأ أمرها من اليمن، ومن الدعوة السرية التي تقوم على أكتاف الرجال الأفذاذ في الدعوة والنظر والتدبير والحرب والقتال، وقد كان أبو عبد الله الشيعي هو ذلك الشخص، الذي انتقل من اليمن إلى المغرب وارثا عمل دعاة قبله ماتوا ولم يروا النتيجة مثل الحلواني وأبي سفيان، واستطاع أبو عبد الله الشيعي أن يُسقط دول المغرب التي كانت في آخر عمرها بعد أن ضعف أمرها وسلطانها مثل الأغالبة في إفريقية والأدارسة والرستميين في المغرب، ودخل القيروان، ومن هنا بدأت الدولة العبيدية (٤ ربيع الآخر ٢٩٧هـ).

يتفق المؤرخون الأثبات على أن العبيديين قد ادعوا نسبهم كذبا إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وبالتالي فادعاؤهم النسب إلى فاطمة باطل، وأن هذا ليس إلا غطاء في عملهم الذي

تغطى بالدعوة إلى التشيع، يقول الذهبي: «والمحققون [يتفقون] على أنه دَعِيّ»[١]، وثمة من قال بأنهم من أصول يهودية[٢]، وقد أعرض السيوطي عن ذكرهم في كتابه «تاريخ الخلفاء» فهو لا يعتبرهم من الخلفاء أصلا وذكر في أول الكتاب ما قاله العلماء فيهم وفي ادعائهم هذا النسب الشريف، وبعض المؤرخين خالف في هذا وهو أمر مشهور[٣]، والصحيح فيما نرى هو أنهم أدعياء كاذبون.

وما يعنينا في سيرة العبيديين أن أبا عبد الله الشيعي قد استطاع بالفعل تأسيس دولة في الشمال الإفريقي، بعد دعوة سرية ظلت ثلاث سنوات (٢٨٨ – ٢٩١هـ) وآتت ثمارها حتى أن وزراء دولة الأغالبة كانوا من أنصاره[٤]، ثم حروب عسكرية (٢٩١ - ٢٩٧هـ)، وظل يتقدم وتتساقط أمامه المدن عسكريا فيما تشتعل شعبيا، إذ إن أهل المغرب قاوموا التشيع والرفض، وكان نصيبهم عذابًا وبلاء ومقاتل كثيرة على يد العبيديين[٥].

وفي هذه الفترة أرسل أبو عبد الله الشيعي إلى عبيد الله بن ميمون القداح (الذي يدعي أنه العلوي الفاطمي، وأنه المهدي) وكان في سَلَمْية (مركز دعوة القرامطة في الشام) ليقدم عليه في دولته، فارتحل عبيد الله إلى المغرب، وتولى ملك دولته بعد حين، ثم كان أهم ما فعله في أول أمره أن قتل أبا عبد الله الشيعي الداعية الذي مهد له الأمور وأسس له الدولة[٦]!!

ظل المهدي خليفة في دولته حتى (٣٢٢هـ)، وقعت خلالها عدة اشتباكات بين الخلافة العباسية والعبيديين في عهد المقتدر، كان أولها الصراع على جزيرة صقلية التي فتحت في عهد الأغالبة، ثم استقرت تبعيتها بعد صراع لتصير في سلطان العبيديين (٣٠٠هـ)[٧].

ثم هاجم العبيديون مصر حين أرسل المهدي ابنه القائم على رأس جيش استولى على

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٤١.

(٢) الحمادي: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص٣٦، ٣٧.

(٣) ممن يصدق بنسبتهم ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي وغيرهم، والمخالفون في أنهم أدعياء يحملون الأمر على أنه من آثار الخلاف في العقيدة والمذهب.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٥٢.

(٥) د. أحمد العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص٢٢٥، ود. علي الصلابي: الدولة الفاطمية ص٤٤، ٥٩ وما بعدها.

(٦) المقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ٦٠، ٧٢.

(٧) د. إحسان عباس: العرب في صقلية ص٣٩ وما بعدها.

الإسكندرية والفيوم فتوجه إليهم جيش كثيف بقيادة مؤنس هزمهم وأجلاهم عن مصر (٣٠١هـ)[١].

ثم كرر المهدي المحاولة ثانية في العام التالي عن طريق البحر فتوجه الجيش بقيادة مؤنس مرة أخرى، ودارت معارك عنيفة على أرض مصر (جمادى الأولى والآخرة ٣٠٢هـ) انتهت إلى هزيمة العبيديين حتى إن المهدي قتل قائد الحملة الذي عاد إليه منهزما[٢].

وبعد أربع سنوات أعاد المحاولة للمرة الثالثة بحملة برية على رأسها ابنه القائم تساندها حملة بحرية عليها قائدان من أشجع رجاله، فاستولت على الإسكندرية والجيزة وكثير من بلاد الصعيد، فتوجه إليه مؤنس للمرة الثالثة ودعمته القوات البحرية الرابضة في طرسوس، فجرت معارك عنيفة في البر والبحر انتهت كلاهما إلى انتصار العباسيين على العبيديين (٣٠٦هـ) وعاد القائم للمرة الثانية مهزوما لأبيه في عاصمتهم المهدية[٣].

وكانت هذه هي المحاولة الأخيرة في عهد المقتدر..

إعلان الخلافة بالأندلس

كانت الأندلس في ذلك الوقت تشهد تطورا جديدا، فلقد تولى إمارتها عبد الرحمن الناصر وهو ما يزال شابا في العشرين من عمره، وقد كان عبد الرحمن من قوة الشخصية والنبوغ والنضج النفسي ما جعله يتولى إمارة الأندلس (٣٠٠هـ) بعد جده في حضرة أعمامه وكبار البيت الأموي دون أن ينازعه أحد في هذا.

وكانت الأندلس تشهد تراجعا خطيرا في قوتها وتماسكها وتنتشر فيها حركات التمرد، كما تغول تأثير الفرنج، بأثر من ضعف الأمراء من بعد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام (المعروف بعبد الرحمن الأوسط أو عبد الرحمن الثاني)، فما إن تولى أمرها عبد الرحمن الناصر حتى بدأت تستعيد مجدها الغابر ثم تعبره وتجاوزه وتبني مجدها الزاهر الكبير في عهد عبد الرحمن الناصر.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٨٣، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ١/ ٧١.
(٢) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص٣٧.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٥٠١.

حكم عبد الرحمن الناصر خمسين سنة (٣٠٠هـ - ٣٥٠هـ)، أعاد فيها وحدة الأندلس الداخلية وقوتها الحربية أمام الفرنج ونهضتها الحضارية الزاهرة في ظل التخلف المحيط بها سواء في أوروبا شمالا، أو في المغرب جنوبا، وقد كان يمكن ألا نتناول هذا الجانب أصلا لولا أنه أقدم في عام (٣١٦هـ) على قرار مهم.. لقد أعلن نفسه خليفة للمسلمين وتسمى بأمير المؤمنين!

كان يدفعه إلى هذا القرار أن الخلافة العباسية منهارة في المشرق، وأن المقتدر خليفة صغير ألعوبة بيد النساء والعسكر والحاشية، ثم إن العبيديين (الفاطميين) قد أعلنوا خلافتهم غير الشرعية في دولتهم بالمغرب، فرأى أن ولاية المقتدر لا تصح ولا بد للأمة من خليفة في وجه العبيديين الرافضة، فتصدى لهذا الأمر.

قال ابن تيمية عن المقتدر: «وهو مبدأ انحلال الدولة العباسية ولهذا سُمِّى حينئذ بأمير المؤمنين الأمويُّ الذى كان بالأندلس وكان قبل ذلك لا يسمى بهذا الاسم، ويقول: لا يكون للمسلمين خليفتان، فلما ولى المقتدر قال: هذا صبى لا تصح ولايته فسمى بهذا الاسم»(١).

غير أن بُعد المسافة وانقطاع الزمن بعهد بني أمية لم يجعلا لهذا القرار تأثيرا حقيقيا على الأحوال في العالم الإسلامي، لكن يشير هذا إلى مدى الضعف الذي كانت عليه حال الخلافة في عهد المقتدر!

ظهور الدولة الحمدانية

كانت بلاد الموصل وما يليها شمالا من بلاد الجزيرة الفراتية منطقة كثر استقرار القبائل العربية فيها، فهذه بلاد ديار بكر وديار مضر وديار ربيعة، ولهذا كانت السيادة في بلاد الجزيرة وما يليها غربا من شمال الشام وخاصة حلب لزعماء من العرب(٢).

والحمدانيون ينتسبون إلى حمدان بن حمدون التغلبي الذي كان من مناوئي الخلافة وظهر متحالفا مع الخوارج أيام المعتضد.

لكن ابنه الحسين بن حمدان صار من قادة جيش الخلافة البواسل، وبذل مجهودا كبيرا في

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٣/ ١٧٨.
(٢) د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص٢٣٣.

حرب الخوارج والقرامطة والروم، وتولى إمارة ديار ربيعة في عهد المكتفي (٢٩٢هـ)، ثم كان أحد القادة الذين نفذوا الانقلاب على المقتدر أول خلافته لصالح ابن المعتز، وكان انسحابه من حصار القصر هو سبب فشل هذا الانقلاب، وقد طاردته الخلافة بعد هذا، وتولى المطاردة أخوه أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان وظفر به بعد عناء، ولولا أن المقتدر بطبعه كثير الصفح والعفو لكان في عداد المقتولين لكنه عفا عنه بل وولاه على قُمَّ في فارس، ثم استقر أمره في قم نحو أربع سنوات حتى تولى ديار ربيعة في الجزيرة الفراتية (٢٩٨هـ) وقاد من هناك عددا من الصوائف في جهاد الروم، ثم تمرد على الخلافة (٣٠٣هـ) فانهزم أمام جيش الخلافة الذي يقوده مؤنس الخادم فأُسِر ثم حُبِس في بغداد إلى أن قُتِل في محبسه (٣٠٦هـ) بعد التاريخ الطويل في جهاد أعداء الدولة من القرامطة والروم وغيرهم[١]، حتى لقد كان يقول حين أُسِر ما يشبه النبوءة: «والله لقد امتلأت صناديقى من الخلع والألوية وأفنيت أعداء الدولة وإنما أصار بى إلى ما ترى الخوف على نفسي وما الذي نزل بى إلا دون ما سينزل بالسلطان إذا فقد من أوليائه مثلي»[٢].. فهذا هو الحسين بن حمدان بن حمدون الذي «كان من أجلّ الأمراء بأسا وشجاعة، وهو أوّل من ظهر أمره من ملوك بنى حمدان»[٣].

أما الرجل الثاني الكبير من آل حمدان بعد الحسين فهو أخوه أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان، وقد كان أيضا من الأمراء المقدمين في الدولة، وقد تولى الموصل وأعمالها (٢٩٣هـ) في عهد المكتفي، استطاع ضبط أمرها منذ تولاها (٢٩٣هـ) وأبدى من الصرامة والكفاءة والحزم ما استطاع به إنهاء التمردات الكردية التي شغلت هذه الناحية حتى أنهاها وطارد أصحابها حتى جبال أذربيجان فاستقرت أمور الموصل تحت ولايته، وقد ظل واليا عليها لثماني سنوات حتى جاء القرار بعزله (صفر ٣٠١هـ) فقاوم هذا العزل وأعلن العصيان، فتحركت إليه فرقة بقيادة بني بن نفيس (١٥ صفر ٣٠١هـ)، ثم تحرك جيش بقيادة مؤنس (ربيع الأول ٣٠١هـ)، وعندئذ أيقن أبو الهيجاء ألا فائدة في الحرب فطلب الأمان وعاد مع مؤنس إلى بغداد، وكعادة المقتدر في العفو رضي عنه وخَلَع عليه. وفي خلال ولايته تمرد أخوه

---

(١) الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٣٦.
(٢) ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص١٥٨.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/ ١٩٥.

الحسين في الموصل وتولى هو أمر حربه ومطاردته بمعاونة جيش الخلافة حتى أَسَرَه، ثم إنه قُبِض عليه وحُبِس في أزمة أخيه الحسين (٣٠٣هـ) وظل في السجن حتى (٣٠٥هـ) ثم ولاه المقتدر طريق خراسان والدينور (٣٠٨هـ) والشؤون المالية للموصل ونواحيها (٣١٤هـ)، فكان يشرف على ذلك وهو ببغداد، ثم إنه كان من رجال الانقلاب الثاني على المقتدر (٣١٧هـ) وهو الانقلاب الذي كانت فيه نهايته[1] كما سيأتي معنا فيما بعد.

ويعتبر أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان المؤسس الحقيقي للدولة الحمدانية في الموصل، غير أن الدولة الحمدانية لم تقم فحسب على أكتاف عبد الله أو الحسين، ذلك أن باقي إخوتهم كانوا أيضا من الأمراء رجال الدولة؛ فكان إبراهيم بن حمدان واليا على ديار ربيعة (٣٠٧هـ) ولما مات (المحرم ٣٠٨هـ) خلفه أخوه داود حتى عام (٣٠٩هـ)، وكان أبو العلاء سعيد بن حمدان أمير الحرب في نهاوند (٣١٢هـ)، وكان أبو السرايا نصر بن حمدان من رجال الدولة وأمرائها أيضا بل وكان من رجال الانقلاب الثاني على المقتدر (٣١٧هـ) على أنه استطاع الهرب فأفلت من الجزاء وسيطر على الموصل حتى (٣١٩هـ)، بينما كان أخوه داود من الموالين للخليفة وممن ظل على ولائه حتى قُتِل معه (٣٢٠هـ).. وكلهم أسهم وأسس في رسوخ نفوذ الحمدانيين في تلك المنطقة.

على أن الأهم من هؤلاء هو الأمير الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان الملقب بـ«ناصر الدولة»، فهذا الذي كان له النصيب الأوفر من استقرار الدولة الحمدانية منذ أن كان نائبا عن أبيه (٣٠٨هـ) فاحتفظ بالموصل لمدة نصف قرن حتى وفاته (٣٥٨هـ) فيما عدا فترات بسيطة أهمها ما كان بين عامي (٣١٧، ٣١٩هـ) حين عزله الخليفة عن الموصل وولاها عميه أبا السرايا نصر وأبا العلاء سعيد.. وسيأتي تمام قصته وقصة الدولة الحمدانية في حديثنا القادم بإذن الله تعالى.

كان أهم ما استفادته الخلافة من الحمدانيين في تلك الفترة هو تصديهم للمتمردين الأكراد والأعراب المنتشرين في هذه المناطق، وإن كانت الخلافة قد ساعدتهم أحيانا على نحو ما جرى عام (٣٠٩هـ) إذ أرسل المقتدر بمحمد بن نصر الحاجب أميرا عسكريا على الموصل

(١) زمباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص٥٨، والزركلي: الأعلام ٤/ ٨٢، ٨٣.



لمواجهة تمرد كردي واستطاع القضاء عليه[1].

ونستطيع أن نرصد ثلاثة تمردات قوية واجهها الحمدانيون وحملوا عبئها عن الخلافة:

أولها: في عام (٣١٤هـ) شب تمرد جديد من الأعراب في الموصل ومن الأكراد في شهرزور على طريق خراسان، فراسل ناصر الدولة الحسن بن أبي الهيجاء -نائب الموصل عن أبيه- أباه في الأمر، فجمعا القوات واجتمعا حتى أنزلا بالأعراب هزيمة قاسية وأجبراهم على إعادة المنهوبات والأموال، ثم سارا إلى الأكراد فألحقا بهم هزيمة أخرى أدت في النهاية إلى أن يستسلم الأكراد ويعودوا إلى الطاعة والخضوع للخلافة[2].

والثاني: تمرد الأغر بن مطر الخارجي (شعبان ٣١٨هـ) في نصيبين والذي لم يلبث طويلا حتى تصدى له ناصر الدولة الحسن بن أبي الهيجاء -وكان في هذا الوقت أمير ديار ربيعة[3]- فقاتله فهزمه وأسره وأرسله إلى بغداد[4].

والثالث: تمرد صالح بن محمود البجلي الخارجي في منطقة البوازيج (جمادى الأولى ٣١٨هـ)، الذي استعان بأعراب بني مالك فأخذ في اقتحام المدن وجمع الأموال منها بما يراه الحق الشرعي للخليفة كالزكاة والجزية والخراج والعشور، فتولى التصدي له أمير الموصل -في ذلك الوقت- أبو السرايا نصر بن حمدان الذي ظل في مطاردته حتى ظفر به وأسره (شعبان ٣١٨هـ) وأرسله إلى بغداد.

فجور القرامطة

لم يكن من وضع أفضل للقرامطة مثل الوضع الذي عاشته الخلافة المضطربة في أيام المقتدر، ولقد كان من عظيم صنائع المكتفي أن استطاع قبل موته إنهاء القرامطة في الشام والعراق تماما، فلو أنهم بقوا حتى عهد المقتدر فلربما كانوا اجتاحوا بغداد نفسها في غير عناء

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧.

(٣) في عامة الأحوال كانت ديار ربيعة منطقة تابعة إداريا للموصل، وفي ذلك الوقت كان ناصر الدولة أميرا على ديار ربيعة، وكانت إمارة الموصل لعمه أبا السرايا نصر بموجب قرار الخليفة الآنفة الإشارة إليه في المتن.

(٤) هذا التمرد والذي يليه ذكرهما ابن الأثير مرتين، مرة مختصرين وأرخهما في عام (٣١٧هـ) ومرة مفصلين وأرخهما عام (٣١٨هـ)، انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٨، ٦١، ٦٢.

إذا انتهزوا لحظة ضعف واضطراب.. وما أكثرها في أيام المقتدر.

مع بداية الاضطراب في حال بغداد، عاد النشاط الجم إلى قرامطة الأحساء الذين يتزعمهم أبو سعيد الجنابي، وبدأ ظهورهم (٢٩٩هـ) عند البصرة حيث أقرب نقاط العراق من مناطق نفوذهم، إذ بدأ ثلاثون رجلا منهم هجوما على البصرة، لكن حرس البصرة استطاعوا صد الهجوم ثم أرسل أمير البصرة محمد بن إسحاق بن كنداجيق فرقة عسكرية خلفهم طاردتهم حتى قتلت منهم جماعة، ثم عاد مسرعا وأخذ في إغلاق البصرة وأرسل إلى بغداد يطلب المدد اعتقادا منه بأن هؤلاء مجرد مقدمة للقرامطة، لكن الأمر لم يكن كما ظن ولم يهاجم القرامطة البصرة في ذلك الوقت.

كان القرامطة يسيطرون فعليا على هجر والأحساء والقطيف والطائف، وقد فكر الوزير علي بن عيسى حين تولى الأمر (٣٠١هـ) أن يبدأ معهم بالوسائل الدبلوماسية فاستأذن المقتدر في أن يكتب إليهم على لسان الخليفة رسالة تدعوهم إلى العودة والتوبة وترك المنكرات وتبين لهم فساد الدين الذي يعتنقونه، وكذلك تسألهم إطلاق من كان لديهم من أسرى المسلمين(١)، وتورد بعض الروايات هدفا آخر وهو حماية الحجاج في هذا العام من هجوم محتمل للقرامطة، وهو الهدف الذي تحقق فزاد من شعبية الوزير علي بن عيسى(٢).

على أن حامل الرسالة ما كاد يصل إلى البصرة حتى جاءه الخبر بمقتل زعيم القرامطة أبو سعيد الجنابي على يد خادمه الذي كره ما عليه من باطل وقتل معه أربعة من كبار زعماء القرامطة(٣)، فجاءهم القتل من حيث لا يحتسبون، وامتنع قرامطة البحرين بعدها من اتخاذ الخدم والاعتماد عليهم(٤).

واستقرت زعامة القرامطة من بعده في ابنه أبو طاهر سليمان الذي كان شجاعا جريئًا قوي الشخصية فانتزع زعامة القوم من يد أخيه الأكبر سعيد رغم وصية أبيه إليه قبل موته(٥).

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٨٢.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٤٠.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٦٧٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٨٢.
(٤) نظام الملك: سياسة نامة ص٢٧٩.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٨٢، والذهبي: تاريخ الإسلام ٧/ ٦٢٤.

وحين وصلت الرسالة إلى سليمان أكرم رُسُل الخلافة وأطلق معهم الأسرى[١] وأجاب عن الرسالة بقوله: إن هذا الذي تنسب إلينا مما ذكرتم لم يثبت عندكم إلا من طريق من يشنع علينا، وإذا كان الخليفة ينسبنا إلى الكفر بالله فكيف يدعونا إلى السمع والطاعة له؟[٢]

ولعله أراد تهدئة الأجواء مع الخلافة ريثما يتسنى له ترتيب الوضع الداخلي بعد الوفاة المفاجئة لأبيه، إذ سيتوقف نشاط القرامطة بضع سنين قبل أن يعودوا إلى إفسادهم من جديد..

وفي ليلة من (ربيع الآخر ٣١١هـ) هاجم القرامطة –وكان عددهم ألفا وسبعمائة– البصرة على حين غفلة من الجميع، فاقتحموا السور عبر السلالم وقتلوا الحراسة، وكان الهجوم مفاجئا وسريعا حتى إن والي البصرة نفسه سُبُك المفلحي لم يعلم إلا في آخر الليل، فانطلق فيمن استطاع جمعه من الرجال وقاتلهم وهو يظنهم مجموعة من الأعراب لا القرامطة فهُزِم بطبيعة الحال، وبدأ القرامطة في تنفيذ المذبحة في البصرة التي هام أهلها هربا في كل وجه حتى ألقى الكثير منهم بنفسه في الماء طلبا للنجاة فأدركه الغرق، وظل أبو طاهر سليمان الجنابي في البصرة سبعة عشر يوما يقتل ويأسر ويأخذ من الأموال والمتاع والكنوز، بل من النساء والأطفال ما استطاع، ولما بلغ الخبر بغداد أرسل الخليفة محمد بن عبد الله الفارقي واليا على البصرة، لكنه ما إن وصل إليها حتى كان القرامطة قد أنهوا مذبحتهم وأخذوا ما استطاعوا وعادوا إلى عاصمتهم في هجر[٣].

وما هي إلا شهور أخرى حتى نفذ القرامطة هجوما غادرا (المحرم ٣١٢هـ) على قافلة الحجاج العراقيين العائدة من مكة، فأوقع بهم مقتلة شنيعة وأسر منهم أكثر من ألفين، وأخذ كل ما لديهم من الأموال مما يقدر بمليون دينار، ثم لم يكفه هذا فترك من لم يأسرهم في الصحراء بلا طعام ولا شراب ولا دواب حتى هلك أكثرهم من الجوع والعطش والحرِّ!! وحين تصدى له أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان المسؤول عن طريق الكوفة لقي هزيمة نكراء قبيحة قتل فيها أغلب الجنود وأُسِر فيها كبار القادة كأبي الهيجاء نفسه ونحرير الخادم

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٤٨٢.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٣٧.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٥.

وأحمد بن كشمرد وأحمد بن بدر وهو عم والدة المقتدر، وتشير الروايات إلى أن عُمر طاهر – زعيم القرامطة– في هذا التوقيت كان سبعة عشر عاما فقط[1]، وهو ما نستبعده إلا أنه دليل على صغر سنه وعلى قوته وشراسته وجرأته!! وكانت عدة جيشه ثمانمائة فحسب!!

غير أنه ما كان للقرامطة بلوغ كل هذا لولا اضطرابات الخلافة واشتعال التناوشات في بلاطها، ففي ذلك التوقيت كان الوزير ابن الفرات لا يريد رجلا قويا في القصر غيره فأغرى المقتدر بأن يرسل قائد الجيش وأقوى رجال الدولة مؤنس الخادم إلى الشام، كما أغراه بعزل نصر الحاجب غير أن الأخير أدرك نفسه فاحتمى بأم المقتدر التي لم تسمح لأحد بالنيل منه، وكان ابن الوزير يشيع فسادا في بغداد فيقتل ويصادر الأموال حتى ضج الناس بما يفعلون، ولما وقعت هذه الهزيمة الشنيعة وأُسِر أبو الهيجاء وكبار القادة لم يكن من سبيل غير استدعاء مؤنس من الرقة، وكانت الخشية أن يهاجم القرامطة الكوفة ذاتها التي صارت بلا قوة حقيقية، فسارع المقتدر بإرسال القائد ياقوت في جيش أنفق عليه مليون دينار لتجهيزه لحماية الكوفة، لكن الله سلم ولم يفكر القرامطة في مهاجمة الكوفة بل عادوا إلى مرابعهم[2].

وقد ذكرنا مصير ابن الفرات والاحتجاجات الهائلة التي اشتعلت في بغداد بعد هذه الهزيمة فيما سبق، ويظل ما ينبغي أن يكرر ذكره أن شهوات وأهواء رجال الحكم تدفع الشعوب أثمانها من أرواحهم ودمائهم وأعراضهم وأموالهم وليالٍ في الخوف والجوع تدور الأعين في المحاجر وتصير الأفئدة هواء!

وأما القرمطي فقد أطلق الأسرى الذين أخذهم بعد شهور وأرسل مع أبي الهيجاء رسالة إلى الخليفة يطلب ولاية البصرة والأهواز، ولم يجبه المقتدر بطبيعة الحال، فقاد حملة أخرى ضد الحجاج على ذات الطريق، طريق الكوفة، وكان والي الكوفة جعفر بن ورقاء الشيباني قد خرج مع ألف من بني شيبان كفرقة عسكرية متقدمة لحماية الحجاج الكوفيين، فيما خرج الحجاج العراقيون تحت حراسة جيش من ستة آلاف بقيادة ثمل –أمير البحر– والقائدين جني الصفواني وطريف السبكري[3].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٧، ١٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٢.

ورغم كل هذه الاستعدادات إلا أن أبو طاهر اشتبك أولا مع فرقة ورقاء وأعد لها كمينا فهزمها، وانسحب ورقاء منهزما فقابل قافلة الحجاج التي كانت قد تحركت بالفعل فأعادهم إلى الكوفة، ثم طاردهم أبو طاهر والتقى مع الجيش ذي الستة آلاف والقواد الثلاثة فهزمهم أيضا، بل وأسر القائد جنى الصفواني، وانسحب باقي الجيش مع الحجاج من الكوفة التي خلت بهذا من القوة فدخلها القرمطي، وظل فيها ستة أيام يستخلص أموالها ومتاعها وكنوزها ويحمل ما استطاع منها، وفي هذه المرة لا تذكر الروايات[١] أخذه أسرى أو تنفيذه مذبحة في الكوفة، بل كان يقضي فيها النهار فحسب ثم يخرج في الليل إلى معسكره خارج الكوفة، ويبدو أنه خاف لاتساع الكوفة وكثرة أهلها واقترابها كذلك من عاصمة الخلافة بما يحتمل معه وصول جيش قريبا، وعلى كل حال يبدو أنه انصرف أول ما ترامت إليه أنباء خروج جيش الخلافة الرئيسي تحت قيادة أقوى رجال الخلافة مؤنس فانصرف عائدا إلى بلاده[٢].



غير أن هاتين الهزيمتين كان لهما أبلغ الأثر في النفوس، فقد عم البلاء بلاد العراق حتى إن أهل بغداد أنفسهم انصرفوا من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي لنهر دجلة، ولم تهدأ الأحوال إلا حين وصل مؤنس بجيشه الكبير إلى الكوفة، فبقي فيها حتى هدأت الأمور ثم ترك القائد ياقوت واليا عليها، وذهب هو إلى واسط خشية أن يكون القرمطي يدبر للهجوم عليها[٣].

(١) إلا رواية عند ابن كثير في عام (٣١٣) يقول: «فأقام بها (الكوفة) يأخذ من أموالها ونسائهم ما يختار»، وهذا شاذ لم يرد مثله لا عند ابن الأثير ولا ابن الجوزي ولا في المصادر المشهورة أو المتقدمة مثل صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي أو تكملة تاريخ الطبري لعبد الملك الهمذاني.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٢، ٢٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٣.

وبطبيعة الحال فلم يحج أحد من أهل العراق هذا العام (٣١٢هـ) خوفا من القرامطة.

وفي العام التالي خرج الناس للحج (ذي القعدة ٣١٣هـ) فاعترضهم أبو طاهر القرمطي، فلذلك عاد أكثر الناس إلى بلادهم دون حج، وأما الذين وقعوا في يده فلم تنفعهم فرقة الجيش التي انهزمت أمام القرامطة، وكان مصيرهم أفضل من سابقيهم إذ أخذ القرمطي منهم مالا مقابل أن يتركهم، فكتب الله لهم النجاة[١].

ثم حدث تطور خطير في العام التالي (٣١٤هـ) إذ سارت الأخبار بتوجه القرامطة نحو مكة ذاتها هذه المرة، وهو ما أشاع الرعب في مكة حتى إن كثيرا من أهلها رحلوا إلى الطائف ونواحيها، وهو ما أدى إلى أن الخلافة توقف قوافل الحج التي تنطلق من العراق وما وراءها من بلاد المشرق لهذا التهديد غير المسبوق في تاريخ الإسلام![٢]

صار القرامطة اسما يثير الرعب والفزع في القلوب، وكانت انتصاراتهم المتوالية مع قلة عددهم وصغر سن قائدهم على أضعافهم من الجيوش التي يقودها قادة الخلافة الكبار تزيد من معنوياتهم وثقتهم في أنفسهم، كما تزيد من صيتهم في الآفاق والبلاد بل وفي جيش الخلافة نفسه.

وفي ذلك الوقت كانت الخلافة تعاني انتشار الدسائس والمؤامرات في بلاط القصر، حتى لقد بدأت العلاقات تتوتر بين الخليفة وقائد الجيش مؤنس لإشاعة وصلت إلى مؤنس وكادت أن تصل الأمور إلى عصيان عسكري، وكانت حال الوزارة والوزير في غاية القلق والاضطراب مع العزل والتولية المتكررة وسعى الكثيرين إلى السلطة مما سينعكس حاله على الحرب مع القرامطة[٣].

كان الوزير في ذلك الوقت هو أبا العباس الخصيبي الذي وصل إلى المنصب من خلال عمله ككاتب لأم المقتدر، ثم أضاف إلى هذا تعذيب زوجة الوزير السابق حتى استخلص منها ما استطاع من الأموال التي بذلها للمقتدر وأمه فارتفع شأنه، وحين وصل إلى المنصب لم يكن أهلا له بل كان سكيرا مدمنا للخمر، مهملا لأحوال البلاد والعباد، لا ينظر في الرسائل

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٠، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٧٥.

(٣) راجع ما ذكرناه في مبحث «ملامح من عهد المقتدر» تحت عنوان: اضطراب قرارات الخلافة.

والمكاتبات ولا يتابعها، وعهد بالتصرف إلى نواب وضعهم لكي ينوبوا عنه، وهؤلاء حين لم يجدوا من يسألهم ويتابعهم فسدوا وأفسدوا، فساءت أحوال البلاد، وكان من قراراته أنه استدعى والي أرمينية وأذربيجان يوسف بن أبي الساج بجيشه لمواجهة القرامطة، برغم أنه وجيشه قد اعتادوا على البلاد الباردة كثيرة الأنهار على عكس الحرب في بلاد الجزيرة العربية، ثم إنه –مع كل هذا– لم يرتب موارد جديدة لدعم هذا الجيش[1]!

ربما أراد الوزير أن يأتي بجيش لم يسمع عن القرامطة فهو لا يهابهم ولا يخشى مواجهتهم، أو لعله فكَّر في جيش ذى قتال مختلف وخطط حربية مختلفة متمرسة على حرب العصابات الخاطفة كجيش ابن أبي الساج.. والله أعلم!

استقر جيش يوسف بن أبي الساج في واسط، ثم جاءت الأخبار بأن أبا طاهر القرمطي متوجه إلى الكوفة، وأراد المقتدر أن يسارع جيش من الخلافة بالوصول إلى الكوفة قبل أن يصلها القرامطة، فأمر هذا الجيش بالمسارعة إلى الكوفة، فخرج الجيش من واسط (٣٠ رمضان ٣١٥هـ)، وعظم الأمل في نفوس أهل الكوفة بهذا الجيش الكبير، وأعدوا له ما استطاعوا من الطعام والمتاع للجنود والدواب، لكن القرمطي وصل إلى الكوفة قبل جيش ابن أبي الساج بيوم واحد، وبطبيعة الحال هرب من أمامه ولاة الكوفة دون قتال، فاستولى على ما كانوا قد أعدوه لجيش ابن أبي الساج[2]!

وصل الجيش إلى الكوفة يوم الجمعة (٨ شوال ٣١٥هـ) فوجدها في حوزة القرامطة، فدعاهم يوسف إلى التوبة والعودة إلى طاعة الخلافة فإن رفضوا قاتلهم يوم الأحد، وإذا بالرد يأتي: لا طاعة علينا إلا لله، والقتال غدا السبت[3]!

كان جيش يوسف أربعين ألفا فيما كان جيش القرامطة بين الألف وخمسمائة والألف وسبعمائة، لذا فما إن رآهم يوسف حتى استهان بهم وقال: «إن هؤلاء الكلاب بعد ساعة في يدي»، ومن فرط الثقة أمر الكاتب أن يرسل إلى الخليفة بخبر النصر على القرامطة، ثم ما إن بدأ اللقاء حتى ثبت القرامطة ثباتا عظيما، ونزل قائدهم أبو طاهر القرمطي يباشر القتال

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٨، ٢٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣١، ٣٢.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢.

بنفسه في جرأة وبطولة حتى انهار أمامه الجيش الكبير، فهُزِم هزيمة شنيعة، بل واستطاع القرامطة أسر قائد الجيش يوسف بن أبي الساج[1]!!

واهتزت بغداد لهذا الخبر لا سيما وقد وصلها المنهزمون وهم في أسوأ حال، حفاة وعراة قد أهلكتهم الحرب والهزيمة والطريق، وبدأ كثيرون يهربون إلى الجانب الشرقي من بغداد، أو إلى ما وراء ذلك من المدن كهمذان وحلوان بل وفارس وخراسان[2].

ناشد الوزيرُ عليُّ بن عيسى المقتدرَ وقال: «يا أمير المؤمنين إن الأموال إنما تدخر لتكون عونا على قتال أعداء الله، وإن هذا الأمر لم يقع أمر بعد زمن الصحابة أفظع منه، قد قطع هذا الكافر طريق الحج على الناس، وفتك في المسلمين مرة بعد مرة، وإن بيت المال ليس فيه شيء. فاتق الله يا أمير المؤمنين وخاطِب السيدة -يعني أمه- لعل أن يكون عندها شيء ادخرته لشدة، فهذا وقته»، فدخل على أمه فبادرته بإخراج نصف مليون دينار، وكان في بيت المال مثلها، فسلمها الخليفة إلى الوزير ليصرفها في تجهيز الجيوش لقتال القرامطة[3].

وأما القرمطي فقد سار شمالا على امتداد نهر الفرات على شاطئه الغربي قاصدا مدينة الأنبار، وهي التي تقع على الجانب الشرقي للفرات، فسارع أهلها بقطع الجسر الذي على نهر دجلة ليمنعوا القرامطة من العبور إليهم، فلما وصل القرامطة ولم يستطيعوا عبور النهر، أرسل أبو طاهر القرمطي بعض رجاله إلى مدينة الحديثة لكي يشتري لهم السفن، فاشتراها وقدمت إليه، وكل هذا في زمن قياسي حتى إن أهل الأنبار لم يشعروا بشيء، ثم فوجئوا بالقرامطة يعبرون إليهم فقاتلوا عسكر الخلافة فيها فهزموهم وصارت الأنبار في حوزتهم بالفعل، وأخطر ما في هذا أنهم صاروا على الضفة الشرقية للفرات فهم يهددون بغداد ذاتها[4]!

وقد ظل القرامطة يعسكرون غرب الفرات أمام الأنبار في حين تتحرك الفرق والسرايا ثم تعود إليه!

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٧٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٣.



أما في بغداد فقد تولى مؤنس تجهيز الجيش بنفسه بعد الهزيمة الشنيعة ليوسف بن أبي الساج عند الكوفة، وما إن جاء الخبر بأن القرامطة قصدوا الأنبار حتى خرج نصر الحاجب أيضا خلفه فاجتمع ما معهم من الجيوش فكان أكثر من أربعين ألف جندي بخلاف المتطوعين، وفي الجيش القادة الكبار: مؤنس ونصر الحاجب وأبو الهيجاء عبد الله بن حمدان وأخواه أبو السرايا وأبو الوليد، وكان اجتماعهم خارج بغداد بفرسخين على نهر صغير اسمه «زبارا» شرق بغداد، وعلى رغم أن هذا الجيش هو صفوة وخلاصة ما تملكه الدولة العباسية إلا أنهم كانوا مهتزين أمام القرامطة! ولا أدل على ذلك من نصيحة عبد الله بن حمدان أن يقطعوا الجسر الذي على هذا النهر لكيلا يصل إليهم القرامطة، أي أن الجيش الذي قوامه أكثر من أربعين ألفا وعلى رأسه قادة الدولة اختار الدفاع والتحصن بالجغرافيا أمام

من لا يبلغون الثلاثة آلاف[(١)]!!

ورغم ما في خطة عبد الله بن حمدان من دليل على الضعف والجبن إلا أنها كانت حكيمة بالفعل في هذه الظروف، إذ ما إن ظهر القرامطة في الأفق حتى ارتاع كثير من الجنود وهربوا من الجيش فزعا، ثم إن جنديا من القرامطة عملاقا أسود أخذ في فحص الجسر لكي يختبر ما إذا كان مقطوعا أم لا، وهو يُلقى بالسهام ولا يتردد ولا يتراجع ولا يتزحزح حتى انتهى إلى أنه مقطوع وعاد إلى الجيش، وظهره يشبه القنفد من كثرة السهام، لا شك أن مشهدا كهذا أوقع الرعب في الصفوف المرعوبة أصلا أضعافا مضاعفة!

عاد القرامطة أدراجهم إذ لم يجدوا وسيلة لعبور نهر زبارا، وفي تلك الأثناء كان مؤنس قد وجه فرقة من الجيش من ستة آلاف بقيادة يلبق، للهجوم على معسكر القرامطة غرب الفرات وإنقاذ يوسف بن أبي الساج من الأسر، ويبدو أن أبا طاهر القرمطي توقع مثل هذا فلقد عاد مسرعا واستطاع بالقليل الذين معه هزيمة الستة الآف، ثم قتل يوسف بن أبي الساج ومن معه من أسرى معركة الكوفة.

ولما فشلت خطة القرامطة في مهاجمة بغداد، فكر أبو طاهر في الهجوم على هيت (إلى الشمال من الأنبار) ولكن المقتدر كان قد أرسل إليها هارون بن غريب ومعه سعيد بن حمدان، وقد وصلوها قبل القرامطة، فاستطاعوا الدفاع عنها والتحصن بها، وقتلوا من القرامطة جماعة، فعاد القرامطة عنها!

فرح أهل بغداد بعودة القرامطة وزوال الخطر، وأكثروا من الصدقة، وكذلك فعل الخليفة وأمه والوزير علي بن عيسى، ولكن تبقى الحقيقة القاطعة الساطعة تلك التي قالها المقتدر: «لعن الله نيفا وثمانين ألفا يعجزون عن ألفين وسبعمائة»[(٢)].

عاد جيش مؤنس إلى بغداد (٣ المحرم ٣١٦هـ) فيما عاد جيش القرامطة يعيث في البلاد فسادا ولا يقف له أحد، ولعل هذا يعطي تصورا عن فارق ما بين الطائفتين، فهذه طائفة لا تنزع عنها السلاح ولا تقعد عن الحرب، وتلك طائفة إن حاربت كانت دفاعا وإن انتهى الخطر عادت إلى مأمنها!

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٤.

قضى القرامطة العام التالي (٣١٦هـ) في الإفساد ونشر الرعب في الأنحاء، فسار أبو طاهر القرمطي الدالية فهرب منها أهلها فقتل من أدركه منهم، ثم وصل إلى الرحبة فقاتل أهلها فهزمهم ونفذ مذبحة في الباقين منهم حين اقتحمها (٨ المحرم ٣١٦هـ)، ثم راسله أهل قرقيسيا يطلبون الأمان فاشترط عليهم الحبس داخل البيوت فاستجابوا، وبعث بالسرايا إلى مضارب الأعراب في الجزيرة الفراتية فنهبوا أموالهم وأمتعتهم فخاف الأعراب وارتعبوا وهربوا من أمامه ثم اشترط عليهم جزية سنوية يوصلونها إليه في عاصمته هجر، عن كل رأس دينار أو اثنين، وسار شمالا حتى الرقة وهاجم ربضها[١]، فقاتله أهلها باستبسال وصبر عجيب رغم قلة الإمكانيات، فرموهم بما استطاعوا من الماء المغلي والتراب والسهام المسمومة حتى قتلوا منهم مائة قرمطي، ولم يستطع القرامطة المكوث أكثر من ثلاثة أيام واستبان عجزهم عن المدينة، فانصرفوا (٣٠ ربيع الآخر ٣١٦هـ)، وخرجوا مغلوبين مقهورين فنشروا الرعب في المدن والأنحاء وطلبوا منهم الأمان في رأس عين وكفرتوثا وسنجار، وهم ينهبون ما يستطيعون، ثم أعادوا الإغارة على هيت لكن أهلها كانوا قد أحكموا التحصن فقاتلوهم فلم يستطع القرامطة اقتحامها، فعادوا مرة أخرى إلى الكوفة فأفسدوا فيها وقتلوا جماعة قبل أن يعودوا إلى أراضيهم بعد عام من المعارك والقتل حتى لم يقف لهم شيء، اللهم إلا مقاومات باسلة ضعيفة في بعض المدن[٢].

لم يكن أبو طاهر القرمطي يستطيع أن يحتفظ بالكوفة وهي المدينة الكبيرة مع قلة عدد جيشه[٣]، فلهذا اعتمد على شن الحروب الخاطفة وأخذ الأموال والأمتعة التي يتقوى بها، وربما يكون الهدف الأصيل أن يتقوى بالأموال والعتاد دون أن يحتفظ بها لئلا يصير في قلب العدو ووسط دياره.

وطوال هذا العام (٣١٦هـ) ما كان جيش الخلافة يصل إلى مكان إلا بعد أن يفرغ منه القرامطة، فقد خرج مؤنس إلى الرقة وسار عبر الموصل، ولما وصل الرقة كان القرامطة قد انصرفوا عنها، وحين قصد القرامطة الكوفة خرج إليهم جيش بقيادة نصر الحاجب لكنه

(١) ربض المدينة: هو الأرض التي حولها. انظر: المعجم الوسيط ١/ ٣٢٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٨، ٣٩، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٧٩.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٧٩.

مرض ومات في الطريق (أواخر رمضان ٣١٦هـ) فقاد الجيش أحمد بن كيغلغ ولم يصل الكوفة إلا بعد أن غادرها القرامطة، فعاد الجيش إلى بغداد (٢٢ شوال ٣١٦هـ)[١].

كان من أسوأ ما ترتب على هذا أن ظهرت خلايا نائمة للقرامطة في سواد واسط وفي عين التمر، وكثرت أعدادهم حتى بلغ الذين في سواد واسط عشرة آلاف، وكانوا يشنون الغارات على القرى والأنحاء فيقتلون وينهبون، بل وهزموا بني بن نفيس أمير الحرب في واسط، فسارعت الخلافة بإرسال جيشين لكل جهة، فانتصروا، وقتلوا من القرامطة أكثر ممن أسروهم منهم، ودخلوا بهم بغداد، فاشتد فرح الناس بعد أن طال عليهم زمن الهزائم، واختفى من بقي من القرامطة في منطقة السواد[٢].

وحين رجع أبو طاهر القرمطي إلى عاصمته في هجر أعلن ولاءه للخليفة العبيدي (الفاطمي) المهدي، الذي كان ملكه قد تأسس في الشمال الإفريقي واتخذ عاصمته «المهدية»، وتلقب بالخلافة، فصار للدولة العبيدية ذراع قوي مكين في شرق الجزيرة العربية تؤرق الخلافة العباسية وتنزل بها الهزائم والويلات.

ثم زاد الطين بلة أن اضطربت أحوال الخلافة عام (٣١٧هـ) وجرى انقلاب عسكري على الخليفة المقتدر، ثم فشل بفضل حرس القصر وعدم اتفاق العسكريين الانقلابيين على سبيل واضح، واضطرابهم في بعض الخطوات، ففشل الانقلاب من بعد ما تم تنصيب القاهر أخي المقتدر خليفة، وعاد المقتدر من جديد، بعد أيام عصيبة اضطرب فيها أمر الخلافة، وكانت سهام القادة العسكريين على بعضهم البعض لا على عدوهم، وسنأتي على شرح تفاصيل هذا الأمر فيما بعد إن شاء الله تعالى[٣].

فكان هذا العام هو أضعف ما مر بالخلافة العباسية منذ نحو السبعين سنة، ولهذا لم يفلته أبو طاهر القرمطي المجرم لعنه الله، بل ارتكب فيه جريمة لم يسبقه إليها أحد في تاريخ الإسلام!

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٨، ٣٩، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٧٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤١، ٤٢.

(٣) يخطئ بعض المؤرخين –لا سيما المتأخرين– فيجعل هذا الانقلاب نتيجة تالية على ما فعله القرامطة في هذا العام، وهو خطأ، لأن اضطرابات الخلافة كانت في أول العام في المحرم بينما جريمة القرامطة كانت في آخره في ذي الحجة، انظر: القلقشندي: مآثر الإنافة ١/ ٢٧٩.

هاجم القرامطة مكة المكرمة يوم التروية (٨ ذي الحجة ٣١٧هـ) فاستباحوها ودخلوا إلى المسجد الحرام، وارتكب مذبحة مجرمة شنيعة في قلب الحرم المكي ذاته، ولم يكن ينجو أحد ولو طاف بالكعبة أو حتى تعلق بأستارها، بل كان السيف دائرا على الجميع، فقتل في رحاب الكعبة خلقا كثيرا وتركهم في دمائهم حتى دفنهم بثيابهم في أماكنهم، وألقى كثيرا من الجثث في بئر زمزم، كل هذا وهو يصيح: أنا الله وبالله، أنا أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا، ولم يقف الإجرام على البشر بل تجرأ على الكعبة ذاتها فنزع كسوتها ومزقها وفرقها على أصحابه، ونزع باب الكعبة، وهدم القبة المبنية على زمزم، ثم أمر أحد رجاله باقتلاع ميزاب الكعبة فلما صعد إليه وقع على رأسه ميتا فلم يحاول ذلك مرة أخرى، ثم أمر باقتلاع الحجر الأسود من مكانه فتقدم إليه رجل فضربه بحديد في يده وهو يصيح: أين الطير الأبابيل، أين الحجارة من سجيل؟ وأخذوه معهم إلى بلادهم! ونهبوا ديار أهل مكة وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا حتى لقد بلغ عدد القتلى نحو ثلاثين ألفا، ثم عادوا إلى ديارهم[١]!

وحاول ابن محلب أمير مكة ومعه جماعة من الأشراف أن يتشفعوا له بكل وسيلة ليعيد الحجر الأسود إلى مكانه وبذلوا له كل ما معهم من الأموال، وفي رواية[٢] أن الأمير التركي بجكم عرض من أمواله خمسين ألفا أيضا، ولكنه رفض وأصر على أخذه وقال: أخذناه بالأمر [يعني بأمر إلهي] ولا نرده إلا بالأمر! فقاتلوه فقتلهم جميعا[٣]، يقول ابن كثير: «قد ألحد هذا اللعين في المسجد الحرام إلحادا لم يسبقه إليه أحد ولا يلحقه فيه، وسيجازيه على ذلك الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد»[٤].

ولا شك أن حدثا كهذا اهتز له عالم الإسلام كله، بل تزلزل من أجله، وافتضح أمر القرامطة لمن بقي في نفسه ذرة من بصر أو عقل، فعلم القاصي والداني أنهم على غير ملة الإسلام وأنهم خارجون عنها بالكلية، حتى لقد طارت السهام صوب الخليفة العبيدي المهدي في عاصمته في الشمال الإفريقي باعتبار أن القرامطة أعلنوا ولاءهم له، فأرسل إلى أبى طاهر القرمطي «يُنْكِر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة، ويقول: قد حققت على

(١) نظام الملك: سياسة نامة ص٢٧٩، ٢٨٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٣.
(٢) القلقشندي: مآثر الإنافة ١/ ٢٧٩.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٤.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٨٣.

شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة»، فردَّ بعض الأموال إلى أهل مكة، وماطل في رد الحجر الأسود، واعتذر بأن كسوة الكعبة وأموال الحجاج قد تفرقت بين الناس ولا يستطيع رد هذا مرة أخرى[(١)].

وعند هذا الحد من الفجور يكون القرامطة قد أفصحوا عن حقيقة معتقداتهم، فقد بدأ الأمر فارسيا متنكرا بالتشيع على المذهب الإسماعيلي، وبهذا أخذ في نشر الضلال بين الناس، ثم تدرج هذا حتى وصل من الرفض إلى الكفر المحض، يروي بعض المأسورين عند القرامطة أن آسره «سَكر ليلة وأقامني حياله، وَقَالَ: ما تقول في مُحَمَّد هذا صاحبكم؟ فقلت: لا أدري، ولكن ما تعلمني أيها المؤمن أقوله، فَقَالَ: كان رجلا سائسا، قال: فما تقول في أبي بكر؟ قلت: لا أدري، قال: كان رجلا ضعيفا مهينا، قال: فما تقول في عمر؟ قلت: لا أدري، قَالَ: كَانَ والله فظا غليظا، فما تقول في عثمان؟ قلت: لا أدري، قَالَ: كَانَ جاهلا أحمق، فما تقول في عَلي؟ قلت: لا أدري، قَالَ: كَانَ ممخرقا أليس يقول: إن ها هنا علما لو أصبت له حملة، أما كَانَ في ذلك الخَلْق العظيم بحضرته من يودع كل واحد منهم كلمة حتى يفرغ ما عنده. هل هذه إلا مخرقة؟ ونام فلما كَانَ من غد دعاني، فَقَالَ: ما قلت لك البارحة؟ فأريته أني لم أفهمه، فحذرني من إعادته والإخبار عنه بذلك»، ويعقب ابن الجوزي على هذا بقوله: «فإذًا القوم زنادقة لا يؤمنون بالله ولا يفكرون في أحد من الصحابة»، وينقل دليلا آخر، ذلك «أن أبا طاهر القرمطي دخل الكوفة دفعات، فما دخل إلى قبر عَلي عليه السلام واجتاز بالحائر فما زار الحسين»[(٢)] على نحو ما يفعله المتشيع!

فكان هذا العام (٣١٧هـ) مما لا ينسى في تاريخ الإسلام، وتاريخ البلد الحرام[(٣)]، وبه

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ٢٨٢، ٢٨٣.

(٣) ناقش بعض المؤرخين ممن تناول الحدث مسألة: لم لم يعذبهم الله كما عذب أبرهة الحبشي النصراني، والقرامطة شر من اليهود والنصارى بل وعبدة الأصنام الذين كانوا يعظمون البيت؟ وخلاصة الجواب في هذا: أن الله قد حمى بيته يوم أن لم يكلف أحدا بحمايته، وأما أن البيت قد صار منذ فتح مكة مسؤولية الأمة فهي المكلفة بتطهيره وتعظيمه وحمايته فإن الله يحاسبهم على ذلك، فإن فعلوا أثابهم وإن قصروا عاقبهم، ومرجع ذلك ومرده يكون في الآخرة. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٨٣، ١٨٤.

ختموا نشاطهم في عهد المقتدر، إذ لم ترد أخبار عن هجوم آخر في عامي (٣١٨هـ) أو (٣١٩هـ) على الحجاج أو مكة أو غيرها، وكان الحجاج يخرجون في فرقة مسلحة من الجيش بقيادة بدرقة (٣١٨هـ)، وسار ركب الحجاج العراقي في هذا العام على طريق (العراق – الموصل – الشام – مصر) خوفا من القرامطة ثم عادوا برفقة جيش كثيف خرج به مؤنس لحمايتهم فدخلوا بغداد (المحرم ٣١٩هـ) بعد أن سلك بهم طريقا غير مأهول بعد أنباء عن وجود القرامطة في الطريق[١].

أحوال الجهاد والثغور

ورث المقتدر دولة قوية، لذا كان أمر الجهاد قويا في عهد المقتدر، وقد ظهر الضعف في الأوقات التي اضطربت فيها أمور الخلافة أو انشغلت بمتمردين من رجالها أو بالخارجين عليها كالقرامطة، أو بالخلافات بين المقتدر وقائد الجيش مؤنس الخادم، ففي غير مرة استطاع البيزنطيون تنفيذ هجمات كبيرة وإيقاع خسائر قاسية بمناطق الثغور وأهلها.. لكن الضعف الشديد في حال الجهاد والثغور لن يظهر في عهد المقتدر بل في عهد خلفائه.

لكن مما يزيد الحسرة أن عهد المقتدر والذين بعده كان يمثل فرصة تاريخية نادرة، إذ كان البيزنطيون قد دخلوا في خلافات وحروب مع البلغار، فحين «انتقل العرش إلى الامبراطور قسطنطين السابع بورفير وجينيتوس (٩١٣ – ٩١٩ م) ثم رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩ – ٩٤٤ م) الذي حكم لفترة طويلة لم تستطع بيزنطة أن تقوم بعمل عسكري فعال ضد العرب لأن جيوشها كانت مشغولة في الحروب مع البلغار، ولم يستطع العرب المسلمون بالمقابل أن يستغلوا فرصة انشغال الجيوش البيزنطية في الجبهة البلغارية ليقوموا بعمل عسكري يحقق لهم نصرا على بيزنطة لأن الدولة العباسية كانت في هذه الفترة من تاريخها تمر بفترة ضعف شديد وتنفصل عنها أقاليم تقوم فيها دويلات مستقلة»[٢].

ولعلنا نتوقع أن الخلافة في ذلك الوقت لو رزقت بخليفة له همة المعتضد أو الموفق، أو برجال لا يكثرون التمرد، أو بعسكريين محترفين لا يتدخلون في عمل السياسة ودهاليزها، نتوقع أن لو توفر واحد من هؤلاء لكان المسلمون يستطيعون تحقيق انتصارات فاصلة على

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ٢٩٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٨.
(٢) د. سهيل زكار: الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية ٣/ ٢١٧، ٢١٨.

جبهة الروم البيزنطيين، لا سيما وقد توفر للخلافة رجال أبطال على جبهة الثغور مثل القائد البحري ثمال الخادم، وعدد من قادة المعارك البرية، لم يكونوا يحتاجون إلا شخصية قوية ذات همة تنظم هذه المجهودات في عمليات حربية طويلة الأمد تستهدف إسقاط القسطنطينية ذاتها، فلقد كانت التوغلات الحربية الإسلامية تتم في سهولة لن تتكرر فيما بعد إلا على يد الأتراك السلاجقة بعد قرن وربع القرن من هذه اللحظة!

سيظهر اسم مؤنس الخادم باعتباره قائد الجيش الذي حقق انتصارات كبيرة، على الروم، وكذلك على تمردات داخلية في الشرق أو الجنوب، وبدأ جهاده للروم منذ (شعبان ٢٩٦هـ) حيث تجهز لقيادة غزوة من ثغر طرسوس، وهو نفسه قام في العام التالي (٢٩٧هـ) بمهمة افتداء الأسرى المسلمين من الروم، كذلك ظهر اسم القاسم بن سيما الذي قاد غزوة الصائفة عامي (٢٩٧هـ)، (٢٩٨هـ) وعاد إلى بغداد بعدد كبير من الأسرى الروم.

وانطلقت صائفة العام التالي (٢٩٩هـ) من طرسوس بقيادة رستم أمير الثغور، وفيها دَمَّر حصنَ قائدٍ يدعى مليح الأرمني ودخل مدينته وأحرقها إضعافا وتنكيلا بقدراتها الحربية المتقدمة على خطوط المواجهة مع المسلمين، وعلى هذا الغرار من المعارك المحدودة غير ذات الأثر الكبير استمرت غزوات الصوائف تحقق الهيبة الإسلامية وتحفظ الثغور وتظفر ببعض الغنائم والأسرى في كل مرة!

لا نجد ذكرا للصوائف عام (٣٠٠هـ) بل نجد أن أمير طرسوس قد تغير وولاها المقتدر لبشر الأفشيني، وهو ذات العام الذي توفي فيه ملك الروم إسكندروس بن لاون، وترك الملك لابنه قسطنطين وهو في الثانية عشرة من عمره.

بينما تعود الصائفة (٣٠١هـ) بقيادة الحسين بن حمدان الذي فتح حصونا كثيرة في بلاد الروم، وحقق انتصارات كثيرة برغم دخول الثلج والبرد[١]، وأسر المسلمون مائة وخمسين قائدا روميا في غزوة (٣٠٢هـ) بخلاف ألفي أسير آخرين، بينما انقلب الحال في العام التالي (٣٠٣هـ) لانشغال الخلافة بتمرد الحسين بن حمدان في الجزيرة الفراتية وانشغال مؤنس بحرب العبيديين (الفاطميين) فهاجم الروم حصن منصور وأسروا من فيه، كما استطاعوا

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ١٤١.

الإيقاع بمجموعة من المقاتلين في طرسوس وقتلوا منهم نحو ستمائة فارس، فكان أن سار مؤنس بجيش كبير في العام التالي وغزا مدينة ملطية وتوغل في أرض الروم وفتح كثيرا من المعاقل والحصون وبرغم هذا عاتبه أهل طرسوس وقالوا: «لو شاء لفعل أكثر من هذا» وعاد إلى بغداد فأكرمه الخليفة وخلع عليه.

واستمر التفوق الإسلامي في الأعوام التالية لا سيما المعارك البحرية، ففي البر تبرز أسماء القادة بشر الأفشيني وجني الصفواني، وفي البحر يبرز اسم ثمال الخادم الذي كان يجاهد الروم كما كان يجاهد العبيديين (الفاطميين) في جنوب البحر المتوسط.

وبعد هدوء استمر لبضع سنوات[1] عادت انتصارات المسلمين (٣١٠هـ)، (٣١١هـ) في البر والبحر، ففي البر محمد بن نصر الحاجب وأبطال طرسوس ومؤنس الخادم، وفي البحر ثمال الخادم، وكان كأنما لا يقف أمام المسلمين أحد من الروم من كثرة ما تسجل المصادر من الغنائم والأسرى، ثم أرسل الروم سفيرا (٣١٢هـ) يطلب الهدنة فتمت الموافقة عليها بعد أن كان المسلمون قد غزوا صائفة أخرى وانتصروا فيها ذلك العام.

ومنذ الآن، تبدأ الخلافة في الضعف واضطراب الأمور.. ويؤثر هذا على حالة الجهاد في الثغور، ونبدأ في قراءة قصص البكائيات!

لقد التقط امبراطور الروم ضعف الأحوال وكتب إلى أهل الثغور (٣١٣هـ) يأمرهم بأداء الجزية إليه قائلا: «إنني صَحَّ[2] عندي ضعف ولاتكم» ومهددا بالحرب إن لم يفعلوا، وحين لم يدفعوا اقتحم عليهم بجيوشه (٣١٤هـ) مدينة ملطية فأخربها وما استطاع من الأنحاء التي حوله فقتل الروم وأسروا ونهبوا ما استطاعوا حتى لقد نبشوا القبور وأخرجوا جثث الموتى فمثلوا بها، وأقاموا فيها ستة عشر يوما، ورحل منها كثير من أهلها حتى لجأوا للخلافة في بغداد ما يشير إلى انعدام الأقوياء من أمراء البلاد التي بينهم وبين بغداد[3].

---

(١) في (٣٠٧هـ = ٩١٧م) ذكر د. سهيل زكار –نقلا عن المصادر الغربية– أن البيزنطيين هزموا في أول حكم قسطنطين أسطولا عربيا بقيادة ليون الطرابلسي (غلام زرافة).. ولم أجد فيما تحت يدي من المصادر العربية حديثا عن صدام مع الروم هذا العام، وعند ابن الأثير أن ثمل متولي الغزو في البحر أوقع بمراكب للمهدي (العبيدي الفاطمي) فربما كان انشغاله سببا في هذا، والله أعلم!

(٢) صَحَّ: أي ثَبَت.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٠.

وتكرر هجوم الروم (٣١٥هـ) ولكن هذه المرة على سميساط التي نهبوها وأخذوا جميع ما استطاعوا من أموال وسلاح، وتعمدوا استفزاز مشاعر المسلمين فضربوا بالأجراس الكنسية داخل مسجدها، وقد أدى هذا إلى مقاومة إسلامية شعبية لكنها حققت نصرا كبيرا على الروم حتى لقد وصلت أخبار النصر وما كاد الجيش -الذي يتجهز تحت قيادة مؤنس- يخرج من بغداد، ونستطيع أن نسمي هذا العام بعام «المقاومة الشعبية» حيث تعرضت سرية من المسلمين لهزيمة قبيحة على يد الروم وأُسِر منها أربعمائة، بينما استطاع المسلمون صد هجوم الجيش الرومي الكبير على مدينة ديبل ولم يكن فيها إذ ذاك إلا حامية صغيرة بقيادة نصر السبكي، فلم يستطع الروم اقتحامها إلا بعد عنت وحصار شديد مع فارق كبير في الأسلحة والعدد، ثم لما اقتحموها لم يستطيعوا البقاء فيها أمام المقاومة الإسلامية الباسلة التي أوقعت منهم عشرة آلاف قتيل؛ فاضطروا إلى الانسحاب منهزمين في واحدة من روائع البطولات الإسلامية، ومهدت هذه البطولات لانتصار الصائفة التي قادها ثمال الخادم في ذات هذا العام حيث هزموا جيشا كبيرا للروم، ربما كان هو الجيش المنسحب من ديبل، وكانت غنائمهم وفيرة، بل واستطاعوا التخلص من ابن الضحاك الكردي وكان صاحب قلعة في المنطقة الحدودية بين المسلمين والروم وكان من المسلمين فارتد وظل يعمل في خدمة الروم، فانتهى أمام جيش ثمال إلى الأسر بعد هزيمة ساحقة(١).

وعاد الروم لذات الهجوم (٣١٦هـ) وهذه المرة مع مدينة خِلاط في أرمينية فحاصروها حتى بذل أهلها أموالا مقابل فك الحصار، لكن قائد الروم أصر على إخراج المنبر من المسجد وأن يضع مكانه صليبا نكاية للمسلمين وإذلالا لهم، وكرر ذات القصة مع بلدة بدليس، وقبل أن يصل إلى بلدة أرزن خرج أهلها وارتحلوا إلى بغداد خوفا منه، وفيما نجح الروم في جبهة أرمينية حاول القائد الآخر مليح الأرمني اقتحام ملطية بالخديعة فأرسل جماعة من أتباعه كأنهم من الفَعَلة والعُمَّال، فدخلوا ملطية كأنهم يبحثون عن عمل، وكانت الخطة أن يكون هؤلاء -وعددهم سبعمائة- بمثابة الكتيبة خلف صفوف المسلمين بحيث إذا جاء جيشه وحاصرها فتحوها له، لكن المسلمين كانوا على يقظة من أمرهم فقتلوهم وأخذوا ما معهم(٢).

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣١، ٣٥، ٣٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٨.

في تلك الفترة أصبحت منطقة الثغور تعاني ضعفا شديدا في جانب المقاتلين والتسليح، وفي ظل انشغال الخلافة واضطراب أمورها وعجزها عن مواجهة القرامطة الذين بلغوا من الفجور حدًّا غير مسبوق وصل إلى أنهم هاجموا الحرم المكي وخلعوا الحجر الأسود من الكعبة المشرفة (٣١٧هـ)، وقد استغاث أهل الثغور الجزرية بالخلافة لتنقذهم من ضغط البيزنطيين ويعلنون عدم قدرتهم على مواجهة الجيوش العالية العدد والتسليح، لكنهم لم يحصلوا على شيء[١].

ولم يكن المطلوب أكثر من وجود جيش نظامي، وبالعموم فما إن يظهر هذا الجيش إلا ويتحقق الانتصار على الروم، وقد وقع هذا عدة مرات:

١- استطاع مفلح الساجي[٢] (٣١٧هـ) إيقاع هزيمة بجيش رومي كبير وأجبره على التراجع خلف خطوط المسلمين بعد أن أصاب فيهم مقتلة كبيرة[٣].

٢- وأوقع ثمال الخادم –والي طرسوس- بالروم هزيمة قاسية (ربيع الأول ٣١٩هـ)، وقام فيها بخطوة جريئة، إذ استغل تجمد قاع النهر في العبور إليهم بالخيول ففاجأهم فقتل منهم ستمائة وأسر ثلاثة آلاف وحاز غنائم كثيرة من الذهب والفضة وغيرها.

٣- وبعد ثلاثة أشهر حقق انتصارا آخر أقوى من السابق (رجب ٣١٩هـ)، حيث توغل الجيش حتى عمورية فهرب الروم من أمامه ولم يواجهوه، فاستمر في توغله يحصد الغنائم ويدمر القلاع والعتاد الحربي للروم حتى وصل أنقرة، وعاد الجيش سالما بغنائم كثيرة إلى طرسوس (٣٠ رمضان ٣١٩هـ).

٤- وحتى عندما تحالف الروم مع الأرمن وزعيمهم ابن الديراني –بدعوة من هذا الأخير- تصدى لهم مفلح الساجي نائب أذربيجان، ولكن بعد أن أوقعوا بالمسلمين في خلاط وما حولها خسائر مريرة وقُتِل وأُسِر كثير من المسلمين، وخرج معه في جيشه كثير من المتطوعين فتوجهوا نحو بلاد الأرمن أولا فأوقعوا بهم هزيمة هائلة وأسروا منهم عددا ضخما وأموالا كثيرة، بينما كان جيش الروم قد توجه إلى حصار سميساط، فاستغاث أهلها

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٧، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٨٤.
(٢) سمي الساجي، لأنه كان من قادة يوسف بن أبي الساج.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٧، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٨٤.

بنائب الموصل سعيد بن حمدان، فخرج بجيشه إليهم فوصل وقد أوشك الروم على اقتحامها فهربوا من أمامه، فطاردهم وتوغل في أرض الروم حتى أنزل بهم خسائر بالغة (شوال ٣١٩هـ).

اضطراب خلافة المقتدر

وصلت الخلافات بين أجنحة القصر حدا خطيرا، واستطاع أحدهم تسريب خبر إلى مؤنس –قائد الجيش– أن الخليفة ينوي أن يقبض عليه ويقتله حين يدخل عليه مودعا قبل الخروج لغزو الروم (٣١٥هـ) فأحجم مؤنس عن توديع الخليفة وتعطل خروج الجيش وسرى النبأ فانضم إلى مؤنس قادة العسكر، وعَلِم المقتدر بما حدث فأرسل إلى مؤنس يحلف له أنها إشاعة كاذبة وافتراء وأنه لا ينوي به شرا، وتم احتواء هذه الأزمة لكنها فتحت الباب لاضطراب العلاقة بين المقتدر ومؤنس.

وحدث تمرد من مجموعة عسكرية في بغداد حتى اقتحموا أحد القصور، واسمه «الثريا»، مطالبين بالأموال المتأخرة من رواتبهم، ولم يسكنوا إلا حين توجه إليهم مؤنس –قائد الجيش– وتعهد لهم بسداد هذه الأموال.

وفي العام التالي (٣١٦هـ) استقال الوزير علي بن عيسى من الوزارة، لما يراه من اختلال إنفاق الأموال وزيادتها عند نساء القصر، وإهمال الخليفة في مواجهة القرامطة الذين استفحل أمرهم وصاروا خطرا على قلب الدولة، كما أن نصرا حاجب الخليفة كان يناوئه لما بين علي ومؤنس من المودة ولما بين نصر ومؤنس من الخلاف، فهكذا اجتمعت ظروف ضغطت على الوزير علي بن عيسى فأصر على الاستقالة رغم محاولات الخليفة ومؤنس إثناءه عنها، ثم سعى في توليها علي بن مقلة الذي ساق الأموال والوسطاء حتى ظفر بالمنصب.

وهكذا خسرت الخلافة العباسية وزيرها الكفء علي بن عيسى مرة أخرى، وتولى المنصب علي بن مقلة الذي كانت تُشترى منه المناصب بالرشاوى، وكان من أول من أخذ منصبا بالرشوة رجلٌ يسمى أبو عبد الله البريدي، فتولى الخاصة في الأهواز، وكان داهية ماكرا متهورا قليل الدين، وسيكون له أثر في إضعاف الخلافة ذاتها كما سيأتي فيما بعد، وبأثر من الضغائن والأحقاد صدر الأمر بحبس الوزير علي بن عيسى!



كما خسرت الخلافة رجلا آخر من أبرز رجالها وهو نصر الحاجب الذي توفي في طريقه لملاقاة القرامطة (٣١٦هـ)، وكان من عوامل الموازنة في البلاط إذ لم يكن على وفاق مع مؤنس، ووصفه ابن كثير بقوله: «كان من خيار الأمراء، دينا عاقلا، أنفق من ماله في حرب القرامطة مائة ألف دينار، وخرج بنفسه محتسبا فمات في أثناء الطريق»[١].

وفي ظل الفتن والاضطرابات المسيطرة على الدولة حدث نزاع بين نازوك –قائد الشرطة– والأمير هارون بن غريب –ابن خال المقتدر– وكانت الغلبة لهارون، وشاع بين الناس أن الخليفة سيعين هارون في منصب «أمير الأمراء» الذي سيكون الرجل الثاني في الدولة بعد الخليفة، ولما وصل الخبر إلى مؤنس –قائد الجيش، والرجل الثاني فعليا في الدولة– أسرع بالرجوع من الرقة إلى بغداد لمتابعة الأمر، وبرغم أن اللقاء الذي جمعه بالخليفة انتهى برضاه، إلا أنه لم يطمئن لتقريب الخليفة لهارون إلى الحد الذي أنزله معه في القصر، فعادت خشية مؤنس واضطراب العلاقة بين الخليفة وقائد جيشه وأعلن بعض أمراء الفرق العسكرية انضمامهم لمؤنس، وجاء أبو الهيجاء بن حمدان من بلاد الجبل بعسكر كبير فانضم إلى مؤنس، وجرت مساع ووساطات بين الخليفة ومؤنس[٢].

لم تكن المعركة الحقيقية معركة مؤنس، فهو مايزال حريصا على بقاء الود مع الخليفة، لكن الأمراء الأتراك –ومعهم من غير الأتراك أيضا– كانوا هم رأس الحربة الحقيقية في هذه المعركة، فهم –فيما يظهر– يتوقون لعودة النفوذ التركي كما كان قبل عصر المعتمد والموفق، ولا شك أن ضعف المقتدر وخضوعه للنساء واضطراب قراراته كانت تدعم رؤيتهم في ضرورة أن يتولى البلاد رجل قوي، لا يخضع للنساء، حاسم في قراره، مهابٌ في ملكه، وكان الأتراك يرون أنفسهم أهل الدولة ورجالها الذين يحافظون عليها ويجاهدون أعداءها، وزاد في دوافعهم تآمر بعض الوزراء عليهم كابن الفرات وحرصه على إبعاد مؤنس وجيشه عن حاضرة الخلافة.

كانت الرغبة قوية في عزل المقتدر، وتولى قيادة هذا الأمر نازوك قائد الشرطة وأبو الهيجاء بن حمدان وبنّي بن نفيس الذي كان أقواهم رغبة في خلع المقتدر، وقد بلغ عزمهم على

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٨٠.

(٢) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٢.

خلع المقتدر حدا لم يستطع أن يقاومه مؤنس نفسه!

ورغم أن الخليفة أجاب بعض مطالبهم فأخرج هارون بن غريب من القصر وولاّه على ثغور الشام والجزيرة إلا أن هذا لم يكن كافيا عندهم، ولم تؤثر فيهم مناشدات الخليفة ورسائله إليهم(١).

وما هي إلا أيام من العام الجديد (٣١٧هـ) إلا ووصلت العلاقة بين المقتدر والأمراء العسكريين إلى مرحلة اللاعودة فقام مؤنس –مدفوعا- بانقلاب عسكري على الخليفة، فحاصرت الجنود دار الخلافة، حتى أُخرج المقتدر وأمه ونساء القصر، وكتب المقتدر تنازلا عن الخلافة سلمه إلى القاضي محمد بن يوسف، وأتى أبو الهيجاء بن حمدان بمحمد أخي المقتدر ونصبه خليفة واتخذ لقب «القاهر بالله» (١٥ المحرم ٣١٧هـ)، وبقي الوزير علي بن مقلة في نفس المنصب، وعُيِّن نازوك –قائد الشرطة- حاجبا للخليفة بالإضافة إلى منصب أمير الشرطة، ونُهبت دار المقتدر وكثير من الأموال والخزائن، وأمر نازوك الحاجب الرَجَّالة المصافية(٢) بأن يتركوا القصر فأسخطهم هذا كثيرا(٣).

ومن العجيب أن مؤنس احتفظ بالمقتدر في بيته ولم يمسه بسوء رغم قدرته على قتله ما يدل على أنه ما زال على الولاء للمقتدر، وأن القاضي محمد بن يوسف لم ينشر ولم يُذع التنازل الذي كتبه المقتدر على الناس بل أبقاه عند ولده في سرية تامة(٤)!

ومثلما فشل الانقلاب الأول على المقتدر قبل عشرين سنة من حيث لا يحتسب المقتدر ولا أحد من أهله، فشل الانقلاب الثاني بما هو أعجب من الأول!

ففي أول يوم من خلافة القاهر خرج الناس أفواجا نحو القصر لحضور حفل التنصيب وأداء البيعة، وخرج في مقدمتهم الحرس الخليفي من الرجالة المصافية والغلمان الحجرية(٥) وغيرهم، وبدأت هذه الفرق في التشغيب والاحتجاج والمطالبة برواتب سنة كاملة، فتحولت

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٩، ٥٠.
(٢) الرجالة المصافية: فرقة من الجيش لحراسة القصر، مثل «الحرس الرئاسي» في عصرنا الآن، وهم «رَجَّالة» أي: فرقة مشاة، وكان معظمهم من الأفارقة سود البشرة «السودان».
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٠.
(٤) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٠، ٥١.
(٥) الغلمان الحجرية: هم أهم الفرق في حرس الخلافة، وهم فرقة عسكرية أشبه ما تكون بجيش صغير.

مظاهرة الاحتفال فيما يبدو إلى مظاهرات احتجاج، وكان نازوك -قائد الشرطة، وحاجب الخليفة الجديد- مخمورا في هذا اليوم من كثرة ما شرب بالأمس، فمنع جنوده من التعرض لهم، فزاد شغبهم واستفحل حتى اقتحموا القصر واقتربوا من قاعة الخليفة حتى سُمعِت الأصوات في مجلس القاهر الذي أمر نازوك أن يصرفهم، فلما خرج إليهم نازوك وكان باديا عليه أثر الخمر هجموا عليه فقتلوه، وهنا تحولت مظاهرة الاحتفال إلى «ثورة شعبية» على القاهر، وهتفوا «يا مقتدر يا منصور»، وانقسم الجمع بين مطارد لرجال القاهر في القصر، وبين من ذهبوا إلى بيت مؤنس يطالبون بظهور الخليفة المقتدر، حتى أخرجوه وحملوه على الأعناق إلى القصر وأعادوه مرة أخرى إلى الخلافة!

وهكذا قُتِل رؤوس المعارضة للمقتدر، نازوك وأبو الهيجاء بن حمدان -في قصر الخلافة- وهرب بني بن نفيس إلى عاصمة الروم القسطنطينية، وهناك تنصر.

وتشير الأحداث إلى أن مؤنس الخادم هو من خطط ورتب لهذا الانقلاب مع الرجالة المصافية وغيرهم من فرق الجند الموالية للخليفة، ويدل على ولائه أنه احتفظ بالخليفة في بيته ولم يمسه بسوء، وعاد المقتدر إلى الخلافة، وكتب أمانا إلى أبو الهيجاء بن حمدان وإلى أخيه القاهر، لكن ابن حمدان كان قد قُتِل بالفعل، بينما عُثِر على القاهر، فجاء متوسلا إلى المقتدر الذي «أجلسه عنده وقَبَّل جبينه، وقال له: يا أخي قد علمت أنه لا ذنب لك وأنك قهرت ولو لقبوك بالمقهور لكان أولى من القاهر، والقاهر يبكي ويقول: يا أمير المؤمنين نفسي نفسي أذكر الرحم التي بيني وبينك. فقال له المقتدر: وحق رسول الله لاجرى عليك سوء مني أبدا ولا وصل أحد إلى مكروهك وأنا حي»[(١)].

وأقر المقتدر علي بن مقلة في منصب الوزارة، وولى محمد بن يوسف قضاء القضاة، وبقي مؤنس في منصبه في قيادة الجيش، وولَّى الحسن بن أبي الهيجاء بن حمدان على ما كان لأبيه استرضاء له وتلطفا به، وجعل محمدًا أخاه - وهو القاهر - عند والدته بصفة محبوس عندها، فكانت تحسن إليه وتكرمه غاية الإكرام، وأخرج المقتدر ما في الخزائن من الأموال وباع من الأملاك لكي يعطي الجند رواتبهم، ونجت الخلافة من هذه الأزمة.. ولكن إلى حين.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٢، ٥٣.

لقد انقضت هذه الأزمة مخلفة وراءها أزمتين أخريين؛ الأولى: أن العلاقة بين المقتدر ومؤنس وإن كانت في الظاهر جيدة إلا أن الأزمة أسفرت أن المقتدر نفسه صار مهددا في عرشه وحياته إن بدا لمؤنس أن يفعل، والثانية: أن الحرس الخليفي، وبالذات الرَجَّالة المصافية، رأوا أنهم أصحاب فضل على المقتدر نفسه، وأنهم أولى الناس بالأموال والعطايا، وأنهم كما أعادوا المقتدر إلى عرشه قادرون على نزعه منه.

قرر الخليفة عزل الوزير أبا علي بن مقلة الذي كان من رجال مؤنس، فانتهز فرصة خروج مؤنس في سفر خارج بغداد، وما إن دخل الوزير على الخليفة حتى قبض عليه (٣٠ جمادى الأولى ٣١٨هـ)، مستعينا في ذلك بقائد الشرطة محمد بن ياقوت الذي كان على عداوة مع ابن مقلة، وأرسل محمد من أحرق دار ابن مقلة الفاخرة التي أنفق عليها مائة ألف دينار، وجاء مؤنس مسرعا، وبدأت بينهما حرب إرادات، فمؤنس أراد إرجاع ابن مقلة ولكن الخليفة رفض، وبينما كان المقتدر يريد قتل ابن مقلة وتعيين الحسين بن القاسم وزيرا، رفض مؤنس بإصرار، وانتهى الحال إلى الاكتفاء بالغرامة على ابن مقلة بمائتي ألف دينار، وتعيين سليمان بن الحسن وزيرا، وكان الحل الوسط أن يكون علي بن عيسى شريكا في الوزارة مع سليمان بن الحسن. وقد ألقى هذا بظلاله على بعض الأنحاء، إذ أمر الخليفة بالقبض على أبي عبد الله البريدي وإخوته، وقد كانوا تولوا الأهواز بالرشوة من الوزير ابن مقلة كما ذكرنا، وحاول المقتدر أن يُعجزهم ويتخلص منهم ففرض عليهم أربعمائة ألف دينار حتى يعودوا إلى عملهم السابق ظانا أنه لن يمكنهم التصرف في هذا المبلغ، إلا أنهم فعلوا، فعادوا إلى مناصبهم، وسيكون لعبد الله البريدي قصة وأثر في مسار الخلافة بعد قليل(١).

وأما الرجالة المصافية الذين تطاولوا حتى صار لا يكفيهم مائة وثلاثون ألف دينار في الشهر إذ فرضوا رواتب لأنفسهم ولأهلهم ومعارفهم(٢)، فانتهز الخليفة تشغيب بعض

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٦٠، ٦١، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٨٦.

(٢) يقول عريب بن سعد عن مدى ما وصل إليه الرجالة المصافية من الاستعلاء:

«ومن الحوادث في هذه السنة التى عظمت بركتها على السلطان والمسلمين أن الرجالة المصافية لما قتلوا نازوك وتهيأ لهم ما فعلوه في أمر المقتدر وقبضوا الست النوائب والزيادة التى طلبوها ملكوا أمر الخلافة وضربوا خياما حوالى الدار وقالوا نحن أولى من الغلمان بحفظ الخليفة وقصره وانضوى إليهم من لم يكن منهم وزادت عدتهم على عشرين ألفا وبلغ المال المدفوع إليهم لكل شهر مائة ألف وثلاثين ألف دينار =



الفرسان من حرس الخليفة واحتجاجهم للمطالبة بالأموال، فقيل لهم: إن بيت المال فارغ لأن الأموال قد انصرفت إلى الرجالة، فاشتبك الفرسان مع الرجالة، ووقع بينهم مقتلة كانت الغلبة فيها للفرسان، فكانت فرصة للمقتدر في الظفر بهم، فاستعان بقوات الشرطة وأمر قائدها محمد بن ياقوت بمحاربة الرجالة المصافية، فتولت الشرطة تصفية قوات الحرس من الرجالة المصافية، وأصدر المقتدر (المحرم ٣١٨هـ) قرارا بخروجهم عن بغداد كلها، والقبض على من لم يخرج، وصودرت أملاكهم وهُدمِت ديار زعمائهم، وألقي القبض على من لم يخرج من بغداد فضُربوا وحُلِقت لحاهم وشُهِّر بهم في بغداد.

وحيث إن الرجالة كانوا من الأفارقة السود كما ذكرنا، فإن هذه النازلة قد أثارت الأفارقة في بغداد، فهاجوا وثاروا، ووقعت بينهم وبين الشرطة مواجهات كبيرة، واستطاعت قوات الشرطة إخماد ثورتهم بقسوة، حتى أحرقت بيوتهم بمن فيها، فكانت أشبه ما يكون بهجرة جماعية للأفارقة، فتجمعوا في مدينة واسط، وهناك أعادوا تنظيم أنفسهم حتى استولوا على المدينة وطردوا الوالي العباسي وصارت واسط في أيديهم مستقلين بها، وبدأوا من هناك التوسع بإدخال المناطق القريبة في نفوذهم عبر الاستيلاء على حق الدولة من الموارد المالية، فكانت بذرة دولة مستقلة قد بدأت في التكون، فتحركت فرقة من الجيش بقيادة مؤنس وجرت بينهم معركة شديدة سحقهم فيها الجيش، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة.

على أن المشاكل تجددت في أروقة قصر الخلافة بعد قليل، على هذا النحو:

فشل الوزير سليمان بن الحسن في إدارة مهام الوزارة لاسيما وهو منقوص الصلاحيات بوجود علي بن عيسى معه، وكان سليمان وعلي بن عيسى محسوبين على مؤنس الخادم، فمؤنس لا يثق في الوزارة بغير علي بن عيسى وهو الذي أتى بسليمان بن الحسن، وفي هذا

= وتحكموا على القضاة وطالبوهم بحل الحباسات وإخراج الوقوف من أيديهم واكتنفوا الجناة وعطلوا الأحكام واستطالوا على المسلمين وتدلل قوادهم على الخليفة وعلى الوزير حتى حان لا يقدر أن يحتجب عن واحد منهم في أي وقت جاء من ليل أو نهار ولا يرد عن حاجة كائنا ما كانت فلم يزالوا على هذه الحال إلى أن شغب الفرسان وطلبوا أرزاقهم وعسكروا بالمصلى ودخل بعضهم بغداد يريد دار أبى القاسم بن الوزير محمد بن على فلما قربوا منها دفعهم الرجالة الذين كانوا ملازمين بها ومنعوهم الجواز في الشارع فتجمع الفرسان ورشقوهم بالنشاب وقتلوا منهم رجلا فانهزم الرجالة أقبح هزيمة» عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص١٠٣.

النوع من الولاء ما لا يمكن أن يرتاح له المقتدر خصوصا بعدما توترت العلاقة مع مؤنس!

كان المقتدر يميل إلى الحسين بن القاسم ويريد أن يكون هو الوزير، وهو الشخص الذي عارض مؤنس توليته وزيرا بإصرار من قبل، وعجز المقتدر بالفعل عن إنفاذ رغبته واضطر إلى توليته سليمان بن الحسن، فكان أن حاول المقتدر الاستعانة برجل قوي آخر يكون في صفه أمام نفوذ مؤنس، فوقع اختياره على محمد بن ياقوت الذي صار قائد الشرطة (وزير الداخلية) وصار من المقربين إلى الخليفة!

كان صعود محمد بن ياقوت يقلق مؤنسا، لا سيما وقد بدا أن محمد بن ياقوت على مذهب الخليفة في تولية الوزارة الحسين بن القاسم وصرفها عن سليمان بن الحسن وعلي بن عيسى، وكذلك فإن محمد بن ياقوت ظهرت قوة شخصيته ونجاحه في أزمة الرجال المصافية من الحرس الخليفي فهو الذي تولى إخراجهم من القصر بل ومن بغداد كلها. لقد كانت الأزمة تدور في الصدور وبين أروقة القصور حتى اشتعلت حين أصدر المقتدر قرارا بتعيين محمد بن ياقوت على الحِسْبَة إضافة إلى موقعه كقائد للشرطة، فهنا ثار مؤنس وغضب وعارض الخليفة بأن هذا المنصب لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعُدول[1].

واشتعل الموقف في بغداد، إذ جمع محمد بن ياقوت رجاله وقواته واحتشد بها في قصر الخليفة تحذيرا لمؤنس وخشية من انقلاب عسكري آخر كالذي كان في العام قبل الماضي، فوصل إلى مؤنس الخبر بأن هذا الحشد إنما لأنهم يخططون لاقتحام الدار عليه ليلا والقبض عليه، فجمع هو الآخر قوات الجيش التي تأتمر بأمره وخرج إلى معسكر باب الشماسية خارج بغداد، وبدا في الأفق نذير أزمة طرفاها قائد الجيش وقائد الشرطة!

انضم إلى مؤنس كل من له عداوة مع محمد بن ياقوت لاسيما من تبقى من الرجال المصافية، فصار معه أكثر من ستة آلاف محارب، وحاول ابن ياقوت أن يمنع التجار من أن يبيعوا لهم السلاح ولكن مؤنس تهدد من يمتنع عن بيع السلاح لجنوده، وفشلت الوساطات التي قادها الوزير سليمان بن الحسن وعلي بن عيسى وغيرهما، فلقد أصر مؤنس لا على عزل ابن ياقوت عن الحسبة وحدها بل على إخراجه من بغداد كلها، ولم يجد المقتدر إلا أن

---

(١) العُدول: جمع عَدْل، والمقصود هو الشخصية النزيهة المستقلة المعروفة بالسمعة الطيبة.

يستجيب لمؤنس مرة أخرى، فخرج محمد بن ياقوت وأبوه وأخوه، فولَّى ياقوتا نواحي فارس وكرمان، وولَّى المظفر بن ياقوت أصفهان، وولَّى محمد بن ياقوت سجستان، وعاد قائد الشرطة القديم محمد بن رائق إلى منصبه[1]!

وفي شيراز اتفق ياقوت مع متوليها على قطع الأموال عن المقتدر، فخسرت الخلافة موارد المال من هذه الأنحاء الفارسية!

لكن المقتدر الذي كُسِر لمرة أخرى أمام مؤنس أصر غاية الإصرار على عزل الوزير سليمان ابن الحسن الذي تقدم أنه كان من رجال مؤنس، وتحجج في هذا بفشله في عمله، وما إن تسربت هذه الرغبة حتى انهالت الرسائل والوساطات تطلب الوزارة وتبذل لها الأموال وتضمن القيام بالأمور على خير وجه، فعزل المقتدر سليمان بن الحسن (رجب ٣١٩هـ) بعد عام وشهرين فحسب، وأراد أن يتولاها الحسين بن القاسم، فهنا وقف مؤنس معارضا بكل قوته لئلا تتكرر معه مرة أخرى قصة محمد بن ياقوت الذي كان يريد أن يولي الحسين بن القاسم الوزارة كذلك، وكان الحل الوسط أن يتولاها أبو القاسم الكلوذاني (٢٧ رجب ٣١٩هـ)[2].

على أن الكلوذاني لم يستقر في الوزارة أكثر من شهرين، حتى حدث لديه عجز مالي يقدر بسبعمائة ألف دينار فطلبها من خاصة أموال الخليفة فغضب المقتدر عليه، فعزله وولَّى مكانه الحسين بن القاسم –الذي كان يريد أن يوليه من قديم– دون معارضة تذكر من مؤنس، وكان الحسين قد تعهد بإصلاح الأحوال المالية وإصلاح العلاقات مع مؤنس.

على أن مثل هذا العهد المضطرب المتذبذب الحافل بدسائس القصور والمكائد لا يحتمل إصلاح علاقات، بل زادات الدسائس، وليس إلا أقل من شهرين حتى كانت المكائد قد وصلت إلى مؤنس بأن الحسين بن القاسم يراسل عددا من القادة للتدبير عليه والمكر به، كما وصل إلى الحسين أن مؤنسا يدبر عليه هو الآخر وأنه يخطط للقبض عليه ليلا من بيته مع قوة من جيشه، واتسع التوتر بين الرجلين حتى أرسل مؤنس إلى المقتدر يأمره بعزل الحسين ومصادرة أمواله، واستجاب المقتدر إلى العزل ولكنه لم يصادره، فسرب الحسين إلى الخليفة أن مؤنسا إنما يريد أن يأخذ ولده أبو العباس (الراضي بالله) إلى الشام، وهناك يبايعه بالخلافة

---

(١) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص١١١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٦٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٦٤، ٦٥.

ويعزل المقتدر عنها، فيصير هو الخليفة على الحقيقة، وكان لابد لمثل هذا التسريب أن يجد موقعه في نفس المقتدر الذي لا يستبعد مثل هذا عن مؤنس مع طول ما وقع بينهما من توترات، فأخذ المقتدر يحشد القواد حوله، فردَّ الحسين إلى منصب الوزارة بعد أن عزله، وشرع الحسين في حشد قوات حرس الخلافة وتهيئتهم، وأرسل في استدعاء القادة من البلاد كمحمد بن ياقوت –خصم مؤنس– وهارون بن غريب – ابن خال المقتدر – وكان خارجا لتوه من هزيمة على يد مرداويج بن زيار، فأكد هذا نية التدبير التي وصلت لمؤنس (ذي الحجة ٣١٩هـ)، فأرسل إلى الخليفة رسولا وأمره ألا يُفضي بالرسالة إلى أحد إلا للخليفة نفسه، فأصر الوزير الحسين بن القاسم على أن يعرف فحواها وأصر الرسول على الرفض حتى بعد أن استصدر الوزير قرارا من المقتدر أن يفضي بفحواها إليه، فضربه وصادر من أمواله ثلاثمائة ألف دينار وحبسه ونهب داره، وحينئذ بلغت الأمور بين مؤنس والخليفة نقطة اللاعودة، وقد فوجئ بأن يُفعل هذا مع رسوله وهو الذي كان ينتظر –كالعادة– استجابة من المقتدر أو تطييبا لخاطره، فعزم على السير بمن معه من الجيوش إلى الموصل (المحرم ٣٢٠هـ)، لكنه لم يعلن العصيان بل أشاع أن الخليفة قد ولاه على الموصل وديار ربيعة.

ولا ريب أن هذا كان أفضل ما يتمناه القصر، أن يزول الخطر عن بغداد وعن الخلافة، كما أن مؤنس –فيما يبدو– لم يُرد أن يصل بالخلاف إلى نهايته الحتمية، وإلا لكان قد خاض الحرب في بغداد إذ يبدو الأرجح كفة في ميزان القوة العسكرية، ففضل أن يسير إلى الموصل حيث يظل الباب مفتوحا للإصلاح وعودة المياه إلى مجاريها!

على أن الوزير الحسين بن القاسم سارع بمصادرة أموال وضياع وأملاك مؤنس وأتباعه في بغداد وما حولها، وحاز بذلك أموالا كثيرة، كما أرسل إلى بني حمدان في الموصل يأمرهم بحرب مؤنس، وخلا الجو للوزير في بغداد فتمكن من الوزارة ولم يعد له منافس، ولُقِّب بـ«عميد الدولة» ونُقِش اسمه على العملة، وأعلن عفوا عاما عن جنود الحرس الخليفي (الساجية) من القادة والجنود ممن كانوا مع مؤنس وأذن لهم في الرجوع إلى بغداد، فعادوا إلا ثمانمائة منهم مضوا مع مؤنس إلى الموصل.

اصطدم مؤنس بمن معه من الجيش ببني حمدان في الموصل، وجرت بينهم حرب انتهت لصالحه، فدخل الموصل واستقر بها، وظل بها تسعة أشهر، حتى تمكن أمره، إذ صارت في

حوزته أموال وأملاك بني حمدان في الموصل، وانحازت إليه أرسال من الجنود من مصر والشام لما كان له من أيادٍ بيضاء عليهم في الأيام الماضية، بل لقد انحاز إليه ناصر الدولة بن حمدان نفسه، وصارت قوة مؤنس في الموصل أكبر من قوة الخلافة في بغداد.

في هذه الشهور التسعة كانت الأمور في بغداد تسير في طريق آخر، لقد صار منصب الوزارة أحلى من ذي قبل باختفاء الرجل القوي مؤنس، وصارت الرغبات ترنو إليه بأشد مما كانت، وبطبيعة الحال كان الوزير الحسين بن القاسم قد تمكن وتوسع في الاستئثار بالأموال، حتى دَلَّس في الميزانية بمبلغ كبير، اكتشفه هارون بن غريب الذي توافق مع الخصيبي على الإيقاع بالحسين بن القاسم ليتولى الخصيبي الوزارة مكانه، وقد تم لهم ما أرادوا، فكشفوا للمقتدر من واقع السجلات ما فعله الحسين بن القاسم فعزله المقتدر (ربيع الآخر ٣٢٠هـ) بعد سبعة أشهر فقط من توليه الوزارة، وولَّى الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات.. وما كان الوزير الجديد يعلم أنه آخر وزراء المقتدر!

سبعة أشهر هي عمر وزارة الحسين بن القاسم ليس فيها من حدث جليل إلا أن العلاقة بين الخلافة وجيشها قد صار في أسوأ حال! فلا هو تمتع بالوزارة ولا هو حافظ على كيان الدولة ومصالحها!

نهاية المقتدر

عندما استقر الأمر لمؤنس بالموصل دفعه الجنود إلى أن يتحرك بالجيش إلى بغداد وأن يطالبوا الخليفة بالأموال، فإما استجاب لهم وإلا خلعوه من الخلافة على نحو ما فعلوا قبل ثلاث سنوات، ووافقهم مؤنس على هذا وتحرك الجيش من الموصل صوب عاصمة الخلافة.

ما إن بلغ نبأ هذا التحرك إلى بغداد حتى ثار كثير من الجنود في بغداد مطالبين بالأموال أيضا، وسعى المقتدر ما وسعه الجهد في أن يفرق عليهم ما استطاع من الأموال، لكن ما بذله لهم لم يشبع رغبتهم فانتكس الحال أكثر، فحينئذ عزم المقتدر على الانسحاب من بغداد إلى واسط ليجمع إليه الأجناد من أنحاء المشرق ثم يحارب مؤنسا، لكن محمد بن ياقوت كان على يقين بأن المقتدر إذا واجه مؤنسا ودخل الحرب بنفسه فإن الجنود لن يتجرأوا على حرب الخليفة بل إنهم ينسحبون من حول مؤنس، واجتهد في إقناع المقتدر بهذا حتى غير رأيه وعزم على دخول الحرب.

لكن الأمر لم يكن كما تصور محمد بن ياقوت، لقد كانت حالة الجنود الموالين للخليفة على أسوأ ما يكون من الولاء، فكيف بغيرهم؟! حتى إن الأمير هارون بن غريب لم يرض أن يحارب بجنده مع المقتدر خشية أن يتخلى عنه جنوده بعد هزيمته الأخيرة أمام مرداويج بن زيار لولا أن ألح عليه الوزير ابن الفرات فانضم بعد امتناع شديد، وقد كان تقدير هارون بن غريب أصدق من تقدير محمد بن ياقوت، فما إن تقارب الجيشان حتى بدأ الجنود في جيش ابن ياقوت أنفسهم ينسلون وينحازون إلى مؤنس ما اضطره فيما بعد إلى الانسحاب من «المعشوق» حتى التقى الجيشان خارج بغداد نفسها!

اعتمد تصور محمد بن ياقوت على وجود الخليفة بنفسه في المعركة، وعلى رغم كراهة المقتدر لذلك إلا أنه استجاب في النهاية، وخرج إلى المعركة عليه البردة النبوية وبين يديه القراء والفقهاء ومعهم المصاحف في موكب يريد تأكيد الشرعية التي مع الخليفة، وأشرف الخليفة من فوق تل عالٍ على المعركة، وفيما كان جيشه المتخلخل يريده أن ينزل بنفسه إلى أرض المعركة لكي يدعمهم كان المقتدر ممتنعا عن النزول بنفسه حتى ألحوا عليه، وما إن استجاب لهم وبدأ النزول إلى أرض المعركة حتى كانوا قد هُزِموا وانسحبوا مدبرين ولم ينحازوا إليه، فوقع المقتدر بسهولة أسيرا في يد بعض غلمان مؤنس الخادم، والذين لم ينتظروا أن يشاوروا فيه بل قتلوه أبشع قتلة (٢٨ شوال ٣٢٠هـ) حتى انتزعوا كل ما عليه من الثياب وبقي صريعا مكشوف العورة، حتى مرَّ به من غطاه بالحشيش ثم من دفنه!

ونزل الخبر كالصاعقة على رأس مؤنس الذي لم يكن ليفكر في قتل الخليفة، والذي علم أنه سيكون حدثا كبيرا في البلاد الإسلامية وفي بغداد، وقال: «يا مفسدون، ما هكذا أوصيتكم، أقتلتموه؟... والله لنقتلن كلنا»، وحاول أن يُظهر أنه قُتِل بالخطأ دون أن يعرفه قاتلوه، وأرسل فرقا من الجيش لحراسة دار الخلافة وأهل الخليفة قبل أن ينتهبها أحد[1].

ومات المقتدر بالله وهو في الثامنة والثلاثين من عمره بعد خلافة طالت حتى وصلت إلى ربع قرن، وهو أول خليفة عباسي يحكم هذه المدة الطويلة من بين أسلافه! قال عريب بن

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٧٤.

سعد القرطبي: «ولقد تحير الناس في أمر دولة المقتدر وطول أيامها على وَهْى أصلها وضعف ابتنائها ثم لم ير الناس ولم يسمعوا بمثل سيرته وأيامه وطول خلافته»[1].

***

كان للمقتدر طبع سمح كريم، وكان سريعا إلى العفو والصفح، والاسترضاء، كان رجلا ينقصه الحزم.. كان يتسم بتقديم العاطفة والطبع على العقل والصرامة.

قال ابن كثير: وقد كان معطاء جوادا، وله عقل جيد، وفهم وافر، وذهن صحيح، وقد كان كثير التحجب والتوسع في النفقات، وزاد في رسوم الخلافة وأمور الرياسة، وما زاد شيء إلا نقص، وكان في داره أحد عشر ألف خادم خصي، غير الصقالبة وأبناء فارس والروم والسودان، وكان له دار يقال لها دار الشجرة، بها من الأثاث والأمتعة شيء كثير جدا، كما ذكرنا ذلك في سنة خمس، حين قدم رسول ملك الروم[2].

«أهمل من أحوال الخلافة كثيرا وحكم فيها النساء والخدم وفرط في الأموال وعزل من الوزراء وولى ما أوجب طمع أصحاب الأطراف والنواب وخروجهم عن الطاعة، وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيرا وتضييعا في غير وجه نيفا وسبعين ألف ألف دينار سوى ما أنفقه في الوجوه الواجبة وإذا اعتبرت أحوال الخلافة في أيامه وأيام أخيه المكتفي ووالده المعتضد رأيت بينهم تفاوتا بعيدا»[3].

وقد ركب المقتدر يوما في حراقة وجعل يستعجل الطعام فأبطأوا به فقال للملاح: ويحك هل عندك شيء آكل ؟ قال: نعم، فأتاه بشيء من لحم الجدي وخبز حسن وملوحا وغير ذلك. فأعجبه ثم استدعاه فقال: هل عندك شيء من الحلواء، فإني لا أحس بالشبع حتى آكل شيئًا من الحلواء. فقال: يا أمير المؤمنين إن حلواءنا التمر والكسب. فقال: هذا شيء لا أطيقه. ثم جيء بطعام فأكل منه وأوتي بالحلواءات فأكل وأطعم الملاحين، وأمر أن يعمل كل يوم في الحراقة بمائتي درهم، حتى إذا اتفق ركوبه فيها أكل منها، وإن لم يتفق ركوبه كانت للملاح.

---

(١) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص٢١.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٩٢.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٧٤، ٧٥.

وكان الملاح يأخذ ذلك في كل يوم عدة سنين متعددة، ولم يتفق ركوبه مرة أخرى أبدا[١].

وقد أراد بعض خواصه أن يطهر ولده فعمل أشياء هائلة ثم طلب من أم الخليفة أن يعار القرية التي عُمِلت في طهور المقتدر من فضة ليراها الناس في هذا المهم، فتلطفت أم المقتدر عند ولدها حتى أطلقها له بالكلية، وكانت صفة قرية من القرى كلها من فضة، بيوتها وأعاليقها وأبقارها وجمالها، ودوابها وطيورها، وخيولها، وزروعها وثمارها وأشجارها، وأنهارها وما يتبع ذلك مما يكون في القرى، الجميع من فضة مصور، وأمر بنقل سماطه إلى دار هذا الرجل، وأن لا يكلف شيء من المطاعم سوى سمك طري، فاشترى الرجل بثلاثمائة دينار سمكا طريا، وكان جملة ما أنفق الرجل على سماط المقتدر ألفا وخمسمائة دينار، والجميع من عند المقتدر، وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحرمين وأرباب الوظائف، وكان كثير التنفل بالصلاة والصوم والعبادة، ولكنه كان مؤثرا لشهواته، مطيعا لخصاياه كثير العزل والولاية والتلون[٢].

* * *

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٩٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٩٣. وقد ذكر ابن العمراني قصة القرية الفضية هذه، ولكن عنده أنها من الذهب والجواهر ونسبها للخليفة المستعين لا المقتدر. انظر: ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء ص١٢٤.



القاهر بالله

(شوال ٣٢٠ هـ - جمادى الأولى ٣٢٢ هـ)

هو محمد بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن المتوكل، وكان رجلا ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير، أسمر معتدل الجسم، أصهب الشعر، طويل الأنف، في مقدم لحيته طول[(١)].

وأبرز ما في تاريخ محمد هذا قبل الخلافة أنه كان الخليفة في الانقلاب العسكري الذي تم على المقتدر (٣١٧هـ) والذي فشل لعدم اتفاق قادة الانقلاب فيما بينهم وتوزع أهوائهم ووجود الحرس الخليفي خارج الخطة، فلما فشل الانقلاب وأعيد المقتدر عُثِر على القاهر مختبئا، فجاء متوسلا إلى المقتدر يبكي ويقول: «يا أمير المؤمنين نفسي نفسي اذكر الرحم التي بيني وبينك. فقال له المقتدر: وحق رسول الله لا جرى عليك سوء مني أبدا ولا وصل أحد إلى مكروهك وأنا حي»[(٢)]، ثم إن المقتدر أودعه عند أمه التي أكرمته غاية الإكرام والإحسان، وكانت تهدي إليه الجواري وترفق به.

***

كان مؤنس قائد الجيش أشد الأمراء فزعا من قتل المقتدر، ذلك أن عملا كهذا من شأنه أن يهيج الناس وأهل بيت الخلافة، كما أن مؤنس صاحب طبع كريم وشهامة ورجولة تبدت في الكثير من مواقفه وتاريخه لعل أهمها حمايته للمقتدر في الانقلاب الأول والمسارعة بإرسال فرقة تحمي قصر الخليفة وأهله من النهب والقتل، وبمثل هذه الطباع كانت له المحبة الهائلة في قلوب القادة والجنود العباسيين، لكل هذا فكَّر مؤنس في أن يجعل الخليفة أبو العباس بن المقتدر ليهدئ كل الجبهات الثائرة من مقتل المقتدر، لا سيما أمه بما لها من نفوذ وكلمة مسموعة وإخوته وغلمان أبيه، كما أن مؤنس ممن ربَّى أبا العباس فهو يعرف فيه العقل والكرم

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٣٤٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٥٢، ٥٣.

والوفاء، وأهم من هذا أنه بما سبق من هذه العلاقة لن يفكر في عقابهم أو الانتقام منهم على ما فُعِل بأبيه، وبهذا ينجون وتنجو الدولة من صراع حول الثأر للمقتدر[١].

إلا أن الأمراء لم يوافقوه على هذه الفكرة مطلقا، وكان أشدهم في هذا الأمير إسحاق بن إسماعيل النوبختي الذي قال: بعد الكد والتعب استرحنا من خليفة له أم وخالة وخدم يدبرونه فنعود إلى تلك الحال؟!! والله لا نرضى إلا برجل كامل يُدَبِّر نفسه ويدبرنا»، واقترح النوبختي محمدا أخي المقتدر، فعارضه مؤنس بالقول: إنني عارف بشره وسوء نيته، وتردد القول بينهما وكان كلام النوبختي أكثر إقناعا للأمراء الذين ملوا من خليفة كالمقتدر تسيطر عليه النساء ولا يكون له هيبة وكلمة مسموعة، فقالوا لمؤنس: «هو كهل ولا أم له ونرجو أن تستقيم أمورنا معه»، فاستقروا على محمد أخي المقتدر، فبايعوه (٢٨ شوال ٣٢٠هـ) على كره من مؤنس، ولما بايعوه أخذ مؤنس منه الأيمان والعهود بالأمان لنفسه ومن معه من الأمراء الذين حاربوا المقتدر كالأمير بُلَيْق وابنه علي بن بُلَيْق، فأجابهم محمد -الذي تلقب بالقاهر- بل واتخذ علي بن بليق حاجبا له، واتخذ الوزير السابق أبا علي بن مقلة، وهو من رجال مؤنس، وزيرا له، فاستقر بهذا أمر تنصيب الخليفة[٢].

ملامح شخصية القاهر

كان القاهر من الشخصيات الخبيثة التي تنطوي على الشر والخسة، وظهر منه منذ بداية خلافته ما يدل على هذا، وهو لم يكن صاحب بطولة ولا رأي بل إن الخلافة أتت إليه على يد الأمراء الأتراك في المرتين، حين الانقلاب الفاشل، وهذه المرة بعد أن قُتِل المقتدر، وهو لم يكن على قدر المسؤولية ولم يكن شجاعا في تحمل تبعات اختياره حين جاء بالانقلاب (٣١٧هـ) بل حين فشل الانقلاب ظل يبكي ويتوسل لأخيه المقتدر الذي كان كريم النفس سمحا فعفا عنه، بل وتكفلت أم المقتدر برعايته وإكرامه!

ويا ليته تذكر هذا الفضل من أخيه وأم أخيه، بل على العكس، ما إن استقر في الخلافة حتى بدأ في رد جميل المقتدر أبشع ما يكون الرد.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٧٥.

(٢) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص١٢٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٧٥.

كان أول ما فعله القاهر أن أحضر أم المقتدر وسألها عما تملك من الأموال، فاعترفت له بما تملك من المصاغ والثياب فبدأ في تعذيبها لتعترف بكل أملاكها، فضربها ضربا شديدا – وكانت في ذلك الوقت مريضة، وقد زاد عليها المرض بعدما علمت بمقتل ابنها وكيف بقي صريعا عريانا مكشوف العورة حتى أضربت عن الطعام- ثم أخذ في ضربها في مواضع العفة زيادة في الإهانة والتعذيب، وأمر بتعليقها من قدميها وضربها لأوقات طويلة حتى يُروى أنها ربما كانت تبول فينزل البول على وجهها، وما زال في هذا حتى استصفى منها جميع ما كانت تملك وأجبرها على بيعه بل وباع حتى ما أوقفته من الأملاك في وجوه الخير، فكان مشهدها في آخر عمرها محزنا حتى لقد «بكى الشهود وتفكروا كيف يتقلب الزمان بأهله، وتنقل الحدثان وأن الدنيا دار بلاء لا يفي مرجوها بمخوفها، ولا يسلم طلوعها من كسوفها، من ركن إليها أحرقته بنارها»، ثم ما لبثت قليلا بعد هذا حتى ماتت[1]!

فكان هذا جزاء معروفها وإحسانها عليه في لحظة كان جزاؤه فيها القتل!!

على أن أم المقتدر وإن بكى لها الشهود فينبغي على كاتب التاريخ أن يتذكر أيضا أنها كانت من أسباب ضعف الخلافة وانهيارها أيام ولدها، وأن هذا الضعف هو ما أودى بحياة عشرات الآلاف في كثير من المعارك الفاشلة، لا سيما معارك القرامطة، وقد بكى لهذه الدماء مئات الآلاف من الناس الذين قتل أهلهم وانتهكت حرماتهم وفقدوا أغلى ما يملكون دون أن يرصد المؤرخون بكاءهم ودموعهم.. سيبقى الجزاء الأوفى في الآخرة عند الله تبارك وتعالى، ولكن لا يسع المنصف أن يتذكر كيف انقلب الحال بالمقتدر وأمه وينسى كيف قلبوا هم بسياستهم أحوال الملايين!

نعود إلى القاهر..

صادر القاهر جميع أموال المقتدر وحاشيته وأصحابه، واستمر في تعقب أولاده ومطاردتهم والقبض عليهم حتى ظفر بخمسة منهم في الشهور الأولى لحكمه (حتى نهاية ٣٢٠هـ) فألزمهم بمال كثير فاجتهدوا حتى دفعوه له فتركهم[2]، وظل يتعقب الهاربين من رجال المقتدر كابنه عبد الواحد وهارون بن غريب ومحمد بن ياقوت ومفلح ومسرور الخادم

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٧٥، ٧٦، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٩٩.
(٢) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص١٢٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٧٦.

وغيرهم وكانوا قد هربوا وطوردوا بجيش يقوده بليق حتى استسلموا مقابل الأمان[١].

ومن أقبح ما ورد عن القاهر أنه أظهر النسك والورع وأمر بإبطال الخمر والمغاني وأمر ببيع الجواري المغنيات في الأسواق على أنهن لا يعرفن الغناء، ونفي جماعة من المشهورين بهذا إلى الكوفة والبصرة، وكل هذا إنما كان لأنه يحب الخمر والغناء ويريد أن يشتري الجواري المغنيات بأرخص الأثمان، وأرسل إلى الأسواق من يأتيه بهن[٢]، حتى قال ابن الأثير: «نعوذ بالله من هذه الأخلاق التي لا يرضاها عامة الناس»[٣].

عهد مصائر الرجال

شك مؤنس ومعه الوزير ابن مقلة في أن محمد بن ياقوت -عدوهما القديم، وأحد أهم أسباب الشقاق بين مؤنس والمقتدر- يتواصل سرا مع القاهر ويتقرب إليه عبر عيسى طبيب القاهر، فحملهما هذا -مع الحاجب علي بن بليق وأبيه- على الخشية من أن يكون القاهر يدبر لأمر فيه هلاكهم، وما زالوا يترصدون الأمر حتى استوثقوا منه، فسارع مؤنس بنفي عيسى الطبيب إلى الموصل، وأخذ علي بن بليق فرقة من الجند وهاجم بها دار محمد بن ياقوت فوجده قد اختفى فصادر ونهب أموال أصحابه والمقربين إليه، وعهد علي بن بليق بحراسة دار الخلافة إلى صاحب الشرطة أحمد بن زيرك وأمره ألا يدخل أحد إلى القاهر إلا بعد تفتيش دقيق، حتى النساء المنتقبات، فإن وجد رسالة بعث بها إلى مؤنس قبل أن تصل إلى القاهر، ونقل علي بن بليق كافة المحبوسين في دار الخلافة إلى قصره، وكان من بينهم أم المقتدر فنجت بهذا من الضيق والحبس حيث أكرمها علي بن بليق حتى ماتت بعد ذلك بأيام، وبهذا أصبح القاهر سجينا في دار الخلافة!

على أن القاهر لم يسكت ولم يستسلم، وإن بدا في ظاهر الأمر طائعا مستسلما لهذه الإهانات، بل تواصل سرا مع ثلاثة أطراف: القائد العسكري طريف السبكري والذي هو على خلاف كبير مع مؤنس ومع علي بن بليق الحاجب فوعده القاهر بقيادة الجيش، وقادة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٧٨، ٧٩.
(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٥/ ٣٥٨، وعريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص١٢٩.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٩٢.

الجنود الساجية[1] الذين يسخطون على مؤنس إذ كان قد وعدهم –حين كان في الموصل مفارقا للمقتدر– بمزايا وعطاءات لم يوف بها فوعدهم القاهر بأنه يفي لهم بالوعود، ومحمد ابن القاسم بن عبيد الله الذي هو من رجال الوزير ابن مقلة فأغراه القاهر بمنصب الوزارة لينقل له الأخبار!

وتسرب ما يفعل القاهر إلى معسكر مؤنس وابن مقلة وبليق وابنه، فعزموا على خلعه من الخلافة كلية، وتواصلوا مع أبي أحمد بن المكتفي لينصبوه خليفة، ثم تسرب هذا أيضا إلى معسكر القاهر وطريف السبكري وجنود الساجية، فكان معسكر الخليفة أسرع حركة، فلم يلبث أن قُبِض على الحاجب علي بن بليق وأبيه وأحمد بن زيرك صاحب الشرطة، ثم عزل القاهر مؤنسا عن قيادة الجيش ومنصب أمير الأمراء وولاه طريف السبكري الذي تولى القبض على مؤنس وحبسه! وهرب الوزير ابن مقلة فاختفى!

وما هي إلا أيام حتى قتل القاهر علي بن بليق ذبحا ثم أخذ رأسه فألقاها لأبيه بليق المحبوس أيضا ثم ذبحه هو الآخر وأخذ الرأسين إلى مؤنس ثم قتله كذلك، وأمر بإحراق دار الوزير ابن مقلة ونهبها، وأمر بأن يطاف برؤوسهم في بغداد، وأن ينادى: من آوى أحدا من المختفين أُبيح ماله وهُدِم داره، وأصر على تعقب أحمد بن المكتفي حتى ظفر به فقتله.

مؤنس.. البطل الكبير

قُتِل مؤنس وهو في التسعين من عمره، بعد ستين سنة من حمل السلاح والقتال والمعارك والاشتباك في ساحة السياسة!

ولقد جاهد مؤنس في سائر الميادين؛ قاتل الروم في الثغور، وقاتل القرامطة في العراق، وقاتل العبيديين (الفاطميين) في مصر، وقاتل الأمراء المتمردين على الخلافة كابن أبي الساج في الري، وسجل على تلك الجبهات الأربع أثرا واضحا يُخلد سيرته، فهو في جبهة الروم كان أكثر القادة العسكريين أثرا في إيقاع الهزائم بالروم وهو من تعده الخلافة لمواجهة الملمات أو حين يهاجمها الروم فتريد الرد على حملاتهم وتأديبهم، وهو الذي استطاع بجهاده إيقاف

---

(١) الجنود الساجية: هم أتباع القائد يوسف بن أبي الساج الذي قُتل في معركته مع القرامطة، فانحاز كثير من الجنود التابعين له إلى قادة الجيش العباسي كمؤنس وغيره.

الزحف العبيدي (الفاطمي) من امتلاك مصر وأخَّر هذا لعدة عقود فلم يحدث أن تبدل الموقف في مصر إلا حين تبدلت الأحوال في بغداد إلى الأضعف، وجاء للعبيديين خليفة لم يذق طعم الهزائم التي ذاقها الذين من قبله فمنعتهم من التفكير في حكم مصر، وحتى أضعف جبهاته أثرا: وهي جبهة القرامطة نجد أن مؤنسا كان أفضل من قاتل القرامطة أو تصدى لهم.

وقد أفاض المؤرخون في مدحه على هذا السبيل، فقالوا: كان فارسا شجاعا سائسا داهية(١)، وأميرا مُعَظَّمًا شجاعا منصورا(٢)، مقداما فاتكا مهيبا، وكان كل ما له(٣) في علوّ ورفعة(٤).

وأما تدخله في السياسة فهو أمر معقد ومركب، وهو ما أساء إلى صورته التاريخية التي لولا هذا التدخل لكانت نقية صافية:

خلاصة التجربة الإنسانية عبر التاريخ أن دخول العسكريين إلى ساحة السياسة يفسدهم ويفسد الحكم معهم ويؤسس لانهيار الدولة التي تعيش تحتهم وقتا في الاستبداد الذي يلد الفساد ويحطم مقاومة الأمة، هذا الوقت يطول أو يقصر لكن نهايته هو وقوع البلاد تحت احتلال غريب بعد أن يكون الفساد قد قضى على قوة العسكر الحكام فتهزمهم دولة جديدة ناشئة!

وقد كان عهد المقتدر هو آخر أيام الصراع بين المدنيين والعسكريين في بلاط الخلافة، فما يزال الوزراء يحاولون الحفاظ على سلطانهم أمام العسكر حتى ذلك الوقت، ثم سيأتي في قادم الأيام زمن انتصار العسكر وسيطرتهم على كل مقاليد الأمور عبر منصب «أمير الأمراء» ثم لا يلبثون أن يتنازعوا حتى يأتي البويهيون من المشرق فيحتلون بغداد، ويبدءون فها عصرا جديدا!

ولا يمكن أن يُعفى مؤنس من دوره ومسؤوليته في هذا التطور من بعد ما عادت الأمور

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٥٦.
(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٢/ ٢٩١.
(٣) كل ما له: أي ولا يزال.
(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/ ٢٣٩.

بين الخلفاء المدنيين[١] والعسكريين الأتراك إلى نصابها منذ عهد المعتمد، وهذا برغم أنه كان آخر العسكريين الذين يفهمون معنى الشرعية وأهمية الخلافة ولم يجرؤ على التفكير في قتل الخليفة، بينما سيكون هذا سهلا ميسورا لمن بعده!

ثمة رأي آخر يقول بأنه كان مضطرا إلى هذا التدخل في ظل ضعف الخليفة واضطراب قراراته وسيطرة النساء والجواري عليه، هذا إلى جانب غريزة الإنسان في السلطان والنفوذ وسعة الجاه، وهو لا شك رأي وجيه، وهو أثر من آثار ضعف المقتدر وعدم أهليته للخلافة!

ولئن كان هذا التدخل والنفوذ قد أعطاه من المكانة ما «لم يبلغ أحد من الخدام منزلته إلا كافور صاحب مصر»[٢]، إلا أنه دفع في النهاية ذلك الثمن الذي يدفعه الملوك لا المجاهدون، ثمن السياسة التي تتقلب بصاحبها من السجن إلى العرش، ومن العرش إلى القبر! ولا يرى الناس في وجوده حماية وصيانة بل يرونه أحد صناع السياسة، كما أن خسارته لا تبكي لها العيون كما تبكي على المجاهدين بل يُحسب على أنه تغير في خريطة القوى الحاكمة!

مصير القاهر

شعر القاهر بالانتصار وزوال الخطر فظهر منه أشرس وأسوأ ما فيه، فانقلب على الذين استعان بهم وساعدوه، وأولهم الأمير إسحاق النوبختي -الذي كان صاحب الرأي بتوليته خليفة بدلا من ابن المقتدر- ومعه الأمير أبو السرايا بن حمدان، وذلك لأنهما قبل الخلافة زادا في سعر جاريتين أرادهما لنفسه، فدعاهما لمجلس سمر وكان قد حفر لهما فألقاهما فيه ودفنهما بلا تردد ولا رحمة، ثم جاء دور الوزير أبي جعفر القاسم بن محمد الذي كان يأتيه بنبأ القوم حين كان مع ابن مقلة، فما لبث في منصب الوزارة إلا ثلاثة أشهر حتى أمر القاهر بالقبض عليه وعلى نسائه وأولاده وأخيه، وكان في ذلك الوقت مريضا بالقولون، فظل في الحبس ثمانية عشر يوما حتى مات، ورأى القوم من القاهر ما جعل الذين ساعدوه يندمون على ما

---

(١) برغم كون الموفق ثم المعتضد خلفاء ذوي باع كبير في العسكرية إلا أن الجانب المدني هو الأصل فيهم، وهو مصدر شرعيتهم؛ خلافتهم وكونهم من بني العباس وليست ما كسبوه بالحرب والسلاح، ويكفي للدلالة على هذا أن الخليفة المعتمد على الله رغم انزوائه في قصره وانعدم أثره في الحياة إلا أن محاولته الخروج إلى مصر حيث ابن طولون كانت تترتب عليها آثار خطيرة لولا أن انتبه الموفق وأعاده إلى بغداد، فهذه حادثة ينبغي أن يُتَأمّل فيها لإدراك معنى الشرعية في ذلك الوقت.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/ ٢٣٩، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٢/ ٢٩١.

فعلوا بما فيهم طريف السبكري والجنود الساجية والحرس الخليفي من الحجرية، ولكن بعد فوات الوقت[1].

ثم جاء دور طريف السبكري الذي قاد الانقلاب على مؤنس، وكان الخلاف بينه وبين القاهر قد ابتدأ منذ أن خان القاهر وعده لطريف بألا يُقتل مؤنس أو يمس بسوء، وقد اكتشف طريف أنه أمام شخصية شرسة منذ أن رأى رد فعله حين أتاه بخبر القبض على مؤنس، يقول: «لما أعلمت القاهر بمجيء مؤنس ارتعد وتغيرت أحواله وزحف من صدر فراشه فخفته أن أكلمه في معناه وعلمت أنني قد أخطات وندمت وتيقنت أنني لاحق بالقوم عن قريب وذكرت قول مؤنس فيه إنه يعرفه بالهوج والشر والإقدام والجهل وكان أمر الله قدرا مقدورا»[2]. ولم يطل انتظار طريف فقد كان هو التالي بعد الوزير أبي جعفر بن القاسم، فقبض عليه القاهر وحبسه، وعندئذ لم يشك طريف في أن مصيره القتل كالذين سبقوه.

وكان القاهر دائما يحمل حربة في يده، ومن كثرة ما سفك من الدماء قيل بأنه لا يضع هذه الحربة إلا وقد قتل بها، ولولا أن سلامة الطولوني حاجبه كان حصيفا لأهلك القاهر كثيرا من الناس!

لم يبق للقاهر حليف بعدما عادى كل هؤلاء، فسعى كل من كان له ثأر في التدبير عليه لخلعه من الخلافة، فاجتمعت كلمة المتفرقين لتتحد ضد القاهر على هذا النحو:

الوزير أبو علي بن مقلة منذ أن اختفى لدى القبض على مؤنس وهو يسعى في خلع القاهر، ويتواصل مع العسكريين والجنود – لا سيما الفرق التي ساعدت المقتدر كالساجية والحجرية– ويغريهم بالقاهر ويحرضهم عليه ويوحي لهم أنه سينتقم منهم بعد حين وأن هذه السجون التي يبنيها القاهر في دار الخلافة إنما للقادة والأمراء منهم، وكان ابن مقلة يدبر لهذا عبر أطراف عديدة حتى أنه استعان بالمنجمين في خطته لاستمالة زعيم الساجية القائد سيما، وكان معه في كل هذا ومعه الحسن بن هارون كاتب الحاجب المقتول علي بن بليق.

وكانت أفعال القاهر تؤكد كلام ابن مقلة وتزيد في التنافر والتباعد بينهم وبينه، فنقضه

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٨٦، ١٠٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٨٢.



الأمان لمؤنس، ثم حبسه الوزير أبي جعفر، وقتله للأمراء النوبختي وأبي السرايا، ثم حبسه لطريف السبكري الذي كان رجله الأول في التخلص من الانقلاب عليه، وما ظهر من القاهر من قسوة وشراسة واستعلاء.. كل هذا دفع بالخطة قدما وأسرع من المتوقع.

اجتمع الساجية والحجرية تحت غطاء عرس أحد أمرائهم (٦ جمادى الأولى ٣٢٢هـ)، واتفقوا على الخروج وخلعه في تلك الليلة لئلا تتسرب الأخبار، وعلى رغم أن أنباء الاجتماع تسربت بالفعل إلى سلامة حاجب القاهر وحاول توصيلها إليه إلا أن القاهر كان مخمورا في هذه الليلة فلم يُمكن تحذيره، وبالفعل، لم يستفق القاهر إلا والجنود داخل القصر، وقد أحاطوا به وانتهت فرصه في النجاة[1]!

ومثلما ارتكب القاهر الفظائع وظهر منه الشر كان هو عبرة في ذاته، فقد توصل الجنود إلى فكرة يعذبونه بها ويحرمونه من الخلافة أيضا، لقد فقأوا عينيه بمسمار مُحْمًى في النار، فصار أعمى، فانقطع أمله في الخلافة، ثم حبسوه في زنزانة طريف السبكري، وبقي حتى آخر عمره ذليلا، ساعة محبوسا وساعة يطلقونه، حتى افتقر، وصار يسأل الناس في الجامع ويقول: «تصدقوا على من كان أمير المؤمنين»! وظل هكذا نحو عشرين سنة حتى مات (٣٣٩هـ).

وكان بين تعذيبه لأم المقتدر هذا التعذيب البشع المنافي للشرف والأخلاق وبين العبرة به عام واحد، وسبحان من لا ينسى! وما أقل من يتذكر ويعتبر!!

وظهرت بهذا طريقة جديدة في التخلص من الخلفاء.. سَمْل العيون، وكم سيكتوي بها آخرون من بعده!

ظهور البويهيين في المشرق

بخلاف ما جرى في بغداد، كان أهم حدث في عهد القاهر هو ظهور البويهيين في المشرق، وهم القوم الذين سيكون لهم مع الخلافة أيام طويلة وقصة مريرة.. وتلك كانت القصة:

انتهى عهد المقتدر وقد صار مرداويج بن زيار الرجل القوي في المشرق من بعد ما انتهت دولة الزيديين، وظل مرداويج يتوسع حتى استولى على مناطق في فارس وتوغل إلى أرض

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٩٧.

العراق ولم يرجع إلا حين أعطاه المقتدر الولاية على ما تحت يده من المناطق. وكانت الدولة الزيدية قد انتهت ولم يبق من فلولها إلا قائدها العسكري ماكان بن كالي الذي صار يعمل في طاعة السامانيين، والسامانيون بدورهم لم يعودوا يستطيعون أن يحكموا خراسان كما كانوا من قبل في عهد إسماعيل الساماني أو ابنه أحمد، فالنزاع قائم بينهم وبين الزيديين ثم بينهم وبين القادة الطموحين أمثال أسفار بن شيرويه ثم مرداويج بن زيار الآن، لكنهم ما زالوا الأقوياء سادة بلاد ما وراء النهر!

السامانيون باعتبارهم أصحاب الولاية الشرعية على خراسان بقرار الخلافة العباسية لا يسمحون لأحد بالتمرد عليهم علنا صراحة ولكنهم لا يستطيعون تفريغ جيوشهم لمواجهة اضطرابات خراسان فحسب فإن لديهم ملكا كبيرا فيما وراء النهر، وهؤلاء القادة الطموحون يعلمون أن مواجهة السامانيين الأقوياء أمر لا تؤمن عاقبته، فالطرفان يستقران في نهاية الأمر على طاعة اسمية للسامانيين.

حاول مرداويج بن زيار أن يستولي على جرجان، وسار إليها (٣٢١هـ) فتحرك إليها الأمير الساماني نصر بن أحمد، وكان في نيسابور في ذلك الوقت، لكن وزير الأمير الساماني أرسل إلى مرداويج يحذره ألا يقدم على مخاطرة حرب السامانيين وهو يعلم قوتهم، وذَكَّره بمصير عمرو بن الليث الذي انتهى ملكه حين أقبل على هذه المغامرة، ونصحه بأن يرجع عن جرجان وأن يعلن الطاعة للسامانيين ويؤدي مبلغا سنويا عن ولاية الري، فوقعت هذه الرسالة موقعها في نفس مرداويج، فامتثل للنصيحة.

على أن الحدث الأهم في تلك الفترة كان يتم في مشهد بعيد، لقد كان رجال القائد الزيدي ماكان بن كالي الذي دالت الأيام عليه وذهبت دولته مع الزيديين وانتهى مجده، ينسلون من حوله وينسحبون من جيشه بعد أن لم يعد قادرا على الإنفاق عليهم كما في السابق، كما أن الجنود بطبيعتهم لن يظلوا إلى جانب الضعيف الذي انتهت دولته، فانحاز كثير من الجنود إلى القادة الجدد الذين ظهروا على الساحة أمثال ليلى بن النعمان وأسفار بن شيرويه ومرداويج بن زيار، ومن هؤلاء الذين انحازوا إلى مرداويج ثلاثة إخوة من الديلم أبناء رجل يدعى أبو شجاع بويه، هم: علي والحسن وأحمد.

من المؤرخين[١] من ينسبهم إلى يزدجرد آخر ملوك الفرس ويقول بأن نسبتهم إلى الديلم إنما لأنهم سكنوا هذه المنطقة طويلا، ومنهم من يرى هذا ادعاءً زعموه، وليس هذا موضع تحقيق الأنساب، على أن المتفق عليه أنهم أبناء صياد فقير توفيت زوجته وتركتهم له فعانى معهم حتى كبروا[٢].

وصل الإخوة القادة الثلاثة إلى مرداويج الذي يحتاج بطبيعة الحال إلى كل قوة إضافية في إطار مشروعه الكبير –مشروع هدم الخلافة ذاتها– بعد التمكين لنفسه في فارس وطبرستان وخراسان، وبدأ الثلاثة رحلة جديدة في ظل مرداويج الذي قلد كل واحد منهما ناحية يتولاها، فكان من نصيب علي بن بويه ولاية الكرج.

كان علي بن بويه أشجع إخوته وأكثرهم كرما وسماحة واصطناعا للرجال وتأليفا للقلوب، فكان أسرعهم إلى البزوغ والظهور، وقد ساعده هذا على التمكين لنفسه في الكرج التي ساسها بخير سياسة حتى أحبه الناس وتعلقوا به إلى الحد الذي خشي فيه مرداويج من نفوذه وقوته، فحاول إغراء بعض القادة في أنحاء الكرج ووصلهم بالأموال، لكن علي بن بويه كان يقظا فما زال يتواصل معهم ويسحرهم بالأموال التي أغدقها عليهم فإذا بهم ينحازون إليه ويصبحون من رجاله مما زاد في خشية مرداويج وندمه، وقد كان علي ينفق كثيرا من الأموال حتى فاضت الكتب بروايات عجيبة عن كنوز كثيرة وجدها وأموال كثيرة وقعت في يديه –في المدن التي يستولي عليها– من حيث لا يدبر، وهي روايات لا تسلم من مبالغات، لكن المؤكد أن عليا استعمل المال في صناعة الرجال وصناعة دولة له على خير ما يكون.

ثم دخل الصراع مرحلة العلن بين مرداويج وعلي بن بويه، حاول مرداويج مخادعة علي لكنه كان بصيرا، وسارع علي بأن تواصل مع المظفر بن ياقوت[٣] الذي يحكم أصفهان من

---

(١) ابن ماكولا: الإكمال ١/ ٢٧٣، وإلى قوله هذا يميل ابن الأثير (الكامل ٧/ ٨٨) وابن كثير (البداية والنهاية ١١/ ١٩٧).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٨٨.

(٣) وهو أخو محمد بن ياقوت الذي كان صاحب شرطة المقتدر ثم رجل القاهر الذي هرب من بغداد حين طارده مؤنس وبليق وعلي بن بليق لاتهامه بأنه كان يدبر مع القاهر عليهم. وهما ابنا ياقوت الذي كان من رجال الخلافة وكان يتولى أجزاء في فارس.

قبل الخلافة يرجوه أن يكون من رجاله ورجال الخلافة وأن يسير إلى بغداد، فكان الرفض من نصيبه، فانطلق بجيشه القليل -نحو تسعمائة فارس- يهاجم أصفهان، وجرت حرب بينه وبين جيش ابن ياقوت -البالغ عشرة آلاف فارس- فانتصر عليهم، وحاز أصفهان، وكان نصرا كبيرا طار صيته في فارس ووصل إلى الخلافة في بغداد!

ولا ريب أن أشد المنزعجين من نصر كهذا كان مرداويج الذي يتهدد تفرده في فارس، وأما بالنسبة للخلافة فهو سيئ من ناحية ظهور متمرد آخر جديد لكنه جيد من ناحية ظهور منافس لمرداويج وقائد قوي يطلب الدخول في طاعة الخلافة.

أعد مرداويج جيشا لمحاربة علي بن بويه، وانتبه علي فترك أصفهان واتجه نحو أرجان واستولى عليها (ذي الحجة ٣٢١هـ)، فحينئذ أرسل القاهر إلى مرداويج أن يسلمها إلى ابن ياقوت، واستجاب مرداويج وأغلب الظن أنه استجاب ليبقي على الود مع الخلافة وليقطع طريق اتصالها بعلي بن بويه، على أن الأمر لم يكتمل، إذ خُلِع القاهر، واضطرب حال الخلافة وتأخر محمد بن ياقوت عن استلامها وظلت المدينة ١٩ يوما بلا أمير فعندئذ أرسل مرداويج أخاه وشمكير نائبا عليها، ثم بدأ مرداويج في التحالف مع ياقوت (والد محمد القائد المهزوم، وأحد رجال الخلافة، والوالي على شيراز) ضد هذا الخطر الجديد.

ومن ناحيته كان علي بن بويه مترددا في الاستيلاء على شيراز التي يغريه بها زعماؤها المحليون ويستدعونه ويسهلون له الأمر لأن الناس هناك قد كرهوا واليهم ياقوت من جراء كثرة الضرائب وظلمهم للناس ثم ضعفهم عن مواجهة الأعداء، ثم استمع إلى النصيحة وسار إلى النوبندجان (ربيع الآخر ٣٢١هـ) خشية أن يكون انتظاره موفرا لوقت اجتماع أعدائه الثلاثة معا: مرداويج وياقوت ومحمد بن ياقوت، فاستولى عليها بعد حرب مع فرقة من جيش ياقوت، وأرسل أخاه الحسين فاستولى على كازرون وغيرها من الأنحاء في فارس بعد حرب مع فرقة أخرى، ثم التقى بالجيش الرئيسي لمحمد بن ياقوت عند شيراز (جمادى الآخرة ٣٢٢هـ) فوقعت حرب كبيرة انتصر فيها علي بن بويه على ياقوت الذي لم يكن يظن أنه سيهزم بل وأتى معه بأغلال وقيود ليربط بها الأسرى ويطوف بهم في البلاد، فلما انتصر علي بن بويه أحسن إلى الأسرى وأكرمهم وأطلقهم بغير فداء، ونزل مدينة شيراز فساسها



بالصلاح والعدل ورتب فرقة عسكرية تحمي المدينة من النهب الذي يكون في فترات الاضطراب، وكان من كمال حظه السعيد أن ظفر عن غير تدبير بأموال كثيرة مكنوزة لياقوت فزاد هذا في تمكن دولته وتغطية نفقات جنوده الديالمة -المولعين بالأرزاق والعطايا- وقد أسفرت هذه المعركة عن بطولة الأخ الثالث أحمد بن بويه فقد أبلى فيها بلاء حسنا.

عندئذ كتب علي بن بويه إلى الخليفة الراضي بالله -إذ كان القاهر قد خُلِع- بأنه يدخل في طاعة الخلافة ويبذل مليون درهم كل سنة عن الأرض التي يملكها، فاستجيب له وأرسلت الخلافة إليه بقرار التولية والخُلَع، فحصل على الولاية ثم لم يبذل المال!

وهكذا تكون الخلافة الضعيفة أمرا مُهانًا يُتلاعب به!

***



الراضي بالله

(جمادى الأولى ٣٢٢ هـ - ربيع أول سنة ٣٢٩هـ)

وهو أبو العباس أحمد المقتدر بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل، وقد تولى الخلافة وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وأمه أم ولد رومية تسمى ظلوم، كان مولده (رجب سنة ٢٩٧هـ)، وكان أسمر رقيق السمرة ذري اللون، أسود الشعر سبطه، قصير القامة، نحيف الجسم، في وجهه طول، وفي مقدم لحيته تمام، وكان فصيحا بليغا كريما جوادا، محبا للأدب، حسن الشعر[١].

***

خرج أبو العباس من السجن إلى القصر، ومن الزنزانة إلى كرسي الخلافة، وكم في الأيام من عظات وعبر..

وكان الراضي من خيار الخلفاء إلا أنه كان أضعف من أن يغير حال الخلافة تغييرا مؤثرا! فكان النفوذ والحكم على الحقيقة للعسكر الأتراك، حتى ليرى بعض المؤرخين أنه «بمبايعته تلاشت بقايا السلطة والعظمة التي كانت قد بقيت للخلفاء»[٢].

ما إن تولى الراضي الخلافة حتى أتى بالوزير الصالح علي بن عيسى وأخيه عبد الرحمن واستشارهما في الأمر، وأراد أن يكون علي بن عيسى وزيره إلا أن الأخير اعتذر لما بلغه من الكبر والضعف، وأشار بأن يتولى الوزارة ابن مقلة -الوزير الذي كان من رجال مؤنس وفي حزبه ثم اختفى حين أوقع القاهر بهم، وظل يخطط ضد الخليفة حتى نجح مسعاه- واتفق رأي علي هذا مع رأي القائد سيما -قائد الانقلاب الناجح على القاهر بأثر تخطيط ابن مقلة الذي قال بأن الظروف لا تحتمل رجلا في أخلاق علي بن عيسى، وقد ظهر من ابن مقلة ما

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٣٣٧، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٤٣.
(٢) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص٢٦٤.

يدل على توبته واعتدال سيرته بعد أيام المحنة، فقد أحسن إلى من أساء إليهم وذكر أنه عاهد الله في أيام المحنة أن يرد الحقوق ويسير في الناس سيرة صالحة(١).

ويبدو أن سياسة ذلك الوقت سواء من الخليفة أو ابن مقلة سعت لتهدئة جميع الأطراف وإرضائهم، فقد استعان ابن مقلة بالخصيبي –الوزير السابق– في الإشراف على أعمال الموصل وما والاها وثغور الجزيرة الفراتية وثغور الشام وأجناده وديار مصر، كما أن الخليفة وَلَّى محمد ابن ياقوت –عدو ابن مقلة فيما مضى– منصب حاجب الخليفة وقيادة الجيش، وقد توسع نفوذ محمد بن ياقوت حتى غلب على أعمال الوزير وأمر بألا ينفذ أمر إلا إن كان عليه توقيعه هو، على أن الوزير ابن مقلة صبر على هذا ولم يدخل معه في صراع، لا سيما وقد جاءت أزمة جديدة غير متوقعة.. لقد تمرد هارون بن غريب!

هارون بن غريب خال المقتدر قرر أنه الأحق بالخلافة، وكان واليا على ماه الكوفة وماسبذان والدينور وغيرها فجمع أتباعه وجنوده وسار نحو بغداد، وراسل القادة العسكريين يحاول استمالتهم إليه ويعدهم الزيادة في الأرزاق والعطايا، فنزل هذا الهم الجديد بابن ياقوت وابن مقلة ومعهما قادة جند الخلافة من الساجية والحجرية، وحاولوا استرضاءه بولاية طريق خراسان، فرفض، وتقدم في البلاد، وكان يستولي على الأموال ليتقوى بها فزادت قوته ولكن كرهه الناس.

لم يكن بد إلا بالمواجهة، فخرج محمد بن ياقوت قائدا على جيوش بغداد والتقوا (٢٤ جمادى الآخرة ٣٢٢هـ) فانتصر هارون في الجولة الأولى نصرا كبيرا حتى اضطر محمد بن ياقوت إلى قطع قنطرة على نهر بِين ليوقف تقدم هارون بن غريب، وبينما الأمر كذلك إذ حدث شيء غير متوقع، لقد سار هارون خفية وحده لتنفيذ عملية خاطفة يقتل فيها محمد بن ياقوت أو يأسره، فعثر به فرسه فوقع في ساقية، وكان يتابعه واحد من غلمانه الناقمين عليه فما إن وقع حتى انهال عليه ضربا ثم احتز رأسه، فانهار جيشه وتفرقوا وأُسِر عدد من قُوَّاده، وانتهت الأزمة التي داهمت الخلافة في أول أيامها على يد خادم واحد!

وبعد أن انتهى الصراع مع هارون بن غريب، عاد ليبرز في بلاط الخلافة؛ إذ سعى الوزير

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٩٨، ٩٩.

ابن مقلة في إنهاء نفوذ الحاجب محمد بن ياقوت، فاستطاع -وهو الخبير بالتدبير، وصاحب السعي في الانقلاب الناجح على القاهر- أن يستميل الخليفة الذي أصدر قرارا بالقبض على محمد بن ياقوت وأخيه المظفر بن ياقوت (٥ جمادى الأولى ٣٢٣هـ)، فأرسل أبوهما ياقوت -الذي كان في ذلك الوقت واليا على الأهواز- يستعطف الخليفة ويطلب أن يفرج عن ولديه لأنه يحتاجهما في حربه مع علي بن بويه الذي يحاول الاستيلاء على الأهواز، فأجاب ابن مقلة عليه بأن هذا أمر مؤقت لتهدئة الجنود، وأن الإفراج عنهما قريب، وهكذا استعاد ابن مقلة نفوذه وصار بلا منافس في بلاط الخلافة، لا سيما أن ياقوتا أباهما ظل يحقق هزائم أمام علي بن بويه في الأهواز حتى انتهى أمره.

أمراء الحروب

صار ابن مقلة بلا منافس في بلاط الخليفة فقط.. بينما ظهر في الأنحاء الأخرى رجال آخرون أقوياء، منهم من يتطلع إلى دور الرجل القوي ومنهم من يمثل قوة لا يمكن الغفول عنها، وهم: أبو عبد الله البريدي، ومحمد بن رائق، وناصر الدولة الحمداني، ويحسن قبل الاسترسال في قصة الخلافة أن نتوقف معهم قليلا..

١) أبو عبد الله البريدي

كان أول ظهور لأبي عبد الله البريدي في خلافة المقتدر حين عزله الوزير الصالح علي بن عيسى مما كان عليه من الولايات هو وإخوته، فلما كان منصب الوزارة مضطربا في عهد المقتدر سعى البريدي في إزالة علي بن عيسى، وما إن عزله المقتدر (٣١٦هـ) حتى دفع رشوةً عشرين ألف دينار للوزير الجديد ابن مقلة حصل بها على ولاية الأهواز فيما عدا السوس وجنديسابور، وكان الوزير يعلم سوء طباع البريدي فعيَّن أبا أيوب السمسار مشرفا على الأموال فتجاوزه البريدي ولم يحفل به، ثم عيَّن الحسين بن أحمد الماذرائي مشرفا فلم يحفل له البريدي أيضا، وكان إذا حارب عدوا للخلافة استولى على أمواله ولم يرسلها ولم يحفل بشيء، فقد كان متهورا قليل الدين لا يفكر في عاقبة أمر.

ولما عَزل المقتدر الوزير ابن مقلة (٣١٨هـ) أمر بالقبض على أبي عبد الله البريدي وإخوته، وحاول البريدي أن يزوِّر رسالة من الخليفة فيها الأمر بالإفراج عنهم فاكتشفت حيلته، وأراد المقتدر أن يعاقبهم بما يعجزون عنه ففرض عليهم أربعمائة ألف دينار حتى

يعودوا إلى عملهم السابق ظانا أنه لن يمكنهم التصرف في هذا المبلغ، إلا أنهم جمعوه.

فلما تولى القاهر الخلافة كان البريدي ممن تزعموا حركة التخلص من رجال المقتدر ومطاردتهم لا سيما عبد الواحد بن المقتدر، وبذل خمسين ألف دينار مساعدة معجلة مقابل أن يتولى الأهواز، ولما تولاها «عسف أهلها وأخذ أموال التجار، وعمل بأهل البلاد ما لا يعمله الفرنج ولم يمنعه أحد عما يريد، ولم يكن عنده من الدين ما يزعه عن ذلك وعاد إخوته إلى أعمالهم»(١).

وعندما تولى الراضي الخلافة كان أبو عبد الله البريدي يعمل كاتبا لياقوت –الوالي على الأهواز– وتقلب به الحال مع ياقوت في ظل اضطراب حال الأهواز بين مرداويج وياقوت وعلي بن بويه كما سنبين لدى الحديث عن أحوال المشرق، وفي ظل هذا الاضطراب استطاع البريدي أن يكون له ثروة خاصة، إذ زعم أن خراج العامين (٣٢٢، ٣٢٣هـ) قد استولى عليه مرداويج كذبا، ولما أرسل له الوزير ابن مقلة من يتحقق من هذا الأمر رشاه البريدي فظل محتفظا بأموال العامين التي بلغت أربعة ملايين دينار.

وأخطر من الثروة الخاصة أنه ظل يخادع الأمير ياقوت الذي كان واليا على فارس حتى انتزع منه الإمارة واجتذب إلى نفسه الجيش الذي كان مع ياقوت فصاروا جيشا للبريدي، وما زال به يخدعه والآخر يصدقه حتى ضعف أمر ياقوت تماما، فلما انتبه ياقوت إلى الخديعة دارت بينه وبين البريدي حرب غير متكافئة قُتِل فيها ياقوت.

٢) محمد بن رائق

كان أبوه من أجلّ مماليك الخليفة المعتضد، وقد ورث عن أبيه قوة الشخصية مع الشجاعة والبطولة، وكان قائد الشرطة في عهد الخليفة المقتدر ثم تولى البصرة وواسط، وكان مرشحا للحجابة في أول عهد الراضي بالله لولا أن محمد بن ياقوت طلبها فأُجيب إلى ذلك، ثم زادت قوته فجأة بما أضيف إليه من الجنود الأتراك الذين تركوا جيش مرداويج بعد مقتله –كما سيأتي تفصيل ذلك– وأرادوا الانحياز إلى بغداد ليكونوا من جند الخلافة غير أن العسكر الحجرية في بغداد ظنوا أن قدوم هؤلاء إنما هو مؤامرة عليهم واستبدال بهم، فرفضوا

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٧٨، ٧٩.

قدومهم مما اضطر الوزير ابن مقلة إلى أن يطلق لهم أموالا ويطالبهم بالعودة ولا يسمح لهم بالدخول، فكان هذا مما أغضبهم إذ العودة خطر عليهم، فهنا راسلهم محمد بن رائق لينحازوا إليه ويكونوا من رجاله فقدموا عليه فأكرمهم ووسعهم، بل وطالبهم بمراسلة إخوانهم ممن يريد مفارقة جيش مرداويج وأخيه وشمكير فانضاف إليه جزء آخر كبير، وصار بذلك قوة لا يمكن تجاوزها.

وبدأت بوادر الاحتكاك حين لم يرسل محمد بن رائق بالأموال السنوية المقررة على واسط والبصرة إلى الخلافة في بغداد، وحين أرسل إليه الوزير ابن مقلة يطالبه بأدائها تعلل بكثرة الجنود عنده وباحتياجهم لهذه الأموال، والأخطر أنه أرسل رسالة سرية إلى الخليفة الراضي يتعهد فيها بأنه إذا تولى تدبير أمر الخلافة فهو يضمن أن يقوم بنفقات الخليفة والأجناد على خير وجه، غير أن الخليفة لم يرد عليها. وما نحسبه كان يستطيع أن يرد أو أن يغامر بالدخول بين ذوي النفوذ وهو في أول عهده.

وبهذه الرسالة دخل ابن رائق على خط الأحداث في بغداد وعرض نفسه كمخلص، ذلك أن الخلافة في ذلك الوقت كانت تعاني أزمة مالية كبيرة بما منعه الولاة من الأموال كعلي بن بويه والبريدي وابن رائق، فتسبب هذا في أزمة أخرى إذ تمرد العسكر أكثر من مرة وذهبوا إلى بيت ابن مقلة محتجين يطالبون برواتبهم (٣٠ جمادى الآخرة ٣٢٣هـ) حتى لقد اقتحموا الدار فهرب الوزير وابنه منها، ولم تستطع حراسة الوزير أن تصدهم، ولم ينتهِ الأمر إلا بالتدخل السلمي للساجية –فرقة من الحرس الخليفي- فأقنعوهم بالصبر والانتظار مع الوعد بتحسن الأحوال. لكن هذا الحل لم ينجح طويلا إذ ما لبث الجنود أن كرروا احتجاجهم هذا مرة ثانية بعد ستة أشهر (١١ ذي الحجة ٣٢٣هـ)، واندلع القتال بينهم وبين حرس الوزير وكادت بغداد كلها أن تدخل في اضطراب كبير.

٣) ناصر الدولة الحمداني

وهو يسيطر على الموصل منذ كان نائبا فيها عن أبيه قبل نحو خمسة عشر عاما (٣٠٨هـ)، وقد غامر عمه سعيد بن حمدان فتفاهم مع ابن مقلة على أن يتولى الموصل وديار ربيعة سرا، ثم خرج من بغداد إلى الموصل وهو ينوي الفتك بابن أخيه على حين غرة، على أن ناصر الدولة الحمداني فطن للأمر فسبق إلى قتله (٣٢٣هـ).



وانزعج ابن مقلة لما حدث، فخرج على رأس جيش من بغداد (شعبان ٣٢٣هـ) لتأديب ناصر الدولة، فلما اقترب من الموصل انسحب منها ابن حمدان، وحاول ابن مقلة مطاردته إلا أنه رأى الكف عن ذلك فأقام في الموصل وأخذ الجباية المقررة منها وبلغت أربعمائة ألف دينار، ثم احتال أحد رجال بني حمدان فأرسل إلى ابن الوزير المقيم ببغداد عشرة آلاف دينار على أن يكتب للوزير يستدعيه إلى بغداد ويخوفه طول الغيبة عنها، فعاد ابن مقلة مسرعا (شوال ٣٢٣هـ) تاركا من ينوب عنه فيها، وما إن انسحب الوزير حتى عاد ناصر الدولة بمن معه من الجنود، فحارب نواب ابن مقلة فانهزم في جولة ثم كسب في الأخرى واستعاد سيطرته على الموصل، وراسل الخلافة يطلب الصفح وشرعية الولاية فاستجيب له، فلقد كانت بغداد في مشغلة عنه بأمور أخرى!

لقد اكتشف ابن مقلة أن مجموعة من الأمراء يدبرون لخلع الراضي (رمضان ٣٢٣هـ)، وتولية جعفر بن المكتفي الخلافة، فسارع ابن مقلة بحبس جعفر ومن استطاع ممن كان بايعه ففشلت خطتهم التي كادت تودي بابن مقلة على حين غرة.

وكان ابن مقلة قد اتهم أنصار محمد بن ياقوت بتحريض الجند الذين اقتحموا داره (جمادى الآخرة ٣٢٣هـ) من قبل، فأمر بطرد كل رجال محمد بن ياقوت من بغداد، وتوعد من بقي منهم، ثم ما لبث محمد بن ياقوت نفسه حتى مات في سجنه، فقيل بأن الوزير ابن مقلة وضع له السمّ، فعندئذ لم ير ابن مقلة خطرا في إطلاق أخيه المظفر بن ياقوت من السجن، بعد أن أخذ على هذا الأخير العهود والأيمان المغلظة ألا يدبر عليه أو يخطط ضده، فحلف له المظفر على هذا فخرج من السجن.. لكنه كان يضمر نية أخرى!

رجال جدد وخريطة جديدة

لئن كان الخليفة القاهر أول من بدأ التخلص من رجال النظام القديم، رجال عهد المقتدر، فإن من بقي من هؤلاء الرجال قد أزهقوا بقيتهم في عهد الراضي، ومن ثم بدأت خريطة قوى جديدة تتشكل في عاصمة الخلافة!

لقد تخلص الوزير ابن مقلة من محمد بن ياقوت الحاجب وقائد الجيش، لكن أخاه المظفر ابن ياقوت خرج من السجن وقد عزم على الانتقام من الوزير، فتواصل مع فرقة الحجرية من الحرس الخليفي، وخطط معهم ضد ابن مقلة حتى نجح، فبينما يفكر الوزير في الخروج على

رأس جيش لمواجهة محمد بن رائق الذي يرفض إطلاق الأموال المقررة من الولايات، وبينما يعد لذلك إذا به يدخل إلى قصر الخلافة ليخبر الخليفة بما عزم عليه فيجد الحجرية قد قبضوا عليه وألقوه في السجن (٣٢٤هـ) وأُحْرِقت داره وهرب أهله!

ولما أحرقت دار ابن مقلة كتب بعض الناس على بعض جدرانها أبيات شعر بليغة تعبر عن تقلب الأيام، فبعدما بدا أن الأيام صفت واستقرت لابن مقلة الذي صار بلا منافس إذا هي تحمل نهايته بعد قليل، تقول الأبيات:

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بالأيام إذ حَسُنَتْ ... ولم تَخَفْ يومًا يأتي به القَدَر

وسالَمَتْك الليالي فاغْتَرَرْت بها ... وعند صَفْو الليالي يحدث الكَدَر[(١)]

.. ودخلت الخلافة في مرحلة تخبط أخرى، إذ الخليفة الراضي لا يسيطر على شيء ولا له كلمة مسموعة لدى الجند أو غيرهم، فوجد نفسه مطالبا بتعيين وزير آخر، فقال للجند: هاتوا من تحبون فاختاروا علي بن عيسى لكنه امتنع ورشح لهم أخاه عبد الرحمن، غير أن هذا لم يقض في الوزارة أكثر من خمسين يوما كان أبرز أعماله فيها أنه صادر الوزير ابن مقلة بمليون دينار لم تكن كافية للتخلص من الأزمة المالية أو دفع رواتب الجنود، فاستقال من المنصب ثم قُبِض عليه (٧ رجب ٣٢٤هـ) وصودر منه سبعون ألف دينار ومن أخيه علي بن عيسى مائة ألف دينار، وتولى الوزارة أبو جعفر بن القاسم الكرخي، فلم يكن أحسن حالا إذ ظل في المنصب ثلاثة أشهر ونصف لم يستطع أن يفعل فيها شيئا، فعُزِل وأعطيت الوزارة إلى سليمان بن الحسن بن مخلد فلم يكن حاله أحسن منهما[(٢)].

وغلا السعر، فجاع الناس وعُدِم الخبز خمسة أيام، ووقع الطاعون، واقترب بذلك الموت، وخص ذلك الضعفاء، وَكَانَ يجعل على النعش اثنين، وربما كَانَ بينهما صبي، وربما بقي الموتى على الطريق على حالهم، وربما حفرت حفائر كبار فيُلْقَى في الحفيرة خلق كثير.

لم تكن الأزمة في الإدارة بل في القوة والنفوذ، فالوزراء لا يجدون المال الذي ينفقونه بعدما امتنعت كثير من الولايات عن إرسال الأموال المقررة إلى بغداد، فعندئذ لم يكن أمام

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ٣٥٧.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ٣٥٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١١٨.

الخليفة الراضي إلا أن يرسل إلى محمد بن رائق في واسط ليعينه أميرا للأمراء ويستجيب لعرضه السابق بأنه يقوم بنفقات الخلافة والجند.. كان ابن رائق أقوى الرجال الخاضعين اسميا لنفوذ الخلافة فلم يكن منه بد.

قدم ابن رائق من واسط إلى بغداد وقد تولى الإشراف على كل شيء، وكانت قوة ابن رائق مستمدة من الجنود الذين يوالونه وبما انضاف إليه من الجنود الأتراك المنسحبين من جيش مرداويج، فهو بالتالي غير خاضع أو معتمد، بل ولا محتاج، إلى جند الخلافة، فكان أول ما فعله أن أوقع بفرقة الساجية (٣٢٤هـ) ثم بعد فترة أوقع بفرقة الحجرية (المحرم ٣٢٥هـ)، وهاتان الفرقتان هما أساس الانقلابات الأخيرة على مؤنس ثم على القاهر ثم على ابن مقلة، وبالانتهاء منهما صار ابن رائق مركز القوة الوحيد في بغداد، ومنذ ذلك الوقت سيطر على كل أمور الدولة حتى لم يعد منصب الوزير ذا قيمة أو أثر، فكانت القرارات تصدر من ابن رائق والأموال تُحمل إليه وهو الذي ينفق منها فيعطي حسب ما يرى بما في ذلك أموال الخليفة نفسه[١].

وهكذا لم يعد للخليفة معنى، فهو لم يعد يسيطر حتى على بغداد وما حولها، بل كانت خريطة النفوذ كالآتي:

البصرة وبغداد تحت نفوذ محمد بن رائق، والأهواز تحت نفوذ البريدي الذي زادت قوته وتضخمت بعدما خدع الأمير السابق ياقوت حتى استخلص منه قوته وجنوده ثم قتله، وفارس تحت نفوذ علي بن بويه، ويتنازع الحسن بن بويه مع وشمكير بن زيار الديلمي السيطرة على المدن الحدودية بين طبرستان وفارس كالري وأصفهان فيما تظل بلاد طبرستان وجرجان في حكم وشمكير، ويسيطر على كرمان قائد قبلي يدعى محمد بن إلياس، فيما يسيطر السامانيون على خراسان وبلاد ما وراء النهر، ويسيطر الحمدانيون على الموصل وديار بكر ومضر وربيعة، ويسيطر محمد بن طغج الإخشيد على مصر ثم أضيف إليه الشام –بعدما عزل الخليفة نائبها أحمد بن كيغلغ– حيث بدأ فيهما تأسيس الدولة الإخشيدية[٢]، ويسيطر العبيديون (الفاطميون) على المغرب، وفي الجنوب يسيطر القرامطة على شرق الجزيرة العربية[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٢٣، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٠٨، ٢٠٩.

(٢) سنتناول هذا بإذن الله لدى حديثنا عن ظهور الدولة الإخشيدية.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ٣٦٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٢٣.

كانت أمام ابن رائق مهمتان؛ مالية وعسكرية..

فأما المهمة المالية فقد استدعى ابن رائق الفضل بن جعفر بن الفرات –متولي الخراج في مصر والشام– ليجعله وزيرا ليستفيد بما كان له من خبرة وتاريخ وعلاقات في مصر والشام في استجلاب الأموال، فعينه وزيرا بعدما استصدر الأمر من الراضي، وعُزِل عن الوزارة سليمان بن الحسن بن مخلد بعد شهور من توليها، ومن العبر أنه –كعادة الذين ذهبت أيامهم– قد أُحرقت داره في ذكرى مرور عام على إحراق دار ابن مقلة الوزير المحبوس!

وأما العسكرية فهي محاربة الذين لا يؤدون الأموال، وأولهم أبو عبد الله البريدي الذي استقل بالأهواز ولا يبالي بأحد، فرأى ابن رائق أن يسير بالجيش إلى واسط ويكون معه الخليفة الراضي بنفسه، ومن واسط يراسلون البريدي، فاستجاب الراضي وبدأ تحرك الجيش (١ المحرم ٣٢٥هـ)، وفي الطريق تخلص ابن رائق من فرقة الحجرية من الحرس الخليفي إذ أصدر قرارا بتسريحهم فغضبوا وثاروا فقاتلهم حتى هزمهم، ومن استطاع منهم الهرب إلى بغداد كان في انتظارهم لؤلؤ قائد الشرطة الذي حاربهم «فأوقع بهم، فاستتروا، فَنُهِبَت دورهم وقُبِضَت أموالهم وأملاكهم وقُطِعَت أرزاقهم»[1]، وفي الطريق إلى الأهواز أرسل ابن رائق إلى البريدي يحذره ما ارتكب من الاستبداد بالناس وأخذ جنود الخلافة الذين كانوا مع ياقوت ليكونوا جندا له والامتناع عن إرسال الأموال، ويعرض عليه أنه يُقَرُّ على ولايته إن التزم بإرسال الأموال، فسارع البريدي إلى طلب الصفح والعفو وتعهد بالالتزام بإرسال الأموال المقررة والتي بلغت ثلاثمائة وستين ألف دينار في السنة تدفع ثلاثين ألفا في كل شهر، وتعهد بأن الجنود إنما هم جنود الخلافة وأيما قائد أرسلته الخلافة ليحارب بهم البويهيين في الشرق فإنه يسلمهم إليه، ويعلن أنهم إنما بقوا لديه بإرادتهم لما تعاني منه بغداد من الأزمة المالية.

ولم يخف على أحد أن البريدي إنما أراد كسب الوقت وأنه مخادع لن يلتزم بما يقول كعادته، غير أن صديقا للبريدي في حاشية ابن رائق كان يستطيع التأثير دائما عليه ليقبل ما يعرضه البريدي، واستطاع أن يقنعه بصدقه وبالعودة إلى بغداد دون حرب، فعاد الجيش إلى بغداد ووصلها (٨ صفر ٣٢٤هـ) بلا قتال!

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٢٧.



وبالفعل، أخلف البريدي وعوده ولم يصل للخلافة دينار واحد، كما أن الخلافة حين أرسلت القائد جعفر بن ورقاء لحرب البويهيين دبر البريدي تمردا من الجنود على جعفر، إذ طالبوه بأموال قبل أن يتحركوا معهم وحين لم يكن لديه شيء شتموه وكادوا أن يقتلوه فلجأ جعفر إلى البريدي الذي قال له: «ليس العجب ممن أرسلك وإنما العجب منك كيف جئت بغير شيء (من المال) فلو أن الجيش مماليك لما ساروا إلا بمال ترضيهم به» ثم أقنعه بالهروب ليلا والنجاة بنفسه منهم، فعاد جعفر إلى بغداد خائبا[1]!

وبرغم كل هذا فإن أبا بكر بن مقاتل –صديق البريدي مسموع الكلمة عند ابن رائق– اجتهد حتى استطاع رفع منزلة البريدي لدى ابن رائق حتى لقد عينه وزيرا له واستقبل من البريدي نائبا عنه ليكون في منصب الوزارة لابن رائق، ومن ثم استطاع هذا النائب واسمه أحمد بن علي الكوفي مع أبو بكر بن مقاتل أن يُسَيِّرا ابن رائق بحسب ما يريد البريدي الذي استطاع بهذا الطريق أن يحصل من ابن رائق على منصب الإشراف على أموال البصرة، وقد تسبب هذا في مشكلات كثيرة وابن رائق لا يدري من أين يأتي الخلل حتى استفاق على خبر مفزع أتاه عن البريدي!

أما البريدي فهو متهور قليل الدين لا يبالي بأحد، ولا يهمه تزيين أفعاله ولا يسلك الطرق الدبلوماسية، ولقد كان ابن رائق حين تخلص من الجنود الحجرية وتمكن من كسرهم اصطفى لنفسه ألفين منهم أدخلهم في جنوده ثم طرد الباقين عن بغداد لكونه لن يتكفل بأرزاقهم، فسار كثير من هؤلاء إلى البريدي الذي استقبلهم وأكرمهم وأضافهم إلى جيشه فزاد بهم قوة على قوته! ثم أرسل إلى ابن رائق يعتذر له بأنه اضطر إلى هذا بعد أن خشي من قوتهم وأن يستعمله أحد خصومه ضده، ثم يعتذر إليه عن عدم أداء المال إذ إن هؤلاء الجنود ومعهم الجيش قد اجتمعوا عليه فمنعوه من إرسال المال بحجة أنهم أحوج إليه!

هنا فزع ابن رائق واستيقظ من غفلته عن البريدي، وأرسل إليه يُلزمه بإبعاد الحجرية، فلم يستجب البريدي، وزاد الطين بلة أن البريدي أرسل جيشا ليستولي على البصرة ويحارب واليها –المُعَيَّن من قِبَل ابن رائق– وتكون تحت سيطرته الكاملة، فأرسل ابن رائق يأمره بالرجوع عن ذلك فتحجج بأن أهل البصرة يخشون من القرامطة وأنهم هم الذين يتمسكون

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٢٨.

به ويريدون الدخول في طاعته، وكان بعض هذا حق؛ إذ إن والي البصرة ابن يزداد كان ظالما سيئ السيرة في الناس والقرامطة ظهروا من جديد في هذا العام عند الكوفة، وبغير تردد سار جيش البريدي وانتصر على ابن يزداد واستولى على البصرة، وهنا جُنَّ جنون ابن رائق فكتب رسالة شديدة اللهجة يأمر فيها البريدي أن ينسحب من البصرة، وكعادته، لم يبال البريدي بشيء أو بأحد!

لم يعد غير الحرب، فجَهَّز ابن رائق القائد بدر الخرشني في جيش، ومعه بجكم -وهو من الذين كانوا مع مرداويج وانحازوا إلى ابن رائق حين كان في واسط- وأمرهما بالمسير إلى الأهواز، على أن بجكم فيما يبدو أراد إثبات قوته فانفرد عن الجيش بفرقة صغيرة من ثلاثمائة فحسب هاجم بها السوس، وهزم بها جيشا للبريدي من ثلاثة آلاف، ثم جيشا آخر للبريدي قوامه ستة آلاف انهزموا بالرعب، وهرب البريدي وأصحابه إلى البصرة، واستولى بجكم على الأهواز!

ومما ينبغي أن نتوقف أمامه طويلا في عاقبة الظلم وسوء السيرة للناس أن البريدي الذي يكرهه كل الناس استطاع ببعض الوعود والضمانات أن يستميل إليه أهل البصرة الذين كانوا يشكون ظلم ابن يزداد -الوالي السابق- حتى صارت البصرة حاضنة له بعد أن هُزم عسكريا، وفي البصرة حاول البريدي استعطاف ابن رائق فأرسل له جماعة من أعيان البصرة فلم يجبهم إلى العفو عنه أو تركه، فعرضوا عليه ألا يقاتلوا مع البريدي إن حلف لهم أن أهل البصرة لن يمسهم منه سوء، لكن ابن رائق استكبر وطغى ولم يجبهم إلى هذا بل ثمة روايات تقول إنه حلف لئن ظفر بهم ليحرقن البصرة وليقتلن أهلها[1]، لهذا عزم البصريون على القتال مع جيش البريدي ضد ابن رائق، وبالفعل؛ قاتلوا قتالا باسلا اندهش له الجميع، فهزموا فِرَق ابن رائق واحدة بعد الأخرى، حتى اضطر ابن رائق أن يخرج بنفسه على رأس جيش وأن يستدعي بجكم من الأهواز، ورغم هذا فقد كان قتال البصريين مذهلا حتى قال بجكم لابن رائق: ما الذي عملت بهؤلاء القوم حتى أحوجتهم إلى هذا؟ فقال: والله لا أدري[2]!

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٣١، ونحسب أنها رواية لا تصح، إذ من غير المعقول أن يرد قائد محارب مثل هذا الرد وهو مقبل على حرب يرجو فيه النصير، لا سيما وابن الأثير نفسه بعد سطور سيذكر قول بجكم لابن رائق: ما الذي عملت بهؤلاء القوم حتى أحوجتهم إلى هذا فقال:والله لا أدري!

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٣١.

وذات ليلة شن جيش البريدي مع البصريين غارة مفاجئة على جيش ابن رائق فهزموهم، واضطر ابن رائق إلى الانسحاب نحو الأهواز التي صارت فعليا في حوزة بجكم، ثم عاد إلى واسط.

وهكذا لم يستطع ابن رائق إخضاع البصرة، رغم أن البريدي قد هرب منها وتوجه إلى علي بن بويه ليتحالف معه، وليغريه باقتحام العراق وبغداد ذاتها ويُهَوِّن عليه أمر ابن رائق والخليفة، وسينجح في ذلك ليكون أحد أهم أسباب الاحتلال البويهي للعراق!

هل يذكر القارئ الكريم متى ظهر البريدي أول مرة؟ لقد ظهر حين اشترى المنصب بالرشوة من وزير فاسد في عهد المقتدر.. فهكذا تضيع البلاد على أيدي من لا يحفظون الأمانة!

صراعات تلد صراعات!

لئن كان عصر الراضي بالله قد بدأ والصراع بين شخصين فحسب، ابن مقلة وابن ياقوت، فقد وصل الحال الآن إلى خمس شخصيات تتصارع فيما بينها، وفي هذا دليل على ما وصل إليه الحال من الضعف والانهيار السياسي للخلافة العباسية، وقد جرت تلك الصراعات على النحو التالي:

١ - أبو عبد الله البريدي ذهب إلى البويهيين في فارس ليغريهم بتوسيع نفوذهم والدخول إلى العراق ويقلل من قوة الخلافة، ويتعهد بأن يحكم الأهواز والبصرة باسمهم مقابل ثمانية عشر مليون درهم في العام، وللتدليل على إخلاصه يضع ولديه محمد والفياض رهائن عند علي بن بويه الذي أرسل معه جيشا بقيادة أخيه أحمد بن بويه فاستطاع الجيش البويهي هزيمة بجكم التركي الذي يتولى الأهواز، وسيطر عليها.

ثم بدأت الخلافات بين ابن بويه والبريدي، فابن بويه يريد أن يستفيد من جنود البريدي ويرسلهم معونة لأخيه الحسن بن بويه الذي يحارب في المشرق للسيطرة على ما لم يدخل في نفوذ البويهيين من أراضي طبرستان والديلم، فخشي البريدي أن يكون ابن بويه يريد أن يفعل به كما فعل هو بياقوت من قبل فيجرده من جنوده ثم يتخلص منه، لا سيما والديلم لا يعاملونه كحليف بل يتعالون ويتكبرون عليه، فهرب البريدي، وأمر جنوده أن يذهبوا إلى

البصرة ولا يكونوا في طاعة أحمد بن بويه، وبعد مراسلات بينهما ثبت بها التخوف لدى كل منهما، فالبريدي يخشى من مصير ابن ياقوت، وابن بويه يخشى أن يخطط البريدي ضده ويتحالف مع بجكم وابن رائق، فأرسل أحمد بن بويه إلى أخيه علي فأمده بجيش آخر استقر به في الأهواز وقوي شأنه.

٢- بجكم، القائد الطموح، انسحب بعد هزيمته من الأهواز إلى واسط التي يقيم فيها ابن رائق في ذلك الوقت، فأرسل إليه يقول: «إن العسكر محتاج إلى المال فإن كان معك مائتا ألف دينار فتقيم بواسط حتى نصل إليك وتنفق فيهم المال وإن كان المال قليلا فالرأي أنك تعود إلى بغداد لئلا يجري من العسكر شغب». فخشي ابن رائق من شغب العسكر فعاد إلى بغداد، وأفلحت خطة بجكم الذي سيطر على واسط بسهولة، ومن هناك بدأت خطته في أن يكون أمير الأمراء بدلا من ابن رائق.

كان ابن رائق، الذي يبدو من كل الحوادث حتى الآن أنه ساذج سهل الخديعة، يفكر في إرسال جيش إلى بجكم ليقاتل به أحمد بن بويه في الأهواز، فأرسل علي بن خلف بن طياب، غير أن هذا الأخير ما إن وصل إلى بجكم حتى تحالف معه وعينه بجكم وزيرا له، فازداد به قوة.

٣- الوزير أبو الفتح بن الفرات أيقن أنه لا أمل قريبا في إصلاح حال العراق فأغرى ابنَ رائق أن يتحالف مع محمد بن طغج الإخشيد نائب الديار المصرية والشامية، واستأذنه ليذهب فيأتي بما استطاع من خراج مصر والشام لحل ما يُستطاع من أزمة المال التي تفرز بدورها أزمة الجنود وتجعل الخلافة في ضعف واضطراب، فأذن له، فخرج الوزير (ربيع الآخر ٣٢٦هـ)، وحينئذ ولَّى الخليفة منصب الوزارة للوزير السابق المحبوس أبي علي بن مقلة الذي خرج يحمل ثارات السجن من ابن رائق فيما لم يبال به ابن رائق لأن النفوذ الفعلي له، وحاول ابن مقلة استرجاع أمواله وأملاكه التي صادرها ابن رائق فلم يستطع، فعندئذ دخل على خط الصراعات، وكيف لا وهو الخبير بالتخطيط للانقلابات كما فعل مع القاهر وابن ياقوت.

راسل ابن مقلة كل من يستطيع لكي يتخلص من ابن رائق، فراسل بجكم في واسط يغريه بمنصب أمير الأمراء، وأرسل إلى الخليفة الراضي يرغبه في عزل ابن رائق وتولية بجكم الذي يبدو الأقوى والأقدر ويعده بأن يستخرج من أمواله وأموال أصحابه ثلاثة ملايين

دينار، وراسل وشمكير بن زيار الديلمي بهذا أيضا، وبطبيعة الحال لم يكن الراضي وهو الخليفة الضعيف ليدخل في صراع كهذا، فأبدى رضاه لابن مقلة فسارع الأخير بالإرسال إلى بجكم أن الخليفة قد رضي بتوليته أميرا للأمراء، وشعر عندئذ بنجاح خطته فاستأذن الخليفة أن يظل في دار الخلافة لأيام، وذلك لكي يظل في حماية الخليفة بعيدا عن يد ابن رائق، غير أنه ما إن دخل دار الخلافة (٣٠ رمضان ٣٢٦هـ) حتى اعتقله الراضي بالله وأفضى بالخطة إلى ابن رائق الذي عاقبه بأن قطع يده ليعيش ذليلا ولا يصلح لمنصب الوزارة بعدها.

٤- ابن رائق شعر أخيرا بخطورة بجكم وأنه يمثل تهديدا حقيقيا له، فراسل عدوه القديم الذي كان سبب اختلال الأمور أبا عبد الله البريدي، وعرض عليه التحالف ضد صاحبه وقائده القديم بجكم!!

وكان البريدي الذي آل حاله إلى الضعف وذهبت منه الأهواز ولم يعد يملك غير البصرة يتوق لتحالف يعيده من جديد في عداد الأقوياء، فاستجاب لطلب ابن رائق وشروطه التي تفرض عليه المشاركة في هذه الحرب بجيش من عنده، والمقابل أن يوليه ابن رائق على واسط مقابل ستمائة ألف دينار في السنة، وأعد من فوره جيشا من عشرة آلاف رجل.

لكن تسرب خبر التحالف إلى بجكم في واسط، فكان أفضل الجميع تفكيرا وتدبيرا، لقد سارع بالمسير بجيشه إلى البصرة حيث البريدي وأوقع هزيمة كبيرة بجيش البريدي غير أنه تركهم يهربون فلم يطاردهم حين انسحبوا، وكان قلب البريدي ومصيره معلقًا بنتيجة هذه المعركة إذ إن انتصاره يعني سيطرته على واسط والبصرة وعودته إلى مواقع القوة والنفوذ مرة أخرى، بينما هزيمته تعني فقدانه البصرة ذاتها إذ إن أهل البصرة كرهوه لما ظهر منه من الظلم والقسوة والاستبداد ما جعلهم يتحسرون على أيام ابن يزداد ويرونها أعيادا.

ما كادت أخبار الهزيمة تأتي حتى انهارت نفس البريدي، إلا أنه فوجئ بأن جنوده سالمون لم يكثر فيهم القتل أو الغرق، ثم ما لبث أن وصلته رسالة من بجكم «يعتذر إليه مما جرى ويقول له أنت بدأت وتعرضت بي، وقد عفوت عنك وعن أصحابك، ولو تبعتهم لغرق وقُتِل أكثرهم، وأنا أصالحك على أن أُقَلِّدك واسط إذا ملكتُ الحضرة[1] وأُصَاهرك»،

---

(١) الحضرة: أي بغداد، وملكت الحضرة بمعنى صرت أمير الأمراء.

فكان أعظم خبر يسمعه البريدي منذ أمد، فطار من الفرح وحلف على الولاء لبجكم وشرعا في التدبير ضد ابن رائق!

٥- أعلن بجكم العصيان على ابن رائق، وحشد جيشه وسار من واسط إلى بغداد (١ ذي القعدة ٣٢٦هـ)، وحاول ابن رائق أن يستعمل الخليفة الضعيف ليكتب رسالة يأمر فيها بجكم بالعودة إلى واسط، وفعل الخليفة بطبيعة الحال، إلا أن بجكم حين وصلته الرسالة ألقاها وواصل سيره كأن شيئا لم يكن، وتواجه الجيشان عند نهر ديالي فكان جيش بجكم أكثر شجاعة وإقداما فيما بدا جيش ابن رائق ضعيفا منهزما، فانتصر بجكم ودخل بغداد (١٣ ذي القعدة ٣٢٦هـ) فتولى منصب أمير الأمراء، وأعلن على لسان الراضي بالعودة لقواد ابن رائق فعادوا وانضموا إلى بجكم، واختفى ابن رائق.

وهكذا فعلت الأيام بابن رائق الذي خرج من واسط قبل نحو سنتين ليكون أمير الأمراء، فإذا به ينهزم على يد قائده الذي كرر ذات السيرة إذ خرج أيضا من واسط ودخل بغداد ليكون أمير الأمراء! ومن كان يدري قبل ثلاث سنوات فحسب أن يكون ذلك القائد الطريد بجكم الهارب من وشمكير بعد أن اغتال أخاه مرداويج الديلمي سيكون أمير الأمراء في بغداد، وعلى حساب الأمير الذي آواه من جوع وآمنه من خوف!

على أن حدثا مهما قد وقع قبل وصول بجكم، ذلك أن الوزير المحبوس مقطوع اليد ابن مقلة لم ييأس من مراسلة الخليفة ليعينه وزيرا مرة أخرى، ويثبت له أن قطع يده لا يعوقه عن عمل الوزارة فإنه يستطيع الكتابة بذراعه حين يربط فيه القلم، ثم عظم أمله من جديد حين جاءت الأخبار بأن بجكم يتحرك إلى بغداد حتى صار يتوعد ابن رائق، فأوصل حراس السجن هذا الكلام إلى ابن رائق الذي قطع لسانه هذه المرة، ثم وضعه في حبس ضيق فلم يلبث بعد ذلك كثيرا حتى مات! فكانت تلك نهاية الوزير صاحب التخطيط والتدبير والعلاقات، لم ينفعه من ذلك شيء حتى صار مشوها قبل أن يموت مسجونا ذليلا[١]!

٦- واجه بجكم نفس المشكلات التي واجهها محمد بن رائق من قبل، فمثلما امتنع البريدي عن إرسال المال كذلك فعل ناصر الدولة بن حمدان في الموصل، ومثلما استخدم ابن

(١) انظر ترجمة مؤثرة له عند ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٢٠ وما بعدها.

رائق الخليفة في الخروج مع الجيش ليكون ذلك أوقع وأفعل تأثيرا، استخدمه ابن رائق أيضا، وسار جيش بغداد إلى الموصل (المحرم ١٢٧هـ)، وانسحب ناصر الدولة من أمام جيش بجكم من الموصل إلى نصيبين إلى آمد وبجكم يطارده..

وفجأة، في هذه الأثناء، ظهر ابن رائق في بغداد الخالية من الخليفة وأمير الأمراء، واستولى عليها لكنه لم يقترب من دار الخلافة، فوصلت هذه الأنباء إلى الراضي وبجكم فأربكت الوضع تماما في الموصل، فتحير بجكم بين الرجوع إلى بغداد أو البقاء في الموصل واستكمال إخضاع ابن حمدان، وتسرب الإرباك إلى الجنود الذين ظنوا أن ابن رائق ما زال في كامل قوته وأن بجكم محصور بين القوتين: ابن رائق في بغداد وابن حمدان في نواحي الموصل، لولا أن الله فرج على بجكم بما أنقذه من حيث لا يحتسب، ذلك أن ناصر الدولة ابن حمدان أرسل إليه يطلب الصلح -إذ لم تكن وصلته أنباء بغداد- ويدفع خمسمائة ألف درهم فورا كمقدمة، فطار بجكم فرحا وأسرع إلى الإجابة والموافقة، وسريعا بدأ في العودة إلى بغداد.

وأما ابن رائق فأدرك حين تم الصلح أنه الأضعف موقفا، فأرسل إلى بجكم والراضي في طريق عودتهما يطلب الصلح، ويتنازل عن بغداد مقابل أن يتولى طريق الفرات وديار مضر حران والرها وما جاورها وجُند قنسرين والعواصم، فاستجاب بجكم لهذا واستقر الصلح، ودخل جيش بجكم -ومعه الراضي- إلى بغداد (٩ ربيع الآخر ٣٢٧هـ).

٧- استقر أمر بجكم في بغداد، واستطاع القضاء على تمرد بين أحد قواده يدعى بالبا، واستقر له أمر العراق عامة، ولم يعد أمامه إلا مواجهة البويهيين الذين يسيطرون على الأهواز، ولم يمهله الوقت إذ كان البريدي قد أرسل فرقة إلى بلدة السوس التابعة للأهواز فقتلت قائدا من الديلم، فاستغاث أحمد بن بويه بأخيه الحسن بن بويه في أصفهان، فأقبل الأخير مسرعا فاستولى على السوس ثم بدأ في الزحف نحو واسط، فحينئذ أسرع جيش بجكم نحو واسط لصد البويهيين، فلما رأى البويهيون اجتماع البريدي وبجكم عادوا عن حرب واسط إلى مستقرهم في الأهواز.

٨- التحالف بين البريدي وبجكم بلغ ذروته في هذا الوقت حتى إن بجكم تزوج من سارة بنت البريدي (٣٢٨هـ) فصار بينهما فوق الحلف صهر، واتفقا على محاربة البويهيين عبر جبهتين، فالبريدي سيرسل جيشا لاستخلاص الأهواز وفي نفس الوقت يهاجم بجكم بلاد

الجبل، وأعان بجكم البريدي بفرقة من جيشه فيهم وزيره أبو زكريا السوسي، وانطلق هو إلى بلاد الجبل.

كان البريدي يُضمر خطة أخرى، كان يريد أن يتلقى بجكم هزيمة أو ضربة مؤثرة فيسير هو إلى بغداد ويصبح أمير الأمراء مكان بجكم، لذا ظل يتأخر في الخروج إلى الأهواز منتظرا أن يقع ما يهواه، وظل يراوغ أبا زكريا السوسي الذي يحثه ويحرضه على الخروج لنحو شهر بلا فائدة، حتى فطن أبو زكريا إلى نية البريدي فسارع بالإرسال إلى بجكم بهذا التطور الجديد، فعاد بجكم مسرعا إلى بغداد بما استطاع من الجنود، إذ لم يكن بالإمكان الانتظار حتى ينسحب الجيش كله من بلاد الجبل، فظل قسم كبير من الجيش هناك.

ومن بغداد سار بجكم بمن معه من الجنود إلى واسط (٢٠ ذي القعدة ٣٢٨هـ)، ووقع في يده جاسوس للبريدي في حاشيته فقتله، وقبض على مسؤول الاتصال بينه وبين البريدي، وما إن وصلت الأخبار إلى البريدي حتى انسحب إلى البصرة فاستولى بجكم على واسط.

٩- في الشام كان ابن رائق يبحث عن مجد وُملك بدل الذي ضاع في بغداد على يد غلامه الذي آواه ثم صار متحكما فيه، فلم يكتف بما تحت يديه من الولايات بل أخذ في توسيع نفوذه واصطدم بالإخشيديين الذين يحكمون الشام ومصر، فاستولى على حمص ودمشق والرملة، وسار إلى العريش في مصر، وهناك لقي هزيمة فادحة على يد محمد بن طغج الإخشيد حتى نجا ابن رائق في سبعين رجلا فقط وعاد إلى دمشق محسورا مهزوما، ثم أرسل الإخشيد أخاه أبا نصر على رأس جيش آخر فوقعت حرب شديدة بينه وبين ابن رائق (٤ ذي الحجة ٣٢٨هـ) انتصر فيها ابن رائق نصرا كبيرا حتى إنه قتل أبا نصر قائد الإخشيديين، ثم بدا له أن يتصالح مع الإخشيد فأخذ جثمان أبي نصر وكفنه وأرسله إلى أخيه في مصر مع ابنه محمد وأرسل إليه يعزيه عن أخيه، ويعتذر مما جرى، ويحلف أنه ما أراد قتله وأنه قد أرسل ابنه ليكون طوع الإخشيد إن شاء قتله قصاصا لأخيه، وأمام هذا بدا للإخشيد أن يتصالح مع ابن رائق فأكرم ابنه محمدا ووقع الاتفاق بينهما على أن تكون بلدة الرملة خط الحدود بينهما وأن يدفع ابن رائق ١٤٠ ألف دينار سنويا للإخشيد في مصر.

وكانت هذه آخر الصراعات المهمة في عهد الراضي الذي مات (١٥ ربيع الأول ٣٢٩هـ) وعمره واحد وثلاثون عاما.



المشرق المضطرب

انتهت أيام القاهر، وعلي بن بويه قد استطاع الانتصار على ياقوت في فارس وصار أقوى أمراء المشرق بعد مرداويج وأسوأ من هذا أنه تواصل بالخلافة لتعطيه الشرعية على ولاية ما تحت يده من المدن، مما حدا بمرداويج أن يخطط لحرب ينهي بها هذا الأمر تماما، فسارع بإرسال جزء من جيشه ليستولي على الأهواز فيقطع طريق الاتصال بين علي بن بويه والخلافة في العراق، فانسحب منها ياقوت -الوالي من قبل الخلافة والذي لم يكن له قوة على مواجهة جيش مرداويج- فاستولى عليها مرداويج.

وهنا سعى علي بن بويه في التصالح مع مرداويج وتم الاتفاق بينهما على أن يعلن علي بن بويه طاعته وولاءه لمرداويج، وأن يخطب له في البلاد التي يسيطر عليها وأن يضع أخاه أحمد بن بويه رهينة عند مرداويج لضمان تنفيذ الاتفاق، فتم هذا الأمر[1]، وعاد مرداويج ليكون الرجل الأقوى في المشرق!

على أن هذا الأيام ما لبثت أن جاءت بما قلب هذا الوضع رأسا على عقب، لقد كره الجنود الأتراك في جيش مرداويج استعلاءه عليهم وظلمه لهم وتفضيله الجنود الديلم ورفعهم عليهم، وزاد عليهم الظلم حتى قرروا ذات يوم أن يغتالوه، فدبرت مجموعة منهم وخططوا ثم نجحوا في اغتياله (٣٢٣هـ)[2]، وكان من أهم من دبروا لهذا الاغتيال توزون وبجكم وسيكون لهما أثر في الدولة العباسية في قابل الأيام!

وانهار مرداويج المخيف المرعب في الوقت الذي لم يتوقعه أحد وقبل أن تتحقق أحلامه العريضة، وفي الوقت الذي بدا له وللناس أن زمانه في إقبال!

وهنا تحرر أحمد بن بويه من رهن مرداويج فانطلق حيث ملك أخيه علي في فارس، والذي كان أسرع الجميع لاستغلال الفرصة فقد استولى على الأهواز قبل أن يعود إليها ياقوت ودارت بينهما حرب انتهت بانتصار ابن بويه فأصبح هو رجل الشرق القوي[3]. وأما جيش مرداويج فقد انهار كثيرا إذ انحاز الأتراك إلى العراق حيث استقبلهم الأمير محمد بن

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٠٠.

(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٥/ ٢٣٤، ٢٣٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٠٨ وما بعدها.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٠١، ١١٣.

رائق أمير البصرة وواسط، وأما الديلم فاجتمعوا على الطاعة لوشمكير أخي مرداويج لئلا يفقدوا ملكهم ومجدهم ودولتهم. وعاد السامانيون ليدخلوا على خط الصراع مرة أخرى ضد وشمكير عبر ماكان بن كالي، فأمدوه بالجنود لكنه شن حربا غير جيدة فانهزم أمام جيش الديلم وعاد منسحبا إلى نيسابور –عاصمة خراسان- التي ما تزال في حكم السامانيين.

انطلق علي بن بويه –ومعه أخواه الحسن وأحمد- في الاستيلاء على ما استطاع من البلاد التي كانت في حوزة مرداويج ووقف وشمكير أمام هذا التوسع فتنازع الرجلان السيطرة على هذه الأنحاء.

استقر علي بن بويه في منطقة فارس، وتولى أخوه الحسن منطقة أصفهان والجبل ومهمة التصدي والتنازع مع وشمكير، وحاول أحمد بن بويه أن يكون له مُلْكٌ كأخويه فسعى في السيطرة على كرمان التي يحكمها محمد بن إلياس –المنشق عن السامانيين- لكن الأمر لم يستقر لأحمد بن بويه، حتى جاءه أبو عبد الله البريدي مهزوما ومنسحبا من أمام ابن رائق وبجكم فسعى في إغراء البويهيين بحكم العراق، فأرسل علي بن بويه أخاه أحمد هذا ليكون نصيبه من الملك حُكْم العراق، وبالفعل استطاع السيطرة على الأهواز كما مر بنا من قبل.

وصار حال الشرق منقسما بين البويهيين ذوي القوة الصاعدة، والسامانيين ذوي القوة الذاهبة في خراسان، ووشمكير ذي القوة المستميتة على الاحتفاظ بما تستطيع مما تبقى من مُلك مرداويج، وقادة محليون آخرون يسيطرون على بعض مناطق مثل محمد بن إلياس في كرمان، وقادة يبحثون لهم عن دور يعيدهم إلى الساحة مثل ماكان بن كالي. وبين كل هذه الأطراف تقع حروب ومعارك ونزاعات، ويتحالف الخصوم تبعا للحاجة والموقف، فلا تلبث الحاجة والمواقف أن تتغير حتى تنقلب خريطة التحالفات.

أحوال القرامطة

قبيل انتهاء عهد القاهر بالله كان حاجبه محمد بن ياقوت قد أرسل إلى أبي طاهر القرمطي (٣٢٢هـ) يطالبه بالدخول في طاعة الخليفة والكف عن التعرض لقوافل الحجاج وإعادة الحجر الأسود إلى مكة في مقابل أن تعطيه الخلافة شرعية الولاية على ما تحت يده من البلاد، فأجاب أبو طاهر بأنه لن يتعرض للحجاج ولم يستجب لرد الحجر الأسود إلى مكانه، وطلب من الخلافة أن تأمر بفتح الطرق التجارية بينه وبين البصرة، فحينئذ يخطب للخليفة

العباسي ويخلع طاعة الخليفة العبيدي (الفاطمي).

لقد كان هذا تنازلا كبيرا من جانب الخلافة إلا أن الظروف في ذلك الوقت تدعو إلى تفهم هذا، وعلى كل حال فإن الخلافة لم تستفد إلا أن أبا طاهر لم يتعرض للحجاج في هذا العام، ثم اضطربت أحوال الخلافة جميعا فلم يستقر أي اتفاق بين الطرفين.

لهذا، ما إن جاء العام التالي حتى هاجم القرمطي الحجاج (١٢ ذي القعدة ٣٢٣هـ) وقاتلهم عند القادسية، ثم توسط بعض وجهاء العلويين من الكوفة لوقف القتال فاشترط القرمطي ألا يحجوا هذا العام، فعادوا إلى بغداد، ولم يحج في هذا العام أحد من جهة العراق وما وراءها من البلاد، وربما أراد أن يظهر القرمطي قوته فسار نحو الكوفة وأقام بها عدة أيام ثم رحل عنها.

ويبدو أنه آثر ألا يدخل في الصراع المحتدم عند البصرة بين البريدي من جهة وابن رائق وواليه على البصرة ابن يزداد من جهة أخرى، فلا نجد له ذكرا إلا في (٢٣ ربيع الآخر ٣٢٥هـ) حيث خرج بجيش إلى الكوفة، فخرج ابن رائق في مواجهته ثم عاد عنها دون أن يقع بينهم لا حرب ولا اتفاق.

ثم اندلعت فتنة داخلية لدى القرامطة (٣٢٦هـ) شغلتهم عن الإفساد في الأرض، إذ ظهر فيهم رجل يدعي أنه المهدي المنتظر واستطاع خداع أبي طاهر فملكوه عليهم، وبلغ من النفوذ أنه كان يأمر الرجل بقتل أخيه فلا يتردد، فسعى في التخلص من كبار القادة القرامطة ليصفو له الأمر، غير أنه كشفوا خداعه بعد مدة فقتلوه بعد أن خسروا على يديه كثيرا من كبارهم، فكان هذا مما خفف الله به على الناس في هذا العام والذي بعده.

وقد تأثر المسلمون في العراق وما وراءها من البلاد أعمق الأثر بحرمانهم من الحج بفعل القرامطة، وكانت الخلافة في مشغلة عن هذا، فالخليفة ضعيف، وقواد العراق يتصارعون: بجكم وابن رائق والبريدي وابن مقلة، فسعى بعض الناس في توسيط شريف علوي من أهل الكوفة ذي سمعة طيبة لدى القرامطة فاستقر مع القرامطة على أن يعبر الحجاج ويأخذ القرامطة ضريبة على «كل جمل خمسة دنانير، وعلى المحمل سبعة دنانير»، وبهذا الشرط استطاع الناس الحج[1].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢١٥.

وقفة مع الراضي بالله

أبرز ما في حياة الراضي بالله فشل محاولاته في استعادة سلطته، ولا ريب أنه قد تسلمها في وضع بالغ السوء ومع تحكم كامل من العسكر، إلا أنه حاول ولم ييأس، وفشل.. وكانت محاولاته منصبة على فك هذا التحالف والاتحاد بين الحاشية والضغط على ما بينهم من تناقضات، ووصفه المسعودي بأنه كان «شديد التضريب بين أوليائه، لاستبدادهم بالأمور دونه، وقصور يده عن تغيير ذلك»(١).

وكان الراضي بالله علامة بين خلفاء الدولة العباسية حتى عهد طويل قادم، فهو «آخر خليفة له شعر مدون، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة، وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل إليه الندماء، وآخر خليفة كانت نفقته وجوائزه وعطاياه وجرياته وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه وحجابه، وأموره كل ذلك يجرى على ترتيب المتقدمين من الخلفاء»(٢).

وكانت من أعماله التي سجلها المؤرخون إعادة تشكيل دار الخلافة، فأكثر من الهدم والبناء وتحويل المباني إلى بساتين(٣)، ولعلها كانت سلوى الخليفة المغلوب على أمره.

ومن جيد كلامه الذي سمعه منه محمد بن يحيى الصولي: لله أقوام هم مفاتيح الخير، وأقوام هم مفاتيح الشر، فمن أراد الله به خيرا قصده أهل الخير وجعله الوسيلة إلينا فنقضي حاجته وهو الشريك في الثواب والأجر والشكر. ومن أراد الله به شرا عدل به إلى غيرنا وهو الشريك في الوزر والإثم والله المستعان على كل حال(٤).

ومن لطيف شعره قوله في الغزل:

يصفر وجهي إذا تأمله ... طرفي ويحمر وجهه خجلا
حتى كأن الذي بوجنته ... من دم جسمي إليه قد نقلا

---

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٣٣٧.
(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٤٣.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/ ٣٣٧.
(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٤٣.

وكذلك قوله في رثاء أبيه المقتدر:

ولـــو أن حيـــا كـــان قـــبرا لميـــت	لصـيرت أحشـائي لأعظمـه قـبرا
ولـو أن عمـري كـان طـوع مشـيئتي	وسـاعدني المقـدور قاسـمته العمـرا
بنفسي- ثـرى ضـاجعت في تربـة الـبلى	لقد ضم منك الغيث والليث والبدرا

ومن شعره في الحكمة:

كـــــل صـــــفو إلى كـــــدر	كـــــل أمـــــن إلى حـــــذر
ومصـــــير الشـــــباب للمـــــو	ت فيـــــــه أو الكـــــــبر
در در المشـــــــيب مـــــــن	واعـــــظ ينـــــذر البشرـــــ
أيهـــــا الآمـــــل الـــــذي	تـــــاه في لجـــــة الغـــــرر
أيـــــن مـــــن كـــــان قبلنـــــا ؟	درس العـــــين والأثـــــر
ســـــيرد المعـــــاد مـــــن	عمـــــره كلـــــه خطـــــر
رب إني ادخـــــرت عنـــــ	ـــــدك أرجـــــوك مـــــدخر
رب إني مـــــؤمن بـــــما	بـــــين الـــــوحي في الســـــور
واعـــــترافي بـــــترك نفـــــ	ـــــعي وإيثـــــاري الضرـــــر
رب فـــــاغفر لي الخطيـــــ	ـــــئة، يـــــاخير مـــــن غفـــــر

ظهور الدولة الإخشيدية

حين انهارت الدولة الطولونية في مصر في عهد الخليفة المكتفي بالله أواخر القرن الثالث الهجري، استقر أمر مصر بعد فترة بيد أحد مواليهم من القادة العسكريين واسمه محمد بن طغج، ولقبه «الإخشيد» وهو اللقب الذي يعني ملك الملوك في بلاد فرغانة فيما وراء النهر[1]، ونستطيع أن نقول بأن هذه الدولة قد ظهرت عام (٣٢٤هـ) حيث صد محمد بن طغج هجوم العبيديين (الفاطميين) على مصر، فقلده الخليفة ولاية مصر والشام.

وقد استقر الأمر لهم في تلك المناطق، ثم نازعهم عليها ابن رائق كما ذكرنا من قبل، ثم

(١) الهمداني: تكملة تاريخ الطبري ص١٥٣.

جرت حروب بينهم وبين الحمدانيين للسيطرة على الشام مما سيأتي معنا فيها بعد بإذن الله!

وفي العموم كان الإخشيديون من أفضل من حكموا مصر واستمروا على ولائهم للخلافة العباسية، وحققت مصر في عهدهم فترة زاهرة حتى بلغ خراجها مليوني دينار في عهد الإخشيد ثم نحو أربعة ملايين دينار في عهد كافور الإخشيدي.

ولما مات كافور (٣٥٧هـ) اضطرب حال الدولة الإخشيدية التي كانت تتعرض لهجمات القرامطة من الشرق وملك النوبة من الجنوب، والعبيديين (الفاطميين) من الغرب، حتى انهارت أمام العبيديين حين اجتاحوا مصر (٣٥٨هـ) ليبدأ فيها عصر جديد، وتنتقل إليها «الخلافة» المناوئة للعباسيين لمائتي عام قادمة، حتى يأتي صلاح الدين الأيوبي!

* * *





المتقـــي لله

(من ربيع أول ٣٢٩ هـ حتى خلع في صفر ٣٣٣هـ)

وهو إبراهيم أخو الراضي بالله وابن المقتدر بالله.

كان حَسَن الوجه، معتدل الخَلْق، قصير الأنف، أبيض مشربا حمرة، وفي شعره شقرة، وجعودة، كث اللحية، أشهل العينين، وأمه جارية اسمها خلوب[١].

وكان يُعرف عن إبراهيم هذا تدينه وتقواه، فهو على خلاف المعتاد في هذه الفترة من الأمراء والأثرياء، لم يشرب خمرا ولا نبيذا قط، وكان فيه وفاء وقناعة واختار لقب «المتقي لله»، وكان يتعبد ويصوم جدا، وكان يقول: المصحف نديمي، ولا أريد جليسا غيره[٢]، قال ابن كثير: «فالتقى فيه الاسم والفعل»[٣].

***

لما مات الراضي، أُرْسِل إلى بجكم -وكان في واسط- فأرسل كاتبه عبد الله الكوفي، وفي ذلك الوقت كان كاتب أمير الأمراء في منزلة الوزير بينما صار منصب الوزير بلا معنى ولا صلاحيات، فاجتمع عبد الله الكوفي بالوزير وسائر من تولى منصب الوزارة من قبل، ومعهم القضاة والأعيان وكبار البيت الهاشمي، وتشاوروا، ثم استقر الأمر على تولية إبراهيم أخيه، فبويع (٢٠ ربيع الأول ٣٢٩هـ)[٤]، فكان في خلافته أكثر انصرافا وانعزالا من أخيه الراضي.

يذكر ابن كثير أنه «لم يغير على أحد شيئا (في المناصب)، ولا غدر بأحد حتى ولا على

---

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٣٤٤، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٦/ ٥١.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٦/ ٥١، وابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٣، ٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٢٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٥٢.

سَرِيَّته[1] لم يُغَيِّرها ولم يَتَسَرَّ عليها، وكان كاسمه المتقي بالله كثير الصيام والصلاة والتعبد. وقال: لا أريد جليسا ولا مسامرا، حسبي المصحف نديما، لا أريد نديما غيره. فانقطع عنه الجلساء والسمار والشعراء والوزراء والتفوا على الأمير بجكم»[2].

صراعات أمراء الحروب

مضى أمراء العراق في صراعاتهم، فالبريدي أرسل جيشا لقتال بجكم فوجه الأخير جيشا بقيادة القائدين التركيين نوشتكين وتوزون فجرت معركة عنيفة صمد فيها القائدان حتى استدعى الأمر أن يتحرك بجكم بجيشه الرئيسي مددا له، فتحرك من واسط (١٥ رجب ٣٢٩هـ) ثم استقبل رسالة من توزون بأنه قد انتصر عليهم وانتهى الأمر.

وبينما بجكم في طريق عودته إذ شن هجمة في فرقة صغيرة من جيشه على مجموعة من الأكراد في الطريق دون أن يرتب لهذا، وكان غرضه الاستيلاء على أموالهم للتقوي بها، وقد هرب الأكراد منه لكن غلاما منهم طعنه بالرمح دون أن يعرف من هو فسقط بجكم قتيلا (٢٦ رجب ٢٣٩هـ) في لحظة مفاجئة لا تكاد تخطر على بال أحد، وهنا تغيرت الموازين..

فالجنود التابعون لبجكم كانوا من الأتراك والديلم فاختلفوا، إذ نصب الديلم عليهم قائدا منهم يدعى بلسوار بن مالك فلم يرض به الأتراك فقتلوه، فلجأ الجنود الديالمة إلى البريدي باعتباره أقوى الرجال على الساحة.

وأما البريدي الذي خرج لتوه من هزيمة قاسية حتى لقد عزم على الهروب من البصرة بعد الهزيمة وبعد أن نفر منه أهل البصرة ومالوا إلى بجكم، لقد فوجئ البريدي بمقتل خصمه القوي فجأة ثم انضمام جنود جدد إليه، فكان ذلك فرحا هائلا من حيث لا يحتسب، فاحتفى بالجنود وأعطاهم ضعف رواتبهم. وأما الجنود الأتراك فقد عادوا إلى واسط فأخرجوا قائدا محبوسا يدعى تكينك، فتولى قيادتهم وسار بهم إلى بغداد.

إن كان ثمة فائدة عادت على الخلافة من مقتل بجكم فهو أن الخليفة سارع للإحاطة على دار بجكم ومصادرة ما بها من أموال قبل أن تُنهب، فحصلت الخزانة على مبلغ كبير، مليون

---

(١) السرية: الجارية.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٢٤.



ومائتي ألف دينار، وهي الثروة التي كونها بجكم عبر عامين وثمانية أشهر في منصب أمير الأمراء.

ما كان البريدي ليفلت فرصة كهذه، بل سارع بجيش يتوجه إلى بغداد لكي يحل في منصب أمير الأمراء، وهو الذي كان قبل أيام يفكر في البحث عن مأوى! فتحرك من البصرة نحو واسط (شعبان ٣٢٩هـ) وحاول الخليفة المتقي أن يمنعهم من هذا فأرسل إليه ينهاه عن التحرك إلى بغداد، فأرسل البريدي يقول: «نحن محتاجون إلى مال فإن أُنْفِذ لنا منه شيء لم نصعد»، فأرسل المتقي مائة وخمسين ألف دينار فأخذها البريدي ثم قال: «أنا أحتاج إلى خمسمائة ألف دينار للديلم. فإن حملت إليّ وإلّا فإنّ الديلم لا يمهلونى، وعلى كلّ حال أنا سائر، فإن تلقّانى المال انصرفت، وإلّا دخلت الحضرة»، فواصل تقدمه نحو بغداد، فأنفق المتقي أربعمائة ألف دينار ليجهز جيش الجنود الأتراك لمواجهة البريدي وجعل قائدهم سلامة الطولوني الذي كان حاجبا لبجكم، ثم خرج معهم بنفسه (٢٢ شعبان ٣٢٩هـ)(١).

على أن سلامة الطولوني لم يكن –فيما يبدو– قادرا على ملء الفراغ الذي تركه بجكم في نفوس الجند الأتراك، لذا اضطربت أمور الجنود، حتى إذا اقترب البريدي من بغداد انشق بعضهم عليه وانحاز إلى البريدي وتفكك الجيش حتى لم يجد سلامة نفسه إلا الهروب والاختفاء، وانهارت القوة الدفاعية عن بغداد، وضاعت أموال الخلافة سواء التي أنفقت على البريدي ليرجع أو على جند الأتراك ليدافعوا، واضطربت الأوضاع في بغداد حتى عزم التجار وأهل الأموال على الهروب منها لما يعرفون من شراسة البريدي وقسوته وكثرة ظلمه، وأما البريدي فقد دخل بغداد (٢ رمضان ٣٢٩هـ) وصار أمرا واقعا، فاضطر الخليفة إلى منحه لقب الوزارة.

لم يفعل البريدي في بغداد غير نهب الأموال، من العامة أو حتى من الخليفة ذاته، ثم قبض على وزير الخليفة وأرسله إلى البصرة وحبسه هناك، وكان يثير الجنود ويحرضهم على الشغب لكي يستغل هذا الشغب فيطالب بالأموال من الخليفة، وقد طلب ذات يوم نصف مليون دينار، فأرسل الخليفة مائة وخمسين ألفا فلم يقبل البريدي وأصر على نصف مليون، ثم

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٤٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٥٥.

هدد الخليفة بمصير من سبقوه من الخلفاء المقتولين كالمستعين والمعز والمهتدي، فأجاب المتقي مقهورا أن يؤديها إليه على دفعات!

مع الدفعة الأخيرة من المال، كان البريدي يواجه أزمة لم يتوقعها، لقد انقلب مكره عليه، واعتاد الجنود أن يمارسوا الشغب ويثيروا الفوضى حين يحتاجون المزيد من المال، فثار جنوده عليه، واجتمع على ذلك الأتراك والديالمة معا، وهاجموا دار أبي الحسين أخي البريدي واشتعل الوضع حتى انحاز البريدي إلى معسكره في الجزء الشرقي من بغداد وقطع الجسر على نهر الفرات لكي لا يعبر إليه أحد، لكن الفوضى كانت أكبر من ذلك، ففضلا عن أن الناس أخذوا في نهب ما للبريدي وقادته في الجزء الغربي من بغداد، فإن القتال قد اندفع حتى في نهر دجلة، ولم يجد البريدي إلا أن يهرب من بغداد كلها (آخر رمضان ٣٢٩هـ) وتوجه نحو واسط أمام هذا الانقلاب العسكري الذي ذاق به نتائج سياسته في إثارة الجند وإطماعهم في المال.

وضاع حلم البريدي في أقل من شهر وهو الحلم الذي كان يعمل لأجله سنين عددا!

كان جنود البريدي منقسمين بين الأتراك والديالمة، وكان قائد الديالمة كورتكين أقوى وأشجع، فاستولى على الأمور ونُصِّب أمير الأمراء (٢ شوال ٣٢٩هـ) وقَتَل قائد الترك تكينك (٥ شوال ٣٢٩هـ)، إلا أن الأمر لم يستقر له أيضا!

كانت هذه هي المرة الأولى التي يصير فيها ديلمي عسكري أمير الأمراء في بغداد، والديالمة قوم عسكريون بلا حضارة، فتجبروا في بغداد كما يفعل أي جنود يحملون السلاح ليس لهم خلق حضاري في بلد هي عاصمة الحضارة في كل الأرض، فأسرفوا في السلب والنهب والاعتداء على أهل بغداد، وكان الذي تعجبه دار ينزل فيها بلا أجرة، فما إن نُصِّب كورتكين أميرا للأمراء يوم الخميس، حتى اجتمع الناس واحتشدوا يوم الجمعة (٦ شوال ٣٢٩هـ)، غير أن كورتكين لم يحفل لهم ولم ينصفهم، فاتسعت الاحتجاجات في بغداد ومنع الناس خطباء الجمعة من الصعود إلى المنابر، ثم اندلع القتال بينهم وبين الجنود الديالمة وقُتِل من الفريقين كثيرون.

في الشام جرى مشهد آخر..

لقد هرب كثير من أمراء الترك التابعين لبجكم إلى الشام حيث محمد بن رائق بعدما لم يكن من سبيل آخر إلا البريدي –وهو عدو غير مأمون لهم معه عداوات وحروب– وكورتكين الديلمي –وهو الآخر عدو غير مأمون وقد قتل قائد الجنود الترك الذين بقوا في بغداد مما أثبت صواب رأيهم في الخروج عنه– فذهبوا إلى الموصل حيث ناصر الدولة بن حمدان، لكن هذا الأخير لم يكن على قدر توقعاتهم، فعادوا هاربين إلى سيدهم الأول محمد بن رائق الذي هو الآن في الشام.

قام الجند الأتراك، وعلى رأسهم القادة: توزون وخجخج ونوشتكين وصيغون بإغراء ابن رائق بالعودة إلى العراق، ثم لم يلبث أن وصلت إليه رسالة من الخليفة المتقي تدعوه للعودة إلى العراق بعدما جرى فيها من اضطراب بين الناس والديالمة، فعزم ابن رائق على العودة، ومضى نحو بغداد عن طريق الموصل فتصالح مع ابن حمدان الذي أعطاه مائة ألف دينار، ومن الموصل إلى بغداد فنشبت الحرب بين ابن رائق وكورتكين عدة أيام دون حسم، ثم ناور ابن رائق جيش كورتكين فدخل بغداد من الجانب الغربي (٩ ذي الحجة ٣٢٩هـ)، وكان هذا أفضل شيء فعله، إذ إنه بهذا أدخل الشعب الغاضب من الديالمة كعنصر في المعركة، ولولا هذا العنصر الذي حارب الديالمة مع ابن رائق بكل قوة ما استطاع ابن رائق أن ينتصر ويبقى في بغداد، بل لقد كان على وشك الهزيمة وفكر في الانسحاب! ثم أصبح بفضل أهل بغداد منتصرا متمكنا وهرب كورتكين واختفى ثم أُلقي القبض عليه فَحُبِس، وقُتِل من بقي من الجنود الديالمة ومن أسراهم، وعاد محمد بن رائق أميرا للأمراء بعد سنوات من خلعه على يد بجكم!

ومن ناحيته، انتهز البريدي تلك الفرصة فأرسل جيشا إلى واسط فانتزعها من يد الديالمة الذين صاروا أذل قوم بعد أن كانوا أعز الناس قبل أيام!!

المشهد يتكرر بحذافيره

وبعودة ابن رائق إلى بغداد وتوليه منصب أمير الأمراء للمرة الثانية يتكرر المشهد والتاريخ إلى حد نادر يثير الغرابة ويبعث على التأمل، فكأن الزمن عاد خمس سنوات إلى الوراء ليكرر ذات الأحداث:

لقد ضاقت الأموال على ابن رائق بسبب الذين امتنعوا عن إرسال الأموال المقررة على

ولاياتهم، وأول هؤلاء هو أبو عبد الله البريدي، فعزم ابن رائق على حربه فاتجه إلى واسط (١٠ المحرم ٣٣٠هـ) فهرب البريدي إلى البصرة ثم قدم التعهدات بأن يؤدي الأموال المقررة عليه فتم الصلح وعاد ابن رائق إلى بغداد.

ثم أدت الأزمة المالية إلى الأزمة المتكررة، الجنود الذين تعودوا على الشغب والتمرد إذا لم تُدفع لهم الأموال والرواتب، فثار هؤلاء على ابن رائق (٢ ربيع الآخر ٣٣٠هـ) بقيادة توزون التركي، وهو –للمفارقة– أحد الذين تزعموا حركة الإتيان بابن رائق من الشام إلى بغداد، ولما لم يكن لدى ابن رائق ما يكفيهم انشقوا عنه وانحازوا إلى البريدي (آخر ربيع الآخر ٣٣٠هـ)، وبهذا انقلبت موازين القوة فصار البريدي الأقوى وصار ابن رائق الأضعف.

حاول ابن رائق كسب ود البريدي فعينه وزيرا للمرة الثانية! وللمرة الثانية لم يشبع هذا نهم البريدي بل عزم على مهاجمة بغداد كنفس الحال السابق، فجهز جيشا بقيادة أخيه أبي الحسين، ولما وصلت الأنباء إلى ابن رائق عزم على الدفاع فتحصن بدار الخلافة فأصلح الأسوار ونصب آلات الحرب ودفع الحصار، فعم الاضطراب بغداد وشاع الانفلات الأمني فيها، وكان سهلا على أبي الحسين أن يستولي على بغداد وهي على هذه الحال فهَزَم جُنْدَ ابن رائق ومعه الخليفة (١٥ جمادى الآخرة ٣٣٠هـ) واستولى جيش البريدي على بغداد ودار الخلافة (٢١ جمادى الآخرة ٣٣٠هـ) وهرب الخليفة وابن رائق في فلول الجيش إلى الموصل، ولم ينعم محمد بن رائق بمنصب أمير الأمراء إلا ستة أشهر فحسب!

وبدأ البريديون في الانتقام، فقتلوا من وجدوه في دار الخلافة ونهبوها حتى لم يسلم منهم جناح الحريم في واحدة «من الحوادث العظيمة... مما لم يجر مثله على أحد من خلفاء بنى العباس»[١]، وأخذوا القائد الديلمي كورتكين –الذي قاد الانقلاب عليهم قبل سنة– فأرسلوه إلى واسط ولا يدري أحد ماذا فُعِل به، وعم النهب والسلب في بغداد، ونزل بأهلها البلاء الشديد، فلقد كان البريديون لا يتورعون عن غصب الناس دوابهم وبيوتهم وأثاثها بل وغصبوهم طعامهم وشرابهم، وكان الجنود البريديون على ثلاثة أصناف: أتراك وديلم وقرامطة، فوقع بينهم وبين أهل بغداد معارك وفتن قتل فيها كثيرون، ووقع بينهم وبين بعضهم كذلك معارك أضافت خرابا آخر إلى الخراب الذي حل ببغداد، قال ابن الأثير عن

---

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٣٤٤.

أبي الحسين البريدي «كان ينهب ويعسف أهل العراق ويظلمهم ظلما لم يسمع بمثله قط»[1].

في أثناء الاضطرابات السابقة أرسل الخليفة المتقي إلى ناصر الدولة ابن حمدان في الموصل لكي يغيثه بجيش ضد البريدي، على أن هذا الجيش الذي قاده أبو الحسن أخو ناصر الدولة لم يصل إلا بعد أن كان البريدي قد اقتحم بغداد بالفعل وهرب منها الخليفة وابن رائق، فالتقاهما في تكريت، فعاد بهما إلى الموصل، فدخلا في كنف ورعاية ناصر الدولة ابن حمدان.

في ذلك الوقت تاقت نفس ناصر الدولة إلى منصب أمير الأمراء والرجل الأول في الدولة، لا سيما وهذا ابن رائق قد ضعف به الحال وأصبح لا قوة له، فعزم على التخلص منه ليصفو له الأمر فقتله (٢١ رجب ٣٣٠هـ) وحصل على منصب أمير الأمراء (١ شعبان ٣٣٠هـ) وعلى لقب «ناصر الدولة»، وكذلك أخوه أبو الحسن الذي لقبه المتقي بـ«سيف الدولة».. وكيف لا؟ والخليفة نفسه في حمايته وليس من رجل قوي آخر يوالي الخلافة غيره في ذلك الوقت.

في بغداد كانت المشاكل قد بدأت في الظهور أمام أبي الحسن البريدي، أهل بغداد سرى بينهم الغضب والاحتجاج والكراهية له بما ظلم وعسف ونهب، والجنود المنقسمون بين الأتراك والديلم قد اعتادوا التمرد والشغب إن لم يجدوا ما يرضيهم من الأرزاق، وهم قد صاروا مرتزقة منذ زمن ينتقلون من أمير إلى آخر ثم إلى آخر كلما تغير ميزان المال أو ميزان القوة، والبريدي نفسه قد فقد بغداد قبل ذلك بانقلاب عسكري قاده تحالف القائدين التركي والديلمي تكينك وكورتكين.

وكاد يحدث انقلاب عسكري آخر على البريدي بالاتفاق بين توزون ونوشتكين غير أن الأخير أوصل الخبر إلى البريدي، ففشل الانقلاب، فهرب جمع الانقلابيين إلى الموصل حيث ناصر الدولة ابن حمدان (٥ رمضان ٣٣٠هـ)، وبهذا تغير ميزان القوة فزاد في كفة ابن حمدان وضعف في كفة البريدي.

وقد عَجَّل هذا بمسير جيش ابن حمدان إلى بغداد، وما إن اقترب الجيش منها حتى انسحب أبو الحسين بن البريدي عن بغداد إلى واسط، بعد أقل من أربعة أشهر من استيلائه

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٦١، ١٦٢.

عليها، وعاد الخليفة إلى بغداد تحت ظلال سيوف ناصر الدولة ابن حمدان، وعاد إليها الأعيان وغيرهم ممن تركها أيام البريدي، وقد كان هذا خبرا سعيدا نزل بأهل بغداد وأشاع فيهم الاطمئنان.

وقد أراد الخليفة توثيق رباطه مع الحمدانيين وإكرامهم فزَوَّج ابنه أبا منصور من بنت ناصر الدولة الحمداني (ربيع الآخر ٣٣١هـ).

فوضى ما قبل النهاية

حاول الحمدانيون مطاردة البريدي إلى واسط، حتى نجحوا في دخولها بعد عدة معارك قادها سيف الدولة الحمداني، وحاول سيف الدولة أن يكمل مطاردة البريدي ويدخل البصرة إلا أن قلة الأموال منعته من تنفيذ عزمه هذا، وكالعادة لم يفت وقت كثير حتى عانى سيف الدولة من قادة الجند الأتراك الذين يرون أنفسهم أصحاب القوة وبهم انتصر الحمدانيون على البريدي، فكان توزون وجخجخ يتعاليان على سيف الدولة ويُسمعانه ما يكره، ويعاملانه كالأنداد، وحاول سيف الدولة تفريق القائدين فولاهما على ولايات لتكون لهما كالإقطاعيات يحفظانها من العدو ولهما خراجها، كما حاول أن يوجه أطماعهم إلى الشام بدلا من العراق، لكن كل هذا لم يُجْدِ شيئا، وتمرد القائدان توزون وجخجخ عليه (آخر شعبان ٣٣١هـ) وهجموا على معسكره ليلا فاستطاع الهرب إلى بغداد بعد أن قُتِل بعض قواده ونُهِب معسكره.

ثم لم يلبث أن وقع الخلاف بين القائدين توزون وجخجخ، ودخل بينهما البريدي على الخط، وكان توزون الأكثر يقظة فهاجم جخجخ وأسره (١٢ رمضان ٣٣١هـ) ثم سَمَل عينيه في اليوم التالي!

هرب سيف الدولة الحمداني إلى بغداد، وهناك قرر أخوه ناصر الدولة الحمداني أن يترك بغداد إلى الموصل في ردة فعل غير مبررة عسكريا، يفسرها بعض المؤرخين[1] بأنهم لم يتحملوا التعامل مع جُنْد الخلافة الذين شاع فيهم التمرد والشغب وكثرة الانقلابات، وعلى رغم إلحاح الخليفة المتقي على ناصر الدولة بالبقاء إلا أنه ترك بغداد بالفعل بعد ثلاثة أشهر من

(١) د. فاروق عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٦٧.

دخولها مع الخليفة، وقد تولى الجند الديلم والأتراك نهب داره وممتلكاته.

وحين وقع الصراع بين توزون وجخجخ فكر سيف الدولة في العودة إلى بغداد مرة أخرى، وتحرك من الموصل بجيشه وراسل الخليفة يطلب منه أموالا ليقاتل توزون الذي سيقصد بغداد بعدما صار الأمير الأقوى، فبذل له الخليفة أربعمائة ألف درهم، إلا أن سيف الدولة ما كاد يسمع بوصول توزون حتى انسحب إلى الموصل مرة أخرى دون قتال، فدخل توزون بغداد (٢٥ رمضان ٣٣١هـ) وصار بالفعل في منصب أمير الأمراء.

ومرة أخرى دار الصراع بين أمير الأمراء والبريدي، فقد هاجم البريدي مدينة واسط بمجرد أن خرج توزون إلى بغداد، فخرج توزون لمحاربة البريدي، وفي أثناء هذا الخروج عملت الوشايات والشائعات في تفجير العلاقة بين الخليفة المتقي لله وتوزون، وهي العلاقة الهشة التي يسيطر عليها سوء الظن أصلا، حتى لقد ظن الخليفة أن توزون قد تحالف مع البريدي وأن توزون سيسلم الخليفة إلى البريدي مقابل نصف مليون دينار، فعزم الخليفة على الهروب إلى الحمدانيين في الموصل وأرسل إليهم أن يبعثوا فرقة عسكرية تؤمن خروجه من بغداد.

أرسل ناصر الدولة هذه الفرقة بقيادة ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان، وخرج معها الخليفة بأهله ومعهم أعيان بغداد، وما إن وصل هذا الخبر إلى توزون حتى تحالف بالفعل مع البريدي وتوثق التحالف بأن تزوج من ابنته وترك له واسط مقابل مبلغ سنوي، وعاد إلى بغداد.

ومن بغداد شن توزون هجوما على الحمدانيين، فانتصر على سيف الدولة في معركة عند تكريت (٢٧ ربيع الآخر ٣٣٢هـ) ثم مرة أخرى (شعبان ٣٣٢هـ)، حتى انهار الدفاع عن الموصل فانسحب الحمدانيون –ومعهم الخليفة– إلى نصيبين، واستولى توزون على الموصل، ومن هناك أرسل توزون إلى الخليفة يطلب رضاه، فأجابه الخليفة إلى أنه لم يفارق بغداد إلا حينما وصله نبأ تحالفه مع البريدي، وأنه لا يقبل بالصلح إلا إن تصالح مع الحمدانيين، فاصطلحوا وفرض توزون على ناصر الدولة مبلغ ثلاثة ملايين وستمائة ألف دينار سنويا على أعمال الموصل.

بقي الخليفة عند الحمدانيين بينما سارع توزون بالعودة إلى واسط التي كان قد هاجمها أحمد بن بويه في جمع كثير من الديلم، ونشبت معركة كبيرة استمرت بضعة عشر يوما (ذي القعدة ٣٣٢هـ) انتهت بانتصار توزون على ابن بويه (٤ ذي الحجة ٣٣٢هـ)، وما إن انتهت المعركة حتى أصيب توزون بالصرع الذي كان يعاني منه، فلم يُكمل في مطاردة ابن بويه وعاد إلى بغداد.

وأما البريدي فقد وقع في أزمة داخلية إذ نشبت أزمة بينه وبين أخيه أبي يوسف الذي كثرت أمواله وجنوده فيما قلت أموال وجنود أبي عبد الله مما ذهب في الحروب، وهو ما كان يزيد من انحياز الجُند الذين مع أبي عبد الله إلى أبي يوسف، ثم إن هذا الأخير لم يكف عن مهاجمة أخيه بالتهور والجنون وقلة الحرص على المال ويدين كثرة إهلاكه الأموال، وصار إن طلب البريدي قرضا لا يقرضه إلا القليل، فخاف الأخير أن يقوم أخوه بالانقلاب عليه فاغتاله، ثم ظل بعدها ثمانية أشهر فحسب، أصيب فيها بحُمَّى حادة فمات (شوال ٣٣٢هـ)، فاضطرب حال البريديين لفترة بعد ذلك!

نهاية المتقي لله

في الموصل ظهر للخليفة المتقي بالله أن الحمدانيين قد ضجروا منه ورغبوا في أن يتركهم، فأرسل إلى توزون في طلب الصلح والعودة إلى بغداد، فاستقبل توزون وفد الخليفة بالإجلال والإكرام، وبذل الأيمان والعهود بالسمع والطاعة له وبالإكرام والاحترام له ولمن معه، وتوثقت هذه العهود أمام القضاة والأعيان في بغداد.

كان المتقي قد راسل الإخشيد في مصر يشكو إليه ما انتهى به الحال، فقدم الإخشيد إليه من مصر إلى الرقة، وأظهر من الطاعة والخضوع له ما لا يرى عشر معشاره من أمراء العراق الذين لا يملكون عشر معشار ما يملكه الإخشيد! وعرض عليه مجتهدا أن يأتي معه إلى مصر ويكون في رعايته وتصبح مصر مقر خلافته فأبى المتقي، فاجتهد الإخشيد معه أن يبقى في الرقة ولا يذهب إلى بغداد ولا يأمن لتوزون مهما أدى الأيمان والعهود.

على أن المتقي حين عاد إليه الوفد من عند توزون وأخبره بالصلح والأيمان وشهادة الناس عليها اطمأن إلى هذا، فتحرك من الرقة إلى بغداد (٢٦ المحرم ٣٣٣هـ)، وفي الطريق إلى بغداد أرسل إلى توزون مرة أخرى يجدد الأيمان ويستوثق من العهود فجدد توزون أداءها والالتزام بها، وخرج توزون من بغداد (٢٠ صفر ٣٣٣هـ) فتقابلا في منطقة تسمى السندية، وهناك نزل توزون وقبل الأرض أمام الخليفة ثم قال: «ها أنا قد وفيت بيميني، والطاعة لك»، ثم قبض عليه فسَمَل عينيه، وعاد إلى بغداد والخليفة وأهله أسرى في قبضته[1].

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٨٦، ١٨٧.



وهكذا انتهى عهد الخليفة المتقي لله..

ومن الطرائف ما قاله أبو الحسين بن عياش:

اجتمعت في أيام المتقي إسحاقات كثيرة فانسحقت خلافة بني العباس في أيامه، وانهدمت قبة المنصور الخضراء التي بها كان فخرهم، وعَدَّد فقال:

- كان يكنى أبا إسحاق.
- وكان وزيره القراريطي يكنى بأبي إسحاق.
- وكان قاضيه ابن إسحاق الخرقي.
- وكان محتسبه أبو إسحاق بن بطحاء.
- وكان صاحب شرطته أبو إسحاق بن أحمد بن أمير خراسان.
- وكانت داره القديمة في دار إسحاق بن إبراهيم المصيصي.
- وكانت الدار نفسها دار إسحاق بن كنداج[(١)].

المشرق الملتهب

كانت صورة الصراع القائم في العراق هي ذاتها صورة الصراع القائمة في المشرق بين فارس وطبرستان وخراسان، وإن كان الأمراء في المشرق يتصارعون على مساحات أكبر ومدن أقوى، على النحو التالي:

تحالف ماكان بن كالي مع وشمكير عدوه القديم ضد حلفائه السامانيين، وفي الجانب المقابل تحالف البويهيون مع السامانيين، ونشبت معركة كبيرة (٣٢٩هـ) هُزِم فيها ماكان أمام أبي علي بن محتاج والي السامانيين على خراسان والمتحالف مع البويهيين، وبهذا استولى أبو علي بن محتاج على الري وهرب وشمكير إلى طبرستان، وأخذ ابن محتاج في الاستيلاء على مدن كانت تحت سيطرة وشمكير من قبل كزنكان وأبهر وقزوين وقم وهمذان ونهاوند والدينور وغيرها (٣٣٠هـ)[(٢)].

كان البويهيون يحالفون ابن محتاج ليقينهم بأنه لا يستطيع السيطرة على كل هذه المدن،

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٦/ ٥١.

(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٣٢ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٥٣، ١٥٤، ١٦٦.

وأنهم سيستطيعون في لحظة ما أن يأخذوا لأنفسهم، وقد صحت نظرتهم هذه لا سيما بعد أن توفي الأمير نصر الساماني (٣٣١هـ)، فاضطرب حال السامانيين لبعض الوقت فاستولى الحسن بن بويه على الريِّ، المدينة الفارسية الأهم على حدود طبرستان، وأدخلوها في سلطانهم انتزاعا من السامانيين[١].

وهنا تغيرت خريطة التحالفات مرة أخرى، فما إن استقر حال السامانيين إلا وبدأوا في محاولة استرجاع الري، وفشلت محاولة قادها ابن محتاج (٣٣٣هـ)، وأما وشمكير فقد دخل في طاعة السامانيين فوجهوه لاستعادة جرجان التي انتزعها الحسن بن الفيرزان –وهو ابن عم ماكان بن كالي، وكان من قبل حليفا للسامانيين ثم انقلب عليهم عند موت الأمير نصر الساماني- وقد نجح وشمكير وانتصر على الحسن (صفر ٣٣٣هـ)[٢].

جبهة الثغور في عهود القاهر والراضي والمتقي

في تلك المرحلة كانت الدولة العباسية تموج بالاضطرابات والفتن في العاصمة وما حولها، وكانت فرصة لا يمكن إفلاتها، فهاجم الروم ملطية (٣٢٢هـ) بجيش ضخم بلغ في بعض التقديرات خمسين ألفا، وحاصروها حصارا محكما ولا يجد أهلها مغيثا حتى أهلكهم الجوع وعجزوا عن المقاومة فاستسلموا (١ جمادى الآخرة ٣٢٢هـ)، فأخذ القائد الرومي عددا كبيرا من الأسرى ثم وضع خيمتين على إحداهما الصليب وأعلن: «من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ليُرَدَّ عليه أهله وماله ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى وله الأمان على نفسه ونبلغه مأمنه» فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التي عليها الصليب طمعا في أهليهم وأموالهم، ثم أطلق الآخرين مع حماية من فرقة عسكرية كما تقتضي شروط التسليم، ثم سار بجيشه فأكمل التخريب والاقتحام فاستولى على سميساط ودمر كل ما استطاع في طريقه، وكان يسرح ويمرح بلا رادع.

على أن البيزنطيين لم يكونوا في حال جيدة، بل هم في صراع داخلي وفي صراع خارجي مع أطراف أخرى كالبلغار والأرمن، وهذا ما جعلهم يرسلون طلبا للهدنة إلى الخليفة الراضي بالله (٣٢٦هـ)، وإن لم يخل من الاستعلاء، فلقد أرسلت نسختان: رومية مكتوبة

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٣٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٥٣، ١٦٧.
(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٣٧، ٣٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٠٢.

بالذهب وعربية مكتوبة بالفضة، مع هدايا ونفائس، ولم يكن أمام الخلافة العباسية إلا أن تستجيب فما لها قوة بالمواجهة ولا رغبة فيها، واستتبع هذا تبادل للأسرى تم (ذي القعدة ٣٢٦هـ) في المنطقة الحدودية بين الدولة الإسلامية والبيزنطية.

وانتهت الهدنة (٣٣٠هـ) بتوغل رومي كبير وصلوا فيه إلى ما قبل حلب وأسروا فيه عددا هائلا من المسلمين بلغ نحو خمسة عشر ألفا، ثم رد عليهم المسلمون بغزوة قادها أمير طرسوس أحدثت توغلا كبيرا في أرض الروم «فقتل وسبى وغنم وعاد سالما وقد أسر عدة من بطارقتهم المشهورين»[١].

وكرر الروم هجومهم على أرزن وميافارقين وأسروا (صفر ٣٣١هـ) ثم أرسل ملك الروم إلى المتقي لله «يطلب منديلا زُعِم أن المسيح مسح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه وأنه في بيعة الرها، وذكر أنه إن أرسل المنديل أطلق عددا كثيرا من أسارى المسلمين فأحضر المتقي لله القضاة والفقهاء واستفتاهم» ثم استقر أمرهم على أن المسلمين الأسرى أولى من المنديل فأرسله إليهم، فأطلق الأسرى.

وهاجم الروم بلدة رأس العين (ربيع الأول ٣٣٢هـ) بجيش ضخم بلغ نحو ثمانين ألفا، فاقتحمها ونهبها، وأشاع القتل والأسر، فدافع عنها قبائل الأعراب القريبة منهم فقاتلوا الروم قتالا عظيما حتى أجبروهم على الانسحاب منها رغم فارق العدد والعدة.

وإلى هنا سينتهي دور الخلافة العباسية في مواجهة الروم، فسيأتي بعد ذلك زمان يتحمل فيه الحمدانيون عبء هذه المواجهة، ثم يأتي السلاجقة ليجددوا عهد الجهاد الكبير بعد اختفائه لعقود طويلة.

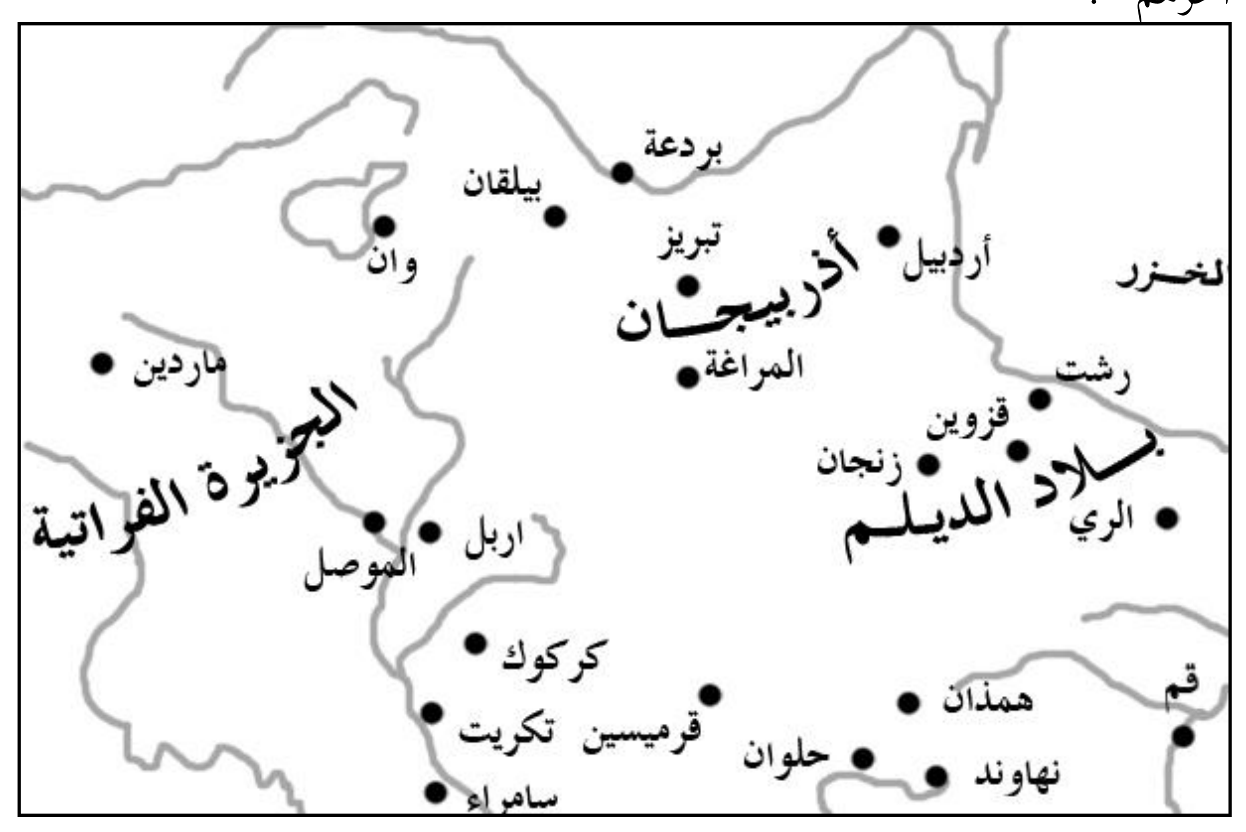
وفي عهد المتقي ظهر في ساحة الأعداء عدو جديد.. أولئك هم الروس!

لقد فوجئ أهل أذربيجان بهجوم هائل قام به الروس على بلدة «بردعة» (٣٣٢هـ)، وهزموا الجيش الذي قاده واليها المرزبان أبشع هزيمة حتى لقد أبادوهم جميعا في وقت قصير وكانوا أكثر من خمسة آلاف، وكان غالب هذا الجيش من الديالمة، واستولوا على بردعة،

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٦٨.

وأحسنوا السيرة في أهلها، وأعلنوا أنهم لن يضطهدوا أحدا لاختلاف دينه وإنما الأمر نزاع على الملك وأن عليهم حسن معاملة الرعية وعلى أهل البلد حسن الطاعة، وصار الروس ينتصرون على الجيوش الإسلامية المتتابعة بسهولة، ولم يقض مضاجع الروس إلا المقاومة الشعبية من العامة، ما دفعهم إلى إعلان أن من بقي في البلدة بعد ثلاثة أيام فقد حلّ دمه، ولما بقي أكثرهم بعد هذه الأيام أوقع بهم الروس مذبحة هائلة وأسروا منهم بضعة عشر ألفا، ومن بقي منهم فرضوا عليه مبلغا لينجو من القتل فأبى أكثر أهلها فقتلهم الروس عن آخرهم[١].



وفيما كان الروس يواجهون أهل بردعة ويقتلونهم كان الوالي الهارب المرزبان يعيد تجميع الجيوش والجنود حتى اجتمع له نحو ثلاثين ألفا، واتجه يقاتل الروس الذين ساروا إلى بلدة «مراغة»، لكن حاله لم يكن أفضل، فما زالت كل معركة تنتهي بنصر الروس فيما صار يشبه القانون الذي لا سبيل إلى كسره، حتى وصفهم ابن مسكويه بقوله: «أمة عظيمة لهم خلق عظام ولهم بأس شديد لا يعرفون الهزيمة ولا يولّي الرجل منهم حتى يقتل أو يقتل»[٢].

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٩٤ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٨٢ وما بعدها.

(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٩٤.

ثم لعل الله اطلع على إخلاص طائفة منهم فأنعم عليهم بتغير الحال؛ ذلك أن الروس أكثروا من أكل الفواكه في مراغة فنزل بهم وباء وكثرت فيهم الأمراض التي قضت على كثير منهم، وفي ذات الوقت كان المرزبان قد يئس من المواجهة الصريحة ففكر في نصب كمين لهم، فوضع خطته في المعركة التالية على أساس أن ينسحب من أمامهم ثم يضع كمينا في مضايق الجبال حتى إذا طاردهم الروس خرج عليهم الكمين من خلفهم وارتد الجيش إليهم من أمامهم فحاصروهم، وقد تمت الخطة بنجاح: واجههم ثم ادعى الهزيمة ثم انسحب فطاردوه حتى جاوزوا موضع الكمين، فلما أراد أن يعيد الجيش إلى الهجوم إذا بالجيش يستمر في هزيمته وانسحابه ويرفض جنوده أن يعودوا إلى المواجهة، يقول المرزبان: «صِحْتُ بالناس ليرجعوا فلم يفعلوا لما تقدم في قلوبهم من هيبة الروس فعلمت أنه إن استمر الناس على الهزيمة قتل الروس أكثرهم ثم عادوا إلى الكمين ففطنوا بهم فقتلوهم عن آخرهم. قال: فرجعت وحدي وتبعني أخي وصاحبي ووطنت نفسي على الشهادة فحينئذ عاد أكثر الديلم استحياء فرجعوا وقاتلناهم ونادينا بالكمين بالعلامة بيننا فخرجوا من ورائهم وصدقناهم القتال فقتلنا منهم خلقا كثيرا منهم أميرهم والتجأ الباقون إلى حصن البلد الذي كان مخزنا للأقوات، ثم وصل إليه مدد من الحمدانيين لم يفعل شيئا كثيرا لنزول الثلج الذي لا يحتمله العرب ولا يجيدون القتال فيه، لكنه كان مددا معنويا كبيرا، ومنذ تلك اللحظة تغير الحال وانقلب ميزان المعركة، واشتد المرض ونزل الموت بالروس، وكان من عادتهم أن يدفنوا سلاح الرجل معه فزاد هذا في تفوق المسلمين، ثم عزموا على الهروب ليلا من الحصون إلى السفن إلى بلادهم، حتى لم يستطع المرزبان أن يطاردهم[1].

موت أبي طاهر القرمطي

في عهد المتقي لله لا نجد نشاطا للقرامطة الذين انتهى حالهم إلى الضعف بعد أزمة الدعي الأصفهاني، على أن أهم ما كان في هذا العهد هو موت زعيمهم أبي طاهر القرمطي (رمضان ٣٣٢هـ) الذي ارتكب من الجرائم ما لم يرتكبه أحد قبله في تاريخ الإسلام، من انتهاك الحرم الشريف ونزع الحجر الأسود وقتل الحجاج في الطريق إلى وفي جوار الكعبة.

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٩٤ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٨٢ وما بعدها.

ولا ريب أن خبر موت القرمطي نزل بردا وسلاما على المسلمين في سائر البلاد..

وكان البريدي قد حاول جذب القرامطة إلى صفه في الصراع الدائر بين الأمراء في العراق، فحين وُلِد لأبي طاهر مولود (٣٣١هـ) أهدى إليه هدايا كثيرة، منها مهد من ذهب مرصع بالجواهر، وجلاله منسوج بالذهب محلى باليواقيت، وغير ذلك[١].

تولى أمر القرامطة بعد وفاة أبي طاهر إخوته أبو العباس وأبو القاسم وأبو يعقوب، وكانوا ذوي اتفاق وانسجام في الرأي، وكذلك وزراؤهم السبعة[٢].

وقد دخلوا في الصراع الدائر بين أمراء العراق بعد أن مات البريدي، وتولى أخوه أبو الحسين أمر البريديين بعده فأساء الحكم فانقلب عليه الجُند حتى هرب إلى القرامطة، فحاولوا إعانته بجيش يرده إلى ملكه غير أنهم فشلوا بعد حصار فاشل للبصرة فسعوا في الصلح بينه وبين ابن أخيه الذي تولى امر البريديين، فتم لهم ذلك فعادوا إلى بلادهم.

❊❊❊

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٣٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٨٤، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٣٦.





المستكفي بالله

(من صفر ٣٣٣هـ حتى خلع في جمادى الآخرة ٣٣٤هـ)

وهو عبد الله بن المكتفي بن المعتضد بن الموفق.

وكان المستكفي مليح الشكل، ربعة، حسن الجسم والوجه، أبيض اللون مشربا حمرة، أقنى الأنف، خفيف العارضين، وكان عمره يوم بويع بالخلافة إحدى وأربعين سنة. وأمه أم ولد اسمها غصن[١].

***

لا ريب أن الحال المأساوي التي وصلت إليها الخلافة انعكست آثارها على أفراد البيت العباسي نفسه، حتى صاروا يستغلون بطش الأمراء وتسلطهم في طلب الخلافة لأنفسهم والتنافس عليها بالحيلة لدى الأمراء المتغلبين على الخلافة، فليت شعري: كيف بلغ الخلفاء أن يطلبوا من جنودهم تنصيبهم متعهدين بالوفاء لهم!

هذا ما حدث في حالة المستكفي بالله، لقد استطاع التواصل عبر امرأة سيئة الأخلاق والعلاقات إلى واحد من قيادات توزون التركي فترة اضطراب علاقته مع المتقي بالله، وضمن لهم الأمان لأنفسهم ألا يأخذهم بثأر أحد آذوه من بيت الخلفاء، بل وعرض عليهم استخراج ثمانمائة ألف دينار من أموال بيت الخلافة وكنوزهم، ووعد أن تكون منها مائة ألف لتوزون، فهكذا استقر الأمر بينه وبين توزون، فسعى في البيعة له، فتمت البيعة للمستكفي (صفر ٣٣٣هـ) وكان أول ما فعله هو أن طارد الفضل بن المقتدر لما يعلم عنه من السعي في طلب الخلافة ومنافسته عليها، فاختفى هذا الأخير، فهدم المستكفي داره المطلة على نهر دجلة[٢].

---

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٣٤٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٨٧، ١٨٨.

وأما المرأة التي كانت طريقه في الوصول إلى الخلافة فقد صارت القهرمانة الخاصة بالمستكفي، واتسع نفوذها في عهده، وتولت شؤون البحث عن الأموال والكنوز الخاصة ببيت الخلافة لا سيما المتقي حتى ظفرت بأكثرها وكانت تأخذ ما تشاء لنفسها، ثم زاد الأمر حتى كانت تداهم بيوت التجار والأغنياء فتصادر ما تشاء من المال بحجة الشبهة، وأخيرا صارت تأخذ ما تشاء ممن تشاء بلا حجة ولا شبهة.. وهذه المرأة ستكون فيما بعد سببا في زوال ملكه!

قدم أبو الحسين البريدي –أخو أبي عبد الله البريدي– إلى بغداد (ربيع الآخر ٣٣٣هـ) يحاول التحالف مع توزون ضد ابن أخيه أبي القاسم الذي تزعم البريديين بعد أن انقلب عليه، وكان ثمة تحالف قد فشل من قبل مع القرامطة ذكرناه في عهد المتقي، فوعده توزون بالإعانة والتحالف، غير أن أبا القاسم في البصرة سارع بإرسال الأموال إلى بغداد ومعلنا التبعية لتوزون والخليفة، ففشلت خطة أبي الحسين هذه، فانتقل ليدبر أمرا آخر؛ لقد سعى في الإطاحة بوزير توزون ابن شيرزاد ليتولى هو الوزارة مكانه، ولكن الأخير اكتشف هذا السعي فقتله (ذي الحجة ٣٣٣هـ).

وخلال هذا العام (٣٣٣هـ) أوشكت حربان أن تقعا؛ الأولى: حين أَخَّر ناصر الدولة الحمداني دفع الأموال المقررة عليه وأضاف إلى ذلك استعانته ببعض الجنود الفارين من توزون على غير الاتفاق المبرم بينهما قبل هذا، فخرج جيش توزون (رجب ٣٣٣هـ) إلى الموصل، لكن ناصر الدولة عاد فطلب الصلح وتعهد بدفع الأموال فاستقر الأمر على ذلك، والثانية: حين هاجم أحمد بن بويه مدينة واسط في ذات الوقت الذي خرج فيه توزون إلى ابن حمدان (رجب ٣٣٣هـ)، فتحرك جيش توزون إلى حربه غير أن ابن بويه انسحب من أمامهم دون قتال (رمضان ٣٣٣هـ).

وحين بدا أن الأمور قد استقرت في العراق، وأن الجميع قد خضع لتوزون، وأن أمراء الأطراف بين قوي قد مات كالبريدي والقرمطي أو أمير قد خضع كابن البريدي وابن حمدان.. حين ذلك تغيرت الخريطة مرة أخرى.. لقد مات توزون (المحرم ٣٣٤هـ) وكان خلف الأفق عهد جديد تدخله الخلافة العباسية والتاريخ الإسلامي كله!

* * *





نظرة على عصر سيطرة الترك

إذا حاولنا صناعة رسم بياني لخريطة انحراف الأمة عن سلفها الصالح وعن عصرها الذهبي فسيأتي عصر سيطرة الترك كإحدى النقاط المهمة في هذا الانحراف، ذلك أنه أسس لبدايات جديدة ستظل تتطور وتفترق حتى تصل إلى مراحل خطيرة تترك تأثيرها حتى لحظة كتابة هذه السطور!

بداية الحكم العسكري

حين نتتبع المسار التاريخي لانحراف الأمة عن الحكم الرشيد الذي مثله العصر النبوي والخلافة الراشدة سنضع أيدينا حتما على هذه المحطات:

١- ظهور المذهب الشيعي الذي يرى بأن الخلافة «حق» لعلي ﵁ وآل البيت من بعده، وليست اختيارا حرا ترضاه الأمة فهي التي تنصب الخليفة وهي التي تعزله إن رأت منه اعوجاجا.

٢- ظهور أول خليفة يحكم بالتغلب، وهو عبد الملك بن مروان، حيث بايعته الأمة بعد أن استطاع أن يوحد البلاد بالغلبة ويهزم عبد الله بن الزبير في مكة.

٣- اعتقاد الأمويين أنهم أهل لهذه الخلافة بقدر الله وبها أثبتوا واقعيا أنهم الفئة الأقوى والأشد شوكة فيها، والأقدر على حكمها وإعادة مجدها.

٤- قيام الدولة العباسية على الفكرة الشيعية التي تقول بأن الخلافة حق موروث، فتسمى صاحب الدعوة ثم الخليفة بلفظ «الإمام» بما له من مدلولات دينية، ثم السجال العباسي العلوي[1] حول الأحقية «الدينية» بالخلافة، مما جعل منصب الخلافة وإن كان يُحَصَّل

(١) وبطبيعة الحال لم يكن السجال محصورا بين العباسيين والعلويين وحدهم، بل إن أمر الحكم كان واحدا من أهم الخلافات في الفكر الإسلامي، وهو سجال كان مجاله في الكتب ثم في السيوف، وهذا قرمطي وقف أمام المعتضد أسيرا فقال له: «أخبرني هل تزعمون أن روح الله تحل في أجسادكم؟ فقال له القرمطي: يا هذا إن حلت روح الله فينا فما يضرك؟ وإن حلت روح إبليس فما ينفعك؟ فلا تسأل عمّا لا=

بالشورى نظريا إلا أنه محكوم أيضا باختيار من داخل البيت العباسي (من وجهة نظر العباسيين) أو من داخل البيت العلوي (من وجهة نظر العلويين).

٥- وبالتداخل مع عوامل أخرى -من بينها الاحتكاك الحضاري بالأعاجم، وسيأتي الحديث عنه بعد قليل- ظهر الخليفة الضعيف الذي يحظى بهالة التعظيم والاحترام لكونه من البيت النبوي، لكنه ليس أهلا للخلافة، وتوافق هذا مع وجود طبقة عسكرية من الترك، وهم بالنسبة إلى العجم كالأعراب بالنسبة إلى العرب؛ قوم محاربون بلا حضارة، ففتح ضعف الخلافة الباب أمامهم لتأسيس أول حكم عسكري في تاريخ المسلمين.

ونحن إذ نتحدث الآن بعد أكثر من اثني عشر قرنا من تلك اللحظة التاريخية، فإنما يعني هذا أن التجربة الإنسانية من الحكم العسكري قد صارت في حكم الحقيقة التاريخية، ذلك أن اجتماع القوة والسلطة في يد طرف من الأطراف هو باب الاستبداد والفساد والإفساد.

ولذلك يكون الحكم العسكري بداية انهيار الأمة حضاريا ثم عسكريا، ومؤسسا لاستبداد عنيف يعاني منه الجميع، ثم تكون النهاية في العموم هو الاحتلال الأجنبي لهذه الأمة؛ احتلال يستغل ضعفها العسكري أولا ثم ضعفها الحضاري وضعف مقاومتها للاستبداد، وعند هذه النقطة تذوق الأمة ويلات الاحتلال التي أفرزتها ويلات الاستبداد حتى يخرج منها جيل جديد يستلهم أصوله ويبني حركة المقاومة والجهاد التي تكون بداية النصر وإعادة التأسيس من جديد بعد تضحيات عظيمة وهائلة.

والترك كانوا أحد هذه الأمثلة..

لقد بدأوا كجنود محترفين في ظل الدولة فأنقذوها من الانهيار العسكري بعد تسرب الضعف إلى العنصر العربي والفارسي منذ عهد المأمون، واستطاعوا بالفعل إعطاء

=يعنيك وسل عما يخصك. فقال: ما تقول فيما يخصني؟ فقال: أقول إن النبي ﷺ مات وأبوكم العباس حيّ فهل طلب الخلافة؟ أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك؟ ثم مات أبو بكر واستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه. ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس ولم يوص إلى العباس ولا أدخله فيهم، فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها؟». العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٦٥ . ومثل هذا قاله الخوارج على اختلاف طوائفهم والشيعة على اختلاف فرقهم، فقد كان سجالا شمل جميع الأطياف الإسلامية.

دفعة جديدة وهائلة لحركة الجهاد، سواء جهاد الروم في الشمال الغربي أو الأرمن في الشمال أو الهنود والصينيين والأتراك فيما وراء النهر، وسطروا في هذه الصفحات تراثا بطوليا رائعا!

لكنهم ما إن خرجوا من حيز الجندية المحترفة وصاروا من رجال السلطة حتى تراجعت قوة الدولة كلها، فضعفت الخلافة وازدادت الاستقلالات في الأطراف وابتدأ الاضطراب في مواقع السلطة بعزل الخلفاء وقتلهم، وما كان الإصلاح يسيرا فإن الأتراك –وهم الذين لم يحتمل أهل بغداد وجودهم لما فيهم من طبع البداوة– كانوا أبعد الناس بحكم تنشئتهم العسكرية عن التفكير في سبيل غير القوة لحل المشكلات.

وطوال عصر سيطرة العسكر لم تعتدل أحوال الخلافة إلا حين ظهر القائد العربي القوي الذي له من الشرعية –وهي في ذلك الوقت: النسب العباسي– ما يجعل أحدا من العسكر الترك لا يجرؤ على منازعته ولا منافسته، وله من القوة العسكرية والبطولة في الحرب والقتال ما يجعله مهابا قويا في عيونهم ونفوسهم فخضع له العسكر الأتراك، فذلك هو الموفق بالله، وكذلك كان الحال في عصر ولده المعتضد، ثم عصر حفيده المكتفي!

فإذا خفتت هذه البطولة العسكرية في عهد المقتدر، عاد الصراع مرة أخرى بين الجناح المدني المتمثل في الخليفة والوزراء وبين الجناح العسكري المتمثل في العسكر الأتراك وقائدهم مؤنس وبعض القادة الآخرين، وصحيح أن مؤنسا كان يفهم ضرورة الشرعية وأنه انزعج لمقتل المقتدر إلا أنه كان وحيدا في إدراك هذا المعنى.. وهكذا، عاد الضعف إلى الخلافة والجناح المدني فعاد انهيار الدولة من جديد وواصلت الأيام سيرتها حتى أسلمها الحكم العسكري التركي إلى الاحتلال العسكري البويهي.

إن إصلاح الدولة العسكرية هو واحد من أصعب الأمور وأكثرها كلفة بالنسبة للشعوب، ونادرا ما استطاع شعب أن يتخلص من حكم عسكري قبل أن يصل إلى مرحلة الاحتلال الأجنبي، وهو إن استطاع هذا فبتضحيات عظيمة!

وحتى لحظة كتابة هذه السطور ما تزال دراسات العلاقات المدنية العسكرية تؤكد

ضرورة خضوع القوة العسكرية للسلطة المدنية ذات الشرعية[١].

إن طابع الإسلام المدني في الحكم والسياسة ظاهر بوضوح، ومن المؤسف أن يكون هذا جليا لمستشرق مثل جوستاف جرونيباوم -لدينا على إنتاجه ملاحظات وتحفظات- في الوقت الذي لا يكون ظاهرا لبعض أبناء الأمة الإسلامية[٢]، وقد رأينا أن ننقل من كلامه هذه الفقرة؛ قال بعد حديث عن الجهاد والشهادة في نظر المسلمين:

«ومع ذلك فإن الحضارة الإسلامية حضارة مدنية، فإن أَضْرُبًا[٣] مدنية من صور التطور الإنساني كالعالِم والولي والأديب قد اجتذبت إليها معظم طاقة الإسلام الخلاقة، والمدني يعلو على الجندي في ترتيب الطبقات الاجتماعي، والمفروض أن للوزير -وهو موظف مدني- حق الأسبقية على القائد، يدلك على ذلك أن ما عُقِد من الأبحاث على نظرية الحكم يبحث منصب الوزارة قبل إمارة الحرب، وكثيرا ما تولى الجند -بوصفهم طائفة- حكم الدولة الإسلامية، ولكن هذه السيادة الواقعية (غير الشرعية) لم تغير بأي حال «الإجماع» المنعقد على أن رئاسة الدولة وظيفة مدنية... ومهما يُكْثر الخلفاء من تولي الإمرة على جنده بشخصه، ومهما يكثر الشعراء من التغني بشجاعته، فإنه لم يكن إلا موظفا مدنيا أولا، وجنديا حين تلم المُلِمَّات. وصور الإنسانية المثالية التي هي من خواص الحضارة الإسلامية إنما تتمثل شخصية غير عسكرية وإن واصل القوم استحسان الفضائل العسكرية»[٤].

بداية سلطان العجم

وكان عصر سيطرة الترك فاتحة لسابقة جديدة في التاريخ الإسلامي، وهو سلطان العجم

---

(١) ولمزيد من إلقاء الضوء على هذا الموضوع المهم، وضعنا في الملحقات مقالا مبسطًا يتحدث عن طبيعة النظم العسكرية.

(٢) أكتب هذه السطور في فترة ما بعد ثورة الخامس والعشرين يناير في مصر، حيث يظلل الساحة صراع ضخم بين الإسلاميين والعلمانيين، وقد أبدى العلمانيون حالة غريبة عجيبة من الجهل بالإسلام وتاريخه وحضارته، ووضعوه وجها لوجه مع «المدنية» التي تناقض «الدينية/ الإسلامية»، وبعدما كان مفهوم «مدنية» هو المناقض لـ «عسكرية» إذا بهم يجعلونه ضد «الدينية» ويتحالفون مع العسكر، ويحرضونه على البقاء في السلطة وإعادة الاستبداد خشية من أن تأتي الانتخابات النزيهة بالإسلاميين!

(٣) أضربا: أي أنواعا.

(٤) جوستاف جرونيباوم: حضارة الإسلام ص٣٠٤، ٣٠٥.

على العرب.. ولهذا مسار آخر، وقصة أخرى هذا موجزها[1]:

١- لقد كانت بداوة العرب من أسرار نزول الرسالة عليهم، فهم القوم الذين لم يتلوثوا بعد بالعبودية لحاكم أو الخضوع لآداب امبراطورية تجعل منهم شعبا قابلا للمذلة، بل كانت بداوتهم تجعلهم أقرب إلى الفطرة؛ فنفوسهم تحمل الكرامة والعزة والأنفة ولا تقبل الذل لأحد، وعقولهم كانت تعيش الحياة ببساطتها ونقاوتها فلم تذهب في مضارب الفلسفات والأساطير، وأجسادهم تكتفي من الحياة بالضرورة ولم تتشرب الملذات والشهوات والكماليات كما هو الحال في الامبراطوريات والممالك.. كل هذا جعل العرب أقرب إلى الفطرة وأنسب لنزول الرسالة.

٢- إن أسوأ ما في الامبراطوريات أنها تسلب من شعوبها العزة والأنفة والكبرياء، وقد أفرد ابن خلدون فصلا في هذا المعنى «أن معاناة أهل الحضر للأحكام (السلطانية) مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم»، ولهذا تجد التفرقة القرآنية الدقيقة بين «الشعوب والقبائل» في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ إذ قال المفسرون: «الشعوب للعجم، والقبائل للعرب».. ومن هنا جاء فيما بعد اسم «الشعوبية» للحركات التي تناصب العرب العداء.

٣- ونظرة بسيطة إلى ما وصل إليه الحال في امبراطوريات العالم القديم تجعلنا لا نتردد في الحكم بأن هذه الشعوب قد خربت من كثرة ما نزل بها من استبداد وذل حتى لا يمكن أن تصلح لنزول الرسالة عليها؛ ففي فارس كان الأكاسرة يحكمون بالحق الإلهي وبالدماء المقدسة التي تجري في عروقهم فكانت تُقدَّم لهم القرابين، ثم إن الشعب منقسم بعنف إلى طبقات بحسب المهن والحرف، ولم يبعد الرومان عن هذا فالمجتمع منقسم إلى سادة وعبيد بل إن العبودية فلسفة أصَّل لها أفلاطون في الفلسفة اليونانية وكان الأباطرة يحكمون الأقوام بالحديد والنار، كذلك شهدت الهند أبشع نظام فصل عنصري طبقي يجعل الناس أربعة طبقات: نخبة وجنود وعمال وعبيد

---

(١) ونأمل من القارئ قراءة هذا المسار وقد استحضر في ذهنه مسار العنصر السابق: الانحراف عن الحكم الرشيد.

والتفكير في أن يتطلع أحد أفراد طبقة ما إلى التي فوقه جزاؤه العذاب الأليم المهين.

٤- وعندما نزل الإسلام على العرب لم يحاول نسف القبلية وما بها من الاعتزاز والأنفة، وإنما كان الاهتمام على محاربة «التعصب للقبيلة بالحق والباطل» ولكنه استعمل محامد القبيلة في بناء الدولة، وفي مقاومة الظلم «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، وفي الدفاع عن الأمة فكان الجيش الإسلامي حتى عصر الفتوح يقاتل في كتائب تمثل القبائل، وفي التعاضد على الخير **«لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت»**.. وليس المقام للتفصيل.

٥- وكان من معجزات الشريعة الإسلامية أنها صنعت نظاما يضع الأمة فوق السلطة، ويجعل الناس فوق الحاكم، ويجعل الحاكم وكيلا عنهم لا سيدا عليهم، لهم أن ينصبوه ويعزلوه، وليس له أن يقتحم بيوتهم أو يفتش في أسرارهم أو يقمع أفكارهم مهما خالفت رأيه أو كانت ضده، وللأمة أن تبني وتصنع حضارتها دون انتظار أو استئذان من الحاكم، وله عليهم الطاعة ما استقام لهم، فإن لم يفعل كان لهم أن يستبدلوا به غيره. وقد كان عصر النبي ﷺ ثم عصر الخلافة الراشدة التمثيل العملي للإسلام على هذا السبيل، فكان الخلفاء الراشدون خير أئمة لخير أمة في خير القرون.

٦- بدأ الانحراف بسيطا كالعادة، وقد كانت بدايته حين بدأ الثوب الإسلامي يخرج من الصبغة العربية التي أنشأها الإسلام من البداوة النقية إلى الوحي الطاهر، وذلك حين بدأ الاحتكاك بالتيارات الحضارية القديمة، فلقد انزعج عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين رأى معاوية يركب في موكب وله حاجب على بابه، غير أن معاوية اعتذر له بأنه «ببلاد كثر بها جواسيس العدو، فإن لم نتخذ العُدة والعدد، استخف بنا، وهجم علينا! وأما الحجاب، فإننا نخاف من الابتذال وجرأة الرعية».. والشاهد هو قوله «جرأة الرعية» فتلك الرعية هي التي اعتادت أن يكون ملوكها في مواكب وحراسات ودون الوصول إليهم أبواب وحُجَّاب وإلا سقط من نظرهم هيبة الوالي، وهو الأمر الذي لم يكن بالوسع تجاهله فأقره عُمَر وإن كان لم يفصل فيه برأي فقال له: «لا آمرك ولا أنهاك».

٧- وحين سار الزمن وانتقلت العاصمة الإسلامية إلى الكوفة القريبة من فارس وحضارتها وتراثها الساساني كانت التربة خصبة للقبول بفكرة التشيع لعلي وآل البيت واستنبات فكرة العصمة والحق في الولاية بالوصية الإلهية والحق الموروث، وهو ما يخالف صحيح الإسلام الذي يجعل الحاكم وكيلا عن الأمة لا واليا عليها، يستمد شرعيته من اختيارها له لا بوصية إلهية أو بحق ديني.

٨- وفي عام الجماعة انتقلت العاصمة الإسلامية إلى دمشق -ذي التراث الروماني والفلسفة اليونانية- وابتعدت الدولة الإسلامية أكثر عن النقاوة العربية البدوية، وأحب أهل الشام -العرب الذين استقروا هناك والذين أسلموا- معاويةَ وأسرته الأموية حبا كبيرا وتعلقوا به تعلقا جما، وصاروا عماد دولتهم، ولا ريب في أن تعلقهم هذا كان أحد عوامل تفكير معاوية ﷺ في البيعة لولده لمصلحة الأمة في ألا تقتتل من بعده، وقد سانده أهل الشام في هذا الاختيار وكانوا أسبق الناس لبيعة يزيد، وهو الأمر الذي انزعج له المعارضون في مكة والمدينة ورأوا أنها «سنة كسرى وقيصر»! وليس المقام الآن مقام تحليل هذا القرار ومدى صوابه من خطئه، بل متابعة تأثير الاحتكاك الحضاري على انحراف المسيرة الإسلامية.

٩- وحين استطاع الأمويون بما لهم من شوكة وإصرار وصبر استعادة وحدة البلاد الإسلامية بعد أن انهارت الدولة الأموية الأولى بعد تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة واختلاف الناس على مروان بن الحكم، حين استطاعوا استعادة البلاد مرة أخرى على يد مروان وابنه عبد الملك ثبت عمليا لهم ولغيرهم أنهم الأقدر على حكم البلاد، رأوا أن هذا حق لهم بشرعية الواقع، واستمر العهد بالخلافة في عصر الأمويين يعهد الخليفة السابق إلى اللاحق حتى انهارت الدولة وغربت شمسها.

١٠- على أن الدولة الأموية ظلت من مبدأ أمرها حتى منتهاه دولة عربية، فلم يكن فيها بلاط ملكي أو آداب سلطانية، ولم يبن خلفاؤها مدنا ملكية، ولم يكن أحدهم يقبل أيديهم أو أقدامهم أو الأرض أمامهم، ولم يكن أحد ملزما بمخاطبتهم بـ«سيدي» أو «مولاي» أو ما شابه، ولم يكونوا هم يخاطبون الناس أو الولاة بمثل هذا!

١١- كل هذا تغير على يد الدولة العباسية التي قامت على أكتاف ثورة نشأت في خراسان، وكان رجالها من الخراسانيين الذين تشيعوا لآل البيت وآمنوا بحقهم في الإمامة دينًا، لذا فقد كانت الطبقة التي تدير الخلافة العباسية من الذين استقر فيهم إنزال الخلفاء منزلة كسرى فارس، وكان التشيع أسهل انتشارا في هذه المناطق وهذه النفوس.

١٢- لقد أعادت الحاشية إنتاج البلاط الفارسي الكسروي بما فيه من آداب سلطانية (بروتوكول) ومظاهر فخامة وتعظيم وخضوع للخلفاء، وقد تم هذا عمليا لأن كثيرا من البلاط العباسي كان من ذوي الأصول الفارسية الذين بلغوا ذروتهم مع الأسرة البرمكية في عهد الرشيد وآل سهل في عهد المأمون، ثم عُضِّد هذا الإنتاج العملي بالتأصيل النظري عن طريقين؛ الأول: الكُتَّاب والمفكرين ذوي الأصول الفارسية من أمثال ابن المقفع والجهشياري الذين كتبوا وترجموا الأدب السلطاني الفارسي، والثاني: الترجمات عن الفلسفات القديمة اليونانية والرومانية والهندية وغيرها والتي بلغت ذروتها في عهد المأمون، فتلك أيضا نقلت التراث القيصري إلى البلاط العباسي بما تسبغه من عظمة وفخامة على القيصر!

١٣- في تلك الفترة نشأ التعامل مع الحكام باعتبارهم «قضاء وقدر»، وأسرف البلاط في مظاهر الجلالة والمهابة والزينة، ونشأت آداب تقبيل اليد والخطاب بالمولى والسيد، وبدأت كذلك بذور الفقه الذي يرى أن هذا من ضرورات الدولة لاستقرارها والتمكين لهيبة خلفائها، وهو الأمر الذي لم يحاول أحد أن يؤسس له في عصر الخلافة الراشدة.

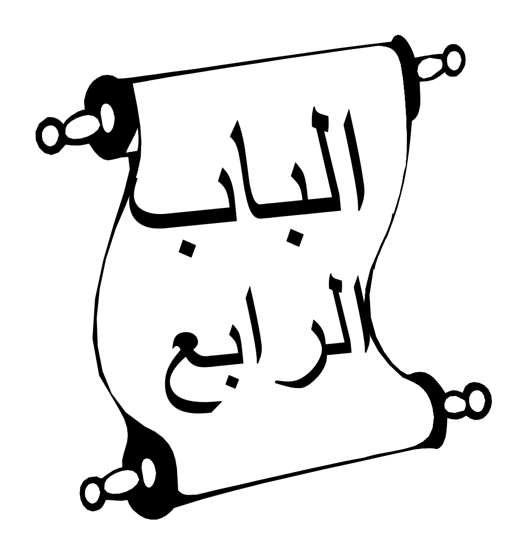
هكذا كان الاحتكاك بالأعاجم وتأثيرهم سببا في انحراف المسيرة الحضارية عن طبيعتها الأولى، ونشوء السلطان والمظاهر السلطانية، ولذا نجد سعيا متكررا من الفرس لنصرة ذا العرق الفارسي كالمأمون على الأمين، ومحاولة نصرة أبي العباس بن المأمون على عمه المعتصم بالله، وهي المحاولة التي كانت بداية إقصاء الفرس والتمكين للأتراك..

وعلى كل حال، فلم تظهر في عصر الترك آثار سلطان العجم بل كان عصرهم عصر

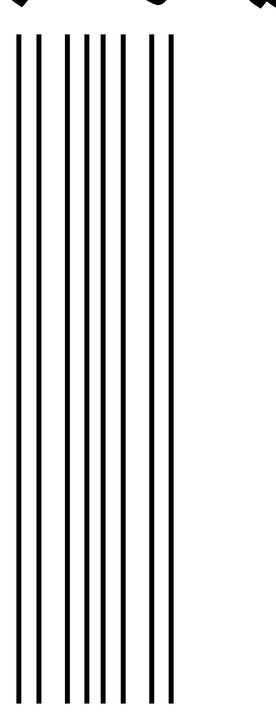
البداية والتأسيس ثم سنجد آثار هذا واضحة في العهود التالية: البويهيين والسلاجقة والزنكيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين!

ومن المثير للأسى أن كل هؤلاء جمعوا بين كونهم: عسكريين، وعجما! وكل هؤلاء كان لهم إنجازاتهم الرائعة الخالدة طالما وجهوا طاقتهم للجهاد ومقاومة العدو، ولكن الدول التي أسسوها لم تخرج عن قاعدة الدولة العسكرية التي تبدأ بالنهضة ثم تسوق الأمة نحو الضعف والاستبداد حتى تنتهي على يد الاحتلال! وهو ما يكون ويتحقق بعد ذهاب القادة العظماء الذين يحملون رسالة التحرير والتعمير ثم يخلفهم من لم يرث منهم غير الطابع العسكري فيهدم ما بناه أجداده!

***



عصر سيطرة البويهيين







الباب الرابع: عصر سيطرة البويهيين

دخلت الدولة العباسية عهدا جديدا..

هذه المرة تأسس حكم عائلي وراثي لا في المشرق ولا في المغرب، بل في بغداد ذاتها، قلب الخلافة العباسية وعاصمتها، وصار الخلفاء في هذه الحقبة بلا رأي ولا تأثير وأسوأ مما كان حالهم في الفترة الأخيرة من عصر سيطرة الترك، وربما كانت المزية الوحيدة في هذا العصر أنهم أمنوا على أرواحهم وطالت مدة خلافتهم، وذلك إنما لأنهم كانوا خارج المعادلة تماما، لا أحد يهتم لهم ولا أحد يهتم بهم، ولا هم قادرون على تسكين متحرك أو تحريك ساكن، ولا هم حاولوا استعادة أمجاد آبائهم الغابرين، وإن كان الإنصاف يحتم علينا ألا نحملهم كل المسؤولية وألا نقارنهم بالخلفاء في عصر سيطرة الأتراك، فأولئك كانوا يحاولون استعادة عصر الخلفاء الأقوياء، بينما هؤلاء لم يروا في حياتهم غير الخلفاء الضعفاء فكانوا أهون حالا وأقل طموحا وخيالا.

ومما يعين على فهم أزمة الخلافة تحت ظل البويهيين، استدعاء المقارنة بينهم وبين الأتراك، فلقد قدم الأتراك على الخلافة وخدموها في إبان قوتها في عهد المأمون ثم المعتصم ثم هم بعدئذ قد استطاعوا السيطرة عليها وعلى خلفائها، فكيف بالبويهيين الذين جاءوا والخلافة تحتضر والخلفاء أشباح والدولة في أشد حالات التفكك[1]؟!

وانحسرت المساحة التي يسودها نفوذ الخلافة حتى لم تعد تتجاوز العراق وبعض مناطق الشام، فيما كانت سائر المناطق الأخرى تحت السيطرة الكاملة إما لدول تعلن خروجها عن الخلافة علنا كما هو الحال في الدولة العبيدية (الفاطمية) في مصر والمغرب أو تعلن الولاء لها اسميا فحسب.. ولهذا نجد البحث في تاريخ هذه الفترة منحسرا في منطقة العراق والشام لا غير!

---

(١) د. وفاء محمد علي: الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين ص٣٦، ٣٧. وهي تنقل عن: محمد حلمي: الخلافة والدولة في العصر العباسي.

كما يضطرنا البحث –كما سبق هذا في تبيين منهجنا في هذا الكتاب– إلى أن نستبعد الحديث عن الخليفة وعن علاقته بالبويهيين لأنه لم يكن مؤثرا في سير الأحداث.. مع إفراد مبحث للحديث عن هذا الموضوع في نهاية هذا الباب إن شاء الله.

وهؤلاء هم خلفاء هذا العصر:

- أبو القاسم الفضل المطيع لله.
- أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله.
- أبو العباس أحمد القادر بالله.
- أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله.

❊ ❊ ❊



تمهيد

رغم أن بويه كان صيادا فقيرا إلا أن أبناءه الثلاثة أدخلوه التاريخ من أوسع أبوابه، فلقد أقاموا دولة نسبت إليه، ثم إنها قامت في بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وهي الجزء الذي لا يمكن تجاوزه في تاريخ الإسلام بل وتاريخ الإنسانية، ثم إنهم سيطروا على الخلفاء حتى صاروا هم الحاكمين على الحقيقة..

فيا سبحان الله!

من كان يدري أن ذلك الصياد الفقير السائر يبحث عن قوته لأولاده اليتامي على ضفاف بحر قزوين سيكون واسع الذكر بالغ الأثر إلى هذا الحد.. وكم في عالمنا الآن رجال مثله يرعون أطفالهم ولا يدرون ولا يدري أحد أنهم سيدخلون التاريخ بعد قليل!

أصل البويهيين

البويهيون من أصل ديلمي، وبلاد الديلم هي الجزء الجنوبي الغربي لبحر قزوين أو بحر الخزر، وهي تجاور طبرستان التي تقع في الجزء الجنوبي الغربي لبحر قزوين، وبلاد الديلم يطلق عليها بلاد الديلم والجِيَل لأنها تحتوي على عرقين: الديلمي والجيلي.

وقد اتصف أولئك القوم بالقوة وحب القتال والاستقلال، ولم يستطع حكام إيران في العصور القديمة إخضاع هذا الشعب بشكل عام وفعال، حتى إن الدولة الساسانية قد وجدت من الضروري الاحتفاظ بحصون على الحدود هي خطط دفاعية ضد غاراته(١).

ويصف الاصطخري بلادهم وطباعهم بقوله: «(أرضهم) سهل وجبل، أما السهل فهم الجِيَل، وهم مفترشون على شط البحر تحت جبال الديلم، وأما الجبل فللديلم المحض، وهي جبال منيعة... ومواضعهم كثيرة الأشجار والغياض، وأكثر ذلك للجيل في الوجه الذي

---

(١) د. سهيل زكار: عصر ابن سينا السياسي، مجلة التراث العربي، دمشق، عدد (٥، ٦)، يونيو ١٩٨٢م.

يقابل البحر وطبرستان، وقراهم مفترشة، وهو أقل زرع وسوائم، وليس عندهم من الدواب ما يستقلون بها، ولسانهم مفرد غير العربية والفارسية، وفي بعض الجيل -فيما بلغني- طائفة منهم يخالفون بلسانهم لسان الجيل والديلم، والغالب على خِلْقَة الديلم النحافة وخفة الشعر والعجلة وقلة المبالاة (الجرأة)»[1].

وقد ذكرنا في ثنايا استعراضنا لتاريخ الخلافة العباسية تطورات الأحوال في الشرق ومنها طبرستان، بشكل أكثر تفصيلا وإن كان مفرقا، لذا نعيد ربط حوادثه بإيجاز شديد لمجرد تذكير القارئ بسياق تطور الأحداث.

وتبدأ قصة التمرد على الخلافة العباسية في تلك البلاد منذ عهد الطاهريين في خراسان، وقد أسلموا قيادهم للحسن بن زيد العلوي الذي أسس الدولة الزيدية في طبرستان، فكانت تلك هي فترة ترسيخ الإسلام (على المذهب الشيعي الزيدي) في تلك المنطقة، ثم خلفه أخوه محمد بن زيد الذي قُتل في أواخر عهد المعتضد فانتهت به الدولة الزيدية الأولى، ثم جاء علوي آخر هو الحسن الأطروش فجدد الدولة الزيدية وكان داعية نشر المذهب وأدخل الكثيرين في الإسلام ثم زعيم دولة يتبعه الناس، وبعد أن مات الأطروش ومن خلفه تجددت الصراعات بين رجال دولته والمنشقين عليهم حتى ذهبت الدولة وتوزعت وصارت منطقة تنازع بين السامانيين ومرداويج ثم البويهيين فيما بعد.

البويهيون في بغداد

حين مات توزون فكر وزيره ابن شيرزاد في البيعة لناصر الدولة الحمداني ليكون أميرا للأمراء، غير أن الجنود احتجوا ورفضوا وطالبوه هو أن يكون خليفة توزون، وهكذا تولى الأمر من لا يثق هو نفسه في قدرته على الولاية!

ولكي يكسب ولاء الجند، سعى ابن شيرزاد في جلب الأموال، فطلب من ناصر الدولة أموالا ووعده بأن يتنازل له عن منصب أمير الأمراء، فأرسل له خمسين ألف درهم فلم تكف حاجته، فسعى في فرض الضرائب ومصادرة التجار لتوفير الأموال، فأسخط الناس عليه ولم يبلغ أيضا إرضاء أتباعه، بل كان أحد أتباعه السبب في ضياع نفوذه، ذلك هو ينال كوشة

(١) الاصطخري: المسالك والممالك ص٢٠٤، ٢٠٥.



الذي لم يكفه أن تولى على واسط، بل كاتَبَ أحمد بن بويه وانحاز إليه!

لذا، فما إن جاء أحمد بن بويه بجيوشه قاصدا بغداد ذاتها، إلا وكانت بغداد على وشك الانهيار، حتى لقد هرب ابن شيرزاد والخليفة المستكفي من بغداد، وأرسل الخليفة إليه الهدايا وأبلغه أن اختفاءه إنما هو خوفا من الجنود الأتراك وأنه يرحب به أميرا للأمراء!

دخل أحمد بن بويه بغداد (١١ جمادى الأولى ٣٣٤هـ) فظهر الخليفة، ودخل عليه أحمد فبايعه، ومنحه الخليفة لقب «معز الدولة» كما منح أخويه علي بن بويه لقب «عماد الدولة» والحسن بن بويه لقب «ركن الدولة»، ونقشت ألقابهم على العملة بجانب اسم الخليفة، ثم ظهر ابن شيرزاد بعد أن أَمَّنه معز الدولة فعينه كاتبا له على الخراج، وقرر معز الدولة أن تكون ميزانية الخليفة خمسة آلاف درهم في اليوم.

كان عماد الدولة علي بن بويه هو كبير البويهيين، ويخضع له أخواه خضوعا كبيرا، حتى إن معز الدولة أحمد بن بويه كان لا يجلس في حضرته بل يظل واقفا، فكان عماد الدولة هو صاحب لقب «أمير الأمراء»، وكان يقول عن أخويه الحسن «ركن الدولة» وأحمد «معز الدولة» أنهما «أخواى بالنسب وابناي بالتربية وصنيعتاى بالولايات»[(١)] وكان أخواه يريان أنفسهما ولاته في البلاد، وإن تمتع كل منهما في ولايته باستقلال ذاتي.

البويهيون وخلافة العباسيين

حيث كان البويهيون على المذهب الشيعي، فهم يرون الخلافة حقا لآل علي رضي الله عنه ولهذا تشير بعض الروايات إلى أن معز الدولة فَكَّر في إزالة الخلافة عن العباسيين وإرجاعها للعلويين، ولم يكن من العلويين آنذاك إلا العبيديين (الفاطميين) في مصر وهم يدعون الانتساب إلى علي، أو الزيديين في طبرستان!

وباعتبار البويهيين –نظريا- على مذهب الزيدية فإن ميلهم إلى محمد بن يحيى الزيدى أكبر من ميلهم إلى الإسماعيلية في مصر، لا سيما والخلاف بين الطائفتين: الزيدية والإسماعيلية يصل أحيانا إلى تكفير كل منهما للأخرى!

وعلى كل حال فقد وقف أمام تنفيذ هذه الفكرة نصائح خواصه الذين بذلوا الأسباب

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١٤٤.

الوجيهة لمنع معز الدولة من إلغاء الخلافة العباسية منها:

١- وجود خليفة علوي خطر على معز الدولة نفسه، فالجنود سيعتنقون وجوب طاعته، فإن أمرهم أن يقتلوا معز الدولة نفسه قتلوه وأزالوا ملكه، بينما بقاء الخليفة العباسي ضعيف لا يرى الجنود شرعية له ولا يكنون له توقيرا أو تعظيما أو محبة فهذا أثبت لسلطان معز الدولة[1].

ولا ريب أن درس المهدي العبيدي (الفاطمي)، الذي قتل داعيته الذي مهد له المغرب ونصبه خليفة، كان حاضرا في الأذهان وقتها، كما لا ريب في أن تنصيب علوي سيفتح باب خلاف حول شرعيته في ظل وجود الخليفة العبيدي (الفاطمي) القائم على رأس دولة بالفعل، فيكون معز الدولة قد وضع نفسه بين تأسيس شرعية جديدة أو الدخول في حكم الفاطميين..

٢- إزالة الخلافة العباسية محفوف بالخطر الشديد من الجماهير، فإن «عامة الناس في الأقطار والأمصار قد اعتادوا الدعوة العباسية ودانوا بدولتهم وأطاعوهم كطاعة الله والرسول ورأوهم أولى الأمر وتزاحموا على الأنقياد إلى ولاتهم ولم يعهدوا على العلوية الناجمين[2] غير الأسر والقتل فاعتقدوا فيهم العصيان والكفران بالخروج على خلفاء الله وولاة الأمر فإذا فعلت ما أضمرته وأزمعته بادهت الجمهور بما تعودوا غيره فلم ينقادوا له دفعة وحسدك من لا يخالفك في العقد على اتحاده ذلك بك دونه فلن تستغنى في نقل الملك من قبيلة إلى أخرى عن حروب تتوالى عليك حتى تضجرك»[3].

ولم يكن معز الدولة –وهو في مرحلة التأسيس- بالذي يفتح على نفسه بابا قد يكون فيه هلاك الدولة قبل أن تبدأ!

٣- وليس بالإمكان أن ننسى أن البويهيين أصلا عسكريون، نشأوا على تأسيس مملكة لهم بين الأطراف المتصارعة، وهم لم يكونوا يرون بأسا بلعب دور المرتزق الذي يكون في خدمة أمير ثم ينتقل منه إلى خدمة الآخر الأقوى منه، ومثل هذه الطبيعة العسكرية لم تكن بالتي تقبل منافسا لها في الحكم أصلا، ولهذا نحسب أن فكرة الخليفة العلوي لم تكن جادة أصلا في نفس معز الدولة أحمد بن بويه بل كانت إجابة على سؤال يثور في أذهان العامة

---

(١) الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري ص١٤٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٠٨.

(٢) الناجمين: أي الخارجين على الخلافة.

(٣) البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر ص٢٣.



والأتباع من الشيعة: كيف يكون التصرف مع العباسيين الذين يغتصبون الخلافة من أهلها وأحق الناس بها وهم العلويون؟ فكانت تلك المحاولات تفيد أن النية موجودة ولكن الظروف لا تسمح! وهي الحُجَّة التي يبرر بها كل طاغية عدم إمكانه القيام بما يفرضه عليه ما يتستر به من قيم وأفكار وشعارات، فهو في الحقيقة لا يؤسس إلا لحكم نفسه وأسرته! وهذا ما التقطه ابن الأثير في إشارة سريعة حين قال: «مع حب الدنيا وطلب التفرد بها»(١).

وللمؤرخين حديث طويل في تعليل هذا التصرف لا يتسع له المقام، ولكننا نميل إلى ما قدمنا من الأسباب، لا سيما السبب الثالث والذي نراه الأول والرئيسي.

لكل هذا تراجع معز الدولة عن هذه الفكرة، وبقي الخليفة العباسي.

نهاية المستكفي

لم يمض أكثر من شهر واحد حتى شكَّ معز الدولة في المستكفي، بأثر من تحركات قهرمانته واسعة النفوذ، وكانت قد صنعت وليمة كبيرة لعدد من القادة العسكريين الأتراك والديالمة، فظن أنها تريد التخطيط معهم وأخذ بيعتهم على الانقلاب عليه، وما لبث أحد رجال معز الدولة –وكان ناقما على الخليفة لأنه أراد أن يشفع في رجل فلم يقبل الخليفة شفاعته- إلا وأكد أن الخليفة راسله ليقابله سرا(٢).

فبينما الخليفة في مجلسه (٢٢ جمادى الآخرة ٣٣٤هـ) إذ تقدم رجلان من الديلم إلى الخليفة فظن أنهما يريدان تقبيل يده، فانقضا عليه فسحباه من مجلسه بلا أدنى احترام، وكمموا فمه بعمامته، وسحبوه ماشيا حيث اعتقل في دار معز الدولة، ونُهِبت دار الخلافة حتى أجنحة النساء، وعم الاضطراب في بغداد، وقُبِض على القهرمانة فأمر معز الدولة بقطع لسانها(٣)!!

وبايعوا لعدو المستكفي، الهارب المطارد الفضل بن المقتدر، الذي كان المستكفي قد طارده ثم هدم بيته لأنه ينافسه على الخلافة، فكان أول ما فعله الخليفة الجديد أن سمل عيني المستكفي وحبسه، وظل محبوسا إلى أن مات بعد أربع سنوات (٣٣٨هـ)(٤).

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٠٨.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٠٦، ٢٠٧.
(٣) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١١٦، ١١٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٠٧
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٠٧.



المطيع لله

(جمادى الآخرة ٣٣٤هـ - ذي القعدة ٣٦٣ هـ)

وهو الفضل بن المقتدر، وكان مربوعا كبير الأنف، وكان أبيض أشقر، حسن الجسم، وأمه أم ولد يقال لها مشغلة، وقد تولى الخلافة وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، فقد ولد (٢٤ المحرم ٣٠١هـ)[١].

ولا نعرف عنه قبل الخلافة إلا هذه المنافسة التي كانت بينه وبين المستكفي على الخلافة، والتي سبق بها المستكفي عبر المرأة التي صارت قهرمانته إلى توزون التركي فصارت به الخلافة فأدى هذا إلى هروب الفضل واختفائه ومطاردة المستكفي له وهدمه داره، ولهذا كان المطيع هو الأفضل والأنسب للبويهيين باعتباره عدو النظام البائد وليكون واجهة العهد الجديد.

***

تأسيس السلطة البويهية

كما يفعل أي ثائر أو ملك يؤسس لسلطته، بدأ معز الدولة البويهي في تحطيم كل مراكز القوى المتبقية من العهد القديم، ليفرض وضعا جديدا يكون فيه الوحيد صاحب اليد العليا والسلطة الكاملة، ولهذا دخل معز الدولة في صراعات مع سبعة أطراف هم: الخليفة في بغداد، الحمدانيون في الموصل، الجنود الأتراك الرافضون لسيادة الديلم، البريديون في البصرة، القرامطة في الأحساء والبحرين، الرافضون والمقاومون للبويهيين في العراق، وآخرون يطمحون إلى الزعامة.

وكان الوضع كالتالي:

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١١/ ٧٩.

١) الخليفة

منذ أن سيطر معز الدولة على بغداد عمل على تحطيم وإنهاء أي نفوذ عملي للخلافة والخلفاء، يقول ابن الأثير: «ازداد أمر الخلافة إدبارا، ولم يبق لهم (الخلفاء) من الأمر شيء البتة، وقد كانوا (قبل هذا) يُراجَعون ويُؤخَذ أمرهم فيما يُفْعَل، والحرمة قائمة بعض الشيء، فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث إن الخليفة لم يبق له وزير وإنما كان له كاتب يدبر أقطاعه وإخراجاته... وتسلم معز الدولة العراق بأسره ولم يبق بيد الخليفة منه شيء البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته»(١).

واستقر هذا الأمر حينما سيطر معز الدولة على البصرة (٣٣٦هـ) فأعطى إقطاعا إضافيا للخليفة يدر عليه مائتي ألف دينار سنويا وألغى راتبه الشهري وقدره ستون ألف درهم.

وصار الخليفة في موقع التابع، يخرجه معز الدولة في جيشه للانتفاع بمكانته في قلوب الناس، ويحكم باسمه، بلا تأثير في مراكز القوة ولا مسار الأحداث.

٢) الحمدانيون

كانت أولى معارك معز الدولة مع الحمدانيين، لقد أراد فرض نفسه في منصب أمير الأمراء الذي له الأمر والنهي على أمراء الأطراف كناصر الدولة الحمداني، وكان ناصر الدولة قد قوي أمره بمن انحاز إليه من الجنود الأتراك الذين رفضوا سيادة الديلم عليهم وأمثالهم من أهل المناصب كالوزير ابن شيرزاد، فسارت الجيوش من بغداد ومن الموصل (رجب ٣٣٤هـ) أي بعد شهر واحد فقط من دخول البويهيين إلى بغداد، ثم التقت الجيوش في عكبرا (شعبان ٣٣٤هـ) دون نصر مؤثر، فخرج معز الدولة بنفسه إلى القتال على رأس جيشه وأخرج معه الخليفة استعانة بمكانته الدينية، وما إن خرج هذا من بغداد حتى انطلق جيش ناصر الدولة إلى بغداد مباشرة فدخلها واستولى على القسم الشرقي منها (١٠ رمضان ٣٣٤هـ)، وما إن سمع معز الدولة بهذا حتى عاد أدراجه نحو بغداد ولكنه مر في الطريق على تكريت التابعة لناصر الدولة فنهبها واستولى هو بدوره على الجانب الشرقي(٢).

ظل الجيشان أياما يفصل بينهما نهر دجلة، والمعارك التي تنشب بينهما تميل لصالح ناصر

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٠٨، ٢٠٩.

الدولة لكنها غير فاصلة، لا سيما وناصر الدولة الحمداني وأتباعه استطاعوا قطع الإمدادات عن الجانب الغربي حتى غلت الأسعار فيه وساء وضع الجيش البويهي، وبدا كأن كفة المعارك ذاهبة إلى صالح ناصر الدولة الذي صك عملة جديدة وقطع الخطبة عن الخليفة المطيع ومنع تداول العملة التي صدرت باسم المطيع، ثم قرر معز الدولة تنفيذ خطة أخيرة للمواجهة فإن نجحت كان بها وإلا انسحب عن العراق وعاد إلى مقر نفوذه السابق في الأهواز، وكانت خلاصة الخطة أن يوهم الجيش بأنه سيحاول العبور من نقطة عبر الفرات فيسحبه إليها ثم يهجم بفرق كامنة في موضع آخر، وبالفعل، نفذ معز الدولة هذه الخطة ونجحت تماما، وانهار جيش ناصر الدولة إثر الارتباك الذي أصاب صفوفه وانسحب ناصر الدولة إلى عكبراء، وغنم معز الدولة عشرة ملايين دينار، ثم إنه انتقم من عامة الناس الذين كانوا مع عدوه في هذه الحرب فأباح لجنوده النهب والسلب فعاثوا فسادا في بغداد حتى لم يمكنه حين أمرهم بالتوقف أن يسيطر عليهم إلا بعد فترة بذل فيها إجراءات صارمة ونفذ فيها إعدامات لمن تجاوز الأوامر(١).

وعاد الخليفة إلى دار الخلافة (المحرم ٣٣٥هـ)، وفي ذات الوقت أرسل ناصر الدولة الحمداني يطلب عقد مصالحة مع معز الدولة فاستجاب معز الدولة وعقد الصلح (المحرم ٣٣٥هـ) الذي قضى بأن يكون لناصر الدولة ولاية تكريت وما وراءها من العراق والشام ومصر -في ذلك الوقت كان الإخشيد قد مات، وطمح ناصر الدولة إلى الاستيلاء عليها- وأن تكون الأموال التي يدفعها ناصر الدولة سنويا إلى بغداد هي أموال مصر والشام، بمعنى أن تكريت والموصل والعراق قد صارت إقطاعية له(٢).

وحين لم يرسل ناصر الدولة الحمداني الأموال المقررة إلى بغداد (٣٣٦هـ) عزم معز الدولة على الخروج بجيش إلى الموصل، لولا أن ناصر الدولة تدارك موقفه وتواصلت بينهم الوفود حتى وصلت الأموال(٣).

وفي العام التالي تأخرت الأموال كذلك فلم يرسل بها ناصر الدولة، فخرج معز الدولة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٠٩، ٢١٠.
(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١٣٩ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢١٨.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٢١.

على رأس جيشه فاقتحم الموصل (رمضان ٣٣٧هـ) التي هرب منها ناصر الدولة إلى نصيبين، وهناك ظلم الأهالي وعسفهم وجمع منهم الأموال، وكاد يطارد ناصر الدولة في نصيبين لولا أن جاءته استغاثة من أخيه ركن الدولة يريد فيها مددا من جند أخيه لمعاركه في جرجان والري، فسعى معز الدولة في الصلح مع ناصر الدولة، واتفق الأمر على أن يدفع الأخير ثمانية ملايين درهم كل عام عن الموصل والجزيرة الفراتية والشام، وأن تكون خطبته لمعز الدولة وركن الدولة وعماد الدولة، أي أنه انتزع منه الموصل وديار ربيعة باعتبارهما كانتا إقطاعية له وأعادهما إلى السيادة الكاملة لمعز الدولة ليكون واليا عليها فقط ملتزما بما يدفعه من أموال سنوية(١).

٣) الجنود الأتراك

كان الأتراك هم رجال الخلافة العباسية وجنودها منذ أكثر من مائة عام عندما أدخلهم المأمون في الجيش العباسي ثم اعتمد عليهم المعتصم ثم زاد أمرهم واستفحل حتى كانوا هم الحكام الفعليين، فهم أركان النظام القديم الذي يبني معز الدولة مُلْكَه على أنقاضه، وهو يعرف أنه لن يستقر له ملك بوجودهم.

وهذا أيضا ما يعرفه الأتراك، لذا فحين استولى معز الدولة على بغداد هرب كثير من الجنود الأتراك والتحقوا بناصر الدولة الحمداني رفضا لأن يكون الجنود الديالمة هم القادة الجدد للجيش وهروبا من تحكم معز الدولة فيهم وقد كان بينهم ما كان من الحروب سابقا تحت قيادة توزون، وقد خاض بهم ناصر الدولة أول معاركه مع معز الدولة عند عكبراء ثم بغداد (رجب - رمضان ٣٣٤هـ) والتي هُزِم فيها من بعد ما كانت له اليد العليا.

وعندما تواصل ناصر الدولة سرا مع معز الدولة لإقرار مصالحة بينهما ثار عليه الجنود الأتراك الذين فوجئوا بعقد صلح كهذا، فاجتمعوا فيما بينهم لحرب ناصر الدولة الذي استطاع الإفلات منهم بصعوبة فهرب سرا من الجانب الشرقي من بغداد إلى الجانب الغربي، ومن هناك إلى الموصل فأفلت منهم وقد قتلوا جماعة من كبار حاشيته(٢).

عندئذ نَصَّب الأتراك «تكين» التركي قائدا لهم، فتولى حرب ناصر الدولة ومطاردته من

(١) الهمداني: تكملة تاريخ الطبري ص١٦١، وابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١٤٦.
(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١٤٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢١٨.

الموصل إلى نصيبين إلى سنجار إلى الحديثة إلى السن وتكين يقود الأتراك ويستولي على هذه البلاد، حتى جاء جيش المدد من معز الدولة، فبهم انتصر ناصر الدولة على الأتراك[1].

كان القضاء على الجنود الأتراك المناهضين لمعز الدولة مما لا تفوت أهميته وضرورته على من يؤسس دولة وعهدا جديدا، فهؤلاء الجنود هم أخطر أركان العهد القديم، فهم جنوده وحملة السلاح فيه، لذا لم يتردد معز الدولة في دعم غريمه الأضعف ناصر الدولة الحمداني ضد هؤلاء الجنود.

وقد استطاع معز الدولة احتواء الجنود الأتراك في جيشه الذي يتكون من الترك والديلم حتى إنهم أنقذوه في مواقف عصيبة كاد أن يزول فيها ملكه كما سيأتي معنا فيما بعد.

٤) البريديون

كانت حالة الضعف والارتباك تسود البريديين في الوقت الذي بدأت فيه سلطة البويهيين في بغداد، فالبريدي قد مات ثم تنازع أخوه وابنه الزعامة من بعده، ثم استقر الأمر للابن أبي القاسم بن عبد الله البريدي، وحاول العم محاولات انتهت إلى الفشل.

لهذا بذل البريديون الخضوع من أنفسهم أول ما تولى معز الدولة وأقر بينهم صلح (٣٣٤هـ) تولى فيه أبو القاسم البريدي مدينة واسط مقابل مبلغ سنوي[2].

على أنه صلح لم يستقر طويلا فما لبثت الحرب أن نشبت بعد شهور (٣٣٥هـ)، وكان لا بد لمؤسس دولة مثل معز الدولة أن يسارع بالحزم فأرسل جيشا إلى واسط، ومن البصرة أرسل البريدي جيشا آخر مدعوما بوحدات بحرية، فحقق معز الدولة نصرا كبيرا على البريديين وأسروا كثيرا من كبارهم وقادتهم[3].

وفي العام التالي (صفر ٣٣٦هـ) خرج معز الدولة بنفسه على رأس جيشه، وأخرج معه الخليفة المطيع، إلى معقل البريديين ذاته، البصرة، ولم يستطع أبو القاسم البريدي مواجهة جيش كهذا فهرب من البصرة (٢٤ ربيع الآخر ٣٣٦هـ) ولجأ إلى القرامطة، واستسلم الجيش

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢١٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢١٦، ٢١٧.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٢٠.

البريدي لمعز الدولة، واستولى على كل ما كان للبريدي من أموال وخزائن ونفائس وأحرق ما كان له من آلات حربية أو بحرية[١].

وكانت المعركة فاصلة، واستسلم أبو القاسم البريدي فيما بعد، ودخل بغداد بالأمان، فأكرمه معز الدولة وأعطاه ضياعا وأموالا، ووضعه تحت الإقامة الجبرية[٢].

٥) القرامطة

كان أول اشتباك بين القرامطة والبويهيين حين انطلق جيش معز الدولة (٣٣٦هـ) للاستيلاء على البصرة معقل البريديين، فرأى القرامطة أن مسيره بالجيش اعتداء على منطقة نفوذهم في صحراء هذه المنطقة فأرسلوا إليه يستنكرون مسيره بغير استئذانهم أو مشورتهم، فما كان من معز الدولة إلا أن عامل مبعوث القرامطي بالاستعلاء واستهان بهم فلم يكتب ردا على رسالتهم وهددهم قائلا لحامل الرسالة: قل لهم من أنتم حتى تُسْتَأْذَنوا؟! بل أنتم المقصودون بعد البصرة لأفتح بلادكم[٣].

كان طبيعيا أن تنهار العلاقة السلمية بعد هذا الرد، وهو ما استغله الوالي على عمان في ذلك الوقت يوسف بن وجيه، فراسل القرامطة (٣٤١هـ) يخبرهم أنه ينوي أن يهاجم البصرة، وأغراهم بالتحالف معه ومساعدته بجيش بري يساند جيشه البحري السائر في الخليج حتى البصرة، فتم له ما أراد، وكان دخول هذا اللاعب الجديد على ساحة الصراع يسبب همًّا كبيرا لمعز الدولة، فسعى لتركيز كل طاقته في تحصين البصرة وشحنها بالرجال والسلاح والعتاد وجعل قيادتها لوزيره المهلبي الذي أسرع بالوصول إلى البصرة حتى جاءها قبل جيش القرامطة ويوسف بن وجيه، وظل معز الدولة يتابع أمره ويمده بالأعداد والعتاد، حتى اندلعت الحرب بين الجيشين واستمرت أياما ثم كانت نهايتها لصالح المهلبي الذي هزم يوسف بن وجيه والقرامطة وأسر بعضا من قادتهم واستولى على مراكبهم وأسلحتهم، فانزاح همُّ معز الدولة وثبتت سلطته ونفوذه وعلت يده على القرامطة[٤].

---

(١) الهمداني: تكملة تاريخ الطبري ص١٦٠، وابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١٤٣.
(٢) الهمداني: تكملة تاريخ الطبري ص١٦٠، وابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١٤٦.
(٣) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١٤٣، وابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٦٤.
(٤) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١٧٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٤١.

٦) عمران بن شاهين

يرى بعض المؤرخين أن عمران بن شاهين يمثل رمزا للمقاومة العراقية المناهضة للوجود البويهي[١] بينما لا ينزله آخرون غير منزلة المغامر الطموح المتمرد على السلطة.

وبداية قصته منذ أن استولى قسرا على الجبايات في بلدة الجامدة، ثم هرب من مطاردة السلطة فاحتمي في منطقة البطيحة[٢] حيث تكثر الأدغال والمستنقعات والقنوات المائية مما يصعب وصول السلطة إليه، وهو في هذا يقتدي بصاحب الزنج من قبله، وهناك اجتمع عليه بعض الصيادين واللصوص فقوي أمرهم، وانتقلوا إلى قطع الطريق على السالكين في هذه الأنحاء، وما زال يشتد عوده بما يحوزه من الأموال وبمن ينضم إليه من الرجال حتى لم يعد يسع معز الدولة تجاهل أمره فأرسل إليه جيشا بقيادة وزيره أبي جعفر الصيمري، فوقعت بينهم جولات قتال كان النصر فيها للبويهيين بطبيعة الحال، لكن القدر أنقذه، إذ مات زعيم البويهيين عماد الدولة (جمادى الآخرة ٣٣٨هـ)، واضطربت أمور مملكته بعد موته لبعض الوقت فجاء الأمر من معز الدولة إلى وزيره أن يتوقف عن حرب عمران بن شاهين ويتوجه من فوره إلى شيراز، فتوقف القتال، وتنفس عمران الصعداء، فأعاد تكوين سلطته وجمع من تفرق عنه من أصحابه واستمر أمره في قوة وازدياد[٣].

ولما عاد الصيمري من شيراز بعد استقرار أمور فارس وبدأ في حصار عمران بن شاهين مرة أخرى أصابته حمى حادة فمات منها، فزاد أمره رسوخا وتمكنا[٤]، فتولى قتاله أحد القادة الكبار في الجيش البويهي واسمه روزبهان فلم يستطع اقتحام البطيحة (٣٣٩هـ) لمضايقها وما صنعه عمران من تحصينات، ثم أوقع به عمران هزيمة كبيرة واستولى على جميع ما لدى الجيش من أسلحة وعتاد وآلات فتضاعفت قوته، وزادت جرأته هو وأصحابه حتى إنهم

---

(١) د. فاروق عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٩٥.

(٢) البطيحة، ويطلق عليها البطائح أيضا، وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة غمرتها مياه دجلة والفرات في عهد الفرس أيام كسرى أبرويز، فتَبَطَّح الماء في تلك الجهات فرحل أهلها عنها، ثم جاء الإسلام وتغلب الماء على النواحي المجاورة، حتى كانت السفن تسير فيها، وبنوا القرى في المرتفعات التي لا يغمرها الماء وزرعوا الأرز في بعض أراضيها. د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ص٥٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٣٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٣٣.

فرضوا إتاوة على كل من يعبر هذه المنطقة إلى غيرها، حتى ولو كان من جيش البويهيين، فكانت تلك أزمة كبيرة لأن كثيرا منهم يضطر إلى العبور من وإلى ضياعه في أنحاء البصرة وما حولها. فلما وصل الأمر إلى هذا الحد أرسل معز الدولة إلى وزيره المهلبي –الذي تولى الوزارة بعد موت الوزير الصيمري– في واسط بالإمدادت ليقود جيشا كبيرا لإنهاء أمر عمران بالكلية، وبدأ المهلبي في وضع خطة طويلة الأجل للقضاء على عمران إلا أن هذا لم يعجب معز الدولة الذي أراد القضاء عليه سريعا، وقد تدخل روزبهان –القائد المهزوم سابقا– ليحرض معز الدولة على المهلبي خشية أن يُكتب له النصر ويبوء هو بالعار، فأدى كل هذا إلى اقتحام غير موفق للمهلبي لقي فيه هزيمة شنيعة قتل فيها كبار قادته ونجا هو بنفسه سباحة في الماء[١].

عندئذ أدرك معز الدولة أنه لا سبيل إلى القضاء على عمران بن شاهين فأرسل في التصالح معه، وتم تبادل الأسرى بينهما، وولاه معز الدولة رسميا على منطقة البطائح، فصار عمران قويا مكينا[٢]!

٧) منافسون آخرون

ولم يخل الأمر من منافسين آخرين تمردوا على معز الدولة في فترة تأسيس حكم الأسرة البويهية، منهم القائد العسكري كوركير الذي انتهز فرصة ذهاب معز الدولة إلى أخيه عماد الدولة (٣٣٦هـ) بعد الاستيلاء على البصرة والقضاء تماما على البريديين، فأعلن العصيان، فتولى قتاله الوزير أبو جعفر الصيمري واستطاع أسره، ثم حبسه معز الدولة في رامهرمز بعيدا عن العراق[٣].

وفي العام التالي (٣٣٧هـ) اكتشف معز الدولة أن خاله وأحد أكبر قادة جيشه وأقرب الناس إليه يخطط لإزالة ملكه بقتله، وبدأ في مراسلة الخليفة المطيع في هذا ليكتسب شرعية الواقع من بعده، ولم يكن هذا مستغربا فإنه كان كثير النقد له والتعالي عليه، فقبض عليه معز

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٣٧.

(٣) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١٤٢، ١٤٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٢١.

الدولة وحبسه في رامهرمز أيضا[1].

وهكذا أسس معز الدولة حكم الأسرة البويهية في بغداد، واكتسب الشرعية والسلطان بالقوة، واعترف له الجميع بالسيادة طوعا أو كرها، بعد أن فشلت محاولاتهم في إزالته أو الشذوذ عن سلطانه، ولهذا نستطيع أن نسمي النزاعات القادمة «حركات تمرد» لأنها خرجت على مُلك مستقر ولا يعني هذا أننا نأخذ منها موقفا سلبيا أو ننحاز ضدها بطبيعة الحال، فلكل مقام مقال ولكل حركة ظروف ودوافع يُختلف أو يُتفق في تقدير قوتها وقيمتها وشرعيتها، وإنما نختار اسم «التمرد» لأن الدولة قد دخلت في مرحلة جديدة بعد أن تأسست وتمكن أمرها.

حركات التمرد على معز الدولة

١) عمران بن شاهين

استمر الصلح قائما بين عمران بن شاهين ومعز الدولة حتى أصيب معز الدولة بمرض (المحرم ٣٤٤هـ) وأشيع أنه مات، فما إن وصلت إشاعة موته إلى عمران بن شاهين حتى استولى على الأموال المحمولة من الأهواز إلى معز الدولة في بغداد وتقدر بمائة ألف دينار، ومعها أموال التجار التي تبلغ أضعاف هذا، على أنه تبين فيما بعد كذب الخبر فراسل معز الدولة عمران بن شاهين يطلب منه دفع الأموال فأعادها (المحرم ٣٤٤هـ)، ولكن هذه الحادثة أنهت الصلح الذي كان قائما[2].

أرسل معز الدولة جيشا إلى عمران بن شاهين (٣٤٥هـ) بقيادة أكبر قادته العسكريين الروزبهان، إلا أن الروزبهان كان يخطط لأمر آخر تماما.. سنذكره بعد سطور.

وظل عمران بن شاهين قويا راسخا في ولايته في البطائح لا يجرؤ أن يقترب منه أحد ولا حتى السلطة البويهية ذاتها، ثم عزم معز الدولة على إنهاء هذا الأمر الذي استمر لعشرين سنة فكان أخطر تحدٍ وقف أمامه ولم يستطع حله، فخرج على رأس جيشه ثم أرسل لابن أخيه عضد الدولة في فارس أن يمده بجيش آخر ففعل، ونصب المعسكر في واسط وبدأوا في سد

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٥٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٥٢.



الأنهار التي تسير إلى البطائح لإحكام الحصار وفتح طرق للجيش، إلا أن القدر خدم عمران بن شاهين لمرة أخرى، إذ بينما الأمر كذلك مرض معز الدولة فأبقى الجيش وعاد إلى بغداد (٢٨ ربيع الأول ٣٥٦هـ) وهناك توفي، ففشلت الحملة العسكرية[١].

٢) تمرد الروزبهان

بينما كان معز الدولة يتابع أخبار الروزبهان مع عمران بن شاهين إذا به يستقبل آخر نبأ يمكن أن يتوقعه، لقد تمرد الروزبهان نفسه! ولم يصدق معز الدولة الخبر لأول وهلة، ذلك أنه يرى نفسه صاحب الفضل والنعمة عليه فهو الذي رفعه إلى هذه المكانة وكان كثير الإحسان عليه وعلى أهله!

لقد كان تمرد الروزبهان هو التمرد الأخطر الذي واجه معز الدولة، وهو -على خلاف تمردات الجند السابقة- لم يهدف فقط لزيادة الرواتب والعطاء، بل أشارت بعض الروايات أنه كان ينوي الإطاحة بالسلطة البويهية في العراق، فلقد كان التمرد واسعا ومخططا له مسبقا[٢].

لقد عاد روزبهان عن قتال عمران بن شاهين واتجه إلى واسط ثم إلى الأهواز (رجب ٣٤٥هـ) وكان فيها آنذاك الوزير المهلبي الذي حاول المقاومة أول الأمر ثم فوجئ هو الآخر بأن الجنود الديالمة قد انحازوا إلى روزبهان فكف عن المقاومة. وفي نفس الوقت قاد بلكا أخو روزبهان تمردا آخر في شيراز، وقاد أخوه الآخر أسفار تمردا في الأهواز، ثم كانت الطامة الكبرى أن الجنود الديالمة في بغداد تمردوا أيضا وصاروا ثلاثة أقسام: قسم ذهب وانحاز إلى روزبهان، وقسم آخر ثار وتمرد مطالبا بزيادة الرواتب، وقسم ثالث ظل في جيش معز الدولة وهو يضمر المؤامرة وينوي الانحياز إلى روزبهان حين يخرج معز الدولة إلى حربه.

انطلق معز الدولة من بغداد على رأس جيشه (٥ شعبان ٣٤٥هـ)، وما إن خرج من بغداد حتى جاءت الأخبار بأن ناصر الدولة الحمداني أرسل جيشا من عنده بقيادة ابنه جابر للاستيلاء على بغداد! وبلغت هذه الأنباء إلى الخليفة فهرب من بغداد إلى معز الدولة الذي كان في وضع عصيب تماما.

اضطر معز الدولة أن يعيد إلى بغداد الحاجب التركي سبكتكين ليحفظ أمرها ومعه قسم

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٩٥، ٢٩٦.
(٢) د. فاروق عمر: الخلافة العباسية ٢/ ٩٥.

من الجيش الذين يثق بهم، وما إن دخل هذا الأخير بغداد حتى فاجأه تمرد الجنود الديالمة الذين يريدون زيادة الأرزاق والرواتب، فاستطاع أن يهدئهم ويُسَكِّنهم بالوعود فكفوا عن تمردهم وقد كانوا على أمل أن ينهزم معز الدولة وينتصر الروزبهان.

مضى معز الدولة إلى حرب روزبهان بجيشه المكون من الديالمة والأتراك، ولا شك أنه قد تكشفت له أبعاد الخطة وحجم التدبير عليه، فرتَّب حراسات وكمائن على طول الطريق ليمنع تسرب جنود الديلم إلى روزبهان إذ اكتشف أنهم يأخذون الرواتب والعطاءات ثم يهربون إليه، فنجح بذلك في منع التسرب من جيشه إلى جيش خصمه، ثم إنه عند الحرب جهز الأتراك وحدهم للعبور إلى القتال، فاعترض على ذلك جند الديلم وقالوا: «إن كنا رجالك فأخرجنا معك ونقاتل بين يديك فإنه لا صبر لنا على القعود مع الصبيان والغلمان، فإن ظفرت كان الاسم (النصر) لهؤلاء (الأتراك) دوننا، وأن ظفر عدوك لحقنا العار» وكانوا بمثل هذا الكلام يدارون نواياهم في الانحياز إلى روزبهان، فهدأ معز الدولة من غضبهم وأفهمهم أنه يعدهم للجولة الحاسمة.

أعد معز الدولة جيشه على هيئة كتائب متتالية تتبادل الهجوم، واشتعل القتال بين الفريقين حتى كادت تغرب الشمس وقد فنيت رماح الأتراك وصمد جيش روزبهان، وكان غروب الشمس دون انتصار معز الدولة يعني نهايته بلا شك، فاليوم التالي سيشهد زحف روزبهان إليه ثم انحياز الديالمة إليه فتكون الضربة القاضية، لذا استمات معز الدولة مع قادة الأتراك في مواصلة القتال حتى لقد بكى أمامهم لينفذوا خطته في جمع الكتائب معا والهجوم مرة واحدة بما بقي من الأسلحة والرماح، ثم استعان بكتيبة لم تقاتل غالبيتها من الغلمان والشباب الصغار قَدَّر أنهم لا يصلحون لدخول المعركة، فحين أشار إليهم بتسليم ما معهم من الرماح إلى الجنود ظنوا أنه يأمرهم بالقتال، فانطلقوا مندفعين بكل ما لديهم من حماسة الشباب الصغار وخيالهم وبما لديهم من طاقة لم تستهلك بعد، فاخترقوا صفوف جيش روزبهان وحققوا ما يشبه المعجزة إذ انهار أمامهم الجيش الذي فوجئ بهذه الهجمة التي تتلوها هجمة مجموعة الكتائب الموحدة، فكانت الهزيمة الكاملة التي قتل فيها كبار قادة روزبهان وأُخذ هو أسيرا، فكان خبرا لا يكاد يُصَدَّق!!

وبهذه الهزيمة انهار تمرد روزبهان، وانسحب جيش ناصر الدولة الحمداني من عكبراء بعدما كان يهدد بغداد لما بلغهم الخبر، وسُجِن روزبهان في بغداد، لكن معز الدولة حين

اكتشف خططا من بعض قادة الديلم لإخراجه وإعادة استكمال التمرد أخرجه ليلا وأغرقه.

وأما بلكا أخو روزبهان المتمرد في شيراز فقد كان أمره من شأن عضد الدولة بن ركن الدولة، وخليفة عمه عماد الدولة البويهي على فارس، فأرسل إليه جيشا بقيادة وزيره المشهور ابن العميد فانتصر عليه.. وبهذا انتهى تمرد روزبهان وهو الأخطر في عهد معز الدولة.

كانت أهم نتائج هذا التمرد أن معز الدولة اعتمد بشكل كلي فيما بعد على الجنود الأتراك، وقربهم ورفع مكانتهم، وجعلهم سادة على الديالمة، كما قبض على رؤوس وقادة الديالمة ممن لهم يد في تمرد الروزبهان، وكان من أضرار هذا أن زاد طغيان الجنود الأتراك وظلمهم بعدما اطمأنوا إلى مكانتهم ودورهم في الدولة.

٣) الحمدانيون

ما إن هدأ الوضع قليلا حتى عزم معز الدولة على الخروج في جيش لتأديب ناصر الدولة الحمداني لما فعله أثناء تمرد الروزبهان، فسار على رأس جيش إلى الموصل (٣٤٦هـ)، وكالعادة راسله ناصر الدولة راجيا الصلح مقابل مليوني درهم سنويا على ما لديه من البلاد، ومليوني درهم عاجلة، فقرر ناصر الدولة أن يوافق لا سيما وهو لا يأمن من ترك بغداد لمدة طويلة في حال الاضطراب القائمة بين الجنود الديلم، فعاد إلى بغداد.

غير أن ناصر الدولة، وكالعادة أيضا، تأخر عن دفع المال المقرر عام (٣٤٧هـ)، فخرج معز الدولة على رأس جيشه إلى الموصل (١٥ جمادى الأولى ٣٤٧هـ)، فانسحب ناصر الدولة من الموصل إلى نصيبين كعادته، وكان من عادته أيضا أنه في انسحابه هذا يأخذ معه كل الكتاب والوزراء ورجال الدولة الذين يعرفون الأموال وأسرار الموارد والمداخل والخزائن، ثم يُغري الأعراب المنتشرين بأرض الجزيرة الفراتية والمعروفين بالتمرد وقطع الطريق[1] بالإغارة على ما شاءوا من البلاد وقطع الطريق، وبهذا يصبح الذي ملك الموصل شبه محاصر لا يصل إلى مال مخزون ولا يستطيع جباية الضرائب مع تعثر أحوال الناس وتعطل مصالحهم بفعل غارات الأعراب.

استمر معز الدولة في مطاردة ناصر الدولة الحمداني إلى نصيبين، فانسحب الأخير إلى ميافارقين ولكن عددا كبيرا من جنوده استسلموا إلى معز الدولة، فلما صار في هذه الحالة من

(١) وقد سبق أن كانت لهؤلاء صولات وجولات مع الخلافة العباسية أيام المعتمد والمعتضد والمكتفي حتى تولى أمرهم الحمدانيون حين استقرارهم في الموصل. راجع ما كتبناه في حركات التمرد.

الضعف انسحب مرة أخرى إلى حلب التي هي مقر أخيه سيف الدولة الحمداني. وفي تلك الأثناء كانت فرقة من جيش معز الدولة تطارد فرقة من جيش ناصر الدولة في سنجار، فكان النصر في النهاية لفرقة الحمدانيين وأُسِر عدد من جنود معز الدولة.

كان وضع الطرفين صعبا، فمعز الدولة لا يجد أموالا في الموصل ونصيبين ولا يستطيع جباية الأموال بفعل تعطل الأحوال من أثر غارات الأعراب وفَقَد جنودا وأسرى في سنجار كما أن فلول جيش ناصر الدولة يمارسون حرب شوارع خاطفة وغارات على جيش معز الدولة. وفي الجانب الآخر فإن ناصر الدولة قد صار في ضعف من الجند وهو في حماية أخيه لا يجرؤ على العودة إلى بلاده، وكالعادة أيضا: أرسل ناصر الدولة يطلب الصلح من معز الدولة وأن يعود الاتفاق بينهما، فرفض معز الدولة، لكن هذا في الحقيقة لم يحل إشكالا، فكان الذي أنقذ الموقف أن تولى سيف الدولة الحمداني مكاتبة ناصر الدولة (المحرم ٣٤٨هـ) وتعهد له بأن تصله سنويا مليونان وتسعمائة ألف درهم (بزيادة تسعمائة ألف عن الاتفاق السابق) وإطلاق الأسرى في سنجار.. فكان هذا حلا مناسبا لدى معز الدولة الذي لم يحقق نجاحا مؤثرا في حملته هذه، فقبل بهذا وعاد إلى بغداد.

ظل الوضع هادئا بين الرجلين خمس سنوات حتى أرسل ناصر الدولة الحمداني (٣٥٣هـ) زيادة على المال الذي كان ملتزما به مقابل أن يلتزم معز الدولة بإقرار ابنه أبي تغلب من بعده على ولاية الموصل، فرفض معز الدولة، وكان معنى ذلك وقوع الحرب من جديد، فانطلق معز الدولة على رأس جيش إلى الموصل (جمادى الآخرة ٣٥٣هـ) وظل يطارد ناصر الدولة الذي انسحب من الموصل إلى نصيبين ثم إلى غيرها، وفي هذه الأثناء كان جيش أبي تغلب بن ناصر الدولة قد هاجم الموصل من جهة أخرى فانهزم ولكنه أحرق سفن ومراكب الجيش التابع لمعز الدولة، ثم استطاع أبوه ناصر الدولة أن يضلل معز الدولة في هذه المطاردة فيهاجم الموصل نفسها بعدما ظن معز الدولة أنه في «الحسنية»، واستطاع ناصر الدولة أن يوقع هزيمة كبيرة بأتباع معز الدولة المكلفين بحراسة الموصل فقتل كثيرا منهم وأسر كثيرا منهم قادة معز الدولة واستولى على الأموال والسلاح والعتاد، وحين وصل الخبر إلى معز الدولة فزع وارتاع وسارع بالعودة إلى الموصل لكن ناصر الدولة انسحب بكل ما غنم إلى سنجار، وصار معز الدولة بين نار جيش ناصر الدولة ونار جيش ابنه أبي تغلب، فلا هو يستطيع أن يظل في الموصل طويلا ولا هو يأمن عليها إن ظل يطارد أحدهما، وهذا ما أدركه الحمدانيون فأرسل أبو تغلب للصلح مقابل المال وإطلاق الأسرى فاستجاب معز الدولة، وعاد إلى بغداد بعد حملة كاملة الفشل هذه المرة[1].

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٨٢، ٢٨٣.

٤) القرامطة والعمانيون

ظلت جبهة القرامطة والعمانيون ساكنة من بعد محاولتهم الفاشلة لاحتلال البصرة قبل ثلاثة عشر عاما، وكان معز الدولة منشغلا بتأسيس سلطته ثم تثبيتها فلم يفكر في فتح هذه الجبهة طوال هذا الوقت حتى مات الزعيم العماني يوسف بن وجيه وتولى الأمر من بعده مولاه نافع، فانتهز معز الدولة هذه الفرصة وأرسل إلى نافع (٣٥٤هـ) يعرض عليه الدخول في طاعته وسلطانه وأن يخطب له وينقش اسمه على العملة، وقد وافق نافع على هذا، لكن أهل عمان رفضوا هذا بإصرار، فطردوا نافعا واستدعوا القرامطة ومَلَّكوهم عليهم[١].

غير أن هذا لم يستقر بل شاعت الاضطرابات في عمان بين أصحاب النفوذ، فقتل بعضهم بعضا ولم تستقر الإمارة لأحدهم، وكان نافع –الأمير المطرود- قد هرب إلى واسط حيث كان معز الدولة يستعد لحرب عمران بن شاهين (٣٥٥هـ) فأكرمه معز الدولة وأحسن إليه ثم أرسل معه جيشا (١٥ شوال ٣٥٥هـ) لإعادة السيطرة على عمان كما أنه طلب مددا من ابن أخيه عضد الدولة[٢] فأرسل له جيشا، فالتقى الجيشان واقتحموا عمان (٩ ذي الحجة ٣٥٥هـ) وخطب فيها لمعز الدولة وقتل من منافسيه وأهل البلد مقتلة عظيمة[٣].

معز الدولة يفجر الحرب المذهبية

كان أخطر وأبشع ما فعله معز الدولة هو التأسيس للفتن الدينية في العراق بين السنة والشيعة، وهو الأمر الذي ستنطلق شرارته على يد معز الدولة لتظل ناره قرونا يكتوي بها العراقيون، كلما انطفأت فتنة تجددت أخرى، حتى ذهبت آلاف النفوس وعشرات الآلاف من البيوت وملايين الأموال، ولم يأتِ من وراء ذلك فائدة لا على الدين ولا على الدولة.

وكان سلوك معز الدولة، وعامة الأمراء البويهيين من بعده، سلوك من يدعم مذهبه الشيعي ما كان في هذا تثبيتا لسلطانه وتفريقا لأعدائه وإشغالا لمناهضيه من الشعب والفقهاء، كما هي عادة كل مستبد يقتفي خطى فرعون (وجعل أهلها شِيَعا، يستضعف طائفة منهم)، ولو أنه مخلص

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٢٥١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٩٠.
(٢) عضد الدولة هو ابن ركن الدولة، ولكن زعيم البويهيين وكبيرهم عماد الدولة الذي كان يحكم فارس لم يكن له أبناء ذكور، فجعل ابن أخيه عضد الدولة خليفته من بعده، وقد كان! فصار ركن الدولة يحكم طبرستان وجرجان وما جاورهما من المناطق، وابنه عضد الدولة يحكم فارس.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٩٢، ٢٩٣.



لمذهبه حقا وأن اعتقادا دينيا يغلب على أمره، لاتخذ خليفة علويا وجاهد في تثبيته، أو لبايع الخليفة العبيدي (الفاطمي) الذي يشتاق لمثل هذا، ولكنه -كما ذكرنا سابقا- سلوك الحكم العسكري في كل زمان ومكان، إذ الدولة والسلطان فوق العقيدة والمذهب!

وقد بدأت الاشتباكات مبكرا (ربيع الأول ٣٣٨هـ) بين السنة والشيعة ونُهِبت فيها الكرخ الذي هو حي الشيعة، وتكررت (رمضان ٣٤٠هـ)، و(المحرم ٣٤٦هـ)، و(جمادى الأولى ٣٤٨هـ)، و(شعبان ٣٤٩هـ)، وفي كل من هذه الفتن دفعت البلاد أرواحا أهلكت في الحرق والقتل والنهب!

على أن هذه الفتن التي تتكرر بمعدل كل عامين، صارت فيما بعد تتكرر سنويا أو أكثر من مرة في السنة الواحدة، ثم سيظل العراق قرونا طويلة يعاني مما بذره معز الدولة البويهي، لتكون الفتنة الطائفية أحد عوامل تفجير العراق على مر العصور.

وفي ظلال هذه الفتن حدثت ثمة تطورات جديرة بالنظر والتدبر:

١) فتح باب الكفر

كما قال الإمام الشعبي: «ائتنى برافضى صغير أخرج لك منه زنديقا كبيرا»[١]، فقد وَفَّر انتشار مذهب الشيعة الإمامية غطاء واسعا لانتشار أفكار الزنادقة والملحدين، فقد اكتشفت السلطة في بغداد (٣٤٠هـ) دعوة سرية يقودها رجل من أتباع ابن أبي العز تلميذ الحلاج، فهو وأصحابه يعتقدون بأن أرواح الأنبياء والصديقين تحل فيهم، وأن أتباعه يعتقدون بربوبيته وأنه قد حلت فيه روح ابن أبي العز هذا، ومن هؤلاء الأتباع شاب يزعم أن روح علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد حلت فيه، وأن روح فاطمة (رضي الله عنها) قد حلت في زوجته، وأن روح خادمهما قد حلت في خادمها، فقبض عليهم الوزير المهلبي ووجد عندهم الكتب التي دونوا فيها عقيدتهم هذه، والأموال التي يعطونها لزعيمهم، فعاقبهم بالضرب، غير أن بعضهم استطاع أن يوصل أمرهم إلى معز الدولة باعتبارهم من الشيعة فأمر بالإفراج عنهم، ولم يستطع الوزير أن يفعل شيئا خشية أن يُرمى بالتعصب للسنة فسكت عنهم[٢].

وما ادعاه هذا الرجل وهذه المرأة إلا تحريف حتى في المذهب الشيعي الزيدي أو

---

(١) الذهبي: ميزان الاعتدال ٢/ ٥٨٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٣٩، ٢٤٠.

الإمامي، ولا نستطيع أن نفسر دفاع معز الدولة عنهما إلا بأنها صناعة فتنة تشغل الجمهور بتقوية جانب الشيعة وتحريضهم على أهل السنة وهم الكثرة الكاثرة في بغداد.

وهذا الباب هو ما سيدخل منه كثيرون وصفهم المؤرخون والمحدثون والعلماء بالعبارة الشهيرة «يُظهرون الرفض، ويبطنون الكفر المحض».

٢) حرب المنشورات

وتطور الأمر عام (٣٥١هـ) ليدخل في مرحلة «حرب المنشورات والملصقات» بتعبيرات أيامنا المعاصرة، إذ استيقظ الناس ذات يوم في (ربيع الآخر ٣٥١هـ) فوجدوا المساجد قد كتب على جدرانها «لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من غَصَب فاطمة رضي الله عنها فدكا[١]، ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام[٢]، ومن نفى أبا ذر الغفاري[٣]، ومن أخرج العباس من الشورى[٤]»، وكان هذا بتدبير من معز الدولة، فلما جاء المساء مسحه الناس من أهل السنة، فعزم معز الدولة على كتابته من جديد لولا أن نصحه

(١) والمقصود هو أبو بكر ﷺ، و«فدك» هي أرض كانت من ميراث رسول الله ﷺ فتوهمت السيدة فاطمة (رضي الله عنها) أن ما تركه النبي سيورث، ولم تعلم بقول النبي ﷺ **«إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة»** وهو القول الذي علمه أبو بكر واجتمع عليه الصحابة. فما زال الشيعة يعتقدون أن أبا بكر قد أكل مال فاطمة وورثة النبي ﷺ.

(٢) المقصود هو السيدة عائشة (رضي الله عنها)، والكلام مبني أيضا على روايات ساقطة مفادها أنها منعت من دفن الحسن بن علي ﷺ حين مات إلى جوار النبي ﷺ والمدفون في حجرتها، ويدخل في القصد أيضا مروان بن الحكم الأموي – والي المدينة– والأمويون فهم متهمون بامتشاق السلاح ورفض دفن الحسن بجوار جده لأن عثمان بن عفان نفسه قد دفن في البقيع!

(٣) المقصود هو عثمان بن عفان ﷺ، وكان سيدنا أبو ذر الغفاري غير راض عن سياسة سيدنا معاوية في الشام، فقد كان سيدنا أبو ذر ممن يرى النهي عن ادخار المال، وهو ما لم يوافقه عليه جمهور الصحابة، وقد سبب هذا اضطرابا لولاية معاوية في الشام فلقد تبعه على هذا خلق من الناس لما يرونه من زهد أبي ذر وورعه، فاشتكى معاوية إلى الخليفة عثمان بن عفان، وبعد استماع لكلام أبي ذر طلب منه سيدنا عثمان أن يختار مكان إقامة غير الشام، فاختار أن يقيم في قرية الربذة وخرج إليها، ولكن الروايات الضعيفة وروايات الشيعة تتهمه بنفي أبي ذر إرضاء لقريبه معاوية، وحاشا للخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ.

(٤) المقصود هو عمر بن الخطاب ﷺ حين جعل الشورى في أمر الخلافة من بعده لستة من الصحابة وهم بقية العشرة المبشرين بالجنة باعتبارهم أفضل الصحابة (عثمان، علي، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام) ولم يكن فيهم العباس بن عبد المطلب، فالشيعة يرون أن هذا دليل على عداوته لآل البيت.

وزيره المهلبي بأن يكتب بدلا من هذا اللعن الصريح «لعن الله الظالمين لآل رسول الله» ثم استقر الأمر على أن يُذكر لعن معاوية ﷺ صريحا بالاسم مع هذه العبارة فكان ذلك[١].

وكان هذا مما انفعل له المؤرخ المحدث الإمام ابن كثير فقال بعد أن ذكر هذا عن معز الدولة: «قَبَّحَه الله وقَبَّح شيعته من الروافض، لا جرم أن هؤلاء لا ينصرون، وكذلك سيف الدولة بن حمدان بحلب فيه تشيع وميل إلى الروافض، لاجرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء، بل يديل عليهم أعداءهم لمتابعتهم أهواءهم، وتقليدهم سادتهم وكبراءهم وآباءهم وتركهم أنبياءهم وعلماءهم، ولهذا لما ملك الفاطميون بلاد مصر والشام، وكان فيهم الرفض وغيره، استحوذ الفرنج على سواحل الشام وبلاد الشام كلها، حتى بيت المقدس، ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماه ودمشق وبعض أعمالها، وجميع السواحل وغيرها مع الفرنج، والنواقيس النصرانية والطقوس الإنجيلية تضرب في شواهق الحصون والقلاع، وتكفر في أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع، والناس معهم في حصر عظيم، وضيق من الدين، وأهل هذه المدن التي في يد المسلمين في خوف شديد في ليلهم ونهارهم من الفرنج، فإنا لله وإنا إليه راجعون وكل ذلك من بعض عقوبات المعاصي والذنوب، وإظهار سب خير الخلق بعد الأنبياء»[٢].

٣) امتداد الفتن خارج العراق

وباعتبار ما للعراق من تأثير ثقافي وفكري وحضاري فيما حوله، سجل المؤرخون امتداد الفتنة المذهبية إلى البصرة وهمذان، حيث نشبت معركة بين السنة والشيعة (جمادى الأولى٣٥١هـ) قُتل فيها كثير من الناس[٣].

٤) تأسيس مواسم متجددة للفتنة

زاد معز الدولة في تفجير الفتن بتأسيسه لعادة مذهبية سيروح ضحيتها عشرات الآلاف من الأرواح، إذ أمر بالاحتفال باستشهاد الحسين ﷺ في عاشوراء (٣٥٢هـ) فقرر على الناس إغلاق المحال التجارية وأن تخرج النساء وقد كشفت شعورهن وقطعن ثيابهن وطلين

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٧٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٦.

وجوههن بالسواد، يصحن بالنياح والصراخ ويلطمن وجوههن. ولم يستطع أهل السنة فعل شيء إذ إن معز الدولة عزم على هذا وحشد الشيعة واحتاط له حتى ينجح(١).

وأعقب هذا بالتأسيس للاحتفال بعيد غدير خم(٢) لدى الشيعة (١٨ ذي الحجة ٣٥٢هـ)، فتزينت بغداد وعمتها مظاهر الفرح وضُربت الطبول والأبواق وظلت الأسواق مفتوحة بالليل على عادة الأعياد.

وهكذا تم التأسيس لعادتين مبتدعتين ستتكرران في بغداد زمنا طويلا، وقعت فيها اشتباكات عنيفة أحيانا، كما حدث عام (٢٥٣هـ) إذ نهبت الأموال ووقعت كثير من الإصابات(٣)، وفي العام التالي (٣٥٤هـ) اقتحم أهل السنة مسجد الروافض ومركزهم فقتلوا بعض من كان فيه (٣٥٤هـ).

وظلت مظاهر النواح في عاشوراء والاحتفال في ذي الحجة تتكرر حتى صارت عادة عراقية، وسيمر بنا إن شاء الله تعالى تاريخ مرير طويل من هذه الفتن، سيذهب فيها مئات الآلاف من البشر.

بذور الفساد

لم يكن تفجير الحرب المذهبية وحده أخطر ما فعله معز الدولة البويهي في بغداد، بل إن ثمة أمورا أخرى كانت بمثابة بذور للفساد استنبتها في نظام الحكم والدولة كان لها أثر بعيد، منها:

١) اللهو

عرف الخلفاء قبل ذلك اللهو واللعب ووقعوا فيه من مثل الصيد والسباق والجواري والغناء وليالي السمر وما إلى ذلك، لكن معز الدولة أدخل نمطا جديدا من هذا في بغداد وهو التسلي بمشاهدة المصارعة والملاكمة، فكانت تقام الحلبات وتُدق الطبول ويتصارع الرجال،

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٩.

(٢) عيد غدير خم: المنسوب لمكان يسمى «غدير خم» بالقرب من الجحفة في الطريق بين مكة والمدينة، ويقول الشيعة إن النبي ﷺ وقف في هذا المكان أثناء عودته من حجة الوداع فذكر الوصية لعلي من بعده بالخلافة، وهو دليل عندهم على استحقاقه بالخلافة وأن ما فعله الصحابة من بعده إنما هو غصب لحق علي وخيانة لرسول الله – حاشاهم، رضي الله عنهم أجمعين– .. ومن ثم جعلوا هذا اليوم (١٨ ذي الحجة) عيدا وسموه: عيد الغدير.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٨٦.

فنشأت بهذا أنماط جديدة من اللهو الذي لا فائدة فيه لحرب أو لعقل وأدب و«لا ينتفع بها إلا كل قليل العقل فاسد المروءة» بتعبير ابن كثير(١).

٢) الإسراف

حين مَرِض معز الدولة (المحرم ٣٥٠هـ) واشتد به المرض، ظن أن هذا بتأثير هواء بغداد، ففكر في نقل مقر الحكم إلى الأهواز غير أن نصائح حاشيته أرجعته عن هذا الرأي فكان البديل بناء بيت في أطيب مكان في بغداد هواء وماء، فبنى دار «المعزية» التي أنفق عليها مبالغ ضخمة وصلت في بعض التقديرات إلى مليوني دينار(٢)، ورغم ما في هذا من تبذير وإسراف في وقت ضعف الحالة الاقتصادية في بغداد، إلا أن الأخطر كان في أنه لأجل إتمام البناء صادر الأموال وألزم الناس ببيع أملاكهم المجاورة وصار كلما أتت أموال وجهها في البناء. فجمع بين الإسراف والظلم، ثم كانت عبرة الله في أنه ظل يبنيها حتى مات ولم يسكنها، وقد خَرَّب لأجل بنائها كثيرا من قصور وآثار الخلفاء السابقين كقصر المعشوق الذي بناه المعتصم في سامراء، وخلع الأبواب الحديدية التي كانت في الأسوار التي بناها أبو جعفر المنصور والتي كانت في مدينة الرصافة التي بناها المنصور للمهدي وغيرها(٣).

٣) الرشاوى

وشهد عهد معز الدولة سابقة في الفساد لم تحدث من قبله أبدا، فلئن كان الخلفاء السابقون يعطون الأمراء الولايات مقابل مبالغ سنوية فيما يسمى «الضمان» أو منصب الوزارة، فإن عهد معز الدولة قد شهد شراء المناصب التي يذهب مثل هذا بشرفها كالقضاء والحسبة (الرقابة العامة) والشرطة، وقد كانت البداية حين دفع أبو العباس بن أبي الشوارب مائتي ألف دينار فحاز منصب قاضي القضاة، وهي الجريمة التي منعه الخليفة بسببها من الدخول عليه أو الظهور في موكبه، وحيث كان القضاء والحسبة والشرطة بالمال فسيستعمل صاحب المنصب منصبه في الحصول على المال بالباطل والرشوة والطغيان، وهذا مدخل

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٤٠.

(٢) قال ابن الأثير إنها ثلاثة عشر مليون درهم أي مليون وثلاثمائة ألف دينار (الكامل في التاريخ ٧/ ٢٦٩) فيما ذكر ابن كثير أنها مليوني دينار (البداية والنهاية ١١/ ٢٧٠).

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٦٩، والذهبي: تاريخ الإسلام ٢٥/ ٢٣٤.

عظيم من أبواب الفساد الذي يزيل الدُوَل ويُسْقِط الأمم[١].

٤) نظام الإقطاعات والمصادرات

بدأ معز الدولة عهده بإصلاح أحوال الري والزراعة في العراق، فأقام بعض السدود وأعاد حفر بعض الأنهار وشجع الناس على زراعة الأرض الخراب، واتخذ إجراءات حسنة[٢].

غير أنه نسف كل إصلاحاته حين واجه مشكلته الاقتصادية بنظام الإقطاعيات الذي كان بداية سياسة في منتهى السوء وفاتحة أبواب الفساد بانفتاح العسكريين وامتلاكهم للأموال، فأفسدهم المال ففسدت الدولة ماليا وعسكريا معا!

واجه معز الدولة مشكلة فراغ الخزنة من الأموال وصاحب ذلك شغب للجنود (٣٣٤هـ)، فسعى في استجلاب الأموال والمصادرات والضرائب ظلما فلم يكف هذا لسد أزمة الجنود، فبدأ في نظام الإقطاع الذي جرى الأمر على هذا النحو:

- أقطع رجاله وقادته القرى والبلدات، فصارت من أملاكهم يأخذون خراجها لأنفسهم.
- فانهار النظام الاقتصادي الرقابي الذي أقرته الدولة ويعمل فيه الموظفون ذوو الخبرة.
- انفتح الباب للنفاق وبطانات السوء في القرى والبلدان ذات الخراج الكبير والتي استولى عليها أكابر القواد، فسعى «المستثمرون» ورجال الأعمال في إصلاح هذه الأنحاء مقابل إرضاء القائد العسكري الذي يهمه المال ولا يفهم لا في الإدارة أو الرقابة، فلم تعد الدولة تحصل من أموال وعوائد هذه القرى شيئا استنادا على نفوذ أصحابها.
- وأما صغار القادة الذين أخذوا القرى والبلدات ذات الخراج القليل أو ممن لم يستطع اجتذاب من يقوم بشأنها فقد زاد خسرانهم في الواردات، فسلكوا طريقين تضاعفت بهما خسارة الدولة: مزيد من الظلم لأهل القرى والبلدات لاستخلاص الأموال من جهة، ومطالبة خزانة الدولة بتعويض الخسارة من جهة أخرى.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧١.
(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١٢٠، ٢٣١.



- فأدى هذا بالتبعية إلى أن يدعي ذوو الخراج العالي ومن لم تنزل بهم الخسارة أنهم خسروا لمزيد من مطالبة الدولة بالأموال، ولا يستطيع أحد إظهار كذبهم مع انعدام النظام الرقابي لسعة نفوذ القائد العسكري الذي لا يخاطر أحد بالدخول معه في عداوة [1].

وبهذا ازداد ادعاء الخسارة، فازدادت الخسارة، وازداد ظلم الإقطاعيين للناس، وفُتحت أبواب الظلم والرشاوى والفساد على مصاريعها، وصار العسكريون رجال أعمال، فتحولوا إلى مرتزقة لا أكثر، فصاروا أخطر الناس على الدولة طالما احتاجوا المال، وصاروا ينتقلون من ولاء أمير إلى ولاء آخر طالما أنه قادر على دفع المزيد من الأموال.

نهاية معز الدولة

فجأة وبينما معز الدولة يدير أمر الجيش الذي جهزه لمحاربة عمران بن شاهين، مرض واشتد عليه المرض، فعاد إلى بغداد فازداد المرض عليه حتى أحس بالموت، فأظهر التوبة وتصدق بأكثر أمواله وأعتق مماليكه، ورد كثيرا من الأموال التي أخذها ظلما إلى أصحابها، ثم توفي (١٣ ربيع الآخر ٣٥٦هـ) بعد حوالي اثنين وعشرين سنة أسس فيها حكم الأسرة البويهية[2].

ومن مزايا عهده الاهتمام بالبريد العام، فقد كان حريصا على تواصل أطراف المملكة البويهية، وأن يصل الخبر من وإلى أخيه في أسرع وقت، وقد تأثر هذا المشروع بالصراع المذهبي فكان للشيعة ساعي بريد وللسنة ساعي بريد والناس يتعصبون لهم[3].

وثمة رواية عن توبته من مذهب الشيعة في آخر حياته حين «اجتمع ببعض العلماء فكلمه في السنة وأخبره أن عليا زَوَّج ابنته أم كلثوم من عمر بن الخطاب، فقال: والله ما سمعت بهذا قط، ورجع إلى السنة ومتابعتها»[4] إلا أن هذا لم يكن له أثر في الحياة والواقع فيما سجلته المصادر التاريخية، وظل أثره في زراعة الفتنة يؤتي ثمره المرير!

وكان من آخر ما فعله أن أرسل أموالا كثيرة إلى قادة الأمراء كي لا يختلفوا على ولاية ابنه بختيار، وتم له هذا!

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١٢٩ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢١٠، ٢١١.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٩٨.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٩٩.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٩٧.

عِزّ الدولة بختيار

عَهِد معز الدولة لابنه بختيار بولاية العهد في منصب أمير الأمراء حين مَرِض (المحرم ٣٣٤هـ) ثم أعاد التأكيد على هذا وأصلح بين حاجبه سبكتكين ووزيره المهلبي حين مرض (المحرم ٣٥٠هـ)، ثم أكد على هذا مرة أخيرة في مرضه الذي توفي فيه (١٣ ربيع الآخر ٣٥٦هـ).

وكان آخر ما أوصاه به أبوه قبل الموت عدة وصايا أهمها:

١- أن يستشير عمه ركن الدولة وابن عمه عضد الدولة فإنهما أكبر سنا وأوسع خبرة وأعمق تجربة.

٢- وأن يستعين بكاتبي أبيه العباس بن الحسين ومحمد بن العباس لما أثبتا من كفاءة وولاء.

٣- وأن يصالح الجنود الديالمة في الجيش من بعد ما كان أبوه يفضل عليهم الأتراك منذ تمرد الروزبهان، وذلك لإحداث التوازن بين عنصري الجيش، ولئلا يتكرر عليه مثل تمردهم الذي كان على أبيه.

لكن عز الدولة كان نمطا آخر على خلاف أبيه، فضرب بجميع هذه الوصايا عرض الحائط، وانشغل بالملذات والشهوات واللهو والنساء، ويبدو أنه فَكَّر في أن يُنشئ لنفسه رجالا آخرين وحاشية أخرى فبدأ حملة تطهير في المراكز القيادية فنفى كبار القادة الديالمة وحاز على أموالهم وإقطاعاتهم هم وأتباعهم وحاشيتهم، وأبعد الكاتبين العباس بن الحسين ومحمد بن العباس، وكاد أن يفتك بالحاجب سبكتكين زعيم الأتراك لولا أن هذا الأخير كان شديد الحرص والاحتياط.

وقد أدى هذا إلى عدد من الاضطرابات، منها:

١- تمرد بين الجنود الديالمة ثم الجنود الأتراك (٣٥٦هـ) كاد أن يشتد لولا أن عز الدولة أرضاهم فأعاد بعض من طردهم ودفع لهم ما أسكتهم به من العطاء والرواتب.

٢- ولأن الأمير ذو مزاج متقلب فقد نشب بطبيعة الحال نزاع بين مراكز القوى، إذ تنازع الكاتبان محمد بن العباس والعباس بن الحسين منصب الوزارة، حيث كان الأول يتولى أمر عمان التي بالكاد دخلت في سلطان البويهيين، وكان الاستيلاء عليها هو آخر ما صنعه

معز الدولة، فأقبل محمد مسرعًا خشية أن ينفرد الثاني بمنصب الوزارة فترك عمان لقائد الجيش التابع لعضد الدولة وأسرع إلى بغداد، فخسر عز الدولة عمان التي دخلت في حكم عضد الدولة، ثم إن محمد بن العباس كان قد فاته الوقت وكان غريمه العباس قد تفرد بمنصب الوزارة بالفعل.

وقد كان هذا الوزير فاسدا جبارا، وعلى رغم أن بختيار شيعي إلا أن وزيره هذا كان متعصبا للسنة، وهذه عادة الطغاة الذين لا يهمهم أكثر من الاستبداد بالملك الذي هو أعلى وأغلى لديهم من الدين والمذهب، ولا نستطيع الجزم ما إذا كان كذلك في عهد معز الدولة إلا أن قوة الأخير كانت طاغية ولم تسمح بظهور تجبر الوزير وفساده أم أن اضطراب حال عز الدولة وسوء سياسته وسيرته هو الذي جعل الوزير بعدما انفرد بالمنصب تظهر منه طباع السوء هذه، وقد أنهى عهده بمحرقة أنزلها بالشيعة في الكرخ.

وصفه ابن الأثير بقوله: «كان في ولايته مضيعا لجانب الله؛ فمن ذلك أنه أحرق الكرخ ببغداد فهلك فيه من الناس والأموال ما لا يحصى، ومن ذلك أنه ظلم الرعية وأخذ الأموال ليفرقها على الجند ليسلم فما سَلَّمَه الله تعالى ولا نَفَعَه ذلك» وذلك أن الله سلط عليه معز الدولة بشكايات وسعايات أعدائه فقبض عليه وحبسه، يقول ابن الأثير: «وصدق رسول الله حيث يقول: «من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»[(١)]، وكان ما فعله من ذلك أبلغ الطرق التي سلكها أعداؤه من الوقيعة فيه والسعي به، وتمشى لهم ما أرادوا لما كان عليه من تفريطه في أمر دينه وظلم رعيته، وعقب ذلك أن زوجته ماتت وهو محبوس، وحاجبه، وكاتبه، فخربت داره وعفا أثرها. نعوذ بالله من سوء الأقدار ونسأله أن يختم بخير أعمالنا فإن الدنيا إلى زوال»[(٢)].

٣- وقد أغرت هذه الاضطرابات حبشي بن معز الدولة -أخا الأمير عز الدولة- إلى أن يعلن التمرد في البصرة (٣٥٧هـ) حيث كان المؤكد له ولحاشيته أن عز الدولة لن يستطيع، في ظل توتر الأمور عنده، أن يمنع هذا، وعندئذ أرسل عز الدولة وزيره العباس بن الحسين على رأس جيش فاستطاع بالحيلة والمناورة أن يستخلص أمواله ثم يهاجمه بغتة في البصرة فهزمه

(١) الطبراني (١١٦٩٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣١١).
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٣٧.

وأسره، فأمر عز الدولة بحبسه في رامهرمز، ثم خلصه ابن عمه عضد الدولة وظل في رعايته.

٤- واستغل سبكتكين الحاجب (٣٥٧هـ) دعوة سرية تنتشر في بغداد وغيرها، تدعو إلى رجل من آل البيت، وتسير في أوساط السنة والشيعة، وكان دعاته يروجون في أوساط السنة أنه عباسي، وفي أوساط الشيعة أنه علوي، ثم عُرِف مكان الرجل وأنه في مصر، فأرسل سبكتكين إليه أن يأتي إلى بغداد واعدا إياه بالنصرة والعون، واستقبله على طريق الفرات خارج العراق وتولى حمايته ولما سلم عليه أظهر له الطاعة والخضوع، ثم اكْتُشِف أنه عباسي وأنه محمد بن الخليفة المستكفي، وهو ما لم يرتضه سبكتكين فهو شيعي، فبهذا فشل التدبير، وألقى بختيار القبض عليه فأعطاه الأمان، لكن الخليفة المطيع أحضره فعاقبه بجدع أنفه، وانتهى أمره.

ساهمت هذه الاضطرابات في بداية عهد عز الدولة مع انصرافه هو للذاته وشهواته وسوء سياسته في تعميق وترسيخ أمرين سيسيطران على روح ذلك العهد؛ أولهما: الفتن الدينية والحروب المذهبية والانفلات الأمني، وثانيهما: الانهيار الاقتصادي الذي كان يؤدي إلى حملات حربية وإلى مصادرات ومظالم، ثم كانت النزاعات والفتن تزيد من فشل هذه الحملات الحربية وبالتالي يزداد الانهيار الاقتصادي فتزداد النزاعات والفتن بين مراكز القوى والنفوذ في البلاط البويهي، وهكذا في دائرة مفرغة من الفشل وتراكم الأخطاء ستنتهي إلى زوال عز الدولة وعهده بالكلية على نحو ما سيأتي.

سياسة عز الدولة بختيار

كانت مراكز النفوذ في عهد عز الدولة متمثلة في: الأمير البويهي، القائد سبكتكين وهو زعيم الأتراك وقائد الجيش، الوزير أبو الفضل العباس بن الحسين ومن بعده الوزير ابن بقية. وأما في أطراف العراق فالجهات لم تتغير كثيرا عن عهد أبيه وهما منحصران في الحمدانيين في الموصل والجزيرة الفراتية وعمران بن شاهين في منطقة البطائح جنوب العراق.

١) مع عمران بن شاهين

بدا وكأن معز الدولة قد مهد لابنه الأمور، وكان هذا مدعاة لخوف عمران بن شاهين من عز الدولة واستقرار أمره، لا سيما وقد مات معز الدولة وهو يحاربه، فتم الصلح على أن يدفع عمران خمسة ملايين درهم سنويا، لكن بعد أن ظهر ضعف عز الدولة واضطراب سياسته وتوتر الأمور لم يدفع عمران سوى مليوني درهم، وامتنع عن تسليم بعض الرهائن



لديه، ولم يلتزم بمواصلة دفع الأموال سنويا، فحينئذ كانت الخطوة المتوقعة أن يتوجه عز الدولة بختيار لحربه (شوال ٣٥٩هـ) أي بعد ثلاث سنوات من بداية حكمه، وقد أضاع عز الدولة بختيار شهرا في رحلة صيد في واسط، ثم كلف وزيره العباس بن الحسين أن يقود الجيش لحصار عمران بن شاهين.

بدأ الجيش البويهي في تحويل مجاري الأنهار لحصار عمران وقطع الماء عنه ولفتح طرق واسعة لمرور الجيش، وطالت الأيام في تنفيذ هذه العملية ثم وقف القدر لمرة أخرى في جانب عمران بشكل عجيب، إذ فاضت دجلة في هذا الوقت فانهارت هذه السدود جميعا وضاع مجهود الشهور الطويلة، فلما انقضى الفيضان وكان بالإمكان عبور الطرق كان عمران قد انتقل إلى معقل آخر بما لديه من رجال وسلاح، فانتهى المجهود الكبير في الشهور الطويلة إلى الفشل الذريع، وهنا بدأت حركة تمرد في الجيش البويهي الذين عاشوا أياما طويلة في الحر ومواطن الحشرات وفي الأدغال واشتاقوا إلى ما ألفوه في بغداد، فاضطر الوزير أن يفاوض عمران على الصلح مقابل مال، فاستجاب عمران، ولكن هذا لم يمنعه من نهب ما استطاع من الجيش حال انسحابه، فانهارت معنويات الجيش وانهارت هيبته في النفوس حتى دخل بغداد بعد نحو سنتين (رجب ٣٦١هـ)[١].

٢) مع الحمدانيين

كان الحمدانيون على حدود الدولة الإسلامية المتاخمة للإمبراطورية البيزنطية، وقد تولوا في هذا الوقت واجب الجهاد والتصدي للروم الذين كانوا في هذه الفترة أعلى كعبا وأقوى جانبا، في حين كانت الدولة العباسية قد فقدت وحدتها وصارت إلى الضعف والتشرذم وتسلط الطبقات العسكرية عليها حتى لم تعد الخلافة إلا شبحا لا أثر له، وسنتناول هذا بعد قليل إن شاء الله تعالى.

وكانت العلاقة بين بختيار والحمدانيين على نحو ما كانت أيام أبيه معز الدولة، السيادة الاسمية والمبلغ السنوي، وبدت العلاقة ودية ومستقرة حتى إن بختيار توسط في الصلح بين أبي تغلب الحمداني وأخيه حمدان (٣٥٨هـ) واستطاع إنجازه[٢]، وقد أراد الطرفان توكيد

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢٣.

(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٢٩٥.

المودة بينهما فعقد أبو تغلب الحمداني على ابنة بختيار البالغة ثلاثة أعوام عقد الزواج (صفر ٣٦٠هـ) ودفع صداقها مائة ألف دينار[1].

على أن الخذلان جاء بعد أقل من سنة حين تعرض الحمدانيون لهجمة عظيمة من الروم وصلوا فيها إلى اقتحام نصيبين (المحرم ٣٦١هـ) «فوطئها (دمستق الروم) وآثر الآثار القبيحة فيها واستباح نصيبين وأقام بها خمسة وعشرين يوما»[2]، واشتعل لأجلها الناس في العراق، لكن عز الدولة خذلهم بعد أن اتخذ إجراءات شكلية أوهم بها الناس أنه يستعد للحرب وأرسل إلى أبي تغلب أن يجهز المؤن والطعام للجيش الكبير القادم ففرح أبو تغلب وصنع ما طُلِب منه، ثم انتهى كل هذا إلى اللا شيء[3]، وهو ما ترتب عليه أزمة في بغداد، سنتناولها بعد قليل.. فكان هذا أول خذلان وفشل في العلاقة بين بختيار والحمدانيين.

ثم انهارت العلاقة تماما حين دخل بختيار على خط الصراع بين أبي تغلب وأخويه حمدان وإبراهيم، وهو الصراع الذي نشب بين الإخوة من بعد وفاة والدهم ناصر الدولة الحمداني، فاستجار الأخيران ببختيار وطلبا منه المساعدة على أخيهما أبي تغلب، مقابل الأموال الجزيلة وبذل الخضوع الكامل لسلطة بختيار، وكان هذا مغريا لبختيار ولوزيره الجشع أبي الفضل العباس بن الحسين، فاستقر العزم على حرب أبي تغلب.

ثم شاء الله أن يعزل بختيار وزيره أبا الفضل ويعين ابن بقية مكانه، فاستهان أبو تغلب بأمره وخاطبه بما فيه استهانة منه، فكان عزم ابن بقية على حربه مما يُضاف إلى عزم بختيار وأخويه، فخرج بختيار على رأس الجيش إلى الموصل (ربيع الأول ٣٦٣هـ) فانسحب أبو تغلب إلى سنجار وأفرغ الموصل من الأموال والأقوات ومن الوزراء والكتاب ومن يعرفون مداخل المال وموارده كما هي العادة، ودخل بختيار الموصل (١٩ ربيع الآخر ٣٦٣هـ)، ثم كرر أبو تغلب ما فعله أبوه ناصر الدولة من قبل إذ سار بجيشه إلى بغداد الخالية من الجند، لكن بختيار سارع بإرجاع وزيره ابن بقية وحاجبه سبكتكين –وهو قائد الجيش وزعيم الجند الأتراك– إلى بغداد.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٠١.

(٢) الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري ص٢١٠.

(٣) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٣٤٦ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٠٣ وما بعدها.

وصل الوزير ابن بقية إلى بغداد قبل أبي تغلب، فيما ظل سبكتكين خارج بغداد، وعندئذ جرت مراسلة خطيرة بين سبكتكين وأبي تغلب اتفقا فيها على التحالف ضد بختيار ووزيره وحكمه، وكاد الأمر ينجح لولا أن سبكتكين تردد فيه وخاف عواقبه أو أن يوصم بالخيانة ففشل الأمر، وكان للوزير ابن بقية دور في إفشال هذا التحالف والدفع بسبكتكين ليظل على موقفه في الولاء لبختيار.

في الموصل يعاني بختيار من الرفض العام لما ارتكبه من ظلم وقهر للناس، ويعاني من ضيق الأموال والأقوات، وضعف جيشه مع انقسامه بينه وبين ابن بقية وسبكتكين.. وبالنسبة لأبي تغلب فهو خارج الموصل وأضعف من أن يقتحم بغداد وفشل تحالفه مع سبكتكين.. فسعى الوزير ابن بقية وبالاتفاق مع سبكتكين في التصالح بين بختيار وأبي تغلب، ووافق الطرفان وتصالحا من بعد ما كاد أن يفشل الصلح، وعاد بختيار إلى بغداد (١٧ رجب ٣٦٣هـ) يحمل فشلا جديدا يضاف إلى رصيده.

٣) مع القرامطة والعبيديين (الفاطميين)

ضعفت الدولة الإخشيدية في مصر من بعد موت كافور الإخشيدي (٣٥٧هـ)، ولم تلبث أمورها في اضطراب حتى اكتسحتها الدولة العبيدية (الفاطمية) فحققت بذلك حلما عاش في خيال خلفائها نحو ستين سنة، فاستولى قائدهم جوهر الصقلي على مصر (١٨ رجب ٣٥٨هـ) ثم توجه جيشه إلى بلاد الشام وهو يستولي في طريقه على المدن التي تقابله فيضيفها إلى سلطان العبيديين (الفاطميين) حتى خرج من مصر فاستولى على الرملة ثم طبرية ثم دمشق التي خُطِب فيها للخليفة العبيدي (الفاطمي) (المحرم ٣٥٩هـ)، ولم يجاوز دمشق لوجود الدولة الحمدانية في حلب وما وراءها، ولما كانت تقوم به من دور في الجهاد ضد الروم البيزنطيين، وكان ذلك بتوصية من الخليفة العبيدي المعز لدين الله(١).

لا ريب أن اكتساحا كهذا زلزل بغداد التي جاءتها خلافة أخرى تنازعها ولدت في المغرب ثم ها هي تكتسح مصر والشام على ما لهما من أهمية، وهنا سنلاحظ أن كافة الحكام الذين يسيطرون على قلب العالم الإسلامي وغربه كانوا من الشيعة، ورغم ذلك فالعداوة بينهم هي القائمة،

---

(١) د. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص٢٤٧ وما بعدها.

فالبويهيون في العراق وفارس وطبرستان وخراسان، والحمدانيون في الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام، والعبيديون (الفاطميون) في المغرب ومصر وجنوب الشام، والقرامطة في الأحساء والبحرين وجنوب العراق. وهو ما يدل على أن الحكم والسلطان كان فوق المذهب والدين، وهذا هو عموم أحوال الملوك والسلاطين إلا من رحم ربك وقليل ما هم.

فعلى رغم أن القرامطة بايعوا منذ زمن للخليفة العبيدي (الفاطمي) وخطبوا له في بلادهم، إلا أن العبيديين ما كادوا يستقرون في مصر حتى واجهوا عداء القرامطة[1]، ودارت بينهم في الشام وحتى مصر معارك في غاية العنف والشدة، وكاد القرامطة أن يدخلوا مصر ذاتها لولا أن استطاع العبيديون قلب موازين المعارك فانتصروا نصرا فاصلا أعادوا به سيطرتهم على الشام وردوا القرامطة إلى الصحراء بين الشام والعراق.

وكانت سياسة بختيار وموقفه هو إمداد القرامطة في حروبهم مع العبيديين (٣٦٠هـ)، غير أن هذا لم يُغن عنهم شيئا، فكأن الفشل كان حليف بختيار حتى في عونه لغيره، ونعوذ بالله من الخذلان.

الفتن الداخلية

ليس عسيرا أن نتوقع نشوب الفتن في بغداد، مع ميراث مثل الذي تركه معز الدولة يديره رجل لا أهلية له مثل عز الدولة بختيار.. ولقد كتب على بغداد منذ الآن أن تعيش عصرا من الفتن في ظل السلطة البويهية لا تفلت منه إلا قليلا من السنين!

١- استيقظت بغداد ذات يوم على أنباء ذلك الهجوم الكاسح للروم والذي وصلوا فيه حد اقتحام نصيبين التي هي من مدن الجزيرة الفراتية[2] (المحرم ٣٦١هـ)، بعد أن كانوا قد اقتحموا الرها ونواحيها، وأثاروا الرعب ونشروا القتل والحرق وأخذوا الأسرى، ولم يحاول أبو تغلب الحمداني التصدي لهم أو مقاومتهم، بل لم يفعل إلا أن دفع لملكهم أموالا كي لا يواصل التقدم إليه في الموصل. وقد أثار هذا ضجة كبيرة في بغداد، لا سيما وأن اللاجئين الذين شردتهم الحرب وصلوا إلى بغداد، واحتجوا في المساجد ومواطن الناس وقصوا على

(١) د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص٣٠٨.

(٢) تقع الآن في جنوب شرقي تركيا على الحدود مع سوريا، تابعة لمحافظة «ماردين»، وهي إلى الشمال مباشرة من مدينة «القامشلي» السورية حتى لتكاد أن تكون متصلة بها، لكنها تتبع تركيا.

الناس جرائم الروم من القتل والحرق وأسر النساء وأن بلادهم صارت مفتوحة أمام الروم لا تجد من يدافع عنها، وقاد بعضهم مظاهرة إلى قصر الخليفة وكادوا أن يقتحموه، ولكنهم سبوا الخليفة وشتموه وأسمعوه ما يكره[١].

في ذلك الوقت كان بختيار في رحلة صيد في الكوفة، وكان جيشه مشغولا في حصار عمران بن شاهين في البطيحة، فاشتعل عليه الرأي العام أنه ينشغل بالصيد وينشغل جيشه بحرب المسلم عمران بن شاهين مهملا أمر الروم، وكعادة الطغاة الفارغين أصدر بختيار أوامره بتجهيز الجيش وإعداده، وكلف سبكتكين بالاستعداد للحرب، وأعلن في الناس النفير العام واستقبال المتطوعين، وجمع التبرعات، وأرسل إلى أبي تغلب أن يجهز الجيش وعليه أن يعد الطعام والمؤن اللازمة، ثم أرسل إلى الخليفة يطلب منه أربعمائة ألف درهم مساهمة في الغزو وأن ذلك واجب على الإمام، وقد رد الخليفة عليه بالقول: «الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا فى يدي وإليّ تدبير الأموال والرجال، وأمّا الآن وليس لى منها إلّا القوت القاصر عن كفايتي، وهي فى أيديكم وأيدى أصحاب الأطراف، فما يلزمني غزو ولا حجّ ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه، وإنّما لكم منّى هذا الاسم الذي يُخْطَب به على منابركم تُسَكِّنون به رعاياكم. فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضا وتركتكم والأمر كلّه»، لكن الطلب تحول إلى وعيد وتهديد واضطر الخليفة أن يبيع بعض ثيابه وتحفه النفيسة ليسدد هذا المبلغ[٢].

ثم انتهى كل هذا إلى اللاشيء، وصرف بختيار الأموال على أهوائه، فتحول الاجتماع الشعبي إلى فتنة كبيرة في بغداد إذ طبيعي أن تتحول لحظات الفشل أمام عدو الخارج إلى تنفيس الغضب والأزمة في الداخل فتظهر العصبيات والتحزبات ثم يظهر المجرمون والمفسدون لاستغلال الوضع فيزيدونه اشتعالا.

وفي مجتمع منقسم مذهبيا وطائفيا كبغداد في العهد البويهي فأول ما ثارت الفتنة كانت بين السنة والشيعة، ودخل في غمارها كل مفسد، فعمت حالة من النهب والسلب والانفلات

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٣٤٥، ٣٤٦، والهمذاني: تكملة تاريخ الطبري ص٢١٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٠٢.

(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٣٤٦ وما بعدها، والهمذاني: تكملة تاريخ الطبري ص٢١١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٠٣ وما بعدها.

الأمني في بغداد، ثم تطور هذا إلى القتل وحرق البيوت، وتعرضت الكرخ –وهي سوق بغداد الجنوبي ومركز ثقلها الاقتصادي والتجاري، وغالبها من الشيعة– إلى حريق كبير، وهذا مما ألهب الفتنة وزاد في الأزمة الاقتصادية التي تعانيها بغداد(١).

٢- استمرت الفتنة أياما ثم سكنت، لكنها بطبيعة الحال ظلت كامنة تحت الرماد وتغلي بها النفوس وتفجرها أقل شرارة، وقد كانت الشرارة القادمة حين قتل أحد رجال الدولة رجلا من الشيعة (٣٦٢هـ) ويبدو أن هذا المسؤول كان معروفا بالظلم والعسف، إذ هاج الناس عليه من العامة ومن الأتراك أنفسهم، وحين حاول الهرب أدركوه ولحقوه ودخلوا وراءه البيت الذي احتمى به فأخرجوه مسحوبا ثم قتلوه وأحرقوه، ثم هجموا على السجون وأخرجوا من فيها، فقام الوزير أبو العباس الفضل بن الحسين بمواجهة هذا الاضطراب بأقسى وأعنف ما يمكن إذ أمر بإحراق الكرخ، فكانت محرقة هائلة ذهب فيها نحو سبعة عشر ألف إنسان وثلاثمائة دكان وأكثر من ثلاثين مسجدا إلى جانب ما لا يحصى من الأموال.

عندئذ اضطر عز الدولة بختيار لعزل هذا الوزير الذي تجاوز طغيانه كل حد (ذي الحجة ٣٦٣هـ)، لكنه لم يغير سياسته السيئة بل عَيَّن مكانه محمد بن بقية المشرف على مطبخه والذي كان يقوم بذوق الطعام قبل تقديمه لبختيار، وكان هذا القرار مثار سخرية البغدادين، ودليلا على استمرار مسيرة الفشل وتولية غير الأكفاء.

وبدأ ابن بقية في الوزارة باستخلاص أموال الوزير السابق واستصفائها، وانتزاعها بالتعذيب منه ومن رجاله، فحصل على ثروة هائلة، أخذ في إنفاقها في إصلاح الأمور وإثبات كفاءته ومقدرته وفشل الوزير الذي قبله، حتى تحسنت سمعته وارتاح الناس إلى وزارته.

وما هو إلا قليل بعد أن استصفى الأموال من الوزير السابق العباس بن الحسين حتى وضع له السم فقتله.. فلقي الوزير جزاء الظالمين، فمن الوزارة إلى الحبس ومصادرة الأموال ثم القتل، وفي الحبس ماتت زوجته وكاتبه وحاجبه، وهدمت داره، لقد أنفق عمره في تثبيت سلطانه وزيادة أمواله وتعظيم نفوذه فما هي إلا أيام معدودات حتى خسر الدنيا والدين، كما هي سيرة الظالمين.. ولكن ما أقل المعتبرين!

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٣٠.

٣- لم يلبث ابن بقية كثيرا على حاله، فما إن فنيت الأموال التي استخلصها من ثروة العباس حتى بدأ هو الآخر سيرته في الظلم والعسف وسد عجز الميزانية من المصادرات والضرائب، حتى هو لم يتعظ من مصير العباس، وقريبا سيلقى هو الآخر ذات المصير! وما أعجب نفس الإنسان حين تغمرها الشهوات، لا تعتبر ولا تتعظ مهما كانت دلائل العبر والعظات ماثلة أمامها!

وبدأ من هنا اضطراب الأحوال في بغداد، وانتشار الفساد، وكثر المبطلون واللصوص، فزاد بهذا خراب الأراضي والديار وانهيار التجارة والاقتصاد، فهذا مما لا ينمو إلا مع استقرار الأمن، وبهذا الانهيار الاقتصادي كانت تزيد المظالم والمصادرات والضرائب.. وهكذا، في دائرة مفرغة[١]!

٤- على أن مما يحسب لابن بقية دوره في تأجيل انهيار العلاقة بين بختيار وبين حاجبه سبكتكين الذي هو في ذات الوقت زعيم الأتراك وقائد الجيش.

لقد كانت العلاقة متوترة منذ بدأ بختيار عهده وأراد أن يعزل سبكتكين أو يقتله لولا أن الأخير كان في غاية الحرص، وقد حاول سبكتكين قيادة انقلاب ضد بختيار مرتين: مرة باستقدامه محمد بن المكتفي ثم فشل الأمر لما اكتشف أنه عباسي وكان يتمنى أن يكون عليا، والثانية حين تحالف مع أبي تغلب الحمداني لكن تردده وتدخل الوزير ابن بقية أفشل الأمر.

كان التوتر بين سبكتكين ومن ورائه الأتراك من جهة وبين بختيار من جهة يزداد في كل يوم، ومن ثم فهو قابل للاشتعال في أي لحظة، وقد جاءت اللحظة حين مر جندي ديلمي مخمور عند دار سبكتكين وألقى بسلاح في دار سبكتكين فقبض عليه الحرس، وأرسله سبكتكين إلى بختيار، فقتله، فظن سبكتكين أنها مؤامرة مدبرة من بختيار وأنه قتل هذا الجندي لئلا تنكشف، فزاد الأمر سوءا بين الجانبين.

وكان الجيش البويهي منقسما بين الأتراك والديالمة، والعلاقة بين الطرفين لم تكن حسنة يوما منذ دخل البويهيون بغداد ومنذ اعتمد معز الدولة على الأتراك ورفعهم على الديالمة، فكان قتل الجندي الديلمي مما سبب تذمرا كاد أن يكون تمردا للديالمة لولا أن تدارك معز

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٣٧.

الدولة الأمر فأنفق فيهم أموالا أسكتهم بها.

٥- وكان النزاع السني الشيعي قائما، ويزيد الجهال في الطرفين اشتعالا، وهو يزدهر في أوقات الاضطراب والحروب، وكان من عجيب ما وقع وما يدل على الجهل أن بختيار حين كان يحارب أبا تغلب الحمداني في الموصل (٣٦٣هـ) وقعت الأزمة في الجانب الغربي من بغداد، إذ وضع بعضهم امرأة على جمل وسماها عائشة وتزعمهم اثنان واحد سمى نفسه طلحة والآخر سمى نفسه الزبير ثم أعلنوا حربهم على الشيعة باعتبارهم أصحاب علي بن أبي طالب، ولم يتوقف الأمر إلا حين قُتِل زعماء الفتنة وزعماء المفسدين الذين دخلوا فيها.

ولم تلبث هذه المشكلات أن تمخضت عن حصادها المر..

الحصاد المر

كثر شغب الجنود وتذمرهم على عز الدولة بختيار، وصار لا يستطيع التعامل معهم، ولم تعد أموال المصادرات تكفي، ثم فشلت حملته على الموصل، ففكر أخيرا في الأهواز وخطط لقتل واليها بختكين آزادرويه ليستصفي أمواله وذخائره وما كنزه فترة ولايته، فتوجه بختيار إلى الأهواز، وهناك استقبله بختكين بالإجلال والإكرام وبذل له أموالا جليلة، غير أن بختيار يخطط لقتله واستخلاص كل أمواله، فانتهز بختيار فرصة اشتباك وقع بين خادمين أحدهما لتركي والآخر لديلمي تطور لفتنة بين الأتراك والديلم، فكانت فرصة لضرب الأتراك فأحضر آزادرويه والي الأهواز وكاتبه وبعض قادته فحبسهم وقيدهم ثم أباح للديلم أمر الأتراك فقاتلوهم ونهبوا أموالهم ودوابهم حتى هرب الأتراك واستولى الديلم على الأهواز، واستولى بختيار على إقطاعات وأملاك سبكتكين في الأهواز.

وكان بختيار يخطط للتخلص من غريمه سبكتكين فأوصى أهله إذا أرسل إليهم بأنه قد قبض على الأتراك في الأهواز أن يظهروا أنه قد بلغهم خبر وفاة بختيار، وحين يحضر سبكتكين لاستطلاع الأمر أو العزاء فإنهم يلقون القبض عليه، وقد تم ما خطط له إلا أن سبكتكين الحريص أرسل من يستطلع الأمر ولم يذهب بنفسه ثم أرسل يسألهم كيف بلغهم الخبر فلم يحصل على ما يطمئنه فارتاب في الأمر ثم ما لبث أن جاءت الأنباء بحقيقة ما حدث فعلم بحقيقة المؤامرة.

لقد كان سبكتكين حريصا إلى الحد الذي يجعله مترددا، فَلَكَم أنقذه حرصه ولكن كم

ضيع عليه تردده فرصا ذهبية، ومنها هذه الفرصة، لقد كانت بغداد خالية من الجيش الديلمي ومن بختيار، وكان أهل بغداد ومعهم الخليفة يودون التخلص من بختيار ويشتاقون لهذا، ثم كان معه جيش الأتراك الذي هو القوة الضاربة الوحيدة في بغداد وهم يتميزون غيظا ويطلبون الثأر وينتظرون منه الأمر بالفتك بالديالمة وأولهم أسرة بختيار في بغداد.. لكنه من حرصه وتردده لم يفعل، ولعل دافعه الأساسي في هذا كان تخوفه من البويهيين في فارس وطبرستان حيث عضد الدولة وركن الدولة والذين سيدعمون بختيار بلا شك، فلعله – لهذا- سلك طريقا آخر.

لقد راسل أبا إسحاق بن معز الدولة أخا بختيار، وأعلمه بحقيقة الحال، وأن العلاقة قد انهارت تماما بينهما، وهو مع ذلك لا يريد التمرد على البويهيين، بل دعاه لأن يحالفه فيتولى هو الأمر بدلا من أخيه، لكن والدته منعته من هذا ففشلت خطة سبكتكين، فحاصر دار بختيار ثم أحرقها وأسر أبا إسحاق وأبا طاهر أخوي بختيار، ثم أطلقهما، وبدأ الأتراك في الانتقام من الديالمة في بغداد، وثار الناس ينتقمون لأموالهم المصادرة ولمظالمهم الكثيرة، وثار أكثر أهل بغداد –وهم من أهل السنة- ينتقمون لمذهبهم، فاستعان بهم سبكتكين ونظم أمرهم في مجموعات ولها قيادات، وهجموا على الكرخ –معقل الشيعة، والمعقل الاقتصادي- فحاربوهم ووقع بينهم القتلى ثم أحرقت الكرخ لمرة أخرى.

ويقطع التسلسل التاريخي هنا حدث آخر، ذلك هو..

تنازل المطيع لله عن الخلافة

لقد خشي المطيع لله من سيطرة سبكتكين على بغداد، لا سيما وهو قد كان من قبل سبب استقدام محمد بن المستكفي إلى بغداد، فحاول الهروب من بغداد مع أبناء بختيار، إلا أن سبكتكين منعه ورده إلى دار الخلافة، -وبعض الروايات على أن سبكتكين هو من أراد التخلص من الخليفة ونفيه مع أبناء بختيار، وأن الخليفة هو من طلب البقاء فوافق سبكتكين[1]- وفي هذه الأثناء اكتشف سبكتكين أن الخليفة مريض بالفالج[2] وأنه قد تعذر

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣١٢.
(٢) الفالج: الشلل النصفي.

عليه النطق والحركة، فطلب منه سبكتكين أن يتنازل عن الخلافة لابنه عبد الكريم الذي تلقب بالطائع لله. وقد تنازل المطيع عن الخلافة (١٣ ذي القعدة ٣٦٣هـ) بعد خلافة دامت تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر غير أيام وبويع للطائع لله بالخلافة واستقر أمره[١].

ونحن نقف وقفة مع الخليفة المطيع بإذن الله، ثم نستعرض ما كان في عهده من العلاقة مع الروم الذين تصدى لهم الحمدانيون، ثم نعود بعدئذ في عهد الطائع لاستكمال ما كان بين بختيار وسبكتكين من أحداث.

وقفة مع المطيع

خليفة يثير التعاطف!

فهو على المستوى الشخصي كريم ودود سمح الأخلاق، وعلى مستوى الحكم والمُلك ضعيف مغلوب على أمره من البويهيين والأتراك، وعلى مستوى السياسة شهد عهده تناقص رقعة الخلافة العباسية لحساب العبيديين (الفاطميين)، وعلى المستوى الإنساني أصابه المرض والضعف آخر سنوات حياته، ثم بعد موته اشترى عز الدولة بختيار داره!!

ومن أبدع التراجم التي أوجزت حياة المطيع ما كتبه ابن ظافر الأزدي في «أخبار الدولة المنقطعة» ففي هذه الترجمة كان قلم الأزدي موفقا كما لم نره لأحد غيره، يقول:

«.. وهو أول من طال عمره من خلفاء بني العباس على من تقدم... فكانت خلافته تسعة وعشرين سنة وأربعة أشهر وأحد عشر يوما، ولم يكن له من الخلافة سوى الاسم، والمدبر للأمور والحاكم على الجمهور معز الدولة أحمد بن بويه الديلمي، وحَمَل الخليفةَ معه إلى البصرة –ولم يدخل البصرة خليفة يحارب إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والمطيع لله، ثم حمله معه إلى الأهواز ثم إلى الموصل..

وكان المطيع لله كريما، حليما، وصل العلويين والعباسيين في يوم واحد بنيف وثلاثين ألف دينار على قلة ذات يده[٢]، وكان يُجري على ثلاثة خلفاء خُلِعوا وسُمِلوا، وهم: القاهر والمستكفي والمتقي، لكل واحد منهم في كل شهر مائة دينار.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٤٢، ٣٤٣.
(٢) قلة ذات اليد: كناية عن الفقر.



ووصله خادم من المدينة وذكر ما يلحق حجرة النبي ﷺ من التفريط وقطع المواد من الطيب وغيره عنها فأمر للخادم بعشرين ألف درهم، وتقدم بحمل الطيب، وضم إليه خمسة من الخدم ليكونوا في خدمة الحجرة، وأنفذ مع أبي أحمد الموسوي قنديل ذهب وزنه ستمائة مثقال وتسعة قناديل فضة، وأمره بتعليقها في الكعبة.

ولم يتعرض لأحد من قرابته بسوء، وكان يقول: ما أرى التعرض للأهل، ولا أستجيز الإساءة إلى أحد، فقد كان بلغني من المستكفي ما أحسن الله العاقبة إليّ فيه، وعاد وباله عليه.

وقال قاضي القضاة أبو محمد بن معروف: دخلت على المطيع يوما وهو مُتَشَكٍّ، فقلت: كيف مولانا جعلني الله فداه؟ فقال: لا تقل هذا، ليست الحياة بلا إخوان طيبة...

وفي أيام المطيع أعيد الحجر الأسود إلى موضعه من البيت الحرام في ذي الحجة (٣٣٩هـ)، وكان أَخْذُه في أيام المقتدر، وأنه أقام عند القرامطة اثنين وعشرين سنة إلا شهرا.

ثم تحكمت الديلم على الخليفة فَضَمَّن القضاء لابن أبي الشوارب بمائة وعشرين ألف دينار في كل سنة، ثم فُلِج وثَقُل لسانه، وكتم أمره ثلاث سنين، وخلع نفسه عن الأمر طائعا غير مكره لابنه الطائع لله أبي بكر عبد الكريم بن الفضل بن المقتدر...

وفي أيامه مات القائم صاحب المغرب محمد بن عبيد الله (٣٠ شوال ٣٣١هـ) ومات ابنه المنصور (٣٠ شوال ٣٤١هـ) ودخل جوهر (الصقلي) إلى مصر مِن قِبل المعز (لدين الله الفاطمي) وخرجت مصر والشام والحجاز والمغرب وصقلية عن بني العباس.

وفي أيام المطيع تغلب نقفور الدمستق على كثير من ثغور المسلمين، وملك حلبًا وأقام بها أياما، وسبى من المسلمين بضعة عشر ألفا... »[١].

وكان المطيع لله بعد خلعه يدعى «الشيخ الفاضل»[٢].

الحمدانيون وجهاد الروم

استقر أمر الحمدانيين في الموصل والجزيرة الفراتية، ثم في شمال الشام، وقد ذكرنا فيما سبق كيف كانت العلاقة بين معز الدولة ثم ابنه بختيار مع ناصر الدولة الحمداني ثم ابنه أبي

---

(١) ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٤١١ وما بعدها.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٢٢٤.

تغلب.. وبقي أن نذكر أخبار الجزء الآخر من الدولة الحمدانية والذي مركزه في الشام وعاصمته حلب حيث يستقر فيه سيف الدولة الحمداني، وهو الجزء الذي تولى جهاد الروم في تلك الفترة.

ونستطيع أن نقسم الحرب بين سيف الدولة الحمداني وبين الروم البيزنطيين إلى ثلاث مراحل؛ المرحلة الأولى هي أقرب إلى التعادل أو توازن القوى حيث كانت الحرب سجالا بينهما غير أن قلة عدد وعدة سيف الدولة الحمداني بالمقارنة مع الامبراطورية البيزنطية يجعلها بطولات كبيرة لسيف الدولة على المستوى المعنوي أو التقديري، أما على المستوى العسكري والحربي فلا يمكن اعتبارها نصرا أو تفوقا على الروم، والمرحلة الثانية هي تفوق واضح للروم البيزنطيين وهزائم قاسية مريرة لسيف الدولة، ذلك أن الروم كانوا قد أعطوا لسيف الدولة قدره من الاهتمام بعدما بدا لأول وهلة واليا على إمارة غير مستحق لكثير اهتمام فقاتلوه قتال الأنداد، كذلك فإن الروم في ذلك الوقت تمتعوا بقادة عسكريين تاريخيين بلغوا شأنا عظيما في القوة والكفاءة، والمرحلة الثالثة هي مرحلة النكبات حيث حقق الروم انتصارات ساحقة واستولوا على عاصمة الجهاد والثغور «طرسوس» وهددوا ميافارقين وهي عاصمة سيف الدولة نفسه، وتوغلوا في الشام حتى كادوا أن يستولوا على أنطاكية!!

١) مرحلة توازن القوى (٣٣٥ – ٣٤٥ هـ)

تبادل الروم والمسلمون الأسرى (٣٣٥هـ) وقام بعملية التبادل نصر الثملي –أمير الثغور التابع لسيف الدولة الحمداني – وكان أسرى المسلمين نحو ألفين وخمسمائة أسير، وهم يفوقون أسرى الروم بمائتين وثلاثين فدفع سيف الدولة فداءهم.

وانطلق سيف الدولة في غزوة إلى بلاد الروم (٣٣٧هـ) ما يدل على استعداده وثقته بالنصر، لكنه هُزِم أمام الجيش الرومي الكثيف بل وخسر بلدة مرعش ثم اقتحموا ثغر طرسوس فأوقعوا بأهله بأسا شديدا، فكانت حملة فاشلة وهزيمة قاسية.

غير أنه عاود المحاولة مرة أخرى (٣٣٩هـ) فتوغل في بلاد الروم فاتحا ومنتصرا وسقطت أمامه حصون كثيرة وحاز الغنائم الهائلة وأسر عددا كبيرا، ثم واصل توغله في أرض الروم حتى ابتعد عن الحكمة وغره النصر المتتابع، لهذا ما إن انتهى من التوغل وعاد إلى بلاده حتى كان الروم قد أعدوا له كمينا قاتلا على طريق عودته، فاستطاعوا هزيمته أبشع

هزيمة، واستخلصوا أسراهم وغنائمهم، وفوق هذا قتلوا غالب جيشه حتى إن سيف الدولة نجا بصعوبة بالغة في عدد قليل من جنوده[١]، وذلك لأنه كان في مؤخرة الركب[٢].

ثم أخذ الروم زمام المبادرة فهاجموا مدينة سروج (٣٤١هـ) فقتلوا وأسروا وغنموا الأموال والنفائس وخربوا المساجد[٣]، وردَّ عليهم سيف الدولة (٣٤٢هـ) بتوغل كبير في أرض الروم «فقتل منهم خلقا كثيرا وأسر آخرين، وغنم أموالا جزيلة، ورجع سالما غانما»[٤].

ثم حقق سيف الدولة نصرا عظيما (ربيع الأول ٣٤٣هـ) إذ دخل وتوغل في أرض الروم وخاض معارك قوية مع جيوش محلية فهزمهم وقتل منهم وأسر وغنم، وكان من بين من قتلهم قسطنطين بن الدمستق، مما كان له أثر عظيم في الروم فجمع الدمستق جيشا كبيرا واستعان به بفرق المرتزقة من الروس والبلغار وانطلق إلى أملاك سيف الدولة الذي تصدى له ودار بينهما قتال عظيم عند الحَدَث (شعبان ٣٤٣هـ) أسفر بعد الصبر والبسالة عن انتصار كبير للمسلمين، وقُتِل كثير من جيش الروم وأُسِر عدد من قادتهم مثل صهر الدمستق وحفيده الشاب وكثير من البطارقة[٥].

وكان الهجوم الرومي التالي مختلفا، إذ دخلت القوات البحرية على خط المواجهة، فهاجم الأسطول البيزنطي مدينة طرسوس (جمادى الآخرة ٣٤٥هـ) وهي خط المواجهة وعاصمة الجهاد البحري وقت استقرار الدولة العباسية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، فاقتحموها وقتلوا من أهلها نحو ألف وثمانمائة رجل، وأحرقوا القرى التي حولها، عندئذ رَدَّ سيف الدولة بتوغل كبير في أرض الروم (رجب ٣٤٥هـ) حتى بلدتي خرشنة وصارخة[٦] واقتحم عدة حصون ثم بقي مستقرا في أذنة[٧] واستقبل هناك رئيس طرسوس وكافأه كي يؤكد سيادته على المنطقة، ثم عاد إلى حلب. على أن الروم الذين لم يواجهوه توجهوا

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٣٣.
(٢) محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي ٦/ ١٦٠.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٤٣.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٥٧.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٥٠.
(٦) مدينتان بالقرب من ملطية، وهي الآن (Malatya) التركية.
(٧) هي الآن مدينة أذنة (Adana) التركية، إلى الشمال الشرقي من مدينة طرسوس.

بجيوشهم إلى ميافارقين فأحرقوا ونهبوا وخربوا وأسروا [١].

٢) مرحلة تفوق الروم (٣٤٧ - ٣٦٣ هـ)

اقتحم الروم (٣٤٧هـ) بلدة آمد ثم ميافارقين وقتلوا ألفا وخمسمائة إنسان، ثم استولوا على مدينة سميساط وأخربوها[٢]، ثم أعادوا اقتحام طرسوس واقتحموا الرها (٣٤٨هـ) فقتلوا وأسروا وغنموا وعادوا دون مقاومة[٣].

وحتى حين عاد سيف الدولة لغزو الروم وحقق توغلا كبيرا في أرضهم (٣٤٩هـ) وصل به إلى خرشنة وسقطت أمامه كثير من الحصون وحقق كثيرا من الغنائم، كرر الروم كمينهم السابق الذي نفذوه قبل عشر سنوات، حيث أوقعوا به في طريق العودة إلى حلب، فاستردوا غنائمهم وأسراهم ثم هزموه هزيمة شنيعة وقتلوا أكثر جيشه ولم ينجُ إلا في فرقة قليلة من جنوده بصعوبة بالغة، ودفع بهذا ثمن استبداده بالرأي وإصراره على العودة من طريق حلب رغم النصائح التي بذلها له أهل طرسوس أن لا يعود من طريق حلب الذي استولى عليه الروم وأن يعود معهم من طريق طرسوس، وكان ثمنا فادحا وغاليا، إذ انتهى به عصر التوغل في أرض الروم وبدأ عصر الهزائم القاسية، حتى لقد كان يطلب الهدنة والتفاوض ولم يكن يُجَب إلى ما طلب!

في العام التالي (٣٥٠هـ) جرت محاولات حربية أخرى من والي أنطاكية لكنه وقع في كمين للروم فانهزم أكثر جيشه ونجا هو بصعوبة، والمحاولة الأخرى للقائد العسكري نجا وهو من قواد سيف الدولة الحمداني إذ استطاع التوغل في أرض الروم على حين غرة منهم (رمضان ٣٥٠هـ) فغنم أموالا كثيرة وأسر من الروم وعاد سالما دون مواجهة.

ثم شهدت الحرب بين الروم والحمدانيين تطورا كبيرا لصالح الروم، فمنذ هذه اللحظة سيكون الروم الأعلى كعبا والأقوى يدا وبطشا، لأكثر من سبب، منها:

١- أن بيزنطة ألقت بثقلها في حرب سيف الدولة الحمداني فسيظهر منذ الآن نقفور امبراطور

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٥٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٦٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٦٣.

الروم الذي سيقود الحرب بنفسه متسلحا بالآلة العسكرية الرهيبة للامبراطورية البيزنطية.

٢- ضعف سيف الدولة الحمداني عسكريا بعد الهزائم التي نزلت به، وضعف جيشه معنويا.

٣- أصيب سيف الدولة بفالج لمدة سنتين (٣٥٠ - ٣٥٢هـ) ثم تعافى منه ببطء(١)، وهو ما منعه -في رأي بعض المؤرخين- من مدّ نفوذه إلى طرسوس(٢).

٤- الاضطرابات الداخلية في إمارة سيف الدولة نفسه، إذ تمرد عليه بعض الولاة على المدن واستقلوا عنه كابن الزيات والي طرسوس (٣٥١هـ) وكالقائد نجا الذي هو من قواد سيف الدولة (٣٥٢هـ)، كما انشغل أكثر من مرة بحروب وغارات الأعراب في بادية الشام، وهم - كعادة اللصوص وقطاع الطرق- أبعد الناس عن تقدير الموقف العام وأكثرهم انشغالا بمطامعه الخاصة، وكم تدفع الدولة ثمنا فادحا من الأرواح والدماء بسببهم.

٥- عدم وجود الظهير سواء من الحمدانيين في الموصل أو البويهيين في بغداد، والخليفة مغلوب على أمره لا يملك لنفسه سلطانا فضلا عن أن يعين سيف الدولة، ثم إن القرامطة يقاتلون العبيديين (الفاطميين) في جنوب الشام وما من أحد يفكر في إعانته.

٦- استبداد سيف الدولة وسوء سياسته على أكثر من مستوى، حتى إن ظلمه لفرع من عائلته الحمدانيين دفع بهم إلى الانحياز للروم والقتال معهم، وليس هذا مبررا بالطبع، فكانوا أقسى على المسلمين من الروم بما لهم من خبرة سابقة بأحوال المسلمين وأراضيهم وبلادهم، كذلك استبداد بعض ولاته ببعض البلاد كما في حران (٣٥٢هـ) وأنطاكية (٣٥٤هـ) مما جعل تلك المناطق تستغل حالة الضعف التي يمر بها سيف الدولة أمام الروم فتتمرد عليه فيزيد الوضع سوءا وتزيد الأزمة تعقدا ويزيد جانب المسلمين ضعفا أمام الروم.

وقبل أن نبدأ في استعراض الحروب بين الروم والحمدانيين نتوقف قليلا مع نقفور، قائد الجيوش، وملك الروم الذي سيكون رجل هذه المرحلة، وعلامة في تاريخ هذه الفترة.

كثيرا جدا ما أخبر التاريخ بأقوام دخلوا في الإسلام ثم ظهر منهم أبطال كبار دخلوا تاريخ الدنيا، وقليلا جدا ما كان يحدث العكس، أن يتنصر مسلم ثم يصير من قادة الحرب

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٢٣٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٩.

(٢) د. علية الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية ص٥٢.

على المسلمين، من هؤلاء كان نقفور هذا.

كان أبوه ابن الفقاس رجلا من المسلمين من أهل طرسوس، ثغر الجهاد ضد الروم، فتنصر أبوه ثم نشأ هذا الفتى نصرانيا، ونبغ في الحرب وتدرج به الحال حتى صار الدمستق الوالي على آسيا الصغرى في الإمبراطورية البيزنطية، وفي عودته من إحدى حروبه مع المسلمين كان الامبراطور الروماني أرمانوس قد توفي وترك ولديه الصغيرين، فرأت القيادات العسكرية أن يكون هو الوصي عليهما حتى يكبرا فيدير شؤون الإمبراطورية، فكان هذا، وتزوج من أرملة الامبراطور، واستقر له الأمر[١]، يقول ابن الأثير: «جعل همته قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها وتم له ما أراد باشتغال ملوك الإسلام بعضهم ببعض فدوخ البلاد، وكان قد بنى أمره على أن يقصد سواد البلاد فينهبه ويخربه فيضعف البلاد فيملكها وغلب على الثغور الجزرية والشامية وسبى وأسر ما يخرج عن الحصر وهابه المسلمون هيبة عظيمة ولم يشكوا في أنه يملك جميع الشام ومصر والجزيرة وديار بكر»[٢]، ويصفه ابن كثير بأنه كان «من أغلظ الملوك قلبا، وأشدهم كفرا، وأقواهم بأسا، وأحدهم شوكة، وأكثرهم قتلا وقتالا للمسلمين في زمانه، استحوذ في أيامه - لعنه الله - على كثير من السواحل، وأكثرها انتزعها من أيدي المسلمين قسرا، واستمرت في يده قهرا، وأضيفت إلى مملكة الروم قدرا... وبالغ في الاجتهاد في قتال الإسلام وأهله، وجدَّ في التشمير، فالحكم لله العلي الكبير. وقد كان لعنه الله لا يدخل في بلد إلا قتل المقاتلة وبقية الرجال، وسبى النساء والأطفال، وجعل جامعها اصطبلا لخيوله، وكسر منبرها، واستنكث مئذنتها بخيله ورجله وطبوله»[٣].

وكان هذا الدمستق قد استكتب أحد من تنصروا من العرب قصيدة طويلة في سب الإسلام والنبي والتوعد بالقضاء على الدين كله والعزم على غزو مكة، وهي القصيدة التي تولى الرد عليها فيما بعد الإمام ابن حزم رحمه الله بقصيدته المشهورة.

وقد كان أسلوبه في الحرب أن يقصد «سواد المدن والقرى فيغزوها ويحرقها ويسبي أهلها ومواشيها، وإذا بلغ وقت الحصاد خرج وأحرق جميع الغلات وترك أهل المدن يموتون

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٨٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢٠.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٧٧.

جوعا، وكان لا يزال يفعل ذلك بهم سنة بعد سنة إلى أن تدفعهم الضرورة إلى تسليم المدن إليه، فملك بذلك الثغور الشامية بأسرها، والثغور الجزرية وقتل من أهلها وسبى ما لا يحيط بعدده إلا الله تعالى لكثرته، حتى كانت غزواته قد صارت كالنزهة لأصحابه؛ لأنه لم يكن يقصد بهم أحدا[1] ولا يخرج بين أيديهم وكان يقصد حيث يشاء ويخرب كيف أراد من غير أن يلقاه أحد من المسلمين ولا غيرهم ولا يدفعه عما يريده دافع ولا مانع»[2].

بدأت هذه الموجة من الحروب بذلك الهجوم الكبير الذي نفذه الدمستق على بلدة عين زربى (المحرم ٣٥١هـ)، فاستولى عليها بالأمان لكنه رغم هذا أقام فيها مذبحة هائلة وأباحها لجنوده الذين نهبوا ما استطاعوا نهبه ثم أحرقوا ما لم ينهبوه، وهدم المسجد الجامع وكسر منبره، وقطعوا حولها أربعين ألف نخلة، ثم اتخذها معسكرا يبث منه الفرق والسرايا العسكرية فاستولى على أربعة وخمسين حصنا للمسلمين بالأمان أو بالحرب، ثم هدم أسوار المدينة لئلا تصلح لدفاع أو قتال، وحاول ابن الزيات والي طرسوس التصدي له بأربعة آلاف إلا أنه تلقى هزيمة قاسية قُتِل فيها أخوه، ولما عاد إلى طرسوس وجد أهلها قد أعادوا الخطبة لسيف الدولة الحمداني بعد أن كان قد تمرد عليه فانتحر غرقا، وبعد أن أمضى الدمستق واحدا وعشرين يوما في عين زربى عاد إلى بيزنطة - قيل بسبب حلول وقت صيام النصارى- تاركا الجيش الرئيسي في قيسارية[3].

لهذا، فحين خرج الدمستق مرة أخرى من بيزنطة خرج في فرقة صغيرة فلم يلفت الانتباه، فلما وصل إلى جيشه انطلق به مباشرة نحو حلب، عاصمة سيف الدولة الحمداني، فوصل إليها قبل أن ينتبه إليه أحد، فأوقع بسيف الدولة الحمداني هزيمة سهلة قتل فيها فرعا كاملا من العائلة الحمدانية -وهم أبناء داود بن حمدان- وفر سيف الدولة، واستولى الدمستق على حلب وعلى دار سيف الدولة فيها فأخذ منها ما شاء من الأموال والسلاح والخيول والبغال والكنوز والنفائس التي يمتكلها أمثال الأمراء والملوك، وكانت الشعوب المسلمة -كالعادة- خيرا من أمرائها وملوكها، فكان أهل حلب خيرا من سيف الدولة في بسالتهم الأسطورية وصمودهم الرهيب،

(١) لم يكن يقصد أحدا: أي لم يكن يواجه الجيوش أو الحاميات العسكرية.
(٢) د. علية الجنزوري: الحروب الصليبية؛ المقدمات السياسية ص١٨١.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ١٣٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٢، ٢٧٣، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٧٣.

فقد وقفوا بغير قائد يصدون اقتحام الروم ويدافعون عن مدينتهم، حتى عجز الروم عن اقتحامها، وحين استطاعوا هدم جزء من السور بناه الحلبيون في الليل، ثم جاءت الأزمة من أهل السلطة أنفسهم، إذ بانهيار سيف الدولة وانسحابه تحولت الشرطة إلى نهب الأموال واقتحام المنازل بدلا من أن تقف مع الناس في جهادهم، وعندئذ اضطرب المدافعون عن المدينة واضطروا إلى الدفاع عن بيوتهم، فلما فرغت الأسوار من المدافعين استطاع الروم اقتحام حلب، وكأن السلطة في حلب كانت من عملائهم فحققت لهم ما عجزوا عنه[١]!

اقتحم الروم المدينة فأعملوا السيف في الناس حتى تعبوا من القتل، وحرروا أسراهم البالغ عددهم ألفا وأربعمائة فحمل أولئك الأسرى السلاح فقتلوا في المسلمين حتى تعبوا، وأسر الروم بضعة عشر ألفا من أطفال المسلمين وبناتهم بخلاف ألفين ومائتين من الرجال، ونهبوا ما استطاعوا من الأموال ثم أحرقوا ما عجزوا عن نهبه، وأحرقوا المساجد، وقد ظلت هذه المذبحة قائمة تسعة أيام، وهرب من استطاع من أهل حلب فتحصنوا في القلعة الحربية للمدينة، وفكر الدمستق في العودة إلى بيزنطة بعد أن حقق نصرا لم يحلم به أحد من الروم، لكن ابن أخت الإمبراطور أصر على الاستيلاء على القلعة الحربية التي يعتصم بها من بقي من أهل حلب، فلما تنازعوا تقدم ابن أخت الإمبراطور بفرقة نحو القلعة وهناك ألقيت عليه الحجارة والسهام فقُتِل، فعندئذ قتل الدمستق أسرى المسلمين –ألفين ومائتي أسير– انتقاما له، ثم عاد إلى بيزنطة، وقد أعلن في الناس أنه قادم إليهم في العام القادم ليملك حلب نهائيا[٢].

بعدها أعاد سيف الدولة بناء عين زربى (جمادى الآخرة ٣٥١هـ)، مستغلا الثورة الداخلية في بيزنطة والتي جعلت نقفور امبراطورا، وجعلت وتزيمسكيس (أو الشمشيق كما باللهجة العربية) دمستقا، فأرسل بجيش من أهل طرسوس بقيادة حاجبه فدخلوا بلاد الروم وحققوا انتصارات صغيرة ثم اتبعهم الروم فانتزعوا حصنا وملكوه، وانطلق جيش آخر بقيادة نجا غلام سيف الدولة فاستولى على حصن زياد وهزم جيش الروم هناك واستسلم له خمسمائة من جنودهم، لكن العام لم ينته إلا وقد حقق الروم نصرا كبيرا آخر بأسرهم أبي فراس الحمداني أمير بلدة منبج[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٣ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٦.



وتكررت هذه الإغارات الصغيرة من أهل طرسوس ومن نجا في العام التالي (٣٥٢هـ) ولكنها لم تكن مؤثرة[1]، ثم إن الروم أيضا ردوا على هذا بهجمة قوية على الرها (ربيع الأول ٣٥٢هـ) وعادوا بالغنائم والأسرى دون مقاومة.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٩.

٣) مرحلة النكبات

واستمرت هجمات الروم على ديار المسلمين بلا مقاومة، فقد حاصروا المصيصة(١) وكادوا يقتحمونها لولا بسالة أهلها في الدفاع عنها والصبر عليها، فلما عجزوا أحرقوا سَوَادها(٢) وسواد أذنة وطرسوس التي حاصروها وعجزوا عن اقتحامها لبسالة أهلها الذين كادوا يأسرون قائدا كبيرا في الجيش واستطاعوا أسر بطريرك كبير من رجال الدين، فقتل الروم في هذه الجولة الحربية خمسة عشر ألف مسلم (٣٥٣هـ)، ولولا أن الله أنزل الغلاء والوباء بهذه المنطقة ما رجعوا عنها(٣). وفي ذلك الوقت كان معز الدولة البويهي مشغولا بحرب أبي تغلب الحمداني بين الموصل ونصيبين وبغداد، وهي واحدة من حروبه الفاشلة التي ذكرناها سابقا، ولم يرفع أحدهما همته لرفع القتل عن المسلمين، أو لعون الصامدين في بلادهم.

وفي ظل هذا الفراغ الكامل من أمراء المسلمين، بنى نقفور قلعة حربية في قيسارية لتكون مركزا متقدما للعمليات ضد المسلمين، ونقل إليها آلة الحرب والأسلحة، فتضاعف الخطر على المسلمين ونبت وضع أمني جديد بهذه المدينة الحربية المتقدمة، سيكون بالغ الأثر في النكبة الكبرى القادمة..

حاول أهل المصيصة وطرسوس تجنب هذا الخطر فراسلوه في دفع إتاوة سنوية فرفض لما يعلمه من ضعفهم وانتشار الفقر والوباء فيهم، فأحرق رسالتهم أمام مبعوثهم حتى احترقت لحيته إهانة وإذلالا ورد عليه بالقول: «أنتم كالحية في الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت، فإن أخذها إنسان وأحسن إليها وأدفأها انتعشت ونهشته وأنتم إنما أطعتم لضعفكم وإن تركتكم حتى تستقيم أحوالكم تأذيت بكم»، وكان الغلاء قد اشتد على أهل المصيصة حتى أكلوا الميتة والكلاب وكثرت فيهم الأوبئة والأمراض حتى ليموت نحو ثلاثمائة منهم يوميا،

---

(١) المصيصة: هي الآن (Misis) وتابعة لأضنة (أدنة) (Adana) في تركيا.

(٢) السواد أو الأرباض أو الرستاق: كلها بمعنى الأنحاء والمساحات خارج سور البلدة، حيث الأراضي الزراعية وبعض البيوت والقرى التي لا تتمتع بالحماية الكافية التي توفرها الأسوار الحصينة على المدينة ذاتها.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٨٢، ٢٨٤.



وكان هذا من آثار خطة نقفور القائمة على إحراق وتخريب المحاصيل في كل عام، فلما آتت خطته ثمارها لم يُفلت الفرصة فقاد جيوشه فاقتحم المصيصة (١٣ رجب ٣٥٤هـ) وأقام فيها مذبحة كبرى فقتل عددا غير معروف من الناس وأسر نحو مائتي ألف، ثم انطلق إلى طرسوس فحاصرها فطلب أهلها الأمان فأعطاهم إياه على أن يخرجوا منها بما استطاعوا حمله فحسب، ثم دخل المدينة (١٥ شعبان ٣٥٤هـ) فجعل المسجد الجامع اصطبلا للخيول والدواب وأحرق المنبر، وبدأ في تعميرها لتكون مركزا متقدما أفضل للعمليات الحربية ضد المسلمين، كما استولى على بلدة كفربيا وحصن مرعش[(١)].

وقد ظلت آثار هذا الاقتحام موجودة على باب طرسوس بعد ذلك بثلاثة قرون -كما يروي لنا ابن العديم- وكان من أهم وأبرز ما فعله نقفور أن وقف على منبر طرسوس وصاح فيمن حوله: «أين أنا؟ فقالوا: على منبر طرسوس، فقال: لا ولكني على منبر بيت المقدس، وهذه كانت تمنعكم من ذلك»[(٢)].

ومنذ هذه اللحظة صارت طرسوس مدينة بيزنطية بعد ثلاثة قرون من دخولها في الإسلام، وستظل هكذا قرونا أخرى -بين الحكم البيزنطي والصليبي الفرنجي والأرمني- حتى يستعيدها العثمانيون، وينقل لنا ياقوت الحموي صورة من المأساة التي عاشتها المدينة آنذاك وهو يؤرخ لها في موسوعته «معجم البلدان» فيقول:

«اشترط (نقفور) تخريب الجامع والمساجد وأنه من أراد المقام في البلد على الذمة وأداء الجزية فعل وإن تنصر فله الحباء والكرامة وتقر عليه نعمته، قال: فَتَنَصَّر خلق فأُقِرَّت نِعَمُهم عليهم، وأقام نفر يسير على الجزية وخرج أكثر الناس يقصدون بلاد الإسلام وتفرقوا فيها، وملك نقفور البلد فأحرق المصاحف وخرب المساجد وأخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان جمع من أيام بني أمية إلى هذه الغاية...

ونصب في ظاهرها[(٣)] عَلَمَيْن ونادى مناديه: من أراد بلاد الملك الرحيم وأحب العدل

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ١٦٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٨٧، وابن العديم: زبدة الحلب ص٨٣.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ص٨٤.

(٣) أي ظاهر طرسوس.

والنصفة والأمن على المال والأهل والنفس والولد وأمن السبل وصحة الأحكام والإحسان في المعاملة وحفظ الفروج وكذا وكذا وعَدَّ أشياء جميلة فليَصِرْ تحت هذا العلم ليقفل مع الملك إلى بلاد الروم، ومن أراد الزنا واللواط والجور في الأحكام والأعمال وأخذ الضرائب وتملك الضياع عليه وغصب الأموال وعَدَّ أشياء من هذا النوع غير جميلة فليحصل تحت هذا العلم إلى بلاد الإسلام فصار تحت علم الروم خلق من المسلمين ممن تنصر وممن صبر على الجزية.

ودخل الروم إلى طرسوس فأخذ كل واحد من الروم دار رجل من المسلمين بما فيها ثم يتوكل ببابها ولا يطلق لصاحبها إلا حمل الخف فإن رآه قد تجاوز منعه حتى إذا خرج منها صاحبها دخلها النصراني فاحتوى على ما فيها.

وتقاعد بالمسلمين أمهات أولادهم[1] لما رأين أهاليهن وقالت: أنا الآن حرة لا حاجة لي في صحبتك فمنهن من رمت بولدها على أبيه، ومنهن من منعت الأب من ولده فنشأ نصرانيا فكان الإنسان يجيء إلى عسكر الروم فيودع ولده ويبكي ويصرخ وينصرف على أقبح صورة حتى بكى الروم رقة لهم وطلبوا من يحملهم فلم يجدوا غير الروم فلم يكروهم إلا بثلث ما أخذوه على أكتافهم أجرة حتى سيروهم إلى أنطاكية.

هذا وسيف الدولة حي يرزق بميافارقين والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين وعطلوا هذا الفرض ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ونسأله الكفاية من عنده ولم تزل طرسوس»[2].

وكان الاستيلاء على المصيصة[3] وطرسوس دافعا لمزيد من الاندفاع الرومي إلى بلاد المسلمين، وقد عاود الروم مهاجمة ديار المسلمين، فحاصروا آمد (شوال ٣٥٥هـ) ودارا وهددوا نصيبين التي يقيم بها سيف الدولة حتى هرب منها كثير من أهلها، وكاد سيف الدولة أن يهرب أيضا، لولا أن الروم غيروا اتجاههم إلى الشام فحاصروا أنطاكية ثم فشلوا في

---

(١) أمهات أولادهم: أي الجاريات الروميات.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٢٨، ٢٩.

(٣) منذ أنشئت المصيصة في العصر الأموي والهدف هو أن تكون سياجا أماميا لأنطاكية. محمد عبد الهادي شعيرة: المرابطون في الثغور البرية العربية الرومية عند جبال الطوروس، منشور في كتاب: إلى طه حسين، ص١٥٨.

اقتحامها أيضا لاستبسال أهلها وصمودهم في الدفاع عنها، وبطبيعة الحال فإن فشل الاقتحام يعني أن الروم قد نهبوا سواد المدينة وما حولها من القرى والأنحاء وقتلوا ما استطاعوا من الناس[١].

ثم توفي سيف الدولة الحمداني (٣٥٦هـ) لتدخل الشام بعده مرحلة أخرى من تاريخها!

نهاية سيف الدولة الحمداني

توفي سيف الدولة وقد غزا الروم أربعين غزوة له وعليه، فحفظ بغزواته بيضة العرب والإسلام، ولولاه لتقدم الروم في الشام، وربما استصفوها كلها بعد ما ثبت من ضعف العباسيين[٢].

وقد كان بلاط سيف الدولة في حلب زاخرا بالأدب والفكر، فسيف الدولة نفسه شاعر مُجيد، واستقبل في بلاطه فطاحل الشعراء وعلى رأسهم شاعر العرب الأول: أبو الطيب المتنبي الذي كانت مدائحه لسيف الدولة من الروعة والقوة ما جعلها من عيون أشعار العرب وأدبها الخالد، وكان إكرامه للشعراء أشهر من أن يُذكر حتى قال ابن خلكان: «وأخبار سيف الدولة كثيرة مع الشعراء، خصوصًا مع المتنبي والسري الرفاء والنامي والببغاء والوأواء وتلك الطبقة، وفي تعدادهم طول»[٣].

كما كان في بلاطه رأس الفلاسفة في عصره: أبو نصر الفارابي، وغيره من الأدباء والأطباء وذوي المعرفة، وبهذا جمعت حلب بين الوجهين: العسكري الحربي، والثقافي الحضاري..

بل كان سيف الدولة يرسل بالهدايا والأموال إلى العلماء والأدباء في بلادهم، حتى في بغداد ذاتها! «ينفق نفقات طائلة على علماء بغداد ومهاداة وزرائها وأرباب النفوذ فيها، فكان حماته في دار الخلافة كثارًا استمال بهم الرأي العام البغدادي، فرضي الخلفاء ولم يخالفوه لأنه أبقى لهم الخطبة وإن ضرب السكة باسمه»[٤].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٩٥.

(٢) محمد كرد علي: خطط الشام ١/ ١٩٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٠٥.

(٤) محمد كرد علي: خطط الشام ١/ ١٩٤.

ولئن كان سيف الدولة يدين بما تم له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم، في المحل الأول، فليس من شك في أنه مدين بذلك، في المحل الثاني، لعطفه على الفنون والعلوم ورعايته لها(١).

وبرغم كون سيف الدولة من الشيعة إلا أنه لم يحاول إشعال الصراع المذهبي في مناطقه، ولم يحاول إظهار التناقض السني الشيعي، وهذا مما يُحسب له، وحتى الأذان لم يُضَف فيه «حي على خير العمل» –الزيادة التي للشيعة– إلا بعد موته أيام ابنه سعد الدولة(٢).

ولقد استحل سيف الدولة للقيام بهذه الأبهة الضخمة في مملكته الصغيرة مصادرة رعيته، فكان قاضيه أبو الحصين يقول: «كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك» ولذلك كثرت مصادرة كل غني من التجار وغيرهم، فخربت الأصقاع الشمالية في أيامه... جائرًا على رعيته، اشتد بكاء الناس عليه ومنه(٣).

ومن روائع مدح المتنبي له قصيدته الميمية الذائعة الصيت التي نلتقط منها هذه الأبيات التي بدأها بالعتاب:

واحـــر قلبـــاه ممـــن قلبـــه شـــبم	ومـن بجسـمي وحـالي عنـده سـقم
مـا لي أُكَـتِّم حبـا قـد بـرى جسـدي	وتـدعي حـب سـيف الدولـة الأمـم
إن كـــان يجمعنـــا حـــب لغرتـــه	فليــت أنَّــا بقــدر الحــب نقتســم

وهنا يواسيه أن لم يُدرك إصابة العدو الذي أفلت منه:

قــد زرتــه وســيوف الهنــد مغمــدة	وقــد نظــرت إليــه والســيوف دم
فكـــان أحســـن خلـــق الله كلهـــم	وكان أحسن ما في الأحسن الشيم
فــوت العــدو الــذي يممتــه ظفــر	في طيـــه أســـف في طيـــه نعـــم
قـــد نـــاب عنـــك شـــديد الخـــوف	لــك المهابــة مــالا تصــنع الــبهم
ألزمــت نفســك شــيئا لــيس يلزمهــا	أن لا يـــواريهم بحـــر ولا علـــم

---

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٢٤٣.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ص١٠٠.

(٣) محمد كرد علي: خطط الشام ١/ ١٩٤.

أكلما رمت جيشا فانثنى هربا ... تصرفت بك في آثاره الهمم
عليك هزمهم في كل معترك ... وما عليك بهم عار إذا انهزموا
أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر ... تصافحت فيه بيض الهند واللمم

ثم يعود إلى العتاب الممزوج بالفخر، والشكوى من سماع سيف الدولة لأقوال الحاسدين فيه ممن لا تبلغ مودتهم لسيف الدولة ما تبلغه عند المتنبي:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ... بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر العمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم
و جاهل مَدَّه في جهله ضحكي ... حتى أتته يد فراسة وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم

وهنا يعلن فراقا فيه فخر وألم وعتاب:

يا من يعز علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة ... لو أن أمركم من أمرنا أمم
إن كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكم ألم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي ... أنا الثريا وذان الشيب والهرم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد مكان لا صديق به ... وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
هذا عتابك إلا أنه مقة[1] ... قد ضُمِّن الدّرّ إلا أنه كَلِم

---

(١) مقة: محبة وود.

اضطراب أحوال الحمدانيين

في العام الذي مات فيه سيف الدولة الحمداني (٣٥٦هـ) وقع النزاع بين ناصر الدولة الحمداني وابنه حمدان من جهة وبين باقي الأبناء وعلى رأسهم أبو تغلب من جهة أخرى، فحَبَسَ أبو تغلب أباه ناصر الدولة في قلعة كوشي (٢٤ جمادى الأولى ٣٥٦هـ)[١]، ثم هزم أبو تغلب أخاه حمدان (٣٥٨هـ) فلم يلبث أبوه ناصر الدولة بعدها شهورا ثم مات (ربيع الأول ٣٥٨هـ)[٢]، وفي الشام أيضا تقاتل أبو فراس الحمداني مع ابن اخته أبو المعالي، واستطاع أبو المعالي قتل خاله أبي فراس (٣٥٧هـ)، وحاول أبو البركات الحمداني أن يستولي على ميافارقين التي كانت عاصمة سيف الدولة في سنواته الأخيرة فتصدت له زوجة سيف الدولة التي أدارت معركة بذكاء واقتدار حتى هزمته وأعادته عن المدينة مقابل مائة ألف درهم، كما استولى قرعويه - غلام سيف الدولة- على حلب وطرد منها أبا المعالي شريف بن سيف الدولة (٣٥٨هـ).

وعندما مات ناصر الدولة استولى أبو تغلب على أملاك أخيه حمدان، وأرسل جيشا لحربه بقيادة أخيه أبي البركات فهرب حمدان والتجأ إلى بختيار في بغداد (رمضان ٣٥٨هـ) الذي أصلح بينهم صلحا لم يستمر طويلا ثم اندلع القتال بين الإخوة ثانيا وأسفر بعد كثير من محطات الحرب والخدعة عن انتصار أبي تغلب على إخوته جميعا (٣٦٠هـ).

ولا ريب أن مثل هذه الأجواء كانت مثالية للروم الذين كانوا يتوغلون في أرض المسلمين بلا مقاومة نظامية اللهم إلا المقاومة الشعبية الإسلامية الرائعة، ولذا حاصروا أنطاكية (ذي القعدة ٣٥٧هـ) وعجزوا عن اقتحامها، فقتلوا في سوادها وغنموا وأسروا اثني عشر ألفا من المسلمين. ثم جاء امبراطور الروم على رأس جيشهم الكبير في العام التالي (٣٥٨هـ) فأخذ في اقتحام مدن الشام والاستيلاء عليها، فاستولى على كثير من القرى والبلاد ونهبها ودمرها وأحرق سواد طرابلس، ونشر الرعب حتى هرب أصحاب البلاد منها فسقطت أمامه حمص فأحرقها، ثم عاث فسادا في بلاد الساحل الشامي، وظل مدة شهرين يفعل في البلاد ما يشاء بلا مواجهة مع أي جيش، حتى عندما هاجمت فرقة من الجيش بلدة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٠١.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣١١.

كفر توثى (كفر سوسة) في الجزيرة الفراتية لم يفكر أبو تغلب الحمداني في مقاومتهم.

وقد فكر في الاستيلاء على أنطاكية وحلب إلا أنه عاد لعدة أسباب منها: ما سمعه من تجهز أهل هذه البلاد للحرب، ولما انتشر فيهم من الأمراض والأوبئة حينئذ، ولطول غيابهم عن بلادهم، كما أن قرعويه -والي حلب- توصل إلى اتفاق معهم فرجعوا.

لكنهم في العام التالي (٣٥٩هـ) اقتحموا أنطاكية -بخطة اشترك فيها نصارى أنطاكية الذين خانوا المسلمين- وأقاموا المذبحة كالمعتاد ثم نفوا العجائز والكهول وأسروا أكثر من عشرين ألفا من الأطفال والنساء والرجال، ومنها انطلقوا إلى حلب التي كانت تشهد هي الأخرى حربا بين أبي المعالي بن سيف الدولة وقرعويه -قائد أبيه الذي استولى عليها منه- فانسحب أبو المعالي وحاصر الروم قرعويه داخل حلب واقتحموها فاعتصم أهلها بقلعتها الحربية الحصينة، ثم سعوا في عقد صلح مع ملك الروم ليعود عنهم مقابل أموال ورهائن وبشرط أن يضمن قرعويه بقاء الحالة التجارية كما هي في حلب إن أراد الروم الغزو، بمعنى أن قرعويه سيضمن تواصل الإمدادات من حلب للروم وهم يغزون المسلمين! وفي طريق العودة استولى الروم أيضا على ملاذ كرد وصارت بلاد المسلمين أمامهم مفتوحة بلا راعٍ[١].

لكن الله أنعم على المسلمين من حيث لم يحتسبوا، إذ تآمرت زوجة نقفور مع بعض قادته العسكريين على قتله، إذ كان ينوي جعل الملك في أولاده هو -رغم أنه ليس من البيت الملكي كما ذكرنا- وعزم على إقصاء أولاد الامبراطور السابق، فتمَّ لهم ما أرادوا، وقُتِل (٣٥٩هـ)[٢]، ولا ريب أن موته كان خسارة فادحة تحسر عليها البيزنطيون حتى لقد بالغ المؤرخ اليوناني المعاصر ليو الشماسي فتوقع أنه لو عاش لجدد شباب الدولة البيزنطية ومدَّ حدودها حتى «الهند شرقا وتخوم الأرض غربا»[٣].

على أن الحمدانيين لم ينتهزوا هذه الفرصة لا في هجوم ولا حتى في تحصين مواقعهم، بل استمر النزاع بينهم، وكانت همة أبي تغلب في السيطرة على حران (٣٥٩هـ) مع عدم رضا

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣١٨، ٣١٩.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٢٠١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢٠، ٣٢١.

(٣) د. علية الجنزوي: الحروب الصليبية ص١٢٥، وهي تنقل عن: د. الباز العريني: الدولة البيزنطية ص٤٨٩.

أهلها به، ومواجهة غارات الأعراب في الجزيرة الفراتية إذ استطاع بنو نمير قتل أحد ولاته، كما استمر النزاع بين قرعويه غلام سيف الدولة وأبي المعالي بن سيف الدولة، ولما اصطلحا (ربيع الآخر ٣٥٩هـ) كانت الخطبة في بلادهما للخليفة العبيدي (الفاطمي) لا للعباسي كحال أبي تغلب الحمداني. كما استمر النزاع بين أبي تغلب وأخيه حمدان واستولى أبو تغلب على قلعة ماردين (شوال ٣٦١هـ). ويكفي هذا دليلا على الفرقة والضعف وسوء الحال[١].

فعاد الروم بهجوم كبير (٣٦١هـ) على الرها ونواحيها والجزيرة الفراتية حتى بلغوا نصيبين -العاصمة الثانية للحمدانيين في الموصل- فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد، ولم يفعل أبو تغلب إلا أن دفع الأموال لكي يوقف تقدمهم إليه في الموصل، وهو الهجوم الذي كان الأقرب والأخطر على أرض العراق، والذي ارتاع له أهل بغداد بعد أن وصلهم المشردون من هذه الديار، غير أن بختيار المستبد اللاهي المنشغل بالصيد وبحرب الأطراف المتمردة عليه لم يتخذ إلا إجراءات شكلية لم يسفر عنها شيء[٢].

وفي المرة الوحيدة التي اتحد فيها جيشان من الحمدانيين استطاع المسلمون إيقاع هزيمة كبرى بالروم، إذ عاود الروم الإغارة على هذه البلاد الخالية من أي جيوش (٣٠ رمضان ٣٦٢هـ) فكتب أحد الولاة إلى أبي تغلب يستغيث به فأرسل إليه جيشا بقيادة أخيه أبي القاسم هبة الله، واستطاعوا وضع خطة محكمة تغلبوا بها على فارق القوة والعدد الكبير لصالح الروم فهزموهم وأسروا قائد جيشهم الدمستق[٣]، وبعض الروايات تتحدث عن غزوة أخرى للمسلمين إذ اجتمع أبو بكر الرازي وابن عيسى الرماني وابن الدقاق -وهم رؤوس علماء بغداد- بعز الدولة بختيار بن بويه وحرضوه على غزو الروم فبعث جيشا لقتالهم فأظفر الله بهم، وقتلوا منهم خلقا كثيرا وبعثوا برؤوسهم إلى بغداد فسكنت أنفس الناس[٤].

❋ ❋ ❋

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢١، ٣٢٣، ٣٣٥.
(٢) راجع هذا الأمر في استعراضنا السابق لسياسة بختيار في بغداد.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٣٦.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٠٩.





الطائع لله

(من ذي القعدة ٣٦٣ هـ حتى رجب ٣٨١هـ)

وهو عبد الكريم بن الخليفة المطيع، «ولم يَلِ الخلافة من اسمه عبد الكريم سواه، ولا من أبوه حي سواه، ولا من كنيته أبو بكر سواه وسوى أبي بكر الصديق ﷺ، ولم يل الخلافة، من بني العباس أَسَنَّ منه، كان عمره لما تولى ثمانيا وأربعين سنة»[١]، وأمه جارية أيضا اسمها غيث أو عتب أو هزار[٢]، وكانت تعيش يوم تولي الخلافة.

وكان أبيض البشرة قوي البنية معتدل الجسم متميزا بأنف كبير جدا[٣].

***

صراع النفوذ على بغداد

استقبل الطائع خلافته والأزمة قائمة بين سبكتكين -زعيم الأتراك وقائد الجيش وحاجب بختيار- وبين بختيار الأمير البويهي، والطرفان على وشك الحرب.. لقد فشلت خطة بختيار في الإيقاع بسبكتكين، كما فشلت خطة سبكتكين في تحريض أمير آخر من البويهيين وتنصيبه مكان بختيار، ومن ثم كان الأتراك في بغداد، وكان الديالمة وبختيار في الأهواز وهم قد أوقعوا بالأتراك هناك وفي البصرة.

وقد كان سبتكين الأعلى كعبا في هذا الصراع بمن معه من الجنود الترك، ثم بحصوله على الشرعية من الخليفة الذي أعطاه لقب الإمارة ولقبه بـ«ناصر الدولة»، بينما صار وضع بختيار صعبا للغاية فحاول استعمال كل أوراقه والاستغاثة بحلفائه بل وبخصومه.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣١٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٥٠، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣١٣، والقلقشندي: مآثر الإنافة ١/ ٣١١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٥٠.

أفرج بختيار عن آزاذرويه -والي الأهواز التركي الذي اعتقله- بل وعينه قائدا للجيش رغبة في أن يتصالح مع الأتراك ويفض اجتماعهم حول سبكتكين، وأفرج عن كل المعتقلين من الأتراك، على أن هذا لم يؤثر كثيرا فانتقل إلى خطوة تالية، إذ ذهب بمن معه إلى واسط حيث استقر أهله، ومن هناك أرسل إلى كل الأطراف: أرسل إلى عمه ركن الدولة البويهي، وإلى ابن عمه عضد الدولة البويهي في فارس، وأرسل إلى خصومه: عمران بن شاهين في البطائح يستنجده ويُسقط عنه الضريبة السنوية ويخطب ابنته لنفسه، وأبي تغلب الحمداني يسقط عنه الأموال[1].

فأما أبو تغلب فقد استجاب له ظاهرا ورأى فيها فرصته كي يستولي هو على بغداد، فتحرك بجيشه من الموصل وظل منتظرا أن يتحرك الأتراك من بغداد وأن تفرغ من الجُنْد ليستولي عليها، وأما عمران بن شاهين فرفض كل عروضه، وأما عمه ركن الدولة فقد أرسل له بجيش يقوده وزيره الشهير الذائع الصيت ابن العميد، كما أمر ابنه عضد الدولة أن يخرج جيشا من فارس نجدة لبختيار، لكن عضد الدولة تلكأ في هذا إذ كان يتمنى أن يهلك بختيار ليحوز هو ملك العراق.

وهكذا.. كل يغني على ليلاه ويبحث عن مطامعه.. والضحايا هم الشعوب الذين يدفعون الثمن، فقد عاشت بغداد في ذلك الوقت انفلاتا أمنيا هائلا، وعاني البغداديون من اللصوص وقطاع الطرق، ولم ينقذهم من هذا جزئيا إلا حين خرج الجيش التركي من بغداد، فدخلها جيش أبي تغلب من بعدهم، فقاوم هذا الانفلات الأمنى وواجه اللصوص والمفسدين.

تحرك جيش الأتراك من بغداد إلى واسط، واصطحبوا معهم الخليفتين: المطيع والطائع، تعبيرا عن الشرعية واستعانة بالنفوذ الديني الروحي على المسلمين.

وفجأة.. حدث ما لم يكن يخطر على بال أحد..

توفي الخليفة المطيع لله، وبعده توفي سبكتكين قائد الجيش، وصار في حكم المؤكد أن المعركة قد حسمت لصالح بختيار الذي لم يشك هو نفسه في انفراط جمع الأتراك وجيشهم

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٤٦، ٣٤٧.



بعد وفاة زعيمهم سبكتكين، غير أن الأتراك فعلوا ما لم يتوقعه أحد فانتظموا تحت قيادة قائد عسكري آخر اسمه الفتكين، فكأنما لم يؤثر فيهم موت سبكتكين، فعادت موازين القوة لصالحهم، وعاد الخطر يظلل بختيار الذي أيقن أنها النهاية.

دارت الحرب في واسط بين الأتراك وبختيار، ويبدو أن الفتكين أراد إرهاق بختيار، فكان القتال أشبه بحرب الاستنزاف، إذ استمرت خمسين يوما والنصر من نصيب الأتراك، والخناق يشتد على بختيار الذي صار يتوسل إلى ابن عمه عضد الدولة بأن يسرع إليه حتى لقد كتب إليه يقول:

فإن كنتُ مأكولا فكن أنت آكلي ... وإلا، فأدركني ولَمَّا أُمَـــــــــزَّقِ

عندئذ أدرك عضد الدولة البويهي أن اللحظة المناسبة قد حانت وأن بختيار صار من الضعف بحيث يمكن الاستيلاء على العراق منه، فجهز جيشه وانطلق على رأسه ثم التحم بجيش عمه ركن الدولة الذي يقوده الوزير ابن العميد في الأهواز، واتجهوا إلى العراق(١).

قلب هذا الوضع ميزان المعركة في واسط، ولا ريب أن الفتكين عض أصابع الندم على أنه لم يدبر لمواجهة شاملة وفَضَّل عليها أسلوب الاستنزاف، فانسحب بجيشه إلى ديالي القريبة من بغداد، وأدار عضد الدولة معركة محترفة استعان فيها بالأعراب المرتزقة ليقطعوا الطرق فغلت الأسعار وقلَّت الأقوات وزاد الحصار على الأتراك واضطروا لاقتحام البيوت، ثم وقعت بينهم الحرب (١٤ جمادى الأولى ٣٦٤هـ) فانهزم فيها الأتراك وقُتِل كثير منهم وانسحب من بقي منهم إلى تكريت(٢).

حينئذ بدأ عضد الدولة تنفيذ خطته في حكم العراق، فتواصل مع قادة جيش بختيار ليتمردوا عليه ولم يكن بختيار يملك أموالا، وتواصل مع بختيار لكي يتشدد في الاستجابة لهم ثم يدعي أنه سيترك الإمارة كلها ليضطرب أمرهم فيرضون به، ثم وعد الطرفيْن بأنه سيتدخل للإصلاح بينهما، فلما نشبت الأزمة كان يدفعها إلى الاشتعال ثم وصل إلى اللحظة المناسبة، فتدخل بدعوى الإصلاح بين الطرفين وظل يتوسل إلى بختيار ظاهرا أن يعود عن

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٤٨، ٣٥٠.
(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٣٨٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٥٠.

قراره بالاعتزال وترك الحكم، وبختيار متشدد ومصر على هذا بنصيحة سرية من عضد الدولة، حتى أعلن عضد الدولة فشله في الإصلاح وأن بختيار مصرٌّ على ترك الحكم لعجزه عن القيام بأموره، فقبض عليه وعلى إخوته وأهله (٢٦ جمادى الآخرة ٣٦٤هـ)، وبهذا نجحت خطته ولا ريب أن بختيار شعر بطعم الغدر مريرا مريرا كما قال الشاعر:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

كان لعزل بختيار أثر مهم جدا، إذ ما إن عرف الخليفة بهذا حتى عاد إلى بغداد وكان في تكريت التي انسحب إليها مع هزيمة الأتراك، ولما وصل بغداد (٨ رجب ٣٦٤هـ) استقبله عضد الدولة استقبالا باهرا حافلا، وأظهر من تعظيم الخليفة ومقام الخلافة «ما كان قد نُسِيَ وتُرِك» واهتم بإعمار دار الخلافة وإصلاحها وأرسل للخليفة أموالا طائلة مع إظهار الخضوع والتبعية كأنها أيام الخلفاء الأقوياء.

على أن ما ظنه عضد الدولة بداية استقرار كان بداية اشتعال الأمور وانقلابها عليه، وقد جاءته الأزمة الكبرى من حيث لا يحتسب.. من أبيه ركن الدولة بن بويه!

صحيح أن العراق ذاتها لم تستقر لعضد الدولة، فقد أعلن المرزبان بن بختيار عصيانه في البصرة، وكذلك فعل ابن بقية –وزير بختيار– في واسط التي ولاها إياه عضد الدولة، ومثلهما فعل سهل بن بشر –وزير القائد التركي الفتكين– في الأهواز، رغم أن عضد الدولة قد أفرج عنه من سجن بختيار وأحسن إليه، وظل عمران بن شاهين على استقلاله بالبطائح، وكل هؤلاء لم يتجرؤوا على هذا إلا حين حرضهم عليه ركن الدولة والد عضد الدولة نفسه، لقد اتخذ ركن الدولة موقفا تاريخيا بحق، فهو قد أعلى تماسك البيت البويهي وقيم الوفاء على رغبة ابنه واتساع ملكه، فأظهر الحزن الشديد على ما فعله ابنه بابن عمه بختيار، وأضرب عن الطعام والماء أياما حتى أصابه المرض وكان حينئذ في الثمانين[1] من عمره، وأرسل إلى ابنه رسائل شديدة اللهجة كلها إصرار بأن يتراجع عما فعله وأن يعيد ابن عمه إلى حكم العراق، وأرسل إلى من تمردوا على ابنه يحرضهم ويثبتهم ويخبرهم أن يصمدوا ويواصلوا تمردهم حتى تصل إليهم جيوشه ضد ابنه عضد الدولة، وقد حاول عضد الدولة استرداد واسط من ابن

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١١٩، وهو ينقلها عن أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ مؤرخ الدولة البويهية ووزيرها، فتقديره للأعمار والولادة أدق من روايات غيره.

بقية لكن جيشه لقى هزيمة شنيعة، وزادت أحواله سوءا بالحصار السياسي والاقتصادي الذي فرضه عليه أبوه، وفشلت محاولات عضد الدولة جميعها في إثناء أبيه عن موقفه سواء من خلال رسائله أو وساطة الوزير ابن العميد أو شرح الوضع في العراق وكيف أن بختيار قد يضيعها بسفهه وسوء سياسته كما كاد أن يحدث في حربه مع الأتراك، أو ببذل ثلاثين مليون درهم سنويا، أو حتى بأن يأتي ركن الدولة بنفسه لإدارة العراق ويرجع عضد الدولة لإدارة فارس كما كان الأمر، ثم هدد آخر الأمر بأنه سيقتل بختيار وأنصاره إن لم يكن سبيل غير ذلك ثم سيترك العراق يحكمها من يستطيع.. بل إن هذا زاد من غضب ركن الدولة وإصراره الكامل على إعادة بختيار وإلا خرجت جيوشه لحرب عضد الدولة، ومع هذا الوضع المتأزم اضطر عضد الدولة لإعادة بختيار ولكنه اشترط عليه أن سيكون بمثابة الوالي على العراق فيخطب له على المنابر ويعين أخاه أبا إسحاق أميرا على الجيش، وعاد إلى فارس (شوال ٣٦٤هـ) وهو ينتظر وفاة أبيه ليعيد الكَرَّة[١].

على أن عودة بختيار أيضا لم تكن عودة لاستقرار الأمور، فقد عاد إلى ما كان عليه من انشغال باللهو واللذات والسفه، وصار ابن بقية مركز قوة يستميل الجنود إليه ويجمع المال لنفسه، فإذا طالبه بختيار بالأموال دسَّ إلى الأجناد خبر الأموال فتذمروا وشغبوا حتى يحصلوا على نصيبهم منها، وصارت العلاقة بين بختيار ووزيره ابن بقية متوترة شائكة[٢]، بينما شهدت علاقته بالخليفة تحسنا ملحوظا إذ تزوج الخليفة من ابنته (١٠ ذي القعدة ٣٦٤هـ)[٣].

عصر عضد الدولة

لم يطل انتظار عضد الدولة كثيرا، ففي العام التالي (٣٦٥هـ) شعر ركن الدولة باقتراب أجله، وأصلح عضد الدولة ما بينه وبين أبيه لئلا يموت وهو غاضب عليه فتضطرب الدولة البويهية الواسعة، فسعى عبر الوزير ابن العميد في الإصلاح بينهما وقد كان، فعهد ركن الدولة بالملك من بعده لابنه عضد الدولة وجعل باقي إخوته ولاة تابعين له، فمؤيد الدولة

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٥٢ وما بعدها.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٥٤.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣١٨.

يحكم الري وأصفهان وفخر الدولة يحكم همدان والدينور، ثم مات ركن الدولة (٣٦٦هـ).

ولم يكن بختيار يجهل مثل هذا، فهو منذ عاد إلى العراق وهو يحاول التحالف مع من استطاع ضد عضد الدولة، فتراسل مع فخر الدولة –أخي عضد الدولة– وأبي تغلب الحمداني وعمران بن شاهين وبعض أمراء المناطق المحلية مثل حسنويه الكردي، لكنّ أحدا منهم لم يُغِثْه حين جد الجد وأتى عضد الدولة بجيوشه، اللهم إلا عمران بن شاهين أمده بالأموال والأسلحة ولم يشارك معه بالرجال، وبالمقابل كان عضد الدولة أيضا يتواصل مع الأمراء وأهالي البلاد ليسهل الاستيلاء عليها وانتزاعها من بختيار، وبمثل هذا فتحت له البصرة أبوابها دون قتال تقريبا إذ دخل عضد الدولة على الانقسام الأهلي بين قبائل ربيعة وقبائل مضر وقد كانت الأخيرة تميل إليه.

حاول بختيار التصالح مع عضد الدولة، لكن محاولات الصلح فشلت نهاية الأمر، وبدأ عضد الدولة في الحشد فاستولى على الأهواز ثم واسط ثم البصرة واستطاع بسياسته الإصلاح بين قبائل ربيعة ومضر بعد مائة وعشرين سنة من النزاع القبائلي فتوحدت البصرة خلفه، وفي البصرة أُسِر غلام تركي كان يحبه بختيار أشد الحب، فحزن عليه أشد الحزن حتى لقد كان حزنه على زوال البلاد من بين يديه هينا بافتراقه عن هذا الغلام، وكان لا يخفي هذا ولا يداريه رغم ما فيه من سوء السيرة والفضيحة فكان يقول علانية: «إن فجيعتي بهذا الغلام أعظم من فجيعتي بذهاب ملكي»، فلما علم أنه أسير أرسل إلى عضد الدولة يعرض عليه ما شاء مقابل هذا الغلام، فكان هذا مما زاده ضعفا عند نفسه وهوانا عند الناس والأمراء[١].

لذا فإن بختيار لم يحاول المقاومة حين أرسل إليه عضد الدولة أن يترك العراق إلى أي مكان آخر (٣٦٧هـ) وله ما يشاء من المال والسلاح وما يحتاجه، فاستجاب له، وعزم على التوجه إلى الشام لأن عضد الدولة حَلَّفه ألا يحاول الاستيلاء على مناطق أبي تغلب الحمداني لما بينهما من علاقات طيبة، ودخل عضد الدولة بغداد وانتقم من ابن بقية –وزير بختيار– فقتله دهسا بأقدام الفيل ثم صلبه (شوال ٣٦٧هـ)، واتخذ لنفسه مظاهر الخلافة، فلقد كانت تُدَقُّ الطبول خمس مرات عند الصلوات أمام قصر الخليفة، فأمر عضد الدولة أن تدق الطبول

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٦٦.



عند قصره ثلاث مرات[١].

وحصل عضد الدولة بطبيعة الحال على الشرعية من الخليفة الذي لم يقصر من ناحيته فعقد له على منصب الإمارة بمراسيم واحتفالات ولي العهد، ومن ناحيته لم يقصر عضد الدولة في زيادة أموال الخليفة وراتبه ولم يقصر في إظهار الخضوع والولاء والتعظيم له[٢].

واستقر الأمر لعضد الدولة في بغداد، وكان عصره هو الأفضل في عصر سيطرة البويهيين على الخلافة العباسية، وتلك هي أهم محطاته:

١) قتل بختيار

كان بختيار –كما ذكرنا فيما سبق– قد دخل على خط الخلافات بين أبي تغلب الحمداني وإخوته بعد وفاة أبيهم ناصر الدولة الحمداني، وحتى هذا الوقت كان حمدان –أخو أبي تغلب– لاجئا مقيما في بغداد عند بختيار، ثم ترك بغداد معه لدى استيلاء عضد الدولة عليها.

كان عزم بختيار أن يتوجه إلى الشام –الذي تسوده الفوضى وضعف الأمراء في ذلك الوقت ليجد له موطئ قدم في ملك أو حكم أو إمارة– غير أن حمدان بن ناصر الدولة ما زال به يغريه بأن يتوجه إلى الموصل وأن يزيل دولة أخيه أبي تغلب ويصف له أن الموصل أكثر من الشام أموالا وأيسر منها مُلكا، حتى بدأت الفكرة تلوح في رأسه وتجد صداها في قلبه[٣].

على الناحية الأخرى تقدم أبو تغلب الحمداني إلى بختيار بعرض أفضل، أن يسلم إليه أخاه حمدان مقابل أن يعينه بجيشه البالغ عشرين ألفا في قتال عضد الدولة وإعادته إلى بغداد! وبغير شك فلقد كان عرض أبي تغلب أفضل من كل الوجوه، فسارع بختيار بالغدر وتسليم حمدان إلى أخيه أبي تغلب.

اجتمع الجيشان، جيش بختيار وجيش أبي تغلب الحمداني، وانطلقوا إلى تكريت حيث تجهز لهما عضد الدولة، واندلعت الحرب (١٨ شوال ٣٦٧هـ) وأسفرت عن نصر كبير لعضد الدولة، وأُسِر بختيار، فقتله عضد الدولة[٤].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٧٧، ٣٧٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٢٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٧٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٧٨.

وتعد حياة بختيار تجسيدا لحكمة المتنبي في قوله:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولا، وهي المحل الثاني

فلقد كان بختيار من أشد الناس قوة، ومن أكثرهم جرأة وشراسة، كان يصارع الثور فيصرعه، وربما بارز الأسد حين يخرج للصيد، لكنه كان من أضعف الناس عقلا ورأيا، فخسرت كل مغامراته من أول ترك المشورة في بداية حكمه وحتى نقض العهد في آخر عهده[١].

وكم من دماء وأموال وأعمار من التخلف تدفعها الأمم حين يكون حكامها هكذا.. أجساد البغال وأحلام العصافير!

٢) إزالة الدولة الحمدانية من الموصل

وكانت الخطوة التالية بطبيعة الحال هي حرب أبي تغلب الحمداني الذي قضى بنفسه على علاقته مع عضد الدولة، فانطلق عضد الدولة بجيشه نحو الموصل واستولى عليها (١٢ ذي القعدة ٣٦٧هـ)، غير أن عضد الدولة استوعب درس التاريخ وأسلوب أبي تغلب وأبيه ناصر الدولة من قبله[٢]، فأخذ معه كميات هائلة من الأقوات وعلف الدواب فلم تؤثر خطة أبي تغلب على موقفه الحربي بل على العكس: ظل عضد الدولة نحو عام كامل في الموصل في وضع مستقر، ويبعث بالسرايا التي تستولي على المزيد من الأنحاء وتدخلها في حكمه، وبالتالي فلم يكن بحاجة إلى الصلح المعروض من أبي تغلب، وأجاب عن رسالة اعتذاره لمساعدة بختيار بشعر يقول:

أَأَفاق حين وطأتُ ضيقَ خناقِه يبغي الأمان وكان يبغي صارما
فلأَرْكَبَنَّ عزيمة عضدية تاجية، تدع الأنوف رواغما[٣]

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٢٥٦، وابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٢٦٧، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٣٠.

(٢) ذكرنا من قبل أن أسلوب ناصر الدولة الحمداني ومن بعده ابنه هو الانسحاب من الموصل وإفراغها تماما من الأموال والأقوات والموظفين بحيث لا يستطيع من استولى عليها إدارتها ولا التوصل لمواردها ومصادرها، ثم إنه يسلط الأعراب ويمارس ببعض فرق جيشه حرب عصابات على عدوه فيها حتى يضطر إلى الانسحاب والاستجابة لطلب الصلح في ظل الخسائر المتوالية حربيا واقتصاديا.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٠٥.

وظل يطارد أبا تغلب بجيوشه فترة كبيرة ودارت معارك سياسية وحربية قوية حتى ضاقت الأرض على أبي تغلب الذي ظل ينتقل من ميافارقين إلى آمد إلى الرحبة فتتساقط هذه المدن أمام جيش عضد الدولة ويتساقط معها كثير من جنوده فينحازون إلى عضد الدولة، حتى لجأ أبو تغلب لطلب العفو فاشترط عضد الدولة أن يمثل بين يديه تعبيرا عن الولاء. فرفض أبو تغلب وهرب إلى الشام حيث سلطان الخليفة العبيدي (الفاطمي) العزيز بالله، ودخلت كل ديار ربيعة في ملك عضد الدولة، ثم تحالف مع سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني فجرى الاتفاق بينهما على أن يكون لعضد الدولة ما كان لأبي تغلب من أملاك الحمدانيين في العراق، وأن يترك لسعد الدولة أملاك الحمدانيين في الشام، ثم أخذ عضد الدولة في فتح كل القلاع والحصون التابعة لأبي تغلب الحمداني والمكنوزة بأمواله ونفائسه وعتاده وما إلى ذلك، ثم استولى بعد ذلك على جميع ديار مضر، ثم عاد إلى بغداد وقد جعل قائده أبو الوفا طاهر بن محمد –الذي أنجز كل الانتصارات على أبي تغال- واليًا على الموصل[1].

وعاد إلى بغداد فدخلها (٣٠ ذي القعدة ٣٦٧هـ) دخول الأبطال وكان في استقباله – خارج بغداد- الخليفة ذاته مع وجوه الناس وأعيانهم، في احتقال كبير باهر.

٣) عمران بن شاهين

لم يزل عمران بن شاهين قويا مكينا في منطقة البطائح منذ ثلاثين سنة، حيث فشلت أول حملة عسكرية ضده عام (٣٣٨هـ) في عهد معز الدولة بن بويه، ثم ساعدته الأقدار باضطراب الظروف والأحوال الأخرى حين يكون العزم أو الجيش على وشك الدخول في معركته الفاصلة، فحينا مات عماد الدولة، وحينا تمرد الروزبهان، وحينا فاضت الأنهار فعطلت مسير جيش بختيار.. وهكذا!

حتى جاءه أجله فجأة (المحرم ٣٦٩هـ) ليكون عمران بن شاهين واحدا ممن عاش حياته محاربا ومات على فراشه فيكون دليلا آخر على أن الشجاعة لا تقدم الموت ولا الجبن يزيد في الأجل.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٧٨ وما بعدها.

وتولى الأمر من بعده ابنه الحسن، فرآها عضد الدولة فرصة سانحة ليعيد سيطرة الحكم في بغداد على هذه المنطقة، فأرسل جيشا بقيادة وزيره المطهر بن عبد الله، وانطلق الجيش (صفر ٣٦٩هـ) إلى البطائح ليبدأ في مهمة سد الأنهار وتحويل مجراها لتحقيق هدفين: حصار مائي للحسن بن عمران، وفتح طرق متسعة للجيش الذي لا يستطيع الحركة في ظل كثرة القنوات والمجاري المائية[١].

وكما سبق فقد أخذت هذه المهمة وقتا طويلا وأموالا كثيرة، ثم تكرر المشهد الذي كان في عهد بختيار، إذ جاء فيضان الأنهار فانهارت أمامه هذه السدود، كما أن مقاومة الحسن بن عمران طوال عملية البناء بتخريبها جعل انهيارها أسهل وأسرع، يقول ابن الأثير إن هذا الوزير كان طبعه المناجزة فلم يصبر على طول الفترة، واستعجل خوض حرب في هذه المجاري المائية والقنوات والأنهار الصغيرة.

لكن يجب أن نتذكر أن المطاولة والمصابرة التي أنجزها من قبله الوزير أبو الفضل العباس بن الحسين قبل ثماني سنوات لم تؤد إلى نتيجة مع عمران بن شاهين بل لقد تمرد عليه جنده أنفسهم مع طول المقام في بيئة غير صالحة لما ألفوه.

دارت المعركة البحرية هذه، وانتصر فيها الحسن بطبيعة الحال فهو أعرف بالمكان وتفاصيله وثغراته من الجيش البويهي، ثم إن الوزير شكَّ في أحد قادة الجيش أنه يتواصل مع الحسن بن عمران وينقل إليه أسرار معسكره، فأصابه الإحباط واليأس، وعلم أنه إذا رجع إلى بغداد مهزوما فإن هذا سيكون العار الكبير وشماتة الأقران المنافسين من القادة –مثل أبي الوفا الذي أنهى الدولة الحمدانية في العراق قبل قليل– فاتخذ أسوأ قرار ممكن.. وانتحر[٢]!! وهو ما يؤكد أنه كان ذا مزاج حاد[٣].

وهكذا فشلت الحملة العسكرية البويهية لمرة أخرى في السيطرة على هذه المنطقة، واضطر عضد الدولة إلى مصالحة الحسن بن عمران بن شاهين والاكتفاء منه بمبلغ سنوي والولاء الرسمي كما كان الحال من قبل.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٨٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٨٥.

(٣) د. فاروق عمر: الخلافة العباسية ٢/ ١١٣.



٤) القضاء على التمردات

واجه عضد الدولة البويهي ثلاثة أنواع من المتمردين هم: الأعراب، والأكراد، وأخيه فخر الدولة بن ركن الدولة البويهي.. وقد استطاع القضاء عليهم جميعا حتى صفا له الأمر.

أولا: الأعراب

في ظل المناخ المضطرب الذي عاشته بلاد الخلافة العباسية لنحو نصف قرن، ولم تكد تستقر نوعا ما إلا في عهد معز الدولة، كان من الطبيعي أن يعود نشاط الأعراب في منطقة الجزيرة الفراتية من جديد، ولم يكن أحد ليفكر في مواجهتهم، فالبلاد منذ عهد بعيد إما غير مستقرة أصلا حتى في الحواضر والعواصم، وإما لتأسيس السلطة وتثبيت النفوذ على العواصم والحواضر والمناطق الكبرى، فليس ثمة من يجد الفرصة لمطاردة أعراب يشنون حرب عصابات خاطفة ويختفون في مجاهل الصحاري والبوادي، وكانت تلك القبائل سواء في منطقة الجزيرة الفراتية أو على الطريق إلى الحجاز تقطع الطريق وتسلب الحجاج وتعتدي عليهم، ووصل الأمر إلى أنهم فرضوا على قوافل الحجاج مبالغ وضرائب ليسمحوا لهم بالعبور، وكم استطاعوا قتل الحجاج وتجويعهم وتركهم في الصحراء بلا مأوى ولا طعام ولا شراب حتى مات منهم كثيرون، ولا يجدون من يردعهم أو يقاومهم.

ولم تكن المأساة في انعدام سلطة تواجههم فحسب، بل إن اضطراب أحوال السلطة جعل هؤلاء الأعراب سلاحا يلجأ إليه المتنافسون ضد بعضهم البعض، حتى إن عضد الدولة نفسه لم يستطع هزيمة الأتراك بقيادة الفتكين إلا باستعانته بهم لتشديد الحصار على منافسه بإغاراتهم على الأطراف وقطعهم الطريق ومنعهم وصول الأقوات(١).

بدأت السلطة تعود إلى دورها -كسلطة- في عهد عضد الدولة، وكان الذين ضربهم هم الذين ضرب بهم من قبل: بنو شيبان، وبنو أسد.

وكانت مواجهته لبني شيبان في مناطق الجزيرة الفراتية تعتمد على ضرب قاعدتهم الرئيسية في شهرزور، وذلك أن أعراب بني شيبان تواصلوا وتحالفوا مع الأكراد في شهرزور،

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٣٨٤.

وكانت هذه المدينة أيضا من البلدات التي استقلت فعليا عن السلطة ولم يستطع أحد فرض سيطرته عليها منذ أمد، ولكن يبدو لأنها لم تكن في صلب أحداث كبيرة فقد سقطت من كتابات المؤرخين تفاصيل استقلالها ومحاولات فرض السيطرة عليها.

كان بنو شيبان يشنون غاراتهم ثم يعودون متحصنين إلى حلفائهم وأصهارهم في شهرزور الحصينة التي استقلت عن الملوك، ولذا، جَهَّز عضد الدولة جيشا إلى شهرزور (رجب ٣٦٩هـ) فاقتحمها واستولى عليها، وهُزِم بنو شيبان وقُتِل منهم كثيرون، ثم طاردهم جيش عضد الدولة حتى أوقع بهم هزيمة أخرى أكبر من الأولى أُسِر فيها ٨٠٠ أسير[١].

وأما بنو أسد بزعامة ضبة بن محمد الأسدي فقد كانوا يتحصنون في «عين التمر» في قلب الصحراء، ومنها يشنون الغارات على الأنحاء الموالية لهم، وقد كان ضبة هذا من المجرمين المفسدين الذين يستحلون الأموال والأعراض ولا يبالون بانتهاكها ولو في البقاع ذات الهيبة والتكريم، حتى لقد نهب مشهد الحسين ﵁ عام (٣٦٨هـ)، فجهز عضد الدولة جيشا إلى عين التمر (رمضان ٣٦٩هـ)، فأوقع بهم هزيمة كبرى هرب فيها ضبة بنفسه تاركا أهله ونساءه، وأُسِر أكثر بني أسد في عين التمر، فانتهت بؤرة صداع استمرت لنحو ثلاثين سنة[٢].

ثانيا: الأكراد

لقد كان من أهم ما قامت به الدولة الحمدانية في الموصل أنها كفت عن الخلافة العباسية مهمة مواجهة الأكراد الذين طالما تمردوا فيما قبل، وكانت مواجهتهم بادئ الأمر عبر الجيوش التي تخرج من بغداد في عهود المعتضد ثم المكتفي، حتى تولى عبد الله بن حمدان ولاية الموصل في عهد المكتفي فحسم أمر تمرد الأكراد، فلما استقر أمر الموصل للحمدانيين كانوا هم أولياء التصدي للأكراد، وقد ساعدت الخلافة بجيوش أو إمدادات أحيانا لمواجهة هذه التمردات كما حدث في عهد المقتدر.

لذا، فحين أزال عضد الدولة الدولة الحمدانية من الموصل صار يواجه الأكراد مرة أخرى بنفسه، وقد أنجز في هذا الصدد ثلاث مواجهات رئيسية: الأولى هي ما تم في شهرزور

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٨٦.

(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٤٦٤، وابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٢٧١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٩١.

التي يتحصن إليها بنو شيبان، والثانية حين عاد شغب «الأكراد الهكارية» -المتاخمين للموصل- وفسادهم في تلك الأنحاء وضج الناس منهم، ولا ريب أن زوال الدولة الحمدانية منها كان فرصة لعودتهم أشد قوة، فأرسل عضد الدولة جيشا (٣٦٩هـ) حاصرهم في قلاعهم، وكانوا يأملون الصمود حتى تنزل الثلوج ويضطر جيش عضد الدولة للرجوع عنهم، فكان من قدر الله أن تأخر نزول الثلج فلم يجدوا إلا طلب الأمان، فأُجيبوا إليه فسلموا قلاعهم، وما هو إلا يوم واحد حتى بدأ نزول الثلج، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ثم إن قائد الجيش غدر بأمانه لهم، فقتل منهم وصلبهم على طول الطريق من معلثايا إلى الموصل نحو خمسة فراسخ، وكَفَّ الله شرهم عن الناس[١].

وأما الثالثة فهي قضاؤه على دولة للأكراد كانت تسيطر على بعض النواحي المتاخمة للبويهيين، وهم في هذا يشبهون ما يملكه عمران بن شاهين بالنسبة للبويهيين في العراق، ولم يبق من هذه الدولة إلا فرعها المعروف باسم «البرزيكان» وزعيم سياسي وعسكري قدير اسمه حسنويه بن الحسين، فلما مات هذا الزعيم انقسم أبناؤه بين من أراد الانحياز إلى عضد الدولة -وهم الأغلب- ومن أراد الانحياز لأخيه فخر الدولة، وكان بختيار بن حسنويه هو المسيطر على قلعة سرماج -مركز الحكم- قد نوى الانحياز إلى عضد الدولة وراسله، ثم ما لبث أن تغير موقفه، فحينئذ أرسل عضد الدولة جيشا استولى على معظم قلاع أبناء حسنويه، ثم نَصَّب عليهم بدر بن حسنويه لحكم تلك الأنحاء فاستقرت به الأمور وتكفل بمواجهة الأكراد المتمردين في هذه الأنحاء[٢].

وهكذا أغلق عضد الدولة ملف الأكراد الذين لن تقوم لهم قائمة أخرى في عهده.

ثالثا: فخر الدولة البويهي

حين مات ركن الدولة البويهي كان وريث الأسرة البويهية من بعده ابنه عضد الدولة، وكان أخواه فخر الدولة ومؤيد الدولة أتباعا له وإن كانوا حكاما على ولاياتهم، فأما مؤيد الدولة فقد كان مطيعا لأخيه عضد الدولة فكانت الأمور بينهما على ما يرام.

وأما فخر الدولة فكان على عكس أخيه، بل لقد كان متواصلا مع بختيار بن معز الدولة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٩٠.

(٢) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ص٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٨٨.

ليتحالفا على عضد الدولة في فارس، على أن عضد الدولة كان أقوى وأسرع، فامتلك العراق ثم ثَبَّت سلطته فيه وقضى على أعدائه من الحمدانيين والأعراب والأكراد، فتفرغ بعدئذ لأخيه فخر الدولة(١).

بدأ عضد الدولة بإرسال رسالة إلى أخيه فخر الدولة (٣٦٩هـ)، فكانت إجابة الأخير إجابة المستقل الذي يتكلم من موقع الند لا من موقع التابع، وكان عضد الدولة قد خطط لهذا، فكان حامل رسالته إلى أخيه واحدا من كبار رجال دولته ممن لهم علاقات نافذة مع رجال فخر الدولة واسمه خواشاده، فاستطاع هذا الرسول أن يقوم بالمهمة الخطيرة واستمال بعض قادة فخر الدولة إلى جانب عضد الدولة، ولم يكن يدري فخر الدولة حين أرسل رده القوي أنه صار فعليا بلا قوة، ولهذا حين تحرك جيش عضد الدولة إلى بلاد أخيه حقق نصرا غير عسير، وهرب فخر الدولة وانسحب من ملكه والتجأ إلى أمير محلي في طبرستان هو قابوس بن وشمكير، ودخلت ولايات فخر الدولة –الري وهمذان وما بينهما– في ملك عضد الدولة فسَلَّمها إلى أخيه الثاني مؤيد الدولة وجعله واليا على تلك البلاد، ثم حاول مع قابوس بن وشمكير أن يسلم إليه أخاه فخر الدولة لكنه امتنع وأصر على حمايته، فأمر عضد الدولة أخاه مؤيد الدولة بتجهيز جيش لحرب قابوس، والتقى الجيشان (جمادى الأولى ٣٧١هـ) فانتصر مؤيد الدولة وانسحب قابوس ومعه فخر الدولة إلى خراسان التي هي في سيطرة السامانيين(٢).

وهكذا اكتمل لعضد الدولة أمر الملك، وانتهى أعداؤه ومنافسوه، وصار لا ينازعه أحد!

٥) بغداد الزاهرة تعود من جديد

منذ مقتل الخليفة المقتدر (٣٢٠هـ) وحتى هذه اللحظة (٣٦٩هـ) ، أي نحو نصف قرن، لم تشهد بغداد زمنا هانئا هادئا مثلما استقر الأمر لعضد الدولة البويهي، حتى الاستقرار السياسي الذي شهدته حينا في زمن معز الدولة البويهي أفسده اشتعال الفتن المذهبية والمعارك الطائفية التي وضع بذورها وأشعل جذوتها معز الدولة نفسه، فلما جاء عهد ابنه بختيار ذهب الاستقرار السياسي والاجتماعي جميعا.. فكان عصر عضد الدولة أفضل ما مرَّ على بغداد منذ زمن طويل.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٨٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٨٩، ٣٩٧.



قال ابن الأثير: «شرع عضد الدولة في عمارة بغداد وكانت قد خربت بتوالي الفتن فيها، وعَمَّر مساجدها وأسواقها، وأَدَرَّ الأموال على الأئمة والمؤذنين والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد، وألزم أصحاب الأملاك الخراب بعمارتها، وجَدَّد ما دثر من الأنهار، وأعاد حفرها وتسويتها، وأطلق مكوس الحجاج، وأصلح الطريق من العراق إلى مكة شرفها الله تعالى، وأطلق الصلات لأهل البيوتات والشرف والضعفاء المجاورين بمكة والمدينة، وفعل مثل ذلك بمشهد عليّ والحسين عليهما السلام، وسَكَّن الناس من الفتن، وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحُسَّاب والمهندسين، وأذن لوزيره نصر بن هارون -وكان نصرانيا- في عمارة البِيَع والأديرة وإطلاق الأموال لفقرائهم»[١].

أولا: إصلاح الزراعة

حين صار عضد الدولة سيد العراق أظهرت الحكومة النية الحسنة والقابليات الإدارية اللازمة التي اختفت منذ زمن معز الدولة، فقد استعادت الحكومة سلطانها في العراق وأظهرت فهما أحسن من قبل لحاجات البلاد، وكان لها الخبرة اللازمة لتطبيق إصلاحاتها. بدأ عضد الدولة إصلاحاته الزراعية (٣٦٩هـ) وكانت غاياته الأساسية إصلاح نظام الري، وتحسين طرق الجباية، ففي بغداد اندفنت مجاري الكثير من القنوات التي تروي المدينة والأراضي المحيطة بها، مثل نهر عيسى ونهر الدجاج ونهر مسجد الأنباريين ونهر القلايين ونهر طابق ونهر البزازين، فأمر بحفرها وبتنظيف مجاريها، وكان لِسَدِّه بَثْق السهلية في النهروان قرب بغداد أهمية خاصة، كذلك أعاد القنوات التي أصابها الخراب في السواد[٢]، وأعاد بناء كثير من السدود، ومن القناطر التي على أفواه الأنهار بالآجُرّ والجص والنورة، وطالب الرعية بالعمارة «مطالبة رفيقة» وأكد عليهم العناية بمنشآت الري بصورة خاصة، ووضع الحراس لحراسة تلك المنشآت ليل نهار، ثم إنه وسع مجرى نهر بيان الذي يصل دجلة العوراء بدجيل الأهواز[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٨٧، ٣٨٨.
(٢) السواد: المنطقة المعروفة باسم سواد العراق.
(٣) د. عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص٦٦، ٦٧.

وأمر الأغنياء بعمارة مسناتهم[١]، وأن يغرسوا في كل خراب لا صاحب له، وغرس هو الزاهر، وهو دار أبي علي بن مقلة، وكانت قد صارت تلا، وغرس التاجي عند قطربل، وحوطه على ألف وسبعمائة جريب[٢]، وأمر بحفر الأنهار التي دثرت، وعمل عليها أرحاء الماء، وحَوَّل من البادية قوما فأسكنهم بين فارس وكرمان، فزرعوا، وعَمَّروا البرية، وكان ينقل إلى بلاده ما لا يوجد بها من الأصناف[٣].

ووضع طريقة منتظمة للجباية ففي عهده «أمضيت للرعية الرسوم الصحيحة، وحذفت عنها الزيادات والتأويلات»[٤] وأخّر موعد جباية الخراج إلى «النيروز المعتضدي» ليناسب موسم نضج الغلات، كما أخذ بيد الزراع وشجعهم على عرض مظالمهم وشكاويهم وحاول إجابتها، ولو كانت ضد المقطعين العسكريين[٥].

ثانيا: البيمارستان العضدي

وقد أنشأ عضد الدولة (٣٧١هـ) في بغداد المستشفى الكبير الذي هو أحد المستشفيات التي خلدها تاريخ الحضارة الإسلامية كله.. ذلك هو، البيمارستان العضدي!

وقد اختار موضع بنائه أعظم أطباء عصره، وواحد من أعظم الأطباء عبر التاريخ، وهو أبو بكر الرازي الذي نفَّذ اختباره المشهور بوضع قطع لحم في المواضع المقترحة للبناء ثم اختار الموقع الذي طال فيه بقاء اللحم دون فساد[٦]، واستمر العمل في بنائه ثلاث سنوات (٣٦٥ – ٣٦٨هـ)، «وأنفق عليه أموالا لا تحصى»[٧]، وحين افتتح نُقِلت إليه كل ما يحتاجه من الأدوية[٨]، وعهدت إدارته إلى الطبيب المشهور هارون بن صاعد بن هارون، وهو من

(١) المسناة: سد يبنى لحجز ماء السيل أو النهر به مفاتح للماء تفتح على قدر الحاجة. المعجم الوسيط ١/ ٤٥٧.
(٢) الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة والحصى فيه التراب. المعجم الوسيط ١/ ١١٤.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٢٩١.
(٤) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٤٥٦.
(٥) د. عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص٦٧.
(٦) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٣/ ١٣.
(٧) الذهبي: العبر في خبر من غبر ٢/ ١٣٨.
(٨) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٩٩.

الصابئة البغداديين، ومن أئمة الطب في وقته، فكان هو رئيس الأطباء فيه[١]، وكانت إدارته متطورة حتى وصف بأنه «ليس في الدنيا مثل ترتيبه»[٢].

وظل البيمارستان العضدي صدر البيمارستانات حتى بنى نور الدين محمود بيمارستانه الكبير في دمشق في أواسط القرن السادس الهجري، ثم بنى صلاح الدين الأيوبي البيمارستان العتيق في القاهرة[٣]، أي ظل البيمارستان العضدي نحو قرنين من الزمان!

ولقد وصفت المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه حال الطب والمستشفيات في المشرق الإسلامي تلك الفترة، وهي التي يمثل البيمارستان العضدي ذروتها، بعبارات بليغة على لسان مسافر أوروبي أصيب فأدخل إلى المستشفى فبعث إلى أهله في أوروبا يقول:

«أبتِ الحبيب،

تسألني إن كنت بحاجة إلى نقود! فأخبرك بأني عندما أخرج من المشفى سأحصل على لباس جديد وخمسِ قطع ذهبية ، حتى لا أضطر إلى العمل حال خروجي مباشرة، فلست بحاجة إذن إلى أن تبيع بعض ماشيتك، ولكن عليك بالإسراع في المجيء إذا أردت أن تلقاني هنا.

إني الآن في قسم (orthopadie[٤]) بقرب قاعة الجراحة وعندما تدخل من البوابة الكبيرة، تعبر القاعة الخارجية الجنوبية وهي مركز (poli klinik[٥]) حيث أخذوني بعد سقوطي، وحيث يذهب كل مريض أولَ ما يذهب لكي يعاينه الأطباء المساعدون وطلابُ الطب، ومن لا يحتاج منهم إلى معالجة دائمة في المستشفى تعطى له وصفته فيحصل بموجبها على الدواء من صيدلية الدار.

وأما أنا فلقد سجلوا اسمي هناك بعد المعاينة، وعرضوني على رئيس الأطباء، ثم حملني ممرض إلى قسم الرجال، فحمّمني حمامًا ساخنًا، وألبسني ثيابًا نظيفة من المستشفى، وحينما

(١) القفطي: أخبار الحكماء ص٢٥٣.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٥٤، والذهبي: تاريخ الإسلام ٢٦/ ٥٢٣.

(٣) د. وفاء محمد علي: الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين ص١٣٦.

(٤) معالجات تشوهات المفاصل والعظام.

(٥) مركز الإسعافات الأولية العامة.

تصل ترى إلى يسارك مكتبة ضخمة وقاعة كبيرة حيث يحاضر الرئيس في الطلاب، وإذا ما نظرت وراءك يقع نظرك على ممر يؤدي إلى قسم النساء، ولذلك عليك أن تظل سائرًا نحو اليمين، فتمر بالقسم الداخلي والقسم الخارجي مرورا عابرا، فإذا سمعت موسيقى أو غناء ينبعثان من قاعة ما، فادخلها وانظر بداخلها، فلربما كنت أنا هناك في قاعة النُقَّه (جمع ناقه) حيث تشنف آذاننا الموسيقى الجميلة ونمضي الوقت بالمطالعة المفيدة.. واليوم صباحًا جاء كالعادة رئيس الأطباء مع رهط كبير من معاونيه. ولما فحصني أملى على طبيب القسم شيئًا لم أفهمه، وبعد ذهابه أوضح لي الطبيب أنه بإمكاني النهوض صباحًا، وبوسعي الخروج قريبًا من المستشفى صحيح الجسم معافى، وإني والله لكاره هذا الأمر، فكل شيء جميل للغاية ونظيف جدًا، الأسِرّة وثيرة وأغطيتها من الدمقس الأبيض، والملاء بغاية النعومة والبياض كالحرير، وفي كل غرفة من غرف المستشفى تجد الماء جاريًا فيها على أشهى ما يكون، وفي الليالي القارسة تدفأ كل الغرف، وأما الطعام فحدث عنه ولا حرج!! فهناك الدجاج أو لحم الماشية يقدم يوميا لكل من بوسعه أن يهضمه»(١).

ثالثا: إنجازات أخرى

من ذلك أنه أدار السور على مدينة الرسول(٢)، وبنى المشهد على قبر علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣)، «وللناس في هذا القبر اختلاف كثير، حتى قيل إنه قبر المغيرة بن شعبة الثقفي، فإن عليا رضي الله عنه لا يعرف قبره، وأصح ما قيل فيه: إنه مدفون بقصر الإمارة بالكوفة، والله أعلم»(٤).

ومن أهم إنجازاته تثبيت الانضباط في الحكم، فقد غضب كثيرا عندما علم بتأخر رواتب بعض الحاشية أربعة أيام بعد أول الشهر وكانت العادة أن يُصرف لهم قبل دخوله، وعَنَّف المسؤول عنه بما يدل على حكمته: «المصيبة بما لا تعلمه من الغلط أكثر منها في التفريط، ألا تعلم أنا إذا أطلقنا لهم ما لهم قبل محله(٥) كان الفضل لنا عليهم، فإذا أَخَّرْنا ذلك

---

(١) زيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب ص٢٢٧، ٢٢٨.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٤١.
(٣) وهذا من آثار تشيعه، فتعظيم القبور وبناؤها منهي عنه كما هو معروف، ولكن ذكرناه هنا باعتباره عملا عمرانيا لعضد الدولة من غير موافقة ولا ترحيب به.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٥٥.
(٥) قبل محله: أي قبل وقته وموعده.

عنهم حتى استهل الشهر الآخر حضروا عند عارضهم وطالبوه فيعدهم، فيحضرونه في اليوم الثاني فيعدهم، ثم يحضرونه في اليوم الثالث ويبسطون ألسنتهم، فتضيع المنة وتحصل الجرأة ونكون إلى الخسارة أقرب منا إلى الربح!! »[1].

ولم يكن يعتمد إلا على الأكفاء، ولا يقبل الوساطات ولا أن يتعدى أحد من رجال الدولة حدود وظيفته، وعَنَّف أحد قادته حين أراد التوسط إلى القاضي بقبول شهادة أحد الناس فقال له: «ليس هذا من أشغالك، إنما الذي يتعلق بك الخطاب في زيادة قائد ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم، وأما الشهادة وقبولها فهي إلى القاضي وليس لنا ولا لك الكلام فيه ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة»[2].

وبرغم تشيعه كان حريصا على وأد الفتن بين السنة والشيعة في بغداد، وكان من الظواهر في عصره مهنة التكسب بالقصص، وهي أن يقف الواعظ أو القَصَّاص فيذكر الحكايات والروايات وأخبار الأيام الماضية وما كان بين الصحابة فيثير إعجاب الناس فيعطونه أموالا، ولا يبعد أن مثل هذه كانت بذور فتنة تشتعل عما قريب، فأمر عضد الدولة بالنهي عن هذا، ورسم «أن أحدا لا يقص ولا يعظ في سائر بغداد ولا يسأل سائل باسم أحد من الصحابة، وإنما يقرأ القرآن فمن أعطاه أخذ منه»[3].

وعلى رغم ما قام به من إصلاحات ضخمة، إلا أنه أحدث في آخر أيامه رسوما جائرة في المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة وزاد على ما تقدم ومنع من عمل الثلج والقز وجعلهما متجرا للخاص وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق»[4].

وحين نرى هذه الإنجازات الحضارية، بالإضافة إلى الإنجازات السياسية والعسكرية، في مدة بسيطة هي خمس سنين، فلا شك أننا أمام شخصية فذة قديرة.

٦) ملك الملوك!

لقد صار عضد الدولة الرجل الوحيد في المشهد، حتى إن السيوطي يرى بأن عصر عضد

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٠٥، ٤٠٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٠٦.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٢٨.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٠٦.

الدولة هو أضعف عصر مرَّ على الخلافة العباسية وأن الخليفة الطائع هو الأضعف في تاريخ الخلفاء[1].

كانت المنابر تخطب لعضد الدولة بعد الخليفة بداية من (شعبان ٣٦٨هـ)، وصار منزلته منزلة الخليفة إذ صارت الطبول تُضْرب أمام بابه ثلاث مرات وقت الفجر وبعد المغرب والعشاء، وهو الأمر الذي لم يحدث من قبل لأحد إلا للخليفة الذي كانت تضرب الطبول أمام دار الخلافة خمس مرات، ولا حتى ولي العهد، بل لقد حاول معز الدولة من قبل أن تضرب على بابه الطبول لكن الخليفة المطيع رفض ولم يأذن له، فلم يستطع معز الدولة أن يفعل، فصار «هذان الأمران من الأمور التي بلغها عضد الدولة واختصّ بها دون من مضى من الملوك على قديم الأيام وحديثها»[2].

ثم حدث ما هو أكبر من هذا، إذ خرج الخليفة أكثر من مرة لاستقبال عضد الدولة بنفسه، حين رجع من حرب أبي تغلب الحمداني (٣٠ ذي القعدة ٣٦٧هـ)، وحين رجع من حرب أخيه فخر الدولة (جمادى الآخرة ٣٧٠هـ)!

وفي (٢٣ ذي القعدة ٣٦٩هـ) تزوج الطائع لله بنت عضد الدولة الكبرى على صداق بلغ مائة ألف دينار، وكان عضد الدولة يرجو أن تلد ابنته للخليفة ولدا، فيجعله ولي العهد، فتكون الخلافة لابن أمه من البويهيين، وحين زُفَّت إليه (٣٧٠هـ) كانت تحمل من الجواهر ما لا يُحصى[3].

وقد بدأ عضد الدولة عهد زيادة الألقاب التي يوصف بها الأمير البويهي، فقد طلب عضد الدولة من الخليفة (شعبان ٣٧٠هـ) أن يزيد في ألقابه «تاج المملكة» وأن يجدد له العهد بإدارة الدولة، فأقيم الاحتفال الكبير، وألبسه الخليفة -على نحو ما هو متبع- من الخُلَع والثياب ما ثقل عليه بحيث لم يستطع تقبيل الأرض أمام الخليفة كما هي الرسوم السلطانية[4].

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٥١. على أنه لا يُسَلَّم له بهذا القول، إذ كان الخلفاء العباسيون في مصر تحت سلطة كاملة للمماليك وكانوا أضعف من هذا كثيرا، وتغلب عليهم الأمراء المماليك بأكثر مما صنع عضد الدولة بكثير، وهذا العهد قد أدركه السيوطي وأرخ له، اللهم إلا إن كان يُحمل كلامه على الخلافة العباسية في بغداد، فحينئذ قد يصح قوله من وجوه.

(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٤٤٦، وابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٢٦٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٩٠، ٣٩٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٣٥.



ثم أراد أن يكون لقبه «ملك الملوك»، وهو الأمر الذي أثار لغطا وضجة كبيرة في بغداد لما فيه من اتصاف يقال في حق الله سبحانه وتعالى! ولكنه برغم ذلك تلقب بما يساويه في الفارسية «شاهنشاه»، فانتهت أيامه وهو يُدعى «الملك السَّيِّد شاهنشاه الْأَجَل الْمَنْصُور ولي النعم تَاج الْملَّة عضد الدولة»[١].

٧) العلاقات الخارجية

كانت الجهات الخارجية أمام عضد الدولة متمثلة في ثلاث: الروم، والعبيديون (الفاطميون) في الشام ومصر والشمال الإفريقي، والسامانيون في بلاد ما وراء النهر.

أولاً: الروم

فيما يخص الروم فإنه لم يحدث أي احتكاك بين عضد الدولة والبيزنطيين، إلا موقفا واحدا، وذلك أن ورد الرومي وهو أحد القادة العسكريين الكبار في الدولة البيزنطية كان يصارع لتولي الإمبراطورية، ودخل لأجل هذا في حرب مع ابني الإمبراطور، واستعان في حربه هذه بالمسلمين، فكانت له علاقات قوية مع أبي تغلب الحمداني حتى لقد زوجه من ابنته، واستطاع بمساعدة أمراء المسلمين في الثغور ممن دخلوا على خط هذا الصراع أن يحقق انتصارات كبيرة، لكنه في النهاية مُنِي بهزيمة ساحقة فرَّ على إثرها إلى ديار بكر في أراضي المسلمين.

في هذه الأثناء كان عضد الدولة قد أنهى دولة الحمدانيين في الموصل، وكان أبو تغلب الحمداني ينتظر انتصار ورد الرومي على أعدائه لكي يساعده فيما بعد لاسترجاع ملكه من عضد الدولة، فلما انقلب الموقف هرب أبو تغلب إلى الشام والخليفة العبيدي (الفاطمي) ولجأ ورد الرومي إلى عضد الدولة البويهي.

أرسل ابنا الإمبراطور إلى عضد الدولة في شأن ورد الرومي، وقَدَّر عضد الدولة أن جانب الأميرين أفضل وأكثر نفعا من ثمن احتضان ورد الرومي، فاعتقله وحبسه في بغداد (٣٧٠هـ).

وقد كان بين عضد الدولة والروم سفارة ورسائل، منها الرسالة التي أرسلها ملك الروم وفيها أسئلة عن الإسلام، فأرسل إليهم عضد الدولة (٣٧١هـ) الإمام الكبير العَلَم الحجة

(١) المقريزي: السلوك ١/ ١٣٤.

أبا بكر الباقلاني[١] فرأى الروم منه عزة المسلم فعظمه الملك، ودارت بينه وبين بطريك الروم المناظرة الشهيرة التي كان الباقلاني فيها مسددا موفقا بديع الرد والإجابة، وهي التي رواها بتفصيلها النباهي في كتابه تاريخ قضاة الأندلس[٢]، ونقل المؤرخون أجزاء منها حسب مناهجهم في التفصيل أو الإيجاز[٣].

ثانيا: العبيديون (الفاطميون)

لا ريب أن المذهب الشيعي للبويهيين كان من عوامل السعادة للعبيديين في مصر، ولقد كانت مبايعة العبيديين حلا مطروحا منذ بدأت سيطرة البويهيين على العراق في عهد معز الدولة لولا أن الوضع لم يسمح كما ذكرنا سابقا، وفيما بين عهد معز الدولة وعهد عضد الدولة كان العبيديون قد سيطروا على الشام وعلى الحجاز وصارت الخطبة في الحرمين للخليفة العبيدي مما مَثَّل زيادة كبرى في النفوذ العبيدي، إلى الحد الذي جعل بعض المؤرخين[٤] يقولون بأن الوجدان العام للأمة كان يشعر بأن الخليفة الأولى بالشرعية هو الذي يُدعى له على منابر الحرمين، فكانت الخطوة التالية بالنسبة للعبيديين هي العراق، وهو الأمر الذي سيظلون يحاولونه طوال العهد البويهي.

لكل ما سبق بدأت العلاقة بين العزيز بالله العبيدي وبين عضد الدولة بالرسائل الودية (٣٦٩هـ)[٥]، لكنها لم تستمر على هذا النحو، فذات يوم من (صفر ٣٧١هـ) سُرِق تمثال أسد من الفضة كان في مقدمة المركب الخاص لعضد الدولة، وكان شيئا غريبا ومدهشا، وعجب الناس كيف كان هذا مع هيبة عضد الدولة المفرطة، وكونه شديد المعاقبة على أقل جناية، ثم قلبت الأرض في البحث عن سارقه فلم يُعثر على أحد، لكن شاع بين الناس أن ذلك تم بتدبير من العزيز بالله الخليفة العبيدي[٦].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٠١.
(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص٣٧ وما بعدها.
(٣) جمع المناظرة ورتبها الأستاذ محمد عبد العزيز الخضيري في كتاب أسماه «المناظرة العجيبة»، وصدر عن دار الوطن.
(٤) المسعودي: مروج الذهب ١/ ١٦٢.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٩٠.
(٦) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٢٨١.

ثالثا: السامانيون

الأيام دول..

وفي هذه الأيام التي صعد فيها نجم عضد الدولة كان نجم الدولة السامانية في أفول، وإذا عدنا بالذاكرة إلى الوراء قليلا فسنجد أن الدولة السامانية في أيام قوتها كانت تسيطر على بلاد ما وراء النهر، وأمدت حكمها أيضا إلى خراسان وطبرستان وسجستان وكرمان، وكان بداية ضعفها غير مؤثر في أول الأمر، لكن بتدرج الأيام بدأ في المشرق استقلال طبرستان ثم ظهور القادة الديالمة الطموحين مثل ليلى بن النعمان وأسفار بن شيرويه ومرداويج بن زيار ثم أخوه وشمكير بن زيار، فهؤلاء قلبوا الخريطة في المشرق، وانتقلوا بالتدريج من التبعية الفعلية للسامانيين إلى التبعية الاسمية إلى الاستقلال العلني، وقد استعملت الدولة السامانية بعض الرجال الأعداء ضد بعض في محاولة إعادة هيمنتها على هذه المناطق، لكن هذا لم يسفر عن نجاح ملموس.. واستقرت الأحوال على أن خرجت مناطق طبرستان والري وجرجان وفارس من بين أيديها ولم يبق من بلاد ما قبل النهر إلا خراسان التي ما تزال تحت سيطرتهم.



بحر الخزر
الري
قم
أصفهان
كاشان
دنباوند
آمل
طبرستان
شيراز
فارس
فسا
جرجان
قومس
كرمان
كرمان
جيرفت
طبس
قوهستان
طوس
نيسابور
نسا
باخرز
بوشنج
سجستان
خراسان
مرو
سرخس
هرات
باذغيس
مرو الروذ
بست
الجوزجان
ما وراء النهر
بخارى
الصغد
نسف
سمرقند
كش
قندهار
بلخ
ترمذ
طخارستان
صغانيان
ختلان
أشروسنة
غزنة
كابول
فرغانة



ولقد بدأ البويهيون كأتباع لمرداويج بن زيار الديلمي، الذي كان في الأصل يجاهد للتخلص والاستقلال من سلطان السامانيين، ثم تقلبت الأيام فذهبت دولة مرداويج وجاءت دولة البويهيين الذين ازدادوا قوة يوما بعد يوم.

حين جاء عصر عضد الدولة كان السامانيون ازدادوا ضعفا، ونجح عضد الدولة فيما حاوله من قبله أبوه ركن الدولة من الاستيلاء على كرمان (٣٥٧هـ)(١)، ثم عقدت معاهدة صلح بين الأمير منصور بن نوح الساماني وعضد الدولة (٣٦١هـ) كما تزوج الأمير منصور من ابنة عضد الدولة البويهي(٢).

لكن العلاقات بين عضد الدولة والسامانيين انهارت بأثر مطاردة عضد الدولة لأخيه فخر الدولة، وقد ذكرنا من قبل أن فخر الدولة هُزِم فلجأ إلى قابوس بن وشمكير، وأن عضد الدولة حاول مع قابوس أن يسلمه أخاه مقابل ما شاء من أموال أو غيره لكنه امتنع، فحاربهما عضد الدولة بجيش أخيه مؤيد الدولة فهزمهما حتى لجآ إلى خراسان التي هي في حكم السامانيين.

حينئذ قرر منصور بن نوح نصرتهما وإعادتهما إلى بلادهما، فأخرج جيشا هائلا من عنده أضيف إلى الجيش الخراساني الذي يقوده الوالي حسام الدولة تاش، فحاصروا جرجان حيث يعتصم فيها مؤيد الدولة، وبعد حصار شهرين تندلع فيهما اشتباكات غير حاسمة، استطاع مؤيد الدولة التواصل مع أحد القادة في جيش السامانيين لينهزم أمامه، ثم أخرج الجيش في هجوم ساحق غير متوقع ضغط به على فرقة هذا القائد الذي انهزم أمامه، ومع وقع المفاجأة بالهجوم وانهزام هذه الفرقة من الجيش تفكك باقي الجيش وانهار رغم أنه لا يقارن عددا وعدة بجيش البويهيين، وانتصر مؤيد الدولة بالصبر والبسالة وحسن التخطيط، وقد كان منصور بن نوح يريد أن يعاود الكرة بجيش أكبر من الأول وبدأ في الإعداد لذلك لكن اضطراب الأحوال في بلاطه وقتل وزيره استدعى أن يصرف همه عن هذا إلى غيره مما هو أولى، وترسخ بهذا موقف عضد الدولة أمام السامانيين(٣).

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٢٨٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٠٥.
(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٣٥٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٣٤.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٩٨، ٣٩٩.

هكذا كانت علاقة عضد الدولة مع الجهات الخارجية الرئيسية في عصره، فهي علاقة الأنداد سلما -كما مع الروم والعبيديين- فإذا جاءت الحرب فقد تم له النصر كما في حالة السامانيين.

ويسجل المؤرخون في عهد عضد الدولة هدايا أرسلها صاحب اليمن إلى عضد الدولة (جمادى الآخر ٣٧٠هـ)[١]، لكن ليس ثمة تفاصيل أخرى عن العلاقة بين عضد الدولة وصاحب اليمن، أو علاقة بغيره ممن هو مستقل ببلاده.

نهاية عضد الدولة

إن الدنيا لا تكتمل لذتها أبدا..

لقد بدأ المرض يغزو جسد عضد الدولة وهو يحقق أهم انتصاراته؛ فلقد أصابه الصرع وهو في حربه مع أبي تغلب الحمداني لكنه أخفى هذا الخبر ونجح في إبقائه سرا، ثم لما كان في حرب أخيه فخر الدولة زاد على أمراضه الصداع وكثرة النسيان[٢]، وكان إذا جاءته شدة المرض حجب نفسه عن الناس[٣]، ثم اشتد به الصرع حتى توفي (٨ شوال ٣٧٢هـ)، وهو في نهاية الأربعينات من عمره، وكان يدندن عند الوفاة بقوله تعالى: ﴿ **مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ**﴾ ودفن في مشهد علي ﷺ وكتب على قبره «هذا قبر عضد الدولة، وتاج المملكة، أبي شجاع بن ركن الدولة، أحب مجاورة هذا الإمام المتقي لطمعه في الخلاص» وهي العبارة التي علق عليها ابن كثير[٤] بقول الله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا**﴾ والحمد لله وصلواته على محمد وعترته الطاهرة[٥].

وكان حين شعر بالوفاة يقول أبياتا مؤثرة للقاسم بن عبيد الله كأنما يلخص بها مسيرته كلها:

قتلت صناديد الرجال فلم أدع ... عدوا ولم أمهل على ظنه خلقا

وأخليت در الملك من كان باذلا ... فشردتهم غربا وشردتهم شرقا

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٩٥، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٣٧.

(٢) تفيد الأعراض التي رواها المؤرخون أنه أصيب بمرض الزهايمر.

(٣) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ص٩.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٤٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٠٤.

فلما بلغت النجم عزا ورفعة وصارت رقاب الخلق اجمع لي رقا

رماني الردى سهما فأخمد جمرتي فها أنا ذا في حفرتي عاطلا ملقى

فأذهبت دنياي وديني سفا فمن ذا الذي مني بمصرعه أشقى؟[١]

وسبحان الله العلي العظيم، فإن الذي نطق بهذا الشعر الذي يفيض تواضعا واعترافا بقدر نفسه هو ذاته الذي قال من قبل: «الأرض أضيق عرصة من أن تسع ملكين»[٢].

وقفة مع عضد الدولة

قال ابن الجوزي: كانت هيمنته عظيمة، فلو لطم إنسان إنسانا قابله أشد مقابلة، فانكف الناس عن التظالم، وكان غزير العقل شديد التيقظ، كثير الفضل، بعيد الهمة محبا للفضائل، مجتنبا للرذائل... وكان يقتل ويهلك ظنا منه أن ذلك سياسة، فيخرج بذلك الفعل عن مقتضى الشريعة، حتى أن جارية شغلت قلبه بميله إليها عن تدبير المملكة، فأمر بتغريقها، وأخذ غلام بطيخا من رجل غصبا فضربه بسيف فقطعه نصفين... وكان يحب العلم والعلماء، ويجري الرسوم للفقهاء والأدباء والقراء، فرغب الناس في العلم وكان هو يتشاغل بالعلم، فوجد له في تذكرة «إذا فرغنا من حل إقليدس[٣] كله تصدقت بعشرين ألف درهم، وإذا فرغنا من كتاب أبي علي النحوي تصدقت بخمسين ألف درهم ... وكان يحب الشعر، فمدح كثيرا وكان يؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء»[٤].

ووصفه الصفدي بكونه «حسن السياسة شديد الهيبة بعيد الهمة، ذا رأي ثاقب وتدبير صائب محبا للفضائل تاركا للرذائل، باذلا في أماكن العطاء حتى لا يوجد بعده، ممسكا في أماكن الحزم حتى كأن لا جود عنده يستصغر الأمور الكبار ويستهون العظيم من الأخطار»[٥]، وكان مع ذلك «جبارا، عسوفا، شديد الوطأة»[١].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٩٥.

(٢) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٧/ ٥٣.

(٣) إقليدس: عالم الهندسة اليوناني المعروف، والذي كان كتابه في الهندسة من مراجع هذا العلم، «حل إقليدس» كناية عن إنهاء دراسة الكتاب واستيعابه.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٢٩٢، ٢٩٣.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٤/ ٦٤.

وقد خرج مرة إلى بستان له فقال: أود لو جاء المطر، فنزل المطر فأنشأ يقول:

ليس شرب الراح إلا في المطر	وغناء من جوار في السحر
غانيات سالبات للنهى	ناعمات في تضاعيف الوتر
راقصات زاهرات نجل	رافلات في أفانين الحبر
مطربات غنجات لحن	رافضات الهم أمال الفكر
مبرزات الكاس من	مطلعها مسقيات الخمر
من فاق البشر عضد الدولة وابن ركنها	مالك الأملاك غلاب القدر
سهل الله إليه نصره	في ملوك الأرض ما دام القمر
وأراه الخير في أولاده	ولباس الملك فيهم بالغرر

واستفز هذا الشعر الإمام ابن كثير خصوصا قوله «مالك الأملاك غلاب القدر» فقال: «قبحه الله وقبح شعره وقبح أولاده، فإنه قد اجترأ في أبياته هذه فلم يفلح بعدها، فيقال: إنه حين أنشد قوله غلاب القدر، أخذه الله فأهلكه، ويقال: إن هذه الأبيات إنما أنشدت بين يديه ثم هلك عقيبها»(٢).

والخلاصة أن عضد الدولة هو أهم البويهيين، فمنذ البويهيين الأوائل المؤسسين وحتى نهايتهم «لم يبلغ أحد منهم ما بلغه عضد الدولة من سعة المملكة والاستيلاء على الملوك وممالكهم، فإنه جمع بين (ممالكهم) كلهم... وضم إلى ذلك الموصل وبلاد الجزيرة وغير ذلك، ودانت له البلاد والعباد»(٣).

اضطراب البويهيين بعد عضد الدولة

لم يعلن خبر وفاة عضد الدولة حتى اجتمع القادة والأمراء البويهيون واتفقوا على أن يتولى الأمر من بعده ابنه أبو كاليجار المرزبان، وبهذا راسلوا الخليفة، فما إن انتهت مراسم العزاء الذي حضره الخليفة بنفسه حتى بدأت مراسم تنصيب المرزبان في دار الخلافة، في يوم

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٤٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٤٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٥١.



حافل مشهود، وتلقب بـ«صمصام الدولة».

١) صمصام الدولة

كأن الصراع بين عضد الدولة وإخوته أبى إلا أن يكرر نفسه بين صمصام الدولة وإخوته، فما إن بدأ صمصام الدولة في ممارسة مهامه حتى وَلَّى أخويه أحمد وفيروزشاه على فارس وأمرهما بالإسراع ليسبقا أخاهما شرف الدولة - الوالي على كرمان- فيمنعاه من التوسع، لكن شرف الدولة كان أسرع منهما، فما إن أتاه خبر وفاة عضد الدولة حتى انطلق من كرمان إلى فارس وسيطر عليها وامتلك أمورها، فعاد الأَخَوان إلى الأهواز[١].

وكان شرف الدولة يرى نفسه الأحق بملك أبيه، وهو ما أُبعد إلى كرمان إلا بوشاية من شُكْر الخادم -أحد الرجال المقربين من أبيه- فابتعد بهذا عن مركز السلطان في بغداد[٢].

وابتدأ صراع جديد بين صمصام الدولة وأخيه شرف الدولة الذي أعلن الاستقلال في فارس، واستطاع بالأموال واصطناع الرجال أن يسيطر على البصرة وأن يستميل إليه أخاه أحمد ويوليه عليها، ومن ناحيته جهز صمصام الدولة جيشا لحرب أخيه، بقيادة ابن دبعش - حاجب عضد الدولة- ونشبت الحرب (ربيع الأول ٣٧٣هـ) وأسفرت عن هزيمة جيش صمصام الدولة وأسر قائده ابن دبعش، وهي الهزيمة التي انتهزها أحمد بن عضد الدولة - والي البصرة- ليسيطر على الأهواز أيضا[٣].

بعد خمسة أشهر (شعبان ٣٧٣هـ) جاءت أزمة أخرى، إذ توفي مؤيد الدولة -عم صمصام الدولة- الذي كان حليف عضد الدولة ثم حليف ابنه صمصام الدولة، لكن وزيره الحكيم الصاحب بن عباد أسرع إلى صمصام الدولة ليتشاور معه في الأمر، وأشار عليه أن يعهد بتلك البلاد التي يتولاها مؤيد الدولة إلى عمه الآخر فخر الدولة -الذي كانت بينه وبين عضد الدولة خصومات وحروب- فهو كبير البيت البويهي الآن وهذه هي بلاده قبل أن يُخْرِجه منها مؤيد الدولة، وبهذا استطاع الصاحب بن عباد أن يميت مشكلة في مهدها وأن يوفر على صمصام الدولة البحث عن والٍ ثقة وكفء وأن يوفر على فخر الدولة حربا

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٠٦، ٤٠٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٣٣.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٠٧.

لاستعادة بلاده، وصَفَت العلاقات بين صمصام الدولة وعمه فخر الدولة بعد أن أرسل إليه بولايتها، فعاد فخر الدولة إلى بلاده بغير جهد ولا حرب (رمضان ٣٧٣هـ) وجعل الصاحب بن عباد وزيرا له نافذ الرأي ومسموع الكلمة، وذهبت الخُلَع ومرسوم الولاية موقعة من الخليفة لفخر الدولة.

على أن هذا الحل الحكيم الذي هدأت له جبهة المشرق كانت له آثار غير متوقعة في العراق، إذ ما إن ظهر فخر الدولة في الصورة حتى استقل الأخوان أحمد (في الأهواز) وفيروزشاه (في البصرة) وأعلنوا الولاء لعمهما فخر الدولة (٣٧٤هـ).

ثم نزلت الصاعقة الثانية على رأس صمصام الدولة بفشل خطته في السيطرة على عمان، فلقد كان استطاع استمالة أستاذ هرمز الوالي عليها من قِبَل أخيه شرف الدولة، لكن الأخير أرسل جيشا كبيرا هزم أستاذ هرمز وأخذه أسيرا، وأعاد عُمان إلى سيطرته في ذات العام (٣٧٤هـ) ولم يكن قد استكمل فرحته بدخولها في طاعته.

في العام التالي (٣٧٥هـ) وصلت المشكلات إلى قلب بغداد ذاتها، وكاد أن يحدث انقلاب عسكري على صمصام الدولة، ذلك أن القائد العسكري أسفار بن كرداويه تباعد ما بينه وبين صمصام الدولة واستطاع استمالة عدد كبير من الجند إلى خلعه وتنصيب أخيه الصغير أبي نصر (بهاء الدولة فيما بعد) وعمره حينئذ في حدود الخامسة عشرة كنائب عن شرف الدولة في بغداد، وفي ذلك الوقت كان صمصام الدولة مريضا فاستطاع أسفار أن يسير في خطته أسرع، وفشلت محاولات صمصام الدولة في استمالته أو إثنائه عن عزمه، فما زاده هذا إلا تماديا، ففكر صمصام الدولة في الاستعانة بالخليفة في هذه الأزمة لكن الخليفة رفض، فمثل هذه المعارك التي لا يؤمن فيها المنتصر ستؤثر على حياته ومصيره، ثم لعب صمصام الدولة على الخلافات بين القادة العسكريين فاستطاع استمالة القائد فولاذ زماندرا الذي كان يميل لشرف الدولة أيضا لكن منعه من اتباع أسفار أنه أَنِف أن يتبع من هو أقل منه في الرتبة، فلما جاءه عرض صمصام الدولة استجاب له، وقاد الحرب ضد أسفار واستطاع هزيمته، وهرب أسفار إلى أحمد بن عضد الدولة في الأهواز، بينما انسحب من كانوا معه إلى شرف الدولة في فارس، وانتهت هذه الأزمة وقد قَتَل صمصام الدولة وزيره ابن سعدان وكاد يقتل أخاه بهاء الدولة إلا أنه اكتفى بحبسه بعدما اقتنع بأنه لم يكن له ذنب، واستقر الأمر في بغداد لصمصام الدولة.

في هذه الأثناء كان أخوه وخصمه شرف الدولة يجهز الجيوش لأخذ العراق، وحاول أن يُقنع أخاه أحمد بن عضد الدولة بإعلان الولاء له مقابل أن يبقى على ولايته في الأهواز كما هو، إلا أن أحمد رفض أن يدخل في طاعة شرف الدولة، بل وتجهز لحربه ومقاومته، إلا أن شرف الدولة كان أذكى وأكثر خبرة فهو لم يتقدم إلى العراق إلا وقد استمال إليه قادة كثيرون من جند أحمد، فما هو إلا قليل حتى انسحب شرف الدولة إلى بلاده ثم انحاز إليه هؤلاء الجنود، فلم يجد أحمد بن عضد الدولة إلا الهرب واللجوء إلى عمه فخر الدولة في الري، فاتسع بهذا نفوذ شرف الدولة[1].

وأما الهارب أحمد فقد نزل بأصفهان –في الطريق إلى الري- وراسل عمه فخر الدولة باللجوء إليه والنزول في ملكه وطلب النصرة منه على أخيه شرف الدولة، فوعده عمه خيرا وأرسل إليه أموالا ولكنه لم يتحرك في نصرته على شرف الدولة، ولما طال الأمر دون أن يجد نصرة من عمه تعيده إلى الملك غدر هو، فحاول الاستيلاء على أصفهان تحت ولاية أخيه وخصمه شرف الدولة، لكنه فشل فشلا ذريعا إذ أوقع به جنود عمه فخر الدولة وأخذوه أسيرا وأرسلوه إلى الري فحبسه عمه فظل محبوسا حتى أرسل إليه عمه من يقتله وهو في مرض موته.

وهكذا تفعل شهوة الحكم، نقلته من أمير إلى لاجئ، ثم من لاجئ إلى أسير وقتيل!

وأما شرف الدولة الذي اتسع ملكه ونفوذه فقد امتلك الأهواز، ثم أرسل جيشا امتلك به البصرة وقبض على أخيه أبي طاهر فيروزشاه، وكانت أيامه في إقبال حتى لم يجد صمصام الدولة إلا مراسلته في طلب الصلح، فاشترط شرف الدولة أن يُفرج عن أبي نصر –المحبوس في فشل الانقلاب العسكري- ويرسله إليه، وأن يُخطب له بالعراق بحيث يكون صمصام الدولة تابعا له ونائبه عليها، وقد وافق صمصام الدولة، وتمت الإجراءات الرسمية بتنصيبه ووصلته المراسيم والخُلَع من قِبَل الخليفة الطائع لله.. ولكن، وقبل أن يتم الاتفاق على الصلح ويُقسم شرف الدولة كان القواد والأجناد في البلاد قد راسلوه وبايعوه، وكان طائفة من الأعيان والأشراف قد وصلوا إليه يحرضونه على أخذ بغداد، وفي القلب منهم الشريف محمد بن عمر –الذي كان صمصام الدولة قد صادر أملاكه الهائلة التي يبلغ خراجها سنويا

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٢٣، ٤٢٤.

مليونين ونصف المليون درهم[1]- فيما كان عدد من رجاله يحذرونه من حكم العراق الزاخر بالمشكلات ويذكرونه أن أباه عضد الدولة منذ «أقبل على العراق لم يكن له بال رخيّ ولا عيش هنيّ»[2]، ولعله كان يفضل التريث قبل إتمام خطوته الأخيرة نحو بغداد، ريثما يتم له كسب مزيد من العمال والرجال لضمان نجاح العملية[3].

ثم آلت الأحوال إلى أن عزم شرف الدولة على رفض الصلح وعلى أخذ بغداد لنفسه، ولم يكن هذا عسيرا في ظل ميزان القوى الذي ترجح فيه كفة شرف الدولة.

انطلق شرف الدولة من الأهواز، فاستولى على واسط، ولم يعد أمامه إلا بغداد، وهنا أطلق صمصام الدولة أخاه أبا نصر –الذي اشترط شرف الدولة الإفراج عنه- كي يتوسط لديه بالعودة عن بغداد إلا أن شرف الدولة رفض، وبدأ جنود صمصام الدولة في التشغيب عليه، فاضطرب أمره.

لم يجد صمصام الدولة إلا أن يستسلم لأخيه ويدخل في طاعته، فعرض هذا على رجاله الذين وضعوا أمامه أكثر من حل؛ أولها: أن ينسحب من بغداد شمالا إلى عكبرا وهناك سيظهر من ينحاز إليه ممن سينحاز إلى أخيه من الأمراء والأجناد، فإن كان عددهم كبيرا كان لهم أن يقاوموا شرف الدولة، وإن لم يكن كذلك واصلوا انسحابهم إلى الشمال ناحية الموصل وما إليها من البلاد التابعة لهم فيتقوى أمرهم. والثاني: أن ينسحب شرقا إلى قرميسين وأن يتحالف مع عمه فخر الدولة فيهاجمون أملاك شرف الدولة في فارس فلا يتمكن عندها من البقاء في العراق آمنا فيضطر إلى الصلح، وكانت هذه الحلول تستند إلى أن جيش شرف الدولة نفسه لن يظل متماسكا لفترة طويلة إذ لا بد سيحدث اشتباك ما بين الديلم والأتراك، غير أن صمصام الدولة أعرض عن هذه الحلول وفضل المسير إلى أخيه شرف الدولة بنفسه!

استقبله شرف الدولة استقبالا حسنا، وجرى بينهما ما رضي به صمصام الدولة، لكن ما إن خرج هذا الأخير من عند أخيه حتى قُبِض عليه وحُبِس، وأرسل شرف الدولة إلى بغداد جيشا يحفظ دار المملكة والخزائن، ثم سار هو بجيشه إلى بغداد فوصلها (رمضان ٣٧٦هـ)

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٢ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٢٨.
(٢) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٧/ ١٤٥.
(٣) د. حسن منيمنة: تاريخ الدولة البويهية ص١٤١.



ليكتب بهذا نهاية عهد صمصام الدولة وبداية عهد شرف الدولة.

وقبل أن نطوي صفحة صمصام الدولة نذكر إنجازين مهمين له حفظ بهما وحدة العراق أمام القرامطة في الجنوب والأكراد في الشمال.

أولاً: القرامطة

ما إن توفي عضد الدولة حتى طمع القرامطة في الاستيلاء على بغداد نفسها، فخرج جيش منهم إلى بغداد حتى صاروا قريبا منها (٣٧٣هـ)، لكن صمصام الدولة استطاع مفاوضتهم وردهم عن بغداد مقابل مبلغ كبير من المال فرجعوا[١].

وكان للقرامطة نائب في بغداد من أثر اتفاق بينهم وبين البويهيين، وكان له نفوذ وسلطة وحكم كأنما هو في مقام الوزير، ومن كان مثل هذا اصطدم لا شك بالسلطان نفسه، فقبض عليه صمصام الدولة وحبسه دون أن يتوقع آثارا كبيرة لمثل هذا القرار، إلا أنه لم يكد يصل الخبر إلى القرامطة حتى تحرك جيش (٣٧٥هـ) بزعامة اثنين من مجلس السادة للقرامطة هما إسحاق وجعفر وبايعا لشرف الدولة فدخلوا بهذا على خط الصراع السياسي الرئيسي بين الأخوين، وأخذا في جمع الأموال وجباية أهل الكوفة. وكان هذا مما أزعج صمصام الدولة كثيرا فإنهما من أولي البأس والشدة، وكانا من المهابة بحيث إن عضد الدولة نفسه وقبله بختيار كانا يصانعانهما ويقطعانهما الأراضي تجنبا لهما، ثم تطور الأمر فأرسلوا جيشا بقيادة الحسن بن المنذر - وهو من كبار القرامطة- إلى الجامعين[٢]. فلم يعد أمام صمصام الدولة إلا الحرب فأخرج جيشه واستنفر معهم العرب، فعبروا الفرات وقاتلوا الحسن وهزموه هزيمة منكرة وقع فيها هو أسيرا، فأرسل القرامطة جيشا آخر أكثر عددا فاشتعلت المعركة بينهما وأسفرت عن نصر كبير لجيوش صمصام الدولة حتى لقد قُتِل قادة جيش القرامطة أو أُسِروا، ثم انطلقت الجيوش إلى الكوفة لكن القرامطة هناك كانوا قد هربوا منها فلم يلحقوهم، وكانت هذه الهزيمة من أقوى ما نزل بهم[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤١٧.

(٢) الجامعين: مدينة بين بغداد والكوفة على نهر الفرات. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٩٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٢٢.

ثانيا: الأكراد

ظهر تمرد كردي آخر تزعمه رجل يسمى «باذ الكردي» كان قد هرب من عضد الدولة، ثم عاد إلى المشهد (٢٧٣هـ) حيث سيطر على أجزاء من ديار بكر ثم استولى على ميافارقين ثم نصيبين، فأرسل صمصام الدولة جيشا تلقى هزيمة قوية عند منطقة باجلايا التابعة لبلدة كواشي، وقُتِل منهم كثير وأُسِر كثير ثم قَتَل باذ الأسرى، وانسحب قائد الجيش إلى الموصل فثار عليه أهل الموصل الذين يعانون من حكم البويهيين فهرب منهم، فخسر البويهيون الموصل ثم كسبها باذ التركي، فكانت الحرب نصرا كاملا لباذ وهزيمة كاملة للبويهيين(١).

وعندئذ جهز صمصام الدولة جيشا كثيفا عهد بقيادته لزيار بن شهراكويه –أكبر القادة العسكريين لدى صمصام الدولة– فانطلق الجيش إلى الموصل وهو على أتم الاستعداد، فوقعت الحرب بينهم وبين باذ (صفر ٣٧٤هـ) وأسفرت عن نصر كبير للبويهيين، وقد وقع في الأسر وجوه قادة باذ وأهله، وعادت الموصل إلى حكم البويهيين، ثم أرسل زيار فرقا تطارده في ميافارقين ونصيبين واستعان البويهيون بسعد الدولة الحمداني الذي فشل في مواجهة باذ عسكريا فأرسل من يغتاله، لكن العملية فشلت وأصيب باذ ولم يمت، على أنه بعد هذه الإصابة البالغة تخلى عن الحرب وراسل زيار بن شهراكويه وسعد الدولة الحمداني، فاتفقوا على أن يكون باذ حاكما لديار بكر، وأن تكون الموصل لسعد الدولة الحمداني، ورجع زيار بن شهراكويه إلى بغداد وقد استقر الأمر في هذه الأنحاء(٢).

وبهذا انتهت صفحة صمصام الدولة، وطويت، ولم يكن ثمة جديد في العلاقة بينه وبين الخليفة؛ فالخليفة حاضر في مواطن العزاء بنفسه كما في عزاء مؤيد الدولة (شعبان ٣٧٣هـ)، وهو حاضر أيضا إذا شاء صمصام الدولة دعما معنويا أمام خصومه كما في حفلة أقيمت (٣٧٥هـ) وهو عام الخصومات والحروب حيث جدد الخليفة تكريم صمصام الدولة فأنعم عليه بالخُلع والأسورة والأطواق، وأركبه على حصان ذي سرج من الذهب وأمامه حصان مثل ذلك أيضا(٣).

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤١٥، ٤١٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤١٨.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التايخ ٧/ ٤٠٩، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٤٥، ٣٤٦.

٢) شرف الدولة

كانت المشكلات في انتظار شرف الدولة قبل دخوله بغداد، لقد وقعت الفتنة بين قسمي الجيش من الأتراك والديلم، وعلى رغم أن الديلم كانوا خمسة عشر ألفا فيما كان الأتراك ثلاثة آلاف فقط إلا أن الأتراك كانوا الأعلى يدا في هذه الفتنة التي بدأت بنزاع بين تركي وديلمي على دار واصطبل ثم انحاز كل قوم إلى صاحبهم. وكانت خطورة مثل هذه الفتنة أن الأتراك قد يفكرون في إخراج صمصام الدولة من حبسه ليبايعوه، فلهذا كان أهم ما فكر فيه شرف الدولة تشديد الحراسة على محبس صمصام الدولة وأمر الحرس إذا شعروا باقتراب الأتراك أن يقتلوه، ثم سعى جهده في الإصلاح بين الطائفتين حتى تحقق هذا بعد أيام عصيبة كادت تعصف بكل ما تم من مجهود.

ثم دخل شرف الدولة بغداد، وكالعادة استقبله الخليفة وهنأه بالسلامة والنصر، وكالعادة أيضا أبدى شرف الدولة تعظيم مقام الخلافة وقبَّل الأرض بين يديه، وكانت أول قراراته بعد دخول بغداد:

١- إرسال صمصام الدولة إلى قلعة في فارس ليعتقل هناك لينتهي خطره وخطر رجاله أو المناوئين الذين قد يفكرون في إخراجه وتزعم حركة تمرد بقيادته أو لإعادته.

٢- أعاد الأموال والأملاك المُصادرة ليكسب بهذا أعيان الناس وكبراءهم.

٣- سعى في تسكين الفتنة فلم يقبل الشكاوى الكيدية أو السعايات بين المتخالفين فهدأت الأحوال وأمن الناس على أنفسهم فأمن هو من شغبهم وتمردهم[١].

وتم مجلس البيعة بين الخليفة وشرف الدولة (صفر ٣٧٧هـ) بحضور القضاة والأعيان وكبار رجال الدولة، ثم أقيم الاحتفال الرسمي لتنصيبه (ربيع الأول ٣٧٧هـ) وكان كالعادة احتفالا فخما فاخرا زُيِّنت فيه بغداد، لا سيما الطريق بين دار المملكة (البويهية) ودار الخلافة، وأنعم الخليفة على شرف الدولة بالخُلَع والحلية المذهبة وما إلى ذلك[٢].

وبعدما استقر له ملك العراق بلا منافسة بدأ في النظر إلى ما يتبعه من أمراء خارج

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٢٨.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٤٨.

العراق، فكان أول ما يلفت النظر ويثير الهم هو بدر بن حسنويه زعيم فرع البرزيكان من دولة الأكراد الهكارية في الشمال، وقد ذكرنا كيف أن بدرا تولى الحكم واستقر له الأمر بمعاونة عضد الدولة من قبل، إلا أنه لم يكن مؤيدا لشرف الدولة ولم يبذل له الطاعة، فجهز شرف الدولة جيشا يقوده كبير القادة قراتكين الجهشياري، وكان هذا الأخير قد بلغ من السلطان والنفوذ ما أثار ضيق شرف الدولة نفسه ولم يكن يستطيع عزله لمكانته بين الجنود وولاء الكثيرين له، فأراد أن يضرب أحدهما بالآخر فأيهما انهزم –بدر أو قراتكين– فإن شرف الدولة قد ارتاح منه.

خرج جيش قراتكين إلى بدر بن حسنويه، واشتبك الجيشان فانسحب بدر انسحابا حربيا ظنه قراتكين هزيمة، فلم يلبث أن عاد بدر بهجوم كاسح مزق فيه الجيش البويهي تماما ونجا قراتكين نفسه بصعوبة بالغة، وكانت هذه الهزيمة مما يسر لشرف الدولة حبسه ثم قتله فيما بعد.

إلا أن هذه الإفادة التي أفادها شرف الدولة كانت ذات وجه آخر من المصيبة، فلقد استولى بدر بن حسنويه على المزيد من البلاد المتاخمة له فقويت شوكته وعظم أمره واستحكم الخلاف بينه وبين شرف الدولة.

إلا أن ما لم يتوقعه أحد على الإطلاق قد حدث، فالأمير المنتصر شرف الدولة ذو الثمانية والعشرين عاما فقط قد نزل به مرض الموت، وأشار عليه الأطباء بأن يسكن قصر معز الدولة حيث الجو أنقى وأطيب فلم يغن ذلك عنه شيئا، ولم ينشغل في ذلك الوقت إلا بصمصام الدولة –الأمير المعتقل في فارس– فأرسل أولا من يسمل عينيه كي لا يكون له مطمع في الإمارة ولا لغيره، ثم أرسل ثانيا ابنه أبا علي ومعه أكثر الأموال والجواهر والسلاح ليحفظ الأوضاع في فارس، وأناب عنه في العراق أخاه بهاء الدولة.. وحين أقبل أول جمادى الآخرة كان شرف الدولة قد مات!

ومما يثير الخواطر والتأملات أن أبناء عضد الدولة الذين تصارعوا على الحكم لم يذق واحد منهم لذته حتى انقلب الأمر عليه، وكان مصير كل منهم عظة وعبرة.. فصمصام الدولة لم يكمل السنوات الأربع في الحكم –وقضاها في حروب مع إخوته ومع القرامطة ومع الأكراد– ثم انتهى به الحال معتقلا في فارس ثم فقد عينيه، وأخوه أحمد لم يكد يستقل

بالأهواز حتى غلبه عليها أخوه شرف الدولة فالتجأ إلى عمه فخر الدولة ثم لعبت شهوة السلطان برأسه فأراد الاستقلال بأصفهان فانتهى أسيرا ثم قتيلا، والأخ الثالث أبو طاهر فيروزشاه كان رفيق صمصام الدولة في الحبس والاعتقال، والأخ الذي انتصر وكان الأقوى لم يلبث عامين إلا ونزل به الموت وهو في ريعان شبابه!

فأي أولئك كان يتوقع مثل هذا المصير؟! وأي أولئك يتمنى الآن في قبره أن لم يقاتل على السلطان ولم يحرص عليه ولم يكن يتحمل أمانته يوما واحدا؟!

ذهب الذين تقاتلوا على السلطان، ثم أفضى السلطان إلى أخيهم الصغير بهاء الدولة الذي لم يقاتل عليه من قبل! وإن في ذلك لعبرة!

وصل خبر وفاة شرف الدولة قبل أن يصل المُكَلَّف بسمل عيني صمصام الدولة، لكن رأي رجال شرف الدولة استقر على تنفيذ أمره وسمل عينيه لذات السبب، لئلا يكون له مطمع في الملك فيكونون من ضحاياه فيما بعد، فتم ذلك.

وأما أبو علي بن شرف الدولة فقد وصله الخبر وهو في البصرة، فسارع إلى فارس وبالتحديد إلى شيراز، وهناك واجهته مشكلتان: ذلك أن أصحاب القلعة التي اعتقل فيها صمصام الدولة أفرجوا عنه بعد سمله فانحاز إليه كثير من الجنود الديلم، ثم وقعت فتنة جديدة بين الترك والديلم في جيش أبي علي فانحاز هو إلى الأتراك وانتصر بهم على الديلم، ثم انتصر بهم مرة أخرى على صمصام الدولة ومن معه من الديلم في شيراز، فهذه هي المشكلة الأولى التي استطاع التغلب عليها، وأما الثانية.. فكان فيها نهايته التي لم يتوقعها!

٣) بهاء الدولة

تولى بهاء الدولة حكم العراق، وجلس يتلقى العزاء في دار المملكة (مقر الحكم البويهي)، وجاء الخليفة يبذل العزاء ويُلْبسه خُلع السلطنة - سبعة ثياب أعلاها الثوب الأسود شعار الدولة العباسية، وطوق في العنق، وسواران في اليدين- مع مظاهر التشريف في موكب فخم، وأظهر بهاء الدولة ما هو معتاد من تعظيم الخليفة، وبدأت في العراق أيام بهاء الدولة!

وكالعادة، بدأ العهد الجديد بالمشكلات، وانفجرت في وجه بهاء الدولة ثلاث جبهات:

أولا: حرب الأتراك والديلم

منذ زمن والجنود تحولوا إلى ما يشبه المرتزقة، يشغبون إن نقصت أموالهم أو إن تطلعوا إلى أموال، وينحازون لمن يستطيع أن يدفع لهم أكثر، ولذا فإن أقوى أوقات اضطرابهم حين تنتقل السلطة إلى خليفة أو سلطان جديد، فهي لحظات اضطراب القوة وظهور المتنافسين ومحاولة كل منهم شراء الجنود بالدفع أكثر، ثم هي العادة التي استقرت منذ نحو القرنين أن يعطي الخليفة أو السلطان الجديد أموالا للجند بمناسبة اعتلائه العرش، ثم ومنذ دخول البويهيين أضيف إلى مشكلات الجند ذلك الانقسام بين عرقي الترك والديلم، وما بينهما من مناوشات تتجدد عند أقل الأسباب، وما يوفره انقسامهما هذا من فُرَصٍ للمتنافسين للدخول على الخط بينهما وكسب إحدى القوتين إليه.

وكانت لحظة تولي بهاء الدولة واحدة من تلك اللحظات التي تجتمع فيها الأسباب لقيام الفتنة بين الترك والديلم، وقد كان، واقتتل القوم في بغداد قتالا شديدا دام لخمسة أيام لم يستطع فيها أحد وقفه أو التوسط فيه ولا حتى بهاء الدولة نفسه الذي فشلت مساعيه في الصلح حتى لقد قُتِل له أكثر من وسيط! ثم استمر القتال سبعة أيام أخرى حتى استطاع بهاء الدولة إيقافه والتدخل بينهم بالصلح، وكان الأتراك هم الأعلى يدا، فكان من مصلحة بهاء الدولة أن ينحاز إليهم، وقد كان! فقويت شوكة الأتراك في بغداد، وخرج كثير من الديالمة منها كما قُبِض على بعضهم.. وكان لانحيازه إلى الأتراك هدف آخر أيضا!

ثانيا: أبو علي بن شرف الدولة

ذكرنا أن أبا علي دخل في اشتباك مع صمصام الدولة في فارس بعدما مات أبوه، وأنه استطاع بمن معه من الجند الأتراك هزيمة الديالمة الذين كانوا جيشا لصمصام الدولة في أكثر من موضع، وكان مقامهم في شيراز.

فلئن كفاه هذا فهو مستقل بحكم فارس عن عمه بهاء الدولة وهذا ما لا يرضاه الأخير، ولئن لم يكفه هذا فلا ريب أن محطته القادمة بعد أن تستقر له فارس هي المطالبة بحكم العراق الذي كان يتولاه أبوه، وهو ما فطن له بهاء الدولة مبكرا، فما كاد يتخلص من فتنة الأتراك والديلم في بغداد حتى اتجه ببصره لأبي علي بن شرف الدولة، فأرسل إليه رسولا في شيراز بكلام حسن طيب يوثق ما بينهما من علاقات ويدعوه إلى العراق، ثم كانت له مراسلات

سرية أخرى مع الأتراك الذين هم جيشه وقوته يعدهم ويمنيهم ويغريهم، فأشاروا على أبي علي بالذهاب إلى العراق وحَسَّنوا له الأمر حتى وقع هذا الأخير في الخديعة، فذهب إلى العراق فعلا، والتقى بعمه بهاء الدولة في واسط (١٥ جمادى الآخرة ٣٨٠هـ) فاستقبله وأكرمه ثم قبض عليه وقتله، ثم جهز جيشه للسيطرة على فارس(١).

ترى لو كان يدري أبو علي أن هذا مصيره.. هل كان يحرص على الإمارة ويجتهد في قتال عمه صمصام الدولة؟! بل لو كان يدري أبوه شرف الدولة أن حصاد معاركه الطويلة لن يجنيها ويتمتع بها وفوق ذلك سيورط فيها ابنه الذي سيُقتل بعده بأيام.. ترى كيف كان سيفعل؟!

وعلى رغم دروس التاريخ الكثيرة والغزيرة.. تظل شهوة النفوذ والحكم في النفس أقوى وأكثر فعالية! وعلى رغم أن الآخرة تكون أقرب كثيرا مما نتصور إلا أن طول الأمل يُنْسي!

ثالثا: عمه فخر الدولة

لفخر الدولة ثأر قديم مع أخيه عضد الدولة وأبنائه، فعضد الدولة هو الذي استولى على بلاده وطارده في طبرستان حتى انتهى به الحال لاجئا عند السامانيين في خراسان، وابنه أحمد هو الذي حاول الاستيلاء على أصفهان بعد أن قدم إليه لاجئا طريدا مهزوما من أخيه شرف الدولة، والابن الوحيد الذي كان حليفه وأعاده إلى ملكه –وهو صمصام الدولة– قد انتهى به الحال مهزوما ومعتقلا ومسمولا!

وها قد مات أو حُبِس أو قُتِل أبناء عضد الدولة ولم يعد يحكم العراق إلا أصغرهم بهاء الدولة، فكان طبيعيا أن تتجدد الأطماع في ملك العراق، لا سيما في وجود وزيره الصاحب بن عباد الذي يحب العراق حبا جما ويعلم عظمتها ومجد حاكمها، فما هي إلا محاولات بسيطة من الصاحب بن عباد –الذي أدرك هو الآخر فناء الأقوياء في العراق– حتى وجدت هوى لدى فخر الدولة!

عزم فخر الدولة على غزو العراق وجهز لذلك جيشين؛ جيشًا بقيادة وزيره الصاحب بن عباد يسلك طريق العراق مباشرة وجيشًا بقيادته يغزو من طريق خوزستان، ثم سعى البعض

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٣٨.

لدى فخر الدولة بأن وزيره الصاحب بن عباد قد يخونه إذا استماله أولاد عضد الدولة في بغداد، فألغى فخر الدولة خطة الجيش الثاني واستدعى إليه وزيره، واستبد بالأمر ولم يعد يشاوره ويعمل برأيه.

والصاحب بن عباد من مشاهير الوزراء في التاريخ الإسلامي، وكان هو على الحقيقة صاحب المجد ومدبر الدولة التي يتزعمها فخر الدولة، وله في كتب التراجم والطبقات ذكر ومدائح كثيرة فقد كان من أهل العلم بالأدب واللغة، وله مكتبة هائلة، ويجالس العلماء والأدباء[١].

ولقد أدت العلاقات التي توترت بينه وبين فخر الدولة إلى سكوته عن النصيحة والتدبير خشية الاتهام، وقد استبد فخر الدولة بنفسه وعمل برأيه، فبدا سوء رأيه وسوء سيرته حين استولى على الأهواز، فأساء إلى الأجناد في الأهواز وشمل هذا أيضا جيشه هو، فخشي الجميع أن يكون أشد وأسوأ إذا تحقق هدفه وامتلك العراق، وواصلت الأمور انهيارها حتى اضطر الصاحب بن عباد إلى النصيحة ببذل الأموال واسترضاء الجند فرفضها فخر الدولة وأصر على رأيه، فتخاذلت عنه الأجناد والجيوش، ثم اتفق ذلك مع فيضان نزل في نهر دجلة عند الأهواز، فانهار تخطيطه ولم يجد رجالا يعاونونه، فعاد منسحبا عن الأهواز إلى مستقر ملكه في الري، وخاب مسعاه، واحتفظ بهاء الدولة بالأهواز بلا جهد ولا حرب[٢].

وكان طبيعيا أن يكمل مسيرته بالسيطرة على فارس، وشهد عام (٣٨٠هـ) خروجه من بغداد لهذه المهمة، فسار أولا إلى أرجان –مركز حكم أبي علي بن شرف الدولة- فاستولى عليها فوجد فيها من الأموال مليون دينار وثمانية ملايين درهم، كما وجد من الثياب والجوهر كنوزا كثيرة، وقد سال لعاب الأجناد لهذه الكنوز فظلوا يشغبون ويطالبون بالأموال ونصيبهم منها ولم يسكتوا حتى أعطيت لهم كل تلك الأموال على دفعات، ولم يبق في يد بهاء الدولة إلا القليل.

كان المنافس الأول في فارس هو صمصام الدولة، ومعه الجنود الديالمة، وكان مركز نفوذه في شيراز، ولديه قوة عسكرية كبيرة في النوبندجان، فأرسل بهاء الدولة جيشا بقيادة أبي العلاء بن الفضل إليها، فواجهه جيش من لدى صمصام الدولة بقيادة فولاذ زماندار،

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٥١١ وما بعدها.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٣٩.

فاستطاع هذا الأخير خداع أبي العلاء فأوقع به هزيمة قوية عاد بها خائبا إلى أرجان. وحينئذ تحرك صمصام الدولة من شيراز ليلحق بقائده فولاذ زماندار، وبدأت منذ تلك اللحظة مساعي الصلح بين الأخوين، وتم الاتفاق على أن تكون فارس وأرجان لصمصام الدولة فيما تكون خوزستان والعراق لبهاء الدولة ولكل منهما إقطاع في مناطق حكم الآخر، ورجع بهاء الدولة إلى الأهواز وهو يحمل فشله في هذه الحملة التي خسر فيها فارس!

على أن خسارة فارس لم تكن وحدها التي نزلت ببهاء الدولة، ذلك أن انشغاله ببلاد فارس أدى إلى خسارته الموصل بل ولقد اضطربت الأمور في بغداد ذاتها.

أما خسارة الموصل فبدأت قصتها من بعد موت شرف الدولة، إذ انطلق الأميران الأخيران من بني حمدان -أبو عبد الله الحسين وأبو طاهر إبراهيم ابنا ناصر الدولة الحمداني- بعدما مات شرف الدولة إلى الموصل يؤملون استعادة وتجديد ملك آبائهم الحمدانيين، ولم يكن بهاء الدولة يفطن إلى هدفهما هذا فأذن لهما بالخروج من بغداد، وحين أشار عليه أهل الرأي بخطورة هذا أرسل مسرعا إلى نائبه على الموصل خواشاذه أن يمنعهما منها، فراسلهما خواشاذه فخدعاه ثم نزلا بالموصل وساعدهما المواصلة الذين ثاروا على الديالمة والأتراك ودعموا الحمدانيين وكادوا يقتلون خواشاذه ورجال البويهيين لولا أن منعهم الحمدانيون من هذا، واستنشقت الموصل مرة أخرى حكم العرب بعد حكم العجم، وصار كل كاره لحكم العجم يلجأ إلى الموصل فيكون قوة جديدة لبني حمدان(١).

على أن اضطراب الموصل وعودة الحمدانيين أثارت من جديد أطماع الزعيم الطامح المترقب باذ الكردي الذي ما زال ينتظر فرصة ليحكم بها الموصل بعد هزيمته الأخيرة أمام صمصام الدولة قبل ثلاث سنوات (صفر ٣٧٤هـ)، وقد حاول مرة أخرى في عهد شرف الدولة (٣٧٧هـ) بعد وفاة سعد الحاجب نائب الموصل إلا أن شرف الدولة أرسل قائده خواشاذه فنفذ خطة حكيمة قطع بها آمال باذ الكردي؛ تلك هي منحه البلاد التي بين الموصل وبين باذ إلى بني عقيل كإقطاع؛ فتولوا هم الدفاع عنها فأنزلوا بباذ هزيمة كبيرة قُتِل فيها أخوه ونجحوا في منع باذ من أخذ الموصل حتى مات شرف الدولة وقدم الأميران الحمدانيان وأخذا الموصل.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٤٠ وما بعدها.

وأمام هذه التطورات عاد باذ الكردي من جديد طامعا في الموصل بعد ثلاث سنوات (٣٨٠هـ)، وسار بجيوشه حتى نزل قريبا من الموصل، فتحالف ابنا ناصر الدولة مع أبي الذواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل فاشترط عليهما أخذ جزيرة بن عمر ونصيبين وبلدًا فوافقا، وأنزلوا جميعا بباذ هزيمته الأخيرة التي قُتِل فيها لتنتهي بهذا فصول حروبه وأطماعه.

لكن وإن انتهت أطماع باذ فإن أطماع غيره استكملت فصولها، فلقد استطاع ابن أخت باذ أن يحكم ما كان لخاله، وحين طمع الحمدانيون في هذه الأنحاء -وهي قد كانت لهم قديما أيام قوة الدولة الحمدانية- استطاع هو أن يهزمهم وأن يبدأ فيها دولة عرفت باسم «دولة بني مروان».. وعلى الجانب الآخر أطمعت هزيمة الحمدانيين حليفهم أبا الذواد أن يملك الموصل، ولم يكن هذا صعبا عليه فقتل آخر الأمراء الحمدانيين أبا طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة ليبدأ حكم آل المسيب في الموصل.

على أن أبا الذواد لم يشأ أن يفتح على نفسه جبهة بهاء الدولة فراسله أن يبعث إليه بنائب عنه لحكم الموصل، إلا أن هذا النائب كان بلا قيمة ولا وزن، فهو مجرد صورة شكلية للبويهيين فيما كان أبو الذواد هو الحاكم الفعلي المطلق صاحب الأمر والنهي في الموصل.

فتلك هي قصة خروج الموصل من حكم البويهيين..

وأما اضطرابات بغداد فاشتعلت منذ ترك بهاء الدولة العراق ليحاول الاستيلاء على فارس، فشهدت بغداد انفلاتا أمنيا واسعا، وانتشر فيها اللصوص وقطاع الطرق، ووقعت الفتن الطائفية بين السنة والشيعة، فأحرقت المساكن والمحال ونهبت الأموال، وانتهى الوجود الفعلي للسلطة فصار لكل قوم أو لكل منطقة زعيم، وظلت هذه الاضطرابات طوال الشهور التي كان بهاء الدولة فيها غائبا عن بغداد(١).

وبهذا يكون بهاء الدولة قد فشل في كل مهماته تقريبا، فهزم وخسر فارس، ثم خرجت الموصل من حكمه، ثم اضطربت بغداد في غيابه، ويكون الشيء الوحيد الذي نجح فيه هو غدره بابن أخيه أبي علي شرف الدولة!

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٤٧، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٥٢.

وأما نجاحه الثاني فكان في أمر لا يقل سوءا عن نجاحه الأول.. وذلك هو: عزل الخليفة!

نهاية الطائع

كان طبيعيا في ظل الهزائم المتوالية والاضطرابات العامة أن تقل الأموال بيد بهاء الدولة، وإذا قلَّت الأموال بدأ الجنود في الشغب والمطالبات، وفشل بهاء الدولة في إيجاد مصدر للأموال حتى اضطر في النهاية إلى القبض على وزيره سابور بن أردشير ومصادرة أمواله فلم يكف هذا، فأغراه وزيره المقرب –والمدبر الفعلي لأمور الحكم- الحسين بن المعلم بخلع الخليفة ليحوز ما في خزائن الخلافة من الأموال!

أرسل بهاء الدولة إلى الخليفة يستأذن في القدوم عليه لتجديد العهود والبيعة فوافق الخليفة، وعلى نحو ما جرى للخلفاء من قبله، تقدم بعض الديالمة كأنهم سيقبلون يد الخليفة ثم سحبوه فأوقعوه أرضا وقيدوه وأخذوه إلى دار بهاء الدولة الذي أجبره على كتابة إعلان خلع نفسه من الخلافة، ونُهبت دار الخلافة وأُخِذ ما في الخزائن كما أُخِذ من أثاث دار الخلافة بل لقد سُرقت كثير من الملابس كذلك. وبعد أن انتهى بهاء الدولة ورجاله من نهب دار الخلافة أباحوها للعامة، وانتشر النهب في بغداد جميعها إذ ظن الناس أن بهاء الدولة هو الذي قُبِض عليه، وانتهت خلافة الطائع لله (١٩ شعبان ٣٨١هـ) بعد أكثر من سبع عشرة سنة في الخلافة، وكان إذ ذاك في الرابعة والستين من عمره!

وقد استاء المؤرخ الوزير أبو شجاع من شرح كيف كان خلعه «إذ لا سياسة فيه فتُحْكَى، ولا فضيلة فتروى. إلّا أبياتا للرضيّ أبى الحسن الموسوي رحمه الله. فإنّه كان فى جملة من حضر. فلمّا أحسّ بالفتنة أخذ بالحزم وبادر الخروج من الدار، وتلوّم من تلوّم من الأماثل، فامتُهِنُوا وسُلِبَت ثيابهم وسَلِم هو فقال:

أعجب لمسكة نفسي بعد ما رميت	من النوائب بالأبكار والعون
ومن نجاتي يوم الدار حين هوى	غيرى ولم أخل من حزم ينجّيني
مرقت منها مروق النجم منكدرا	وقد تلاقت مصاريع الرّدى دوني
وكنت أول طلّاع ثنّيتها	ومن ورائي شرّ غير مأمون

مـن بعـد مـا كـان ربّ الملـك مبتسـما	إليّ أدنيـــه فى النّجـــوى ويــــدنيني
أمسيت أرحـم مـن أصـبحت أغبطـه	لقـــد تقـــارب بـــين العـــزّ والهـــون
ومنظـــر كـــان بالسّرّـــاء يضـــحكني	يـــا قـــرب مـــا عـــاد بالضّرّـــاء يبكينـــي
هيهـــات أغـــترّ بالســـلطان ثانيـــة	قـد ضـلّ وُلاَّج[1] أبـواب السلاطين[2]

وقد ظل الطائع لله حيا بعد خلافته مدة اثنتي عشرة سنة حتى توفي (١٩٣هـ) في عهد القادر بالله.

وقفة مع الطائع

كان مثالا على الخليفة الضعيف حتى قال فيه السيوطي: «الخليفة المستضعف الذي لم تضعف الخلافة في زمن أحد ما ضعفت في زمنه، ولا قوي أمر سلطان ما قوي أمر عضد الدولة»[3]، وقال عنه ابن الأثير: «لم يكن له من الحكم في ولايته ما يعرف به حال يستدل به على سيرته»[4].

***

(١) وُلاَّج: جمع «والج» أي داخل، أي المقرب من السلطان.

(٢) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٧/ ٢٤١.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٣٥١.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٥٠.



القادر بالله

(رمضان ٣٨١ هـ ـ ذي الحجة ٤٢٢ هـ)

وهو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، وأمه أم ولد اسمها يمنى، مولاة عبد الواحد بن المقتدر.

قبل الخلافة وقعت بين القادر وبين أخت له نزاع على ضيعة، فسعت به لدى الخليفة الطائع الذي كان قد تعافى لتوه من مرض أصابه فوشت بأخيها وأخبرت الخليفة أنه كان يتهيأ ويعد العدة لخلعه من الخلافة وطلبها لنفسه، فعزم الطائع على القبض عليه لولا أن القادر استطاع الهرب بأعجوبة إلى أمير البطيحة مهذب الدولة الذي أكرمه وأنزله أحسن المنازل وعامله بما يليق بأمير عباسي من بيت الخلافة وكأنما دولة آبائه في مجدها[1].

فلما عُزِل الطائع كان أنسب الناس لها بطبيعة الحال ذلك الخصم الهارب إلى البطيحة، وقد أجبر بهاء الدولة الخليفة الطائع على عزل نفسه وتسليمها إلى القادر بالله، وأعلن هذا على الناس.

وكان أبيض اللون معتدل الجسم، طويل اللحية، وكانت لحيته كثة، وهو يخضبها بالحناء.

***

بعد نحو ثلاث سنوات، عاد الهارب المُطارَد إلى بغداد خليفةً من حيث لا يحتسب أحد ولا حتى هو نفسه، وودعه مهذب الدولة في البطيحة بالتعظيم والتكريم اللائق بخليفة، وبذل له من الأموال والهدايا ما يبذله كبار الملوك للخلفاء، وفي الطريق إلى بغداد اعترضه الأجناد في واسط يطالبون بالأموال والمكافأة بمناسبة الجلوس على عرش الخلافة وحدثت بينه وبينهم منازعات، وفي بغداد استقبله بهاء الدولة وأعيان الناس بالتعظيم المعتاد المبذول

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٣٩، ٤٤٠.



للخلفاء وإن لم يكونوا ذوي نفوذ حقيقي، ودخل القادر دار الخلافة (١٢ رمضان ٣٨١هـ)، ثم أقيم الاحتفال بتوليه الخلافة وأتى الشعراء ينشدون القصائد بحضور القضاة والأشراف والأعيان وكبار القوم، ثم تمت مراسم تفويضه لبهاء الدولة بإدارة شؤون الخلافة.

تميز الخليفة القادر بأنه كان من العلماء، فكانت له قصيدة في العقيدة على منهج أهل السنة والجماعة حتى كان يدرسها الطلاب في الحلقات العلمية وكانت تقرأ في كل يوم جمعة، وكان هو ذاته كثير الصدقة، وقد ساعده ضعف البويهيين على تجديد مقام الخلافة ولو شيئا قليلا، فكان على كل حال في مكانة أفضل من سابقه الطائع لله.

وحين سُلِّم إليه الخليفة السابق الطائع لله، والذي كان يطارده، أكرمه وأحسن إليه وجعله في غرفة في دار الخلافة، وكان يؤكله مما يأكل، وتذهب إليه عطور الخليفة، وكان الطائع لله لا يعجبه أكل الخليفة ولا عطره ولا يرضى بشيء أقل مما كان له حين كان خليفة فيتذمر ويعترض ويطلب ما كان له أيام خلافته، فكان القادر يأمر له بما يحب، وأضاف إلى خدمه جارية تطبخ له ما يحب[١]، وهذا كرم يندر من خليفة في سابق له لا سيما وقد كان بينهما عداء!

بقية عهد بهاء الدولة

مضى باقي العام (٣٨١هـ) على ذات الحال من فشل سياسة بهاء الدولة، فالدولة ما زالت في أولها، وعملية خلع خليفة وتنصيب غيره هي بطبيعتها لحظة تزيد فيها الاضطرابات وتضعف فيها السلطة، ونستطيع أن نرصد في هذا المجال ثلاثة أمور:

١- اضطرابات شعبية تمثلت في وقوع الفتنة الطائفية بين الشيعة والسنة في يوم عيد الشيعة غدير خم (١٣ ذي الحجة) حتى سقط منهم قتلى كثيرون، وتعدى النزاع من مجرد الخلاف في المذهب إلى بداية تمرد سياسي على الخلافة في الجزء الجنوبي عند باب البصرة إذ أحرق السنة هناك أعلام السلطان البويهي، فتدخلت السلطة فقُتل زعماء هذه الحركة وصُلبوا على الجسور الواصلة بين ضفتي دجلة حيث يشهدهم الناس[٢].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٣٦٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٥٩.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٣٥٦.

٢- اضطرابات في بلاط الحكم تمثلت في قبض بهاء الدولة على قائده خواشاذه بوشاية من وزيره ابن المعلم، بعد أن كان قد قبض قبل قليل على وزيره سابور بن أردشير، وبقائه تحت تأثير وزيره ابن المعلم.. وبعد قليل في أوائل عام (٣٨٢هـ) سيحاول القبض على الوزير التالي علي بن أحمد ثم على ابن المعلم نفسه وسيقتله، فلقد كان بهاء الدولة «أُذُنًا يسمع ما يُقال له ويعمل به»(١).

٣- فشل بهاء الدولة في حملته العسكرية على الرحبة، والتي كان أهلها قد راسلوه يطلبون منه إرسال حملة عسكرية تُخرجهم من سلطان بدر –الذي كان غلام سعد الدولة الحمداني- فأرسل حملة بقيادة خمارتكين الحفصي، ولكنه هُزم أمام بدر، ثم بلغته أنباء الاضطرابات في بغداد فعاد منسحبا فوقع أسيرا لدى بعض الأعراب ولم يتركوه حتى بذل لهم أموالا كثيرة.

بمثل هذه الصورة انتهى عام (٣٨١هـ).. ليبدأ بهاء الدولة في ظل القادر بالله عهدا جديدا طالت أيامه!

لقد طالت أيام بهاء الدولة مثلما طالت أيام أجداده المؤسسين عماد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة، وعلى عكس ما قصرت أيام آبائه وإخوانه، إلا أن طول أيامه لم تأت بمجد قديم بل ولم تحافظ على الدولة الموروثة! بل كان طول الأيام يصحبه الانهيار والانحسار!

وكان هذا الانهيار من جملة أسباب دعت بهاء الدولة إلى نقل مقر السلطنة من بغداد إلى شيراز، ليتولى أمر بغداد والعراق نائب عنه عُرف بلقب عميد العراق أو عميد الجيوش، وكان لهذا آثاره في مزيد من ضعف الوضع في أطراف العراق وزيادة الاستقلالات المحلية.

ولأول مرة في التاريخ صارت بغداد تُحكم من خارجها منذ ظهرت إلى الوجود! وذلك أمر ما خطر ببال أحد منذ مؤسسها العظيم: الخليفة المنصور!

وجريا على منهجنا في دراسة العهود التي تطول فإننا سنقسم عهد بهاء الدولة إلى أربع زوايا: صراعات السلطة ومعارك النفوذ، وصراعات البلاط البويهي، والفتن والأزمات الشعبية ثم نلقي نظرة على الأحوال خارج العراق.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٥٨.



١) صراعات السياسة ومعارك النفوذ

بمطالعة عصر بهاء الدولة سنجد أنفسنا أمام خمس جبهات، هي: البويهيون في فارس، بنو عقيل في الموصل، الأكراد في إقليم الجبال، جبهة جنوب العراق، ثم استقلالات أخرى أصغر وأضعف شأنا.

وكانت كل جبهة من هذه الجبهات تشهد بضعف النفوذ وانهيار السلطة البويهية، إلا أن الإنجاز الذي حققه بهاء الدولة تمثل في قدرته على إبقاء البويهيين كحكام لهم اليد العليا في بغداد وفارس، ولهم الولاء الاسمي في باقي أنحاء العراق، في فترة كادت كثير من الظروف تودي إلى انهيار البويهيين وزوال حكمهم تماما!

أولا: جبهة البويهيين في فارس

كان الحال قد انتهى بهذا الصلح الموقع بين بهاء الدولة وأخيه الأكبر صمصام الدولة، والذي يعطي الأول منهما حكم الأهواز (خوزستان) والعراق، فيما يعطي الثاني حكم فارس، غير أن بهاء الدولة عزم على نقض الصلح، وخطط لأن يرسل جيشا متفرقا على سرايا بحيث لا يلفت الأنظار إلى قصده، وجعل قيادته لوزيره أبي العلاء عبد الله بن الفضل الذي خرج على رأس السرية الأولى إلى الأهواز، غير أن صمصام الدولة فطن إلى الخطة ثم زاد الطين بلة أن بهاء الدولة انشغل بحوادث في العراق عن إرسال باقي السرايا ليكتمل الجيش، فوجد أبو العلاء نفسه أمام جيش صمصام الدولة دون أن يستكمل هو عدته فنزلت به الهزيمة ووقع هو أسيرا واستولى صمصام الدولة على الأهواز (٣٨٣هـ)[١]!

ونزلت الصاعقة على رأس بهاء الدولة الذي كان يؤمل نصرا فهُزِم بل وفقد إقليما كالأهواز، وزاد في سوء الأوضاع الأزمة المالية التي يمر بها، فلم يجد أمامه إلا أن يرهن جواهره ونفائسه عند مهذب الدولة –حاكم البطيحة– مقابل أن يقرضه أموالا يجهز بها جيشا إلى الأهواز، ورغم أن الجيش لم يكن كبيرا إلا أن أجناده الترك وقائدهم القوي اليقظ طغان التركي استطاعوا أن يستعيدوا معاقل كثيرة من الأهواز، ثم ساعدهم القَدَر بفشل خطة صمصام الدولة التي اعتمدت على الهجوم المفاجئ عبر طرق وعرة فضلَّ الأدلاءُ الطريق

(١) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٧/ ٢٩٥ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٦١.

فأصبح جيش صمصام الدولة لقمة سائغة للأتراك، وانهزمت الألوف الذين كانوا مع صمصام الدولة أمام المئات من الأتراك، حتى كان الأسرى –وهم ألفان- أكثر من جيش الأتراك نفسه فقتلوهم (٣٨٤هـ)، وكانت الغنائم كثيرة، فكانت نصرا عزيزا لبهاء الدولة وهزيمة شنيعة لصمصام الدولة حتى إنه لبس السواد مدة[١].

وبدأ صمصام الدولة في الانتقام، فكان أول ما فعله أن جمع الأتراك الذين في مناطق حكمه وقتلهم جميعا (٣٨٥هـ) فلم يفلت منهم إلا النادر، ثم جهز جيشا لغزو الأهواز، وساعده في هذا وفاة طغان التركي والي الأهواز ورغبة القادة الأتراك في العودة إلى بغداد، فأدى هذا لانسحاب الجيش التركي من أمام جيش صمصام الدولة وكان بقيادة القائد التركي الفتكين بن رامهرمز، فتقدم جيش الديالمة التابعين لصمصام الدولة واستطاعوا إيقاع الهزيمة بالأتراك في الأهواز وكان هذا مما فَتَّ في عضد بهاء الدولة فلم يتحرك بجيشه إلى الأهواز بعد أن كان عازما على هذا، وسقطت الأهواز مرة أخرى بيد الديالمة التابعين لصمصام الدولة (٣٨٥هـ) بعد أن صمد الأتراك لنحو ثمانية أشهر بلا دعم من بهاء الدولة[٢].

كان هذا الانتصار مقدمة لمزيد من التقدم، وباعثا على اختلال في ميزان القوة، إذ إن كثيرا من الديلم الذين كانوا في جيش بهاء الدولة بدأوا في الانحياز إلى جيش صمصام الدولة، فزاد بهم قوة، وأرسلهم مع قائد كبير من أتباعه اسمه لشكرستان للاستيلاء على البصرة، وهناك انضم إليه المزيد من الناس ممن كرهوا بهاء الدولة فزادت قوة لشكرستان واستطاع تحقيق نصر آخر سيطر به على البصرة (٣٨٦هـ)[٣].

ولما لم يكن بهاء الدولة بقادر على فعل شيء أمام هذه الانكسارات المتتالية وأزمته المالية فإنه فكر في تحريض مهذب الدولة –حاكم البطيحة، المتاخمة للبصرة- على حرب لشكرستان لتكون البصرة له، فأرسل مهذب الدولة جيشا مع قائده عبد الله بن مرزوق استطاع أن يستعيد البصرة، لكن لشكرستان أعاد الهجوم على البصرة بحريا بالسفن واستطاع أن يكون

(١) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٧/ ٣٠٢ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٦٧.
(٢) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٧/ ٣١٣ وما بعدها، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٧٣، ٤٧٤.
(٣) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٧/ ٣٢٠ وما بعدها، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٨٣.

الأعلى يدًا، ثم ظهر أنه يعمل لحسابه الخاص لا ولاءً لصمصام الدولة، فراسل بهاء الدولة في الصلح وأن يحكم البصرة بالولاء له وأن يخطب له فيها، فأجابه بهاء الدولة بعد أن أخذ ابنه رهينة لضمان تنفيذ الاتفاق، فكان لشكرستان يحكم البصرة وهو يراوغ فيُظهر طاعة بهاء الدولة ونائبه عليها مهذب الدولة وطاعة صمصام الدولة أيضا، وحاول أن يحكم البصرة بالعسف فاضطرب أمره فعاد إلى الحكم بالعدل فاستقرت له (٣٨٦هـ).

وعلى رغم وفاة العلاء بن الحسن –قائد صمصام الدولة ونائبه على خوزستان وصاحب الانتصار على الأتراك– (٣٨٧هـ) فإن هذا لم يغير من الأمر شيئا، فلقد أنفذ صمصام الدولة قائدا آخر على ذات المستوى وهو أبو علي بن أستاذ هرمز ليستكمل السيطرة على إقليم خوزستان، وقد استطاع بعد معارك كثيرة أن يستكمل استخلاص الإقليم من قوات بهاء الدولة، حربا وسياسة أيضا؛ فلقد كان يستميل إليه الأتراك فإذا انحازوا إليه أحسن إليهم فكان يستمر انحيازهم إلى الجانب الذي يزداد قوة ويجدون لديه المقام الجميل، وانسحب من بقي من جيش بهاء الدولة إلى واسط وانتهت سيطرتهم على الأهواز (٣٨٧هـ)(١).

وبوصول الأمور إلى هذا الحد الخطر أشار الوزير أبو علي بن إسماعيل على بهاء الدولة أن يتحرك بنفسه على رأس جيش إلى واسط –وهي المحطة القادمة في تقدم جيوش صمصام الدولة– فجهز جيشا وهو كاره ويتوقع ألا ينجح، وكان طبيعيا لقائد بهذه النفسية أن يتلقى الهزائم المتتالية أمام أبي علي بن أستاذ هرمز قائد صمصام الدولة، حتى اضطر إلى الاستغاثة ببدر بن حسنويه –الخصم القديم الذي يحكم إقليم الجبال– فأمده بما كان مفيدا إلى حد ما، وكادت تكون نهاية بهاء الدولة (٣٨٨هـ) لولا أن جاءه من الفرج مما لا يحتسب، ومن حيث لا يحتسب!

لقد هرب أبو القاسم وأبو نصر ابنا عز الدولة بختيار الذي قتله قديما عضد الدولة من محبسهما، واستطاعا أن يجمعا عددا من الأكراد ليبدآ بهم حركة تمرد لاستعادة ملك أبيهما، ثم جاءتهما فرصة من غير تدبير؛ ذلك أن صمصام الدولة قرر القيام بعملية تطهير داخل قواته عزل فيها ألف جندي ديلمي فانضم هؤلاء إلى هذه الحركة الوليدة التي يقودها أبو القاسم وأبو نصر فأضافا إليها قوة عسكرية وخبرة كبيرة بالأحوال في جبهة صمصام الدولة، وكان

(١) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٧/ ٣٤٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٩٠.

ظهور ابني عز الدولة من عوامل خلخلة الديلم من حول صمصام الدولة، فاضطربت الأمور لا سيما وصمصام الدولة في ذلك الوقت لم يكن لديه جيش قريب منه فأغلب قواته في الأهواز تقاتل بهاء الدولة، وحين أراد الهرب إلى نواحي الأكراد للتقوي بهم خانه أصحابه فقتله أبو نصر بن عز الدولة (ذي الحجة ٣٨٨هـ) في شيراز، وكان عمر صمصام الدولة خمسا وثلاثين سنة، وصارت بلاد فارس في حكم ابني عز الدولة.

وكانت المصائب التي نزلت بصمصام الدولة هي الفرج الذي نزل بأخيه الصغير بهاء الدولة، لقد تغيرت الأحوال وانقلبت موازين القوى بذهاب صمصام الدولة واضطراب أمر الديلم، وبدأ الفريقان –ابنا عز الدولة من جهة، وبهاء الدولة من جهة أخرى- يتنافسان على كسب جيش صمصام الدولة الذي يقوده أبو علي بن أستاذ هرمز في الأهواز، وكان هذا الجيش منقسما في الرأي فقائده أبو علي يفضل بهاء الدولة خوفا من انتقام ابني عز الدولة لتاريخ سابق له في عداوتهما، وجنوده الديالمة يخافون بهاء الدولة الذي غالب جيشه من الأتراك وهم الذين بينهم وبين الديلم ما صنع الحداد، لكن الأمر استقر أخيرا على الانحياز إلى بهاء الدولة الذي بذل الوعود والمواثيق والأيْمان حتى اطمأنوا إليه، فكسبهم في جانبه وصار الذين قاتلوه بالأمس أنصاره اليوم! وسبحان مقلب القلوب ومغير الأحوال!

بدأ بهاء الدولة في مشروع استعادة فارس إلى سلطانه من جديد، وتولى وزيره العاقل الباسل المحبوب أبو علي بن إسماعيل إعادة توزيع الإقطاعات في الأهواز بين الأتراك والديالمة بما أرضاهم، وانطلق الجيش فاستولى على باقي بلاد خوزستان ثم قصد إلى شيراز حيث ابنا عز الدولة، وهناك تخلخل الذين معهما وكعادة الجند المرتزقة بدأ كثيرون في الانضمام إلى الجانب الأقوى المنتصر، فسقطت شيراز بيد جيش بهاء الدولة وهرب ابنا عز الدولة: أبو القاسم إلى إقليم الجبل عند بدر بن حسنويه ثم إلى البطيحة عند مهذب الدولة، وأبو نصر إلى بلاد الديلم، ثم بعث بهاء الدولة بأبي علي بن أستاذ هرمز ليستولي على كرمان فتم له ما أراد.

وبهذا كان عام (٣٨٩هـ) فتحا وانقلابا وفرجا نزل ببهاء الدولة وحقق له أحلاما فشل في تحقيق بعض بعضها طوال سنينه السابقة! ولله الأمر، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء!



لكن أبا نصر بن عز الدولة بدأ في تجميع أنصاره من بلاد الديلم وفارس، فاجتمع له عدد كبير من الديلم ومعهم عدد من الساخطين على بهاء الدولة أو الطامحين لمكان في ركاب أبي نصر من الديلم والترك والزط والأكراد، حتى صارت لديه قوة استطاع بها التغلب على كرمان وهزيمة واليها أبي جعفر بن أستاذ هرمز وسيطر على أغلب إقليم كرمان، ولم يكن الديالمة في كرمان يقبلونه فكان هذا من المشكلات، فأرسل بهاء الدولة جيشا بقيادة أبي علي ابن إسماعيل فظل يطارده بكل إصرار وإلحاح، فيما كان أبو نصر «يهرب ويراوغ، ويدافع ولا يواقف»، حتى انتهى الحال إلى مقتله (جمادى الآخرة ٣٩٠هـ)[(١)].

وكان أبو علي عازما على الاستعفاء من منصب الوزير ومُصِرًّا على هذا، لكن بهاء الدولة الذي رأى من قوته وحكمته وحسن تدبيره ما قلب الموازين كان رافضا لاستقالته، وحين جاء خبر استيلاء أبي نصر على كرمان كان رد بهاء الدولة على استقالة أبي علي: «لو أجبتك إلى الاستعفاء لما حَسُن بك أن تتقبله في مثل هذا الوقت، وقد علمتَ أنني لم أخرج من واسط إلا برأيك، ولا وصلتُ إلى ما وصلتُ إليه من هذه الممالك إلا برأيك واجتهادك، وإذا قعدتَ بي في هذه الضغطة فقد أسلمتني وضيعتَ ما قدَّمتَه في خدمتي، ولكن تمضي في هذا الوجه (كرمان) وتدفع عني هذا العدو (أبا نصر بن عز الدولة) وتجعل للاستعفاء والخطاب عليه وقتا آخر فيما بعد»، فلما أنجز أبو علي أرسل إلى بهاء الدولة «قد خدمت الملك أولا وأخيرا ووفيته حق الصنيعة وحكم النصيحة، ووجب أن ينجز لي ما وعدنيه من الإعفاء بعد الفتح، فإني لا أصلح لخدمة ولا عمل بعد اليوم»، وعاد إلى شيراز -التي أصبحت مقر حكم بهاء الدولة بعد أن ترك بغداد- واستقبله بهاء الدولة استقبالا كريما، ثم كان إصرار أبي علي على الاستقالة وما بلغه من النفوذ وحسد الأعداء ووشاياتهم مما غير قلب بهاء الدولة عليه، فقبض عليه وصادر أمواله (٢٠ شعبان ٣٩٠هـ)، ثم قتله فيما بعد (٣٩٤هـ)[(٢)].

وهذه سيرة البويهيين في الوزراء.. فإن البويهيين كانوا أسوأ الملوك لوزرائهم.

وإلى هنا استقرت جبهة فارس لبهاء الدولة بعد طول صراع وقتال!

---

(١) الصابي: تاريخ هلال الصابي ٧/ ٤١١ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٣، ١٤.

(٢) الصابي: تاريخ هلال الصابي ٧/ ٤١٤، ٤٢٧، ٤٣٢ وما بعدها.

ثانيا: جبهة الموصل

حين استقرت أحوال بغداد بعد تولي الخليفة القادر بدأ بهاء الدولة جهوده لاستعادة الموصل التي أخذها أبو الذواد، فأرسل جيشا بقيادة أبي جعفر الحجاج بن هرمز، وقد بدا منه من الشجاعة والبطولة ما ألقى الرعب في قلوب بني عقيل والعرب في الموصل، واستطاع إعادة الموصل إلى سلطان بهاء الدولة (آخر ٣٨١هـ) واستمرت معاركه مع بني عقيل في الشهور الأولى من عام (٣٨٢هـ)[١].

ثم ظلت جبهة الموصل هادئة حتى توفي أبا الذواد (٣٨٦هـ) فعزم أخوه المقلد –وكان ذو عزم وقوة– أن يستعيد الموصل خالصة لبني عقيل، وعلى رغم أن بني عقيل لم تكن تؤيده في خلافة أخيه وتدعم أخاه الأكبر عليًّا إلا أن المقلد استطاع استمالة عدد كبير من جند نائب الموصل –أبي جعفر الحجاج بن هرمز– حتى لم يعد قادرا على مواجهته، ثم راسل بهاء الدولة وعرض عليه أن يحكم الموصل مقابل مليوني درهم سنويا، ثم خدع أخاه عليًّا ليكون معه ضد أبي جعفر الحجاج، فاستطاع بكل هذا أن يحكم الموصل وانسحب نائبها أبو جعفر هاربا إلى بغداد، وتقاسم الأَخَوان الحكم في الموصل.

ولما كان بهاء الدولة منشغلا بالحرب مع أخيه صمصام الدولة، هاجم المقلد العراق واضطر بهاء الدولة إلى إبرام صلح معه على أن يكون للمقلد ضمان الموصل والكوفة ومناطق أخرى وأن يُلقب بألقاب الأمراء الرسمية وتُخلع عليه الخُلَع الرسمية السلطانية، وتلقب بحسام الدولة وأقيم له احتفال رسمي قلده الخليفة فيه الخُلَع السلطانية، وذلك في مقابل عشرة آلاف دينار سنويا وبشرط ألا يأخذ من هذه البلاد إلا رسم الحماية فقط، على أن المقلد خالف هذا الاتفاق وصار يجبي ما يشاء من أموال البلاد.

ثم استطاع المقلد حسم الصراع على الموصل فعزل أخاه وقبض عليه (٣٨٧هـ) وانفرد بحكمها عمليا حتى قُتِل غيلة من بعض مماليكه (٣٩١هـ)، وقد بلغ من القوة ما جعله عازما على الاستيلاء على بغداد نفسها وإزالة البويهيين عنها، ثم تولى الحكم من بعده ابنه قرواش[٢]، والذي كرر سيرة أبيه وحاول غزو العراق واستعان بأمير مستقل آخر هو أبو

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٦.

الحسن مزيد، إلا أن النتيجة النهائية للمعارك كانت هزيمتهم أمام أبي جعفر الحجاج نائب بهاء الدولة في بغداد.

على أنه وإن عجز عن بغداد إلا أن استقلاله كان ثابتا راسخا في الموصل وما حولها، وظلت صراعاته مع الأمراء المحليين مما لا تستطيع الخلافة ولا السلطان البويهي إيقافه أو التصرف بشأنه.. غير أن أخطر تصرف قام به قرواش هو قطع الخطبة عن الخليفة العباسي القادر بالله (٤ المحرم ٤٠١هـ) والدخول في طاعة العبيديين (الفاطميين) في مصر، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يصل فيها نفوذ العبيديين إلى الموصل والكوفة والمدائن والأنبار في قلب العراق، فكانت صاعقة على رأس الخليفة القادر بالله الذي أرسل إلى بهاء الدولة -الذي أصبح مقيما في شيراز- بما حدث، فأرسل بهاء الدولة إلى نائبه على بغداد -أبي جعفر بن أستاذ هرمز، والذي صار لقبه عميد الجيوش أو عميد العراق[1]- بمائة ألف دينار لقتال قرواش، غير أن قرواش عندما علم بهذا تراجع سريعا عن عزمه وأعلن توبته وندمه وعاد إلى الولاء والخطبة للعباسيين، ولا ريب في أن الأمر لم يكن خوفه فقط من القتال بل إن تأثير الرأي العام في مثل هذه الأمور أشد على الممالك من تأثير الجيوش، ولم يكن العراقيون الذين عاشوا في ظل العباسيين قرونا ممن يسهل خلعهم من هذا الولاء.

ثالثا: الأكراد

وهم الذين يسيطرون على إقليم الجبال إلى الشمال الشرقي من العراق، وأميرهم بدر بن حسنويه منذ أيام عضد الدولة الذي ساعده على حكم الأكراد بعد وفاة أبيه حسنويه، لكن أيام عضد الدولة القوي قد ذهبت وصار بدر بن حسنويه مستقلا بأمور الأكراد من بعد ما ضعف البويهيون!

وقد حصل بدر على شرعية إمارته من الخلافة (٣٨٨هـ) وتلقب بناصر الدولة[2].

وقد وقعت الحرب بين الأكراد وقوات بهاء الدولة (٣٩٦هـ) حين أرسل عميد الجيوش جيشا إلى البندجين فلقي هزيمة شنيعة حتى إن الأكراد -ولمزيد من الإهانة- جردوا قائد

---

(١) على ظريف الأعظمي: تاريخ الدولة الفارسية في العراق ص٨٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٧١.

الجيش الديلمي من ثيابه فعاد منهزما وعاريا وحافيا[1]!

وفي العام التالي (٣٩٧هـ) دخل الأكراد على خط الصراع الذي كان أطرافه أبو جعفر الحجاج –الوزير السابق لبهاء الدولة والذي صار خصما له الآن– ومعه الأمير قلج أمير طريق خراسان وهو من خصوم عميد الجيوش، وعلى الجهة الأخرى عميد الجيوش النائب على بغداد من قِبل بهاء الدولة.

ولما توفي الأمير قلج (٣٩٧هـ) عَيَّن عميد الجيوش أبا الفتح بن عناز أميرا على طريق خراسان وكان من خصوم زعيم الأكراد بدر بن حسنويه، فلهذا دخل بدر بن حسنويه وأمد أبا جعفر بن الحجاج بقوات كثيرة، ثم ما لبث أن عاد الأمير أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي من عند بهاء الدولة غاضبا فانضم لهذا التحالف الذي بلغ أكثر من عشرة آلاف.. تحركوا بهم حتى صاروا على مسافة فرسخ من بغداد في حصار استمر شهرا، وقد قام بحماية بغداد أبو الفتح بن عناز أمير طريق خراسان الجديد.

ثم سرعان ما تفكك التحالف حين انتصر عميد الجيوش مع بهاء الدولة في الحرب على أبي العباس بن واصل –وستأتي قصته بعد قليل– فظهر من قوة بهاء الدولة ونائبه ما انهارت له عزائم القوم، وفشل عزمهم ورحلوا.

وظل بدر بن حسنويه خصما عنيدا لبهاء الدولة، وكان من أهم الذين دعموا وساندوا تمرد أبي العباس بن واصل في جنوب العراق، وسنأتي إلى قصته بعد قليل إن شاء الله، كما أنه استغل انشغال بهاء الدولة بهذا التمرد وكان منه هجوم على العراق في حروب منافسة بينه وبين أمراء محليين فكان هذا مما رسَّخ العداوة بينهما.

لذا فما إن انتهى تمرد أبي العباس وقُتِل (٣٩٧هـ) حتى بعث بهاء الدولة إلى عميد الجيوش أن يسير إلى حرب بدر بن حسنويه، وسارت الجيوش إلى جنديسابور وهناك أرسل بدر إلى عميد الجيوش رسالة بليغة وكاشفة وساخرة وحكيمة تقول: «إنك لم تقدر على أن تأخذ ما تغلب عليه بنو عقيل من أعمالكم وبينهم وبين بغداد فرسخ حتى صالحتهم فكيف تقدر على أخذ بلادي وحصوني مني ومعي من الأموال ما ليس معك مثلها؟!! وأنا معك بين

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٦.

أمرين: إن حاربتك فالحرب سجال ولا نعلم لمن العاقبة فإن انهزمت أنا لم ينفعك ذلك لأنني أحتمي بقلاعي ومعاقلي وأنفق أموالي، وإذا عجزتُ فأنا رجل صحراوي صاحب عمد أبعد ثم أقرب، وإن انهزمتَ أنتَ لم تجتمع وتلقى من صاحبك العسف[1] والرأي: أن أحمل إليك مالا تُرْضي به صاحبك ونصطلح»، فوافق عميد الجيوش أمام هذا المنطق البليغ، وتم الصلح.

واستقر الحال على هذا الوضع نحو ثلاث سنوات حتى انقلب الوضع عند بدر بن حسنويه نفسه، فاحتاج إلى بهاء الدولة!!

لقد انقلب هلال بن بدر بن حسنويه على أبيه واستطاع أن يوقع بأبيه الهزيمة والأسر، غير أن الأب احتال حتى خرج من سطوة ابنه وأخذ يراسل الأمراء في النواحي بالإغارة على بلاده –التي هي الآن في حكم ابنه– وقد فشل في مواجهة ابنه فاستعان ببهاء الدولة الذي أرسل جيشا بقيادة فخر الملك فقاتل هلال بن بدر واستطاع أسره (٤٠٠هـ) وسلم قلعته إلى أبيه بدر بن حسنويه.

رابعا: جبهة جنوب العراق

وهي جبهة أفرزت اثنين من الرجال: مهذب الدولة ثم أبا العباس بن واصل..

فأما مهذب الدولة في البطائح فهو مستقل على الحقيقة منذ عهد شرف الدولة بن عضد الدولة، وبدأت ولايته (٣٧٦هـ) بعد وفاة خاله المظفر بن علي، وكان أميرا جليل القدر حسن السيرة عادلا فاستقام الأمر له في البطائح، وكان كريما محسنا مع كل من قصده والتجأ إليه، وارتفع شأنه حتى زوجه بهاء الدولة من ابنته، وتزوجت ابنة مهذب الدولة أبا منصور بن بهاء الدولة (٣٨٤هـ)، فصارت البطائح مكانا آمنا للخائف أو لذي المال والجاه فكانت ولايته خيرا على بلاده.

ولذا يكثر ذكر مهذب الدولة عند حديث الهروب واللجوء، فلقد لجأ إليه القادر بالله قبل أن يصير خليفة حين كان يطارده الطائع لله، ولجأ لديه أكثر من وزير لبهاء الدولة الذي

---

(١) أي أن هزيمتك ستكون نهاية وجودك في منصبك إذ سيغضب عليك بهاء الدولة فيعزلك وينقلب عليك.

جرى على سنة البويهيين السيئة في وزرائهم، ولجأ إليه أمراء مهزومون في الحروب بين المتنافسين مثل علي بن مزيد الأسدي -وستأتي قصته بعد قليل إن شاء الله- وقد يستعين به بهاء الدولة مثلما حدث في صراعه مع أخيه صمصام الدولة وقائده لشكرستان الذي استولى على البصرة.

ولنحو عشرين سنة لم يشاغب عليه أحد في حكم البطائح، ثم ظهر رجل يدعى أبو العباس بن واصل..

تنقل أبو العباس في خدمة الأمراء وفي كل مرة يضيق به الحال حتى انتهى إلى خدمة مهذب الدولة ثم برز في حروبه مع لشكرستان، وكما كان لشكرستان يعمل لصالح نفسه تحت راية صمصام الدولة كان خصمه أبو العباس بن واصل يعمل لصالح نفسه تحت راية مهذب الدولة، ولذا فما كاد يستخلص البصرة من لشكرستان حتى خلع طاعة مهذب الدولة في منطقة جنوب دجلة، وانتصر على قوات مهذب الدولة واتسع أمره حتى استولى على البصرة، وأصبح تهديدا حقيقيا لمهذب الدولة الذي اضطر لترك البطائح والانسحاب إلى واسط، فاستولى أبو العباس بن واصل على البطيحة (شعبان ٣٩٤هـ) إلا أن أهلها المحبين لمهذب الدولة قاوموه وقاتلوه بشراسة حتى لم يستطع أن يحكم البطائح فتركها وعاد إلى البصرة[١].

أقلق هذا البروز السريع واتساع أمر أبي العباس بهاءَ الدولة، فتحرك بنفسه من شيراز إلى الأهواز وأرسل إلى نائبه على بغداد عميد الجيوش أن يتحرك بجيوشه إلى أبي العباس، ودبر عميد الجيوش أمره بحيث يكتمل جيشه في واسط، غير أن أبا العباس هجم على جيش عميد الجيوش قبل اكتماله فهزمه واستولى على الأموال والغنائم[٢].

ترك أبو العباس نائبا عنه على واسط لكن أهلها رفضوه وقاوموه ولم يستقر الأمر له مثلما تم في البطيحة، ومن ناحية أخرى أرسل عميد الجيوش مع مهذب الدولة جيشا استعاد به البطائح ببساطة فإن أهلها كانوا يستقبلونه بالود ويسلمون له الولايات، كما أن البطائح كانت خالية من قوات لأبي العباس بن واصل بعد مقاومة الأهالي له، وكانت تلك فرصة لعميد

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٩، ٣٠، وأبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٣٦، ١٣٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٠.

الجيوش لكي يجعل استقلال مهذب الدولة في البطائح تابعا لسلطة البويهيين فتقرر أن يدفع خمسين ألف دينار سنويا (٣٩٥هـ)[١].

لم يهتم أبو العباس بن واصل باستيلاء مهذب الدولة على البطائح، لقد صار الآن أشد قوة وأكثر جمعا بمن انحاز إليه من الأجناد الذين رأوا أن أيامه في إقبال، وصار أعظم أموالا بما استولى عليه في البصرة والبطائح وواسط، وصارت طموحاته انتزاع الملك من بهاء الدولة نفسه، ففي الوقت الذي استعاد مهذب الدولة حكم البطائح كان أبو العباس يجهز جيشه لقتال بهاء الدولة!

سار أبو العباس إلى الأهواز (ذي القعدة ٣٩٥هـ) لقتال بهاء الدولة واستطاع تحقيق نصر غير حاسم على جند بهاء الدولة حتى لقد استولى على الأهواز واحتوى ما في دار المملكة وديار الأكابر والتجار والأعيان من الأموال والذخائر، لكنه سرعان ما عاد عنها لأن بهاء الدولة كان قد أرسل قوات بحرية لتهاجم حاضرته في البصرة، فاستقر الأمر بينهما على الصلح والهدنة[٢].

لكن الصلح لم يكمل العام، وتحركت قوات أبي العباس بن واصل إلى الأهواز حيث كان فيها بهاء الدولة في ذلك الوقت، وظهر أمير الأكراد بدر بن حسنويه مرة أخرى إذ أَمَدَّ أبا العباس بثلاثة آلاف مقاتل، وكان وضع بهاء الدولة سيئا ولم يكن جيشه مجتمعا إليه في الأهواز بل كان متفرقا في أكثر من جبهة، فلم يكن أمامه إلا الانسحاب من الأهواز وقطع الجسر ليظل النهر حاجزا بينه وبين أبي العباس، إلا أن أبا العباس أصلح الجسر وعبر عليه فوقع بين الفريقين قتال شديد أسفر –للعجب!– عن هزيمة أبي العباس هزيمة منكرة وقُتِل كثير من أصحابه وعاد إلى البصرة في أسوأ حال (١٥ رمضان ٣٩٦هـ) فكأنما سار بنفسه نحو عاره وهزيمته[٣]!

وسارع بهاء الدولة بإرسال جيش آخر يحاصره في البصرة مستغلا ما نزل به من الضعف، واستطاع الجيش بعد الحصار أن يفلت من الهزيمة وأن يقلبها انتصارا فيقتحم البصرة ويهزم

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٢، وأبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٣٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٢.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٤٠، ٤١.

أبا العباس الذي فر هاربا إلى الكوفة وعازما على اللجوء إلى بدر بن حسنويه، لكنه وقع في يد جيش بغداد التابع لبهاء الدولة فقتلوه (١٠ صفر ٣٩٧هـ)[١]، فانتهت قصته فجأة.. كما بدأت فجأة! ولله عاقبة الأمور!

خامسا: استقلالات أخرى

١- كان جبريل بن محمد فارسيا مقاتلا من جنود بغداد وظل تابعا لفترة لمهذب الدولة أمير البطيحة، واستطاع بقدراته الزعامية أن يكون له جنود وأتباع، وفكر في الاستقلال بمدينة في ظل الفوضى الضاربة في العراق، وبينما هو في ذلك الحال وجد استغاثة من أهل «دقوقا» التي يحاصرها المقلد بن المسيب (٣٨٧هـ) فاستطاع بمن معه من الجنود أن يرده عنها، ثم استغاثوا به ليحكمهم إنقاذا لهم من رجلين نصرانيين هما المتنفذان في الحكم وقد استعبدا أهل المدينة، فالتقت الرغبات وتمكن من حكم دقوقا (ربيع الأول ٣٨٧هـ) وأحسن معاملة الناس وحكم بالعدل فاحتفظ بها مدة رغم وجوده في بحر هائج من الفوضى واضطراب الحكم في العراق، لكنه لم يكن بذي قوة تعادل أقوياء العراق، فما لبث أن هزمه المقلد بن المسيب وفشل رغم محاولاته المتكررة في الاحتفاظ بها[٢].

٢- كان بنو مزيد فرعا من بني أسد، وكان ديارهم تمتد من بغداد إلى البصرة إلى نجد[٣]، وفي أجواء ضعف السلطة البويهية طمح أبو الحسن علي بن مزيد إلى الاستقلال بالحلة (إلى الغرب من بغداد)، فأعلن خلع الطاعة (٣٨٧هـ)، فأرسل بهاء الدولة جيشا هرب من أمامه أبو الحسن إلى حيث لا يصلون إليه، ثم عاد إلى الطاعة وراسل في طلب الصلح.

وكأي طَمُوح دخل على خط الصراع بين المقلد بن المسيب وأخيه علي المتنازعين على حكم الموصل، وكان في جانب علي، فلما حسم المقلد نزاعه مع أخيه سار إليه بجيش لا طاقة له به فهرب أبو الحسن إلى مهذب الدولة في البطائح فتوسط هذا الأخير له حتى أصلح ما بينه وبين المقلد فعاد إلى بلده (٣٨٧هـ)[٤]. وظل مستقلا في بلاده حتى تحسن حال السلطة قليلا

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٤١، وأبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٣٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٩٢.
(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٧٦.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٩٢.

في بغداد بعدما حكمها عميد الجيوش أبو علي بن جعفر أستاذ هرمز، فكان ثمن بقائه على حاله أن يدفع أربعين ألف دينار سنويا[١].

٣- وظل أبو الفتح محمد بن عناز يحكم حلوان لعشرين عاما، فلما توفي (٤٠١هـ) تولاها ابنه أبو الشوك، وحاول عميد الجيوش في ذلك الوقت أن يستعيد نفوذ السلطان على تلك المنطقة فأرسل جيشا لقتال أبي الشوك فانتصر عليه واضطره إلى الانسحاب والاعتصام بحلوان، حتى استطاع في نهاية الأمر إصلاح حاله مع فخر الملك أبي غالب الذي تولى العراق بعد وفاة عميد الجيوش[٢].

وكان ثمة استقلالات أخرى هي أصغر وأضعف مما يجب أن يُذكر في مقامنا هذا!

٢) صراعات البلاط البويهي

أبرز ما في أخبار البلاط والمشكلات الداخلية بين بهاء الدولة ووزرائه وجنوده هو اضطراب أمر الوزارة وكثرة تغيير الوزراء، ومصير الوزير في السلطة البويهية نادرا ما كان جيدا مهما كان ناصحا وصادقا ومخلصا ومهما كانت إنجازاته في تثبيت الحكم وإقراره، وليس هذا متعلقا بالحال مع بهاء الدولة فحسب بل بالبويهيين في العراق وفارس والري، فجميعهم حملوا إثم الغدر بمشاهير الوزراء كابن العميد والصاحب بن عباد وآخرين.

وأول وزير يرد ذكره في حكم بهاء الدولة هو ابن المعلم والذي كان قد استولى على بهاء الدولة حتى صار هو صاحب الكلمة العليا والأمر النافذ، وصار «الْمُقَرَّب من قَرَّبه، والْمُبْعَد من أبعده»[٣]، لا سيما وهو صاحب المشورة بعزل الخليفة الطائع للاستيلاء على أمواله، ولقد استطاع ابن المعلم أن يوقع بعدد من كبار رجال الدولة كالوزير أبي نصر سابور بن أردشير الذي لم يكن يرضيه بالأموال والهدايا فقبض بهاء الدولة عليه (٣٨١هـ)[٤]، والوزير أبي القاسم علي بن أحمد إذ كان من خصومه لكنه أفلت من القبض عليه (٣٨٢هـ)[٥]، وأساء ابن

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٨١.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٥٦.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٣٦١.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٥٧.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٥٨.

المعلم السيرة في الناس فكان طماعا يحتال على أموال الناس[1]، واستطاع بما له من نفوذ وقوة أن يمنع الشيعة من إقامة مأتمهم في يوم عاشوراء بعد نحو ثلاثين سنة، ثم وصل الحال إلى أن حدث تمرد عسكري واسع ضد بهاء الدولة (جمادى الآخرة ٣٨٢هـ) مطالبا بقتل الوزير ابن المعلم، وأعلن الجند إضرابا عاما واعتصموا أمام باب الشماسية، وفوجئ بهاء الدولة بالأمر وحاول بكل الطرق أن يُعيدهم عن تمردهم هذا فلم يستجيبوا فاضطر إلى القبض على ابن المعلم وأصحابه فلم يُرضِهم هذا وأصروا على قتله، فلم يكن أمامه خيار آخر إلا تسليمه لهم فقتلوه (المحرم ٣٨٣هـ)[2]، وكان مقتله عبرة لكل وزير حتى لقد قال عدوه الوزير أبو القاسم: «إن ملكا قرَّب رجلا كما قرب بهاءُ الدولة ابنَ المعلم ثم فعل به هذا لحقيق بأن تُخَاف مُلابَسَتُه»[3].

وقد صدق أبو القاسم في قوله هذا، فهو وإن كان قد نجا من تدبير ابن المعلم إلا أنه ما لبث أن وقع في قبضة بهاء الدولة نفسه الذي قبض عليه متهما إياه بأنه السبب في إثارة هذا التمرد العسكري على خصمه ابن المعلم.

واستخدم بهاء الدولة في منصب الوزارة وزيرين معا، الوزير السابق أبا نصر سابور ومعه أبو منصور صالحان، إلا أنهما كانا ضحية لتمرد عسكري آخر من الجنود الديالمة (جمادى الآخرة ٣٨٣هـ) الذين تأخرت رواتبهم فاقتحموا دار الوزير أبي نصر بن سابور فهرب واختفى منهم، ثم استقال أبو منصور صالحان من الوزارة، واضطرب منصب الوزير حتى استقر الحال أخيرا على إرضاء الجند وعودة سابور إلى الوزارة.

وقبض بهاء الدولة كذلك على أبي نصر خواشاذه (٣٨٤هـ) الذي كان من كبار قادة عضد الدولة، وهو الذي كان يتولى الموصل قبل أن يستولي عليها ابنا ناصر الدولة الحمداني (٣٧٩هـ) فهرب والتجأ إلى مهذب الدولة في البطائح، وهناك راسله الملوك لكي يكون وزيرا له، فراسله فخر الدولة البويهي من الري، وصمصام الدولة من فارس، وبدر بن حسنويه أمير الأكراد، وكلهم يبذل له ما يريد، غير أنه توفي قبل أن يصل إلى فخر الدولة (٣٨٥هـ).

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٥٥.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٣٦١، ٣٦٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٥٩.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٥٨.

ثم اضطرب أمر الوزارة مرة أخرى (٣٨٥هـ) وكاد يعود الوزير أبو القاسم علي بن أحمد إلى المنصب من ملجئه في البطيحة عند مهذب الدولة، لكن سبقه إليها الوزير الفاضل الذي سارع السفر من واسط إلى بغداد. غير أنه أيضا قُبض عليه في العام التالي (٣٨٦هـ)، وعاد إلى المنصب أبو نصر سابور بن أردشير، فلم يكمل هو الآخر شهرين حتى هرب مرة أخرى إلى البطيحة، وبقي منصب الوزارة فارغا حتى ظهر وزير جديد هو أبو العباس بن سرجسر.

يعلق المؤرخ الوزير أبو شجاع على هذا التخبط والارتباك بقوله: «فتأمّل هذه الآراء الطريفة والأهواء العجيبة فى تقارب ما بين القبض والإطلاق والعزل والتولية حتى صار الأمر عجبا والجد لعبا. على أنّ الحياة الدنيا لعب ولهو ولكن فى اللعب مستقيم ومختلّ. وهذا من المختل الذي تخالفت أعجازه وبواديه، وتناقضت أواخره ومباديه. فهل ترى فى جميع ما شرد من أخبار الدولة البهائية نظاما مستقيما تحمد سلوك مذاهبه وتدبيرا جيّدا ينتفع بمعرفة تجاربه؟ كلّا فجميعه واهي الأسباب وما يجرى فيه من صواب فإنّما هو بالاتّفاق[(١)]»[(٢)].

ولقد كان على الوزير إحكام أمر البلد المثقلة بالفتن المذهبية بين الشيعة والسنة وبالفتن العرقية العسكرية بين الأتراك والديلم وبالانفلات الأمني من انتشار اللصوصية والمجرمين، ثم بإرضاء ذوي النفوذ والمكانة ممن يقدرون على السعاية به عند بهاء الدولة الذي هو أُذُن يسمع ما يقال له.. ووزير كهذا يثير حاله المزيد من الشفقة، ولولا أن شهوة السلطان من غرائز الإنسان لزهد الناس في منصب كهذا ولم يتقاتلوا عليه.

ما زال الوزير أبو نصر سابور يعود إلى منصب الوزارة بعد أن يُعزل عنها لفتنة جديدة عجز عنها الوزير اللاحق كما عجز هو عن فتنة سابقة، وقد جاءته الفتنة هذه المرة (٣٩١هـ) من اشتباك بين الأتراك (وهم سنة) وبين أهل الكرخ (حي الشيعة) وسرعان ما تصاعد الأمر إلى تمرد عسكري ضد الوزير أبي نصر فهرب منهم واختفى.. وكانت هذه هي المرة الأخيرة والوزارة الأخيرة[(٣)]!

---

(١) بالاتفاق: أي بالصدفة! بغير تدبير ولا حسن تقدير.

(٢) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٧/ ٣٠٢.

(٣) يستحق الوزير أبو نصر بن سابور وقفة لم يكن يسمح بها المقام، فآثرنا وضعها في الحاشية، فلقد كان من خير الوزراء في العصر البويهي، وقد أطنب المؤرخون في مدحه، يقول ابن الجوزي: «كان عفيفا عن الأموال، كثير الخير سليم الباطن، وكان إذا سمع الآذان ترك ما هو فيه من الأشغال وقام إلى الصلاة،=

تولى الوزارة بعدئذ أبو جعفر الحجاج، وقد صار الوزيرُ منذ (٣٩٠هـ) نائبَ الملك البويهي على بغداد، بعد أن صار مركز حكمه في شيراز، لكن أبا جعفر حين خرج من بغداد لمواجهة قرواش بن المقلد أمير الموصل الطامع في بغداد (٣٩٢هـ) اشتعل في بغداد انفلات أمني كبير، وساد المجرمون واشتد الفساد وعم القتل والنهب والسلب وإحراق البيوت وترويع الناس، ووصل الحال حدا لم يسع بهاء الدولة إلا أن يرسل وزيرا آخر هو أبو علي بن أبي جعفر أستاذ هرمز، وعزل أبا جعفر بن الحجاج بعد أن أرضاه وطَيَّب قلبه، واستطاع الوزير الجديد أن يقضي على الفتن وأن يعيد الهدوء نسبيا إلى بغداد، وعرف هذا الوزير الجديد منذ تلك اللحظة بلقب «عميد الجيوش»، وكانت لأبي علي تجربة سابقة ناجحة في خوزستان حيث استطاع إصلاح أحوالها وزيادة مواردها والعدل في أهلها بعد أن كثرت مصادرات واليها السابق أبو جعفر بن الحجاج[(١)].

وبهذا أصبح أبو علي «عميد الجيوش» وكأنه البديل الناجح دائما لأبي جعفر الحجاج، فاشتعلت بينهما معارك في العام التالي (٣٩٣هـ) لكن الغلبة فيها كانت لعميد الجيوش، ولكنها غَلَبَة منقوصة لأنه كان كثيرا ما يُضطر إلى الحرب في خوزستان لا سيما بعد ظهور أبي العباس بن واصل في البطيحة.

لكن أمور العراق كانت أفضل نسبيا في ولاية عميد الجيوش، وقد حقق هو استقرارا في ذلك المنصب من بعد مسيرة طويلة من اضطرابات العزل والتولية، فظل يحكم العراق ثماني سنين حتى توفي (٤٠١هـ) وهو في التاسعة والأربعين من عمره، وقد أفاض المؤرخون بحسن سياسته وتدبيره وقوته ودوره في إصلاح العراق الذي كان حافلا بالفتن!

= ولم يعبأ بشيء إلا أنه كان يكثر الولاية والعزل» (ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٧٢)، ولعل هذا الارتباك في القرارات هو سبب فشله الأول، لكن التاريخ العلمي يحفظ له سبقه في إنشاء أول مدرسة موقوفة على الفقهاء (٣٨٣هـ)، حيث أنشأ مكتبة عامرة سماها «دار العلوم» وكانت على غرار «بيت الحكمة» الذي أنشأه الرشيد، وجمع فيها نحو عشرة آلاف كتاب ومخطوطة من نفائس العلم وذخائر العلماء وكثير منها كانت النسخ الأصلية المكتوبة بخطوط المؤلفين أنفسهم، وجعلها وقفا على الفقهاء وطلاب العلم، فكانت «أشهر مكتبة في بغداد بل كانت مجمعا للعلماء والأدباء والفلاسفة» (ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٥٧، وعلي ظريف الأعظمي: تاريخ الدولة الفارسية في العراق ص٨٣).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٥.

ثم أرسل بهاء الدولة بعده أبا غالب الذي تلقب بـ«فخر الملك عميد الجيوش» فوصل بغداد (ذي الحجة ٤٠١هـ)، وأعانته الأقدار بوفاة أبي جعفر الحجاج في ذات العام (٤٠١هـ) في الأهواز، وبدأ الوزير عهده بالتقرب من الناس فخلال الأشهر الثلاثة (رجب، شعبان، رمضان ٤٠٢هـ) أنفق أموالا وأجرى «صدقات كثيرة على الفقراء والمساكين والمقيمين بالمشاهد والمساجد وغير ذلك، وزار بنفسه المساجد والمشاهد، وأخرج خلقا من المحبوسين وأظهر نسكا كثيرا، وعَمَّر دارا عظيمة عند سوق الدقيق»(١).

وانتهى عهد بهاء الدولة وقد استقر أمر العراق، والمفارقة أنه لم يستقر إلا بعد أن تركه بهاء الدولة وانتهى ارتباكه في التولية والعزل، وجاء على رأس الوزارة رجال أقوياء أقاموا الأمر بعد أن تحرروا من سعايات الوشاة التي كانت صاحبة الأثر الأكبر في قرارات بهاء الدولة الذي كان أُذُنا يسمع ما يُقال له.

٣) الفتن والأزمات الشعبية

في عهد بهاء الدولة «باتت عاصمة الخلافة مركزا للاضطرابات من كل نوع: الفتن بين الشيعة والسنة، والديلم والأتراك، حركات العيَّارين واللصوصية، تمردات الجند، موجات الغلاء وسوء الأحوال الاقتصادية، قلة مواردها، اختلال إدارات الدولة لازدياد الصراعات الداخلية وتفشي الفساد»(٢).

وكانت الفتن المذهبية التي زرعها معز الدولة قبل نصف قرن قد آتت ثمارها الخبيثة، وأصبحت العراق مرتعا للمعارك المذهبية بين السنة والشيعة، وفي ظلال المعارك المذهبية تنمو حالات الانفلات الأمني وقطع الطرق والسلب والنهب وإحراق البيوت واغتصاب الأموال، فتصير الفتنة الواحدة مركبة ومتضاعفة، ثم أفرز كل هذا عصابات تعمل وحدها ولو لم يكن ثمة فتنة مذهبية! ثم لا تستطيع السلطة إخماد الفتنة إلا بمزيد من القوة تُذهب المزيد من الأرواح!

هكذا فعلت السلطة لإخماد الفتنة التي نشبت في الكرخ (حي الشيعة) بين السنة والشيعة

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٩٨.
(٢) د. حسن منيمنة: تاريخ الدولة البويهية ص١٤٨.

(شوال ٣٨٢هـ)[1]، لكن الحال اشتعل مرة أخرى في فتنة (٣٨٤هـ) والتي هدأت بتصالح بين السنة والشيعة بعد كثير من الخسائر والحرائق لكنها لم تهدأ مع عصابات اللصوصية التي عاثت فسادا في هذه الأنحاء وصارت تظهر نهارا وتأخذ الأموال جهارا وبلغت الأحوال مرحلة في غاية الضيق والحرج، فلم يكن من سبيل إلا حملة عسكرية أخرى ليُقضى على هذه العصابات[2].

ثم نبتت فكرة جديدة لدى الجُهَّال من أهل السنة وبدأوا في تنفيذها (٢٦ ذي الحجة ٣٨٩هـ) أي بعد ثمانية أيام من عيد غدير خم لدى الشيعة (١٨ ذي الحجة)، فمثلما ادعى الشيعة أن هذا يوم عيد ادعى هؤلاء الجُهَّال أن يوم (٢٦ ذي الحجة) هو يوم عيد «دخول النبي وأبو بكر الغار»، فجعلوا يضعون الزينات ويحتفلون على غرار ما كان يفعل الشيعة، ومثلما كان الشيعة يعلنون النواح واللطم والأحزان في يوم عاشوراء لمقتل الحسين أعلن هؤلاء الجهال يوم (١٨ المحرم ٣٩٠هـ) يوم مأتم ونواح لأنه يوم مقتل مصعب بن الزبير بن العوام، ويعقب ابن كثير على هذا بقوله: «وهذا من باب مقابلة البدعة ببدعة مثلها، ولا يرفع البدعة إلا السنة الصحيحة»[3].

في الفتنة التالية دخل الأجناد على خط الصراع، فحدث اشتباك بين العسكر الأتراك وبين الشيعة (٣٩١هـ)، وبطبيعة الحال كان أهل السنة مع الأتراك على خصومهم الشيعة واشتعلت المعارك وذهب فيها كثير من القتلى ولم يعد أحد قادرا على التدخل حتى إن الوزير نصر بن سابور هرب من بغداد بعد أن تحول تمرد الأتراك ضده، مما زاد في فترة الصراع حتى أنهاه الأشراف والزعماء الشعبيون فيما بعد[4].

في الفتنة التالية جاء تطور جديد، لقد دخل النصارى في العراق إلى المشهد المتشابك، واشتعلت بينهم وبين المسلمين معركة أُحْرِقت فيها كنيسة لهم وسقط جزء منها على جماعة من المسلمين فقُتِلوا (ربيع الأول ٣٩٢هـ)، وكانت تلك فرصة لعودة عصابات السلب والنهب

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٥٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٦٩، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٥٧.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٧٣.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٨.

والإحراق إلى بغداد من بعد ما اختفوا لبعض الوقت منذ أن جاء أبو جعفر الحجاج نائبا على بغداد، فانتهزوا فرصة خروج هذا الأخير لقتال قرواش بن المقلد أمير الموصل، وبلغ الفساد حدًّا ظهر معه أن أبا جعفر الحجاج لم يُفلح في حل المشكلات بل كان وجوده بمثابة التسكين لها، فعين بهاء الدولة أبا علي بن أبي جعفر المعروف بأستاذ هرمز والذي تلقب بعميد الجيوش، فاستطاع عبر الحزم والسياسة أن يسكن الفتنة المذهبية والطائفية في بغداد(١)، لكنها انفجرت مرة أخرى (٣٩٣هـ) وأصبحت غطاء جديدا لانتشار العصابات وأعمالهم فاتخذ عندئذ إجراءات حاسمة: منع الجميع من إظهار أعيادهم أو مآتمهم، نفى فقيه الشيعة ابن المعلم، فنزع بهذا أسباب الفتنة واستقام الأمر في بغداد(٢).

ولتسع سنوات تالية لا نجد فتنة مذهبية تستحق الذكر، اللهم إلا تلك التي تفجرت (١٠ رجب ٣٩٨هـ) وقد بدأت ببعض الهاشميين الذين سبوا فقيه الشيعة ابن المعلم في مسجده، فتعصب له أنصاره من الشيعة وذهبوا ليسبوا فقيهي أهل السنة الكبار: أبا حامد الإسفراييني وابن الأكفاني، لكن السلطة احتوت الأمر بسرعة فحبست أهل الفتنة فسكن الأمر قليلا، وعاد الفقيهان إلى بيْتَيْهما. لكن الفتنة عادت إلى الاشتعال مرة أخرى بأكبر مما كانت حين أظهر الشيعة مصحفًا وادَّعوا أنه «مصحف ابن مسعود» وهو مخالف للمصاحف كلها، فأشار الفقهاء بحرقه (٢٩ رجب ٣٩٨هـ) فثار الشيعة وغضبوا، وحدث تمرد واسع حتى هتف الشيعة للحاكم بأمر الله العبيدي (الفاطمي) ووقعت الفتنة في بغداد من جديد، ودخلت الخلافة على الخط بإعانة أهل السنة على الشيعة فاحترق كثير من البيوت والدور والمواقع، وأعاد عميد الجيوش نفي فقيه الشيعة ابن المعلم وأصدر أوامره بمنع التعرض لذكر الشيخين أبي بكر وعمر أو علي، ثم شفع بعض الأعيان في ابن المعلم فأعيد إلى بغداد.

لولا هذه الفتنة لكان عهد عميد الجيوش قد مرَّ كله بلا فتن مذهبية تقريبا، ولكن رجلا قامت في ولايته -وهي تسع سنوات- فتنة واحدة من بعد ما كانت الفتن قائمة دائما، لهو رجل يستحق الإشادة والتكريم!

ثم مات عميد الجيوش (٤٠١هـ) فكان الذي تولى العراق بعده فخر الملك، ومن

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢١، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٧٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٨، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٨١.

المؤسف أنه أعاد وضع بذور الفتن من بعد ما كانت قد خمدت، فقد سمح للشيعة بإعادة المآتم واللطم والنواح في عاشوراء (٤٠٢هـ) وسمح لهم بإقامة عيد غدير خم (١٨ ذي الحجة) حتى أطلت الفتنة برأسها من جديد.. وهو ما سيكون له شأن نأتي له لاحقا بإذن الله تعالى.

٤) خارج العراق

منذ زمن انحسر سلطان الخلافة عما هو خارج العراق، لكن عهد بهاء الدولة حمل ضعفا جديدا، إذ صارت السلطة في بغداد لا طاقة لديها على أبسط واجباتها، وهو حماية الحجاج إلى مكة، وصارت لا تحاول!

ومن بعد ما كان القرامطة هم الذين يهددون الحجاج في طريقهم إلى مكة ظهر في منطقتهم رجل جديد هو الأصيفر الأعرابي، أمير الأعراب في منطقة الصفراء، واستطاع أن يقهر القرامطة الذين كانوا قد ضعفوا حتى عرض على الخلافة (ذي القعدة ٣٨٢هـ) أن يلتزم بحراسة الحجاج وأن يخطب للخليفة العباسي في شرق الجزيرة العربية[1] مقابل أن يُولي على هذه المناطق، فأجيب إلى هذا.

غير أنه أوقف الحج في عام (٣٨٤هـ) إذ قال بأن الأموال التي أرسلت إليه كانت مزيفة، فطلب من الحجاج تعويضها وإلا لم يحجوا، ولما لم تتحرك السلطة في بغداد لم يسمح للحجاج بالعبور وعادوا محسورين[2].

ثم ظهر زعيم آخر للأعراب يدعى ابن الجراح مارس ذات التسلط على الحجاج وصارت قبائل الأعراب تنهبهم، وفي ظل سكون سلطة بغداد ظهر أمير الأكراد في إقليم الجبال بدر بن حسنويه (٣٨٨هـ) فأكثر النفقة على الحجاج وبذل العطاء للأعراب ليكفوا أذاهم عن الحجاج، لكن هذا لم يمنع أن يتكرر هذا في سنوات تالية، فلقد اعتقل ابن الجراح الشريفين الرضي والمرتضي في حج (٣٨٩هـ) ولم يطلقهما إلا بفدية تسعة آلاف دينار، ولفساد الطريق وانعدام الناصر لم يحج أحد من العراق أو ما وراءها (٣٩٢هـ) و(٣٩٣هـ)، ويروي المؤرخون أن الأصيفر حبس ركب الحجاج (٣٩٤هـ) لولا أن أنقذهما الله بقارئين حسنى

---

(١) في ذلك الوقت كان العبيديون (الفاطميون) قد سيطروا على مكة والمدينة، وكان يُخطب لهم هناك!

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٦٨، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٥٧.

الصوت قرآ القرآن في حضرة الأصيفر فرق قلبه فسمح بالحج.

واستمرت سلطة الأعراب وإعاقاتهم للحجاج أو خطف بعضهم لطلب الفدية، وتوسعت عمليات الإعاقة والخطف في الأعوام التالية ودخلت قبائل أخرى على خط نهب الحجاج في ظل سكون تام من السلطة، اللهم إلا مرة واحدة عام (٤٠٢هـ) كانت في سياق صراع سياسي بين الوزير فخر الملك في بغداد وخصومه من بني خفاجة وهم مستقلون في مناطق نفوذهم بالكوفة، لذا فحين أغاروا على الحجاج استعان فخر الملك ببني مزيد –وهم المستقلون في الحلة– فاستطاعوا مطاردة الذين نهبوا الحجاج حتى أدركوهم عند البصرة فقتلوا منهم وأسروا وأدركوا بعض ما بقي معهم مما نهبوا من أموال الحجاج[1].

وفاة بهاء الدولة

وبعد هذه الحياة الحافلة بالانهيارات على جميع المستويات، توفي بهاء الدولة (٥ جمادى الآخرة ٤٠٣هـ) بأثر مرض الصرع الذي ورثه عن أبيه عضد الدولة، بعد حكم دام نحو ربع القرن، وبعد عمر بلغ ثلاثا وأربعين سنة إلا شهورا.

وصفه ابن تغري بردي بقوله: «وكان بهاء الدولة ظالما غشوما سفّاكا للدماء، حتى إنه كان خواصّه يهربون من قربه. وجمع من المال ما لم يجمعه أحد من بنى بويه... ولم يكن في ملوك بنى بويه أظلم منه ولا أقبح سيرة»[2].

سلطان الدولة ومشرف الدولة

لما توفي بهاء الدولة تولى الملك بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع، بوصية أبيه، فوَلَّى أخاه جلال الدولة أبا طاهر البصرة وأخاه أبا الفوارس كرمان.

وتم الاحتفال الرسمي بتنصيب سلطان الدولة (١ ربيع الأول ٤٠٤هـ) بحضور الخليفة الذي ألبسه –كالعادة– سبعة أثواب أعلاها ذات اللون الأسود –شعار الدولة العباسية– ومعها عمة سوداء بخلاف الزينة كالتاج المرصع والسوارين في اليدين والطوق في الرقبة، وقراءة العهد من الخليفة بتوليته إدارة الأمور.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٧٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/ ٢٣٣.

ولقد ازداد حال السلطة سوءا من بعد بهاء الدولة، فهذا سلطان الدولة يتولى الحكم وهو في الحادية والعشرين من عمره وقد ورث تركة مثقلة لا سيما في العراق التي كان يقوم بأمرها في ذلك الوقت الوزير فخر الملك أبو غالب.

لقد كان انتقال بهاء الدولة من بغداد إلى شيراز من أهم العوامل التي جعلت إصلاح الأحوال في العراق ليس على أولويات السلطة البويهية!

ولهذا سنرى السلطة البويهية تواصل الانهيار والانحدار، ولم يعد بها قوة لتستعيد ما خرج من سلطانها في العراق، ولا قوة لإنقاذ الحج الذي تعطل أعواما كثيرة وصار لا يحج من العراق ولا من الشرق أحد، فضلا عن اشتعال الفتن في العراق من وقت إلى آخر.

على أن أخطر ما كان في عهد سلطان الدولة هو ذلك الصراع المشتعل بينه وبين أخيه مشرف الدولة، وهو الذي أعاد للذاكرة صراعات الإخوة البويهيين قبل ربع قرن: صمصام الدولة وشرف الدولة وبهاء الدولة، ثم انتهى الحال إلى انتصار مشرف الدولة وانتزاعه حكم العراق، على أن هذا الأخير لم يعمر طويلا فمات بعد أقل من خمس سنوات لم يكن فيها من الأحداث المهمة الكثير.

ولذلك فضلنا جمع عهدي الأخوين: سلطان الدولة ومشرف الدولة معا، فحالهما لا يختلف كثيرا، لنرى: صراعات السلطة ثم علامات ضعف السلطة البويهية التي صارت مريضة.

على أنه إن كان من مزية لهذا الضعف والتراجع فإنما كان عودة بعض النفوذ إلى الخليفة العباسي بعد طول خمول وخفوت، فصار التاريخ يذكره في بعض المواقف، وصار له بعض أثر في حياة السياسة وعالم الناس من بعد عزلة كاملة أطبقت على الخلافة منذ بداية الدولة البويهية.

١) صراعات السلطة

أول ما يطالعنا من حوادث مهمة في بلاط البويهيين هي استدعاء سلطان الدولة لنائب العراق فخر الملك، ثم القبض عليه وقتله ومصادرة أمواله (ربيع الأول ٤٠٦هـ)، ولم يشفع له إنجازه في العراق طوال سنواته الخمس الماضية، ولا يروي المؤرخون سببا مباشرا لهذا إلا أنهم يشيرون إلى تجاهل فخر الدولة لمظلمة امرأة كان أحد رجاله قد قتل زوجها، فصارت

تكتب له الشكاوى ويتجاهلها حتى توصلت إليه مرة فقالت: يا فخر الملك القصص التي كنت أرفعها إليك ولا تلتفت إليها قد صرت أرفعها إلى الله تعالى، وأنا منتظرة خروج التوقيع من جهته، فكانت نكبته بعد ذلك بقليل(١).

ثم بدأ صراع الإخوة على النفوذ، والبداية كانت من أبي الفوارس الأمير على كرمان، ذلك أنه طمع في أن يكون هو صاحب الملك، وأعانه على هذا أمراء الديلم الذين كانوا في جيشه إذ أغروه بانتزاع الملك من أخيه سلطان الدولة حتى عزم على هذا، فأعد جيشه بسرية تامة وخرج به إلى شيراز ولم يشعر سلطان الدولة إلا وقد وصل أبو الفوارس إلى أطرافها، فسارع بتجهيز جيشه والتقى معه في معركة أسفرت عن هزيمة أبي الفوارس وانسحابه إلى كرمان.

وبطبيعة الحال طارده سلطان الدولة إلى كرمان فلم يعد مأمون الجانب، فانسحب أبو الفوارس ولجأ إلى الملك العظيم محمود بن سبكتكين الغزنوي –ملك الدولة الغزنوية وفاتح الهند– والذي كانت خراسان من أملاكه، فأحسن استقباله وأكرمه، ووافق على طلبه فأمده بجيش استعاد به كرمان ثم اقتحم به شيراز نفسها في غيبة سلطان الدولة الذي كان حينئذ في بغداد.

لكن سلطان الدولة ما لبث أن عاد مسرعا إلى فارس، ونشبت الحرب بينه وبين أخيه، وللمرة الثانية يلقى أبو الفوارس هزيمة قاسية (٤٠٨هـ) فيخسر شيراز، ثم تطارده جيوش سلطان الدولة فتأخذ منه كرمان للمرة الثانية، وينسحب لاجئا هذه المرة إلى ابن عمه شمس الدولة ملك همذان بعد أن ساءت علاقاته مع أحد كبار قادة محمود بن سبكتكين، ثم لجأ إلى مهذب الدولة أمير البطائح، فأحسن استقباله بل وأنزله في داره، وهناك عرض عليه أخوه جلال الدين –أمير البصرة– أن يأتي إليه، لكنه لم يفعل، ولربما كان يشك في جلال الدولة ويتحسب من ولائه لسلطان الدولة.

وبعد هذه الهزائم المتتالية ورحلات اللجوء، جرت المساعي السياسية بينه وبين سلطان الدولة حتى عادت المياه إلى مجاريها وأعاد سلطان الدولة توليته على كرمان، وأتى له بمنشور

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٢٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٩١.

الولاية والخلع من الخليفة (ربيع الأول ٤١٠هـ)[١].

وإذا عدنا بالمشهد إلى الوراء، نجد سلطان الدولة قد خرج من شيراز إلى بغداد فدخلها (٤٠٨هـ) في موكب فاخر، بل إنه صنع لنفسه مظاهر التعظيم التي لم تكن إلا للخليفة، فقد كانت تُضرب الطبول على أبواب دار الخلافة عند الصلوات الخمس، ولم يكن يُفعل مثل هذا لأحد من ملوك البويهيين ولا حتى لأعظمهم عضد الدولة الذي كانت تُضرب الطبول عند داره ثلاث مرات، وهناك تزوج من بنت صاحب الموصل قرواش بن المقلد[٢]، وهو الزواج الذي صنعته السياسة!

لم يبق سلطان الدولة في بغداد كثيرا فلقد جاءته أخبار أخيه أبي الفوارس الذي استعاد كرمان واقتحم شيراز، فخرج مسرعا.. ولم يتوقع أن سيكون لهذا الخروج أثر خطير في بغداد نفسها!

كان المشهد في بغداد ينذر بأزمة منذ قُتِل الوزير الحصيف فخر الملك أبو غالب، إذ تولاها بعده الحسن بن سهلان الذي كان رغم قوته وشجاعته وسطوته «ضعيف الصناعة، قليل البضاعة في الكتابة، سريع الغضب، حديد الخُلُق، لا يرد لسانه عن قول، ولا يده عن بطش، حتى إنه ربما نهض من مجلسه إلى الديلمي ولكمه بيده»[٣]، ويذكر ابن الأثير أن سلطان الدولة حين عرض ولاية العراق على أحد قادته نصحه قائلا: «ولاية العراق تحتاج إلى من فيه عسف وخرق وليس غير ابن سهلان»[٤]، لكن الحسن بن سهلان ترك بغداد في هذا الوقت العصيب لتأديب زعيم من بني أسد كانت بينهما عداوة قديمة وشغلته الحرب معه زمنا حتى انتصر بقَدَر عجيب من بعد ما كاد يهلك.

وبهذا فرغت بغداد من سلطان الدولة ومن نائبه عليها، ويبدو أن ما وقع من اضطراب ومسارعة لسلطان الدولة كان من الوضوح بحيث سرى تمرد واسع في بغداد ضد الديلم (٤٠٨هـ) الذين ضَعُف أمرهم ولم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم فهربوا إلى واسط جنوبا،

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٣٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٢٦.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٢/ ١٢٦، ١٢٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٢٢.



وحاول أهل واسط وجندها من الأتراك أن يوقعوا بالديلم هناك إلا أن اجتماع المنسحبين من بغداد مع الديلم في واسط جعل هذا عسيرا، فقاوم الديلم ودفعوا عن أنفسهم حتى انتصروا وقتلوا من أهل واسط ومن الجند الأتراك فيها كثيرا، وبانسحاب الجنود الديلم من بغداد ازدادت السلطة ضعفا على ضعف، فاشتد الانفلات الأمني وسادت عصابات اللصوص والمجرمين وعاشت بغداد وقتا في غاية العُسر والشدة وفسد الحال فيها فسادا كبيرا، لا سيما وقد أضيفت إلى هذا فتنة مذهبية جديدة بين السنة والشيعة في حي الكرخ(١)، وهكذا الفتن يأتي بعضها ببعض ويفتح بعضها باب بعض.

وما إن انتصر سلطان الدولة على أخيه أبي الفوارس حتى جاءته أنباء بغداد، وكيف أن خروج نائبه منها قد أشعل فيها الفساد حتى طُرد العسكر الديالمة منها إلى واسط، فثار غاضبا، وفي هذه الأثناء كان ابن سهلان قد انتهى من حربه فعاد مسرعا إلى واسط التي تشتعل بالمواجهات بين الديلم من جهة وبين العامة والأتراك من جهة فدخلها وأخمد الفتنة بقسوة وقتل عددا ممن اتهمهم فيها، ثم وصلته في واسط أنباء بغداد المشتعلة أيضا فعاد مسرعا إليها (ربيع الآخر ٤٠٩هـ) فخاف منه المجرمون فهربوا واختفوا، وأخمد ما بقي من مظاهر الفتنة ولم يستثن أحدا حتى نفى بعضا من العباسيين من بغداد، كما نفى فقيه الشيعة، ووضع ثكنات عسكرية في منطقة النزاع الدائم هذه، فيما بين الكرخ (حي الشيعة) وناحية باب البصرة (حي السنة)، وبطبيعة الحال في مثل هذه الظروف كان نزول العسكر الديالمة من أقسى الأمور على أهل بغداد، فهم عسكرٌ في مهمة عسكرية يتعاملون مع قوم يرونهم متمردين وهم على مذهب الشيعة الزيدية وإن كانوا واقعيا غير متدينين أصلا بل لم يكونوا يكفون عن شرب الخمر أو حتى الزنا في نهار رمضان في هذه الثكنات، فزاد بهم البلاء(٢).

خرجت الوفود والبعوث والشكايات إلى سلطان الدولة مما فعله ابن سهلان، فلقد زاد في تنكيله بأهل بغداد وبالأجناد الأتراك زيادة في قمع الفتنة وانتقاما لما كان في حال غيابه، والتقوا مع سلطان الدولة –الذي كان حينئذ في واسط– فوعدهم بإصلاح الأحوال، واستدعى ابن سهلان، لكن هذا الأخير أبصر مصير الوزراء قبله فلم يحضر إلى سلطان

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٢١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٢٢.

الدولة بل هرب منه إلى الموصل ثم إلى الأنبار ثم إلى البطيحة ثم إلى البصرة.. فانتهت بذلك ولايته على بغداد!

ومن بعد ابن سهلان ارتبك أمر الوزارة، فقد وليها أبو القاسم بن فسانجس لكن لم يلبث أن قُبِض عليه قبل أن يكمل العام (٤٠٩هـ) ثم وليها بعده أبو غالب الحسن بن منصور[1].

كان وجود السلطان البويهي في العراق مفيدا للقسم التركي من الجيش، وهذا هو ما فهمه السلاطين البويهيون منذ أولهم (معز الدولة) وأثبتته التجارب التاريخية طوال أكثر من نصف قرن، لقد كان السلطان البويهي حريصا على التوازن بين الأتراك والديالمة في الجيش، لأن هؤلاء الديالمة تحولوا في أغلب الأحوال إلى مرتزقة ينحازون لمن يدفع أكثر.

ولهذا كان ما نزل بالأتراك منذ خروج بهاء الدولة إلى شيراز وحتى الانتقام الأخير لابن سهلان دافعا لهم ليتمسكوا بوجود السلطان البويهي في بغداد، فلم يُفلت الأتراك فرصة مجيء سلطان الدولة، وطالبوه بالبقاء في بغداد، فإن لم يكن فليولي عليها أخاه مشرف الدولة – الشخصية التي بدأ يلمع نجمها والتي يميل إليها الأتراك[2]– أو ابنه أبا كاليجار، وتمسكوا بهذا المطلب حتى لم يستطع سلطان الدولة الإفلات منهم ولو بالهرب إلى واسط، وحاول أن يفلت من مطالبة أخيه هذه خوفا من اجتماع أخيه مع الأتراك لكنه لم يقدر على هذا، واضطر إلى مراسلة أخيه بالتولية على بغداد، وبعد مجادلات ومفاوضات وافق مشرف الدولة، وتم الاتفاق بين الأخوين على هذا، بعد أن تعاهدا أن أحدهما لن يستخدم ابن سهلان وزيرا[3]!

وَقَرَ في نفس سلطان الدولة أن بغداد بهذا الشكل ستنفصل عنه، فأخوه ذو الشخصية القوية صار له ظهر قوي بالأجناد الأتراك كما لن يصعب عليه شراء ولاء الديالمة، ولكنه ما كان يستطيع أن يفعل شيئا في ذلك الظرف، ومثل هذا التخوف لم يكن ليغيب عن مشرف الدولة وفيما نظن فلقد كان مشرف الدولة هو البادئ باشتراط ألا يستوزر أخوه ذلك الرجل القوي العنيف ابن سهلان فاشترط أخوه المثل فتم بينهما الاتفاق.

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٣٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٢١، ١٢٥.
(٢) علي ظريف الأعظمي: تاريخ الدولة الفارسية في العراق ص٨٨.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٣٠.

لكن سلطان الدولة ما إن خرج من بغداد ووصل تستر، إلا وعين ابن سهلان وزيرا له، بل وكلفه باستعادة العراق، فجمع مشرف الدولة كل من استطاع جمعهم من الجنود الأتراك في بغداد وفي واسط ثم استعان بأمير بني مزيد أبا الأَغَرّ دبيس بن علي، وخرج بجيشه إلى واسط فانسحب أمامه ابن سهلان حيث تحصن بواسط، فحاصره مشرف الدولة حصارا طويلا ومحكما حتى غلت الأسعار ونفد الطعام فأكلوا حتى الكلاب، ثم لم يجد ابن سهلان حلا إلا الانسحاب وتسليم واسط إلى مشرف الدولة[1].

وكما كان متوقعا، انحاز الديالمة في واسط إلى مشرف الدولة، وأحسن هو استقبالهم بالإقطاعات والأموال، ثم تحالف مع أخيه جلال الدولة -أمير البصرة-، وحين حاول سلطان الدولة الخروج لمواجهة أخيه جاءته الأنباء بأن مشرف الدولة قبض على ابن سهلان وسَمَل عينيه، فأصابه الضعف والإحباط وعاد قبل أن يبلغ الأهواز، وفي الأهواز تمرد عليه الجند الأتراك فيها وأعلنوا ولاءهم لمشرف الدولة حتى لم يستطع أن يدخلها[2]، وبهذا فقد العراق تماما، وصار مشرف الدولة أقوى من أخيه سلطان الدولة.. على الأقل، صار الأقوى في العراق.

كانت هذه المعارك في (ذي الحجة ٤١١هـ)، ومنذ بداية العام الجديد (المحرم ٤١٢هـ) قُطِعت الخطبة عن سلطان الدولة، وصار السلطان البويهي في بغداد هو مشرف الدولة بن بهاء الدولة.

لم تعد القوة تُجدي في مواجهة مشرف الدولة، لهذا لجأ سلطان الدولة إلى الحيلة، واستطاع أن يتواصل مع مجموعة من الديالمة في بغداد حتى نفذوا مؤامرة كبيرة: لقد استأذنوا مشرف الدولة في الخروج إلى ديارهم وإقطاعاتهم في خوزستان (إقليم الأهواز) ويبدو أن مشرف الدولة داخله شك فيهم، فلهذا أرسل معهم وزيره القوي أبا غالب الحسن بن منصور، ورغم أن الوزير أحس بأن حياته مهددة واعتبر خروجه إلى الأهواز معهم مخاطرة إلا أنه سار معهم في نهاية الأمر، وهناك قتلوه، وأعلنوا الولاء لسلطان الدولة، ولم يستطع الأتراك أن يغيثوه أو ينقذوه بل أفلتوا بأنفسهم ولجأوا إلى طراد بن دبيس وهو أحد الأمراء المستقلين في أطراف بغداد ممن لهم علاقات جيدة مع مشرف الدولة (٤١٢هـ)[3].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٤٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٣٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٣٠، ١٣١.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٤٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٣٤.

وبهذا استعاد سلطان الدولة الأهواز وأنفد ابنه أبا كاليجار ليكون أميرها.. وخرجت من حكم مشرف الدولة!

وبدا أن المشهد ينذر بحرب طويلة بين الأخوين، فسعى بعض الكبار وأصحاب النفوذ في الصلح بينهما، ونجحوا، وتم الصلح (٤١٣هـ) على أن يكون العراق لمشرف الدولة وفارس وكرمان لسلطان الدولة ولا يبغي أحدهما على أملاك الآخر، وبدأ شعور عام من الاستقرار حتى إن وزير مشرف الدولة أبا الحسين الرخجي -الذي قبل الوزارة بعد رفض منه وإلحاح شديد من مشرف الدولة- بدأ في بناء مستشفى كبير في واسط (رمضان ٤١٣هـ) وأوقف عليه كثيرا من الأوقاف، مما يوحي بانتهاء حالة الحرب! كما رجع مشرف الدولة إلى بغداد (المحرم ٤١٤هـ) واستقبله الخليفة ومعهم الوزراء والأعيان والقضاة والفقهاء، وتبادلوا المجاملات المعتادة؛ أظهر الخليفة السعادة والرضا، وأظهر مشرف الدولة التعظيم والاحترام للخليفة[١].

ما إن استقر الأمر بين الأخوين حتى فسد الحال في بلاط مشرف الدولة، إذ خرج منه الوزير المخلص أبو الحسين الرخجي ودخل إليه رجل ذو تاريخ غامض وشخصية ماكرة.. ذلك هو أبو القاسم المغربي.

أما خروج الوزير الرخجي فكان بأثر من وشاية خادم له كان الوزير قد صادر أموال صديق له يهودي، وأثبت مشرف الدولة مرة أخرى أن البويهيين هم أسوأ الملوك لوزرائهم فسارع بعزله (رمضان ٤١٤هـ)، وأما دخول أبي القاسم المغربي فكان بعد رحلة طويلة بدأها مع أبيه وخلاصتها: أن أباه كان من رجال سيف الدولة الحمداني فهاجر إلى مصر حتى قتله هناك الحاكم بأمر الله، فعاد الابن إلى الشام يريد أن ينتقم لأبيه والتحق بزعيم بني طيء في الشام حسان بن المفرج فحرضه على الخروج على الحاكم بأمر الله[٢]، فخرج عليه ثم بايع

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٥٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٣٧، ١٣٨.

(٢) كان الطائيون في هذه الفترة أصحاب نفوذ واسع في الشام، وكانوا من ألد أعداء العبيديين (الفاطميين)، ولعل القارئ الكريم يذكر هروب الفتكين من بغداد، وقد تحدثنا عنه في موضعه، وكيف أنه كان قد تحالف مع القرامطة ومع الطائيين لحرب العبيديين، لكن الخليفة العبيدي بذل أموالا كثيرة للمفرج فانسحب من المعركة، ثم إنه سلم الفتكين إليه (٣٦٧هـ).. وكان الطائيون في تلك الأثناء يغيرون على بعض مدن الشام ويستولون عليها، فهم يشكلون أحد مراكز القوى المهمة في تلك المنطقة التي تنتشر =

لأمير مكة الذي خرج هو الآخر على الحاكم بأمر الله، لكن الحركة فشلت، وعاد إلى العراق، وفيها توجس الخليفة منه خيفة لأنه قادم من مصر ويخشى أن يكون عينا أو رجلا للعبيديين (الفاطميين)، فمنع الوزيرَ أبا غالب فخر الملك من إلحاقه بحاشيته، فذهب إلى الموصل لدى قرواش بن المقلد، ثم تقلبت به الأيام فعاد مرة أخرى إلى العراق ليصير وزيرا لمشرف الدولة وكتب رسالة رفعها إلى الخليفة يثبت فيها أصله العراقي وبراءته التامة من العبيديين وكراهته لهم[١]، يقول ابن الأثير: «وكان خبيثا محتالا حسودا إذا دخل عليه ذو فضيلة سأله عن غيرها ليظهر للناس جهله»[٢]، وأورد ابن العديم أنه «كان جسورا مهورا، سيئ التدبير، متكبرا... وكان لا يملّ أن يمل[٣]، ويحقد حقد من لا تلين كبده ولا تنحل عقده»[٤].

وقد افتتح أبو القاسم عمله بأزمة، ذلك أنه أراد التقرب لمشرف الدولة فأقام حفلا لتجديد البيعة لمشرف الدولة وأرسل إلى القادة والقضاة والأعيان بهذا، فانزعج لهذا الخليفة القادر الذي لم يطمئن بعد إلى نواياه وظن أن الأمر مؤامرة ضده، فأرسل إلى كبار الرجال ألا يذهبوا وعاتب من ذهب، واضطربت الأمور بينه وبين مشرف الدولة الذي فوجئ بهذا الرفض العنيف من الخليفة، ثم لما اتضح الأمر اصطلحت الأمور وصفت وحلف كل منهما للآخر (المحرم ٤١٥هـ)[٥].

لكن طبائع الوزير وسياسته لم تلبث كثيرا حتى جعلت العداء مستحكما بينه وبين الجند الأتراك، حتى لقد خشي منهم على حياته، فأوعز إلى رجاله في بلاط مشرف الدولة وأجمعوا على أن يطلبوا منه مغادرة بغداد إذ هم لا يأمنون على أنفسهم من الأتراك فيها، ثم استقر الأمر أن اتفقوا جميعا ومعهم مشرف الدولة على مغادرة بغداد، وخرجوا بالفعل إلى بلد

=فيها قبائل طيء، وكان كل خصم للدولة العبيدية (الفاطمية) يبني خطته أو حتى يبتغي ملجأه لا بد له أن يضع هذه القبائل في حساباته.

وللمزيد عن هذا انظر: ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب ٥/ ٢٢٣٩ وما بعدها، ومحمد كرد علي: خطط الشام ١/ ٢٢٠ وما بعدها.

(١) له ترجمة ضافية موسعة عند ابن العديم: بغية الطلب ٦/ ٢٥٣٢ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٤٠.

(٣) أي سريع تقلب المزاج.

(٤) ابن العديم: بغية الطلب ٦/ ٢٥٣٣، ٢٥٣٩.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٦٣.

السندية الواقعة ضمن نفوذ قرواش بن المقلد أمير الموصل، وانزعج الأتراك لهذا الخروج الذي يهدد بفراغ وفوضى خطيرة في بغداد، فسارعوا بالتوسل إلى مشرف الدولة والوزير أن يعودوا وسينزلون على حكمهم، فاشترط الوزير أن يدفعوا من دخلهم مائة ألف دينار سنويا فاستجابوا، لكنه لم يطمئن إليهم وخشى على نفسه أن يقتلوه، فهرب إلى قرواش منفردا بعد أن لم يبق في الوزارة إلا عشرة أشهر فقط!

وبانفراد أبو القاسم المغربي وهروبه إلى قرواش تفككت الجبهة المتمسكة بالخروج من بغداد، وبطبيعة الحال لم يكن بإمكان مشرف الدولة ترك ملكه والهرب إلى قرواش فهو بهذا كأنما دخل في طاعته ولجأ إليه! ثم وصل وفد من الأتراك إليه وتعاهدوا على ما يحب ويرضى، فعاد مرة أخرى إلى بغداد.

وفي ذات هذا العام (٤١٥هـ) توفي سلطان الدولة في شيراز وهو ما يزال في الثانية والثلاثين من عمره[١]، واشتعلت الحرب بين ابنه أبي كاليجار وأخيه أبي الفوارس، فهذا الأخ يعاود محاولة انتزاع أملاك أخيه، وبعد حروب ومعارك استقر الأمر لابنه أبي كاليجار.

وفيما يبدو مثل هذا الخبر مريحا لمشرف الدولة الذي تخلص من خصم، إلا أن الواقع على خلاف ذلك، فلم يلبث مشرف الدولة نفسه أن توفي بعدها بشهور (ربيع الأول ٤١٦هـ) وهو ما يزال في الثالثة والعشرين من عمره ولم تطل مدة حكمه عن خمس سنوات!

ويا سبحان الله! لقد كان الغالب على الظن لكلا هذين الملكين: سلطان الدولة ومشرف الدولة أن يطول بهما العهد، فكل منهما تولى وهو في حدود العشرين، وكل منهما استقر له الأمر مبكرا، فإذا توقع أحد أن لا يطول بهما العهد فلما يسود العراق والبلاد من الاضطرابات والحروب بين الإخوة البويهيين أو في حرب من أحد حكام أطراف العراق الطامعين في بغداد، فأما أن يموتا في هذه السن وفي وقت استقرار الملك.. فهذا ما لم يخطر ببال أحد! فسبحان من بيده تقليب الأمور وتصريف الأحوال، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء!

كان مشرف الدولة من أفضل البويهيين، «كثير الخير قليل الشر عادلا حَسَن السيرة»[٢].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٦٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٥١.

٢) السلطة البويهية المريضة

تبدت علامات مرض السلطة البويهية في عدد من المظاهر، أولها وأهمها الصراعات بين البويهيين في العراق وفارس، وهو ما تناولناه في الصفحات السابقة، ثم يتبقى عدد من المظاهر الأخرى أهمها: الاستقلالات في أطراف العراق دون محاولة السلطة استعادة نفوذها على هذه المناطق لعجزها عن هذا، وكثرة الفتن الطائفية والمذهبية في بغداد ذاتها والتي لا تكاد تهدأ حتى تشتعل من جديد، والمأساة التي تعاظمت جدا.. وهي مأساة الحج الذي تعطل لفساد طريق الحج وسيطرة الأعراب المرتزقة عليه.

أولا: ترسخ استقلالات الأطراف

نستطيع أن نقول إن البداية الرسمية لدولة بني مزيد كانت عام (٤٠٣هـ) حين خَلَع سلطان الدولة على أبي الحسن بن علي بن مزيد الأسدي، وكان مقرها في الحلة (إلى الشمال الغربي من بغداد)، وقد استمرت هذه الدولة ١٤٢ عاما (٤٠٣ – ٥٤٥هـ)[١].

وطوال عهدي سلطان الدولة ومشرف الدولة لا نلمح لبغداد تدخلا في النزاعات الدائرة بين أمراء الأطراف سواء من الأكراد أو العرب، بل حتى في أفضل الفترات –وقت وزارة فخر الملك، أول عهد سلطان الدولة– فقد البويهيون مدينة شهرزور التي استولى عليها طاهر بن هلال حفيد بدر بن حسنويه زعيم الأكراد (٤٠٤هـ)، واكتفى فخر الملك بالمطالبة بإطلاق الأسرى فقط، ولم يتحرك لاستعادة المدينة التي صار الأمراء يتنازعون عليها ويتبادلون إدخالها في حكمهم[٢].

وكان غاية ما استطاع البويهيون فعله آنئذ أن يستفيدوا من الصراعات الأخرى بين الأمراء المتنازعين، فحين قُتِل بدر بن حسنويه كان ابنه هلال محبوسا لدى سلطان الدولة فأطلقه سلطان الدولة وأمده بجيشٍ مخافة ابن عمه شمس الدولة البويهي الذي بدأ في الاستيلاء على أملاك بدر، لكن هلالا أخفق وهُزِم (٤٠٤هـ).

ومن العجيب أحيانا أن تأتي الحوادث للبويهيين أحيانا بما في صالحهم دون بذل الجهد، حدث ذلك من قبل مع بهاء الدولة حين استولى على فارس، ثم حدث كذلك مع سلطان

---

(١) علي ظريف الأعظمي: تاريخ الدولة الفارسية في العراق ص٨٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٨١.

الدولة، إذ اضطربت أحوال البطائح بعد وفاة مهذب الدولة (٤٠٨هـ) ودخلوا في صراعات فيما بينهم وصار أبو عبد الله الشرابي -الأمير الذي آل إليه الحكم- محتاجا إلى الشرعية من لدى سلطان الدولة ويدفع أموالا بالمقابل، مما أعاد جزءا من النفوذ الضائع للسلطة البويهية، وكذلك حين توفي علي بن مزيد الأسدي فاشتعل الصراع في خلفه واحتاج ابنه أبو الأغر لمساعدة الأجناد الأتراك في بغداد فأعانوه حتى نصروه، وهو بذل لهم من الأموال ما يرضيهم(١).

ثانيا: الفتن الشعبية

استمرت الفتن في الاشتعال، فهي إما طائفية بين المسلمين والنصارى، وإما مذهبية بين السنة والشيعة، وإما انفلات أمني وهجمات من المجرمين واللصوص، وبإمكان كل فتنة أن تفتح الباب للأخرى، فتنتهي الأمور على حال غير التي بدأت عليها.

ولم تبطئ الفتن على عهد سلطان الدولة، ففي أول أعوام حكمه، وبالتحديد في (شوال ٤٠٣هـ) توفيت بنت طبيب نصراني كبير شهير وكانت زوجة لكاتب من رجال الدولة، فصنع لها النصارى جنازة فاخرة، استطالوا فيها برفع الصلبان ونشر الطبول والمزامير والشموع، وشهدها الرهبان، فاستفز هذا المشهد أحد الهاشميين الذي رجم الجنازة، فهاجمه أحد النصارى فضربه بآلة حادة على رأسه فسال دمه، فاشتعلت الفتنة، وهاجم المسلمون بَيْعَة النصارى التي هربوا إليها فنهبوها ونهبوا بيوت النصارى حولها، وأعلن الجمهور إضرابا عاما إذ أغلقوا أبواب المساجد، وذهبت مظاهرة إلى دار الخلافة تطالب بالانتقام من النصارى، واشتدت خطورة الفتنة إلى الحد الذي فَكَّر الخليفة أن يترك بغداد، إذ النصارى والمسلمون يتبادلون القتل، وطلب الخليفة من الكاتب زوج المرأة أن يسلم أباها فامتنع هذا الكاتب، فتأزمت الأمور أكثر، ثم لم يهدأ الأمر إلا حين سُلِّم هذا الأب الذي يبدو أنه كان رأس الفتنة ودفع أموالا جزيلة، وأُلْزِم النصارى بلبس الثياب المميزة، ثم أفرج عن هذا الأب بعد نحو شهر(٢).

وأما الفتن المذهبية فقد اشتعلت (١ المحرم ٤٠٦هـ) في تلك المنطقة المتوترة فيما بين

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١١٩، ١٢٠.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٩١، ٩٢، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٤٠٠.

الكرخ (الشيعة) وباب البصرة (السنة) ونهبت الأسواق، فقرر فخر الملك منع إقامة عزاء عاشوراء السنوي[١]، ثم تجددت في العام التالي (ربيع الأول ٤٠٧هـ) في واسط حتى اضطر كبار الشيعة إلى الهرب واللجوء إلى علي بن مزيد[٢]، ثم عادت إلى بغداد في العام التالي (٤٠٨هـ) وحدثت فتنة كبيرة بنى فيها السنة والشيعة أسوارا حاجزة على أحيائهم، ولم تستطع الشرطة أن تدخل إلى الكرخ مما أطال مدة الفتنة[٣].

وقد كان هذا العام من أصعب الأعوام التي مرت بها بغداد، فلقد كان فارغا من السلطة مع خروج ابن سهلان لتأديب خصمه القديم من المزيديين، وقد اشتدت به الحرب هناك وكاد يهلك، فيما كان سلطان الدولة قد عاد مسرعا لمواجهة أخيه أبي الفوارس الذي استعاد كرمان واستولى على عاصمة البويهيين في شيراز، ولهذا سجل هذا العام أوسع تمرد في بغداد، حيث استطاع الأتراك ومعهم كثير من العامة زلزلة صفوف الديالمة الذين ضعف أمرهم حتى هربوا من بغداد إلى واسط[٤]، وبانسحابهم –كقوة عسكرية– من بغداد ازدادت السلطة ضعفا على ضعف فاشتد الانفلات الأمني وسادت عصابات اللصوص والمجرمين وعاشت بغداد وقتا في غاية العُسر والشدة وفسد الحال فيها فسادا كبيرا[٥]، وهكذا الفتن يأتي بعضها ببعض ويفتح بعضها باب بعض.

وحين استقرت أمور السلطة هدأت الفتن الشعبية إلى حد ما، ولا يسجل المؤرخون حوادث كبرى في هذا الشأن حتى نهاية عصر مشرف الدولة.

ثالثا: مأساة الحج

صار طريق الحج مخوفا محفوفا بالمخاطر، ولم تكن جهة المخاطر واحدة، فلربما وقع الحجاج في يد الأصيفر أو في يد ابن الجراح أو غيرهما من زعماء الأعراب الأجلاف الغلاظ، وإما وقعوا في مأساة لغير هؤلاء ممن يغريه أموال الحجاج ونهبها من المجرمين.

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١١١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٩٣.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٢٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١١٤، ١١٥.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٢٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٢١.
(٤) وقد ذكرنا هذا التمرد في المبحث السابق الذي تحدثنا فيه عن صراعات السلطة.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٢١.

ففي بداية عهد سلطان الدولة كان بنو خفاجة قد أحدثوا إجراما غير مسبوق في طريق الحجاج (٤٠٣هـ)، لقد ردموا الآبار التي يشرب منها الحجاج في أجزاء كبيرة من الطريق، وأما ما لم يردموه فقد وضعوا فيه الحنظل، ثم ارتقبوا وصول الحجاج فطالبوهم بدفع خمسين ألف دينار فامتنعوا ورفضوا، فتركوهم بحيث أنهكهم العطش وبلغ بهم الجهد مبلغه، ثم هاجموهم فلم يكن بهم قوة على دفعه، فنهبوا كل القافلة ومات في هذا العطش ثم الهجوم نحو خمسة عشر ألفا من الحجاج، فبلغ هذا الخبر الوزير فخر الملك الذي كلف علي بن مزيد بجمع ما استطاع من الأعراب وقتال بني خفاجة هؤلاء، فأدرك منهم بعضهم فقتل فيهم، ثم أسر أربعة عشر رجلا من زعماء بني خفاجة، فأرسل بهم إلى بغداد، وهناك سجنهم فخر الملك، ثم أطعمهم ثم صلبهم في الشمس والصحراء ومنع منهم الماء حتى ماتوا عطشا قصاصا كما فعلوه بالحجاج[1].

وفي العام التالي (٤٠٤هـ) جاء أمير بني خفاجة سلطان بن ثمال مستشفعا إلى فخر الملك وجعل ابن مزيد واسطته إليه، فأجابه فخر الملك وأخذ عليه العهود، ثم ظهر أن هذه خدعة؛ فما إن انتهى من خدعته إلا وكان قومه يهاجمون سواد الكوفة وينهبونه وقتلوا في عمليتهم هذه جماعة من الأجناد، فكَلَّف فخر الملك علي بن مزيد وغيره بإدراكهم فخرج بجيشه فأوقعوا بهم هزيمة قاسية أُسِر فيها محمد بن ثمال أخو الأمير، ثم عاقبهم الله بريح حارة أصابت المنهزمين منهم فأهلكت نحو خمسمائة رجل، وهنا استطاع بعض الحجاج المأسورين من العام الماضي أن يفلتوا من الأسر، فلما عادوا إلى بغداد وجدوا ما أحزنهم: لقد ظنهم أهلهم موتى فقسمت أموالهم وتزوجت زوجاتهم[2].

وصار من المعتاد فيما بعد أن نقرأ في سجلات المؤرخين «وانقطع الحج هذا العام» أو «ولم يحج هذا العام أحد»، والمقصود حجاج العراق وما وراءها من بلاد المشرق، وذلك منذ عام (٤٠٣هـ) وحتى عام (٤١١هـ) إلا بعض استثناءات في أعوام (٤٠٤هـ)، (٤٠٥هـ) لكنها أيضا لم تكن آمنة بالنسبة للحجاج، وكانت –غالب الأحيان– عن طريق التفاهم مع الأعراب ودفع الأموال لهم، ولم يؤثر موت الأصيفر الأعرابي (٤١٠هـ) في تحسين الأحوال لأنه لم يكن المجرم الوحيد!

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٩٠، ٩١.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٩٠، ٩١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٨٠، ٨١.

ثم استغاث بعض العلماء بملك الهند محمود بن سبكتكين الغزنوي، أن يتكفل بأمر الحجاج مثلما كان يفعل بدر بن حسنويه بدفع الأموال للأعراب، فتولى محمود هذا الأمر وتكفل بقافلة الحج (٤١٢هـ) بدفع ثلاثين ألف دينار[1]، لكن هذا لم يستمر فيما بعد، فقد عاد ركب الحجاج (٤١٤هـ) من طريق الشام ولم يستطع العودة من طريق العراق، وتكرر هذا حتى كان في الحج واحد من أمراء محمود الغزنوي (٤١٥هـ)، وعاد الحج إلى الانقطاع (٤١٦هـ).

وليس غير هذه الصورة أدل على السلطة المريضة الموجودة في بغداد!

وبهذه الصورة انتهى عهد سلطان الدولة ثم أخيه مشرف الدولة!

عهد جلال الدولة

كانت وفاة مشرف الدولة البويهي إيذانا بدخول بغداد في فتنة جديدة، فالأمير الصغير ليس له ابن يخلفه، وفي ظل حالة الضعف العام للأجناد سرت في بغداد حركات المجرمين ونهب الخزائن والبيوت وانسحبت الشرطة من بغداد، ولم يستطع الأجناد الأتراك فعل شيء، وانقسمت الأهواء بين أن يتولى السلطة جلال الدولة بن بهاء الدولة أمير البصرة، أم يتولاها أبو كاليجار بن سلطان الدولة!

وكان الجانب الأقوى في بغداد مع أبي كاليجار، لكن هذا الأخير كان مشغولا في حرب عمه أبي الفوارس أمير كرمان والطامع في وراثة أملاك سلطان الدولة في فارس، فيما كان جلال الدولة مترددا لم يسارع بدخول بغداد، فاستمر الأمر جدالا وترددا، وطالت الفتنة والانفلات الأمني في بغداد وتدهورت أحوالها وغلت الأسعار، ثم كان عجز أبي كاليجار عن ترك فارس والقدوم إلى بغداد هو السبب الأهم في أن يتولاها عمه جلال الدولة[2].

انقضى الباقي من عام (٤١٦هـ) ثم عام (٤١٧هـ) كله وبغداد هائجة الفتنة، لا سيما تلك التي اشتعلت (١١ المحرم ٤١٧هـ) وكانت الأطراف جميعها في حرب: الأتراك وأهل الكرخ (الشيعة) وعامة أهل بغداد وعصابات المجرمين واللصوص، وصار الأتراك يفرضون الضرائب على الأحياء، كما أصبح المجرمون يدخلون البيوت نهارا ينهبونها ثم يسألون

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٤٥، ١٤٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٣٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٥١.

صاحبها عن أماكن أمواله، ولم يستطع العامة تجنب الشرور بالمزيد من الأبواب والأسوار العازلة بين الأحياء والبيوت، ولم يعد أحد يسيطر على الجنود الأتراك من رجال الدولة حتى من كانت لهم في السابق كلمة مسموعة(١).

وفي ظل الفوضى العارمة زادت الحروب بين أمراء العراق: قرواش بن المقلد في الموصل، وبني مزيد في الحلة، وبني خفاجة، ولا ريب أن هذه الحروب كانت في حقيقتها صراعا على بغداد ذاتها في ظل الفوضى، لكنها شغلتهم بأنفسهم عن التوجه إليها.

وبطبيعة الحال لم يستطع أحد أن يحج في هذه الأعوام (٤١٧هـ) و(٤١٨هـ)..

وإزاء هذه الأوضاع اجتمعت كلمة العقلاء من القادة والأجناد الأتراك على التخلي عن أبي كاليجارو واستدعاء جلال الدولة مرة أخرى، برغم أنهم هم الذين بايعوه أولا ثم حاربوه ثانيا وردوه عن بغداد، لذا تقدم وفدهم إلى الخليفة يقول: «أنت مالك الأمور، وقد كنا عند وفاة الملك مشرف الدولة اخترنا جلال الدولة تقديرا منا أنه ينظر في أمورنا، فأَغْفَلَنَا فعدلنا إلى أبي كاليجار ظنا منه أنه يحقق ما يعدنا به، فكنا على أقبح من الحالة الأولى ولا بد لنا من تدبير أمورنا»، وجاء جواب الخليفة: «إنكم أبناء دولتنا، وأول ما نأمركم به أن تكون كلمتكم واحدة، وبعد فقد جرى الأمر من عقد الأمر لأبي طاهر ثم نقضه ثم ساعدناكم عليه، وفيه قبح علينا وعليكم، ثم عقدتم لأبي كاليجار عقدا لا يحسن حله من غير روية ولبنى بويه في رقابنا عهود لا يجوز العدول عنها، والوجه أن تَدَعونا حتى نكاتب أبا كاليجار ونعرف ما عنده»(٢)، ويروي ابن الأثير صياغة تشبه التوسل فيها أنهم «يعتذرون إلى الخليفة من انفرادهم بالخطبة لجلال الدولة أولا ثم برده ثانيا وبالخطبة لأبي كاليجار ويشكرون الخليفة حيث لم يخالفهم في شيء من ذلك وقالوا: إن أمير المؤمنين صاحب الأمر ونحن العبيد وقد أخطأنا ونسأل العفو وليس عندنا الآن من يجمع كلمتنا ونسأل أن ترسل إلى جلال الدولة ليصعد إلى بغداد ويملك الأمر ويجمع الكلمة ويخطب له فيها ويسألون أن يُحَلِّفَه الرسول(٣) السائر لإحضاره لهم»(٤)، وذلك لأنهم حاربوه من قبل ويخشون على

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٧٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٥٦.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٨١.
(٣) يحلف لهم: بمعنى ألا ينتقم منهم لمنعهم إياه من قبل من الوصول إلى بغداد.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٦١.

أنفسهم من انتقامه حين يصير السلطان في بغداد.

أرسل الخليفة إلى أبي كاليجار أنه إن لم يُسرع بالحضور إلى بغداد ضاع الأمر منه، ولم يكن أبو كاليجار بالقادر على أن يعود في ظل حروبه مع عمه أبي الفوارس، فأرسل الخليفة إلى جلال الدولة بالولاية على بغداد بعد أن استوثق منه بالبيعة له والأمان للأتراك، وخطب له الأتراك، ثم وصل جلال الدولة (٣ رمضان ٤١٨هـ) واستقبله الخليفة، وأبدى جلال الدولة ما هو معتاد من التعظيم والاحترام للخليفة.

ومما يدل على صغر نفس جلال الدولة أن أول وأكبر اهتمامه بعد قدومه بغداد هو التلقب بالألقاب الكثيرة، وكذلك الحرص على مساواة الخليفة في مظهر ضرب الطبول عند باب داره في أوقات الصلاة، فلقد كانت تضرب الطبول خمس مرات عند دار الخلافة بينما تضرب ثلاث مرات عند دار المملكة البويهية، فأصر جلال الدولة على مساواة الخلافة وتم له ما أراد.

وفي هذه الأثناء تم الصلح بين أبي كاليجار وعمه أبي الفوارس (٤١٨هـ) وذلك بعد عجز أبي كاليجار على إنهاء الحرب وطول المطاردة وتحصن أبي الفوارس في مناطق وعرة، وضعف جيش أبي كاليجار فراسل عمه في الصلح، فاستجاب له واشترط أن يدفع أبو كاليجار عشرين ألف دينار سنويا، والآن فقط استطاع أبو كاليجار العودة إلى حاضرته في فارس(١).. فكأنما كانت الحرب بينهما تنتظر تولي جلال الدولة بغداد حتى تنتهي، وهي التي كم تمنى الناس في بغداد وفارس انتهاءها لتنتهي تلك الفوضى التي تعم بغداد!! ثم ما هي إلا شهور أخرى ومات أبو الفوارس نفسه في كرمان ويقال إن حاشيته سموه لأنه كان سكيرا ظالما يضرب حاشيته ويُذِلّهم(٢).

على كل حال لم تسلم بغداد من الفوضى.. فلا جلال الدولة له من الشخصية والقوة والسياسة ما يسيطر به على الأتراك، بل هو مشغول بملذاته وشهواته ولهوه، ولا الأتراك يصبرون على تأخر رواتبهم أو انقطاعها، ثم هم ليس بينهم تلك الشخصية القوية التي تستطيع الإمساك بالحكم وإنهاء دولة بني بويه وإعادة عصر الأتراك.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٦١.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٩٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٦٧.

وبدأت الأزمة (١٢ المحرم ٤١٩هـ)..

أرسل الأتراك إلى الخليفة: «نحن عبيد أمير المؤمنين، وهذا الملك متوفر على لذاته لا يقوم بأمورنا، ونريد أن توعز إليه بالعَوْدِ إلى البصرة، وإنفاذ ولده ليقيم بيننا نائبا عنه في مراعاتنا» فأرسل إليه الخليفة وفدا برسالة تتضمن الشكوى فردَّ جلال الدولة: «كل ما ذكروا من إغفالنا لهم صحيح، ونحن معتذرون عفا الله عما سلف، ونحن نستأنف الطريقة التي تؤدى إلى مرادهم»، ويبدو أنهم لم يثقوا في الجواب وخافوا من المماطلة فأصروا على أخذ حقوقهم عاجلة، وأمام هذا الانقلاب العسكري اضطر جلال الدولة أن يبيع من الذهب والمصاغ ما قيمته مائة ألف درهم فلم يرضوا بهذا، وتطورت الفتنة فهاجموا دار وزيره ثم حاصروه في داره ومنعوا دخول الطعام والشراب إليه، وتطورت المطالبات إلى عزله فاستسلم وعزم على الخروج بأهله من بغداد، وفي أثناء خروجه من بغداد حدث انقسام بين الأتراك وجرى اشتباك صغير أراد فيه بعض الأتراك نهب سرادق نصبه لستر النساء لدى خروجهن معه، فظن هو أنهم يريدون أخذ النساء فأخذ في الدفاع هو وبعض خدمه، فازداد انقسام الأتراك في تلك اللحظة، وارتفع صوت بعضهم بالهتاف له وبقائه، فانهار جانب المطالبين برحيله، وكل هذا يدل على أن الأمور كانت تتطور من تلقاء نفسها خبط عشواء، وأن الأتراك بلا قيادة مؤثرة ولا خطة واضحة، ثم استقر الأمر على أن يدفع ما استطاع من الأموال ويبقى ملكا في بغداد، فباع كل ما يملك حتى حُلِيّ نسائه فرضوا بهذا[١].

وفي حين كان المشهد يسوء لدى جلال الدولة فقد كان يتحسن لدى أبي كاليجار الذي جاءته ثلاثة أخبار فارقة بأحداث ما كان يستطيع أن يفعل واحدا منها:

الأول: الفتنة التي وقعت بين الأتراك والديلم في البصرة والتي انتهت إلى تمرد على جلال الدولة وعلى ابنه فيها ونادى بالبيعة لأبي كاليجار فأرسل جيشا انتصر وسيطر على البصرة لصالحه[٢].

والثاني: وفاة عمه أبي الفوارس في كرمان (ذي القعدة ٤١٩هـ) فدخلت كرمان في

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٩١، ١٩٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٦٥، ١٦٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٦٦، ١٦٧.

حكمه من غير حرب ولا أموال ولا مجهود من بعد ما عجز عنها شهورا حتى أطارت منه حكم العراق[١].

والثالث: فتنة أخرى في أطراف خوزستان، بين بني أسد الذين يحكمونها، فقد ثار منصور بن الحسين على طراد بن دبيس الذي توفي بعدئذ بقليل، فذهب علي بن طراد إلى جلال الدولة يطلب المدد ليستعيد ملك أبيه، فانقسمت الولاءات: إذ انحاز منصور إلى أبي كاليجار في مقابل علي بن طراد الذي استعان بجلال الدولة فأمده جلال الدولة بجيش من الأتراك، وتزامن هذا مع توتر العلاقة بين جلال الدولة وأحد رجاله واسمه أبو صالح كوركير، فخرج أبو صالح من بغداد عازما على الالتحاق بأبي كاليجار، وفي الطريق علم بأنباء هذه الحرب فاتفق هو ومن معه أن يعينوا منصور ويقاتلوا معه عسكر جلال الدولة فتكون هذه بادرة الصداقة والود مع أبي كاليجار، فاستطاع هذا التحالف هزيمة جيش جلال الدولة وقتل رجله علي بن طراد، فدخلت هذه الأنحاء في حكم أبي كاليجار دون جهد منه ولا حرب ولا مال[٢]!

ولهذا يصدق أن نسمي هذا العام (٤١٩هـ) عام النكبات لجلال الدولة وعام المسرات لأبي كاليجار بن سلطان الدولة.

لكن هذه الصورة انقلبت في العام التالي! وسبحان الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يَذَّكَّر أو أراد شكورا.

انقسام آخر بين بني مزيد جعل أحدهما -وهو نور الدولة دبيس بن علي- ينحاز إلى أبي كاليجار، والآخرون -المقلد بن أبي الأغر، ومعه منيع أمير بني خفاجة- انحازوا إلى جلال الدولة، وكلا الطرفين راسلا حلفاءَهما البويهيين، وكان امتلاك أبي كاليجار للأهواز والبصرة يجعل الخطوة الطبيعية القادمة هي الاستيلاء على واسط، وكان الملك العزيز -ابن جلال الدولة- في واسط في تلك الفترة، فانسحب منها، فاكتملت سيطرة أبي كاليجار على جنوب العراق كله، فلقد دخلت البطائح أيضا في نفوذه وخُطِب له فيها.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٦٦، ١٦٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٦٧.

ماردين
الجزيرة الفراتية
وان
الموصل
اربل
بيلقان
بردعة
تبريز
المراغة
أذربيجان
كركوك
تكريت
سامراء
الأنبار (الفلوجة)
كربلاء
النجف
الحلة
الكوفة
بغداد
كرمانشاه
قرميسين
براز الروز
حلوان
واسط
البطائح
البصرة
أردبيل
زنجان
قزوين
بلاد الديلم
رشت
همذان
نهاوند
الأهواز
خليج البصرة
الري
قم
بحر الخزر
آمل
طبرستان
دنباوند
كاشان
أصفهان
فارس
تستر
شيراز
فسا
يزد
كرمان
جرجان
قومس
كرمان



ثم راسل أبو كاليجار قرواش أمير الموصل، يطلب منه أن يحرك جيشه إلى بغداد بحيث يبقى جلال الدولة فيها محاصرا بين أبي كاليجار من الجنوب وقرواش من الشمال، لكن قرواش لم يتحرك، ومن سوء الحظ أن الأثير عنبر –وكان فيما قبل من رجال مشرف الدولة لكنه هرب إلى الموصل في الفوضى التي أعقبت موته– الذي بدأ التحرك ببعض القوات من الموصل قد مات في الطريق، ولهذا لم يكن جلال الدولة مُشَتَّتًا كما أراد أبو كاليجار، فتحرك جيشه إلى واسط.

ما إن توافى الجيشان وكادا يبدأ بينهما قتال حتى نزلت الأمطار الغزيرة فأعاقت كل الخطط، وقد ضَعُف الجيشان بما أصابهما من المطر الغزير، وكان أكثرهما ضعفا جيش جلال الدولة الذي يعاني فقر الأموال مع تآكل المناطق التي يحكمها، ولهذا اقترح عليه أحد مستشاريه الانطلاق من فوره إلى الأهواز ونهبها والاستقواء بما فيها من أموال أبي كاليجار، فنفذ جلال الدولة بالتعاون مع أحد زعماء الأطراف واسمه أبو الشوك، خطة خداع قوية، إذ ذهب رسول يعرض على أبي كاليجار الهدنة بينهما والاتفاق على مواجهة جيوش الغزنويين التي تجتاح مملكة البويهيين في الري وقريبا ستستولي على العراق، فوافق أبو كاليجار، وفي الوقت الذي كان ينتظر فيه رد الجواب من جلال الدولة، كان هذا الأخير يقتحم الأهواز وينهبها ويستولي على مائتي ألف دينار من دار الإمارة، بالإضافة إلى ما لا يُحصى من أموال نهبها هو وجيشه من أهلها، وأخطر من ذلك أنه أَسَر نساء أبي كاليجار: أمه وابنته وزوجته وجاريته وعاد بهم إلى بغداد.

ولا ريب أن طعم هذه الطعنة كانت رهيبا، وأن الخبر كان سيفا قاطعا نزل به، فأسرع بتجهيز الجيش لحرب جلال الدولة، وخسر حليفه دبيس بن مزيد الذي خشي على أملاكه من هجوم بني خفاجة حلفاء جلال الدولة، ثم اشتبك الجيشان (٣٠ ربيع الأول ٤٢٠هـ) ولقي أبو كاليجار هزيمة مريرة من بعد سلسلة انتصارات وعاد إلى الأهواز حسيرا مهزوما، وعادت واسط إلى نفوذ جلال الدولة[1].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٧٣.

وهكذا انقلبت الصورة، وصار عام (٤٢٠هـ) هو عام المسرات لجلال الدولة وهو عام النكبات لأبي كاليجار!

في العام التالي (٤٢١هـ).. جرى الأمر بينهما على ما يشبه التعادل!!

حاول جلال الدولة أن يستعيد الأملاك الضائعة في جنوب العراق: البصرة، البطائح، وما إليها من تلك الأنحاء التي خضعت لأبي كاليجار، فكان الحال كالآتي:

- أرسل جلال الدولة عسكرا إلى «المذار»(١) فانتصروا على جيش أبي كاليجار، وحكموا المدينة فكانوا بلاء على أهلها، فأرسل أبو كاليجار جيشا كثيفا إلى المذار استطاعوا إعادتها مرة أخرى بمساعدة الأهالي الذين أنزلوا بعسكر جلال الدولة شر انتقام، فمن استطاع منهم النجاة لجأ إلى واسط(٢)!
- أرسل جلال الدولة جيشا كبيرا يقوده وزيره أبو علي بن ماكولا إلى البطائح فاستعادها، ثم إلى البصرة، وكان قوام الجيش بحريا، واستطاع أن يستولي على البصرة أيضا، لكن المقاومة العنيدة لجنود أبي كاليجار بقيادة بختيار بن علي نائب البصرة قلبت هذه الهزيمة إلى نصر كبير رغم قلة العدد، بل وأسروا الوزير ابن ماكولا نفسه(٣)!
- أعاد جلال الدولة المحاولة، وأرسل جيشا آخر استطاع الانتصار على جنود أبي كاليجار واستولوا على البصرة، وانسحب عسكر كاليجار بقيادة بختيار إلى بلدة «الأبلة»(٤) ليعيد تنظيم صفوفه، وراسلوا أبا كاليجار الذي أمدهم بجيش من عنده بقيادة الوزير ذي السعادات، ثم قادوا هجوما جديدا على جيش جلال الدولة لكنهم هُزِموا لمرة أخرى، وقُتِل قائدهم بختيار، ثم وقعت اضطرابات في معسكر جلال الدولة وانقسم العسكر على أنفسهم ثم خافوا من ذي السعادات -الذي صار القائد بعد بختيار- والذي كان هو ذاته خائفا ومنهارا معنويا، فإذا به يجد النصر

(١) المذار: مدينة إلى الشمال من البصرة.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٩١.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٩٢، ١٩٣.
(٤) الأبلة: بلدة إلى الجنوب الغربي من البصرة.

أمامه دون جهد حين استسلموا له واتفقوا على الانسحاب من البصرة، فعادت مرة أخرى إلى حكم أبي كاليجار(١).

ومن نافلة القول أن العراق في هذه الفترة الحافلة بالحروب والنزاعات قد أكلتها الفتن المذهبية -بين السنة والشيعة وبين المسلمين والنصارى بل ودخل اليهود أحيانا على خط الفتن وساعدوا الشيعة(٢)- وأحرقتها الفوضى العسكرية والانفلات الأمني وعاث فيها اللصوص والمجرمون فسادا، وتعطل أمر الحج، وبرغم ما نزل بالعراق من فقر وشدة بفعل كل ما سبق فإن السلطة لم ترحم أحدا في سبيل حاجتها للمال حتى إن الوزير أبا علي بن ماكولا ابتكر ضرائب جديدة على «سوق الدقيق، ومقالي الباذنجان، وسميريات المشارع(٣)، ودلالة ما يباع من الأمتعة، وأجر الحَمَّالين الذين يرفعون التمور إلى السفن، وبما يعطيه الذباحون لليهود»، وظهرت نوعية جديدة من اللصوص تخصصوا في سرقة خيول الأتراك تحديدا ولم ينج منهم حتى جلال الدولة نفسه فقد سُرقت خيوله، كما لم تسلم دار المملكة البويهية التي تعرضت للاقتحام من قِبَل اللصوص(٤).. وكفى بهذا دليلا على ضعف السلطة وانهيارها.

ولقد كان عام (٤٢٢هـ) نموذجا في كثرة الفتن واشتعالها في كل الأنحاء، وما سببته من مقاتل وحرائق ونهب وسلب، بل تعطلت التقاليد السنوية مثل احتفال قدوم رمضان واحتفال عيد الفطر اللذين يحضرهما الملك البويهي، ووصلت الاضطرابات إلى حاشية جلال الدولة نفسه(٥).

وهكذا، أوذي الناس من قبل أن يأتيهم جلال الدولة ومن بعد ما جاءهم!

موجز الدولة الغزنوية

ثمة تطور بالغ الأهمية قد شهده المشرق، بدأ في بلاد ما وراء النهر، ثم كانت له تأثيراته البالغة على الخلافة العباسية ذاتها.. ذلك هو ظهور الدولة الغزنوية!

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٩٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢١٤.

(٣) هي المراكب الصغيرة.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢١٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٩٣، ١٩٥.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢١٣ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٠٠.

وقد اضطررنا للتوقف عن متابعة أحداث العراق لأن الدولة الغزنوية صارت عاملا مهما فيما سيأتي من الكلام، ولا بد من سرد موجز لتاريخها.

وتبدأ القصة منذ انهيار الدولة السامانية..

لقد جرت سنة الله على الدولة السامانية بعدما أصابها الضعف والتشقق وكثرت فيها الصراعات والنزاعات فحُقّ عليها سنة الاستبدال؛ فلقد آل الحكم إلى نوح بن منصور وهو ما يزال صغيرا فتوزعت الأمور بين أمه ورجال الحكم وسبق هذا وتلاه ثورات وتمردات ناجحة أحيانا وفاشلة أحيانا، وكلها كان يأخذ من قوة الدولة حتى انتهت تماما على يد الأيلك خانيين (القراخانيين[١]) بعد أن عاشت أكثر من قرن وربع القرن في عمر هذا الزمان (٢٦١ - ٣٨٩هـ).

لكن الإيلخانيين لم يكونوا القوة الوحيدة الناهضة آنذاك، لقد كان ثمة قائد عسكري آخر يضع بذور دولة أخرى على الضفة الغربية من نهر جيحون الذي سيمثل الحد الفاصل بين دولة الأيلخانيين وتلك الدولة الأخرى.. دولة الغزنويين!

حين توفي الأمير الساماني عبد الملك بن نوح قام ألبتكين (أو ألب تكين) وهو أحد القادة العسكريين بمحاولة انقلاب فاشلة على السلطة فهرب حتى استقر في غزنة[٢] (٣٥١هـ) مع رجاله وقواته، ثم تحسنت علاقاته مع الدولة السامانية، لكن ظلت إمارته في غزنة تحظى بنوع من الاستقلال الفعلي في ظل ضعف السلطة السامانية، ثم مات ألبتكين وآل أمر هذه الإمارة من بعده لأحد رجاله، وهو القائد العسكري القدير سُبُكْتُكِين (أو سُبُك تكين) (٣٦٦هـ)، فكان هو مؤسس الدولة الغزنوية.

وفي غزنة لمع نجم سبكتكين وأظهر من القدرة والقوة والمواهب ما جعله رجل المنطقة،

---

(١) سقطت الدولة السامانية على يد «بغراخان هارون (أو حسن) الذي كان يعرف بلقب أيلك خان، وعرفت أسرة هارون باسم الأيلك خانية، ولكن لما كان الكثير من أفراد هذه الأسرة استعملوا كلمة «قره» -تعني أسود أو شديد القوة- رديفًا لأسمائهم، فقد أطلق المستشرقون اسم «القراخانية» على هذه الأسرة، وهكذا فإن اسم «القراخانية» هو إذًا اسم محدث بديل للأيلك خانية». د. سهيل زكار: عصر ابن سينا السياسي، مجلة التراث العربي، دمشق، عدد (٥، ٦)، يونيو ١٩٨٢م.

(٢) غزنة: مدينة أفغانية إلى الجنوب الغربي من كابل (عاصمة أفغانستان).

وكانت له انتصاراته الباهرة لا سيما على البنجاب، كما استعان به السامانيون في مواجهة تمرد عليهم في بخارى، فأبدى كفاءة وقدرة فأُنعم عليه بلقب «ناصر الدولة»، وكان سيف الدولة السامانية التي حاربت به البويهيين فانتصر عليهم، وكان هو السبب في أن الدولة السامانية ظلت محتفظة بخراسان تحت سلطانها حتى لحظات سقوطها.

وأنجز سبكتكين عمليات جهاد وفتوح واسعة في الأراضي الهندية، وحقق انتصارا غاليا (٣٦٩هـ) على جيبال –وهو أكبر ملوك الهند– واستطاع أن يُحكم سيطرته على بلاد الأفغان، وفي عهده لمع نجم ابنه محمود الذي صار قائدا لجيش خراسان ولُقِّب بـ«سيف الدولة».

وحين مات (٣٨٧هـ) خلفه ابنه القائد العظيم محمود بن سبكتكين الذي يعد فاتح الهند، وواحدا من أعظم الفاتحين في التاريخ الإسلامي كله «حتى قيل إن فتوحه تعدل في المساحة فتوح عمر بن الخطاب»[١]، وفي عهده صارت الدولة الغزنوية دولة قوية مجيدة واقتسم أملاك السامانيين في خراسان وما أمام النهر –نهر جيحون– فيما كان الإيلخانيون قد استولوا على أملاكها فيما وراء النهر.

---

(١) د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص٢٣٤.

الدولة البيزنطية
قونية
بحر الروم
مصر والشام
القدس
أضنة
طرزون
خلاط
ديار بكر
الموصل
بغداد
بلاد الكرج
أذربيجان
بحر قزوين
بادية الشام
الجزيرة العربية
المدينة
مكة
البصرة
الأهواز
كرمنشاه
همذان
قزوين
الدولة البويهية
بحر عمان
الخليج العربي
أصفهان
اصطخر
شيراز
كاشان
الري
جرجان
كرمان
مكران
خليج عمان
نسا
نيسابور
أبيورد
سرخس
مرو
مرو الروذ
هراة
باذغيس
خراسان
الطالقان
بلخ
ترمذ
ما وراء النهر
الدولة الغزنوية
قندهار
غزنة
قلات
قصدار
أرماثيل
الديبل
البيرون
المنصورة
كابول
بيشاور
بنة
راور
ملتان
راجبوتانا
أجمير
دهلي
أجرا
جوالبور
قنوج
بلاد الصين
الهند



ومع هذه القوة الهائلة والمقام المهيب، فإن تأثير محمود الغزنوي على مسار الخلافة العباسية تمثل في عدة أمور:

أولها: ما أبداه من عظيم الولاء والاحترام للخليفة والخلافة، وصار يهنئه ويكتب له بأخباره في الفتوح ويرسل إليه الهدايا، ويستجيب لتوجهاته، ويكتب إليه بالطاعة والتعظيم، وهذا برغم أن الخلافة لا تملك له ضرا ولا نفعا، بل لقد أرسل في مناسبة يقول: « أنا الخادم الذي أرى الطاعة فرضا»[1].

ثانيها: مذهبه السني، ومحاربته للمعتزلة والباطنية والشيعة، وإحراقه كتب الإلحاد والزنادقة والفلاسفة والمنجمين، ويجب أن نشير هنا إلى تشدده في هذا الجانب حتى لقد خرج به عن حد الاعتدال.

ثالثها: رفضه التام لكل محاولات العبيديين (الفاطميين) في التواصل معه ولو على سبيل العلاقات الودية، فكثيرا ما كان يرد هداياهم أو يحرقها، ويتعامل مع رسائلهم ومبعوثيهم باحتقار واستهزاء، فكان موقفه هذا نصيرا قويا للخلافة العباسية وحصنا منيعا أمام تسرب النفوذ الفاطمي إلى مناطق المشرق الإسلامي.

رابعها: قضاؤه على الدولة البويهية في الري وإقليم الجبال، وكانت قد دخلت في طور من الانهيار فضلا عن ترسخ الانحراف والفساد فيها، فكريا وأخلاقيا، فقد انتشر فيها الباطنية، حتى إن محمود بن سبكتكين حين استولى على هذه البلاد (ربيع الآخر ٤٢٠هـ) وجد -فيما يُروَى[2]- ملكها مجد الدولة بن فخر الدولة البويهي متزوجا من خمسين امرأة دون نكير من أحد، بل دافع عن نفسه بأنها عادة سلفه[3]!!

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٩٥، ١٩٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٥٣.

(٢) في النفس شيء من هذه الرواية وإن لم يتيسر الوقت لإفرادها بالبحث والتحقيق، ولكن لا يكاد يصدق أن تكون هذه المناطق في ذلك التوقيت على هذه الدرجة من الجهل بما هو مشتهر من أحكام الإسلام، كيف والعلماء في الري وفي غيرها مما جاورها من البلاد كثيرون مشهورون، وأقربهم إلى الذهن الآن القاضي عبد الجبار الذي كان قاضي قضاة الري وإن كان معتزليا، وقد توفي قبل هذا التاريخ بخمس سنوات (٤١٥هـ) وكان مُعَظَّمًا في أيامه؟!!

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٧٠، ١٧١.

خامسها: بعض المواقف الصغيرة مثل قبضه على عبد الله بن عثمان -وهو من نسل الخليفة الواثق بالله- إذ كان قد خدع أقواما من الإيلخانيين والخراسانيين بأنه ولي عهد الخليفة وطلب البيعة لنفسه، ثم اكتُشِف أمره وطاردته الخلافة فلم تظفر به، فكانت نهايته على يد محمود بن سبكتكين الذي قبض عليه في خوارزم، وظل محبوسا حتى توفي[1]، وكذلك حين توصل العبيديون بهدايا إلى أمير من رجال محمود الغزنوي كان في الحج فأخذها هذا الأمير، فغضب الخليفة وراسل محمودا في هذا فسارع محمود بإعادة هذه الهدايا إلى الخليفة فأحرقها[2].

ولكل ما سبق، أظهر له الخليفة ما وسعه من الرضا، ولقبه بـ«يمين الدولة»، وكتب له بالولاية على خراسان وعلى ما استولى عليه من البلاد، وكان به حَفِيًّا مسرورا!

«وعندما مات محمود (٤٢١هـ)، كانت امبراطوريته أضخم امبراطوريات عصره، ومن أعظم الدول التي قامت في تاريخ الإسلام، وكان جيشه وقواته الحربية على غاية من القوة والعظمة وجودة التسليح»[3].

وكأنما كان موت محمود الغزنوي نذير موت الخليفة القادر بالله، فهو الخليفة الذي لم يجد ناصرا إلا هو من بين جميع الأمراء والمتغلبين الذين لم يكن أحدهم يساوي شيئا في قوة وبطولة محمود الغزنوي، ثم كان موته أيضا نذير موت الدولة الغزنوية ذاتها فخلفاؤه لم يكونوا على ذات المستوى[4].

بوادر عودة مقام الخليفة

كان الخليفة -كعادة خلفاء هذا العصر- غائبا عن خط التاريخ فيما يخص أمور السياسة

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٧.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٦٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٤٧.

(٣) د. سهيل زكار: عصر ابن سينا السياسي، مجلة التراث العربي، دمشق، عدد (٥، ٦)، يونيو ١٩٨٢م.

(٤) يتكرر كثيرا في تاريخنا، وفي تواريخ الأمم كلها، ظاهرة المؤسِّس الذي لا يستطيع أن يصنع المؤسسة! بمعنى أن يظهر القائد البطل فيحقق إنجازات هائلة لكنه لا يصنع ما يحفظ البناء من بعده، فما إن يموت أو يقتل حتى تبدأ الدولة رحلة انهيارها، ولقد كان محمود الغزنوي من أولئك الأبطال الذين كانت دولتهم متوقفة على مواهبهم وقدراتهم الشخصية أكثر مما هي مبنية على أسس راسخة تتجاوز الأشخاص!

والحكم، ولا يحضر إلا في حفلات التنصيب وتجديد التنصيب ليخلع على الأمراء الخُلَع ويُلبسهم الزينة ويكتب لهم التفويض بالحكم، لكن عددا من الأسباب جعلت له أثرا ظاهرا في حياة السياسة وإن كان ضعيفا، فلأول مرة نجد اعتراضا للخليفة في أمر سياسي فيُنَفَّذ له أمره، ويُبْتَغَى رضاه، ولأول مرة لا نجد محاولات من السلاطين البويهيين لخلعه أو الانقلاب عليه.

ونستطيع أن نعزو هذا الظهور إلى عدد من الأسباب:

- الضعف الذي أصاب البويهيين من بعد رحيل عضد الدولة وكثرة الصراعات بين أبنائه: صمصام الدولة وشرف الدولة وبهاء الدولة، ثم بين أبناء بهاء الدولة: سلطان الدولة ومشرف الدولة وأبي الفوارس.
- كون الخليفة من أهل العلم، ولذا كان صاحب قرارات وإجراءات فيما يخص المذاهب، لا سيما والبويهيون في عهده لم يكن لهم اهتمام علمي وانحصرت أغراضهم في الوضع السياسي وكان غاية ما يرجونه في شأن المذاهب هو إخماد تلك الفتن التي تشتعل بين الفينة والأخرى في بغداد أو واسط أو الكوفة أو غيرها، فلهذا عاد الخليفة إلى الظهور مرة أخرى في صراع الأفكار والمذاهب: السنة والمعتزلة والشيعة وما إلى ذلك.
- حرص الخليفة على إعمار المساجد والتصدق والنفقات مما جعله ذا آثار في البلاد وبين العباد.
- قوة وتألق ملك الدولة الغزنوية محمود بن سبكتكين الذي كان يبالغ في إعلان الطاعة والولاء للخليفة ويستجيب لأوامره كأنما الخليفة صاحب قوة وسطوة عليه، ويكتب له بأخباره وأخبار ما فتح الله على يديه من البلاد، ثم رفضه الكامل وبإصرار شديد لأي تواصل مع الخلفاء العبيديين (الفاطميين)، فلا شك أن مثل هذا أعطى للخليفة ليس فقط ثقة في نفسه وشرعيته بل وثقلا للخلافة وشرعيتها.

وبلا شك فإن عهد القادر كان الأفضل من بين سلفه من الخلفاء، ولذا نمر سريعا على أثره في الحياة العامة.

١) في السياسة

بدأ العهد بين الخليفة القادر وبين بهاء الدولة بالود ومحاولات توثيق الصلة، فقد عُقِد نكاح الخليفة على سكينة ابنة بهاء الدولة (٢ ذي الحجة ٣٨٣هـ) لكنها توفيت قبل دخول الخليفة بها[١] فانتهى مشروع توثيق الصلة هذا، وعادت العلاقة بينهما إلى حدها الطبيعي.

وهذا الحد الطبيعي لم يكن مثلما سبق بين الخلفاء والبويهيين بل يبدو أن الخليفة احتفظ لنفسه بمسافة وتحرز من البويهيين تعلما من سيرة الخلفاء السابقين، وذلك أن ابن الأثير حين وصف استقباله لمشرف الدولة (المحرم ٤١٤هـ) يقول: «ولم يلق قبله أحدا من ملوك بني بويه»[٢].

لكن أول ظهور قوي لإرادة الخليفة كان حين لم يُجِز قرار بهاء الدولة بتولية أبي أحمد الحسين الموسوي نقيبا للعلويين في العراق (٣٩٤هـ) فكان ما أراد الخليفة[٣].

ومن اللافت للنظر أن نفوذ الخليفة تعدى بغداد، فحين وقعت فتنة في الكوفة بين رجال من العلويين وآخرين من العباسيين (٤١٥هـ) كان الخليفة ملجأ أحد هذه الأطراف، بينما كان الطرف الآخر معتمدا على الوزير القوي أبي القاسم المغربي -وكان حينئذ وزيرا لقرواش أمير الموصل- وحاول الخليفة التدخل بالصلح فلم يتم الأمر، فأرسل إلى الكوفة بصرف صهر الوزير عن منصبه وكان نقيبا للعلويين وتعيين غيره، فاستنكر الوزير هذه القرارات، فأرسل الخليفة مبعوثا إلى قرواش يأمره بعزل الوزير، فاستجاب قرواش وعزل الوزير، وظل الوزير مغضوبا عليه حتى توسط إلى الخليفة عبر قادة من الجند الأتراك بعد ثلاث سنوات[٤].

وقد وقف الخليفة أكثر من مرة ضد رغبة الأجناد في عزل جلال الدولة منعا لمزيد من اضطراب الأمور، ومثل هذا لم يكن يجرؤ الخليفة عليه فيما سبق، وأذعن الأتراك على مضض وهم من لم يكونوا يذعنون منذ أمد بعيد.

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٣٦٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٤٠.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٤٣.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٣٤، ١٤٤.



٢) في الإنفاق والإعمار

وكان الخليفة حاضرا على جبهة الإعمار والإنفاق، ومن هذا أَمْرُه (ربيع الآخر ٣٨٣هـ) بإعمار مسجد جديد لتؤدى فيه صلاة الجمعة[١] هو مسجد الحربية، لتكون المساجد التي تؤدى فيها صلاة الجمعة ست مساجد: مسجد المدينة، ومسجد الرصافة، ومسجد دار الخلافة، ومسجد براثا، ومسجد قطيعة أم جعفر، وأضيف إليها مسجد الحربية هذا[٢]، كما عَمَّر مسجد الكف (ربيع الآخر ٤٠٢هـ) وأمر أن يعود أحسن مما كان «فَفُعِل ذلك وزُخْرِف زَخْرفة عظيمة جدا، فإنا لله وإنا إليه راجعون[٣]»[٤].

٣) وثيقة الطعن في نسب العبيديين (الفاطميين)

على أن أقوى وأكبر ظهور للخليفة كان في نهاية عهد بهاء الدولة حيث أدت كثرة الفتن مع استقلالات أمراء الأطراف إلى بداية ظاهرة المناداة بشعار العبيديين في الفتن، فجمع الخليفة فقهاء بغداد وقضاتها وأشرافها من العلويين وآل البيت فكتبوا وثيقة تثبت كذب العبيديين في ادعائهم النسب إلى علي وفاطمة (رضي الله عنهما)، ووقع عليها الفقهاء والعلماء ثم أذيع هذا على الناس (ربيع الآخر ٤٠٢هـ)، ووقع عليه كل ذي علم وشهادة بين الناس.

قال ابن الجوزي وهو يورد نص هذا الكتاب:

«وكانت نسخة ما قرئ منها ببغداد وأخذت فيه خطوط الأشراف والقضاة والفقهاء والصالحين والمعدلين والثقات والأماثل بما عندهم من العلم والمعرفة بنسب الديصانية، وهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي أحزاب الكافرين ونطف الشياطين شهادة متقرب إلى الله جلت عظمته، وممتعض للدين والإسلام ومعتقد إظهار ما أوجب الله تعالى على العلماء أن يبينوه للناس ولا يكتمونه: شهدوا جميعا أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والدمار والخزي والنكال والاستيصال ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد -لا أسعده الله- فإنه لما صار إلى الغرب تسمى بعبد الله وتلقب بالمهدي

(١) الأصل في صلاة الجمعة أنها تؤدى في المساجد الكبرى الجامعة فقط.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ١١٠.

(٣) وتعقيب ابن كثير هذا لأن زخرفة المساجد مَنْهِيٌّ عنها شرعا.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٩٧.

ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس، عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين، أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد على بن أبي طالب ولا يتعلقون منه بسبب، وأنه منزه عن باطلهم، وأن الذي ادعوه من الانتساب إليه باطل وزور وأنهم لا يعلمون أن أحدا من أهل بيوتات الطالبيين توقف عن إطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء، وقد كان هذا الإنكار لباطلهم ودعواهم شائعا بالحرمين، وفى أول أمرهم بالغرب منتشرا انتشارا يمنع من أن يتدلس على أحد كذبهم أو يذهب وهم إلى تصديقهم، وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار فساق فجار ملحدون زنادقة معطلون، وللإسلام جاحدون، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وأحلوا الخمور، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف وادعوا الربوبية، وكتب في ربيع الآخر من سنة اثنتين وأربعمائة»[(١)].

ووقع على الوثيقة وجوه أهل بغداد ومنهم:

- **من العلويين:** المرتضى، والرضى وابن الأزرق الموسوي، وأبو طاهر بن أبي الطيب، ومحمد بن محمد بن عمر، وابن أبي يعلى، وابن البطحاوي.
- **ومن القضاة:** أبو محمد بن الأكفاني، وأبو القاسم الخرزي، وأبو العباس السوري (الأبيوردي).
- **ومن الفقهاء:** أبو حامد الإسفراييني، وأبو محمد الكشفلي، وأبو الحسين القدوري، وأبو عبد الله الصيمري، وأبو عبد الله البيضاوي، وأبو على بن حمكان، وأبو الفضل النسوي.
- **ومن الشيعة:** أبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة[(٢)].

قال ابن كثير: «ومما يدل على أن هؤلاء أدعياء كذبة، كما ذكر هؤلاء السادة العلماء، والأئمة الفضلاء، وأنهم لا نسب لهم إلى علي بن أبي طالب، ولا إلى فاطمة كما يزعمون، قول ابن عمر للحسين بن علي حين أراد الذهاب إلى العراق، وذلك حين كتب عوام أهل الكوفة بالبيعة إليه فقال له ابن عمر: «لا تذهب إليهم فإني أخاف عليك أن تقتل، وإن جدك قد خُيِّر بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا، وأنت بضعة منه، وإنه والله لا تنالها لا أنت ولا

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٨٢، ٨٣.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٨٢، ٨٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٧٣.



أحد من خلفك ولا من أهل بيتك». فهذا الكلام الحسن الصحيح المتوجه المعقول، من هذا الصحابي الجليل، يقتضي أنه لا يلي الخلافة أحد من أهل البيت إلا محمد بن عبد الله المهدي الذي يكون في آخر الزمان عند نزول عيسى ابن مريم، رغبة بهم عن الدنيا، وأن لا يُدَنَّسوا بها. ومعلوم أن هؤلاء قد ملكوا ديار مصر مدة طويلة، فَدَلَّ ذلك دلالة قوية ظاهرة على أنهم ليسوا من أهل البيت، كما نص عليه سادة الفقهاء... وقد صنف القاضي الباقلاني كتابا في الرد على هؤلاء وسماه «كشف الأسرار وهتك الأستار» بين فيه فضائحهم وقبائحهم، ووضح أمرهم لكل أحد، ووضوح أمرهم ينبئ عن مطاوي أفعالهم، وأقوالهم، وقد كان الباقلاني يقول في عبارته عنهم، هم قوم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض»[١].

هذه الوثائق العباسية بالرغم مما يشوبها من كدر الخصومة السياسية من خلافة كانت تشعر بخطر الخلافة الشيعية الجديدة على سلطانها الروحي والزمني، فإنها مع ذلك تحمل من التوقيعات أسماء لها مكانتها الرفيعة من العلم والدين، مثل: القاضي أبي بكر الباقلاني، وأبي حامد الأسفراييني، وأبي الحسن القدوري، والأبيوردي وغيرهم. ومن ثم فإنها تجعلنا نشعر أنها لم تكن فقط مزاعم بلاط موتور، وإنما هي فوق ذلك وثائق لها قيمتها التاريخية فيما ذهبت إليه[٢].

٤) انتصاره لأهل السنة

كانت الانقسامات المذهبية الكبرى في بغداد ثلاثة: أهل السنة وهم الجمهور، والشيعة ومنهم الرافضة[٣]، ومع ضعف السلطة كانت الفتن تشتعل بمعدل سنوي، وكان من إجراءات الخليفة –وهو من ذوي العلم- استتابة المبتدعة (٤٠٨هـ)، فقد «استتاب القادر بالله أمير المؤمنين فقهاء المعتزلة الحنفية، فأظهروا الرجوع، وتبرأوا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذ خطوطهم بذلك، وأنهم متى خالفوه حل بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم»[٤].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٩٨.

(٢) محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله ص٥٦.

(٣) الشيعة هم كل من يرى أن علي بن أبي طالب أفضل الصحابة، لكن الروافض هم الذين يسبون الصحابة ويلعنون أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة وغيرهم، ومنهم من يقول بأن الصحابة جميعا ارتدوا بعد وفاة النبي إلا قليلا، وهم الذين كانوا مع علي بن أبي طالب.. رضي الله عن صحابة النبي أجمعين.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٢٥.

وقد أرسل بهذا إلى الملك الوحيد الذي يظهر طاعته، محمود الغزنوي، فنفذ محمود أوامر الخليفة واشتد في هذا على المبتدعة ممن هم في مملكته حتى قَتَل وصلب وحبس وطرد فيهم، وأمرهم بلعنهم على المنابر!

ثم وضع القادر بالله وثيقة أخرى تتضمن «الاعتقاد الصحيح» الذي يجب على المسلمين، وعرضه على العلماء والفقهاء، فتشاوروا فيه وأضافوا وعدلوا حتى خرجت النسخة الأخيرة تتضمن ما يمكن أن نسميه «الاعتقاد الرسمي للدولة»، وأعلن على الناس (١٧ المحرم ٤٠٩هـ)، فكان يُقرأ في المساجد.

غير أن هذه الوثيقة كانت إفرازا ونتاجا لذلك العصر ومعاركه، وقد عرفت لدى المؤرخين باسم «الاعتقاد القادري»، فكانت مهتمة بإثبات عقيدة أهل السنة في الصفات الإلهية وفي أن القرآن كلام الله غير مخلوق –وهذا هو النزاع مع المعتزلة- ثم بإثبات فضل الصحابة وخيريتهم واجتهادهم والكف عن النزاع فيما وقع بينهم –وهذا هو النزاع مع الشيعة- ولهذا فهو نص مهم في بيان طبيعة العصر[١].

وقد أضيف إلى الاعتقاد القادري تفصيلات جديدة أو حتى ما يمكن أن نسميه «ملحقات» أخرى، في (١٨ رجب ٤٢٠هـ) ثم (٢٠ رمضان ٤٢٠هـ) ثم (١ ذو القعدة ٤٢٠هـ) شملت:

- مواعظ ورقائق أهل البصرة (وهم أهل الزهد)
- ردودا موسعة لمن قال بخلق القرآن
- نص المناظرة بين المبتدع الشهير بشر المريسي وعبد العزيز بن يحيى الكتاني
- تفصيلا في فضل الصحابة، وفضائل أبي بكر وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما)
- مواعظ عامة، ومنها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ووقع على هذه الوثيقة الموسعة كثير من العلماء والفقهاء[٢].

وفي نفس ذلك العام (٤٢٠هـ) عزل الخليفة خطيب الشيعة في مسجد براثا (وهو مسجد

---

(١) ولأهمية هذا النص في فهم العصر وصراعاته المذهبية، وضعناه في الملحقات في نهاية هذا الجزء من الكتاب.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٩٧، ١٩٨.



الشيعة) وقد كان يخطب بالغلو الشديد في علي رضي الله عنه [1] ووضع خطيبا سنيا، فلما لم يُظهر ما هو معتاد من المبالغة في مدح علي ضربه الشيعة، فغضب الخليفة ووجه رسالة قاسية إلى الجيش، وكلفهم بحماية الخطيب، وبالقبض على من فعل هذا، وانقطعت الصلاة في ذلك المسجد، ثم توسط وجهاء العلويين في إعادتها واعتذروا إلى الخليفة بأن هؤلاء الذين ضربوا الخطيب سُفهاء لا يُعرفون ولم يصدروا عن توجيه أحد أو بأوامره[2].

وهكذا كانت خلافة القادر بالله بوادر عودة الروح لمقام الخلافة والخليفة!

وفاة الخليفة القادر بالله

مرض الخليفة القادر بالله مرضا شديدا (٤٢١هـ) ولم يكن له ولي عهد بعد وفاة ابنه محمد (رمضان ٤٠٩هـ) الذي كان قد ولاه العهد وتلقب بالغالب بالله (٢١ شوال ٣٨٢هـ)، فأشير عليه بتسمية ولي العهد، فعهد بالخلافة بعده لابنه أبي جعفر الذي تلقب بـ«القائم بأمر الله»، ودُعي له على المنابر (٢١ جمادى الأولى ٤٢١هـ).

ثم تعافى الخليفة، وبقي حيا لأقل من عامين، ثم قبضه الله تعالى (ذي الحجة ٤٢٢هـ) بعد خلافة دامت واحدا وأربعين عاما، وعن عمر بلغ السادسة والثمانين.. «وَلَم يُعَمَّر أحد من الخلفاء قبله هذا العمر ولا بعده»[3].

يقول ابن الجوزي: «كان من أهل الستر، والديانة، وإدامة التهجد بالليل، وكثرة البر والصدقات على صفة اشتهرت عنه، وعرف بها عند كل أحد مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد وكان صنف كتابا فيه الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب أصحاب الحديث، وأورد في كتابه فضائل عمر بن عبد العزيز، وأفكار المعتزلة، والقائلين بخلق القرآن، وكان الكتاب يُقْرَأ كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي ويحضر الناس سماعه... وكان يلبس زي العوام ويقصد الأماكن المعروفة بالبركة... وكان القادر يقسم الطعام الذي يهيأ لإفطاره ثلاثة أقسام، فقسم يتركه بين يديه، وقسم يحمل إلى جامع الرصافة،

---

(١) كان ذلك الخطيب يقول بعد الصلاة على النبي «وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، مكلم الجمجمة، ومحيي الأموات، البشري الإلهي، مكلم فتية أصحاب الكهف».

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ١٩٨ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٩.

وقسم إلى جامع المدينة، فيفرق على المجاورين»[١]، وفي خروجه هذا كان يطلع على أحوال الرعية ويفصل في مظالم لم تكن لتبلغه.

ويقول ابن الأثير: «كان حليما كريما خيرا يحب الخير وأهله ويأمر به، وينهى عن الشر ويبغض أهله»[٢].

ومن شعره:

سبق القضاء بكل ما هو كائن ... والله يا هذا لرزقك ضامن

تعنى بما يفنى وتترك ما به ... تغنى كأنك للحوادث آمن؟!

أو ما ترى الدنيا ومصرع أهلها ... فاعمل ليوم فراقها يا حائن

واعلم بأنك لا أبا لك في الذي ... أصبحت تجمعه لغيرك خازن

يا عامر الدنيا أتعمر منزلا ... لم يبق فيه مع المنية ساكن

الموت شيء أنت تعلم أنه ... حق وأنت بذكره متهاون

إن المنية لا تؤامر من أتت ... في نفسه يوما ولا تستأذن

***

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٣٥٤، ٣٥٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٩٧.





القائم بأمر الله

(من ذي الحجة ٤٢٢ هـ حتى ١٣ شعبان ٤٦٧ هـ)

وهو عبد الله بن القادر بالله، وقد ولي الخلافة وهو في الحادية والعشرين من عمره فهو مولود (١٨ ذي القعدة ٣٩١هـ)، وأمه جارية أرمنية اسمها قطر الندى أو بدر الدُّجى.

استمر عزاء القادر بالله سبعة أيام «لعِظَم المصيبة به، ولتوطيد البيعة لولده»[١] واتخذت الإجراءات الأمنية المستطاعة لتأمين بغداد ودار الخلافة في وقت البيعة.

وكان القائم ذا حظ من الأدب، وكان مجتهدا في النظر إلى الشكاوى والمكاتبات[٢].

***

وأول ما واجهه الخليفة الجديد من المشكلات هو احتجاج الأجناد الأتراك مطالبين بمكافأة الخليفة الجديد كما جرت عادتهم منذ قديم، وقد تجرأ أحدهم فتكلم «بما لا يصلح في حق الخليفة القائم فقتله هاشمي» فأضاف هذا إلى احتجاج الأتراك لهبا جديدا إذ صاروا يطالبون بقتل القاتل أو سيخرجون من بغداد إن ثبت أن قتله كان برضا الخليفة، وأما الخليفة فلم يكن لديه الأموال التي يعطيهم منها، كما أنه لا يسعه تسليم الهاشمي إليهم وهو الذي دافع عنه وغضب له، ولا يمكنه إلا إرضاؤهم وإلا خلت بغداد من الجيش وصارت نهبا لأمراء الأطراف أو حتى لفوضى أهلها الذين تقتلهم الفتن والمنازعات بالفعل! ثم انتهى الأمر على أن دفع لهم جلال الدولة مالا لم يرضهم واستقر الأمر على ثلاثة ملايين دينار اضطر الخليفة لأن يبيع أملاكا له لكي يوفيهم ما يريدون[٣].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٤٠.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢١٨.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢١٨.

بقية عهد جلال الدولة (عهد الفوضى والفتن)

لم تمر على بغداد أيام أقسى وأصعب من تلك التي شهدتها فيما بقي من عهد جلال الدولة البويهي، لقد غرقت بغداد في الفوضى والفتن، الفوضى في السلطة: بين الملك البويهي والجنود الأتراك وبينه وبين الخليفة، والفتن بين الناس: السنة والشيعة، والمسلمين واليهود والنصارى، وكان الانهيار الشامل للسلطة يعني الازدهار الكامل للمجرمين واللصوص، وكل هذا كان يعني غلاء الأسعار وانتهاء الأمان وفقدان الممتلكات والمساكن.

١) عهد الفوضى

كانت عناصر المشهد السياسي تتمثل في: الملك البويهي جلال الدولة، والجيش الذي هو من الأتراك، والخليفة.. فأما جلال الدولة فشخصية ضعيفة وسيئة التدبير والإدارة، وأما الأتراك فهم قد صاروا بعد هذه السنين أشبه بمجموعات المرتزقة يطلبون الأموال عند كل فرصة ﴿**فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾، وأما الخليفة فهو على هامش الحياة السياسية، ليس له إلا مقام الخليفة ونسبه الهاشمي وتاريخ أسرته العباسية والخلفاء العظام.

وفي ظل الانهيار الاقتصادي العام لا يجد جلال الدولة ما يدفع به رواتب الأتراك وأعطياتهم، فيثير الأتراك الشغب ويبدأون في التمرد والانقلاب على جلال الدولة وعزله، والخليفة لا يستطيع التدخل ولا التوسط بحل جذري، وفي ظلال الفوضى التي يشارك فيها الأتراك أنفسهم تزداد حالة الانهيار الاقتصادي فتزداد المشكلة تعقدا!

وما يزيد من تعقد المشكلة أن العجز يسيطر على الجميع، فلا جلال الدولة قادر على الإصلاح وحسن التدبير، ولا الأتراك لديهم البديل، ولا الخليفة يملك قوة أو نفوذا، ولهذا كله.. فحين تتعقد المشاكل يهدد جلال الدولة بالاعتزال وترك الولاية، فيضطرب الحال في الأتراك ويبدأون في الاعتذار له ومحاولة إرضائه، وكذلك الأتراك ليس لديهم ما يهددون به إلا أن ينسحبوا من بغداد لتفرغ البلاد من قوة الجيش، وكذلك الخليفة أيضا إذا تعقدت به الأمور وثبت أن لا أحد يهتم لأمره أو بأوامره يعزم على الخروج من بغداد.. ثم لا يكون أمام كل الأطراف إلا الرضا بالحلول الوقتية والتسكينية والتي تنهار هي الأخرى بعد وقت بسيط.

وكما سبق وذكرنا في نهاية عهد الخليفة القادر، فقد كان عام (٤٢٢هـ) زاخرا بالفوضى والفتن..

وقد وصلت الاضطرابات إلى حاشية جلال الدولة نفسه، إذ حرضته مجموعة من الأتراك على اثنين من أكابر قُوَّاده ممن يدبرون معه أمر الأموال وهما بارسطغان – ويُلَقَّب بـ«حاجب الحُجَّاب» ويلدرك[١] باعتبار أنهما سبب الفساد وفراغ الخزانة من الأموال، مما دفعهما إلى الهرب، ولكن جلال الدولة استرضاهما حتى عادا مرة أخرى! ومع هذا الوضع المتأزم بدأ الأتراك يحلون مشكلة فقرهم بزيادة الطغيان على جلال الدولة ذاته حتى لقد كانوا ينهبون دار المملكة البويهية ويأخذون من أثاثها وذخائرها ودوابها، وكما كان الأتراك يحلون مشكلتهم بالطغيان على جلال الدولة، لعبت الخمر ذات يوم برأسه فأراد أن يحل مشكلاته بانقلاب على الخليفة، فخرج –وهو مخمور– على رأس بعض جنوده إلى دار الخلافة ثم يبدو أنه استفاق فعاد دونما نتيجة بعدما سبب ارتباكا واضطرابا في دار الخلافة[٢].

وفي مشهد يثبت العجز التام أخرج جلال الدولة دوابه من الاصطبل –وهي خمس عشرة دابة فقط– إلى الشارع لأنه لم يعد يجد العلف لإطعامها، وأعلن للأتراك أن هذه دوابه التي يملكها هو وأصحابه فليأخذوها بدل عمليات النهب المستمرة لدوابه، ثم دخل دار المملكة فأغلقها وصرف الحاشية والخدم، فكأنه بهذا قد أعلن عجزه واستسلامه واعتزاله هذه الولاية، وكان لهذا أثره القوي في إشعال الفوضى والاضطرابات في بغداد.

ويكفي أن نرى سوء الإدارة في تغيير الوزير لأربع مرات في هذا العام (٤٢٢هـ)، منهم من بقي أياما، ومنهم من هرب بعد خمسة وخمسين يوما فقط[٣]، حتى انتهى العام «ومملكة جلال الدولة ما بين الحضرة[٤] وواسط والبطيحة، وليس له من ذلك إلا الخطبة، فأما الأموال والأعمال فمنقسمة بين الأعراب والأكراد والأطراف منها في أيدي المُقْطَعِين[٥] من

---

(١) بارسطغان يكتب أحيانا: بارسطعان وبادسطفان، وأما يلدرك فهو يكتب أحيانا بلدوك، بحسب تصحيفات الكتب.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٠١.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٠٢.

(٤) الحضرة: هي بغداد.

(٥) المُقْطَعين: أصحاب الإقطاعيات.

الأتراك والوزارة خالية من ناظر فيها»[١].

ولم تمض شهور من عام (٤٢٣هـ) حتى حدث المشهد المتكرر:

تزعم الأتراك انقلابا عسكريا على جلال الدولة، وعزموا على عزله والمبايعة لأبي كاليجار بن سلطان الدولة ملك البويهيين في فارس، وقد بدا جلال الدولة مستسلما غير ممانع في الخروج من بغداد فقد أطلق جواريه وباع أملاكه فضلا عن التي نهبها الأتراك، وكان تفاوضه مع الأتراك في موعد الخروج والحراسة والنفقة التي يتبلغ بها إلى مكان آخر، وخرج من بغداد فعلا (٦ ربيع الأول ٤٢٣هـ) إلى عكبرا، فنهب الأتراك ما بقي في دار المملكة البويهية، وراسلوا أبا كاليجار مهنئين إياه على خروج جلال الدولة واستقرار كلمتهم عليه ويدعونه لقدوم بغداد أو إرسال نائب عنه، غير أن أبا كاليجار تباطأ في الإجابة لعدة أسباب: أن يتوثق من الأتراك ونيتهم فهم متقلبون، وأن يترك الأمور تزداد صعوبة في بغداد حتى يكون إلحاحهم أكبر ومطالبهم وشروطهم أقل وأيسر، وقد ظل ينتظر أن يأتي إليه وفد من قادتهم، وقيل بأنه طلب منهم رهائن[٢] لكن الأمور لم تجرِ كما أحب، بل إن هذا التلكؤ أنتج انقساما لدى الجنود الأتراك إذ خرج فيهم من اعترض على استمرار الخطبة له دون أن تستقر أمورهم معه، ومع طول الزمن الذي أفرز الفوضى الضاربة في بغداد، والذي جعل الأتراك أنفسهم لا يجدون إلا أن يشاركوا في السلب والنهب، في ظل هذا الضغط رجع الأتراك عن مراسلة أبي كاليجار، وأرسلوا وفدا يعتذر إلى جلال الدولة ويسأله العودة –وكان مستقرا عند أحد زعماء الأطراف وهو كمال الدولة أبو سنان الذي كان ثاقب النظر فأكرمه وأحسن استقباله ووضع أمواله رهن إشارته بل وزوجه ابنته– وأعادوا له الخطبة (١٧ ربيع الآخر ٤٢٣هـ) فعاد إلى بغداد[٣].

ما إن صلحت العلاقة بين جلال الدولة والأتراك حتى فسدت بينه وبين الخليفة، ذلك أن الخليفة بعث وفدا إلى أبي كاليجار فأحسن استقبالهم وأكرمهم لكنه أراد أن يُنعم عليه الخليفة بلقب «ملك الملوك، مالك الأمم» فاعترض رئيس الوفد –وهو الإمام الفقيه الشافعي

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢١٩، ٢٢٠.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٤٢.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٢٣ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٠٣.

الكبير أبو الحسن الماوردي، وكان قاضي القضاة- بأن هذا لا يجوز ولو جاز فسيكون في حق الخليفة، ثم اتفقوا على لقب «ملك الدولة»، وأرسل أبو كاليجار هدايا كثيرة ونفيسة إلى الخليفة.. فلما علم جلال الدولة بهذا انزعج وغضب، وشعر أن هذا بداية عزله لكن سعى بعض العقلاء في الإصلاح بينهما، وحلف له الخليفة على صفاء النية والوفاء بالعهود[١].

لكن هذا لم يك كافيا، فقد قام جلال الدولة باستفزاز الخليفة؛ خرج في مركبه في النهر ثم دخل دار الخلافة[٢] (١١ شوال ٤٢٣هـ) بغير سابق موعد، ومعه ثلاثة من حاشيته فأخذ في شرب النبيذ وأمر واحدا ممن معه أن يعزف بالمزمار، في مشهد ماجن لا يليق بدار الخلافة، وقال بأنه يريد القبض على وزيره أبي سعد بن عبد الرحيم المختفي في دار الخلافة، وغضب الخليفة وأبلغه عبر حاشيته أن الوزير ليس بدار الخلافة، وأبدى جلال الدولة تعاليا وسوء أدب ولم ينصرف إلا بعد الحصول على تعهد بتسليم الوزير، وقد أدى هذا التصرف إلى اضطراب وارتباك في بغداد إذ ظنه كثير من الناس مقدمة انقلاب على الخليفة أو خلعه، فلما انتهى الأمر بعث الخليفة إلى اثنين من رجال جلال الدولة من مرافقيه يهدد بأن يعود جلال الدولة فيلزم الأدب واحترام مقام الخلافة وإلا ترك الخليفة بغداد، فاعتذرا للخليفة وأسرعا إلى جلال الدولة وأخبراه بالرسالة، ولم يكن أحد بالذي يجهل خطورة خروج الخليفة من بغداد على جلال الدولة وعلى حكم البويهيين كله، فخرج جلال الدولة إلى دار الخلافة معتذرا ومتأسفا حتى قبل الخليفة[٣].

وقد تكرر مشهد الأتراك وجلال الدولة مرة أخرى (رمضان ٤٢٤هـ) إذ فوجئوا بتعيينه وزيرا على غير تشاور معهم ولا رغبة به فتوقعوا منه العداء، وكعادتهم لم ينتظروا توضيحا أو إفصاحا بل هاجموا دار جلال الدولة ونهبوها وأسمعوه ما يكره وأرادوا عزله، وجلال الدولة كعادته لم يمانع ولم يقاومهم بل سعى في التخلص والهرب، وفي هذه المرة انطلق إلى الجانب الشرقي من بغداد حيث أهل الكرخ (الشيعة) واختبأ في بيت الشريف المرتضى، وقد تم كل هذا بلا تخطيط مسبق فالأتراك ليس فيهم زعيم وهم فوضيون، ولهذا فقد عادوا إلى التفكير

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٢٥ وما بعدها.
(٢) دار الخلافة مدينة ملكية مطلة على نهر دجلة، فيمكن الدخول إليها عبر النهر أيضا.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٢٨، ٢٢٩.

والحذر من خروجه وليس في بني بويه أحد يتولى الحكم إلا ابن أخيه أبا كاليجار الذي لم يجبهم في العام الماضي، وهذه بغداد قد عمتها الفوضى كما هو متوقع، بل زادت هذه المرة إلى الحد الذي بدأ زعيم العَيَّارين[1] واسمه البرجمي يتطلع إلى أن يكون هو السلطان في بغداد، وأمام هذا كله بدأت حركة الأتراك في الخفوت والانهيار والتلاشي، وبدأ بعضهم يريد عودة جلال الدين مرة أخرى، ويبدو أن جلال الدين قد فهم هذه العادة واستطاع من خلال اتصالات سرية مع الأجناد الصغار وانفرادية مع القيادات أن يقضي على البقية الباقية من حركة الانقلاب هذه ثم يعود إلى مكانه في بغداد ومعه وزيره أبو القاسم، مع التعهد المتكرر بألا ينتقم من الأتراك، وقد كان[2].

وظلت المشكلات بغير حل، فجلال الدولة ما زال يغير الوزير بعد الوزير بعد الوزير (٤٢٥، ٤٢٦هـ)، والأتراك شرعوا في التدخل في أمور المال وتفاصيلها ودقائقها ليحوزوا جباية الأموال ووضعوا رقباء في دار العملة وصاروا يجمعون الضرائب بأنفسهم أحيانا[3]، كذلك ساءت العلاقة مع الخليفة مرة أخرى، ذلك أن مجموعة من الجنود وقعوا في كمين نصبه بعض الأكراد قريبا من أملاك للخليفة خارج بغداد (٤٢٦هـ)، فسلبوهم كل ما معهم، فأراد الجنود معاقبة أهل هذه المنطقة أن لم يُحَذِّروهم من وجود الأكراد فنهبوا من أملاك الخليفة، فغضب الخليفة غضبا شديدا وأمر جلال الدولة بتسليمهم، ولكن جلال الدولة الحريص على استقرار العلاقات مع الأتراك أخذ في المماطلة، فأمر الخليفة القضاة والفقهاء بالإضراب العام فتعطلت مصالح الناس في بغداد، حتى توسل إليهم جلال الدولة أن يقبض عليهم صوريا ثم أطلقهم مرة أخرى[4].

---

(١) العيارون: هم الذين كنا نشير إليهم فيما سبق باللصوص والمجرمين، فهم مجموعات عصابية تنشأ في جو الفتن وتحترف السلب والنهب والقتل، ومع طول عصر الفوضى في بغداد أصبحت هذه الجماعة أشبه بالتنظيم الذي بدأت تظهر له عادات وتقاليد، وتحول زعماؤه من لصوص إلى زعماء محليين لهم مناطق يسيطرون عليها، وقد تجري السلطات معهم مفاوضات أحيانا، وهذا يشبه في الاصطلاح المعاصر مفهوم «المافيا»، إلا أن حركة العيارين هذه لم تَحْظَ -فيما أعلم- بدراسة وافية تستجلي أمرها وكنهها بعمق.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٣٤ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٠٨.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٤١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢١٢، ٢١٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢١٥.



لا نجد في عامي (٤٢٥، ٤٢٦هـ) حركة من الأتراك ضد جلال الدولة نفسه، ويبدو أنهم حاولوا البحث عن خصم يمكنهم قهره والضغط عليه، فكانوا يهاجمون الوزراء، ولهذا كان الوزير لا يمكث أياما حتى يهرب، فمن كان ذا حظ جيد هرب سالما، وإلا هرب مهانا[1].

لكن لعلهم لم يحتملوا هذا الخداع النفسي، فما هو إلا أن عادوا سيرتهم الأولى في طرد جلال الدولة وعزله (٤٢٧هـ) فتكررت ذات القصة: نهبوا داره وهاجموه، واستجاب فخرج هاربا، ثم أعادوه معتذرين مرة أخرى[2].

لكن هذه الأزمة لم تنتهِ ككل أزمة، بل أسفرت عن شكوك من جلال الدولة في رجله الثاني بارسطغان –حاجب الحُجَّاب- بأنه هو محرض الترك، والتقط هذا الأخير هذا الشك فهرب مباشرة (٤٢٨هـ) واحتمى بدار الخلافة وحماه الخليفة فلم يسلمه لجلال الدولة، ومن هناك بدأ بارسطغان إجراءاته في مراسلة أبي كاليجار والاتفاق مع الأتراك لعزل جلال الدولة، وسارع أبو كاليجار هذه المرة فأرسل جيشا إلى واسط فانحاز إليهم الديلم هناك وطردوا الملك العزيز بن جلال الدولة، فيما طرد الأتراك جلال الدولة من بغداد أيضا، وبدا كأن الأمور استقرت لأبي كاليجار، لكن جلال الدولة استطاع التحالف مع بعض أمراء الأطراف كقرواش بن المقلد (أمير الموصل وزعيم بني عقيل) ودبيس بن علي (أمير الحلة وزعيم بني مزيد) واستولى على الجانب الغربي –وهو الأهم وفيه دار الخلافة- من بغداد، فصارت بغداد منقسمة: غربها يخطب لجلال الدولة وشرقها لأبي كاليجار، ولعل هذا ما دعا أبا كاليجار إلى العودة إلى فارس مرة أخرى في خطوة غريبة وغير مفهومة حطمت كل التدبير الذي تم لصالحه في بغداد، فبعودته انسحب الديلم الواسطيون من حول بارسطغان، وتفككت جبهة بارسطغان وحاول هو الهروب إلى واسط لكن حلفاء جلال الدولة طاردوه حتى أدركوه ثم أرسلوا به إلى جلال الدولة فقتله، وأعاد الاستيلاء على واسط مرة أخرى.. فكأن شيئا لم يكن[3]!

ثم سعى بعض ذوي المكانة –مثل قاضي القضاة أبو الحسن الماوردي- في الإصلاح بين

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢١٧.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٥٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢١٩.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٥٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٢٣، ٢٢٤.

جلال الدولة وأبي كاليجار لتتوقف هذه الفوضى المستمرة، ونجحوا في هذا، فاتفقوا على السلام وعدم التعرض لأملاك الآخر، وتزوج ابن أبي كاليجار ابنة جلال الدولة[(١)].

وكان المتوقع أن يعتدل أمر جلال الدولة بعد انتهاء هذا الخطر ويأخذ في التدبير وهو آمن، إلا أن أول ما شغله وطالب به هو زيادة ألقابه، فطلب من الخليفة (رمضان ٤٢٩هـ) أن يتلقب بـ«ملك الملوك»، وهو اللقب الذي أثار الناس في بغداد، فما إن خُطِب له به حتى رمى العامة الخطباء استعظاما أن يُسمَّى بشر بهذه الصفة، وقد استجاب له الخليفة بعد مماطلات وتمنع تبعا لإجازة بعض الفقهاء له باعتباره منصرفا إلى ملوك الأرض، ومشابها للقب قاضي القضاة، بينما رفضه الآخرون مثل قاضي قضاة بغداد الماوردي، وهذا هو الرأي الصحيح الذي جاءت به الأحاديث[(٢)].

ومع أن الأتراك قد انقطع أملهم بعد هذا الصلح، وتوقفت انقلاباتهم العسكرية على جلال الدولة عامي (٤٢٩هـ)، (٤٣٠هـ)، إلا أن أحوالهم لم تعتدل، وهم ما زالوا يعانون ويشكون انقطاع رواتبهم، ثم أضيف إلى ذلك في السنوات الأخيرة ومع انهيار السلطة انهيار هيبتهم بين الناس فصاروا هم أيضا موضع الهجوم والنهب من العَيَّارين وغيرهم أحيانا كثيرة.

ولذلك خرجوا فيما يمكن أن نسميه «اعتصاما» –بالمصطلحات المعاصرة– ونصبوا خيامهم خارج بغداد اعتراضا على تأخر الرواتب (ذي القعدة ٤٣١هـ)، وهذا بحد ذاته تغير واضح فقد كانوا قبل هذا يهاجمون دار المملكة مباشرة، إلا أن الاعتصام لم يُجْدِ نفعا بل لقد أعطى الفرصة لجلال الدولة ليراسل أمراء الأطراف كي يكونوا عونا له إن تطور أمر الأتراك، وهنا تخلى الأتراك عن اعتصامهم وهاجموا دار المملكة (ذي الحجة ٤٣١هـ) وأوقعوا بعض القتلى في حاشية جلال الدولة، وعندئذ فقط بذل لهم جلال الدولة ما استطاع من الأموال وعاد للطريقة القديمة في التفاوض:

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٦٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٢٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٦٤ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٢٧، ٢٢٨.

ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ **«أخنى الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمى ملك الأملاك»**، أخنى: أي أذل وأوضع، البخاري (٥٨٥٢)، ومسلم (٢١٤٣). وفي رواية عند مسلم **«أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه عليه رجل كان يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله»**، مسلم (٢١٤٣).

- إن قنعتم بما بذلنا
- وإلا فأعطونا قدر ما نحتاج إليه لمؤونتنا وتسلموا جميع المعاملات
- وإلا اعتزلناكم وعملتم ما تريدون.

وفشل التفاوض، وارتحل جلال الدولة بقواته وقوات حلفائه إلى القسم الغربي من بغداد، واشتعل الشغب والفتنة، ووصلت هذه المرة إلى حد مريع، فلم يكن أحد يستطيع أن يخرج من بيته ولو إلى صلاة الجمعة التي صُلِّيت بثلاثة أفراد فقط في مسجد براثا، فإن خرج من بيته فلابد أن يكون في حراسة، وقد وصلت أسعار الحراسات الخاصة مبلغا غريبا حتى كان توصيل الثلاثة إلى المسجد ثمنه درهم.. ثم توصلوا لاتفاق جزئي تسكيني معرض للانهيار كما في كل مرة(١)! ولذلك تكرر الشغب من الأتراك (جمادى الآخرة ٤٣٣هـ) ونهبوا ما طالته أيديهم من أملاك الناس(٢).

واستمر الشغب الذي يصل إلى نهب دار المملكة حتى لم يهتد جلال الدولة إلى حل يأتي بأموال إلا بأن يأخذ ضرائب أهل الذمة -وكان اسمها «الجوالي»(٣)- التي كانت مخصصة للخلفاء على ما جرت به التقاليد منذ قديم، وذلك أول عام (٤٣٤هـ)، فأثار هذا التعدي غضب الخليفة وعزم على مغادرة بغداد، وجمع الهاشميين والقضاة فأعلمهم بما حدث وبما عزم عليه، وسعى المصلحون بين الخليفة والملك البويهي الذي لم يجد إلا أن يعتذر بالحاجة للأموال قائلا: «نحن نائبون عن الخدمة نيابة لا تنتظم إلا بإطلاق أرزاق العساكر وقد التجأ جماعة ممن خدمنا إلى الحريم واستعصم به حتى أن أحدهم أخذ من تِلاعِنا(٤) في دفعة واحدة تسعمائة بدرة ونحن نمنع من إحضارها ونحن معذورون عند الحاجة»، ثم عادت الأمور على سابق عادتها في العام التالي (٤٣٥هـ)(٥).

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٧٣، ٢٧٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٣٥.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٧٩.
(٣) الجوالي: هم أهل الذمة المتنقلون من أرض إلى أرض، وإنما قيل لهم: جوالي، لأنهم جلوا عن مواضعهم. انظر: الخليل بن أحمد: كتاب العين ٦/ ١٨١، وأبو بكر الأنباري: الزاهر في معاني كلمات الناس ١/ ٤٨٢.
(٤) التلاع: هي الأرض الخصبة.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٥٩، ٢٦٠.

ثم توفي جلال الدولة (٥ شعبان ٤٣٥هـ) وهو في الحادية والخمسين من عمره بعد مرض لم يمكث فيه كثيرا، بعد سبعة عشر عاما في الولاية على بغداد الهائجة المضطربة المتنازعة مع ضعفه وسوء تدبيره، وهو ما أبدع ابن الأثير في استخلاص العظة منه فقال: «مَنْ عَلِم سيرته وضعفه واستيلاء الجند والنواب عليه ودوام ملكه إلى هذه الغاية، عَلِم أن الله على كل شيء قدير يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء»(١).

وهكذا انتهى عهد جلال الدولة..

ومن العجيب أن الرجل الذي خاطر بأزمة فارقة مع الخليفة في أمر كهذا، سنكتشف بعد قليل أن من أملاكه مركبا أنفق على صناعته عشرة آلاف دينار فلم يكن له مثيل(٢)، وكفى بهذا دليلا على سوء التصرف والتدبير واتباع الشهوات.

ومما لا يحتاج إلى بيان أن الأطراف المستقلة في أنحاء العراق لم تكن تقيم لسلطة بغداد أي وزن، وهي ماضية في ترسيخ حكمها داخليا أو في نزاعاتها مع الأطراف الأخرى، وقد تلجأ إلى بغداد كحليف ضد خصم آخر لكن لا بأس من إهماله دون أي تردد إن لم يكن ذا فائدة، كما لا يُستبعد التلاعب بسلطة بغداد في خضم هذه النزاعات، أو أن تعتدي على أنحائها.

- فمن أمثلة التلاعب أن ظهير الدين أبا القاسم أمير البصرة -التابعة اسميا لأبي كاليجار- توترت العلاقة بينه وبين أبي كاليجار فأعلن الولاء لجلال الدولة (٤٢٤هـ) فأرسل هذا الأخير ابنه الملك العزيز -وهو الذي يحكم واسط- ليتولى البصرة، لكنه فوجئ بأن أبا القاسم لا يريده إلا مجرد اسم، وظل هو الحاكم الفعلي لها، ولما حاول الملك العزيز انتزاع السلطة حاربه وجنوده حتى طردهم من البصرة وأعاد الولاء لأبي كاليجار (٤٢٥هـ)(٣).
- ومن أمثلة الاعتداء نهب بني خفاجة للكوفة (٤٢٦هـ) حتى منعوا وصول الماء إلى النخيل فهلك كثير من محصول التمر(٤).

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٨٩، ٢٩٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٦٢.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٩٢.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٠٧، ٢٠٨.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢١٧.



- ومن أمثلة التجاهل ما فعله قرواش بن المقلد أمير الموصل الذي كان يحارب خمسين ابن ثعلب حاكم تكريت (٤٣١هـ) لأنه كان يريد أن يضمها إلى سلطته، فتوسط خمسين بجلال الدولة ليكف عن قرواش، فتوقع جلال الدولة أن وساطته ستُجدي لكنه فوجئ بإهمال واستخفاف من قرواش الذي ظل يحارب خمسين بل خرج إليه بنفسه في جيش، ولم يكتف بهذا بل بدأ قرواش بمراسلة الأتراك في بغداد ليدبر تمردا على جلال الدولة نفسه لولا أن سير الحوادث أفشلت هذا التدبير، واستعد جلال الدولة بجيش لينتزع الأنبار من قرواش (٤٣٢هـ) وكاد هذا الجيش ينهزم لولا أن الاضطرابات الداخلية في بني عقيل أجبرت قرواش على طلب الصلح وإعادة التحالف من جديد[١].

وإذا مددنا أبصارنا خارج العراق في ذلك الوقت سنجد قوة جديدة قد ظهرت في المشرق، وقد انهارت أمامها البلاد فسقطت أمامها الدولة الغزنوية ثم بدأت في الاستيلاء على الشرق وهي تتقدم بقوة نحن الغرب، وتأخذ في طريقها أملاك البويهيين في فارس.. أولئك هم السلاجقة، والذين سيكون لهم حديث طويل مع الخلافة العباسية!

ومما لا يحتاج إلى بيان أيضا أن الحج ظل منقطعا متوقفا من العراق وما خلفه من البلاد طوال هذا العهد، إذ لم يتصد أحد لغارات الأعراب وقطاع الطرق واللصوص، ومن كان يخاطر بشيء كان مصيره النهب والسلب وربما القتل والأسر أيضا.

٢) استمرار اشتعال الفتن

وأما الحديث عن الفتن في بغداد، فكما ذكرنا، أن أيام جلال الدولة كانت الأقسى والأصعب من بين أيام البويهيين السابقين، ذلك أن ضعف السلطة وانهيارها ونزاعاتها جعل بغداد مسرحا كبيرا للاشتباكات التي تشتعل وتلتهب وتأتي على الأخضر واليابس، وكانت الفتن تقع في كل عام مرة واحدة على الأقل، وربما وقع في العام الواحد فتنتان وثلاث وأكثر من هذا.

وحيث إن هذا التاريخ الاجتماعي خارج عن منهجنا في هذا الكتاب، فقد كان التوسط المطلوب هو إلقاء نظرة سريعة لتكتمل الصورة التاريخية دون أن نستغرق في تفاصيلها، إذ لها

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٤٦.

مقام آخر ومجال آخر.

وعلى كل حال فالفتن كانت تبدأ بعدة أسباب:

أ- **أوقات الأعياد والاحتفالات:** حيث يحتفل الشيعة بعيد الغدير (١٨ ذي الحجة) ويقيمون المآتم على الحسين بن علي ﷺ في عاشوراء (١٠ المحرم).. ثم رد عليهم الجهلة من أهل السنة باختراع عيد نجاة النبي وأبي بكر من الغار في الهجرة (٢٦ ذي الحجة) وباختراع مأتم على مصعب بن الزبير الذي قتله الحجاج بن يوسف الثقفي (١٨ المحرم) وكان مصعب بن الزبير هو من أنهى حركة المختار بن عبيد الثقفي وقتله وهي من أوائل الحركات الشيعية التي تغالي في علي ﷺ.

ب- **انهيار السلطة:** حين تكررت انقلابات الأتراك وخروج جلال الدولة كما سبق ذكره.

جـ- **اعتراضا على قرار للخليفة:** مثل تعيينه خطيبا سنيا لجامع براثا (معقل الشيعة) وعزل الخطيب الشيعي الذي يغالي في علي ومدحه حتى لينسب له صفات إلهية.

د- وقد يكون السبب أيضا تافها لكنه كالشرارة التي تُشعل مخزون العداء حتى ينفجر.

وتكون الأطراف المشتبكة عموما هم:

الشيعة/ السنة، وقد ينضم الجند الأتراك إلى السنة كما ينضم الأجناد البويهيون إلى الشيعة، فيأخذ الأمر عمقا عرقيا وسياسيا آخر، وفي ظل المسرح المضطرب تعمل جماعات العيارين في الطرفين بما أمكنها من الفساد والإفساد.

وقد يبلغ الأمر حدَّ أن نجد قائد الشرطة نفسه، في وقت من الأوقات، واسمه أبو محمد ابن النسوي، يعمل كزعيم عصابة، فهو يتتبع التجار الغرباء أو حتى غير الغرباء فيهاجمهم في أماكن بعينها ثم يقتلهم ويستحوذ على أموالهم[1].

والمشهد العام في هذه الفتنة هي وقوع القتلى والجرحى، وإحراق المساكن والأملاك، وسلب الأموال والثياب وتدمير كل ما يمكن تدميره لإغاظة الخصم وتعظيم خسارته، غير أنه يمكن رصد بعض مشاهد من بعض الفتن للدلالة على فداحة ما وصل إليه الوضع في بغداد.

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٠٥.



- قُتِل صاحب المعونة[1] (وزير الداخلية) وضُرِب الوزير (رئيس الوزراء) في فتنة (ربيع الأول ٤٢٢هـ).
- اقتحم بعض من أهل الفتنة بيت قاضي واسط أبي الطيب بن كمارويه وضربوه حتى مات من الضرب في فتنة (ذي الحجة ٤٢٢هـ).
- اضطر بعض أهل البوادي في مجاعة (رجب ٤٢٣هـ) والتي عمت كثيرا من أنحاء العراق إلى أكل المواشي كالبغال والحمير بل زاد الحال إلى قتل الأطفال وأكلهم.
- فرض رئيس العيارين ضريبة على كل عابر من وإلى بغداد، ووصل الحال إلى أن كان يهجم على الدار فيأخذ كل ما فيها ثم يحرقها ولا يتعرض له أحد من الشرطة أو الجيش (٤٢٣هـ).
- اغتال العيارون قائد الشرطة (٤٢٤هـ)، ووصل الحال إلى أن شددت دار الخلافة من حراستها، وحراسة المكلفين بحماية أبواب بغداد وسورها! وصار البرجمي زعيم العيارين مُهابا حتى لا يجرؤ أحد أن يذكر اسمه إلا بالقول «القائد أبو علي».
- عندما هرب جلال الدولة (٤٢٤هـ) في أحد نزاعاته مع الأتراك منع أنصار البرجمي –زعيم العيارين– خطيب جامع الرصافة من الخطبة إلا أن يقيمها للبرجمي، فيكون هو صاحب السلطان في بغداد مكان الملك البويهي.
- اعتقل أحد قادة الجيش من الأتراك أربعة من العيارين، فاستطاع العيارون اعتقال أربعة من تابعيه ثم أتوا بهم أمام بيته وناداه: «قد أخذت من أصحابك أربعة، فإن أطْلَقْتَ من عندك أطلَقْتُ أنا مَنْ عندي وإلا قتلتهم وأحرقت دارك» فأطلقهم (٤٢٤هـ)، واجتاح الخوف بعض القادة العسكريين فكان يهدي إلى البرجمي ليحصل على حمايته!!!

---

(١) أحيانا يكون «صاحب المعونة» هو رئيس الشرطة (وزير الداخلية) وأحيانا تُطلق على حي من الأحياء فيقال صاحب معونة حي كذا، فهو أقرب بهذا التعبير إلى أن يكون (مدير الأمن).. هذا ما استخلصته من البحث عن معنى هذا المصطلح، ثم وقع في يدي مقال للدكتور عبد العزيز الدوري بعنوان «بغداد في القرن الثالث الهجري» وهو رأس في تاريخ العباسيين فوجدته يقول: «وهناك صاحب معونة، واحد أو أكثر في بغداد، على صلة بالشرطة، وله خلفية فقهية، يُساعد في تنفيذ أحكام القضاة، وإقامة الأحكام، وأخذ الغرامات، وبعض الرسوم» (منشور بكتابه: أوراق في التاريخ والحضارة ٣/ ٣٧٠)، وبهذا يضاف معنى جديد وهو «رئيس قطاع تنفيذ الأحكام القضائية».

- وبلغ من نفوذ وقوة البرجمي أن صار يأخذ مبلغا من الضرائب التي يجمعها الموظفون (٤٢٥هـ).
- ووصلت قوة البرجمي ونفوذه أن صار سفيرا، يصل إلى الأمراء ويتوسط إليهم في إطلاق أصحابه، وفي (٤٢٥هـ) ذهب إلى قرواش أمير الموصل ليفرج عن واليه على عكبرا إذ كان صديقه وكان قرواش قد غضب عليه وحبسه، فقبض قرواش على البرجمي وقتله إغراقا (١٥ رمضان ٤٢٥هـ)!
- لم تفلح محاولة السلطة أن تجعل تنظيم العيارين يتولى ما تتولاه الشرطة مقابل ما تأخذه الشرطة من الأموال (٤٢٥هـ) فعادوا إلى الإفساد والتخريب مرة أخرى.
- ظهر قطاع الطرق والمرتزقة من الأعراب في أطراف بغداد وبلغ بهم الأمر بعد سلب الأموال وغيرها أن يسلبوا ثياب النساء في المقابر (٤٢٦هـ).
- صار العيارون يهاجمون منازل الأجناد والقادة في الجيش (٤٢٦هـ) حتى إنهم ليغتصبون البيوت نهارا، فيجلسون فيها كأنها ديارهم!! ولم يعودوا يتحرجون من شرب الخمر وارتكاب الفجور حتى في نهار رمضان!
- نهب العيارون (٤٢٧هـ) دار أحد كبار القادة الأتراك، وأحرقوا دار صاحب المعونة السابق في حي الكرخ (مدير الأمن).
- اقتحم العيارون (٤٢٨هـ) السجن وأخرجوا من كان فيه وقتلوا سبعة عشر رجلا من الشرطة.

هذه بعض مشاهد من بعض الفتن، فلا هي كل المشاهد، ولا حتى مشهد من كل فتنة، فإذا كان قد نزل السلب والنهب والتهديد بأكابر القادة العسكريين، وزادت الحراسة على دار الخلافة ذاتها، فكيف بحال العامة والضعفاء من الناس؟!!!

على هذا الحال حكم جلال الدولة بغداد..

ترى كيف فكر في أن يسمي نفسه «ملك الملوك.. شاهنشاه الأعظم»؟! كيف خيل له عقله أن يتمسك بلقب هو أبعد ما يكون عن القيام بمثقال ذرة من معناه؟! يا ويل ضعيف العقل من حساب التاريخ!

وعلى هذا الحال مات جلال الدولة..

ترى كيف كان حسابه عند الله عن آلاف الدماء والأموال والأعراض؟ عن التهديد والترويع والاقتحام؟ يا ويل أصحاب السلطان! يا ويلهم من حساب الله!

عهد أبي كاليجار

راسل الأجناد الملك العزيز بن جلال الدولة الموجود في واسط ليأتي خليفة لأبيه في الحكم واشترطوا عليه «رَسْم البيعة»(١) وعدم تأخيرها، ولما كان هو الآخر من المعسرين ماليا فقد تم بينهم الاختلاف والتنازع حول رسم البيعة ووقت أدائه وإمكانية أن يدفع جزءا ويؤخر الباقي.. وهكذا! فالتقط أبو كاليجار هذه الفرصة وراسل القادة والأجناد ووعدهم بالأموال الكثيرة وبما يشاؤون منها، فتم الاتفاق وبايعوا لأبي كاليجار (٤٣٥هـ)(٢).

فَكَّر الملك العزيز في مواجهة أبي كاليجار وحربه حين تقدم إلى بغداد، لكن جنوده كانوا أول من خذلوه وانضموا لابن عمه أبي كاليجار، فلم يجد هو إلا الهروب من الجميع، فظل يتنقل هاربا بين أمراء الأطراف: نور الدولة بن دبيس أمير بني مزيد ثم قرواش بن المقلد أمير الموصل ثم أبي الشوك أمير دينور –وهو صهره– فألزمه هذا الأخير بطلاق ابنته، فكلهم خذلوه، ثم لجأ إلى السلاجقة –وهم الآن على أبواب العراق– ثم إلى نصر الدولة بن مروان في ميافارقين.. وهناك مات، أو لعله قُتِل (٤٤١هـ)، بعد ست سنوات من الهروب واللجوء والفشل(٣).

ودخل أبو كاليجار بغداد (رمضان ٤٣٦هـ) بعد أن أنفق أموالا كثيرة على الأتراك وأولادهم وقادتهم الثلاثة الكبار: البساسيري والنشاوري وأبو اللقاء، وأرسل للخلافة عشرة آلاف دينار مع هدايا نفيسة، وزُيِّنت له بغداد زينة فاخرة، ونلاحظ أن الخليفة لم يخرج بنفسه لاستقباله بل أوفد نائبا عنه، ولكنه أعطاه اللقب الملكي «محيي الدولة»، وكانت بداية الخطبة له قبلها بسبعة أشهر (رجب ٤٣٦هـ)، واعترف به أمراء الأطراف الذين يتمتعون باستقلال فعلي وتبعية اسمية، وكان أبو كاليجار حريصا على دخول بغداد في قوة قليلة

---

(١) وهي الأموال التي ستفرق على الجنود احتفالا بتنصيبه كما هو الحال عند وفاة الملك البويهي.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٦٢، ٢٦٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٦٣.

ليطمئن له الأتراك، وأول ما حرص عليه أن تُضرب الطبول له خمس مرات مساواة بالخليفة(1).

وما كاد أبو كاليجار يستقر أمره في بغداد حتى كان السلاجقة يجتاحون ما بقي من فارس -همذان والدينور وحلوان- ويهزمون الأمراء المستقلين في هذه الأنحاء (٤٣٧هـ)، فصاروا على حدود أملاكه في العراق وفارس، وقد كانت لهم فيما سبق اشتباكات في كرمان انتهت بنصر أبي كاليجار، ولكن السلاجقة ما زالوا الأقوى والأقدر والأكثر، وفيهم عنفوان الدولة وهي في شبابها، بينما كان البويهيون يستعدون للغروب، فدولتهم في الري قد سقطت، ودولتهم في العراق مضطربة متفككة، وأحسن دولهم حالا ما بقي تحت حكم أبي كاليجار في فارس، على أن هذا لم يدم أيضا إذ نزل وباء عام في بغداد تلك السنة (٤٣٧هـ) على الخيول حتى مات منها اثنا عشر ألفا، فكانت ضربة قاصمة للإمكانات الحربية لدى أبي كاليجار، واضطروا لاستخدام الحمير في التنقل وحمل الأمتعة إلى فارس -إذ كان أبو كاليجار موجودا وقتها بإقليم خوزستان- وبدا وكأنها نذير مواجهة(2).

لكن انشغال طغرلبك -زعيم السلاجقة- بإصلاح أحوال ما يسيطر عليه من البلاد، وخطته في التقدم نحو الشمال، وما بقي من قوة لدى أبي كاليجار الذي صار الآن يحكم فارس والعراق، كل ذلك جعل الأمر بينهما ينتهي بالمعاهدة والصلح أن لا يعتدي منهما أحد على بلاد الآخر، وتوجت الاتفاقية بزواج طغرلبك بابنة أبي كاليجار، وزواج أبي منصور فولادستون(3) بن كاليجار بابنة أخي طغرلبك (ربيع الآخر ٤٣٩هـ)، وكانت تلك فرصة جيدة ليستولي أبو كاليجار على البطائح في جنوب العراق، وهي الجزء الذي لم يدخل بعد في سلطته، ونجح في هذا(4).

وما أعجب أقدار الدنيا!!

إذ ما إن بدا وكأن الملك البويهي قد استراح من أهم خصومه جميعا حتى جاءته وفاته بعد

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٩٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٦٧، ٢٦٨.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٠٢، ٣٠٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٧٠ وما بعدها.
(٣) معنى فولادستون: العمود الفولاذي، انظر: عباس اشتياني: تاريخ إيران ص٨٣ (الحاشية).
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٧٦.

شهور (جمادى الأولى ٤٤٠هـ) وهو في كرمان وكان ينوي إخضاع أحد ولاته وقد بدت منه بوادر استقلال، وكان حينها في الأربعين من عمره[١]، وبالعموم فقد كان أبو كاليجار «شجاعا فاتكا مشغولا بالشرب واللهو»[٢].

ولم يخل عهد أبي كاليجار من الفتن، ولكنها كانت أفضل حالا بكثير من أيام جلال الدولة، فثمة فتنة بين الشيعة والسنة ثم تطورت لتكون بين المسلمين واليهود فنُهِبَت فيها بيوت اليهود وأحرقت الكنيسة العتيقة للنصارى (شوال ٤٣٧هـ) ولعل تطورها نحو النصارى كان رد فعل لما حدث في واسط؛ إذ توفي واحد من كبار النصارى فاستطاعوا التواصل مع بعض الجنود الأتراك ليجعلوا عزاءه على باب المسجد، فاستفز هذا الفعل المسلمين في واسط فهاجموا الجنازة بما عجز الجنود الأتراك عن حمايتها وأخذوا الميت فاستخرجوه وأحرقوه ونثروا رماده في نهر دجلة[٣]، وثمة فتنة أخرى بين الشيعة والسنة (٤٣٩هـ) واشتدت حتى انسحبت الشرطة التي لم تستطع السيطرة عليها، وقتل فيها كثيرون[٤].

كما استمرت مأساة الحج، فلم يعد يحج أحد من العراق وما وراءها من بلاد المشرق، لوجود قطاع الطرق من الأعراب وضعف السلطة عن تولي أمر الحج وحماية الحجاج.

عهد أبي نصر بن أبي كاليجار

وهو آخر البويهيين.. وعليه غربت شمس الدولة البويهية!

وفي عهده ثلاث ملامح مهمة هي: ضعف السلطة حتى انهارت، وعودة الفتن واشتدادها، وظهور الرجل الخطير: أبي الحارث البساسيري! وهو الذي ستجري على يديه واحدة من أخطر الفتن في التاريخ العباسي!

١) آخر أيام البويهيين

حين توفي أبو كاليجار في كرمان، حدثت الفوضى المعتادة من الجنود الأتراك في النهب

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣١٣، ٣١٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ٤٦.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٠٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٧٢.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٠٨.

وما إلى ذلك، لكن الأمر لم يستفحل كما هو الحال في بغداد لوجود الجنود الديالمة وهم عماد الدولة البويهية في فارس، فانتهى الأمر بسرعة. وكان لأبي كاليجار تسعة أبناء، ثلاثة منهم صغار لا يصلحون للمنافسة على الملك، والستة الكبار لم يبرز فيهم إلا اثنان: ابنه أبو منصور الذي كان يرافق أباه وهو الآن في شيراز، وابنه أبو نصر الذي ما زال في بغداد، وكان أبو نصر في بغداد أسرع إلى الخليفة وإلى جند بغداد من أبي منصور فاستطاع كسب ولائهم ومراسلة الخليفة في توليته بعد أبيه، ومن الناحية الأخرى كان أبو منصور أقرب إلى شيراز –عاصمة البويهيين في فارس– فاستولى عليها، فكانت بداية انقسام آخر بين البويهيين في فارس والبويهيين في العراق من بعد ما توحدا قبل أربع سنوات فقط على يد أبي كاليجار[١].

استقر أمر أبي نصر في العراق والبصرة والأهواز، واستطاع أن يكسب ود إخوته، وأرسل جيشا بقيادة أخيه أبي سعد لإنهاء هذا الانقسام في شيراز، واستطاع أبو سعد أن يهزم أخاه أبا منصور ويأسره (شوال ٤٤٠هـ)، ثم خرج أبو نصر بنفسه إلى الأهواز فبايعه الجنود هناك، واستطاع إنهاء أمل الملك العزيز بن جلال الدولة الذي كان لاجئا لدى السلاجقة وظن أنه قد يسترجع ملك أبيه فحاول الاستيلاء على البصرة لكنه هُزِم فكان هذا فشله الأخير ثم لجأ لجوءه الأخير في ميافارقين عند الأمير نصر الدولة بن مروان ليموت هناك بعد ذلك بقليل (٤٤١هـ)[٢].

ومن ينظر إلى المشهد في هذه اللحظة قد يتخيل أن أبا نصر قد نجح في إعادة الوحدة بين العراق والشام بعد تهددها، لكن الحقيقة كانت غير ذلك، لقد كانت الوحدة هشة، وتنتظر أي شرارة لتنهيها.. تلك الشرارة لم تتأخر.

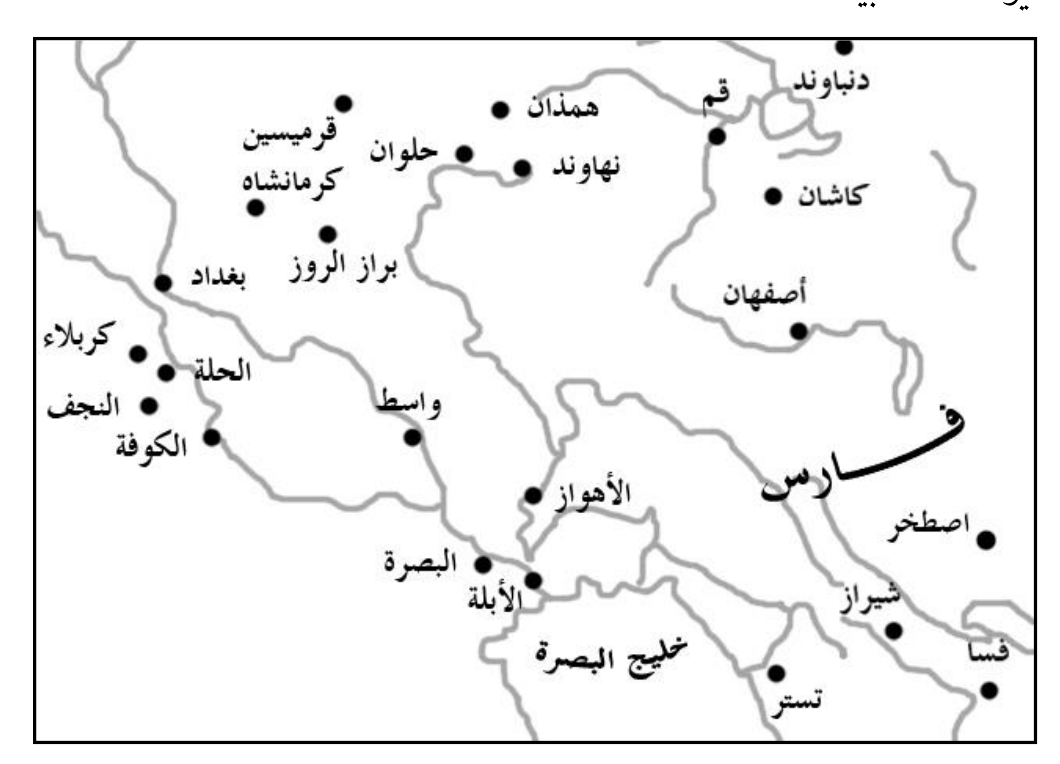
اشتعل نزاع بين الأتراك في جيش بغداد –التابع لأبي نصر– والأتراك في شيراز –الذين كانوا من أتباع أبيه أبي كاليجار– وكانت اليد العليا لأتراك بغداد كما أن أبا نصر «لم يكن يثق بالأتراك الشيرازيين ولا بالديلم»[٣]، وأما الديالمة الذين يمثلون قسما قويا في جيش فارس فقد بدأوا يميلون إلى أبي منصور، فلم يجد أبو نصر إلا أن يتبع أتراك بغداد ويعود معهم عن فارس إلى الأهواز (ربيع الأول ٤٤١هـ) بعد أن ترك أخويه أبا سعد وأبا طالب ولاة على

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣١٣، ٣١٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨٣، ٢٨٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨٤.
(٣) د. حسن منيمنة: تاريخ الدولة البويهية ص١٥٩.



أرجان، ثم لم يكن عسيرا أن نتوقع ما حدث: لقد استطاع أبو منصور التخلص من أسره في اصطخر وانضم له الديالمة والأتراك في شيراز فصار قويا بل هو فعليا خليفة أبيه بما انضم إليه من الأجناد، فاستولى على فارس ثم بدأ في التقدم نحو الأهواز، والتقت جيوشه مع جيش أبي نصر، وتعرض أبو نصر للغدر من بعض عساكره فلقي هزيمة حاسمة اضطر بعدها أن ينسحب إلى واسط في العراق، واستولى أبو منصور على الأهواز (ذي القعدة ٤٤١هـ)[١].

إلا أن جيش فارس التابع لأبي منصور اختلفوا وانقسموا فيما بينهم واشتعلت بينهم نزاعات وصراعات (المحرم ٤٤٢هـ)، فقسم منهم ترك الأهواز عائدا إلى فارس، وقسم انحاز إلى أبي نصر –المهزوم– وقسم قليل بقي في الأهواز، فأعطى هذا فرصة جديدة وغير متوقعة لأبي نصر أن يعود ليستولي على الأهواز، لا سيما وكثير من الجنود انحازوا إليه ومن بقي في فارس راسله بالطاعة والولاء، فعاد إلى الأهواز واستولى عليها (ربيع الآخر ٤٤٢هـ) وهناك أخبره الأجناد أنهم استطاعوا أيضا كسب ولاء الجيش في فارس، وحرضوه على الاستيلاء عليها، فأرسل إلى العراق ليحضر المزيد من جنوده، وفي خياله ضم فارس إلى حكمه، ليرث ملك أبيه[٢].



(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨٨ وما بعدها.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٩٤.

لكن حلمه انتقض في جهة أخرى، فلقد قام الخوارج في عمان بثورة ناجحة (٤٤٢هـ) على أخيه أبي المظفر بن أبي كاليجار لِما نزل بهم من سوء الحكم البويهي حتى قتلوا رجال الحكم وأسروا أتباعهم من الديلم، بل وأسروا أبا المظفر نفسه وخربوا دار الإمارة[1].

على أن أبا نصر لم يكن بالذي يفكر في أخيه أبي المظفر والخوارج في عمان وهو مشغول بحرب أخيه أبي منصور وحكم فارس، وكان المشهد في فارس يجري كالآتي:

أبو نصر يتخذ معسكره في بلدة «عسكر مكرم»، ويرسل جيوشه للاستيلاء على الأنحاء في فارس، وقد استطاعت هذه الجيوش تحقيق انتصارات مهمة، فاستولت على تستر (ربيع الأول ٤٤٣هـ) وبعض الأنحاء الأخرى، ثم شيراز –وهي حاضرة البويهيين في فارس– (رمضان ٤٤٣هـ).. لكن ما جرى بعد ذلك قلب الوضع..

لقد لجأ أبو منصور وحلفاؤه إلى السلاجقة، وقد كانوا في هذا الوقت قد استولوا على شمال الهضبة الإيرانية ومناطق شمال العراق بل والتقوا مع الروم في أكثر من موقعة وانتصروا انتصارات باهرة، فأعلنوا الولاء والطاعة للسلطان طغرلبك واستمدوه بجيش، وكان من مصلحة هذا الأخير قطعا استنزاف الطرفين، فأرسل معهم قطعة من جيشه صاروا بها ذوي قوة..

وفي ذات هذه الأثناء انسحب كثير من جنود أبي نصر وحلفائه، فاضطر أن يعود إلى الأهواز –الأكثر تحصينا من «عسكر مكرم»– ولينتظر المدد من جنوده الذين أرسل إليهم في بغداد، وهو لكي يشغل أعداءه عما نزل به من ضعف أرسل قوة من جيشه الرئيسي مع أخيه أبي سعد للاستيلاء على اصطخر لكي يشغل أخاه أبا منصور بمناوشة هذا الجيش والاشتباك معه، لكن أبا منصور لم يفعل، بل انطلق مباشرة إلى الأهواز بجيشه الذي صار أقوى، وهناك أوقع هزيمة فادحة بأبي نصر، استولى بها على الأهواز، وهرب أبو نصر منسحبا إلى واسط بصعوبة ومشقة بعد أن فقد خيرة رجاله في هذه المعركة..

لكن جزءا من خطة أبي نصر كانت قد نجحت، فقد استولى أخوه أبو سعد بالفعل على شيراز (رمضان ٤٤٣هـ) وصار يحكمها بالقوة التي معه من الجيش، وهذا ما اضطر أبا

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٩٥.

منصور أن يعود من الأهواز –وقد ترك عليها أحد رجاله واسمه كرشايف– إلى شيراز لاستعادة عاصمته، لكن أبا سعد استطاع أن يهزمهم في عدة معارك ويظل محتفظا بشيراز وأنحائها، وتشتت أمر أبي منصور، وانحاز كثير من جنوده إلى أبي سعد..

ثم لم يلبث أن توفي كرشايف في الأهواز، وبوفاته وانهيار جبهة أبي منصور، عادت الأهواز مرة أخرى إلى أبي نصر –المهزوم في العراق، والمنتصر على يد أخيه في فارس– فخُطِب له فيها وأعلن جنودها الولاء له من جديد[١].

ويبدو أن السلاجقة في تلك الفترة لم يوجهوا اهتماما كبيرا للسيطرة على فارس، إذ بات همهم الأول احتلال العراق[٢].

وهكذا تمهدت الأمور في الأهواز وفارس لأبي نصر..

ولهذا التفت بعد ذلك للبصرة حيث يحكمها أخوه أبو علي، ويبدو أنه تمرد عليه واستقل بها، فأرسل أبو نصر جيشا إليها فيه وزيره وبقيادة أبي الحارث البساسيري قائد الجيش، واستطاعوا تحقيق النصر على أبي علي وأخرجوه من البصرة (٤٤٤هـ)، وسار إليها أبو نصر بنفسه حتى ينظر أحوالها، وعزل التابعين لأخيه وأقام مكانهم أتباعه، وهرب أخوه أبو علي فلجأ إلى ملك السلاجقة طغرلبك فاستقبله وأكرمه، وأما أبو نصر فقد سَلَّم البصرة للبساسيري، وانطلق هو إلى الأهواز التي كانت قد خطبت له ودخلت في حكمه، وهناك راسله حلفاء أخيه أبي منصور فدخلوا في طاعته وصالحوه[٣].

واصلت الأنحاء استسلامها لأبي نصر، فقد دخل القائد العسكري فولاذ بن خسرو الديلمي –حاكم أرجان– في طاعة أبي نصر (جمادى الأولى ٤٤٥هـ)، واستولى باسمه على عدد من الأنحاء، غير أن الأمور اختلت في شيراز نفسها، إذ كره الأجناد وبعض أمراء نواحيها سيرة ظهير الدين –أقوى رجال حاشية الأمير البويهي أبي سعد– فاجتمعوا ودبروا على طرد أبي سعد، وإعادة الخطبة لأبي منصور بن أبي كاليجار، وقد نجحوا في هذا، وعاد أبو منصور إلى شيراز بغير جهد.. ولكنه اتخذ قرارا خطيرا؛ إذ خطب لملك السلاجقة طغرلبك،

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٣١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٩٩ وما بعدها.
(٢) د. حسن منيمنة: تاريخ الدولة البويهية ص١٥٩.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٠٨، ٣٠٩.

ثم لأخيه أبي نصر ثم لنفسه، وهذا معناه أن شيراز صارت من أملاك السلاجقة، وأن البويهيين يحكمونها باسمهم[١].

ونقف بالمشهد السياسي هاهنا، لنلقي نظرة على عودة الفتن والاضطرابات إلى بغداد، ثم إلى ظهور الرجل الخطير: أبي الحارث البساسيري، ثم نعود بعد ذلك لنرى كيف كان الحال في آخر عامين من عمر الدولة البويهية!

٢) عودة عصر الفتن

بدأ عصر الفتن بمجرد خروج أبي نصر من بغداد إلى الأهواز ليُحكم قبضته عليها، إذ اشتعلت فتنة بين السنة والشيعة (٤٤٠هـ)[٢]، فلما هدأت طُلِب من الشيعة ألا يقيموا مأتمهم في يوم عاشوراء فهو شرارة الفتن فوعدوا بذلك ثم أخلفوا فأقاموا المأتم واشتعلت به الفتن (٤٤١هـ)، وظلت الفتن في ذلك العام مشتعلة لا تلبث أن تهدأ حتى تشتعل، هدأت أول مرة لما نزلت فرقة من الجيش من الأتراك في أهل الكرخ فتوقفوا، ثم مرة أخرى حين طُلِب من صاحب الشرطة السابق أبو محمد النسوي -وكان جبارا- أن يتولى الأمر، لكنها تشتعل مرة أخرى، حتى هاجر كثيرون من الجانب الغربي من بغداد إلى الجانب الشرقي، وبدأ أهل الكرخ في عمل سور على منطقتهم، فبدأ أهل السنة في عمل سور أيضا عند منطقة سوق القلائين، وصار الفريقان يتفاخران في البناء، وينقضان كل ما يستطيعان من الأبنية ليستعملوا حجارتها في بناء هذه الأسوار والأبواب، ويقسمون نفقات البناء على البيوت، ثم يتنافسون في الأشعار: هؤلاء في مدح الصحابة وهؤلاء في سبهم، وبين كل هذا تعطلت الأسواق والمعايش واشتعلت الحرائق والمعارك، وكان عاما عصيبا للغاية (٤٤١هـ)[٣].

ثم يسجل المؤرخون حدثا عجيبا في العام التالي (٤٤٢هـ) إذ تصالح الشيعة والسنة واتفقوا على مواجهة جبار الشرطة أبي محمد بن النسوي، بل اتفقوا على سحب الذرائع لمهمته أصلا، فخرجوا جميعا فزاروا مشهد الحسين ومشهد علي -كما تفعل الشيعة- كما أعلن أهل

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣١٢، ٣١٣.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣١٣، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨٥.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣١٩ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٩٢، وابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٧٤.

الكرخ الشيعة الترضي على الصحابة أجمعين، واختلطوا وتصالحوا وساروا في موكب يعلن الولاء للخلافة -تبرؤًا من أي اتهام بموالاة العبيديين الفاطميين- وسار الموكب في أحياء الشيعة وأهل السنة ونُثِرت عليه الدراهم في هذه الأحياء جميعا[(١)]!

ولا شك أن هذا المشهد خارج السياق تماما ومثير لكل عجب ودهشة، لا سيما وليس بين أيدينا معلومات كافية عن كيف تم هذا ولا من سعى في ترتيبه وحث الناس عليه ورعايته حتى نجح!

وعلى كل حال، فكونه غريبا وخارج السياق جعله ليس أكثر من شذوذ، فعادت الأمور بعدها إلى أقسى مما كانت عليه!

بدأ النقض من الكرخ، إذ استكمل الشيعة بناء الأسوار والباب، ثم إذا بأبراج الباب تحمل شعارًا مكتوبا بالذهب: «محمد وعلي خير البشر» وسرى بين أهل السنة أن المكتوب هو «محمد وعلي خير البشر، فمن رضي فقد شكر، ومن أبى فقد كفر»، وكان هذا كفيلا بإشعال بغداد (صفر ٤٤٣هـ) ولم يعد ممكنا إيقاف الفتنة بمسح ما كُتِب إذ استدعى الجميع مخزونه التاريخي المتراكم ووقع بينهم القتل والإحراق والنهب، واستمر الأمر أكثر من شهرين، وكان من العنف بحيث عجز أبو محمد بن النسوي عن فعل شيء، وظهر في أهل السنة عَيَّار تخصص في قتل الشيعة، وكان من الشراسة والقوة والمكر بحيث أثخن فيهم وقتل منهم كثيرا، ونُهبت قبور الأئمة والمشاهير من الجانبين، ولم تفلح محاولات التهدئة، وتجددت المعارك مرة أخرى في نهاية هذا العام، وفيه هاجم العيارون أبا محمد بن النسوي -جبار الشرطة- نفسه فأصيب (٢٠ ذي الحجة ٤٤٣هـ)[(٢)].

ولم يتغير الأمر كثيرا في العام التالي (٤٤٤هـ) بل زاد سوءا بانهيار السلطة واختفائها وصار العيارون هم الذين يجمعون الضرائب والأموال، وهم الحكام على الحقيقة[(٣)]، ثم عاد أبو محمد بن النسوي (٤٤٥هـ) فاتخذ معسكره ومعه من استطاع تهيئته من القوات في موضع الفتن، فأخذ في الضرب والقتل وهدم ما كتب عليه «محمد وعلي خير البشر»، كما دخل بعض

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٢٥، ٣٢٦، وابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٧٧.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٢٩ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٠٨ وما بعدها.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٣٥، ٣٣٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣١٢.

الأتراك من الجيش على خط الصراع وجرى بينهم وبين أهل الكرخ اشتباك كبير أحرقت فيه أجزاء من الكرخ، ثم هدأت الفتن بعد مصالحات واستنكار من الخليفة لبعض ما جرى على يد الأتراك وبذل التعويض عنه(١).

ولم تكن هذه هي آخر الفتن بطبيعة الحال.. لكننا نتوقف هنا لنتابع ظهور الرجل الذي سيكتب فصلا خطيرا في تاريخ الخلافة العباسية أواخر أيام البويهيين!

٣) ظهور البساسيري

أول ما ظهر اسم البساسيري كان في عهد جلال الدولة البويهي، ذلك أنه كان أحد الأجناد الأتراك الذين تولوا بعض المهمات لا سيما في الفتن، لكنه لم يعد كونه واحدا من الأجناد الأتراك وإن كان متميزا..

ثم لمع نجمه في عهد أبي نصر بن أبي كاليجار، لا سيما وهذا الأخير كان يواجه العديد من التمردات من إخوته في جنوب العراق «البصرة» وفي فارس والخوارج في عمان، بالإضافة إلى الفتن المشتعلة في بغداد ذاتها، هذا إلى جانب اضطرابات الأمراء المستقلين في أطراف العراق كقرواش في الشمال وبني مزيد وبني أسد وبني خفاجة وغيرهم.

ولم يعد البساسيري مجرد قائد تركي، بل صار القائد والمقدم على الجيش التركي، وكان من القوة والمهابة والذكاء بحيث لم يكن له منافس.. وقريبا سنرى أنه بلغ من النفوذ ما لم يكن لا للملك البويهي ولا حتى للخليفة.

كان أول ظهور قوي للبساسيري في عام (٤٤١هـ)، فحينذاك حقق نجاحيْن قوييْن:

الأول: انتصاره على بني عقيل -حُكَّام الموصل- إذ هاجموا بعض البلاد في شمال العراق وكانت تابعة لأملاك البساسيري، فما إن عاد من فارس -إذ كان مرافقا لأبي نصر- حتى خرج بقوات الجيش ووقعت بين الطرفين معركة شديدة تزعم بني عقيل فيها أبو كامل بن المقلد -أخو قرواش بن المقلد زعيم الموصل- وكانت هذه المعركة بحد ذاتها تطورا في الموقف بين بغداد الضعيفة وحكام الموصل الأقوياء، ولهذا كان البساسيري هو ملجأ المتظلمين من حكم بني عقيل في الأنبار، فأرسل جيشا استطاع بتسهيلات أهل الأنبار أن ينتزعها من حكم

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٤٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٩٢.

بني عقيل في سابقة تمثل انقلاب الموازيين بين بغداد والموصل، وسار البساسيري بنفسه إلى الأنبار فأقام فيها العدل وأصلح أحوالها وأقر أمورها.

الثاني: إنهاؤه حكم سعدي بن أبي الشوك الذي تحصن في بلدة «الدزدار» على طريق خراسان، فحطم قلعته التي يتحصن بها وأخذ كل غنائمه وتخلص من إزعاجه (شعبان ٤٤١هـ)[١].

واتسع نفوذ البساسيري حتى أمسى مركز قوة في العراق، لجأ إليه الأجناد الأتراك في واسط في صراعهم مع نور الدولة دبيس بن مزيد (٤٤١هـ) ، بينما سعى نور الدولة في مد الجسور مع البساسيري حتى لقد زوج ابنه من بنت البساسيري (٤٤٤هـ)[٢].

وتصدى البساسيري لعصابات من الأعراب نهبت وعاثت فسادا عند البوازيج[٣] (شوال ٤٤٥هـ) وطاردهم واضطرهم إلى الهرب وعبور النهر، ولولا زيادة النهر آنذاك لقبض عليهم، وكان هذا أيضا تطورا جديدا طرأ على السلطة الضعيفة في بغداد[٤].

وصار البساسيري أقوى رجال الدولة حتى قال الخطيب البغدادي: «لم يكن الخليفة القائم بأمر الله يقطع أمرا دونه ولا يحل ويعقد إلا عن رأيه»[٥].

لكن أخطر ما سيفعله البساسيري.. سيأتي في الأعوام المقبلة!

٤) الخليفة على هامش الحياة

ظل الخليفة القائم بأمر الله على هامش الحياة، ليس له سلطان فعلي مهم، اللهم إلا التولية والعزل، ومحاولات إنهاء الفتن وهي عادة لا تنجح، لكنه ما زال يمثل الشرعية الوحيدة في كل المشرق الإسلامي الذي لا يعرف ولا يدين سوى للخلافة والخليفة العباسي..

كان طغرلبك –ملك السلاجقة– يواصل انتصاراته واجتياحاته لبلاد المشرق ولا يتلفع إلا بهذا الولاء للخليفة، فكان حريصا على إعلان الطاعة، ولا ريب أن الخليفة رأى فيه

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨٩، ٣١١.
(٣) البوازيج: بلدة قريبة من تكريت، عند نهر دجلة، إلى الشمال الغربي من بغداد.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣١٤.
(٥) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٩/ ٤٠٠.

بصيص أمل لمنافسة البويهيين الذين صاروا من اضطراب الأحوال بمنزل أزرى بالخلافة والخليفة نفسه، لذلك أنعم الخليفة على طغرلبك بالشرعية والألقاب الملكية، ثم تلقى رسالة شكر (رمضان ٤٤٣هـ) من طغرلبك مع عشرة آلاف دينار وهدايا نفيسة بخلاف الأموال والهدايا لرجال الخلافة، واستقبلت بغداد رسل السلاجقة بكل الحفاوة، وفي تلك الأثناء كان طغرلبك في أقوى حالاته لا سيما بعد أن وقعت في يده الذخائر والنفائس والأموال الدفينة من عهد الدولة البويهية التي غربت وكانت عاصمتها الري(١).

ودفاعا عن هذه الشرعية التي لا يملك الخليفة غيرها، فقد أعاد مرة أخرى كتابة وثيقة ضمنت -مثلما كُتِب في عهد أبيه القادر بالله- أن الخلفاء المصريين العبديين (الفاطميين) إنما هم كاذبون في نسبهم إلى البيت النبوي (٤٤٤هـ)، وأرسل نسخا إلى سائر البلاد(٢).

غروب الدولة البويهية

سرى التذمر بين الجند الأتراك (المحرم ٤٤٦هـ) عندما تأخرت رواتبهم مستنكرين سلوك الوزير البويهي الذي سارع بالاحتماء في دار الخلافة، فعزم الأتراك على حصار دار الخلافة لإخراج الوزير، فسرى في بغداد كلها شبح الفتنة والانفلات الأمني من جديد، وحاول البساسيري -قائد الأتراك الذي اشتعل هذا التمرد رغما عنه- إصلاح الأمر مع الخلافة ودخل دار الخلافة، لكن الوزير كان قد هرب منها ولم يُعثر له على أثر، فأعلن الأتراك في سائر العراق بأنه من وجد الوزير لديه قُتِل وأُخذت أمواله، ومن أرشد إلى مكانه كوفئ مكافأة جزيلة، وحينئذ بدأ اقتحام بيوت أتباعه ممن يُشَكّ أنه قد يكون مختبئا فيها، فأشعل هذا الفتنة واستدعى مقاومة هؤلاء وأهليهم للأتراك، ثم بدأ الأتراك في نهب القادمين إلى بغداد ومن طالته أيديهم فاتسع أمر المشكلات وصارت تتكاثر كل يوم، ومن جانبه سعى الخليفة في القبض على الوزير وأصحابه لتهدئة هذه الفتنة فلم يستطع، فراسل الأتراك بأن استمرار شغبهم هذا لم يعد محتملا، وأن الخلافة تسعى في طلب الوزير وأتباعه، ويهدد بالخروج من بغداد مع استمرار هذا التمرد، فأجابوه بأنهم على طاعته غير أنهم لم يكفوا عما يفعلون، ولم ينتهِ الأمر إلا حين ظهر الوزير فأدى إليهم ما استطاع من الأموال بعد أن باع أملاكه، وسُلِّم

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٠٣، وابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٧٩.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٣٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣١٠.

الوزير إلى البساسيري، وحينئذ سكن الأتراك[1].

لكنهم حين سكنوا كانت مشكلتهم تلك قد أشعلت مشاكل أخرى ما زالت تتفاعل..

لقد أطمعت هذه الفتن الأعراب والأكراد في نواحي العراق وأغرتهم بالاعتداء على نواحي العراق، فخرجت مجموعات منهم تابعة لرجل اسمه قريش بن بدران -من الموصل- فاعتدت على أملاك تابعة لكامل بن محمد بن المسيب وهو أحد رجال البساسيري ونهبوا ما هو من أملاك البساسيري نفسه، وكذلك هاجم بنو خفاجة بلدة الجامعين وأملاك نور الدولة دبيس، فاستغاث هذا الأخير بالبساسيري الذي سارع بإنجاده وأوقع ببني خفاجة هزيمة مخزية بعد أن فشلوا في الهروب منهم، فنهبهم وأسر عددا من رجالهم فأدخلهم بغداد في أسوأ حال ليفضحهم ويشهر بهم ثم قتلهم[2].

على أن البساسيري حين عاد إلى بغداد عرف أن الأخوين أبا الغنائم وأبا سعد ابني المحلبان في ضيافة الخليفة، وهما من رجال قريش بن بدران الذي اعتدى على أملاك البساسيري، فطلب أن يُسَلَّما إليه فلم يُقبل ذلك، فوقع النزاع والشقاق بينه وبين الخلافة، وحَمَّل البساسيري مسؤولية ذلك إلى رئيس الرؤساء في دار الخلافة واتهمه بأنه يمهد العراق لحكم السلاجقة ويراسلهم، وصار يمتنع عن الحضور إلى دار الخلافة بعد رجوعه من الحروب كما هي التقاليد، ثم تطور به الحال أن أخذ الضرائب ممن هم معفوون بأمر الخليفة أو رئيس الرؤساء، بل أخذ الضرائب مما استطاع من أموالهما كذلك، وبهذا تصاعد الخلاف ما بين البساسيري والخلافة[3].

هذا الخلاف الذي بدأ (رمضان ٤٤٦هـ) وصل ذروته (ذي الحجة ٤٤٦هـ) حيث استولى قريش بن بدران على الموصل والأنبار -وهذه الأخيرة تابعة للعراق وفيها ولاة للبساسيري- ثم أعلن الولاء للسلاجقة، فخرج البساسيري بجيشه إلى الأنبار وانحاز إليه حليفه نور الدولة دبيس بينما انحاز أعداؤه من بني خفاجة إلى قريش بن بدران، واستطاع البساسيري تحقيق النصر، وأوقع بهم هزيمة فادحة، وأسر من بني خفاجة مائة، ومن أهل

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٤٣، ٣٤٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣١٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣١٦، ٣١٧.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٤٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣١٧، ٣١٨.

الأنبار خمسمائة بعد أن أحرق ودمر ما كان يُعدُّ لقتاله من آلات الحرب، وكان من أهم ما تحقق أنه أسر أبا الغنائم بن الحلبان الذي كان قبل أسابيع ضيف الخلافة في بغداد، فعاد به مفضوحا مُقَيَّدًا، وصلب من معه من الأسرى، وكاد أن يقتل أبا الغنائم نفسه لولا أن راجعه في هذا حليفه نور الدولة دبيس ولعله لم يكن يريد تفجير العلاقة بين البساسيري والخلافة، لا سيما أن الخليفة أرسل إليه بعد عودته من الأنبار ليمثل في دار الخلافة للتهنئة والمكافأة فلم يستجب البساسيري ولم يذهب إلى دار الخلافة(١).

وإلى هنا نلاحظ عددا من الأمور أهمها:

* أن الملك البويهي تقريبا صار بلا وجود فالصراع محتدم بين البساسيري والخلافة.
* أن البساسيري يستطيع تسيير الجيش إلى الحروب دون أن يملك السلطان البويهي أو الخليفة منعه.
* أن البساسيري في هجومه الأخير على الأنبار إنما يصطدم بالقوة الهائلة التي تشرق شمسها، وهم السلاجقة، إذ كان قريش بن بدران قد دخل في ولائهم وخطب لهم، ومثل هذا مما لا يمضي دون نتائج
* أن الخليفة لا قوة فعلية له أمام البساسيري، كما أن البساسيري لا يمكنه مواجهة السلاجقة بإمكاناته وحدها، ولهذا لجأ طرفا النزاع إلى طرفي القوة: كان الخليفة أقرب إلى السلاجقة، وصار البساسيري أقرب إلى الفاطميين العبيديين في مصر، وهذه أول مرة يستطيع فيها العبيديون الوصول إلى هذه النقطة في العراق.. أرض الخلافة العباسية!

وفي ظل هذه الأجواء جاء العام الحاشد الحافل بالأحداث الكبرى.. (٤٤٧هـ)!

وقد انقسم هذا العام إلى ثلاثة مشاهد متشابكة: البساسيري، وطغرلبك، وأبي نصر البويهي.. ومن ورائهم جميعا مشهد الخلافة التي كانت حاضرة بقوة في أحداث هذا العام.

أولاً: البساسيري

لم يعد رئيس الرؤساء، وهو الرجل الأول في حاشية الخليفة، يطيق البساسيري، وكان

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٤٤، ٣٤٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣١٨.

الأخير يبادله ذات الشعور، ثم تبين للخلافة أن البساسيري يراسل العبيديين في مصر، وأنه يخطط لإنهاء الخلافة العباسية وحصار دار الخلافة ونهبها، وشهد على ذلك جماعة من القادة الأتراك المقربين منه، وأراد رئيس الرؤساء تحريض الخليفة على قتله، غير أن الخليفة لم ير الوقت مناسبا والأولى هو ترتيب الأمر لئلا تنهار الأمور في بغداد إذا قُتِل، إلا أن الخلافة سعت في إزالة هيبة البساسيري وتحجيمه من خلال:

* **إزالة هيبته:** فتم كسر مركب كان يحمل خمرا له، متخفيا تحت ملكية نصراني، فاشتد هذا عليه!

* **تحريض مخالفيه عليه:** فلقد اشتكى كثير من الأتراك إلى الخلافة منه وأنه لا يعطيهم حقوقهم، فأذن له رئيس الرؤساء في أخذ حقوقهم بأنفسهم، فانطلقوا يهاجمون دياره وينهبونها باسم تأخر أرزاقهم، ونكلوا بأتباعه وأهله وفعلوا باندفاعتهم هذه أكثر مما تريده الخلافة، وكان الأتراك يطمعون في ألا تستدعي الخلافة السلاجقة كي لا تذهب دولتهم ومكانتهم، وفهموا منها أنه ما لم يُتَخَلَّص من البساسيري الخائن فالخلافة مضطرة للجوء إلى السلاجقة! فكان الأتراك بهذا لا يتخلصون فقط من خصمهم بل يحافظون على مستقبلهم.

* **استدعاء السلاجقة:** ثم استبق الخليفة مراسلته العبيديين فراسل طغرلبك ملك السلاجقة ودعاه إلى دخول بغداد، وكان لدى الخلافة اتجاه عام بإنهاء الدولة البويهية والإتيان بملك يحترم الخلافة ومكانتها ويعظمها، ولم يكن أمامهم إلا طغرلبك وقد بدا في ذلك التوقيت مناسبا لأن يكون حامل هذا الأمل(١).

ثانيا: طغرلبك

وما كان أسعد طغرلبك بهذه الرسالة من الخلافة -وهو الذي لم يزل ينتظر الفرصة المناسبة(٢)- فلم يكن إلا يسيرا حتى تجهز، وأرسل وفدا إلى الخلافة قبل قدومه فتلقته الخلافة بالإكرام والحفاوة، بينما ظن الناس أنه توسع جديد لهذه الدولة الفتية فشملهم الخوف من

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٩/ ٤٠٠، وابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٤٧، ٣٤٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٢١، ٣٢٢.

(٢) د. حسن منيمنة: تاريخ الدولة البويهية ص١٦١.

حرب كبيرة، بينما رآها البعض الآخر فرصة لنهب الأتراك والانتقام منهم فسرت فتنة في الجانب الشرقي من بغداد، ثم وصل طغرلبك مع موكبه الفخم وجيوشه الكثيرة إلى بغداد (٢٥ رمضان ٤٤٧هـ) واستقبلته وفود الخليفة بالإكرام وأبدى طغرلبك تعظيم الخلافة وقدرها واحترامها، ثم استقبله الخليفة فيما بعد وخلع عليه (٢٦ رمضان ٤٤٧هـ)، وكان قد خُطِب له في بغداد (٢٢ رمضان ٤٤٧هـ)، ثم خطب من بعده لأبي نصر البويهي، وهو ما معناه انتهاء الحكم البويهي وبداية الدخول في عصر السلاجقة، ثم استقر طغرلبك في دار المملكة (٢ شوال ٤٤٧هـ)، وأقيم حفل تنصيبه (١١ ذي القعدة ٤٤٧هـ)[١].

ثالثا: أبو نصر البويهي

ما إن تحقق أبو نصر البويهي من اقتراب السلاجقة من بغداد حتى هرب ومعه البساسيري وفارقوا بغداد، كما فارقها معهم الكثير من الأتراك الذين أيقنوا أن مكانهم ومكانتهم مهددة في ظل هذه الدولة الجديدة..

فأما البساسيري فقد هرب إلى صهره نور الدولة دبيس، ثم انطلق إلى الرحبة، وهناك راسل العبيديين (الفاطميين) ودخل في طاعتهم وولائهم، فما أسرع ما أجابه أولئك بما استطاعوا من الأموال، وبمرسوم توليته على ما تحت يده من البلاد ليحكمها باسم العبيديين..

وأما أبو نصر البويهي فقد وردته رسالة من الخليفة تطمئنه وتطيب نفسه، وتفصح له أن البساسيري قد نقض الطاعة والعهد وراسل الفاطميين وأن مكانته محفوظة لدى الخليفة ومنصبه محفوظ في تدبير الملك، ولكن لابد من مفارقة البساسيري، فعاد أبو نصر وغالبية الأجناد الأتراك إلى بغداد، وقد حاول الأتراك أن يشترطوا على الخليفة أن يكونوا المُقَدَّمين على السلاجقة، فراوغت الخلافة في هذا المطلب الذي لا ترغبه بل ولا تقدر عليه في حقيقة الأمر، وكانت وصية الخلافة لطغرلبك أن يعامله بالإحسان وألا يمسه بسوء، فعاد أبو نصر ومعه الأتراك إلى بغداد (١٥ رمضان ٤٤٧هـ)، وأحسن طغرلبك مراسلتهم والوعود إليهم، واستقر الأمر على أن يُخطب للخليفة ثم لطغرلبك ثم لأبي نصر البويهي من بعدهما[٢].

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٤٨، ٣٤٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٢٢، ٣٢٣.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٤٨، ٣٤٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٢٢، ٣٢٣.

لكن صدقت العرب: لا يجتمع سيفان في غمد واحد!

مثلما حدث بين أهل بغداد والأتراك قبل أكثر من قرنين، ثم بين أهل بغداد والديالمة قبل أكثر من قرن.. لم يحتمل البغاددة -وهم أهل الحضارة والمدنية- سلوك أولئك المقاتلين البدو القساة الغلاظ، كما لم يفهم أولئك طبيعة هؤلاء.. فما هي إلا أيام بسيطة حتى اندلعت بينهما الاشتباكات، وكانت شرارتها -كما يقول ابن الأثير- أن تاجرا بغداديا لم يفهم لغة السلجوقي ولا مُراده فوقع بينهما النزاع الذي كان كالشرارة، فهاجم أهل بغداد السلاجقة ورجموهم بالحجارة، وسرى في بغداد أن الملك البويهي والأتراك سيحاربون السلاجقة فتكاثر جمع الناس عليهم حتى شمل بغداد كلها -ما عدا حي الكرخ الذي حافظ على هدوئه وعلى السلاجقة الذين فيه- وكان عامل المفاجأة وتسارع الأحداث مما كان له أكبر الأثر في إيقاع ضرر كبير بالسلاجقة حتى إن بعض المؤرخين يتوقع أن لو اشترك أبو نصر والأتراك في هذه الاشتباكات لاستطاعوا طرد السلاجقة من بغداد، وهو ما نحسب أن فيه مبالغة، لكن وعلى كل حال فقد تجنب أبو نصر والأتراك هذا الاشتباك لينفوا عن أنفسهم التهمة، وانتهت المعارك بطبيعة الحال إلى هزيمة العامة أمام المقاتلين المحترفين المسلحين، ولمزيد من التأديب والانتقام نهبوا أجزاء واسعة من بغداد(١).

وأرسل طغرلبك إلى الخليفة معاتبا، ومتهما أبا نصر البويهي وجنده الأتراك بتدبير هذا الذي حدث، ونحسب أن رجلا مثله لم يكن ليُفلت هذه الفرصة الذهبية في التخلص من شركائه في الملك، ومن القوة العسكرية غير الخاضعة له، فكان مما أرسل للخليفة أنهم إن لم يحضروا لديه غدا تأكد أن ما وقع كان بتدبيرهم، ولم تكن هذه المغامرة تفوت على ساذج لذا أيقن أبو نصر أنها النهاية، بينما لم يفطن الخليفة لهذا، فاستعمله طغرلبك كأداة طمأنة للبويهي والأتراك، فقد أرسل الخليفة يطمئنهم ويتعهد لهم بالأمان منه، بل ودخلوا إلى الملك السلجوقي بصحبة رجال من حاشية الخليفة، فلم يمنعهم هذا من القبض عليهم واعتقالهم (٣٠ رمضان ٤٤٧هـ) ونهب ما معهم بما فيهم حاشية الخليفة نفسه(٢)!

وهكذا يجب أن يعلم الناس أن الشرعية وحدها لا تحكم.. بل لابد لها من القوة! وأن

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٥٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٢٣، ٣٢٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٢٤.

القوة الخالية من الشرعية أقدر على صناعة –أو حتى شراء– شرعية لنفسها تحكم بها!

وترضية لخاطر الخليفة الذي لا شك أنه أصيب بأشد صدمة في ذلك الوقت أطلق طغرلبك بعض من قبض عليهم من الأتراك، لكنه اعتقل أبا نصر البويهي، واستولى على أملاكه، وبدأ في السيطرة على أنحاء العراق فراسل نور الدولة دبيس بالدخول في الطاعة وطرد البساسيري من عنده ففعل، وراسل غيره من أمراء الأطراف، فاستقر له الأمر إلى حين، وأما الذين أطلقهم أو الذين صرفهم عن أعمالهم في أملاك أبي نصر البويهي فلم يجدوا ملجأ إلا البساسيري الذي كان حينئذ قد سار إلى الرحبة في الشام، فأحسن استقبالهم وتقوى بهم(١).

وباعتقاله انتهى عهد أبي نصر بن أبي كاليجار بعد ست سنوات في ولاية العراق!

وبانتهاء عهده انتهت الدولة البويهية بعد مائة وثلاثة عشر عاما!

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

***

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٢٤، ٣٢٥.



نظرة على عصر سيطرة البويهيين

كان عصر البويهيين خطوة أخرى على طريق الانحراف والانهيار في مسار الحضارة الإسلامية.. فلقد اجتمع في هذا العصر أمور، كل منها وحده يمثل طامة وكارثة، فكيف إذا كانت جميعها معا؟!!

لقد كان البويهيون استكمالا للحكم العسكري الذي بدأ في الحقبة السابقة، وقد أسلفنا الحديث عن خطورة الحكم العسكري وأضراره على الأمة ومسيرتها الحضارية، ثم كانوا بعد ذلك مرحلة جديدة وفارقة في سيادة سلطان العجم على العرب بكل ما يستتبعه هذا من آثار[1]، ثم إنهم وضعوا أسس الحرب المذهبية بين السنة والشيعة في داخل المجتمعات المستقرة نفسها، ثم بعد هذا كله لم يكن لهم نصيب في جهاد العدو بل كانت سيوفهم مسلولة على أنفسهم أو على غيرهم يتنازعون الملك ويتنافسون على السلطان فزادت بهم الأمة ضعفا على ضعف.

سلطان العجم

كنا قد تحدثنا في «نظرة على عصر سيطرة الترك» عن بداية التأسيس لسلطان العجم في التاريخ الإسلامي، وأنه بدأ بعصر سيطرة الترك، وكان من نتائج هذه السيطرة ضعف الخلافة حتى زادت الاستقلالات والانشقاقات في أطرافها شرقا وغربا، واستطاع كل ذي قوة أن يؤسس لنفسه حكما.

فلما وصل البويهيون إلى العراق كان العرب قد دال ملكهم وذهبت أيامهم، فكل العالم الإسلامي تحت سيطرة الأعاجم فيما عدا الدولة الحمدانية في الموصل وشمال الشام، والأندلس التي يحكمها الأمويون، أما باقي الأرض من المشرق إلى المغرب فكلها تحت حكم غير العرب..

---

(١) راجع ما كتبناه في «نظرة على عصر سيطرة الترك».

وقد سبب هذا انزعاجا في الشعور العربي العام، وهو ما فاض به شعر المتنبي المعاصر لهذه الحقبة كما هو مشهور، فمن شعره:

سادات كل أناس من نفوسهـــــــم وسادة المسلمـــــــين الأعبد القـــزمُ

ومنه قوله:

وإنـــما النـــاس بـــالملوك ومـــا تفلـــح عـــرب ملوكهـــا عجـــم
لا أدب عنـــــدهم ولا حســـــب ولا عهـــــود لهـــــم ولا ذمـــــم
بكـــــل أرضٍ وطئتهـــــا أمـــــم ترعـــــى بعبـــــد كأنهـــــا غـــــنم

ومنه قوله:

ودهـــر ناســـه نـــاس صـــغار وإن كانـــت لهـــم جثـــث ضـــخام
ومـــا أنـــا منهمـــو بـــالعيش فـــيهم ولكـــن معـــدن الـــذهب الرغـــام
أرانـــب غـــير أنهـــم ملـــوك مفتحـــة عيـــونهم نيـــام

وشعر المتنبي يفيض بهذا مما يطول عن المقام، ولكنه يشير إلى الإحساس العام السائد في وقته والمتلخص في أن هؤلاء الذين كانوا عبيدا وجنودا قد صاروا السادة المتصرفين على الحقيقة، والعرب الذين كانوا ملوكا وخلفاء ودالت لهم بلاد كسرى وقيصر قد صاروا الآن أسرى في قصورهم يتحكم فيهم من كان من غِلمانهم!

ولئن كان الأتراك قد سيطروا على الخلافة في عصر سيطرة الترك إلا أن الخلافة في ذلك الوقت كانت تقاوم وتنافح وينتهي الخليفة قتيلا، أو تنتصر فيعتدل الحال كما هو حال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.

وأما في عصر البويهيين فقد عُزِل الخليفة عن تصريف الأمور بالكلية، وصار الأمر الواقع أن الخلافة لا معنى لها وأن صاحبها ليس إلا إجراء شكليا، فضاعف هذا من استخفاف الأطراف بمقام الخلافة، وكان ظهور العبيديين (الفاطميين) في الشمال الإفريقي ثم اتخاذهم القاهرة عاصمة لهم من دواعي أن يعلن عبد الرحمن الناصر –الأمير الأموي في الأندلس– نفسه خليفة في الأندلس وما يمتد إليه حكمه في بلاد المغرب الأقصى، فصار في بلاد المسلمين ثلاث شخصيات كلها تُخاطَب بلقب الخليفة، ولكل منها نفوذ وأنصار، بما

يستتبع هذا من ظهور الأمراء المتنازعين والمتنافسين في المناطق الواقعة بينهم وانتقال الولاء بحسب المصلحة السياسية.

وحديثنا هنا عن سيادة العجم لا ينطلق من المعنى القومي البغيض الذي جاءنا من أوروبا وفرضه علينا الاستعمار ثم ذيوله من الاستبداد، معاذ الله، ولكنه إشارة إلى أن سيادة العجم كان واحدا من أهم محطات انهيار الحضارة الإسلامية وفقدان التاريخ الإسلامي، فالدول التي لم تعتمد اللغة العربية كلغة لها انفصلت واقعيا عن سياق الحضارة الإسلامية، وتاريخها الآن ما يزال في حكم المجهول، وما عُرِف منه فهو ما يزال في حاجة إلى مجهود علمي رهيب لكي يُكشف الغطاء عنه لأنه نُقِل إلينا عبر المستشرقين الذين كتبوا تاريخ هذه المناطق في ظل انهيار الأمة الإسلامية في عصرها الحديث(١).

ولقد ظل المصلحون حتى قبل أقل من مائة سنة يحاولون إصلاح الدولة العثمانية فيشيرون عليها بالتعريب لتستطيع مواجهة الاستعمار، ولكن النزعة التي غلبت على أواخر خلفائهم كانت التتريك للعرب لا التعرب والاتصال بتراث الأمة الغني(٢).

---

(١) ونعني بالمناطق التي ما زال تاريخها الإسلامي في حكم المجهول أو تحتاج مجهودا كبيرا لكشف تاريخها: تاريخ المسلمين في وسط وشرق آسيا والقوقاز وروسيا ووسط وغرب الهند والصين وشرق ووسط وغرب إفريقيا، بل حتى الدولة العثمانية ما يزال تاريخها يعاني من تشويه المستشرقين ومن جهل العرب، وذلك لأن العثمانيين سددوا لأنفسهم الضربة الأولى: لم يتعربوا، ثم سدد أتاتورك الضربة الثانية حين حول اللغة إلى الحروف اللاتينية، فصار بيننا وبين المؤرخين العثمانيين المعاصرين مرحلتين من الحاجز اللغوي، وهما مرحلتان نشط فيهما التشويه القومي والاستشراقي للدولة العثمانية.

(٢) كان من أبرز من بذلوا المجهود العظيم في هذا السبيل جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده ثم الشيخ رشيد رضا، فكثرت نداءاتهم ومحاولاتهم مع العثمانيين لا سيما وقد كان الوقت وقت مواجهة الاستعمار الذي لم يكن يحارب الدين فحسب بل كان يحارب الوحدة الإسلامية ويثير القوميات الأخرى: العربية والكردية والأرمنية والألبانية، ولم يكن من سبيل ناجع لمواجهة كل هذا، بل ولتسديد ضربة قاضية للمجهود الاستعماري كما بسبيل تعرب الدولة العثمانية..

وقد آثرنا أن ننقل هنا فقرة من مقال للشيخ رشيد رضا بعنوان «الجنسيات العثمانية واللغتين العربية والتركية» ونشره في مجلة المنار (رجب ١٣٢٧هـ = أغسطس ١٩٠٩م).

«إن غوائل اختلاف اللغة في الدولة لا تنكر، وإن فوائد توحيدها ووحدة الأمة بها لا تجهل، وإن رجحان العربية في الدين والعلم والسياسة لَهو أوضح وأظهر، فإنها هي التي تتوفر الدواعي على تعميمها؛ لأن الناطقين بها أكثر من الناطقين بغيرها، وإرجاعُ القليل إلى الكثير أسهل من عكسه؛ ولأن للترك والكرد والألبان باعثًا نفسيًا يبعثهم على تعلمها؛ وهو الحاجة إلى فهم كلام ربهم - عز وجل - وحديث =

سيادة مذهب الشيعة

قال الذهبي: «لقد جرى على الإسلام في المائة الرابعة بلاء شديد بالدولة العبيدية بالمغرب، وبالدولة البويهية بالمشرق، وبالأعراب القرامطة، فالأمر لله تعالى»(١).

ومثلما ساد حكم العجم، ساد مذهب الشيعة في القرن الرابع الهجري على هذا النحو الذي ساقه الإمام الذهبي، ولم يكن مجرد وجود الاختلاف المذهبي من الكوارث، بل الكارثة في محاولات السلطة فرض هذا المذهب على الأمة، ومساندتها للأقلية الشيعية ضد الأغلبية السنية، مما كانت له آثار مدمرة على قوة الدولة أمام عدوها، وعلى نسيجها الاجتماعي نفسه، يقول ابن كثير: «وقد امتلأت البلاد رفضا وسبا للصحابة من بني بويه وبني حمدان والفاطميين، وكل ملوك البلاد مصرا وشاما وعراقا وخراسان وغير ذلك من البلاد، كانوا رفضا، وكذلك الحجاز وغيره، وغالب بلاد المغرب، فكثر السب والتكفير منهم للصحابة»(٢).

ولم يكن غريبا أن يربط العلماء والمؤرخون بين هذا وبين انهيار البلاد الإسلامية أمام الروم، قال ابن تيمية: «وفي دولة بني بويه ونحوهم... كان فيهم أصناف المذاهب المذمومة؛ قوم منهم زنادقة وفيهم قرامطة كثيرة ومتفلسفة ومعتزلة ورافضة وهذه الأشياء كثيرة فيهم

= نبيهم ﷺ وحكم سلفهم الصالح - رضي الله عنهم - وكتب أئمتهم في التفسير والحديث والفقه وغيرها من علوم الدين - رحمهم الله - والوقوف على تاريخ دينهم. ومن الجهل أن يقال: إنهم يستغنون عن ذلك كله بالترجمة لما سنبينه في فرصة أخرى، ولأن جعلها اللغة الرسمية هو الذي يزيل خطر تفرق الأجناس، فإذا اتفق عليها المسلمون الذين يشاركون فيها غيرهم من الملل في البلاد العربية، لا يبقى للروم والأرمن سبيل لطلب تعليم لغتهم في مدارس الدولة، ولا يكون لتعليمهم لها في مدارسهم خاصة تأثير في إضعاف الوحدة؛ ولأنها لغة حضارة سابقة وعلوم وفنون؛ ولأنها اللغة المشتركة بين جميع المسلمين ولأنه يمكن أن توسع دائرة نفوذ الدولة بنشرها في الممالك الشرقية التي يكثر فيها المسلمون: (الصين وجاوه والهند) من غير نفقة توازي عشر معشار ما تنفقه الأمم الغربية لنشر لغاتها، وتوسيع دائرة نفوذها وتجارتها في الشرق؛ ولأن الدولة تأمن بذلك من قيام دولة عربية تدعي الخلافة وتنازعها النفوذ في العالم الإسلامي بنفسها وبمساعدة بعض دول أوربا؛ ولأن في ذلك تحقيقًا لمقصد من مقاصد الإسلام العالية وهو محو العصبيات الجنسية وتوسيع دائرة الأخوة الإنسانية».

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٥٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٦٤.



غالبة عليهم؛ فحصل في أهل الإسلام والسنة في أيامهم من الوهن ما لم يعرف حتى استولى النصارى على ثغور الإسلام وانتشرت القرامطة في أرض مصر والمغرب والمشرق وغير ذلك»[١]، ومثله قال الذهبي: «ضاع أمر الإسلام بدولة بني بويه، وبني عبيد الرافضة، وتركوا الجهاد، وهاجت نصارى الروم، وأخذوا المدائن، وقتلوا وسبوا»[٢].

إن الثغور التي اجتهد المنصور والمهدي والرشيد والمأمون في بنائها وتعميرها وتحصينها فقدها المسلمون في عصر بني بويه، ولولا بعض الدفع مما قام به سيف الدولة الحمداني، وأحيانا كافور الإخشيدي لكان الروم البيزنطيون قد حققوا انتصارات فارقة في الشام والعراق.

ولكن الخسارة النازلة بفقدان هذه الثغور هي خسارة تاريخية بعيدة المدى كما كانت فوائدها بعيدة المدى أيضا، فهذه الثغور «استطاعت أن تقنع الأرمن بمزايا الحضارة العربية وأن تضمهم إلى حلف العرب والدخول في عهدهم وأن تخلق بينهم وبين العرب تآلفا وانسجاما حضاريا دام قرونا طويلة برغم اختلاف الدين، وبفضل هذه الصداقة العربية الأرمنية ضَمِن العرب وفاء الأرمن وضمنوا تفوقا استراتيجيا على الروم... ولقد استطاع العرب منذ أيام عثمان ﷺ وأيام بني أمية أن يُنشِئوا حلفًا مع أرمينية مداره التعاون مع الأرمن في الدفاع عن حدودهم الشرقية ضد الروم وتشجيع الأرمن في استقلالهم المذهبي عن الروم»[٣].

وهذه هي المرة الأولى فيما نعلم التي تنشأ دولة تسيطر على المشرق فلا تستطيع حتى وهي في أوج قوتها ألا تحقق انتصارات باهرة على الروم، فالأمويون هددوا القسطنطينية ذاتها أكثر من مرة، ثم جاء العباسيون فكانوا الأعلى يدا في مواجهات الروم، وفي عصر سيطرة الترك كان الجهاد قويا حتى وإن ضعف مقام الخلافة، ثم جاء البويهيون فلم يفعلوا إزاء الروم شيئا بل تلقوا الضربات في صمت أو تلقاها عنهم الحمدانيون في الشام وأحيانا نادرة في الموصل،

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ٢٢.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٣٢.
(٣) محمد عبد الهادي شعيرة: المرابطون في الثغور البرية، ضمن كتاب «إلى طه حسين» ص١٦٦.

ثم جاء السلاجقة فأوقعوا بالروم خسائر مزلزلة خالدة أشهرها معركة ملاذ كرد التي قادها ألب أرسلان، ثم جاء العثمانيون فكتبوا نهاية الدولة البيزنطية العتيقة!

البويهيون وحدهم كانوا سادة المشرق ولم يكن لهم أثر في جهاد الروم!!

العلاقة بين الخلفاء والبويهيين

في عصر البويهيين دخل الخلفاء في مرحلة أخرى من الضعف وقلة الحيلة، فمن بعد القوة والنفوذ التي كانت لخلفاء العصر العباسي الأول جاء عصر سيطرة الترك ليجعل الخليفة محكوما برغبات الطبقة العسكرية التركية التي تعارضه ويقاومها وقد ينجح في بعض هدفه وقد يفشل فيُقْتَل، أما في عصر البويهيين فلم يكن الخليفة ذا أثر أو قيمة أو قدرة على الفعل أصلا، كان الملك البويهي يستخدمه كما يستخدم أحدا من أتباعه ليحقق بها هدفه السياسي في التقوي بـ«شرعية الخليفة» ولم يكن يصدر عن أمره ولا يراجعه في قراره، بل هو الذي يحدد راتبه الذي يعطيه له، وهكذا يصف ابن الأثير التطور الذي تم: «وازداد أمر الخلافة إدبارا ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء فلما كانت أيام معز الدولة زال ذلك جميعه»(١).

ولم يكن الملك البويهي يحتاج إلى عذر أو صراع ليعزل الخليفة أو يقتله بل يفعل هذا لمجرد أن تكون مصلحته –ولو القصيرة والعاجلة– تقتضي بهذا.. الفارق الوحيد أنه كان يتظاهر باحترامه وتعظيمه ويؤدي له سائر المظاهر السلطانية!

ولم يتغير هذا الوضع إلا حين ضعف البويهيون من بعد عضد الدولة، ثم ظهر واضحا حين التقى ضعف البويهيين مع وجود شخصية قوية في الخلافة كالقادر بالله، ولكن هذا لم يُفْضِ إلى تغيير مؤثر، بل هو تغيير في التفاصيل لم يتناول بنية العلاقة بين البويهيين والخلفاء.

وبدأت هذه العلاقة المهينة بين الخلفاء والبويهيين منذ الخليفة الأول والملك البويهي الأول، إذ فرض معز الدولة على المستكفي بالله تعيين ابن شيرزاد كاتبا له برغم أن الخليفة كان قد أقسم ألا يتولى ابن شيرزاد أي منصب في دولته، ولم يجد إلا تلبية الطلب وهو يبكي

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٠٧.

من الذل والقهر، ثم لم يتردد معز الدولة في عزل المستكفي حين ساورته الشكوك، ولم يكن هذا الأخير بالذي يملك أن يدافع عن نفسه.

وكان من أهم دلائل انهيار الخلافة أمام البويهيين أن كان معز الدولة قد استخلص من المستكفي إجراء يحدث لأول مرة، ذلك هو نقش أسماء الملوك البويهيين على الدراهم والدنانير مع اسم الخليفة(١)!

ثم لم يكن المطيع مع معز الدولة إلا وسيلة لتقوية موقفه، فقد أخرجه معه في حرب ناصر الدولة الحمداني (٣٣٤هـ) ثم لحربه مع أبي القاسم البريدي (٣٣٦هـ) ثم –وياللعجب– زاد في راتب الخليفة حين استولى على البصرة (٣٣٦هـ) فأعطى للخليفة ضياعا زاد بها راتبه السنوي عن راتبه المقرر له يوميا (!) فكأنما هي مكافأة له على دوره في الحرب! ثم استعمله مرة أخرى لمساعدة أخيه ركن الدولة الذي يتنازع حكم خراسان مع أميرها –الذي كان تابعا للسامانيين– فيستخلص منه (٣٣٧هـ) قرارا بتولية ركن الدولة على خراسان!

وكان أوضح ما يدل على حال الخلافة ما قاله المطيع نفسه حين طلب منه عز الدولة بختيار إخراج أموال لإنفاقها في تجهيز الجيش للجهاد «إنما يجب عَليّ ذَلِك إذا كنت مَالِكًا لأمري وَكَانَت الدُّنْيَا فِي يَدي فأما أن أكون محصورا لَيْسَ فِي يَدي غير الْقُوت الَّذِي يقصر عَن كفايتي فَمَا يلْزَمنِي غَزْو وَلَا حج، وإنما لي مِنْكُم الِاسْم على الْمِنْبَر فإن آثرتم أن اعتزل اعتزلت»(٢).

وظل المطيع بلا أثر في السياسة حتى كبر وأصابه الفالج (الشلل النصفي) فطُلِب منه التنازل عن الخلافة فلم يتردد وتنازل عنها لابنه الطائع..

وقد كان الطائع أضعف الخلفاء العباسيين، فقد جاء في عهده أقوى ملوك البويهيين: عضد الدولة، واعترف المؤرخون أنه لا تُعرف له سيرة يستنبط منها شخصيته وصفاته! وفي عهده نازعه الملك البويهي فيما هو حتى من خصائصه الشكلية والمظهرية، فكان عضد الدولة

(١) القلقشندي: مآثر الإنافة ١/ ٣٠٠.

(٢) الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري ص٢١١.

ممن تضرب الطبول على بابه ثلاث مرات -وكانت تضرب خمس مرات عند باب الخليفة- وأن يُخطب له على المنابر بعد ذكر اسم الخليفة «وهذان الأمران لم يكونا من قبل، ولا أُطْلِقا لولاة العهود، ولا خُطِب بحضرة السلطان إلا له، ولا ضربت الدبادب إلا على بابه»[١]، وكان الطائع يخرج لاستقبال عضد الدولة إن رجع من غزوة «ولم يكن ذلك بعادة أنّ الخليفة يلاقى أحدا من الأمراء... فإنّ الطائع كان قد بقى تحت أوامر عضد الدولة كالأسير»[٢].

ثم خُلِع الطائع كما خلع المستكفي على يد الفتى بهاء الدولة الذي لم يكمل واحدا وعشرين سنة بينما كان الطائع في الرابعة والستين من عمره، خُلِع مهانا وسحب من مجلسه، يستغيث ولا مغيث، وما ذلك إلا لأن بهاء الدولة أراد أموالا فلم يجد ففكر في نهب الخليفة ودار الخلافة، وقد كان!

ثم تغير هذا في حال مجيء القادر بالله على رأس الخلافة، فلكونه من أهل العلم والصدقة والبر كانت له آثار في حياة الناس كالصدقة وتعمير المساجد ولبس زي العامة والتجول خارج القصر، فكتبت في عهده وثائق مهمة كالاعتقاد القادري الذي أريد به مواجهة الفتنة الفكرية والمذهبية في بغداد، وكوثيقة إثبات ادعاء الفاطميين النسب، ولا ريب أن ضعف البويهيين في عصره قد أعطى له مساحة من الفعل لم تكن للذين قبله.

ولما توفي القادر بالله وخلفه ابنه القائم بالله تقلصت هذه المساحة رغم الضعف الهائل الذي عصف بالبويهيين آنذاك، فلم يكن للقائم شخصية أبيه، برغم أنه لو كان لاستطاع تغيير الكثير من الأمور في ظل انهيار العلاقات بين الأتراك والبويهيين، وانهيار العلاقات بين البويهيين أنفسهم، وضعف جلال الدولة البويهي.

بل سجل عهد القائم بالله استطاعة البويهيين الضعفاء انتزاع ألقاب جديدة كالملك العزيز والملك الرحيم بل وملك الملوك! وأن يكون للواحد أكثر من لقب، وصارت الطبول تضرب على باب الملك البويهي خمس مرات بعد أن كانت ثلاث مرات فحسب في عهد أقواهم «عضد الدولة»، وكل ذلك يتم والملك البويهي لا يجد أحيانا ما ينفق به على من

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٢٦٠.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/ ١٣٨.

يضرب بالطبول على بابه! من الضعف والفقر وسوء التدبير وقلة الحيلة مع الأتراك!!!

والمؤرخون المسلمون على إدانة وإنكار ما فعله البويهيون مع الخلفاء العباسيين.. ولكن البعض يلتمس لهم العذر قائلا بأنهم «ورثوا وضعا قام من قبلهم ولم يكن لهم يد في التطور الذي صارت إليه أمور الخلافة في بغداد... وهكذا نرى أن بني بويه لم يستحدثوا هذا المنصب (أمير الأمراء) وهم حين تولوا هذا المنصب لم يغيروا شيئا إطلاقا، ولم يستحدثوا قليلا ولا كثيرا، فقد كانوا يسمون أمراء الأمراء فزادوا على ذلك لقب «الملك» وليس اللقب بشيء»، لكن ما يلبث هذا الدفاع أن يناقض نفسه بالقول: «ومع ذلك فهناك تغير طفيف (!!!) هو جعل إمرة الأمراء وراثية في بيت معين، فأصبحت المناصب تورث» ثم يأخذ في الدفاع عن مزايا التوريث[1].

فيما يقول البعض الآخر بأن «البويهيين أمسكوا بالعصا من منتصفها –كما يقول المثل– فهم انتزعوا كل سلطات الخليفة وتسلطوا على شئون الدولة، ولكنهم تظاهروا باحترامه أمام عامة المسلمين وقد مكنتهم سياستهم هذه من أن يعلنوا مذهبهم الشيعي الزيدي الذي يعتنقونه بينما هم يعيشون في ظلال دولة سنية المذهب»[2].

والحق الذي نميل إليه أن هذا ليس إمساكا للعصا من المنتصف بل نردد مع من قالوا: «والحق أنه لم يبق شيء لم يغتصبه البويهيون من الخلفاء العباسيين الذين عاشوا في عهدهم سوى لقب الخلافة وما يتعلق به من مظهرية كاذبة»[3].

البويهيون والوزراء

كان الوزراء في العصر التركي هم العنصر المدني في السلطة، فكانوا هم وطبقة الأتراك العسكريين في خلاف دائم بطبيعة الحال، حتى إذا هُزِم الوزراء في هذه المعركة أمام الجناح العسكري –منذ عهد المقتدر بالله– لم يكن إلا قليلا وانهار الجناح المدني كله بما فيه الخليفة، وصار الأتراك العسكريون هم الفاعل الوحيد.

---

(١) د. أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٥١٦ وما بعدها.
(٢) د. أحمد الشامي: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص٢٦.
(٣) د. وفاء محمد علي: الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين ص٦٠.

وأما في العصر البويهي فقد أصبح منصب الوزير تابعا للملك البويهي ولا علاقة للخليفة به، فالخليفة لا يملك من الموظفين إلا حراسات دار الخلافة وكاتب يتابع شؤون إقطاعاته، وفي مرحلة لاحقة سيظهر للخليفة «حاجب» وسنسمع عن منصب «رئيس الرؤساء» وهو منصب كبير حاشية الخليفة، وانتقل منصب الوزير كما هو معروف ومعلوم ليكون رجلا في خدمة الملك البويهي، ولكن الوزير البويهي لم يكن كالوزير في العهد السابق بل هو أقرب للموظف الكاتب منه إلى الوزير ذي التدبير والأمر والنهي والصلاحيات.

وقد استخدم بعض البويهيين –ولأول مرة– وزيرين في وقت واحد، فاتخذ عضد الدولة منصور بن نصر بن هارون كوزير على بلاد فارس، واتخذ المطهر بن عبد الله على غيرها وكان هذا الأخير في بغداد، وكرر هذا صمصام الدولة وفخر الدولة أيضا.

وكان من الجديد كذلك هو تعيين غير المسلمين في منصب الوزارة، فوزير عضد الدولة على فارس منصور بن نصر بن هارون كان نصرانيا.

ومن العجيب أن البويهيين رُزِقوا بعدد من ألمع الوزراء في التاريخ، ثم من المدهش أنهم كانوا أسوأ الملوك لوزرائهم، فالوزير إما أن يُنكَب ويرى الذل فيعزل ويموت وإما أن يموت على خير حال وهو في عزه وسلطانه وبزوغ نجمه في الدولة البويهية، فما إن يعود الناس من جنازته حتى يكون الملك البويهي قد صادر أمواله وأموال أهله ومواليه! ولربما كان موته هذا هو بالأساس خطأ من أخطاء الملك البويهي فلا يعفيه هذا مما ينزل به وبأهله بعد موته!

فهذا الوزير محمد المهلبي الذي نجح في إدارة الأمور ورفع المظالم في عهد معز الدولة، لا سيما ما كان من أحوال البصرة التي فسدت بعد سيطرة البريديين عليها، وإذا نظرنا له من منظور الملك البويهي فسنجد عددا كبيرا من الإنجازات الإدارية والعسكرية المهمة خصوصا وأنه في مرحلة تأسيس الدولة والتي هي في غاية الحرج والاضطراب(١)، هذا الوزير تعرض

(١) يصف الثعالبي هذا الوزير بقوله: « كَانَ من ارْتِفَاع الْقدر واتساع الصَّدْر ونبل الهمة وفيض الْكَفّ وكرم الشيمة على مَا هُوَ مَذْكُور مَشْهُور وأيامه مَعْرُوفَة فِي وزارته لمعز الدولة وتدبيره أُمُور الْعرَاق وانبساط يَده فِي الأموال مَعَ كَونه غَايَة فِي الأدب والمحبة لأهله وَكَانَ يترسل ترسلا مليحا وَيَقُول الشّعْر قولا لطيفا يضْرب بحسنه الْمثل وَلَا يستحلي مَعَه الْعَسَل يغذي الرّوح ويجلب الرَّوح». الثعالبي: يتيمة الدهر ٢/ ٢٦٥.

لعقوبة الضرب الشديد (٣٤١هـ) ثم أُبقي في منصبه حتى مات (جمادى الآخرة ٣٥٢هـ) وهو في غزوة لقتال الخوارج في عمان، فصادر معز الدولة أمواله وأموال أهله بل وأموال كل من عمل معه ولو يوما واحدا بل وصلت المصادرة إلى من تعاون مع حاشيته من العمال والصيادين بغية الوصول إلى كل أمواله وودائعه، حتى وصف ابن مسكويه ما حدث بقوله: «جرى من ذلك ما لا جرى مثله إلّا على عدوّ مكاشف واستفظع الناس ذلك واستقبحوه لمعزّ الدولة»[(١)].

وهذا الوزير الصاحب بن عباد وهو من أشهر الوزراء بل ومن أشهر الأدباء في التاريخ حتى لقد وصفه ابن الأثير بقوله: «واحد زمانه علما وفضلا وتدبيرا وجودة رأي وكرما، عالما بأنواع العلوم، عارفا بالكتابة وموادها ورسائله مشهورة مدونة، وجمع من الكتاب ما لم يجمعه غيره حتى إنه كان يحتاج في نقلها إلى أربعمائة جمل»، وقضى عمره في خدمة البويهيين واستطاع توفير حروب بين أفراد بيوتهم، وساق الملك إلى فخر الدولة دون جهد ولا حرب بحكمته ورأيه، فضلا عما له من الانتصارات والمعارك.. هذا الوزير الذي استطاع أن يقضي حياته عزيزا، ما إن مات (٣٨٥هـ) حتى صادر فخر الدولة أمواله وما في بيته حتى قال ابن الأثير متأثرا «فَقَبَّح الله خدمة الملوك! هذا فعلهم مع من نصح لهم فكيف مع غيره؟ »[(٢)].

وهذا الوزير أبو علي بن إسماعيل، وزير بهاء الدولة القوي الذي وطد له الملك وأقر له حكم المشرق وقاد الانتصارات على أبناء عمومته، لم يكن له من ذنب إلا طلبه الاستقالة وإصراره عليها، وقد حاول بهاء الدولة إرجاعه عن هذا القرار بقوله: «لو أجبتك إلى الاستعفاء لما حَسُن بك أن تتقبله في مثل هذا الوقت، وقد علمتَ أنني لم أخرج من واسط إلا برأيك، ولا وصلتُ إلى ما وصلتُ إليه من هذه الممالك إلا برأيك واجتهادك، وإذا قعدتَ بي في هذه الضغطة فقد أسلمتني وضيعتَ ما قدَّمتَه في خدمتي، ولكن تمضي في هذا الوجه (كرمان) وتدفع عني هذا العدو (أبا نصر بن عز الدولة) وتجعل للاستعفاء والخطاب عليه وقتا آخر فيما بعد»[(٣)]، فلما استكمل مهمته وأصر على الاستقالة ولم يرض بأي إغراء آخر

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ١٧٨، ٢٣٨، ٢٣٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٢٤٣، ٢٧٨.
(٢) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٧/ ٣٠٩، ٣١٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٤٧١، ٤٧٢.
(٣) الصابي: تاريخ هلال الصابي ٧/ ٤١٤.

قبض عليه بهاء الدولة وصادر أمواله (٣٩٠هـ)، ثم قتله (٣٩٤هـ)[١].

وهذا الوزير أبو غالب الحسن بن منصور والذي راح ضحية غفلة مشرف الدولة في صراعه مع سلطان الدولة، وذهب إلى الأهواز مع مجموعة من الجند الديالمة، وبرغم أنه أحس بهذا الخطر ولم يأمن انقلاب أولئك الجنود عليه، إلا أنه ذهب استجابة لرغبة مشرف الدولة، فقتل هناك (٤١٢هـ) وانحاز أولئك الجنود إلى سلطان الدولة، فكانت مكافأته أن صودرت أمواله وحبس ولده ولم يفرج عنه إلا بعد أن دفع ثلاثين ألف دينار[٢].

وهذا الوزير أبو الحسين الرخجي الذي لم يقبل الوزارة إلا بعد إصرار شديد من مشرف الدولة، وبدأت به بارقة أمل لإصلاح الأحوال في بغداد التي أنهكها الاضطراب والفتن، ونجح بالفعل في إقرار الأمور وابتداء مسيرة إصلاح وعمارة، واستطاع استخراج أموال بغير إكراه ولا تعذيب لأحد.. هذا الوزير لم يكمل في منصبه إلا سنتين، وأطاحت به وشاية خادم لمشرف الدولة كان الوزير قد صادر أموال صديق له يهودي، فعزله (رمضان ٤١٤هـ)[٣].

ولئن كان هذا فعلهم مع من لم تثبت عليه جريمة، فقد كان فعلهم أقسى بمن اتهموه من وزرائهم.

فهذا الوزير محمد بن بقية الذي وصل إلى الوزارة بفساد رأي بختيار واندهش الناس لاختياره وهو بلا سابقة إلا عمله في مطبخ السلطان، هذا الوزير لعب على التناقضات بين بختيار وعضد الدولة حتى أصابته البغضاء منهما معا، وألح عضد الدولة على بختيار في تسليمه إليه فخشي هذا الأخير أنه يريد الاستعانة به عليه فسَلَّمه إليه ولكن بعد أن سمل عينيه (٣٦٧هـ)، ثم لما انتصر عضد الدولة على بختيار انتقم من ابن بقية بقتلة جديدة لا سابقة لها: وضعه تحت فيل فما يزال يدوسه ويخبطه حتى مات، ثم صلبه فبقي مصلوبا حتى مات عضد الدولة[٤].

وهو الوزير الذي قال فيه الشاعر أبو الحسن الأنباري واحدة من أبلغ قصائد الرثاء في الشعر العربي كله، وقد توصل فيها لتشبيه بديع في مشهده وهو مصلوب، وهو قوله:

---

(١) الصابي: تاريخ هلال الصابي ٧/ ٤٣٢ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٣٤.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٦٩، ٢٧٠.
(٤) ابن مسكويه: تجارب الأمم ٦/ ٤٢٥، ٤٢٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٧٧.

علوٌّ في الحياة وفي المماتِ	لحَقٌّ أنت إحدى المعجزاتِ
كأن الناس حولك حين قاموا	وفود نداك أيام الصِلاَتِ[١]
كأنك قائم فيهم خطيبا	وكلهم قيام للصلاةِ
مددت يديك نحوهم اقتفاء	كمدهما إليهم في الهِبَاتِ
ولما ضاق بطن الأرض عن أن	يضم علاك من بعد المماتِ
أصاروا الجو قبرك واستنابوا	عن الأكفان ثوب السافياتِ[٢]
لعظمك في النفوس تبيت ترعى	بحراس وحفاظ ثقاتِ
وتشعل عندك النيران ليلا	كذلك كنت أيام الحياةِ[٣]

وهذا الوزير أبو الفتح بن العميد، وهو ابن الوزير الكبير الشهير ذائع الصيت أبي الفضل بن العميد، اتهمه عضد الدولة بالانحياز لابن عمه بختيار فقبض عليه (٣٦٦هـ) و«سمل إِحْدَى عَيْنَيْهِ (ولم يكن له إلا عين واحدة) وقطع أَنفه وجزَّ لحيته»، وصمد أبو الفتح تحت التعذيب حتى مات دون أن ينطق بمكان أمواله.. فكان صموده هذا هو انتقامه[٤].

وعلى مثل هذا كانت سيرة البويهيين مع وزرائهم في عامة الأحوال!

ولا يعني هذا أن هؤلاء الوزراء كانوا من الأخيار أو الأبرار وإنما أكثرهم كانوا على منوال الملك البويهي، ولكن الكلام عنهم في هذه السطور السابقة إنما كان من وجهة النظر السياسية والإدارية وحدها دون وجهة النظر الأخلاقية، وليس هذا فصلا بين السياسة والأخلاق والعياذ بالله، وإنما المعنى المقصود أن البويهيين –حتى بمذاهب السياسة المتجردة من الأخلاق والدين– لم يكونوا أهل كفاءة ولا سياسة ولا حسن تدبير.

وأما الوزراء فكثير منهم وإن تحلى بالسياسة والحكمة والتدبير فإنه لم يكن على الصراط

(١) وفود: جمع وفد، نداك: أي كرمك، أيام الصلات: يعني أيام كنت وزيرا وكنت تعطي الناس وتصلهم بالأموال.

(٢) السافيات: الرياح، والمعنى: من علوك وعظم مقامك صار قبرك الهواء –لأن القبر ضيق على مقامك– وصارت الرياح كفنك.

(٣) كانت الحراسات توضع على المصلوب حتى لا ينزله أتباعه أو أنصاره، فشبههم الشاعر بالحراسة له كوقت ما كان وزيرا!

(٤) الثعالبي: يتيمة الدهر ٣/ ٢٢٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٦٨.

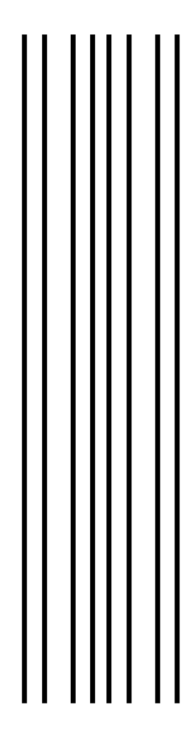
المستقيم من الأخلاق والدين، بل إن تجاوزنا فساد العقيدة عند بعضهم لم نستطع أن نتجاوز كنزهم للمال واستخراجه ممن قبلهم بغير حقه، بالتعذيب والإكراه والاحتيال، ولقد كان كل منهم يعلم أن نهايته تعني رحلة لاستخلاص أمواله، فكانوا يبتدعون في الأفكار والحِيَل لإخفاء أموالهم، وكتابة أماكنها وأسماء من أودعت لديهم في كشوف سرية، وهذه الكشوف كانت تكتب فيها الأسماء والأماكن بالشفرات والرموز والكنايات، فكان معظمهم يجتهد في استخلاص الأموال من سابقيه وكشف مخازنه السرية وشفراته ثم يجتهد هو نفسه في أن يصنع لذاته مخازن لا تُكشف ورموزا وشفرات لا تُحلّ ولا يُهتدى إليها.. وقد كان هذا هو أحد مبررات الملوك البويهيين في مصادرة أموال وزرائهم وأهليهم بعد انقضاء خدمتهم!

❊ ❊ ❊



ملحقات الجزء الثاني

- ✍وصف مختصر لـ «دار الخلافة»
- ✍نص الاعتقاد القادري
- ✍مقال عن النظم العسكرية





وصف مختصر لدار الخلافة



وقد أخذناه من كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي[١].

(١)

كانت دار الخلافة التي على شاطئ دجلة تحت نهر معلى قديما للحسن بن سهل ويسمى القصر الحسنى، فلما توفي صارت لبوران بنته فاستنزلها المعتضد بالله عنها[٢] فاستنظرته أياما[٣] في تفريغها وتسليمها، ثم رَمَّتها وعمرتها وجصصتها وبيضتها وفرشتها بأجل الفرش وأحسنه، وعلقت أصناف الستور على أبوابها وملأت خزائنها بكل ما يخدم الخلفاء به، ورتبت فيها من الخدم والجواري ما تدعو الحاجة إليه فلما فرغت من ذاك انتقلت وراسلته بالانتقال فانتقل المعتضد إلى الدار ووجد ما استكثره واستحسنه.

ثم استضاف المعتضد بالله إلى الدار مما جاورها كل ما وسعها به وكبرها وعمل عليها سورا جمعها به وحصنها.

وقام المكتفي بالله بعده ببناء التاج على دجلة وعمل وراءه من القباب والمجالس ما تناهى في توسعته وتعليته.

ووافى المقتدر بالله فزاد في ذلك وأوفى مما أنشأه واستحدثه.

وكان الميدان والثريا وكذا حير[٤] الوحوش متصلا بالدار.

---

(١) وقمنا بالتقسيم وحذف الأسانيد والاختصار أحيانا لغرض التوضيح والتيسير على القارئ المعاصر.

(٢) أي طلب منها أن يتملكه.

(٣) استنظرته أياما: طلبت مهلة لكي تفرغ من إعدادها.

(٤) الحير: المكان الواسع المرتفع المطمئن، وهذه كانت أشبه بحديقة للحيوان.

(٢)

في بعض أيام المقتدر بالله:

[الخدم] اشتملت الجريدة في هذا الوقت على أحد عشر ألف خادم خصي وكذا من صقلبى ورومى وأسود، وهذا جنس واحد ممن تضمنه الدار، فدع الآن [الحرس] الغلمان الحجرية وهم ألوف كثيرة، والحواشي من الفحول.

وكانت عدة كل نوبة من نوب الفراشين في دار المتوكل على الله أربعة آلاف فراش، قالا[١]: فذهب علينا أن نسأله كم نوبة كانوا!

وحدثني هلال بن المحسن قال: حدثني أبو نصر خواشاذة خازن عضد الدولة قال: طفت دار الخلافة عامرها وخرابها وحريمها وما يجاورها ويتاخمها فكان ذلك مثل مدينة شيراز!

(٣)

زيارة سفير الروم إلى دار الخلافة في عهد المقتدر بالله

ولقد ورد رسول لصاحب الروم في أيام المقتدر بالله (فكانت هذه رسوم اسقباله) :

أ- فُرِشت الدار بالفروش الجميلة وزينت بالآلات الجليلة .

ب- رُتِّب الحُجَّاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها.

جـ- وقف الجند صفين بالثياب الحسنة وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة وبين أيديهم الجنائب على مثل هذه الصورة وقد أظهروا العدد المكسية والأسلحة المختلفة فكانوا من أعلى باب الشماسية وإلى قريب من دار الخلافة وبعدهم الغلمان الحجرية والخدم الخواص الدارية والبرانية[٢] إلى حضرة الخليفة بالبزة[٣] الرايعة والسيوف والمناطق[١] المُحَلاّة.

---

(١) هذا قول الراوييْن للخبر.

(٢) الدارية والبرانية: أي الداخلية والخارجية.

(٣) البزة: الثوب.

(وأسواق الجانب الشرقي وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة النظارة وقد اكترى كل دكان وغرفة مشرفة بدراهم كثيرة وفي دجلة الشذآت والطيارات والزبازب والدلالات والسميريات[٢] بأفضل زينة وأحسن ترتيب وتعبية).

وسار الرسول ومن معه من المواكب إلى أن وصلوا إلى الدار..

ودخل الرسول فمر به على دار نصر القشوري الحاجب ورأى ضففا كثيرا ومنظرا عظيما فظن أنه الخليفة وتداخلته له هيبة وروعة حتى قيل له إنه الحاجب..

وحُمِل من بعد ذلك إلى الدار التي كانت برسم الوزير وفيها مجلس أبي الحسن علي بن محمد الفرات يومئذ فرأى أكثر مما رآه لنصر الحاجب ولم يشك في أنه الخليفة حتى قيل له هذا الوزير..

وأُجْلِس بين دجلة والبساتين في مجلس قد علقت ستوره واختيرت فروشه ونصبت فيه الدسوت[٣] وأحاط به الخدم بالأعمدة والسيوف..

ثم استدعى بعد أن طيف به في الدار إلى حضرة المقتدر بالله وقد جلس وأولاده من جانبيه فشاهد من الأمر ما هاله ثم انصرف إلى دار قد أعدت له..

ثم رَسَم (المقتدر) أن يطاف به (السفير) في الدار وليس فيها من العسكر أحد البتة وإنما فيها الخدم والحجاب والغلمان السودان، وكان عدد الخدم إذ ذاك سبعة آلاف خادم منهم أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود، وعدد الحجاب سبعمائة حاجب وعدد الغلمان السودان غير الخدم أربعة آلاف غلام قد جعلوا على سطوح الدار والعلالي..

وفُتِحَت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما يُفْعَل لخزائن العرائس وقد علقت السُّتُور، ونُظِم جوهر الخلافة في قلايات على درج غُشِيَت بالديباج الأسود[٤]..

---

(١) المناطق: الأحزمة.

(٢) كل هذه أنواع من المراكب الصغيرة والمتوسطة التي تسبح في نهر دجلة.

(٣) الدسوت: الكراسي الفاخرة المزخرفة.

(٤) أي وضعت جواهر في آنية على سلم فُرِش بالديباج الأسود.. فكانت الجواهر تتلألأ عليه!!

ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثر تعجبه منها وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم عليها أطيار مصوغة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده.

(٤)

كان عدد ما علق في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من السُّتُور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطرد والستور الكبار البضغائية والأرمنية والواسطية والبهنسية السواذج والمنقوشة والديبقية المطرزة ثمانية وثلاثين ألف ستر منها الستور الديباج المذهبة المقدم وصفها اثنا عشر ألفا وخمسمائة ستر.

وعدد البُسُط[1] والنخاخ[2] الجهرمية والدارابجردية والدورقية في الممرات والصحون التي وطئ عليها القواد ورسل صاحب الروم من حد باب العامة الجديد إلى حضرة المقتدر بالله سوى ما في المقاصير والمجالس من الأنماط الطبري والديبقي التي لحقها للنظر دون الدوس اثنان وعشرون ألف قطعة..

وأُدْخِل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة الأعظم إلى الدار المعروفة بخان الخيل وهي دار أكثرها أروقة بأساطين[3] رخام وكان فيها: من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهبا وفضة بغير أغشية ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال وكل فرس في يدي شاكري بالبزة الجميلة..

ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت إليها من الحير قطعان تقرب من الناس وتتشممهم وتأكل من أيديهم..

ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي على كل فيل ثمانية نفر من

(١) البُسُط: جمع بساط، وهو ما يُفرش على الأرض، بعكس الستور التي توضع على الحوائط.

(٢) النخاخ: جمع النُّخ، وهو البساط الطويل، طوله أكثر من عرضه. وكل ما يرد بعدها من ألفاظ هي أنواعه المختلفة من الخامات، وهي أحيانا منسوبة لبلدان التصنيع.

(٣) أساطين: جمع أسطوانة وهي العمود.

السُنَّد والزراقين[1] بالنار فهال الرسل أمرها..

ثم أُخْرِجوا إلى دار فيها مائة سَبْعٍ؛ خمسون يمنة وخمسون يسرة، كل سبع منها في يد سباع وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد..

ثم أُخْرِجوا إلى الجوسق المحدث وهي دار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قلعي حواليها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المَجْلُوَّة طول البركة ثلاثون ذراعا في عشرين ذراعا فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة مزينة بالديبقي المطرز وأغشيتها ديبقي مذهب، وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيه نخل وأن عدده أربعمائة نخلة وطول كل واحدة خمسة أذرع قد لبس جميعها ساجا منقوشا من أصلها إلى حد الجمارة بحلق من شبه مذهبة وجميع النخل حامل بغرائب البسر الذي أكثره خلال لم يتطير وفي جوانب البستان أترج[2] حامل ودستلنبوا[3] ومقفع[4] وغير ذلك..

ثم أخرجوا من هذه الدار إلى دار الشجرة وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة فيها ماء صاف وللشجرة ثمانية عشر غصنا، لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب وهي تتمايل في أوقات ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر..

وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا قد ألبسوا الديباج وغيره وفي أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد في الناورد خببا[5] وتقريبا، فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد وفي الجانب الأيسر مثل ذلك..

---

(١) السُنَّد والزراقين: عمال الرعاية للحيوانات.

(٢) الأترج: هو نبات الريحان.

(٣) لم أهتد لمعنى هذه اللفظة في كتب المعاجم، وهو اسم نبات فيما هو واضح من سياق العبارة.

(٤) مقفع: أي عريض أو مُبَطَّح، وعند ابن منظور (لسان العرب ٨/ ٢٨٨) وصف لنبات اسمه القفعاء: حشيشةٌ خَوّارةٌ من نبات الربيع خَشْناء الورَقِ لها نَور أحمر مثل شَرَرِ النار.

(٥) المعنى هو خط من السيور التي تدور بتماثيل الفرسان، فيبدو كأنها تجري، ولم أهتد للفظ «ناورد» فيما بين يدي من معاجم.

ثم أدخلوا إلى القصر المعروف بالفردوس فكان فيه من الفرش والآلات ما لا يحصى ولا يحصر كثرة، وفي دهاليز الفردوس عشرة آلاف جوشن مذهبة معلقة ثم أخرجوا منه إلى ممر طوله ثلاثمائة ذراع قد علق من جانبيه نحو من عشرة آلاف درقة وخوذة وبيضة ودرع وزردية وجعبة محلاة وقِسِيّ..

وقد أقيم نحو ألفي خادم بيضا وسودا صفين يمنة ويسرة، ثم أخرجوا بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصرا إلى الصحن التسعيني وفيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل والبزة الحسنة والهيئة الرائعة وفي أيديهم الشروخ والطبرزينات والأعمدة..

ثم مروا بمصاف من علية السواد من خلفاء الحجاب الجند والرجالة وأصاغر القواد ودخلوا دار السلام وكانت عدة كثير من الخدم والصقالبة في سائر القصور يسقون الناس الماء المبرد بالثلج والأشربة والفقاع، ومنهم من كان يطوف مع الرسل فلطول المشي بهم جلسوا واستراحوا في سبعة مواضع واستسقوا الماء فسُقوا..

ووصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس في التاج مما يلي دجلة بعد أن لبس الثياب الديبقية المطرزة بالذهب على سرير أبنوس قد فرش بالديبقي المطرز بالذهب وعلى رأسه الطويلة ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار وبين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمنة واثنان يسرة ومثل الرسول وترجمانه بين يدي المقتدر بالله[1].

(٥)

إضافات مكملة للوصف

قال ياقوت الحموي:

«حريم دار الخلافة ببغداد:

ويكون بمقدار ثلث بغداد وهو في وسطها ودور العامة محيطة به وله سور يتحيز به

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١/ ٩٩ وما بعدها.

ابتداؤه من دجلة وانتهاؤه إلى دجلة كهيئة نصف دائرة.

وله عدة أبواب:

- وأولها من جهة الغرب باب الغربة وهو قرب دجلة جدا.
- ثم باب سوق التمر وهو باب شاهق البناء.
- ثم باب البدرية.
- ثم باب النوبي.
- وعنده باب العتبة التي تقبلها الرسل والملوك إذا قدموا بغداد.
- ثم باب العامة وهو باب عمورية أيضا.
- ثم يمتد قرابة ميل ليس فيه باب إلا باب بستان قرب المنظرة التي تنحر تحتها الضحايا.
- ثم باب المراتب بينه وبين دجلة نحو غلوتي سهم في شرقي الحريم

وجميع ما يشتمل عليه هذا السور من دور العامة ومحالها وجامع القصر وهو الذي تقام فيه الجمعة ببغداد يسمى الحريم..

وبين هذا الحريم المشتمل على منازل الرعية وخاص دار الخلافة الذي لا يشركه فيه أحد سور آخر يشتمل على دور الخلافة وبساتين ومنازل نحو مدينة كبيرة»(١).

❊ ❊ ❊

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٢٥٠، ٢٥١.



نص الاعتقاد القادري

«يجب على الإنسان أن يعلم أن الله عز وجل[1]:

١- وحده لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ولم يكن له شريك في الملك.

٢- وهو أول لم يزل وآخر لا يزال.

٣- قادر على كل شيء غير عاجز عن شيء إذا أراد شيئا قال له كن فيكون.

٤- غنى غير محتاج إلى شيء لا اله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم يُطْعِم ولا يُطْعَم.

٥- لا يستوحش من وحده ولا يأنس بشيء وهو الغنى عن كل شيء.

٦- لا تخلفه الدهور والأزمان وكيف تغيره الدهور والأزمان وهو خالق الدهور والأزمان والليل والنهار والضوء والظلمة والسموات والأرض وما فيها من أنواع الخلق والبر والبحر وما فيهما وكل شيء حي أو موات أو جماد.

٧- كان ربنا وحده لا شيء معه ولا مكان يحويه فخلق كل شيء بقدرته وخلق العرش لا لحاجته إليه، فاستوى عليه كيف شاء وأراد لا استقرار راحة كما يستريح الخلق.

٨- وهو مدبر السموات والأرضين ومدبر ما فيهما ومن في البر والبحر ولا مدبر غيره ولا حافظ سواه يرزقهم ويمرضهم ويعافيهم ويميتهم ويحييهم والخلق كلهم عاجزون، الملائكة والنبيون والمرسلون والخلق كلهم أجمعون.

٩- وهو القادر بقدرة والعالم بعلم أزلي غير مستفاد، وهو السميع بسمع والبصير ببصر يعرف صفتهما من نفسه لا يبلغ كنههما أحد من خلقه.

---

(١) قمنا بالتقسيم والترقيم لغرض التيسير والتوضيح.

١٠- متكلم بكلام لا بآلة مخلوقة كآلة المخلوقين.

١١- لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به نبيه ﷺ وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ فهي صفة حقيقية لا مجازية.

١٢- ويُعْلَم أن كلام الله تعالى غير مخلوق تكلم به تكليما وأنزله على رسوله ﷺ على لسان جبريل بعد ما سمعه جبريل منه، فتلاه جبريل على محمد ﷺ وتلاه محمد على أصحابه وتلاه أصحابه على الأمة، ولم يَصِر بتلاوة المخلوقين مخلوقا لأنه ذلك الكلام بعينه الذي تكلم الله به، فهو غير مخلوق فبكل حال متلوا ومحفوظا ومكتوبا ومسموعا. ومن قال إنه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر حلال الدم بعد الاستتابة منه.

١٣- ويعلم أن الإيمان قول وعمل ونية وقول باللسان وعمل بالأركان والجوارح وتصديق به. يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو ذو أجزاء وشعب فأرفع أجزائه لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

١٤- والإنسان لا يدري كيف هو مكتوب عند الله ولا بماذا يختم له فلذلك يقول مؤمن إن شاء الله وأرجو أن أكون مؤمنا ولا يضره الاستثناء والرجاء ولا يكون بهما شاكا ولا مرتابا لأنه يريد بذلك ما هو مغيب عنه عن أمر آخرته وخاتمته.

١٥- وكل شيء يتقرب به إلى الله تعالى ويعمل لخالص وجهه من أنواع الطاعات فرائضه وسننه وفضائله، فهو كله من الإيمان منسوب إليه ولا يكون للإيمان نهاية أبدا لأنه لا نهاية للفضائل ولا للمتبوع في الفرائض أبدا.

١٦- ويجب أن يحب الصحابة أصحاب النبي ﷺ كلهم ونعلم أنهم خير الخلق بعد رسول الله ﷺ.

١٧- وأن خيرهم كلهم وأفضلهم بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ويشهد للعشرة بالجنة ويترحم على أزواج رسول الله ﷺ.

١٨- ومن سب سيدتنا عائشة رضي الله عنها فلا حظ له في الإسلام.

١٩- ولا يقول في معاوية ﷺ إلا خيرا ولا يدخل في شيء شجر بينهم ويترحم على جماعتهم، قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ وقال فيهم ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾.

٢٠- ولا يكفر بترك شيء من الفرائض غير الصلاة المكتوبة وحدها فإنه من تركها من غير عذر وهو صحيح فارغ حتى يخرج وقت الأخرى فهو كافر وإن لم يجحدها لقوله ﷺ: «**بين العبد والكفر ترك الصلاة فمن تركها فقد كفر**» ولا يزال كافرا حتى يندم ويعيدها، فإن مات قبل أن يندم ويعيد أو يضمر أن يعيد لم يُصَلَّ عليه وحشر مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف.

٢١- وسائر الأعمال لا يكفر بتركها وإن كان يفسق حتى يجحدها.

هذا قول أهل السنة والجماعة الذي من تمسك به كان على الحق المبين وعلى منهاج الدين والطريق المستقيم ورجا به النجاة من النار ودخول الجنة إن شاء الله تعالى.

وقال النبي ﷺ: «**الدين النصيحة**» قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين ولعامتهم**»، وقال عليه السلام: «**أيما عبد جاءته موعظة من الله تعالى في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه فإن قبلها يشكر وإلا كانت حجة عليه من الله ليزداد بها إثما ويزداد بها من الله سخطا**».

جعلنا الله لآلائه من الشاكرين ولنعمائه ذاكرين وبالسنة معتصمين، وغفر لنا ولجميع المسلمين[١].

* * *

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٢٨٠ وما بعدها.
ولمزيد من التفصيل والإفادة بشأن الاعتقاد القادري، يُنظر: د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف: الاعتقاد القادري دراسة وتعليق، وهو بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى، العدد (٣٩)، ذو الحجة ١٤٢٧هـ.



عن النظم العسكرية

كتبه محمد عادل[1]:

شكل الدولة الحديثة القائم في كثير من دول العالم اليوم قائم على عدة أفكار أو مبادئ ثابتة يعتبرها الكل من المسلّمات، من ضمن هذه المبادئ على سبيل المثال مبدأ مسئولية الدولة عن توفير احتياجات الناس، إن انقطعت المياه أو الكهرباء فإن الناس تلوم الحكومة، إن لم تتوافر الخدمة الطبية يلوم الناس الحكومة... إلخ. هذا مبدأ غير موجود مثلًا في المجتمعات القبلية حيث لا يوجد هيئة بعينها مسئولة عن توفير احتياجات الناس.

من ضمن المبادئ التي جاءت بها الدولة الحديثة فكرة (مركزية العنف)، بمعنى أن هناك هيئات معينة من حقها أن تملك وتستخدم السلاح، هذه الهيئات هي الشرطة والجيش، هذا العنف يفترض أن يوجه إلى أعداء الدولة أو الخارجين على القانون.

معنى (مركزية العنف) أنه ليس من حق المواطنين حيازة السلاح، وخصوصًا الأسلحة الثقيلة مثل الدبابات والطائرات الحربية، هذه الأشياء تصير حكرًا على فئة معينة فقط هي الهيئات العسكرية، وهي تجمع لعدد كبير من الأفراد المنظمين الذين يصير من حقهم التدرب على استخدام السلاح والقتال.

يقول محمد حسنين هيكل: إنه عند النظر إلى الثورات في الدول الحديثة، فأول شيء تفكر فيه هو الجيش والدور الذي قام به، لأنه عادة ما يكون الجيش هو الذي قام بالثورة (أو الانقلاب) أو هو الذي أجهضها لأنه أكبر قوة في الدولة، وينفرد بحيازة السلاح والمعرفة بكيفية استخدامه والتنظيم الذي يسمح له باستخدام هذه القوة.

على الرغم من أن الفكرة قد تبدو منطقية للكثيرين ولها الكثير من المميزات إلا أن هذا

---

(١) المصدر: موقع رابطة النهضة والإصلاح المصرية http://www.nahdaislah.com

معناه وجود فئة من الناس تنفرد دونًا عن باقي المجتمع بقوة غير مسبوقة، السؤال هنا هو: ما الذي يمنع هذه الفئة أو بعض أفرادها من استخدام هذه القوة غير المتوافرة لغيرهم في خدمة مصالحهم وأغراضهم الشخصية؟

ماذا لو رفضوا استخدام القوة لصالح الدولة وحولوها لخدمتهم هم؟

هذه النقطة هي أحد الهواجس لدى السياسيين، ولهذا توصف النظم العسكرية في كتب السياسة بأنها (نظم غير آمنة Insecure Systems). لو عرفنا أن النظم الآمنة تُعرف على أنها النظم التي ليس لديها ما تخاف منه، لأمكننا أن نفهم سبب وصف النظم العسكرية بأنها غير آمنة.

النظم العسكرية تعاني باستمرار من الخوف من أن يحاول بعض أعضائها أو كلهم استخدام القوة لتحقيق أغراض أخرى غير التي يريدها السياسيون أو تريدها الدولة.

في النظم العسكرية الحديثة هناك عدة مبادئ وأساليب تم وضعها وتطبيقها لمنع هذا السيناريو من أن يحدث، وسنتعرض في هذا المقال لهذه الأساليب ونحاول أن نحللها معًا.

١) إلغاء القدرة على التفكير والنقد:

في أحد اللقاءات بين هنري كيسينجر وألكسندر هايج، رئيس أركان الجيش الأمريكي، قال هنري كيسينجر: إن العسكريين مجرد حيوانات غبية تستخدم في السياسة الخارجية كعساكر الشطرنج Military men are just dumb stupid animals to be used as pawns in foreign policy. كيسينجر كان مستشار الأمن القومي الأمريكي ثم وزير خارجية أمريكا، ولكنه قبلها كان يحمل دكتوراه في العلوم السياسية من جامعة هارفارد وكان له أدوار أكاديمية في تدريس العلوم السياسية في الجامعة.

ما قاله هنري كيسينجر ليس رأيًا شخصيًا بل يحمل قدرًا من العلم، وانعكاسًا للشخصية المناسبة للنظم العسكرية طبقًا للنظم السياسية الحديثة، فقط هو مختلط بلا مبالاة هنري كيسينجر بمشاعر الآخرين وعدم اهتمامه بتجميل آرائه.

فلنحاول أن نتخيل أن الجيش الأمريكي في عهد كيسينجر كان يضم أشخاصا مفكرين ذوي توجهات أخلاقية، هل كان الجيش وقتها سينفذ سياسة كيسينجر في فيتنام؟ لاحظ أن

بعض الناس رفضوا التجنيد الإجباري في الجيش الأمريكي وتعرضوا للعقوبات لرفضهم أن يشاركوا في الحرب على فيتنام.

أحد أشهر هؤلاء كان محمد علي كلاي الملاكم المعروف، الذي ساهمت مبادئه الدينية في تكوين هذا الرأي لديه، ولكن لم يكن هذا رأي قادة الجيش الأمريكي وضباطه. الجيش الأمريكي وضباطه كانوا بالضبط كما وصفهم كيسينجر، عساكر شطرنج في سياسته الخارجية، ومن يفترض فيه هذا الدور لابد أن يكون محدود الذكاء والتفكير.

النظم العسكرية الحديثة تأخذ شابًا في فترة المراهقة، وهي فترة مهمة في تكون الآراء والأفكار، وتعزله عن الحياة فلا يسمع الأخبار اليومية، لا يحتك بأسرته، لا يسمع سوى تعليمات من نوعية «صفا وانتباه» ومحاضرات عن طاعة القائد، وتركيز في التدريبات على جوانب القوة الجسدية، ومع إهمال تنمية العقل، بل إن العوامل الجسدية عند انتقاء العسكريين هي الأساس، وليست العوامل العقلية والشخصية.

في تحليله لانسياق المواطن الأمريكي وراء الإعلام بدون أدنى تفكير، قال عبد الوهاب المسيري: إن السبب هو أن الأمريكي يترك البيت في فترة المراهقة فلا تصير لديه مرجعية يعرف بها الصواب من الخطأ. هو يخرج للمجتمع فيرى الكثير من الأشياء والأفكار دون أن تكون لديه أسرة تفلتر ما يراه لتخبره بالصواب والخطأ. في الأسرة التفرقة بين الصواب والخطأ لا يكون بشكل مباشر كالمحاضرات، بل فقط بالاحتكاك بين المراهق وأسرته، الحديث حول مائدة الغداء عما حدث في الكلية اليوم، مناقشة الأحداث السياسية مع الأب... إلخ. كل هذه وسائل تساهم في فلترة ما يراه المراهق وتساهم في تكون آرائه ومعرفة الصواب من الخطأ.

ولكن حين تنعدم الأسرة ويخرج المرء للمجتمع، تصير مرجعيته هي الإعلام. الإعلام يخبره بالصواب والخطأ، ونفسيًا يتعلق المرء بالإعلام حتى فيما بعد مرحلة المراهقة ويصير الإعلام بالنسبة له مصدر مرجعية لا ينتقد ولا يفترض فيه الخطأ أو التضليل.

نفس الشيء في رأيي ينطبق على التربية العسكرية. عزل الإنسان عن المجتمع ككل، عن أسرته، عن أصدقائه، عن الأخبار اليومية، عن وسائل الاتصال المختلفة، كل هذه عوامل تجعله يتلقى ما يُلقى إليه بدون تفكير، وما يلقى إليه يكون عادة التعليمات العسكرية التي

تقدس القائد وتلغي التفكير الفردي وبالتدريج تصير هذه شخصيته إلى الأبد.

العسكري الذي يفكر، والذي يمتلك مرجعية أخلاقية راسخة عادة ما يكون مشكلة للنظام السياسي، لأن السياسة في الغالب تخلو من الأخلاق بدرجة كبيرة.

ربما أشهر مثال للعسكريين المفكرين والأزمة التي يمكن أن يشكلوها هم العسكريين النازيون.

في ألمانيا كان من عادة الأسر الأرستقراطية إلحاق أبنائها كضباط بالجيش، بعد أن يمروا بتربية أخلاقية وثقافية وعقلية جيدة، وكان الالتحاق بالجيش مصدر فخر لمثل هذه الأسر. ربما لهذا تنفرد العسكرية النازية بأكبر كم من العباقرة العسكريين الذين اجتمعوا لجيش واحد في التاريخ، عباقرة من أمثال باولوس، روميل، مانشتاين، العباقرة الذي وضعوا خطط اكتسحت أوروبا في أيام، والذين لولا عدم سماع هتلر لهم في المراحل المتأخرة من الحرب لجعلوا الصليب المعقوف يرفرف على العالم كله.

المشكلة أن هؤلاء العباقرة لم يتقبلوا ما يقوم به هتلر من قمع وإبادة وديكتاتورية، فقاموا بمحاولة اغتياله الشهيرة باسم (مؤامرة الجنرالات). في هذه المؤامرة قام أحد الضباط الذين يحضرون اجتماعات هتلر العسكرية، بوضع حقيبة بها قنبلة موقوتة تحت منضدة الاجتماعات ثم غادر الاجتماع بحجة أنه ينتظر اتصالًا من الجبهة. لكن قام أحد الضباط في الاجتماع بتحريك الحقيبة ونقلها خلف عمود من الرخام، وحين انفجرت القنبلة تلقى هذا العمود الانفجار، فأصيب هتلر لكنه لم يمت.

الضابط الذي وضع القنبلة اسمه كلاوس فون ستافنبرج، كان أرستقراطيًا درس الفلسفة والتاريخ واللغة اللاتينية في صغره، كما كان كاثوليكيًا متدينًا. في صغره اقتنع بكتابات أديب ألماني هو (جايورجا)، الذي كان يدعو إلى دولة ألمانية قائمة على المثل والقيم الأخلاقية، تقود العالم بهذه القيم والأخلاقيات. كل هذا دفع البعض إلى وصفه بأنه (لم يكن نموذجا للعسكري التقليدي). باقي الأشخاص الذين دبروا المؤامرة كانوا على نفس الدرجة من الرقي الفكري والأخلاقي، بل إن بعضهم كانوا من الدارسين في جامعة كامبريدج!

نقطة أخرى مهمة هي أن محاولة الاغتيال تمت عام ١٩٤٤، بعد أن بدأ الاكتساح السوفيتي من الشرق بعد معركة ستالينجراد وبعد أن قام الحلفاء بالإنزال الشهير في

نورماندي في فرنسا. وقتها كانت الحرب قد انتهت بالنسبة لألمانيا وصار الموضوع موضوع وقت قبل سقوط ألمانيا، فما الذي يدفع الضباط إلى المخاطرة بحياتهم لقتل هتلر؟ حين سأل أحد الضباط الصغار هيننج فون تريسكو، قائد الأركان على الجبهة الشرقية التي تحارب السوفيت وأحد الجنرالات الذين دبروا المؤامرة، عما إذا كان الأمر يستحق المضي قدمًا في محاولة الاغتيال، والتي إن فشلت ستتسبب في الإطاحة بأعناقهم جميعًا (وهو ما حدث بالفعل)، أجاب بأن ستة عشر ألف شخص يقتلون يوميًا. هؤلاء لا يموتون في الحرب، بل يقتلهم النازيون في المعتقلات ومعسكرات الإبادة الجماعية. بالتالي كل يوم يمكن اختصاره من زمن الحرب جدير باستغلاله. لم يكن هذا رأي فون تريسكو وحده، كل المتآمرين كانوا أشخاصا يؤمنون بالمثل العليا، وكانوا يرون أنهم إن لم يتحركوا فلن يستطيعوا العيش ومواجهة أنفسهم وضمائرهم.

محاولة اغتيال هتلر ومن شاركوا فيها نموذج صارخ على الأزمة التي يمكن أن يشكلها العسكري المثقف، ذو التوجهات الأخلاقية في النظم السياسية الفاسدة. بعكس المثقفين التقليديين الذين لا يملكون إلا الكتابة والحديث، هؤلاء يمتلكون السلاح والتنظيم والقدرة على الفعل بأقصى قوة ممكنة.

من هنا يمكننا أن نفهم أهمية أن تكون ثقافة العسكريين وقدرتهم على التفكير والنقد ومرجعيتهم الأخلاقية بسيطة ومحدودة، ويمكننا أن نفهم لماذا يتم منع التعليم الديني والفكري عمومًا في المؤسسات وهيئات التدريب العسكرية. عادة ما يتوارث العسكريون هذه التقاليد دون أن يفهموا السبب وراءها، ولكن علماء السياسة وواضعيها من أمثال هنري كيسينجر يعرفون السبب ويهمهم أن يحافظوا على هذا الوضع كما هو.

٢) تقديس القادة:

عادة ما توصف النظم العسكرية بأنها نظم تقدس القائد Authoritarian، بغض النظر عن كفاءة هذا القائد أو موهبته. ما دام هو قائد فهو شخص له مكانة خاصة بدون تساؤل عما منحه هذه المكانة.

حتى وسط قادة هتلر الذين ضربنا بهم المثل في الذكاء، كان من الصعب على الكثير منهم التمرد على هتلر بسبب قسم الولاء الذي يقسمونه في الجيش النازي، والذي يعرف باسم

قسم هتلر، والذي يقسمون فيه على الولاء غير المشروط لهتلر شخصيًا، وليس للدستور أو للدولة أو لأي مبادئ أو قيم.

حين عرض الجنرالات خطة اغتيال هتلر على روميل رفض أن يشارك فيها، ولكنه في نفس الوقت لم يرشد عنهم، وقال لهم إنه على استعداد للقيام بأي دور يفيد ألمانيا إن استطاعوا اغتيال هتلر. وقتها كان روميل قد اعتزل الحرب وتكونت لديه قناعة بأن ألمانيا تنهار وأن هتلر هو سبب انهيارها، لهذا لم يرفض فكرة اغتياله، ولكنه في نفس الوقت لم يستطع أن يتجاوز ما تربى عليه في جيش من الولاء للقائد أيا ما كان غباء هذا القائد أو سوء نواياه. حين فشلت المؤامرة وتم القبض على المتآمرين، عرف النازيون أن روميل كان على علم بالأمر ولم يبلغ عنه، وبالتالي خيره النازيون بين الانتحار وبين المحاكمة العلنية فانتحر بتناول السم.

نفس الأمر تقريبًا كان متكررًا مع مانشتاين Manstien، أحد العباقرة العسكريين النازيين والذي كان العقل المدبر وراء خطة احتلال فرنسا، واقتحام خط ماجينو. على الرغم من أنه كان مقتنعًا أن هتلر لا يصلح لقيادة الجيش وقيادة ألمانيا، وعلى الرغم من خلافاته الاستراتيجية الكثيرة معه، والتي أقاله هتلر بسببها من الجيش، فإنه رفض أن يشارك في مؤامرة الجنرالات ورفض أن يحاول اغتيال هتلر لأن تقديس القائد واحترامه الذي تربى عليه في الجيش وقف كحائل نفسي بين مشاركته في اغتياله حتى وإن اقتنع أنه يسير بالبلد والجيش إلى الهاوية.

٣) تقسيم القوة ونقلها بين أكثر من شخص أو جماعة:

الدولة الرومانية القديمة كانت أول المجتمعات التي قدمت تصورا للدولة الحديثة، بتنظيمها الإداري، نظمها الديمقراطية وجيشها. كان الخوف من انقلاب العسكريين إحدى النقاط الأساسية في الفكر السياسي الروماني وبالتالي انعكس على القوانين التي كانت سائدة في الدولة الرومانية.

أحد هذه القوانين كان ينص على أن قائد الجيش لا يتولى القيادة لأكثر من سنة، بعدها يترك الجيش مهما كانت قدراته العسكرية وكفاءته. وحتى في أثناء هذه السنة، كانت القيادة مقسمة بين شخصين، القرارات الاستراتيجية والخطط تكون باتفاقهما معًا وفي أيام المعارك يتولى كل منهما القيادة ليوم، وفي اليوم الذي يليه يتولى الآخر القيادة.

شاه إيران كان يتبع أسلوبًا مختلفًا، كان يجعل الاتصالات في يد أقلية من الشعب وهم البهائيون، فالسيطرة على الاتصالات لا تسمح للبهائيين بالانقلاب، لأن أدوات الاتصالات ليست أسلحة أو دبابات، وفي نفس الوقت لا يمكن لباقي فصائل الجيش التحرك في حركة شاملة إلا إن كانت لديهم نظم اتصالات تسمح بتنسيق تحركهم. كون الاتصالات في يد أقلية يجعل احتمال اجتماعهم على هدف واحد مع باقي فصائل الجيش (الذين كانوا من الشيعة) احتمالًا ضعيفًا.

من ضمن الأساليب المألوفة أيضًا حركات التنقلات الدورية في الجيوش، حيث يتم نقل العسكريين بين الوحدات العسكرية كل عدة سنوات، والتي تهدف لتفادي أن يظل مجموعة من الأشخاص معًا في مكان واحد مما يسمح بتكوين مراكز قوة داخل الجيوش.

٤) إلغاء علامات التميز الفردي:

كان يوليوس قيصر نموذجًا للعسكري الذي لمع نجمه أكثر من اللازم، وكان يوليوس قيصر قائدًا عسكريًا للجيش الروماني، حارب الغال وانتصر عليهم بعد أن كانوا مشكلة للدولة الرومانية. في حربه معهم انتصر قيصر على مليونين من الغاليين بربع مليون جندي فقط، أي أنهم كانوا يفوقونه عددًا بثمانية أضعاف. في هذه الحرب اخترع قيصر أسلوب حصار الحصار، حيث حاصره الغاليون فاكتشف ثغرة في حصارهم أرسل منها قوات تحاصر القوات التي تحاصره، وهي تقنية عسكرية لم يسبقه لها أحد. عبقرية قيصر العسكرية كانت ومازالت محل إعجاب ودراسة من الكثيرين، حتى إن نابليون بونابرت بعد مئات السنين على موت قيصر، كان يطلب من الرسامين أن يرسموه وعلي رأسه تاج من أغصان الشجر مثل الذي كان قيصر يرتديه، تشبها منه بقيصر وانبهارًا بقدراته العسكرية.

شهرة قيصر وثقة جنوده فيه وإعجابهم به هي التي شجعته بعد إنهاء حرب الغال على أن يطالب بالحكم، في دولة مر عليها خمسمائة عام لم يحكمها ملك أو رئيس وإنما يحكمها نظام ديمقراطي نواته الرئيسية مجلس شيوخ منتخب من الشعب، دولة كان يكفي أن يتهم فيها أحدهم بأنه يسعي لأن يكون ملكًا ليتم قتله بأعنف الطرق الممكنة. ولكن قيصر عاد من الحرب بجيشه ليقتحم روما ويقتحم مجلس الشيوخ ويعلن نفسه كأول إمبراطور في الدولة الرومانية، ويسقط خمسمائة عام من الديمقراطية التي كان الرومان يزهون بها، والتي كانت

أحد أسباب استعلائهم على باقي الشعوب.

عادة ما يخشى السياسيون أن يظهر في النظم العسكرية شخص متميز يصير نقطة إلهام لمن حوله ويقودهم لتحقيق ما يريده هو. لهذا لا تعترف النظم العسكرية بعلامات التميز الفردي، فتفرض زيًا موحدًا على الجميع، وتجعل مقياس الترقي أي مقياس ليس له علاقة بالعوامل الشخصية مثل الأقدمية.

فكرة الأقدمية تلغي الكفاءة، تلغي الاعتراف بأن هناك أشخاصا أقدر من غيرهم على القيادة وأن هناك أشخاصا أقدر من غيرهم على وضع الخطط الاستراتيجية، باختصار تلغي الاعتراف بأن هناك اختلافات بين الأشخاص وأن هناك أشخاصا أكثر تميزًا من غيرهم.

بالطبع لا يمكن إلغاء التميز الفردي وإهماله بصورة مطلقة، لأن هذا ضد الطبيعة الإنسانية وضد استمرار أي نظام أيا ما كان عمومًا، وبسبب هذا الصدام مع المنطق ومع الطبيعة البشرية وطبيعة تكوين الجماعات، يتم الأخذ بالتميزات الفردية فقط في المراتب العليا من النظم العسكرية، وحتى عندها، عادة ما يقوم السياسيون بعزل العسكريين الذين يلمع نجمهم بشكل يمثل احتمالًا لأن يقودوا النظام العسكري لغير ما يريده السياسيون.

٥) المبالغة في العقوبات:

تعرف النظم العسكرية بعقوباتها الصارمة والتي تهدف لفرض الطاعة ومنع أي شكل من أشكال التمرد والانشقاق. الأمر ليس جديدًا، بل الأمر يعود إلى جيوش الرومان قديمًا. على سبيل المثال حين يتمرد فيلق أو جماعة كبيرة العدد ويتم احتواء التمرد، يكون من الصعب قتل كل أفرادها لأنهم سيقللون من عدد الجيش بشكل ضخم، لهذا يتم تطبيق عقوبة تسمى بالإنجليزية Decimation ولا أعرف لها ترجمة عربية. في هذه العقوبة يقوم كل عشرة أشخاص من الجماعة التي قامت بالتمرد بمد أيديهم في كيس قماشي يحتوي على عشرة أحجار ويخرج كل منهم بحجر.

كل هذه الأحجار أبيض اللون ما عدا واحد فقط أسود. الجندي الذي يخرج بالحجر الأسود في يده يتم قتله ضربًا بالمطارق، حيث يتم تكسير عظامه حتى الموت! هذا ترهيب لكل من تسول له نفسه أن يخرج ولو قليلًا على الخط العام الذي يرسمه القادة.

خاتمة:

لم يأت نموذج الدولة الحديثة في الدول العربية والإسلامية ببرلمانه وحكومته وجيشه من فكر العرب أو المسلمين، بل هو مأخوذ من النموذج الغربي، ومثل أشياء كثيرة في حياتنا حاليًا أخذنا النموذج الغربي كله دون أن نفرق بين المفيد والضار ودون أن نفهم لماذا تم وضع النموذج بهذه الصورة دون غيرها.

في عهد المسلمين الأوائل كان الولاء للفكرة قبل أن يكون للقائد أو للدولة، الولاء للإسلام ومبادئه وليس للخليفة، لهذا لم يكن المسلمون يخشون انقلابات من الجيش وقادته، ولهذا كنا نرى الكفاءة كمقياس اختيار للقادة وليس الأقدمية. كان الاقتناع بالفكرة أساسًا للانخراط في الجيش، لهذا كان الكثير من الناس يتنقلون بين جيش علي ومعاوية، واعتزل بعض الناس الفريقين، ولم يحاول علي بن أبي طالب ﷺ أن يمنعهم، ولم يحاول أن يعاقب من يرغب في ترك جيشه، لأن أساس الانخراط في الجيوش وقتها كان الاقتناع بالفكرة وليس الولاء للأشخاص.

ولهذا كان من الطبيعي أن يطيع الجنود قادتهم أثناء المعارك، لأن القادة كانوا يستحقون القيادة، لأنه تم اختيارهم بناء على الكفاءة، ولأن الجنود والقادة متفقون على المبادئ العامة، والأهداف التي يعمل من أجلها الجيش.

من البدهي أن النظم العسكرية القديمة لا تصلح اليوم لاختلاف شكل الدولة، ونوعية الأسلحة وطبيعة المعارك... إلخ،ولكن هذا ليس معناه أن نأخذ ما جاء من الغرب وننقله بحذافيره دون أدنى تفكير.

علينا أن نفكر في نموذج للنظم العسكرية تأخذ أفضل ما في النظم العسكرية الحديثة والقديمة، نظم تتفق مع الأساسيات الإسلامية في الإدارة وفي الحياة عمومًا، مثل فكرة اختيار أصلح شخص لكل منصب بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى، وفكرة أن تنمية العامل الأخلاقي والعقلي هو أهم ما يمكن أن تقدمه لأي إنسان أيا ما كانت وظيفته وموقعه في الحياة، والأهم من هذا أن مثل هذا الإنسان هو من أهم الأشياء التي يمكن أن تقدمها للمجتمع.



محتويات الكتاب





❊ ❊ ❊